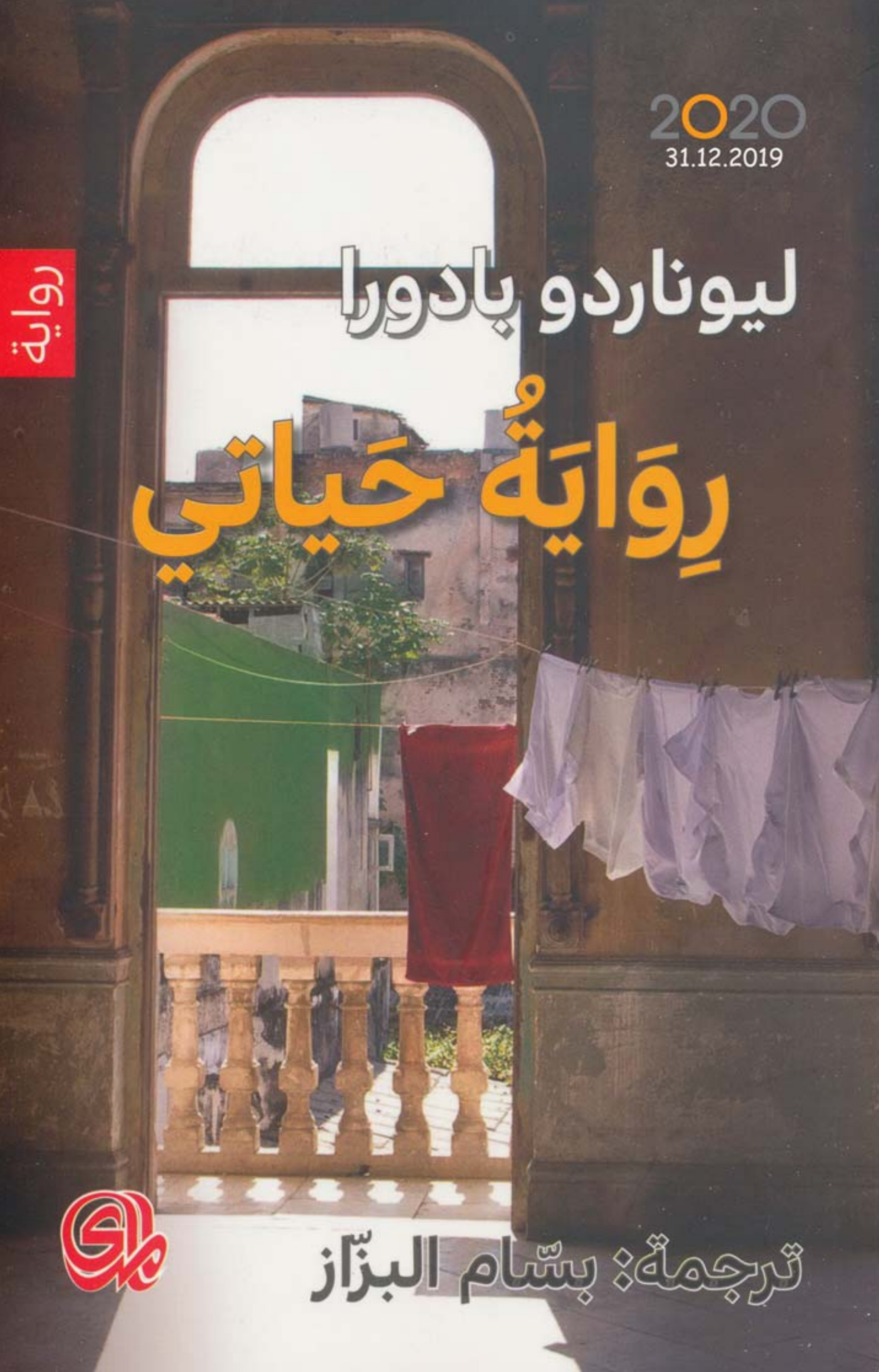

2020
31.12.2019

رواية

ليوناردو بادورا

رِوَايَةُ حَيَاتي

ترجمة: بسّام البزّاز

ليوناردو بادورا

رِوَايَةُ حَيَاتي

ترجمة: بسّام البزّاز

رِوَايَةُ حَياتي

روايـــة

Author: **Leonardo Padura**

اسم المؤلف: ليوناردو بادورا

Title: **La Novela de Mi Vida**

عنوان الكتاب: رِوَايَةُ حَيَاتي

Translated by: **Bassam Al-Bazzaz**

ترجمة: بسّام البزّاز

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2019**

الطبعة الأولى: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Leonardo Padura, 2002

Published by arrangement with Tusquets Editores, Barcelona, Spain

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

مقدمة المترجم

ارتأت «المدى» أن يكون مَن يترجم هذه الرواية هو نفسه من ترجم رواية (الرجل الذي كان يحب الكلاب) لأنّ مؤلفها هو ذاته مؤلف هذه: الكوبي ليوناردو پادورا.

مع ذلك لا أحسب أنّي ترجمتُ تلك كما ترجمتُ هذه.

صحيح أنّ الكاتبَ واحدٌ والمترجمَ نفسُه، لكنّ النصّ مختلف، والأجواء غيرها.

صحيح أنّ كلتا الروايتين تستندان على أحداث تاريخية وأسماء حقيقية، لكنّ جرعة الخيال في هذه أكثر من جرعتها في تلك، والكمّ التاريخي في رواية اغتيال تروتسكي أكثر منه في قصّة حياة خوسيه ماريا هيريديا. كوبا حاضرة في الروايتين، لكنّها في هذه الرواية هي الوطن وهي الاستقلال وهي الأدب، بينما هي في رواية (الرجل الذي كان يحب الكلاب) المحطة الأخيرة من رحلة طويلة بدأها قاتل تروتسكي من برشلونة وباريس ونيويورك والمكسيك وموسكو.

بطل (الرجل الذي كان يحبّ الكلاب) سياسي ثوري ماركسي، بينما بطل هذه شاعر رومانسي عُدّ أبا الرومانسيّة الكوبيّة والأمريكيّة. كان ماسونيّاً ذا ميول سياسية، لكنّها ميول موجهة إلى المناداة باستقلال بلده من ربقة الاستعمار الإسباني، شأنه شأن أبي الاستقلال الكوبي وأحد أعمدة الرومانسية في الأدب الأمريكي اللاتيني خوسيه مارتي.

في كلتا الروايتين سيرة موازية لسيرة البطل: لكنّ شخصيّة القاتل

(رامون ميركادير) في الأولى هي شخصية حقيقية، بينما شخصيّة الجامعي المنفي (فرناندو تيري) في الثانية هي شخصية من صنع المؤلف.

فالروايتان مختلفتان في كلّ شيء تقريباً إلّا في المؤلف والمترجم.

....

اخترتُ للرواية في البداية عنواناً سينمائيّاً: (رواية العمر). لكنّي سرعان ما رأيتُ أنّ الكاتب ما انفك يتحدث عن «رواية حياته». ولا شكّ أنّ «رواية العمر» أقربُ إلى المألوف من العناوين. ثمّ أردتُ أن أحافظ على وجود «حياتي» في العنوان فحوّلتُه إلى «قصّة حياتي»، وهو عنوان أقرب، في رأيي، إلى المألوف، حتى وصلتُ إلى فقرة يقول فيها ابن المؤلف: «أوراق أبي هي قصّة حياته، أو كما كان يسميها هو، رواية حياته، لكنّ تلك الرواية لها صلة كبيرة بك وأنا أريد أن تعرف ذلك...». فالمؤلف رأى أن يسميها «رواية حياتي»، وليس لنا أن نخالف رأيه.

....

قلتُ إنّ الرواية تسرد وقائع سيرتين متوازيتين يفصل بينهما قرن ونصف من الزمان: واحدة خيالية مبنيّة على شخصية حقيقية، والثانية خيالية بحتة.

- سيرة خوسيه ماريا هيريديا (1803 - 1839)، وهو شخصيّة كوبيّة حقيقية، تاريخية وأدبية، تصرّف المؤلف، كما اعترف هو نفسه في مقدمته، في سرد وقائع حياتها وتكييفها بما يخدم الخطاب الروائي: «مع أنّ هذا النصّ مبنيٌّ على أحداثٍ تاريخيّة يمكن التحقق منها، ومع أنّه مدعومٌ بنصوص مأخوذة من رسائل ووثائق شخصيّة، فإنّ علينا أن ننظر إلى قصّة حياة خوسيه ماريّا هيريديا، مرويّة على لسان بطلها، على أنّها قصّة من نسج الخيال».

- أمّا شخصيّة فرناندو تيري، فهي، كما قلنا، محض خيال، والرواية تضعها زمنيّاً في سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته وتسعينياته.

- ومع أنّ السيرتين مختلفتان كينونة وزماناً ووظيفة (الجامعي فرناندو يدرس الشاعر هيريديا ويبحث عن رواية حياته المفقودة) فقد عقد المؤلف بينهما شبهاً في العديد من ظروفهما: الملاحقة السياسيّة والنفي والصداقات المزروعة بالخيانة والعداوات والحنين إلى الوطن الذي نفيا منه.

....

والرواية نصّ في الحنين إلى الوطن والشوق إلى العطن، بعدما اضطرتْ كلتا الشخصيتين إلى ترك البلد والتنقّل بين المنافي: فقد اضطرّ خوسيه ماريّا هيريديا إلى الهرب بعد أن تآمر على المحتلّ الإسباني ونادى باستقلال بلده، واضطر فرناندو تيري إلى ترك كوبا بعد أن فُصل من عمله في الجامعة لأنّه «تكلّم» بما لا يعجب «النظام» ولا يرضيه. وهي لذلك تستعرض الكثير من مشاعر الإنسان المنفي المعذّب الذي يحلم بالعودة إلى وطنه وعناق أهله وأحبته وأصدقائه، وهم أحياناً على مرمى حجر وبصر منه.

....

وأخيراً فإنّ هذه الرواية توصف بأنّها أكثرُ روايات پادورا طموحاً وتعقيداً وأتقنها بناءً. قال الناقد الكوبي أبيليو استيبيث عنها إنّها: «رواية حياتنا كلّنا. فهي مبنيّة على ألم، علينا أن نتجاوزه، وتقدم لنا عرضاً لما كنّا عليه وما نحن عليه». وتنبأ لها أن تكون «علامة مضيئة في طريق الرواية الكوبية المعاصرة».

....

قراءة ممتعة ونافعة.

بسّام البزّاز

إلى أبي، معلّم ماسوني من الدرجة 33
وإلى كلّ ماسونيّ في كوبا

وإلى لوثيّا... للأسباب المعروفة

شكر

مع أنّ هذا النصّ مبنيٌّ على أحداثٍ تاريخيّة يمكن التحقق منها، ومع أنّه مدعومٌ بنصوص مأخوذة من رسائل ووثائق شخصيّة، فإنّ علينا أن ننظر إلى قصّة حياة خوسيه ماريّا هيريديا، مرويّة على لسان بطلها، على أنّها قصّة من نسج الخيال. أمّا حضور الشاعر والشخصيات التي أحاطت به وكانت قريبة منه - من (دومنغو دل مونته) و(باريلا) و(ساكو) و(تانكو)، إلى الحاكم العام (تاكون) والزعيم المكسيكي (سانتا آنا)، أو حبيبتيه (لولا خونكو) و(خاكوبا يانيث)- فهو من قبيل الخطاب الخيالي، حيث تموج الأحداث الحقيقية والخيالية ممتزجة ومتقاطعة بحريّة مطلقة. وبالتالي فإنّ كلّ ما يرويه هيريديا يتراوح بين أحداث وقعتْ بالفعل أو بالمنطق أو بالتخمين، وإن صدر ذلك كلّه ودائماً من منظور روائي ومعاصر.

في عمل كهذا، يحتاج المؤلّفُ إلى دعم أناس كثيرين، يمدّونه بالرأي ويساعدونه في البحث والقراءة ويزودونه بأسباب الثقة طوال عمله بحثاً وكتابة ومراجعة. لذلك أودّ أن أعبّر عن شكري أولاً إلى صديقتي (مارتا آرمنتيروس) على ما قدّمتْ لي من عون للعثور على المصادر والمعلومات. أشكر أيضاً (أمبروسيو فورنيت)، على أن قرأ الرواية في صورتها الأولى قراءة أضفت عليها وضوحاً كانت تحتاجه. شكري موصول أيضاً لابنَي مدينة (ماتانثاس) النشيطين: (راؤول رويث) و(أوربانو مارتينث كارمِناته)؛ وإلى (بلقيس إيرناندث) و(ليليانا تشيرينو)

لجولتهما في قصر (آلداما)؛ وإلى البروفسور (إدواردو تورّس كويباس)، الذي أعارني مخطوطة تاريخه غير المنشور عن الماسونيّة في كوبا. أقدم شكري أيضاً إلى (خوسيه لويس فرير) على تحليله التوضيحي حول بداية الثقافة الكوبية في عقدي 1820 و1830؛ وإلى (أليسيو ألبرتو)، على أن أهداني تاريخ (إيوخنيو فلوريت)؛ وإلى قرّائي المخلصين (آليكس فليتس) و(آرتورو أرانغو) و(فيفيان ليتشوغا) و(خوسيه أنطونيو ميتشيلينا) و(بياتريث دي مورا) و(آن ماري ميتايليه) و(آبيليو إستيبيث)، على ما كرّسوا من وقتهم وعنايتهم لتقريب هذه الرواية من الحالة المبتغاة. عليّ أن أخصّ زوجتي، (لوثيّا لوبيث كول)، وكعادتي، بالشكر الكثير على ما صبرتْ وعلى ما زودتني به من النصائح الأدبية وما وفّرتْ لي من أسباب الراحة اللازمة.

ليوناردو پادورا

مانتيّا. صيف عام 2001

القسم الأول

البَحْرُ ورِحْلاتُ العَوْدَة

لماذا لا أصحو من حُلمي؟
ليت شعري متى تنتهي رواية حياتي
حتّى يبدأ واقعُها؟
خ. م. هـ . 17 حزيران 1824

- صُبّ لي فنجاناً مضاعفاً من القهوة، أخي.

لطالما دوّر فرناندو تيري في رأسه، وعلى مدى ثمانية عشر عاماً، تلك الجُملة حتى فقدتْ كلّ قيمة لها في ذاكرته وعلى لسانه، وصارت خاوية مثل شعار مكتوب بلغة غير مفهومة. فقد عانى كثيراً ثورات الضمير الفجائيّة، على الرغم من النسيان الذي حاوله، بعد أن وجد فيه أفضل خياراته، وجاهد في أن يوجّه ذهنه للتفكير في ما تمنّى أن يشعر به لحظة أشعل سيجارة، وقد انتهى من شرب قهوته المضاعفة قدّام كباريه (لاس بيغاس)، واستعدّ لاجتياز شارع (إنفانتا) والنزول عبر الشارع (25)، في طريقه إلى لقاء خير ما في ماضيه وشرّه. كان فرناندو، في رحلات خياله الوهمية، قد لعب كلّ أوراق الحنين: من الحزن إلى الكراهية، ومن الفرح إلى اللامبالاة، ومن الحقد إلى الارتياح، من دون أن يضع في حسبانه احتمال أن يكون ذلك الحزن العدواني، الذي انغرس في روحه، محشوراً في كُمّه الخفيّ، مشفوعاً بسؤال: هل كان لا بُدّ من عودتكَ؟

في بداية منفاه، إبّان أشهُر الشكّ التي عاشها تحت خيمة خانقة في حدائق (الأورانج باول) في ميامي، معلّق بين أن يحصل على الإقامة في أمريكا أم لا، فكّر فرناندو في عودة قصيرة، عودة ضروريّة، تعينه على التعافي من جراحه النازفة التي نتجت عن خيانة مدمّرة، وربّما تعينه على علاج ما يشعر به من تشتت وضياع، خارج الزمن وفي فضاء آخر. ومع مرور السنين وصرامة القوانين التي لا تتغيّر والأوامر التي تُصعّبُ

أيّة عودة، حاول أن يقنع نفسه بأنّ النسيان ممكن، بل لقد بدا له العلاج الأنجع، وبدأ يشعر، شيئاً فشيئاً، بمرور النسيان المُريح عليه، وراحت لهفته إلى العودة تتراجع حتّى تحوّلت إلى أسى دفين، يتسلل في ليالٍ معينة، حين يصرّ ذهنه، وهو في وحدة غرفته في مدريد، على استحضار لحظة من لحظات سنواته الثلاثين التي عاشها في الجزيرة.[1]

لكنّ رسالة وصلته من آلبارو حملتْ إليه خبراً فاجأه وأثارَ بلابل فكره، ومن حينها ما عادتْ حاجته إلى العودة كابوساً عابراً فحسب، بل لقد وجد فرناندو نفسه مضطرّاً إلى فتح صندوق أخطر ذكرياته. وراح يقلّب أوراق أطروحته للدكتوراه، القديمة المهملة، حول شعر خوسيه ماريّا هيريديا وأخلاقياته، للمرة الأولى منذ خروجه من كوبا، بينما بدأ يرسم في ذهنه كلّ خطوة من الخطوات التي ستقوده إلى بيت آلبارو، ليواجه ذلك الدرَج المظلم دائماً والمتعب أبداً، وليسقط سقطة واحدة في دوّامة ماضيه. في رحلاته الوهميّة، اعتاد فرناندو تيري أن يغيّر ترتيب أفعاله وإيقاع أفكاره وأهدافها، لكنّ البداية كانت على الدوام أمام مشرب (لاس بيغاس)، حيث يتناول، جنباً إلى جنب مع السكارى وعمّال الإذاعة القريبة وسائق السيارة المستعجل والصعاليك الذين لا بدّ من حضورهم، القهوة الخفيفة الحلوة التي اعتادوا تقديمها في الكافيتريا القديمة التي اكتشف للتوّ، وبحرقة ألم شديدة، أنّها ما عادت موجودة إلّا في ذاكرته العنيدة وفي نص أدبي من نصوص ليالي هافانا: لقد اختفت كافيتريا (لاس بيغاس) ومشربها الخشبي الصقيل كما اختفت أشياء أخرى كثيرة من الحياة.

هرب فرناندو من خيبة الأمل غير المنتظرة تلك، هروب من دُفع دفعاً، وعند قدم البناية المتهالك، حيث كان يسكن صديقه، واقفاً بين صناديق القمامة الطافحة والجدران التي جرّحها ملحُ الرطوبة والكلابُ الحزانى الجرباء، أدرك أنّ الحربَ بين ذاكرته والواقع قد بدأتْ، وآثرَ أن

1- المقصود بـ «الجزيرة»، هنا، وعلى طول الرواية، هو كوبا.

يتابع طريقه صوبَ المرفأ قبل أن يصعد إلى بيت آلبارو، حيث ينتظره أكثر من فَقْد وغياب وحيث سيجد أحزاناً أشدّ إيلاماً.

تبيّن له، وقد شعر بشيء من الفرح، أنّ السورَ الطويل الذي يفصلُ سكّانَ هافانا عن البحر ما زال، في تلك الساعة من العصر، ومع شمس الصيف التي ما زالت مشعّة، خالياً، وإن شاهد في البُعد عدداً من الصيادين يلقون إلى الماء بشباك صيد يعلقون عليها آمالهم، بينما انطلق من الخليج مركبٌ شراعي سياحي مزيّن، قاصداً البحرَ المفتوح.

ثمانية عشر عاماً وهو يصارع تفاصيل تلك اللحظة، لينتهي مغموراً بذلك الإحساس المرّ بالضياع. ثمانية عشر عاماً وهو يراجع نفسه ويتساءل إن كان لعودته من معنى، لكنّه لا يجد الآن بُدّاً من أن يطالع مراراً رسالة آلبارو ويعاود قراءة الخبر الذي كتب بحروف كبيرة ليتغلّب على تردده ويطلب إجازة لمدة شهر للعودة إلى كوبا. [**فرناندو. فرناندو. فرناندو. وجدنا خيطاً موصلاً. أظنّ أنّ في إمكاننا أن نعثر على مكان أوراق هيريديا المفقودة**]. حكى له صديقه أنّ الدكتور مندوثا، أستاذهما القديم، الذي صار بعد تقاعده أمين مكتبة «المحفل الكبير»، أخرج عدة صناديق من الوثائق الماسونيّة المطمورة في أحد أقبية دار الوثائق الوطنية، وأنّه وجد بين الأوراق وثيقة قد تقطع أنفاسه: إنّه المحضر الذي سُجّل فيه تكريمُ محفل «أبناء كوبا» في (ماتانثاس) عام 1921 لخوسيه دي خيسوس هيريديا، الابن الأصغر والوصيّ الأخير للشاعر خوسيه ماريا هيريديا، والذي ورد فيه أنّ الماسوني القديم سلّم «المعلم الأكبر» ظرفاً مختوماً يضمّ وثيقة مهمّة كتبها والده. ظلّ الظرف، منذ ذلك الحين حتّى عام 1939، محفوظاً في ذلك المعبد، وريثِ ذاك الذي استقبل الشاعرَ ذا الأفكار الانفصالية عام 1822... ولكن، أيّة وثيقة مهمّة هذه؟ سأله آلبارو، وردّ عليه فرناندو بأنّها، بلا شك، الرواية المفقودة التي يقال إنّ هيريديا كتبها، والتي حاول هو العثور عليها طوال سنوات. وبعد أسبوعين، ضرب فرناندو بقراراته السابقة عرض الحائط، وتوجّه إلى

القنصليّة الكوبية ليطلب تأشيرة الدخول التي ستسمح له بعودة مؤقتة إلى وطنه.

لم ينتبه فيرناندو، وهو الغارق في بحر أفكاره، إلى اقتراب المركب الشراعي السياحي، إلى أن حمل له النسيم موسيقى الطبول والشخاشيخ التي كانت تعزف على سطحه. حين نظر إلى المركب رأى رجلاً متكئاً على الدرابزين، وبدا لاهياً عن بقيّة السيّاح. رفع المسافر فجأة نظره وركّزه في فرناندو، فكأنّه استغرب أن يرى شخصاً جالساً على السور في وحشة منتصف النهار الهافاني الساطعة. واصل فرناندو، ونظرة الرجل مركزة فيه، التطلّع إلى المركب، حتّى بلغتْ أضعف موجات مروره صخورَ الساحل لتموت عندها. أثار ذلك الرجل المجهول، بنظراته المتفحصة، انزعاجه، وأشعره بالألم الذي لا شكّ أنّ خوسيه ماريا هيريديا شعر به صبيحة السادس عشر من كانون الثاني من عام 1837، البارد بلا شك، حين شاهد، من على متن السفينة الشراعية التي أعادته إلى منفاه، بعد زيارته المؤلمة للجزيرة، الأمواج وهي تجدّ باحثة عن تلك الصخور، التي هي آخر منعرج من الأرض الكوبيّة التي لن يراها الشاعر ثانية.

وهل عليَّ أن أعود أنا أيضاً؟ سأل نفسه ثانية وهو يجتاز شارع المرفأ؛ أشعل سيجارة كان لها طعم العشب اليابس، ثمّ عاد أدراجه من الشارع (25)، الذي بدأه من الدرجات الضيقة التي تقود إلى بيت آلبارو. طرق على الباب الخشبي العتيق وبه من الخوف أكثر ممّا به من التهذيب، فكأنه لم يكن راغباً في طرقه. تسارعت دقات قلبه حين سمع وقع خطوات، وشعر بالباب يصرّ.

– وأخيراً، أخي – قال آلبارو وعانقه من دون تردد.

– ويحك، بارو – وضمّ فرناندو إلى صدره رائحة العرق والسجائر والكحول التي كانت تلفّ عظاماً ناتئة لرجل كان من سنوات مضت واحداً من أعزّ أصدقائه.

- كم أنا سعيد لرؤيتك... لكنّك في أتمّ حال، انظر، لقد صرتَ أبيض تقريباً.

ابتسم آلبارو لمزحته وابتسم فرناندو أيضاً، على الرغم من أنّه كان يرى ما فاق توقعاته سوءاً: فسنوات آلبارو ألماثان الخمسون، التي عاشها على أسوأ ما يكون نوماً وطعاماً، أتلفها الكحول الرخيص القاتل، بعد أن فعل بكبده ما فعل بوجهه: قناع بنفسجيّ تقطعه أخاديد قاسية وأوردة توشك عقدها على الانفجار.

- منذ الصباح وأنا أنتظرك - قال آلبارو وجذبه من ذراعه-. هيّا، ادخل.

بدت رطوبة الجدران المالحة المقشورة في كلّ مكان، وكذلك صورة الإهمال التي عرفها فرناندو منذ أكثر من ثلاثين عاماً، حين كان والدا آلبارو ما زالا حيين، وكانا هما من بادره بالصداقة. ربّما كان الشعور بالحرية، المتولد عن الفوضى الدائمة هناك، هو ما جعل مجموعة الأصدقاء، وكانوا آنذاك مبتدئين في الكتابة، يلتقون في تلك السطوح، لتنتهي لقاءاتهم، من بعدُ، في دردشات «السوكارّونِس»[2] الشهيرة.

- أعرفُ ما تتذكره الآن - ابتسم آلبارو وجلس على أحد الكراسي الحديدية في الشرفة.

هزّ فرناندو رأسه موافقاً وجلس على كرسي آخر.

- لا شيء يتغيّر هنا...

- عندي رون.

- لا شيء ولا أحد يتغيّر هنا - أضاف فرناندو.

- بل أكثر مما تظن. لكنّ هناك بعض حالات الوفاء.

غاب آلبارو دقيقة واحدة ثم عاد يحمل كأسين من الثلج وزجاجة

2- Los Socarrones ومعناها «الساخرون». سنستعمل الترجمة العربية للكلمة في القادم من المناسبات.

بلا علامة، مليئة بسائل عكر. صبّ كميّة كبيرة وقدّم لفرناندو واحدة من الكأسين.

- نخب من نشرب؟

- نخب الشعراء الموتى. نخبنا نحن الذين فارقنا الحياة - قال آلبارو مستخدماً تعبير «فارق الحياة» الذي طالما راق له. تناول الجرعة الأولى من دون أن يقرع الكأس بالكأس-. انظر إليَّ... ولا تنظر إلى إنريكه: ليس من السهل أن تدفن نفسك عشرين سنة تحت التراب. وهذه هي حال فيكتور المسكين... أمّا الآخرون فقد فارقوا الحياة أيضاً، وإن كانوا ما يزالون أحياء، بل إنّهم يتلقون التكريم تلو التكريم. أنتَ نفسك. أحياناً أفكّر فيك على أنّك ميّت.

- لا تزعجني، بارو.

- اسمع، اسمع - وعبّ جرعة كبيرة-. ها هي رسالتك. «لا تكتبْ لي إلّا في ثلاث حالات: إذا كانت أمّي تحتضر أو إذا كنتَ أنتَ تحتضر أو إذا عثرتَ على أوراق هيريديا»...

- أنتَ كنتَ تخدعني وترسل لي بكتبكَ.

- من دون إهداء، لكي أنفذ ما طلبتَ.

- فعلت خيراً أن أرسلتها لي - قال وجرّب الرون، الذي ترك في فمه طعم الكيروسين-. حصلتُ على إجازة لمدة شهر، ربّما قابلة للتمديد... هل تظنّها كافية؟

- ليست لديَّ أدنى فكرة... لكن البداية دائماً هي أفضل شيء، أليس كذلك؟... انظر، اليوم سيجتمع «الساخرون» للمرة الأولى منذ خمسة وعشرين عاماً. عندي شمعتان: واحدة من أجل إنريكه والأخرى من أجل فيكتور، الغائبين بعذر...

نهض فرناندو وسار حتّى الشرفة. على الرغم من أنّ البحر كان على بعد أقلّ من مئة متر، لم يكن ممكناً رؤية قطعة من انعكاسه الأزرق إلّا

من تلك الزاوية وإلّا بعد الانحناء فوق الدرابزين. في أوقات أخرى أكثر شاعريّة، كان ذلك العائق يجعله يتمنّى لو استطاع أن يهدّ جميع تلك الأبنية القبيحة التي أسيء ترتيبها.

- قلتُ لك إنّي لا أريد أن أرى أحداً... لا أريدُ أن أرى غيركَ وغير ميغيل أنخل الأسود...

- لا تزعجني، فرناندو، إلى متى ستظلّ هكذا؟

- بل لا تزعجني أنتَ، بارو - ردّ عليه والتفت-. هناك شخص يعرفني جيداً بلّغ عنّي. ومع أنّي قررتُ أن أنسى ذلك فأنا أفضّل ألّا أرى أحداً وأن أترك ذلك الموضوع على حاله.

- اتركه إذن على حاله، لكن لا تتخلَّ عن حياتك. فما أكثر ما ضايقوك!

- كثيراً... صبّ لي، هيّا.

***

تأخرتُ سنوات كثيرة قبل أن أكتشف أنّ سحر هافانا يكمنُ في رائحتها، ولكنّي الآن متأكد من ذلك. من يعرفُ هافانا يعلم أنّ لها نوراً خاصّاً، حادّاً وخافتاً في الوقت نفسه، وألواناً زاهية تميّزها من بين ألف مدينة من مدن العالم. لكنّ رائحتها وحدَها هي التي تمنحها تلك الروح المميّزة التي تُبقي عليها حيّة في الذاكرة. لا أريد أن أقول إنّ رائحة هافانا أطيبُ أو أسوأ، ولا إنّها طيبة أو نتنة، بل أقصدُ أنّها رائحة غير خالصة، هي مزيج محموم يضوعُ من مدينة مُبهرة تستبدّ بها الفوضى.

لقد راقت لي تلك الرائحة منذ وصولي إلى هافانا لأوّل مرّة وأنا في بداية وعيي. كنتُ في الرابعة عشرة تقريباً، وكنتُ أحسبُ نفسي بالغاً. استطعتُ حينها أن أدرك خصوصيّة تلك الرائحة، فقد كنتُ أعرف روائح نصف العالم الأمريكي: من نتانة مستنقعات (بنساكولا)[3] إلى رائحة

3- Pensacola. مدينة من مدن ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية.

الذرة والتراب الجاف في المكسيك، مروراً بروائح المدن الساحليّة والمدن المرتفعة في فنزويلا- وهي أراضي انبعاثات نقيّة-، ومروراً بأبخرة سانتو دومنغو الساخنة الدبقة أو بعطر قشريات (بيرا كروث) الطازجة. لكنّ هافانا تلقتني بخليط رائع من الروائح والعطور تنافست فيه نقانق غاليثيا الزكيّة الحادة مع شرائح لحم مونتفيديو المقدد؛ روث الحصان مع نسمة البحر؛ الأسود البلدي ورائحته الحامضيّة مع الأوانس البيضاوات (أو اللائي يتصنعن ذلك) المعطرات باللافندر الفرنسي؛ المياه الراكدة مع زيت المصابيح المحترق القوي؛ الأقمشة الجديدة الغالية الأوروبيّة مع الكلاب الجرباء، سادة الليل والمزابل؛ بول أبقار الحليب، التي تخبّ محرّكة أضرعها المنتفخة، مع العطور الزكيّة المنبعثة من المواخير، حيث تضوع أنفاس العرق والأعشاب، ممزوجة بتلك التي تنبعث من الأجساد السود أو الخلاسيّة[4] أو البيض أو السمر أو الصفر، لنساء قادرات على تلبية جميع رغبات الخيال الذكوري ومتطلباته... وتطفو في السماء روائح الياسمين والتبغ، والقطران والأجبان، الأسماك الطازجة والنبيذ المراق، لتمزج بروائح جميع الفواكه التي تجود بها الطبيعة المدارية على أسواق هافانا، معطرة بثمار الأناناس والمانجو والجوافة والبابايا والقشطة الشائكة وذلك الموز اللذيذ، المتعدد في أحجامه، المختلف في ألوانه...

أمّا الآن فلا أشمّ بالكاد إلّا هواءً خاوياً، وتخدعني رئتاي المتآكلتان إذا تعيدان لي إحساس الشباب الدافئ ذاك: فعطر هافانا المفقود ينبض في صدري بالشدة المؤلمة ذاتها التي جرت عليها فصول حياتي، حيث تمّ كلّ شيء بجرعات مفرطة: الشعر والسياسة والحب والخيانة والحزن والجحود والخوف والألم. كلّ ذلك حدث بفيض ووفرة، ليشكّل وجوداً عاصفاً لن يلبث أن ينطفئ. ولن يبقى، حينئذٍ، غير النسيان، وربّما الشعر،

4- الخلاسي mestizo في كوبا هو الشخص الهجين المولود من أب أبيضٍ وأم هنديّة وبالعكس.

مجرداً من اندفاع الأيام والسنين، بل غريباً عن تلك الدقيقة الساطعة التي تحوّل فيها إلى شعر مقترنٍ برجل.

أمّا مناسبة الحديث عن روائح هافانا وعطورها فلكي أضعَ البداية السعيدة لقصّتي في تلك المدينة، حيث أثارتني تلك الرائحة، حال وصولي، وشعرت، لسبب غامض أجهله، بأنّها مدينتي. ذكرتُ أنّني كنتُ في الرابعة عشرة حين وصلتُ إلى الجزيرة قادماً من فنزويلا، حيث أمضت العائلة السنوات الخمس الأخيرة وسط القلاقل الانفصاليّة والمذابح المروعة التي حدثت بين الأطراف المتصارعة. كنّا نفكر في إقامة قصيرة في هافانا، لأنّ وجهة رحلتنا كانت المكسيك، حيث كان أبي، وهو موظف ملكي دائم، متوجهاً ليتولّى منصب القضاء في الجنايات. كانت سنوات حياتي القليلة، حتى ذلك الحين، طوافاً وهيماناً دائمين، فكأنّ قدري هو ألّا أنتمي إلى أيّ مكان، وألّا أستقر في أيّ مكان، وأن أكون عابر سبيل أبدي. ومع أنّي ولدت في كوبا، في سانتياغو الدافئة، التي لا أذكر شيئاً عن روائحها، فأنا لم أقم في الجزيرة إلّا ثلاث سنوات، وهي سنوات طفولتي، لذلك لم أكتشف، إلّا في تلك اللحظة، البلد الذي ألقى فيه والداي بعصا تسيارهما، لسوء ظرف أو لحسن طالع، عقب متاهات كثيرة، لتبصر فيه عيناي النور في الحادي والثلاثين من كانون الأول من عام 1803، يوم القديس سلفستري.

لكنّ هافانا لم تفاجئني برائحتها فحسب، بل فاجأتني باكتشاف أدهشني: فالحياة فيها من الترف والفحش أنّك تحسب أنّ إعصاراً سيحلّ غداً. لكنّ حياتي، حياتي أنا على الأقل، لم تشهد، في الأشهر القليلة التي أمضيتها في المدينة، إعصاراً واحداً، بل شهدت أعاصير، أعاصير أخرجتها من طفولتها البريئة ووضعتها في السكّة المتعرّجة التي أجد نفسي الآن في نهايتها.

كانت أولى زيارات الترحيب التي تلقيناها، بعد أن استقرّ بنا الأمر، ومن ترتيب القدر ربّما، هي زيارة السيد ليوناردو، المولود، كأبي وأمّي

في (لا إسبانيولا)[5]، وزميل أبي القديم في جامعة سانتو دومنغو. كان السيد ليوناردو طويلاً وأنيقاً، وكان، في ذلك الوقت، واحداً من شخصيات هافانا النافذة، فقد كان يتولى منصب مستشار حكومة هافانا، تقديراً لجهوده السياسية في سانتو دومنغو وفنزويلا، حيث عاش، كما عشنا، عدة سنوات. لكنّ عمله البيروقراطي كان، بلا شك، ذا مردود مادي أكبر من ذاك الذي كان يتقاضاه أبي المسكين، الملتزم بالقانون وبكلّ ما هو قانوني في عالم يباع فيه كلّ شيء ويشترى في الخفاء.

في تلك المناسبة حضر السيد ليوناردو في صحبة زوجته وواحد من أولاده العديدين: صبي من سنّي اسمه دومنغو، له صوت ملائكي وعينا شيطان قصير النظر، حادتان. بعد أن استمتعنا بتناول مرطبات الجوافة الطرية، التي كانت والدتي تحسن عملها، وشربنا القهوة المرّة الثقيلة التي كان والدي يصرّ على إعدادها، حان الوقت لكي يتبادل الكبار عبارات التفاخر بأبنائهم، إلى أن وصلوا إلى الشعر. وكم كان غريباً أن يكتشف الجميع أنّنا كلينا مولعان بالشعر. لا أكذب إن قلتُ إنّنا، أنا ودومنغو، كنّا نتبادل نظرات فيها من الريبة والشك أكثر ممّا فيها الودّ والإعجاب، فقد كان كلّ منا يظنّ أنّه سيكون، بوعد من القدر، أعظم شعراء الأرض.

بعد الانتهاء من رشقات المديح والثناء الأبويّة، دعوتُ دومنغو ليصحبني إلى غرفتي، فذهبنا معاً مثلَ ديكين يتجهان إلى حلبة النزال. هناك قرأتُ له واحدة من أخريات قصائدي: أبيات بريئة كتبتُها إلى خوليا الجميلة التي ظلّت في كاراكاس غير شاعرة بوجودي ولا بحبّي اليائس بالطبع. وسرعان ما أخرج دومنغو من أحد جيوبه وريقات ليردّ عليَّ بقصيدة غزليّة جيدة القافية ظريفة، لكنّ فيها من الصنعة اللفظية ما يفوق ما فيها من الشعر.

بعد تلك المباراة الشعريّة، لم يبدُ ما ينبئ بحدوث شرارة من الصداقة

5- La Española جزيرة في البحر الكاريبي تضمّ ما يعرف الآن بجمهورية الدومنيكان وهاييتي. وكانت أولى مستعمرات الأوروبيين في العالم الجديد.

بيننا. وكما هو معروف، فإنّ من الصعوبة أن تنعقد صداقة طيبة بين شاعرين كبيرين... إلّا إذا أخذا، بأعوامهما الأربعة عشر، دروساً في الجنس على مومس واحدة.

***

كان النِّغرو[6] آخر الواصلين، وكان له، فكّر فرناندو، في أوقات أخرى أن يكون أوّلهم: فقد كان في منافسة دائمة يعيشها، ويبحث محموماً عن الكمال، بهوس واندفاع ينطلقان من رغبته وحاجته لتأكيد ذات مصممة على هزيمة الموروث والغبن الذي عاناه بنو لونه. لن ينسى فرناندو ذلك العصر، عند انصرافهم من المدرسة، حين دخل معه في ضربٍ ولكْم بعد أن فاز عليه في مسابقة اللغة الإسبانية لطلاب المرحلة السادسة: رأى ميغيل أنخل الأسود في الهزيمة إهانة شخصيّة، وتحدّى، ودموع العجز تملأ عينيه، فرناندو، باحثاً، ربّما، عن توظيف جميع أفعاله في حربه الدائمة من أجل بلوغ التفوّق... أمّا الآن، فقد اكتشف فرناندو في عينيه، وهو يراه داخلاً، نظرة الضال الملاحق التي لم يتصوّر يوماً أنّه سيراها في عيني أشدّ جماعة «الساخرين» تشدداً وأنفة.

- افتح له، أيها الفلاح. - طلب فرناندو من كونرادو، ربّما قاصداً متعمداً، بينما أشعل شمعتين حمراوين على روح فيكتور وإنريكه. لاحظ فرناندو أنّ ميغيل أنخل وكونرادو تصافحا بالبرود المتوقع: فقد كان أحدهما يوصف بأنّه معارض سياسي بينما صعد الآخر سلالم البيروقراطية والتقرب من السلطة حتى أصبح مدير شركة كوبية- إسبانية، تصدّر الكاكاو وتستورد المربيات.

- لو سمع أحدٌ بأنّي هنا مع ذاك المجنون، فلن أنعمَ بالراحة أبداً- قال كونرادو حين تأكد له حضور النِّغرو. مع ذلك فقد وافق على الحضور إلى ما أصرّ آلبارو على تسميته بـ «العشاء قبل الأخير للساخرين».

6- Negro تعني «الأسود». والمقصود به دائماً هو صديقه ميغيل أنخل.

تقرّب ميغيل أنخل، من دون أن يتفوّه بشيء، من فرناندو ليشدّ على ذراعه.

- ما أسعدني برؤيتك، صديقي.

- وأنتَ كيف حالك، نِغرو؟ - سأله فرناندو، وهو شبه مرعوب من النظر إلى وجهه في تلك المرآة: لقد سقط شعر ميغيل أنخل، وبدا نحيفاً ولكن بكرش، وعلا أسنانه لون القهوة والتبغ اللذين كان يدمنهما.

- أظنّني بخير - قال الآخر بعد تلكؤ، وكأنّ الأمر ليس مهمّاً، واقترب من توماس ومن أركاديو ليصافحهما، ثمّ أخرج من حزامه مسدساً وهميّاً وأطلق النار على آلبارو، الذي ردّ عليه بالمثل. ثمّ نفخ الاثنان في فوهة مسدسيهما وأعاداهما إلى موضعهما، فهكذا اعتادا تبادل التحية من ثلاثين عاماً.

جال فرناندو بنظره، وهو يشعر بالحزن، في أطياف ماضيه تلك: كونرادو، أركاديو، توماس، ميغيل أنخل، آلبارو... في ذلك السطح الخرب، الذي تنبعث منه رائحة البحر، التئم شمل أهمّ فصل من فصول حياته، أكثر ما يحبه منها وما يعذبه، فهو يعرف أنّ واحداً من الحاضرين، أو من الغائبين بعذر، كما سمّى آلبارو الفقيدين إنريكه وفيكتور، هو من اتهمه بعلمه بخطط إنريكه للهرب من البلد سراً.

وكانت تلك خطوته الأولى نحو المنفى. لم تكن فكرة العيش في مكان آخر لتخطر، حتى ذلك الحين، على بال فرناندو، ومع أنّه حلم مرّة، متأثراً بمطالعاته أيام شبابه، بالسفر لزيارة حواضر الشعر - نيويورك وايتهام ولوركا؛ باريس الرمزيين والسرياليين؛ بوينس آيرس بورخيس؛ أندلس ألبرتي؛ قشتالة (ماتشادو)-، فقد انتهى به الأمر عاشقاً لهافانا هيريديا وكاسال، هافانا أليسيو دييغو وليثاما وكاربنتيير[7]، هافانا المفعمة بالاستعارات والتجليات العميقة التي رحل إليها عبر أصعب قراءاته، وعبّ منها روائح وأنواراً وأحلاماً ومشاعر حبّ ضالّة.

7- أسماء مدن شهيرة ارتبطت بأسماء أدباء وفنانين زاروها أو عاشوا فيها، وأسماء حركات أدبية وفنيّة نشأت فيها.

كان فرناندو، أيّامَ إيمانه الشعريّ تلك، يرى في نفسه رجلاً سعيداً، ينبسط أمامه مستقبل وادع واعد. قبل عامين من ذلك، كان بحثه للتخرّج حول اختراع رموز الانتماء الكوبي وتمثيلاته شعريّاً في أعمال خوسيه ماريّا هيريديا قد كشف عن زوايا جديدة عن مفهوم الوطن في إبداع الشاعر، وأوصت لجنة المناقشة، بعد أن منحت البحث التقدير الأعلى، بثلاثة إجراءات استثنائية: أن ينشر العمل، وأن يجعل مرجعاً للطلبة وأن يعيّن فرناندو تيرّي مدرّساً في كليّة الآداب. وتقرر، في هذه الأثناء، أن يفتح له، حال إتمامه الشروط اللازمة، ملف بوصفه مرشحاً للحصول على الدكتوراه في علوم اللغة عن مشروع علمي يتمثل في إنجاز طبعة جديدة محققة من أشعار هيريديا، مشروحة ومزودة بملاحظات، من منظوره الجديد الذي استخدمه في بحث تخرجه.

لعلّ السنتين اللتين أمضاهما أستاذاً في الجامعة كانتا أفضل سنوات حياته. ففضلاً عن مادة الأدب الكوبي التي تولّى تدريسها، وفضلاً عن الوقت الذي توفر عليه وخصّصه إلى بحثه، فقد تمتّع بامتيازات بحبوحته المادية الجديدة ووظيفته في الحقل الذي قال إنّه يروق له تزامنيّاً وتعاقبيّاً، أفقيّاً وعموديّاً، وعبر جميع ألوان الطيف: إذ سدّد باندفاع الرياضيّ وقوته ما عليه لكلّ ذات طعم من نساء الكادر التدريسي، وجرّب ألذّ أطباق الطلبة مذاقاً. عاش كالأمير، مؤمناً بأنّ نجمه الساطع لن يخبو وبأنّه سيعود، حين استيقاظ أحاسيسه، لكتابة الشعر، كما فعل أيام كان طالباً.

لكنّ فرناندو تيرّي ما لبث أن اكتشف أنّ أقوى النجوم وأشدّها سطوعاً يمكن أن تنطفئ، بل قد تتبعثر في الفضاء الواسع. فقد ذهبت سكرتيرة الكليّة إلى قاعة الدرس لتبلغه بأن عليه مراجعة العمادة على جناح السرعة. خفّ فرناندو وبه فضول، ودخل في المكان الذي استدعي إليه، ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل رمقه بنظرة جادة قاسية وأمره:

- تفضل بالجلوس. علينا أن نتكلّم.

قدّم الرجل الخلاسيّ القوي، الذي كان يكبر فرناندو بسنوات، نفسه

على أنّه الرفيق رامون، الملازم في أمن الدولة والمسؤول الأمني عن كليّة الآداب في جامعة هافانا. أبلغه من دون مقدمات أنّ إنريكه آرياس اعترف في التحقيقات التي أجريتْ معه على أثر محاولته الخروج من البلد سرّاً بأنّ من بين الأشخاص الذين كانوا يعلمون بخطته فرناندو تيرّي آلباريث.

– وكما ترى حضرتك – واصل رجل الأمن كلامه–، فالأمر يتعلق بتهمة بالغة الخطورة، ولا سيّما حين يتصل الأمر بمسؤولية إدارية وأخلاقيّة لشخص يؤدي عملاً يمسّ مباشرة تكوين الأجيال الصاعدة وتأطيرها في كلية تحتل فيها الأيديولوجية مساحة كبيرة...

بعد أن استفاق فرناندو من ذهول الصدمة التي قطعت أنفاسه، احتجّ ونفى وضرب على المنضدة بقبضة يده وطلب مواجهة إنريكه. لكنّ مسؤول الأمن أبلغه بأنّ ذلك غيرُ ممكن حاليّاً: إنّه يصدق ما يقول، أكّد، وحتّى ابتسم، بل قدّم له سيجارة. من المؤكد أنّ التهمة باطلة والهدف منها الإضرار بأستاذ مثله، وقرّب منه لهيب عود الثقاب. لكنّ على فرناندو أن يتفهّم وأن يتعاون بالطبع، لكي يتضح كلّ شيء. فمثلاً، اقترب منه رامون، ألم يكلّمه إنريكه يوماً عن رغبته في العيش في الولايات المتحدة الأمريكيّة؟ ألم يحدثه مرّة عن سخطه على سياسة البلد؟ ألم يذكر له مرّة أنّ آخرين من أصدقائه يشاركونه آراءه؟ ألا يبدو له أنّ آلبارو ألماثان أو فيكتور دوارته قد يكونان مطلعين على خطط إنريكه آرياس؟ وماذا عن الآخرين الذين يجتمعون في المنزل الكائن في الشارع (25)؟ المدعو كونرادو بيلائيث؟ ألا يعلم بذلك أيضاً توماس إيرنانديث ولا أركاديو فيريت؟ كلا، إنّ رامون لا يستطيع أن يصدّق ألّا يعلم أحد منهم بشيء عن أفكار إنريكه آرياس السياسية وهم أصدقاؤه المقربون.

في تلك المناسبة ارتكب فرناندو الخطأ الذي ألقى به في الهاوية التي غيّرت مجرى حياته. لا شكّ أنّه ظلّ لسنوات ينظر إلى وجهه في المرآة محاولاً أن يعثر فيه على وجه فرناندو تيرّي الذي نفض، مذهولاً

ومضطرباً، الغبار الذي تراكم، في ركن من أركان ذاكرته، على ما يمكن أن يكون السبب الأحمق والتافه الذي يقف وراء سوء الفهم ذاك.

- حسناً، لم يكن الأمر هكذا بالضبط...- قال-. كان إنريكه ذات مرّة منزعجاً من أمر حدث له، لا أذكر ما هو، وقال لي إنّه قد يركب ذات يوم لنشاً ويرحل... كانت واحدة من نوبات الغضب التي تعتاده حين يفقد أعصابه... لأنّه، حسناً، مخنث. لذلك لم أحفل بما قال.

ملأت كلمة «مخنث» فمه، مثل لقمة مناسبة، وشعر في تلك اللحظة برضا وهو يتلفظ بها. لكن رجل الأمن رامون حرّك رأسه لينفي شيئاً مركوناً.

- إذن هو قال لك إنّه ينوي الرحيل.

- ليس بالضبط... هو قال «ذات يوم»...

- كانت تلك سذاجة من ناحيتك... فالمواطن إنريكه آرياس كان جادّاً في كلامه. هو يريد أن يرحل عن البلد. وحضرتك تعلم أنّ الواجب يحتّم عليك أن تبلغ عن ذلك بالطرق المناسبة. ثمّ إنّنا نعلم أنّ حضرتك والعديد من أصدقائك لديهم آراء بشأن بعض الإجراءات التي اتخذت في السنوات الأخيرة والتي لن أتحدث عنها الآن، فحضرتك تعرف إلى ماذا أشير.

- لا، لا أعرف - قال فرناندو وشعر بأن يديه ترتعشان.

- واجبك أن تعرف، لأننا نعلم بكلّ شيء... ربّما يبدو لك ذلك قليلاً، لكنّ قراءة أشعارك يثبت أنّ حضرتك لست رجلاً مسيّساً على وجه الدقة. واعلم أنّ هذا الرأي ليس رأينا، بل هو رأي إدارة الكليّة ورأي شخص ما من الخليّة الحزبيّة... أنا لا أرى ما يسيء في أشعارك. بل يمكنني أن أقول بأنّها تعجبني، لكنّي أريدُ أن أكون صريحاً معك، حضرتك تبدو لي كثير الشبه بباييخو،[8] وأنا أفضّل شعر صديقك آلبارو ألماثان. المسألة مسألة أذواق، كما قلتُ لك. لكن إن تعاونت معنا...

8- César Vallejo (1892-1938). شاعر وكاتب من بيرو. من كبار المجددين في شعر القرن العشرين.

نظر فرناندو إلى رجل الشرطة الذي كان يوجّه اتهاماته متصنعاً الألم للتصريح بها، ثمّ يعرض بحذر جمالي ما تفضله ذائقته الشعريّة، لينتهي بأن يعرض عليه أن يجنده مخبراً واشياً. نهض ببطء وفكّر للحظات في الطرق التي حصل فيها رجل الشرطة على أشعاره وأشعار آلبارو. لماذا لا يحدثه عن أشعار أركاديو؟ أو عن قصص النّغرو؟ غطّى على اضطرابه حينئذٍ شعور طفيف من الراحة: إنّه بريء، ولن تهمّه الحيثيات الغريبة ولا النتائج المتوقعة من تمثيليّة ركيكة لا هدف لها غير المطلب النهائي الأخير لرجل الشرطة. ومن دون أن ينظر إلى رامون، دخّن سيجارته وتحقق من أنّ يديه توقفتا عن الارتعاش.

- حضرتك على حقّ. يبدو أنّني ساذج سياسي، كما قلتَ. أمّا ما يتصل بالموضوع الآخر، فأنت مخطئ. لأنّي أدين لخيلمان[9] أكثر مما أدين لباييخو، ولأنّي لا أصلح أن أكون مخبراً. اسمح لي الآن - ثمّ عاد إلى قاعة الدرس ليواصل ما كانت آخر محاضراته في كليّة الآداب في جامعة هافانا.

في اليوم التالي، حين استدعته العميدة إلى مكتبها وأبلغته بأنّه أوقف عن عمله مؤقتاً، تلقّى فرناندو أوّل سوط من سياط الخوف. شيء غامض، غير مفهوم وغير متناسب، بلا شك، يحدث من حوله، لكنّ إيمانه بالحقيقة ويقينه من براءته أبقيا عليه ثابتاً، وقال للعميدة، بكل الكرامة التي استجمعها، إنّه منصرف إلى أن تتوضّح الصورة.

انتظر فرناندو لأسابيع المكالمة التي ستعيد حياته إلى سابق عهدها، بينما صار يتطلّع يائساً للقاء إنريكه علّه يحصل منه على توضيح. لكنّ مكالمة ردّ الاعتبار لم تأتِ، وحديثه مع إنريكه لم يتمّ إلّا بعد سنة ونصف، حين أنهى هذا عقوبة السجن التي تلقاها عن محاولته الخروج من البلد بطريقة غير قانونيّة.

***

9- Juan Gelman (1930-2014). شاعر وكاتب وصحفي أرجنتيني.

كان دومنغو يعشق العربات والكتب ويفضلها على كلّ ما عداها. وقد برهن على عشقه ذاك حين استطاع أن يمتلك واحدة من أفخم العربات التي تجرها الجياد في هافانا، وحين صارتْ عنده واحدة من أفضل المكتبات الخاصة في الجزيرة، بما تضمّ من أحدث ما صدر من الكتب في لندن ومدريد وباريس وبولونيا الإيطاليّة وفيلادلفيا. أمّا في ذلك المساء، فالنوايا لم تكن أدبيّة، إذ لم يكن آنذاك غير طالب بسيط وعاشق أفلاطوني للشعر، تملؤه الرغبة، كما هي حالي، في معرفة أسرار الحياة الحقيقية. لذلك فقد قرّر أنّ علينا أن نتخلّى عن العربة وأن نتجول سيراً على الأقدام، لأنّنا كنّا في الموسم الذي تعدّه أنحاء أخرى من العالم شتاء، ولأنّ تلك كانت المرة الأولى التي أخرج فيها للطواف في ما دعاه هو بالمدينة الحقيقيّة.

- في الصيف، حين يسقط المطر - شرح لي- يكون من المستحيل السير في المدينة: فالوحل يصل حتى ركبتيك والبعوض قد يدميك. أمّا الآن، في هذا الطقس الجاف، فأمامك أن يغطيك التراب، هذا إذا لم تصدمك عربة وتلطخ حذاءك بروث الحصان، لكنّ ذلك كلّه أهون مقارنة بالوحل، هل تفهمني؟

كان هدف جولتنا ماخور مدام آن- ماري، الأشهر بين المواخير الكثيرة التي تعمل في المدينة. يحكى أنّ صاحبته، وهي فرنسيّة فرّت من ثورة السود في سانتو دومنغو، استطاعت بفضل عقليتها التجارية، وربّما بدعم من محسن مجهول، أن تبلغ القمّة في مصلحتها. كان بعض أصدقاء دومنغو قد حثّوه على زيارة ذلك الماخور في أسرع وقت ممكن، ونصحوه أن ينتظر، لو اضطره الدورُ إلى الانتظار، ليستثمر نقوده في ساعة من المتعة يمضيها مع أكثر فتيات مدام آن- ماري إثارة: الخلاسيّة البرازيليّة التي تدعى (بتينيا)، والتي كان اسمها يتردد في مجالس الرجال في المدينة بسبب مواهبها الفريدة في أداء أكثر الممارسات الجنسيّة جرأة وجدّة، وهي تلك المعروفة بـ «الأسلوب الفرنسي».

كانت الساعة تقترب من الرابعة عصراً حين أخذنا طريقنا صوب ميدان السلاح القديم، الذي يشهد في كلّ سادس من كانون الثاني، وهو يوم الملوك،[10] واحداً من استعراضات هافانا المميّزة، والتي كانت تبعث في نفسي الكآبة: رقص مجاميع السكان السود أمام قصر حاكم الجزيرة العام. كانت التقاليد قد رسّخت ذلك الحدث السنوي الذي يجيز للسود، أحراراً وعبيداً، مهاجرين وبلديين، الخروج برقصاتهم إلى الشارع مرّة واحدة في العام، والوصول بها، على وقع الطبول، حتّى مقر الحكومة الكولونياليّة. هناك يتلقّى الحاكم العام التحيّة منهم ويرمي إليهم بقطع نقود رمزيّة هدايا من الملوك. أمّا هم فيندفعون في الرقص كالممسوسين، وقد استبدّت بهم حمّى قرع الطبول، واستبدّت بهم حميّا الشراب، أمام النظرة المتيقظة للحرس المكلّف بالحفاظ على النظام. كان ذلك الرقص في العاصمة، وعلى نطاق أضيق في كلّ قرية وبلدة من قرى الجزيرة وبلداتها، وفي كلّ معمل من معامل قصب السكّر وفي كلّ حقل من حقول البُنّ، بمثابة تحذير إلى ما لا يمكن السماح به: لقد حوّلت تجارة الرقيق المشينة السودَ والخلاسيين إلى أغلبيّة بين السكان، وكان في رقصة الطبول تلك ما يكشف عن القوّة المتنامية لرجال يمكن لهم، إن ظهر بينهم من يقودهم، أن يغيّروا مصير الجزيرة، تماماً كما حدث من سنوات في سانتو دومنغو المزدهرة.

اتجهنا، وقد ضقنا بالصراخ الذي تعالى من حولنا، وبالقرع الرتيب على الطبول، إلى شارع «الأسقف»، بمحلاته المزينة التي كانت تغصّ بالناس المنصرفين إلى شراء كلّ ما يمكن شراؤه، وسرنا نبحث عن الأسوار، ومن خلفها جادة (البرادو) الجديدة، التي كانت تعجّ، في يوم الاحتفال ذاك، بأكثر شباب هافانا وجاهة، ولا سيّما من أبناء المهاجرين الأوروبيين، المولعين بتمضية ساعات طويلة في الشارع، حين لا

10- هو ما يعرف في الإسبانية بيوم الملك المجوس El Día de Los Reyes Magos وهو آخر يوم من أيام الاحتفال بأعياد الميلاد ورأس السنة.

يكون الطقس بارداً ولا شديد الحرارة، كما كانت حاله في تلك الساعة التي مرّت فيها من أمام عينيّ وإحساسي الكثير من المشاهد والصور المختلفة.

كان دومنغو، ومنذ سنوات شبابه الأولى، واحداً من خيرة من عرفتُ من المتحدثين، فهو يمتلك قدرة كبيرة على الإقناع، خصوصاً حين يتصل الأمر بتبرير مواقفه. كان، في ذلك الوقت، مهووساً بأمرين أو بثلاثة باح لي هو بها: أولها، إنّه لا يريد أن يكون فقيراً، وهو متأكد من أنّه سيموت غنيّاً؛ ثانيها، إنّه يريد أن يكون شاعراً وسينشر كتباً؛ أمّا الثالث فهو أنّه سيكون مشهوراً، مهما كلّف الأمر. أمّا أنا، الأقل كلاماً وطموحاً، والبعيد، بحكم تربيتي، عن حياة هافانا الصاخبة المتفتحة، فكان لي هدف وحيد طالما سهرتُ من أجله الليالي: الشعر، الذي كنتُ أحتفظ منه آنذاك بقصائد عديدة وحكايات وترجمات كنتُ مستعداً لعرضها، ومن دون خجل، على أوّل قارئ أعثر به... لكنّ دومنغو، كان يستأثر بالحديث في سيل دافق من الكلمات، فكأنّه لا يسمعني.

- هل ترى، خوسيه ماريّا؟ هل ترى ما هي عليه حال البلد؟- نظر إليّ بحدة قصر النظر الذي في عينيه، بينما أشار إلى العربات البرّاقة والمركبات التي تلفّ الجادة المستديرة، والشبان الأنيقين الذين يتنقلون من طرف المتنزه هذا إلى طرفه ذاك، وهم يرتدون الثياب الغامقة التي لا تلائم المناسبة، وإن كانت تراعي قواعد الموضة الأوروبيّة-. هذا مهرجان، سيرك، بلد مزيّف. يفترض أنّ هذا هو خير ما في كوبا. لكن المهم هنا هو الظهور والمال، المهم هو أن ينظروا إليك وأن يتكلموا عنك، وإلّا فلا وجود لك... أمّا الأسوأ فهو أنّ الناس هنا لا يريدون أن يكونوا كما هم.

سرعان ما تحققتُ من دقّة ذلك الحكم المرير، الذي بدا لي مبالغاً فيه، وأنا في ذهول من تلك الحركة الصاخبة، خصوصاً وأنّ همّي، في تلك اللحظة، لم يكن منصبّاً على التفكير في مصير بلد لم أكن أعرف

عنه إلّا القليل. لكنّ دومنغو كان ينظر إلى الحياة نظرة فيها من الجدية ما لا يتناسب وتفكير شاب في الرابعة عشرة، بينما كنتُ أنا أحاول أن ألتهم كلّ ما أراه، أن أتخيّل مكاني في ذلك المشهد، أن أجتهد، بالدرجة الأساس، في أن أيمم وجهتي صوب ما كان، في تلك اللحظة، هدفي الكبير، هدف شاب بكر يستعجل «الدخول إلى الحياة».

سرنا في (البرادو) ثمّ صعدنا نحو منطقة كنيسة «الملاك»، القائمة على مرتفع بسيط، نبحث عن شارع «الإمبراطور»، الأفضل رصفاً في المدينة، لنواصل الطريق، من ثمّ، نحو ما يسمّى بالميدان القديم، حيث يقام واحد من المهرجانات المعتادة. ومع أنّ المناسبة كانت تكرس دائماً لأحد القديسين، فقد كانت هوية المحتفى به هو الموضوع الأقل أهميّة فيها، لذلك كانت الاحتفالات تمتد ثمانية عشر يوماً من دون أن تشهد غير قداس واحد في بدايتها وآخر في نهايتها، ويبقي المهرجان في المتبقي من الوقت على أجوائه الكرنفاليّة عن طريق ألعاب الحظ التي تمثّل أكبر نشاط ترفيهي في المدينة. تُوزّع الطاولات في الشوارع وعند البوابات وفي داخل البيوت، وتوفر المحلات التجارية مكاناً لكلّ فنون اللعب بالورق والزهر والأحجار واليانصيب والبليارد ولأيّ شكل من المراهنات التي في مقدور المخيلة البشرية أن تخترعها. أمّا في الباحات الداخليّة فقد أقيمت حلبات لعراك الديكة، حيث يرتفع صراخ المراهنين. على وجوه الأشخاص الذين كانوا هناك، من بيض وسود وخلاسيين، ارتسمت سيماء ألف جُرم وجرم، وجوه تثير الرعب وتحذر من أنّنا وطئنا أرضاً ملغومة. أمّا أنا فقد كنتُ حشرتُ نقودي التي خصصتها لبتينيا بين البنطلون والجوارب، امتثالاً لتحذيرات دومنغو، لكنّ صديقي كان قد اتخذ قراراً بأن نجرّب حظنا بالفائض ممّا لدينا منها، لأنّه، كما قال لي، واثق من أنّنا سنضاعف رأس مالنا.

في أحد المحلات التجارية التي علّقت على واجهتها يافطة كتبت عليها كلمة «صيدلية»، اقترب دومنغو من طاولة جلس عندها رجلان يرتديان البزّة العسكرية وخوري وعدد من السود، يثير مظهرهم الريبة،

وامرأة بيضاء على وجهها ندبة حديثة العهد، يلعبون القمار. يا لغرابة ذلك المشهد! من السقف تدلت مصابيح زيتيّة ما كانت تنير المكان إلّا قليلاً، وحول الطاولة تناثرت جرار وزجاجات من النبيذ والعرق، سجائر مشعولة وغير مشعولة، وواحد من تلك الكلاب الجرباء التي تملأ أنحاء المدينة. سألني دومنغو بعينيه إن كنتُ راغباً في المشاركة، فرددتُ عليه بنظرة منّي بالنفي: لم أكن بطبعي ميالاً قط إلى ألعاب الحظ.

أمّا دومنغو فقد كان مراهناً بالفطرة، كما أثبت في مناسبات كثيرة من حياته. وبعد الجولتين الأوليين، اللتين كسبهما، التفتَ إليَّ ونظر بوجه علته الفرحة. لاحظت كم كان شغفه باللعب كبيراً: كانت يداه ترتعشان، وجبهته تتلألأ من العرق، على الرغم من نسمة الليل الباردة، وراح يبتلع ريقه من شدة توتره. عزمتُ، وبي من الضجر أكثر ممّا بي من الحماس، بعد أن تنبأتُ بعاقبة تلك المهزلة، على التجوال في الساحة، لكنّ حلول الظلام والخوف حملاني على أن أعيد النظر في ما عزمت عليه. فلطالما سمعتُ عن حوادث سطو وقتل وعراك في الشوارع، لذلك آثرتُ البقاء في الصيدليّة لتناول فنجان من القهوة وانتظار النهاية المتوقعة: حين نخسر كلّ ما يفترض أنّنا نمتلكه، فلن يعود الأشرار، الذين تعجّ بهم الساحة، مهتمين بنا، وحينها نستطيع الخروج إلى الشارع وقد نزعنا ما فينا من الخوف.

فعلاً: فبعد خمس عشرة دقيقة، كان الصبي المحظوظ، كما سمّته المرأة ذات الندبة، قد خسر كلّ ما ربحه في الجولتين الأوليين، وخسر أيضاً الأونسة والنصف التي بدأ بها اللعب إرضاءً لنزوته. مع ذلك، وعلى الرغم من هزيمته، فقد بدا نشيطاً متحمساً.

- هيّا بنا - قال، مبتهجاً ومحزوناً في آنٍ معاً، وسرنا في شارع «الملازم ري»، نحمل مصباحين أعطتنا إياهما المرأة الأندلسية ذات الندبة، لنخرج من منطقة الأسوار عن طريق «باب الأرض»، قريباً جدّاً من حقل «المريخ»، الموصل إلى بيت مدام آن- ماري.

ما زلتُ أذكر الرعشة التي ألمّتْ بساقيّ ونحن نجتاز البوابة المحاطة بدرابزين خشبي، ونصل إلى باب البيت لنجد أنفسنا فجأة في صالة مزينة بنباتات ومعطرة بمبخرتين. مصابيح متدلية وشموع وقناديل تضفي على المكان ضياءً احتفالياً، يفيض على الممرّ الذي يمتدّ حتى قاع البيت والفناء الداخلي المزروع بالأشجار والزهور. على أريكة ذات مسند مرتفع، جلست تلك المرأة التي كنتُ تصوّرتُ شكلها: بدينة فظّة تتدثر بشال من الحرير مزينة الوجه مصفوفة الشعر، لها ملامح الملهمات وسلوكهنّ.

- تفضلا أيّها السيدان. مرحباً بكما - قالت لنا بصوت صادر من حنجرتها وبلغة إسبانية متقنة: كانت آن- ماري صغيرة الجسم، ذات شعر كستنائي وعينين كبيرتين خضراوين، وكان كلّ شيء فيها يوحي بأنّها، في شبابها غير البعيد جدّاً، كانت ذات جمال خطير. لم يكن من الصعب الاستنتاج، حين رؤيتها ومعرفة مهنتها، أنّها امرأة قادرة على أن تضع تحت قدميها عاشقين أو ثلاثة من أهل النخبة في هافانا، من الذين لا ننتمي إليها، ولذلك، ربّما، دخلتْ في الموضوع من دون مقدمات-. بيتي تحت تصرفكما... شرط أنكما تجاوزتما الخامسة عشرة...

- أكملنا السادسة عشرة، مدام، لا تشغلي بالك - ما أسهل الكذبَ على دومنغو!

- وهل يبحث السيدان عن شيء محدد؟

عاد دومنغو ينظر إليّ وعدتُ أنا أنظر إليه. لم تكفّ ساقاي عن الارتعاش، لكنّي جربتُ أنّني في حالات كهذه أجد لحظة منقذة تمكنني من القفز على مخاوفي.

- نريد أن نرى بتينيا - قلتُ.

ابتسمت آن- ماري وحركت رأسها.

- يسعدني أن أرى صعود نجم هذه الفتاة...

- كم؟ - سألتُ، فقد كنتُ أخشى أن تكون معلومات دومنغو خاطئة فلا نمتلك المال اللازم.

- نصف أونصة لخدمة كاملة لمدة ساعة.

وأخيراً تنفستُ الصعداء، لأنّ الأونصة والنصف التي نمتلكها تكفي لكلينا، بل سيزيد منها ما نستطيع أن نشرب به شيئاً من النبيذ.

- هي الآن مشغولة، لكنّكما ستستطيعان لقاءها بعد نصف ساعة من الآن. هل ترغبان في تناول شيء في هذه الأثناء؟

- كأسين من النبيذ، أو ثلاثاً إن شرفتنا حضرتكِ برفقتكِ، مدام - وشعرتُ بالحريّة من القلق الذي ضيّق عليّ طوال النهار. في ظرف نصف ساعة سأكتشفُ واحدة من حقائق الحياة، وستكون لي، وأنا الذي أتمنى أن أكون شاعراً، تجربة حياتيّة سأترجمها ذات يوم شعراً.

تبيّن لي أنّ آن- ماري ليست جميلة فحسب، بل منفتحة، فحين علمتْ أنّ في بيتها شاعرين، كما قلنا لها، دعتنا إلى شرب كأس ثانية وانخرطت معنا في حديث يفيض حيوية. وصل زبونان لم يلبثا أن طلبا ميسورا فخفّ لخدمتهما شاب مخنّث شاحب الوجه، دعته الرئيسة بـ «أليزارديتو»، فأدخلهما، بين توقير ونظرات قلقة، عبر الممرّ إلى داخل البيت. أدركتُ في تلك الليلة، وبفضل ثرثرة المدام، التي حكت لنا أنّها مثّلت، في شبابها، مسرحيات راسين وشيئاً من مسرحيات موليير في مدينة (الكابو) المزدهرة آنذاك في (هاييتي)، سبب ازدهار صناعة البغاء في الجزيرة وتفوقها حتّى على صناعة السكر، وأدركتُ لماذا تبدو التجارة رابحة على نحو خاص مع العاهرات من الرقيق، اللاتي يوفر لهنّ سادتهن بيتاً صغيراً مستأجراً ويحددون لهن تعريفة ثابتة، وعلى المومس أن تغطّي بما تكسبه مصاريف عيشها ثمّ تسلّم في نهاية الأسبوع الحصّة المتفق عليها إلى مالكها. أمّا بقيّة الريع فهو لها، وكان ذلك يجعل تلك النسوة يعملن بتفانٍ ويلبين رغبات أكبر تشكيلة من الزبائن، وهو ما يجعلهنّ أكثر

ريعاً من العاهرات البيضاوات المخصصات للبيض، فشغل تلك التعيسات الشاغل هو أن يشترين حريتهنّ وينشئن، إن كان ذلك ممكناً، مشروعاً صغيراً من تلك المشاريع التي يمتلكنها سوداوات هافانا الحرات.

كنّا نتناول كأسنا الثانية حين قطع حديثنا خروج رجل يناهز الأربعين، ذي مظهر محترم، وقد نكّس قبعته حتّى حاجبيه. استأذنت الرئيسة وذهبت إليه، أخذته من يده وخرجتْ معه إلى الشارع وهما يتكلمان بصوت منخفض. عقب دقائق قليلة عادت آن- ماري.

- كما تريان، لديَّ زبائن مهمّون...

- وهل يمكننا أن نعرف من يكون؟ - تجرأ دومنغو على السؤال.

أطلقت آن- ماري ضحكة بطيئة وعميقة.

- بالطبع: فهذه دعاية جيدة لتجارتي. إنّه السيد دومنغو آلداما، أحد أثرياء الجزيرة...

- فالسيد آلداما إذن من رواد القحاب - علّق صديقي، الذي شرح لي في ما بعد أنّ ذلك الرجل، الذي سيكون له دور كبير في مستقبله، هو من أكثر السود في البلد نشاطاً.

- هو أيضاً يفضّل بتينيا. والآن، أيّها الأولاد، من منكما يريد الدخول أولاً؟ - سألت آن- ماري. وكان في ردّ دومنغو ما أثار دهشتي الكبيرة.

- هو - قال ودلّني على الممر بيد مفتوحة.

في ذلك اليوم، كشف لي القرارُ المفاجئ عن جانب آخر من طباع ذلك الشاب الذي بلغ حبّي له مبلغ حب الأخ لأخيه. اليوم أعرفُ أنّ قراره بأن أذهب أولاً لم يكن صادراً عن لفتة مهذبة تجاه الزائر الواصل حديثاً، بل كان استراتيجيّة حياتيّة تتمثل في الدفع بالآخرين إلى جبهة القتال بينما يظل هو قابعاً منتظراً في المؤخرة.

***

جذب يساراً ثمّ ضغط على العقدة وعدّل قليلاً إلى اليمين حتّى بلغ، بحركة أخيرة طفيفة نحو اليسار، درجة الكمال المطلوبة: كانت الساعة تشير إلى السادسة مساءً حين انتهى خوسيه دي خيسوس هيريديا من شد ربطة عنقه. كان على الدوام دقيقاً. وتحقق، أمام المرآة المضبّبة في غرفة الفندق من نظافة منخريه، ونفض عن سترة الموسلين القديمة ما شاب سوادها من بياض قشرة الرأس العصيّة، وسرّح بأصابعه التي بللها بلعابه شاربه الدقيق الذي علاه الشيب حتّى بدا أشدّ دقّة. ثمّ راح يستعد لانتظار كارلوس مانويل ثرنودا وكريستوبال أكينو، الأخوين الماسونيين اللذين سيذهب معهما لتناول الغداء في مطعم (نبتون) قبل حضور جلسة ذلك المساء التي سيعقدها محفل «أبناء كوبا» في (ماتانثاس). كان موعده هو الساعة السادسة والنصف، عند مدخل الفندق الصغير الذي أنزلاه فيه، لكنّ أشدّ ما كان يزعج خوسيه دي خيسوس هو أن يضطر آخرون إلى انتظاره.

بحث عن خير استثمار للدقائق الثلاثين القادمة، ففكّر في النزول إلى الحديقة والتطلّع إلى الناس في حركتهم. كانت ساعات عصر الربيع الوادعة تشهد ازدياداً في ظهور نسوة المدينة الفاتنات، لكنّه قررَ فجأة أنّ الفكرة غير صائبة: فمشهد الجمال الأنثوي يثير شعوره بالإحباط في قدرته الجنسية التي باتت مركونة منسيّة. اقترب حينها من السرير الذي وضعت عليه تلك الأوراق التي كتبها والده قبل أكثر من ثمانين عاماً، والتي فعلت فعلها بخوسيه دي خيسوس منذ أن قرأها للمرة الأولى قبل سبعة عشر عاماً مضت. كانت الأوراق محشورة في ظرف كبير مربوط بشريط بنفسجي فاتح اللون. لم يعلم بوجود المخطوط إلّا حين تسلّمه من شقيقته الكبرى، لوريتو، وكانت الوحيدة التي تتذكّر حركات أبيها وسكناته. فعلاً، فقد كان خوسيه دي خيسوس يستند على ذكريات أخته لوريتو أكثر من استناده على مرويات جدته ماريا دي لا مرثيد له في استحضار صورة ذلك الأب الهزيل الذي أحاطت الهالات السود بعينيه، والذي بكى وهو يعانق زوجته خاكوبا حين عاد من إقامته الأخيرة في

كوبا، في شباط من عام 1823، ميتاً في حياته، شاعراً بالخجل والخيانة والخذلان، مهزوماً حتّى إنّه ما كان يقوى على الإتيان بفعل الانتقام الوحيد الذي يقدر عليه، بأن يفتح ذاكرته ويعرضها على زمن قادم قد يجد فيه تفهماً وعدالة.

بعد أن استبعد العجوز فكرة النزول إلى الحديقة، جلس على السرير، حلّ شريط الرزمة المهترئ وأخرج الأوراق ليعاينها، ربّما للمرة الأخيرة. كانت قناعته بأنّ موته بات قريباً هي السبب الوحيد الذي يجبره على الابتعاد عن تلك الأوراق اليابسة التي ينبض فيها عنفوان رجل استثنائي وتسليم زوجة محبّة كانت خداها تنتقلان من حمرة إلى حمرة وهي تكتب القصّة المرّة التي كان يمليها عليها زوجها المحتضر. فبقدر ما كانت الحكاية القاسية، التي يرويها الشاعر في ما يزيد قليلاً عن مئة ورقة، تجذب خوسيه دي خيسوس، كان يجذبه خطّا أبيه خوسيه ماريا وأمّه خاكوبا، وهما يقيمان تناغماً دراميّاً كذاك الذي تقيمه سوناتا تنفذها أربعُ أيدٍ لعازفيْ بيانو لا يبلغان درجة الكمال إلّا في تكاملهما على أبنوس المفاتيح وعاجها.

قلّب الأوراق وعاد ليلاحظ أنّ الصفحات الأولى كُتبت بحروف ذكوريّة طويلة ذات خطوط مغلقة مجرورة جرّاً نحو اليمين، وهي الحروف التي تميّز خطّ الشاعر: لقد خط هيريديا بيده الجزء البطولي والسعيد من القصّة، الجزء المتصل بسنوات الشباب والمجون والشعر والمؤامرة. بعد ذلك، ومع بداية المنفى، بدأ السرد يفسح المجال أكثر لخط خاكوبا الدائري الدقيق، خصوصاً في تلك الفصول الأشد إيلاماً لأبيه: وبينما يصف هيريديا بخطه عظمة شلالات نياغارا ولقائه من جديد مع الشعر، وقراره المحموم بالرحيل إلى المكسيك، أو الإعجاب الذي يولده فيه الجمال الهادئ لابنة القاضي إيسيدرو يانيث، كانت خاكوبا تنقش بخطها تأملاته الأولى حول الخداع والحنين والبرد وبداية مرضه العضال الذي سيقضي عليه بعد خمسة عشر عاماً... كان تفاقم المرض

هو ما حمل هيريديا على الاستعانة بزوجته لتشاركه كتابة استحضارٍ عرّى فيه نفسه جسداً وروحاً، وهو ما لم يجرؤ إلّا القلة من الرجال على فعله. أمّا الثلث الأخير من القصّة فقد كان ميداناً حصريّاً لخط خاكوبا، بعد أن صار البطلُ عاجزاً جسديّاً عن أن يشغل مكانه على الكرسي وعن أن يسجّل بنفسه وقائع الانحدار النهائي الذي حمله إلى ذلك البيت المظلم البارد الكائن في شارع (أوسبيثيو دي سان نيكولاس)، المجاور لكاتدرائية المكسيك العظيمة، حيث حضر، وللمرّة الأخيرة، قداساً في أيام المصالحة الأخيرة مع الربّ تلك. لكنّ الغريب أنّ أباه، في النهاية تقريباً، عاد إلى منطقته وكتب، وللمرة الأخيرة، وبحروف أشدّ ميلاناً وانحناءً، وبخط مضطرب، متذكراً فصل رحلته المنتظرة إلى كوبا، حين انهارت القلّة القليلة الباقية من مبادئه وتلاشى أصدقاؤه القليلون الذين عرفهم، حاملين معهم آخر آمال رجل عرف الشهرة والمجد والحب والتصفيق والصداقة وهو في العشرين من عمره، وامتلك ناصية الشعر كما لم يمتلكها أيّ من أبناء تلك الجزيرة الغنيّة بثرواتها المادية وببؤسها الإنساني. في ذلك الفصل الأليم، راق لخوسيه دي خيسوس أن يقرأ، المرّة تلو المرّة، قصّة اللحظة التي شعر فيها أبوه، وقد يئس من كلّ شيء، كيف أنّ حياته استردّت حجمها الحقيقي حين أنشد الممثل أنطونيو إيرموسيّا، متحدياً كلّ المخاطر السياسيّة، قصيدة «نياغارا» الشهيرة على خشبة أحد مسارح هافانا، بينما راح الحاضرون، وهم وقوف، يصفقون للشاعر البائس والمهان، ويقرّون، وللمرة الأخيرة، بعظمته الأدبية وقدرته على خلق جمال لا قِبلَ لأيّ طاغية بأن يشوهه... ابتداءً من تلك اللحظة تكفّلت حروف خاكوبا بعكس الأحداث الأخيرة للمغامرة المحزنة: فكانت هي من سطّرت على الورق ألم النسيان وقسوته، وشدّة المرض المتفاقم، والإحساس الذي لا يطاق بالبرد، وسيل الحنين الذي بات وسواساً مؤذياً، ثمّ قرار إعادة الاعتبار لوجوده، تاريخيّاً وأدبيّاً، عن طريق تلك القصّة، التي بدأها يوم صار وجهاً لوجه أمام وحدته المأساوية، وحين اكتشف أنّه صفر من أيّ صديق يتوجه إليه. مع ذلك

فقد بدأ بتفريغ ذاكرته، وهو يستعد لأن يحكي تفاصيل رواية حياته لابن لن يراه أبداً.

عاد خوسيه دي خيسوس، وهو يقلّب الأوراق ويتحسس جوانبها التي تكسرت بالرطوبة والزمان، إلى سؤال نفسه إن كان مصيباً في قراره. ربّما كان المكتبي الفظ فيغارولا سيقبل، أمام الموثّق، بشراء الأوراق الخطيرة ويوافق على شرط الإبقاء على الظرف مغلقاً ومختوماً بالشمع حتى السابع من أيّار من عام 1939. وكان المال الذي سيتقاضاه من تلك الصفقة سيعينه كثيراً على مواجهة سنوات حياته الأخيرة، وهو الذي ما عاد يمتلك حتى الملابس اللائقة؛ وكانت روح أبيه، وهي في عليائها، ستسامحه بكلّ تأكيد على فعلته: كان هيريديا يعلم أنّ الإنسان قادر على تحمّل كلّ شيء، أو كلّ شيء تقريباً، إلّا الجوع وإلّا نظرة الاحتقار. وقد كان ابنه الصغير، الذي لم يستطع ربّما أن يحمله بين ذراعيه، يعيش مفلساً وعلى حافة الهوان. لكنّ خوسيه دي خيسوس يعرف أيضاً أنّ طعم الخيانة المرّ ما كان ليتركه يموت بسلام: ففي مقدور فيغارولا أو أيّ واحد من أولئك الراغبين في الفوز بالكشف عن تلك الأوراق أن ينتهكوا الاتفاق المبرم مع عائلة هيريديا وينشروا، بلا تردد، قصّة يمكنها أن تغيّر وإلى الأبد الفكرة السائدة عن الشاعر وعن العديد من الرجال الذين عايشوه.

حينها، عاودته الفكرة التي طالما أرّقته منذ أن حاز تلك الأوراق: أليس من الأفضل أن يتلفها وأن يترك القصة وروح أبيه وأشدّ أسرار حياته هولاً في سلام؟ بل أليس من الأفضل أن يتلف حتّى الصورة التي باتت مقدسة للرجال الذين أدانهم الشاعر؟ لم تكن المرة الأولى التي يحاول خوسيه دي خيسوس فيها أن يدعم سيرة والده. لقد فعل ذلك قبل سنوات طويلة، حين أتلف النسخة الأصلية من رسالة عام 1823 الفظيعة التي أقسم فيها هيريديا على براءته أمام قاضي التحقيق في قضيّة المتآمرين من أعضاء حركة «شعاع بوليفار وشمسه» الاستقلاليّة. وفعل ذلك حين

أزال كلّ أثر لرسالة كان وجهها إلى الأب فليكس باريلا، وقد أعادتها مصلحة البريد لغياب المرسل إليه، والتي يشكره فيها على مساعيه لنشر روايته (تشيكوتنكاتل) في فيلادلفيا، والتي كان طلب منه أن ينشرها من دون ذكر لاسم المؤلف لأنّ هيريديا رأى فيها رواية فاشلة أدبيّاً. وبإتلاف تلك الرسالة، أتلف خوسيه دي خيسوس الدليل الوحيد على أنّ والده هو مؤلف رواية تشغل نسبتها، ومنذ مئة سنة، بال الدارسين، حتّى لقد نسبوها إلى باريلا نفسه.

كان خوسيه دي خيسوس مقتنعاً ومطمئنّاً إلى أن القصّة كتبت بهذه الطريقة: حالات حذف وكذب وأدلّة أعدّت لاحقاً وأدوار بطولة مفبركة ومحرّفة، وما كان عزمه على تصحيح قصّة أبيه يسبب له أيّ حرج: فأصحاب السلطة يفعلون ذلك دائماً والحقيقة التاريخية هي العاهرة الأكثر إمتاعاً والأقلّ كسباً بين العاهرات... لكنّ تلك الأوراق المفروشة على سرير الفندق قادرة على تغيير حياة الكثير من الأشخاص البريئين، ثمّ إنّها تخضع لقرار جدته الحديدية، ماريّا دي لا مرثيد، في الإبقاء عليها في حماية الأسرة، من دون نشر، حتى يحين الأجل المقرر لذلك، حين تكون قد مرّت مئة سنة على وفاة الشاعر.

الساعة هي السادسة وسبع وعشرون دقيقة، وقد قرر العجوز أن يمنح نفسه دقيقتين ليتخذ القرار النهائي بشأن مصير المخطوطة. عند السادسة وتسع وعشرين دقيقة عليه أن ينزل للقاء إخوته الماسونيين كارلوس مانويل ثرنودا وكريستوبال أكينو، لكنّ مئة وعشرين ثانية يمكن أن تكون كافية لاتخاذ ذلك القرار بشأن مصير تراث خوسيه ماريا هيريديا الخفي.

***

للشقاء ما يعوّضُ عنه. قال له آلبارو: بثلاثين دولاراً تنظف صدركَ. وحين قدّر فرناندو أنّ ذلك المبلغ يعادل خمسة آلاف بيزته تقريباً، كاد ألّا يصدّق. وزاد شكّه حين تأكد من نتيجة تحويل النقود: مائدة تصدرها قِدْر من الرز الأسمر اللماع المحبّب، مع صحن من عجينة الخنزير المقليّة،

ودزينة من ملفوف اللحم المكسيكي بـالأوراق، وعرجون من الموز المقلي وسلطة الخس والطماطم والخيار، بالإضافة إلى حلوى القرع المغمور في بحر من كراميل السكّر. كلّ ذلك من صنع جارة من جارات آلبارو، وجدت رزقها في معرفتها بإعداد الأطباق الأوروبيّة، لأنّ مرتّبها الذي تتقاضاه عن عملها خبيرة من الدرجة الأولى في التخطيط لا يكفيها إلّا للعيش أسبوعاً واحداً. أمّا الشراب - صندوقان من الجعّة وثلاث زجاجات من الرون وزجاجتان من النبيذ الأحمر- فكان مساهمة من الفلاح كونرادو، اللص الذي رفض، كالعادة، الكشف عن مصدر الغنيمة.

ما إن جلسوا إلى الطاولة حتّى اقترح أركاديو أن يشربوا نخباً شعريّاً في صحة فرناندو، وتبادل الجميع قرع الكؤوس. وقف النغرو ميغيل أنخل، حينئذٍ، واضعاً كأسه على صدره، وارتجل (ربّما لم يرتجل) واحداً من خطاباته تلك التي كان مفتوناً بإلقائها أيّام كان زعيماً طلابيّاً:

- أريدُ أن نشرب نخبنا جميعاً. أريد أن نشربَ نخب السنوات التي كنّا فيها أصدقاء حميمين. نخب ذكرياتنا الجميلة معاً. نخب الرباعيّات التي كتبناها ونحن نفكّر في إنشادها من هذه الشرفة. نخب إنريكه وفيكتور، الغائبين الحاضرين. وأريدُ أن نشرب نخب معجزة لقائنا اليوم وجلوسنا حول طاولة، بعد أكثر من عشرين عاماً، ونخب قدرتنا على نبذ الأحقاد والاختلافات، بل نسيانها، وهو خير ما يمكننا فعله...

ومع بدء دعوة ميغيل أنخل لشرب الأنخاب راح الآخرون ينهضون من مقاعدهم. شعر فرناندو بجوّ المهابة ينمو ليتغلّب على جوّ التوتّر، ولاحظ ردود فعل كونرادو وتوماس وأركاديو الجميل، الخائفين، ربّما، من سماع ما هو غير مناسب. لكنّهم قرعوا أيضاً كؤوسهم بكأس ميغيل أنخل وبقيّة الأحياء من جماعة «الساخرين».

ولم يفتْ فرناندو أن يلتقط بنظره صورة جماعيّة للآخرين بينما هم مشغولون بالأكل وسرد الذكريات الجميلة. عَصَرَ ذاكرته بحثاً عن إشارة قادمة من الماضي البعيد تساعده على تحديد مَن مِن أولئك الرجال هو

الواشي الذي غيّر مجرى حياته: قدّامه، على الطرف المقابل من الطاولة، كان آلبارو منطلقاً بالحديث. لقد هدّ الشرابُ جسمه، لكنّ بريق العجرفة الأبديّة لم يفارق نظرته. حين تسلّم فرناندو الكتابين اللذين نشرهما صديقه وقرأهما، وجد فيهما قوّة عدوانية وقحة، بين شيطانيّة وبذيئة، وعلم أنّهما إشارة أليمة وصادقة في رجل يعجز عن الانتحار دفعة واحدة، لكنّه يعرف كيف ينتحر بطيئاً وحثيثاً، فكأنّه يصوغ النهاية المبتغاة ويشكّلها تشكيلاً. وباستثناء قصائده تلك وحرصه الشديد على تقاليده وطقوسه، ما كان من شيء يبرز في محيط ذلك الصديق القديم، الذي لم يستطع فرناندو، حتّى في أشدّ أيامه قتامة، أن يرى فيه شخصاً قادراً على أن يأتي بفعل الخيانة: لقد بدا له آلبارو دائماً شخصاً فيه من الوضوح ما لا يناسب المخابئ السريّة التي لا غنى للخائن عنها.

إلى جانب آلبارو جلس أركاديو الوسيم، الذي بدا وكأنّه ينتمي إلى نوع بشري وشعري آخر. إنّه مبرأ من عبث الزمان، يعيش للشعر، متفرغاً له تفرغ عذارى فيستا[11]، وحاملًا على جبهته أوراق الغار التي جناها بفضل إخلاصه وتفانيه، فكأنه ولد وهو يحملها. تذكر فرناندو الأيام البعيدة التي تعرف فيها على أركاديو، وكانا حديثي العهد بالجامعة، حين كان هذا يكتب أشعاراً تصبو إلى اتصال ذكي مع واقع البلد أو مع أكثر جوانب واقعه الوادع الرتيب ظهوراً للعيان. لكنّ ذلك الارتباط سرعان ما تبخر ليلتفت شعره إلى نفسه وذاته ويصبح صدى داخليّاً يعكس المرور الإنسانيّ عبر مسالك الحياة غير المتوقعة والمكررة في الوقت ذاته. عادت استعاراته الشبابيّة المبتذلة معتمة مع السنوات، وهو ما حدث لنظرته إلى مصير الإنسان ووحدته الجوهرية، ونظم أركاديو آنذاك أفضلَ أشعاره. لقد أنتج ذلك المجهود الشعري ثمانية كتب لقيت الذيوع وحظيت بالجوائز وكانت هدفاً لتعليقات وشروح،

11- Vesta هي في الأساطير الرومانية ربّة الدار والنار. وهي رمز الوفاء. وتمثّل على أنّها من تُبقي على النار متقدة في المنزل وفي المعبد.

ووصف الكثيرون أركاديو فريت بأنّه واحد من أبرز أصوات جيله، بل لقد دار الحديث عن تأثيره على الشعراء الشباب اليافعين: تلقّى أركاديو بزهو، ولكن من دون غرور، الثناء والرحلات والنياشين، وخصصت له السيارات، وأقيمت له حفلات تكريم سابقة للأوان، وهو مطمئن إلى أنّه جدير بها. لكنّ تلك الانتصارات الدنيويّة كانت، مع ذلك، تسير في طرق موازية لطرق إبداعه، التي أصبحت شيئاً فشيئاً أكثر استقلاليّة وذاتية، والتي أبدى فيها الاحترام والميل ذاته الذي كان يبديه أيام البراءة حين كان يحلم في أن يرى بيتاً من أبيات شعره مطبوعاً. كان ذلك الموقف الذي يتراوح بين الفتور والعنف، وإن عُدّ أمراً طبيعيّاً، أكثر ما يزعج آلبارو، الذي كان يصرّ على اعتبار زميله القديم منافقاً انتهازيّاً مغروراً لا يمتلك الشجاعة للنظر إلى واقع الحياة المؤلم الذي كان آلبارو يستخرج منه المادة الخام لشعره المهاجم المندفع. كانت تلك المنافسة المتأججة على المستوى الإنساني والجمالي، والتي كان فرناندو مطلعاً عليها، قد بدأت من سنوات طويلة، وكانت جزءاً من التقليد الشعري في جزيرة طالما أيقظ نجاح الغير فيها شكوكاً وتحفظات، بغضّ النظر عن كونها مجانية أم راسخة.

على يمين فرناندو جلس توماس، يشرب ما وسع معدته المثقوبة شربه من الرون. ربّما كان أقلّ من تغيّر شكله من الحاضرين: حين كنست العاصفة التي أثارها إنريكه في كليّة الآداب فرناندو وأخرجته من الجامعة، خرج توماس من تلك العاصفة سالماً، واحتفظ بعمله أستاذاً، لكنّه لم يخرج من سنوات مسيرته العشرين المنصرمة بما كان يعد به، فقد انكفأ على نفسه منذ وقت طويل وترك الروايات التي فكّر، في وقت من الأوقات، أن يكتبها، والتي ما زال يعلن عنها ويقصّها، كما لم ينشر المقالات التي كانت قريحته مؤهلة لكتابتها. لقد غرقت حياته في روتين صراع دائم من أجل الحياة الوادعة والامتيازات الصغيرة، ووقف توماس، متحصناً بفلسفته السوقية البراغماتيّة، يصارع كلّ العواصف،

وتكيّف على عمله، وورث بعض الأسرّة التي غادرها فرناندو، بينما ظلّ وفيّاً لعادته في العدْو ورفع الأثقال: كان، من بين الآخرين، صاحب أفضل قوام، فقد كان مسطّحَ البطن، مفتولَ الساعدين، أسودَ الشعر إلَّا من شيب قليل. تذكر فرناندو أن توماس كان على الدوام المرائي صاحب الوجهين في المجموعة، المتلوّن الحرباوي بامتياز، وفوقه تحوم أكثر شكوكه في أن يكون هو من وشى به، على الرغم من أنّه لا يمتلك ما يبرر شكوكه، فلطالما اصطدمت تلك الشكوك بجدار مفهوم الرجولة الصارم الذي كان صديقه القديم يحمله وشماً على جلده، باعتباره أول درس تلقاه في الحي الهافاني الساخن الذي ولد فيه.

ربّما كانت حالة كونرادو هي الأكثر مدعاة للاهتمام، فعلى الرغم من أنّ كونرادو ما زال هو هو، فإنّ الفلاح اللص الأبدي ما عاد هو ذاته: كان فرناندو ينظر إليه ويظنّ أنّه يعرفه، لكنّ الصورة القديمة ما لبثت أن تلاشت أمام حقيقة المئتي رطل تقريباً التي أضافت إلى وجه ذلك الفلاح وجهاً ثانياً. لم يبقَ إلَّا القليل من الانبهار المنتصر في فلاح (بلاثيتاس) الهزيل الذي استبدل بخار الإسفلت بعطر الأرض، بعد أن صمّم أن يخرج من الوحل والبؤس الذي عاشه أجداده الكناريون وآباؤه الكوبيون، وثابر من أجل أن يصبح «شيئاً ما في الحياة»، كما اعتاد أن يقول. لا شكّ أنّ كونرادو استثمر طموحه وقدرته الفطرية على التغيّر أعظم استثمار، وحقق، من اقتناص الفرص وعصرها عصراً، أحلامه في الصعود ثمّ، بعد أن أصبح أوّل جامعي في عائلته الفقيرة المسحوقة، عمل بكلّ جدّ على بلوغ جميع مراحل الارتقاء إلى أن تخطّى حدود أن يكون «شيئاً ما في الحياة»، على الأقل في الجوانب المنظورة البادية للعيان: فكان له في بيته في (ميرامار)، وسيارته اليابانيّة المكيّفة، وساعته الذهبيّة السويسريّة، وزوجته وعشيقتيه، وملابسه الغربية الأنيقة، وعطره الزكيّ الغامر ما يقوم دليلاً على نجاحاته. كان الوحيد من بين أصدقاء فرناندو القدامى الذي التقاه هذا طوال منفاه الطويل، حين فاجأه الفلاح، أثناء مروره بمدريد،

قبل عامين، بمكالمة هاتفيّة. كانت جلسة شراب لا تنسى، وبدا كونرادو أثناءها سعيداً بلقاء صديقه، ولم يكشف عن أنّ تلك الزيارة كانت زيارته الألف لإسبانيا إلّا مع كؤوس الفجر الأولى. أدرك فرناندو حينها أنّ شيئاً ما تغيّر في كونرادو أو في ظروفه، لكي يتجرأ الفلاح المتحوّط الحذر على الخروج إلى الشارع مع صديق منفي. ولم يعاود كونرادو الاتصال به بعد تلك المرّة. في النهاية حاول فرناندو نسيان موضوع الزلّة والحسابات القديمة الأخرى بعد ساعات من الحديث أطلعه كونرادو أثناءها على أوضاع بقيّة شلّة «الساخرين» واستمع إليه وهو يعترف بأنّه لم يتصوّر في يوم من الأيام أنّه سيكون كاتباً: فقد كان الفلاح عالماً بأنّ ما ينقصه هو الروح والصدق وحبّ المغامرة، أمّا قصائد سنّ العشرين فلم تكن غير ردّ ذكي وماكر للبقاء ضمن تلك المجموعة من المشاكسين المعاندين الذين عاشوا على قناعة أنّهم قادرون على تغيير مسار البلاد الأدبي.

ترك فرناندو، ومن دون سابق تخطيط، ميغيل أنخل، الجالس على يمين آلبارو، إلى الأخير، لأنّه كان الشخص الأكثر إثارة لقلقه: كان للنِّغرو في ذاكرته حضور واسع ودائم، فقد رافقه من أيام الصف الرابع الوادعة، حين سكنت عائلته الحي الذي كانت عائلة فرناندو تسكنه، وأقامت في البيت الذي كانت تقيم فيه عائلة أصحاب محل بيع الخردوات (لامودرنا) الذين هاجروا إلى المنفى. لقد صمم ذلك الأسود القوي، الأطول بين زملائه، ومنذ البداية، على أن يكون قائد فوج الريادة، وكان الطالب الأبرز في المجموعة، وقد رأى فيه فرناندو دائماً نوعاً من الحرس الأحمر، المسلّح بالأفكار السياسية التي لا تقبل الأخذ والردّ، الواضحة كبطاقة العضويّة التي نالها بعد سنوات قليلة. لكنّ تلك القناعة السياسيّة، الموروثة عن أبوين شيوعيين ونقابيين عانيا السجن والمطاردة والتعذيب في سنوات دكتاتورية باتيستا،[12] كانت إحدى مكونات حياته

12- Fulgencio Batista (1901-1973) دكتاتور كوبا حتى سقوط نظامه عام 1959 على يد كاسترو وأعوانه.

اليومية التي كان من قبيل المعجزة، بحسب أركاديو، ألّا يفصح عنها في النصوص التي ألزم نفسه بكتابتها منذ سنوات شبابه الأولى. كانت قصصه البسيطة التي كتبها أيام دراسته، وروايتاه المنشورتان، خالية من المقاصد السياسيّة الواضحة، بل كانت، في كثير من الأحيان، تشي بسحر الأدب العظيم، وإن لم يبلغ ما كان يؤمّل منه، ربّما بسبب حاجته إلى الدربة التي لا تأتي في العادة إلّا بعد تمزيق أوراق كثيرة: كانت روايتا النِّغرو في نظر فرناندو درجاتٍ في سُلّم من التمرّن والتعلّم قادرٍ على الوصول به إلى شيء كبير. ولكن حدث أنّ جدار ميغيل أنخل الأيديولوجي، المشيّد من حجر واحد، والقائم على تحمس والديه للفكر الستاليني، وعلى الاعتداد المقاتل الذي كان يدافع به عن لون بشرته، انشطر إلى شطرين، وانتهى الأمر بإيمانه إلى حالة من الإحباط العنيف الذي ما كان له، في شخص مثله، إلّا أن يكون إحباطاً مناضلاً مقاتلاً. طُرد من المجلة التي كان يعمل فيها، بعد أن اتّهم بتبني أفكار البروسترايكا والرجعيّة، وكان في ذلك أوّل ضربة تلقاها من رفاقه القدامى، الذين اعتبروه منذ تلك اللحظة عدوّاً محتملاً وأصدروا عليه حكمهم وفق هذا الوصف، ولا سيّما حين علموا أنّه نشر، خارج كوبا، عدة مقالات تضع التزامه وقناعاته السابقة موضع الشك. بينما كان المرتد يراجع نفسه ويهاجمها، واصل الكتابة، وأفلح، كما أفلح من قبل، في ألّا تتعدّى قناعاته السياسية حدود منطقة الأدب. قبل أسابيع من ذلك، كان فرناندو قد تلقّى ما وصفه النِّغرو بالمسوّدة الأولى من روايته الثالثة. قرأ فرناندو باهتمام قصّة من القرن التاسع عشر تتحدث عن أناس عاديين، يظهرون ويختفون بفعل رياح التاريخ، في حبكة يمكن عن طريقها إجراء قراءة غير مباشرة للحاضر الكوبي، وإن عدمت أيّة إشارة مباشرة إليه. لكنّ فرناندو وجدَ في ذلك النص المُر الواعد، حيث تُعرض المأساة التاريخيّة لجنس محكوم بالعبودية والتمييز، ملامح عمل جليّ قاطع، يحمل ميزة كبيرة طالما تمنى أن يتصف الأدب بها: القدرة على التحريك، بجمال وقوّة.

لقد ولّدتْ فرصة مراجعة مواقف الوفاء والخيانة، وصور التغيّرات والمحصلات التي كست حيوات الأشخاص، شعوراً بالمرارة في نفس فرناندو: إنّ تركيب الماضي على الحاضر هي ممارسة شبه خادعة، لأنّها تشير إشارة مزعجة إلى عمليات إخصاء وإهمال من الصعب تصوّرها حين يكون الحاضر مستقبلاً، بينما يبدو الماضي من القِصَر أنّ في الإمكان اختزاله في كلمتين، في إرث بيئي أو جيني، وفي مواقف قليلة مقبولة. لماذا أفعلُ ما أفعل؟ سأل نفسه، لماذا أنا عاجز عن الاستمتاع بهذا اللقاء، عن الضحك قليلاً ونسيان ذلك الخراء كلّه وإلى الأبد؟ واصل سؤال نفسه، بينما كان يصب ما تبقّى في زجاجة النبيذ في كأسه وينظر إلى الشمعتين المشتعلتين في إحدى الزوايا، تنبض فيهما ذكرى فيكتور وإنريكه الهامدة، ذكرى البطل والشهيد: وهما القائمتان الناقصتان لتركيب تلك المنضدة التي تبدو غير قابلة للتركيب، والمبنيّة على الصداقة وإيمان الشباب البريء بالأدب والحياة.

كان خبر مقتل فيكتور في أنغولا، إثر انفجار لغم مضاد للدبابات وضع على أحد طرق الجنوب، واحداً من أشدّ ما تجرعه فرناندو مرارة وهو في محنة منفاه الذي وصل إليه مؤخراً. كان فيكتور، في نظر الجميع، أفضل «الساخرين»، فما كان بينهم من يشك في طيبة جوهر ذلك الخلاسي الطويل القوي الوسيم المتعافي، الذي فاز بالمرتبة الأولى في الدراسة وفاز بدلفينا، المرأة التي كان الجميع تقريباً يتطلّعون إليها، والتي كان فرناندو، وبعد عشرين سنة من الفراق، ربّما، يحبها... كان فرناندو بدأ صداقته مع فيكتور حين درسا في صف واحد ولعبا في فريق الكرة في الثانويّة الأساسيّة، ومع الوقت اكتشف أنّه يحسد ذلك الصديق كثيراً، فبينما كان يثقل على نفسه بالخطط والأهداف، كانت طموحات فيكتور بسيطة سهلة: اللعب بالكرة لمجرد اللعب، والكتابة إن استطاع الكتابة، وحب المرأة نفسها حتّى النهاية، وقراءة الكتب التي تعجبه قراءتها أو تناول الرون بلا إفراط من الزجاجة ذاتها التي رأى أحد أصحابه يفتحها

أمامه. لم يعرف عنه أنّه خاف أو كره أحداً أو تنافس مع أحد. عندما انتهوا من الدراسة، شاء حظ فيكتور أن يذهب للعمل مساعداً في معهد السينما، وما لبث أن أصبح، بفضل مجهوده، مديراً لقسم الأفلام القصيرة. حين بعثوا به إلى أنغولا مراسلاً حربيّاً، كتب مع ميغيل أنخل ما كان يأمل أن يكون سيناريو أول أفلامه الطويلة، وذهب إلى جبهة القتال وكأنه ذاهب إلى نهاية العالم أو لمشاهدة مباراة للكرة في ملعب هافانا: مطمئنّاً وبلا خوف. تطاير أشلاءً وهو ابن اثنين وثلاثين، تاركاً في محبّيه إحساساً بفقدان من لا يمكن تعويضه وسؤالاً فظيعاً: أين كان سيصل ذلك الرجل الذي كان يشعّ حناناً وإحساساً وذكاءً؟

في تلك اللحظة بدأت شمعة إنريكه ترتعش ساعية إلى شدّ انتباه فرناندو إليها وإجباره على أن يسأل نفسه ثانية: هل اختاره الموتُ أم قتلتُه أنا؟... إنّ إنريكه وذكراه يلحّان عليه كالهاجس، وإنّ على فرناندو أن يقرّ بأنّ إنريكه، وبعد سنوات طويلة على موته، ما زال يحافظ على موقعه في أن يكون مركزاً، ممثلاً بطلاً، شخصيّة يشار إليها بالبنان دائماً. كان كلّ شيء في حياته مسرحيّاً، حتّى خاتمة موته المبكّر. لقد بلغ إنريكه الغاية في غرابة أطواره، بحسب قناعة فرناندو، ليلة طلب، وكانوا حينها في الأسابيع الأخيرة من السنة الأولى من الكلية، عقب أولى لقاءاتهم في بيت آلبارو، إضافة «نقطة إلى محضر الاجتماع». قال لأصدقائه، لكي يكون كلّ شيء واضحاً ونظيفاً ومنظماً: إن كان أحدهم يظنّ أنّه مخنّث، فهو مصيب في ظنّه، لأنّه مخنّث فعلاً، ومنذ كان عمره اثني عشر عاماً، حين لاط به أستاذ التربية البدنية للصف الثامن، وهو خلاسي وسيم قليل الحياء شأنه شأن أيّ خلاسي وسيم، في قاعة الألعاب في المدرسة، طبعاً من دون عنف ولا ترهيب: فقد كان معجباً بالأستاذ الخلاسي، وكان هذا مغرماً بإجراء تمارين الإحماء لتلميذه. ولئن تكتّم دائماً على ميوله الجنسية وأخفاها فلأنّ ليس من الصعب على اللوطي المذنب العيش في كوبا، فما بالك باللوطي الذي يعترف بالتهمة ويقرّ بالذنب؟ صعبة أيضاً على أمثاله الدراسة من دون مشاكل في الجامعة، ففي كلية الآداب

تنظّم، كما يعرف الجميع، حملات تطهيرية قاسية ودورية بحقهم. كانت دهشة أصدقائه وذهولهم جديرين بأن يضمّا في مجموعة مختارة من حالات الدهشة والذهول: في كوبا لا أحد - أو لا أحد تقريباً- يقرّ بصفته المثليّة، وخصوصاً بتلك الطريقة المباشرة والخالية من أيّة عقدة أو رومانسيّة. كان الاعتراف من القسوة أنّ الجميع تقبلوا إنريكه بصدق أكبر، بعد أن زال الشكّ الذي كان يشوب صداقتهم. وصار هو، منذ ذلك الوقت، يحدثهم عن مغامراته العاطفيّة، بينما كانوا هم، بين استظراف وسوء ظن، يستمتعون وهم يستمعون إلى مغامراته المبتذلة أو يطلعون على معلومات عن المثليّة الخفيّة لدى شخصيات معروفة من عالم الفن والسياسة والتلفزيون، ممن كانوا في الواقع أقحوانات ضعيفة واهنة، من مثل الخلاسي الذي يظهر في التلفزيون شامخاً وبشاربين كثّين، أو من مثل أمين عام الشبيبة الشيوعيّة في الكلية، المناضل الذي أسميناه منذ ذلك الحين «طائر الشبيبة الحلو». كانت ميول إنريكه الأدبيّة تتجه، بالطبع، نحو المسرح، فكان، طوال سنوات الدراسة، هو من يؤلف القطع المسرحية التي تؤديها فرقة المدرسة التمثيليّة، بل كان يشارك أيضاً في التمثيل: فقد كان له سحر في الاستعراضات وكان يمتلك حسّاً في الإيقاع وسهولة في تمثيل الحياة، وكان أول من حاز على جائزة مهمة، شملت طبع الكتاب، الذي كان، مع الأسف، الوحيد الذي نشره في حياته، فبعد أن أنهى مدة السنة والنصف من الحبس، التي حكم بها بسبب محاولته الخروج من البلد بطريقة غير شرعيّة، بدت حياته حياة شخص آخر، مختلفة تماماً عن تلك التي عرفوها. وبعد أقل من عام، وبينما كان يجتاز جادة المرفأ، مات إنريكه بين عجلات شاحنة دهسته، من دون أن يعرف إن كان ما دفعه في تلك الليلة من عام 1979 إلى حديد تلك الشاحنة السوفييتية شرودٌ وخيم أم عزم وتصميم. اجتهدت نسمة لطيفة، لم تسمع شمعة فيكتور شيئاً عن أخبارها، في إطفاء شمعة إنريكه. ارتفع شبح دخان من الفتيلة ورقص لثوانٍ قبل أن يلتهمه الليل.

***

وأنا أراجع مسيرتي، بدت لي السنتان اللتان عشتهما في كوبا، راضياً مطمئنّاً، محموماً شهوانيّاً، وكأنّ من عاشهما شخص غريب لا أعرفه إلّا لماماً. كان عمري خمسة عشر عاماً حين منحتُ جسدي متعته وعقلي حريّته. ما كان من شيء يقلقني، حتى لقد ظننتُ أنّني أسعدُ رجل على وجه الأرض. لكنّ الشاعر، كما هو معروف، لا يمتلك حق الاستمتاع الكامل بنصيبه. فكّرتُ قليلاً في الأمر، وبدا لي أنّ اللحظة قد حانت لكي أصطنع لنفسي معاناة وألماً، وما أنسب لذلك من اصطناع حبّ مستحيل. من الإنصاف أن أعترف، ومن باب الأمانة، بأنّ بتينيا أعانتني بخبرتها على الشعور بذلك الحزن العاطفي المتكلّف، ومن الإنصاف أيضاً أن أعترف بأنّ الأفكار جرت في ذهني، وأنا مستلقٍ على سريرها الدافئ، جريان المياه في النبع.

كانت بتينيا، فضلاً عن جمالها، مطلعة على أكثر من وجه من وجوه الحياة، على الرغم من أنّ مهارة جسدها في تلبية رغبات جسد آخر هو كلّ رأس مالها. لذلك، ومنذ أن ماتت عذريتي بين ساقيها في أوّل الليلة، تحوّلت رغبتي في لقائها إلى هوس. وصار الراتب، الذي كنتُ أتقاضاه أسبوعيّاً من أبي لشراء الكتب ولمصروفي الخاص، يصبّ، أسبوعيّاً أيضاً، في خزنة مدام آن- ماري، التي أنعمت عليّ، بعد أن لمست فيّ وفاء الزبون ورأت شغفي المبكر بالنبيذ، وبعدما اطلعتْ على بعض أشعاري، بامتيازات سخيّة، من قبيل أن منحي تعريفة تفضيليّة (بالاتفاق مع بتينيا، التي راق لها أن تطبق معي فنون أدائها) أو السماح لي بتناول الغداء مع فتياتها، حين أتلو عليهن أشعاراً من تأليفي أو من تأليف غيري، لأمضي بعد ذلك القيلولة في صحبة الخلاسية البرازيليّة الدافئة والخروج أخيراً، وقد حلّ المساء، إلى الشارع وقد ارتويتُ وشبعتُ.

في إحدى تلك الأمسيات، وبعد أن أشبعتُ رغبتي، اعترفتُ أمام بتينيا، اعتراف النبيل الشهم، بمبلغ حبّي لها ومقدار شغفي بها. لم تستطع المرأة الرائعة، جرياً على الأسلوب الفرنسي الذي تمارسه، أن تضحك

منّي، وكان جديراً بها أن تضحك، بل حاولتْ أن توضّح لي السبب الكامن وراء تلك المشاعر، واجتهدت في أن تشرح لي استحالة أن تقوم علاقة بيننا.

- انظر إلى الموضوع هكذا لكي لا تعاني - قالت بلغتها الغريبة، التي فيها من التكلف قدر ما فيها من الموسيقى، وهي تلصق غابتها الرطبة السوداء على فخذي-: ببساطة، الأمر غير ممكن. أنا وأنتَ لا نستطيع أن نحبّ بعضنا إلّا بالطريقة التي نحن عليها الآن. أنتَ طفلٌ وأنا امرأة في الثانية والثلاثين. لن تلبث أن ترحل، وسيحملكَ المستقبل في مسالك لم تخطر لك على بال. ما بيننا هو هذا - بالغت في الضغط على فخذي وأمسكت بعضوي، فعاود الانتصاب - ولا شيء غير هذا. أنا عاهرة وأنا سوداء، وأنت أبيض، وفوق ذلك شاعر، بل أنتَ شاعر عظيم. حبكَ المستحيل لا يمكن أن يكون في ماخور، بل في قصر. اخترع ذلك الحب إن لم تستطع أن تشعر به، وغنّ له، واتركْ لي شهوتك ولذتك.

بفمها العجيب عالجت بتينيا ثورة عضوي الذي أثارته يدها المشاكسة، فقد كانت تعرف كم أستمتعُ بجرأة لسانها الناعم اللجوج. وقررتُ، في لحظة اللذة تلك، أن أتحوّل إلى شاعر غير محظوظ في الحب. ما كان ينقصني غير العثور على هدف حبّي المستحيل.

في ذلك الوقت، حين لا أكون في بيت آن- ماري أو في الجامعة، حيث سجّلتُ في السنة الأولى في كلية الحقوق، بقرار من والدي، اعتدتُ أن أهيم على وجهي في هافانا، بحثاً عن أسرارها وخفاياها. كنتُ أهربُ من بيتنا ما وسعني ذلك، إذ لم تكن شؤون الأسرة تسير على نحو مُرضٍ، فقد راح السلّ الذي ابتلي به والدي، وكان من قبلُ قويّاً، يضيّق عليه، وصارت الحمى والسعال المهلكان يشتدان عليه، بينما طال انتظارنا وتأخر رحيلنا إلى المكسيك، حيث كان والدي يحلم بالتعافي من مرضه بمساعدة المناخ الجاف الذي يميّز السهول المرتفعة في تلك البلاد. كان بيتنا آنذاك كالقفص، فالمرض والانتظار غيّرا طبعَ ذلك الرجل النزيه العادل

في كل لحظة من لحظات حياته، الحريص على أن يسود الصمتُ أرجاء البيت، وخصوصاً بعد أن صار يمضي ساعات طويلة في كتابة شيء عنوانه «مذكرات حول الثورات في فنزويلا، مأخوذة من وثائق غير منشورة يحتفظ بها فرانثيسكو هيريديا، عميد القضاة الذي كتبها لاستعماله هو، وذخرها لوقت قد يحتاجها لتذكير صاحب الجلالة بأحداث فريدة»، فقد كان ما يزال يأمل في عودة بلدان الأراضي اليابسة إلى السيطرة الإسبانية.[13] أمّا أمّي، ماريّا دي لا مرثيد، الشديدة القويّة، فكانت تسعى إلى الإبقاء عليّ تحت سيطرتها، كما هي حالها مع أخواتي والصغير رافائيل، لكنّ مهمتها صارت تصعب شيئاً فشيئاً، فبالمكر الذي بدأتُ أتقنه، تعلّمتُ الزوغان من أصغر ثغرة، متسلحاً دائماً بكذبة منقذة من تلك الكثيرات التي كان دماغي المضطرب يخترعها في اللحظة المناسبة.

أمّا لكتابة الشعر، فكنتُ أفضّل الجلوس في أيّة ساحة وجادة من ساحات المدينة وجاداتها. فقد كان غليان الشارع يدفعني ويحفزني. وحدث في أحد أيام الشباب المندفع تلك أن بدأ يتشكّل في ذهني قرار آخر من قراراتي المصيريّة: سأختار كوبا وطناً شعريّاً لي إن كان ذلك ممكناً. ففي ذلك البلد المسحوق والفاسد، الحيوي والكريم، كلّ ما يحتاجه الشاعر من الفتنة ليطلق لإبداعه العنان. فالناس هنا يعيشون بانتظار شيء لا أحد يعرف كنهه، ففي البلاد من أنصار الاستقلال ما فيها من أعدائه، وفيها من الذين يرقصون فرحاً لفتح موانئه أمام التجارة بقدر ما فيها من الذين يعلنون عن الكساد الاقتصادي الذي سيأتي بإجراءات التقشف، وفيها من الدستوريين قدر ما فيها من الملكيين، وممن يريدون الرحيل قدر ما فيها ممن يريدون البقاء... لكن من بين جميع تلك النماذج التي يمكن تصورها، ما كان من شاعر واحد يستطيع أن يصف نفسه بأنّه شاعر: لذلك لن يكون صعباً عليّ، بالحماس الشعري الذي

13- أو مملكة الأراضي اليابسة Tierra Firme وهو المصطلح الذي أطلق على مجموع الأراضي التي أصبحت تحت السيطرة الإسبانية بعد اكتشاف أمريكا عام 1492.

يفور في داخلي، أن أرتقي العرش في وطن للشعراء خالٍ من ساكنيه، بل وأن أزيّنه وفق مشيئتي وعلى هواي.

تحدثتُ عن هذه المسائل ساعات طويلة مع دومنغو، الذي كان أقلّ حظّاً مني في الشعر، وإن كان أمهر منّي في صناعة الخيال. عليّ أن أعترف بأنّه هو من كشف لي عن سوء هندام الأدب الكوبي، وعن سهولة البروز في عالمه، وبفضله أيضاً عثرتُ على حبّي المستحيل. خرجنا ذلك العصر القائظ في السادس عشر من آذار من عام 1818 من بيته متجهين إلى طاولة للعب القمار، وكانت بي لهفة إلى سرير بتينيا، حين توقفتْ عربة فخمة في مدخل الدار، وبعد أن نزل منها سيّد وسيدة رفيعا المقام، حطّ كائن رائع عجيب يشبه لعبة معمولة من البورسلان. سلّم دومنغو على الواصلين، وكانوا أصدقاء قدماء لوالده، وقدّمني لهم واصفاً إيّاي بـ «صديقه الشاعر»، وفي تلك اللحظة، حين رأيتُ ابتسامة مشجعة من الشابة، قررتُ أن أجعلَ منها هدفاً لحبّي. كانت الفتاة في الثانية عشرة من عمرها، ومشاعري نحوها بطبيعة الحال أفلاطونيّة، لذلك لن يجرؤ أحدٌ على أن يصفني بالتحلل والفساد. ثمّ إنّ تلك الحوريّة كانت تُبدي، وهي في سنّها، ما لا تبديه الكثيرات من نساء المناخات الدافئة إلّا في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، فكان في ذلك ما ينبئ عن أنها لن تلبث أن تصير أنثى رائعة. منذ ذلك الوقت أصبحت (إيزابيل رويدا إي بونثه دي ليون) الحب المستحيل المقيم في قلب الشاعر البائس، وإن تأخرت هي طويلاً لتكتشف ذلك.

في ذلك المساء، كتبتُ، وقد اتخذتُ من ظهر بتينيا المستلقية مكتباً لي، وبجرّة واحدة، مقطوعة شعرية تامة البناء، تتأجج حبّاً وغيرة، فقد شككتُ فيها بإخلاص حبيبتي إيزابيل:

انظري، حبيبتي، كيف ذبلت الوردة
من شعاع الشمس!

وكم يبِستْ!
وقد وضعتْها أمسِ يديَ العاشقةُ نديّة عاطرة
بين نهديكِ

لم تتطلّب كتابة الأبيات الأربعة عشر منّي سوى نصف ساعة، على الرغم من شرود ذهني بتأثير من منظر ردفي بتينيا الفخم. ما إن انتهيتُ من كتابة الأبيات حتى قرأتُها عليها، لكن حدث ما لم يكن في حسباني: سالتْ من عيني تلك المرأة الخبيرة بالحياة دمعتان حاولتْ إخفاءهما بأن قرّبتْ وجهها من وجهي لكي تقبلني بحنان فاق تصوّري.

- إنّي لأهبُ أيّ شيء لمن يكتبُ لي هذا الكلام الجميل، حتّى لو كان كذباً. إنّ امرأة لا تعشقك بعد أن تتلقّى منك قصيدة كهذه لهي امرأة حمقاء، بل صمّاء كالصخر...

رأيتها تنهض من الفراش، بجسمها العاري النحاسي المصقول، وتتجه إلى المنضدة التي كانت تحتل واحداً من جدران الغرفة. ومن دون أن تنظر إليّ همست ببعض الكلمات بلغة أجهلها، وبعد أن مرّرتْ يديها عدة مرّات على وجهها ورقبتها، فتحت واحداً من أدراجها وأخرجتْ صندوقاً صغيراً استخرجتْ منه، بكلتا يديها، وبعناية من يحمل طفلاً صغيراً، رزمة من القماش الملوّن بالأزرق الغامق والوردي. اقتربتْ ثانية من السرير وهي بعدُ لا تنظر إليّ.

- أريد أن أريكَ شيئاً لم يره أيّ رجلٍ من الرجال الذين دخلوا هذه الحجرة.

وضعت الصندوق الصغير على السرير وكشفتْ عن صورة غريبة لامرأة لها جسم سمكة، حورية بحر عظيمة الثديين، منقوشة على خشب أسود طعّم بأصداف بحرية صغيرة.

- إنّها والدتي (يمانجا)[14] - قالت لي بعد ما رأتْ من دهشتي. لقد سمعتُ مرّات عديدة، منذ وصولي إلى كوبا، كلاماً عن أولئك القديسين الذين جلبهم السود من أراضيهم البعيدة، تجسيداً لمعتقداتهم الوثنيّة، واعتادوا أن يقدموا لهم القرابين بقرع الطبول وذبح الحيوانات. لكنّي شعرتُ دائماً بالبعد عن ذلك العالم الذي ما كنتُ مهتمّاً بوجوده ولا بالتقرّب إليه لمعرفته.

- تلقيتها في (باهيا)، حين كنتُ في الثانية عشرة، وقد رافقتني على الدوام. إنّها ملكة البحار الزرق المتموجة، وملكة المياه الميتة أيضاً. إنّها أمّ كلّ شيء... في بلدي يقولون إنّها تسكن في بحيرة (أبايته)، عند شاطئ (إيتابوان). لكنّ السود المسنين يؤكدون أنّها تسكن في قاع البحر. تروى عن (يمانجا) حكايات كثيرة، كلّها سعيدة ومفرحة، لأنّها هي الفرح، وإن لم تكن كذلك مع من يعصي أوامرها... هي تساعدني على العيش، وتمنحني القدرة على المقاومة.

قبّلتْ حينئذٍ معبودتها الوالدة بورع وحنان طفوليين أثارا مشاعري...

لئن تذكرتُ أنّ كلّ هذا حدث في السادس عشر من آذار من عام 1818 فليس لأنّي التقيتُ يومها إيزابيل، ولا لأنّي كتبتُ تلك المقطوعة التي كانت دليلاً على احتضار علاقتي العاطفية وبرهاناً على سموّ شاعريتي الرومانسيّة. كلا. بل للطريقة التي مارسنا بها، أنا وبتينيا، الحبّ، ربّما تحت تأثير سحر تلك الأم العالميّة، ربّة الخصب والحبّ السوداء. لقد عبّر جسدانا وعقلانا عن إرادتيهما، بلا تجاوز ولا إفراط، بل برقّة وتسليم، فكأنما كانت المرة الأخيرة: قدّمت لي وردة دبرها الغامقة، فارتويتُ ثلاثاً من نبعه الذي لا ينضب؛ وحمّمتني بلسانها، منشفة معطرة ودافئة؛ وشربتُ حتّى الثمالة عصير بئرها الغائر العميق؛ وتنبأت هي لي بخلود الشهرة؛ ووعدتها أنا بقصيدة حب...

14- Yemanja. ربّة الخصوبة في الديانة اليوروبية التي تعدّ نيجيريا موطنها الأصلي. وهي في البرازيل الروح المجسدة للإله أولودومار، وتحظى بأكثر الاحتفالات شعبية هناك.

كتبتُ في تلك الأيام الكثير من القصائد نسجاً على منوال تلك الأبيات التي أهديتها إلى إيزابيل، وأنا اليوم أذكر محزوناً كم كانت سهلة كتابة الشعر: كنتُ أفكر شعراً، تأخذ أفكاري شكل السونيته،[15] وتنهال عليّ القافية حديثاً بسيطاً، وهكذا أرتجل، بذهني المعطاء، عدداً لا حصر له من القصائد على بحر الأحد عشر مقطعاً. ولكن، وبينما كانت بتينيا وكلّ الأصدقاء يصفقون لي ويثنون عليّ، بدأتْ تتولد لدى دومنغو أمارات منافسة شبابيّة عنيفة، كانت، من دون شك، البذرة التي سمّمت في ما بعد قلبَ المقامر الذي فيه. فقد لعب، من دون أن يقرّ بذلك، على ورقة أعظم أمنية في حياته، وهي أن يكون شاعر الجزيرة الأكبر.

لكنّنا اعتدنا في ذلك الوقت أن نخصص ساعات طويلة للحديث بحماسة عن الأدب، مع زملاء آخرين سائرين على درب الشعر أيضاً. كان مكاننا المفضل لتلك المسامرات هو ساحة السلاح القديمة، التي كانت أقلّ ازدحاماً من ساحة (ألاميدا دي باولا)، وأكثر قرباً إلى المركز من جادة (البرادو) الجديدة، لأنّها تقع في منتصف الطريق بين الجامعة ومعهد القديس كارلوس اللاهوتيّ الصاخب، حيث كان دومنغو وأصدقائي الجدد سانفيليو وسلفستري وثينترا يتلقون دروسهم الأولى في القانون المدني.

طالما حلمنا بتأسيس مجلّة ننشر فيها القصائد والكتابات التي ستغيّر وجه الأدب في الجزيرة. بدأ دومنغو يتكيّف على فكرة أننا مجموعة من الملهمين أتينا إلى الدنيا نحمل مهمة وضع تلك المستعمرة، المعادية لكلّ إبداع رفيع، والمجردة من أيّ تراث أدبي وأيّ كاتب شهير، على خارطة الثقافة. لكنّنا كنّا نعلم أنّ ليس من السهل محاولة رفع شأن الشعر في بلد ميّال إلى الرذيلة، بلد كلّ همّه هي حركة المال وكمية السود الذين يفدون سنويّاً، وصناديق السكر الذي أنتج والذي بيع، ونوعية التبغ وسعر الأراضي: لذلك ما كان يلاحظ في الجزيرة إلّا قليل من التململ

15- Soneto وهي صيغة من صيغ الشعر الغنائي الأوروبي.

في الوقت الذي كانت فيه أمريكا تتمرد من أقصاها إلى أقصاها على الإمبراطورية الإسبانية، لقد حمل نهر الحاضرة المضطرب، الحاضرة التي تلاحقها الغزوات وتتناوب عليها أيام من الحكم الدستوري وسنوات من الحكم المطلق، ومعه نهر البلاد المجاورة، المتورطة في حرب لا رجعة فيها، ثروة كبيرة إلى الصيادين من المهاجرين الأوروبيين والإسبان، فما كان من أحد يريد لحالة الأشياء أن تتغيّر...، حتّى أنا لم أكن أريد أن تتغيّر، وأنا الذي كنتُ أعدّ نفسي، كما علّمني والدي، إسبانياً من وراء البحار، ابن وطن مشترك منحنا مجدَ ديانة ولغةً وتاريخاً طويلاً.

في وسط الحمّى الشعريّة تلك قررتُ، ترسيخاً لموقعي المتقدم، جمع كلّ ما كتبتُ في فنزويلا وفي الأشهر المتفرقة التي عشتها في كوبا وجهّزتُ «مجموعة مختارة من مؤلفات خوسيه ماريا هيريديا الشعريّة»، وضعتُ لها اسم «الدفتر الثاني»، فقد كنتُ عملتُ، بكلّ قصد، «دفتراً أولاً»، جمعتُ فيه مختاراتي وترجماتي لشعراء كبار قدامى. وكما توقعتُ لم تكن دهشة أصدقائي قليلة حين رأوا ذينك الملفين من الأشعار والترجمات، ومن الدهشة ولد الحماس، ولا سيّما من طرف (سلفستري ألفونسو)، الأنقى بينهم والأغنى، وإن كان الأقل شاعريّة بين أعضاء المجموعة. كان هو من اقترح عرض كتاباتي على رجل له شهرة عالم وهالة قديس، أستاذ الفلسفة في معهد اللاهوت والعارف الحكيم الذي كان الجميع يتردد عليه لمعرفة الحقيقة. وهكذا دخلنا، عصر يوم من أيام تشرين الثاني، في موكب، واحدةً من غرف المعهد، حيث كان في انتظارنا رجل الدين ذاك الموعود بالقداسة. كان ما يزال شابّاً ولكن بوجه عجوز، هزيلاً إلى أقصى درجات الهزال، ذا نظرة نافذة وصوت رقيق وآمر، وكان اسمه فليكس باريلا.

كنتُ الوحيد الذي لم تكن للأب باريلا معرفة سابقة به. لذلك تولّى دومنغو، بعد أن سبق بقيّة الأصدقاء، تقديمي له، وذكّر البروفسور بسبب الزيارة. نظر الراهب، الذي صار مع السنوات أكثر علماً وبصيرة، مباشرة

إلى عينيّ وواصلتُ أنا النظر إليه، من دون أيّة رعشة من تلك التي تعروني في اللحظات الصعبة في حياتي: فإن كان يبحث فيّ عن شاعر فسيعثر عليه من دون شك. ابتسم باريلا أخيراً وبدأنا الحديث، بينما راح هو يقرأ نتفاً من هذه القصيدة أو تلك وهو ساكت، لا يدلي برأي ولا بحكم. حين انتقل إلى الترجمات، بدا له أن في الترجمة لهوراس وفلوريان[16] ما يدلّ على معرفتي الجيدة باللاتينيّة والفرنسيّة. ومن دون أن يدلي برأي ولا بحكم أيضاً أبعد الكراستين وغيّر مجرى الحديث ليخوض في مواضيع لم أجدها ذات بال. بعد نصف ساعة، استأذن باريلا بالانصراف، فقد كان لديه موعد في الأسقفيّة، وطلب منّي أن أعود لزيارته في الأسبوع اللاحق، بعد أن يكون قرأ أشعاري بتأنٍّ.

عدتُ في الأسبوع التالي قلقاً متطلعاً لمعرفة حُكم باريلا، واتجهتُ إلى غرفة الخوري في المعهد، والرعشة المعهودة تلمّ هذه المرة بساقيّ. وجدتُه يعزف على كمانه لحن فالس حزيناً. كنتُ اغتنمتُ الأيام التي فصلت بين لقائنا الأول وهذا في البحث عن معلومات تخصّه وطمأنني أنّه يخفي وراء صراحته وهزاله رجلاً صالحاً ذا ثقافة جامعة ومفاهيم فلسفيّة جريئة، وأنّه حلم ذات مرّة أن يكون عازفاً موسيقيّاً. أمّا السمعة التي عُرف بها فهي أنّه مدافع صُلب عن الشباب وعن كلّ ما هو جديد، وأنّه محبّ للنظام، كما برهن في إطرائه مؤخراً على فرناندو السابع، حين أثنى على سياسة الملك حيال جزيرة كوبا الوفيّة.

أثار الفتور الذي لقيني به باريلا ذلك العصر مخاوفي. لم يتوقف عن العزف وهو يشير إليّ بعينه أن أجلس، ولم يعاود الالتفات نحوي إلّا حين انتهى من عزف لحنه العذب. ابتسم أخيراً ووضع الكمان في قِرابه وبحث عن كراساتي.

- قرأتُ أشعارَك، أيّها الصديق الشاب، بعناية، وعليّ أن أعترف

16- Jean-Pierre Claris de Florian (1755-1794). شاعر وكاتب رومانسي فرنسي.
Horace (68 ق.م- 8 ق.م) من أشهر شعراء اللاتينية. عاش في روما القديمة.

لك بشيء أدركتُه منذ أن قرأتُ أولى قصائدك، وستفرح بالطبع لسماع ما سأقول: أنتَ شاعر. لكن عليكَ أن تتعلّم الكثير، وأن تبحث لك عن أسلوب، أن تبتعد عن القوافي السهلة... ليس لأحد أن يشكّ في شاعريتك، وليس في مقدور أحد أن يتنبأ بالمدى الذي ستصل إليه، وإن كنتُ أدري أنّك ستصل إلى مدى بعيد. فوجئت بقراءة هذه الأبيات لصبيّ في الخامسة عشرة من عمره، ولا أدري إن كان من المناسب والمفيد أن أعطيك نصيحة، لكنّي سأغامر بإعطائك واحدة: لا تسمحنّ لشعركَ أن يكون عاهراً. كنْ عاهراً أنتَ، إذا ما اضطررتَ إلى ذلك من أجل العيش، لأنّ الحياة نعمة منحنا الربّ إياها وعلينا أن نحافظ عليها بأيّ ثمن. أمّا الشعر فهو معجزة، وقد وقع اختيار العناية الإلهية عليك لكي تبدع جمالاً... ستعاني حسدَ الرجال، وستسمع أحكاماً قاسية، وستشعر بالاحتقار وبالحقد، وستتعرض بالتأكيد للخيانة مرات ومرات، لكنّك ستسمع الكثير الكثير من الإطراء وستكون محبوباً ومُكرّماً: حاول أن تتجاهل أغاني حوريات البحر تلك وعواء الذئاب. ربّما لن تفهم الآن ما أقوله لك ولا سببه. لكن سيأتي يوم سيحاولون فيه أن يستعملوك، أن يشتروا منك أشعارك ونبوغك، لأنّ الطغاة يستهينون دائماً بالشعر ويعلمون أنّ الشاعر المتكسب الذليل أكثر قيمة من الشاعر الميت، وأنّ في مقدور القصائد أن تضفي بريقاً على زوايا طغيانهم. تذكر هذا. أمّا البقية فستتعلمها وحدكَ، لأنّ فيك من النبوغ والرغبة ما يكفي لتصبح شاعراً ويزيد...

عاودتني الرعشة التي اختفت وأنا أستمع إلى باريلا. عاودتني حين مددتُ يدي لتناول الأوراق، التي بدت ثقيلة خشنة، فكأنّها حُمّلت بالطين. كم شعرتُ بالخجل، وكم تمنيت لو أنّ الأرض بلعتني، وأنا أتذكّر ضحكَ بتينيا من الأبيات والأفكار التي كررتها في قصائدي للفنزويلية خوليا والأثيريّة إيزابيل، أو الألم الذي تكلّفتُه في البكائيات التي كتبتها عند رحيلي عن كاراكاس، وكنتُ في الحقيقة مسروراً لخلاصي من

ذلك الجحيم! كم شعرتُ بالخجل وكم تمنيتُ لو أنّ الأرض بلعتني إذ تذكرتُ كلّ ذلك وأنا في حضرة رجل تنبأ في خمس دقائق ما سيقع لي في هذه الرواية الحزينة التي كانت عليها حياتي.

***

- نعم، له صوتُ المعجزة.- ضرب الدكتور مندوثا ببراجم أصابعه على الورق الذي بهتتْ صفرته وامتلأ بآثار الطي -. لا أحد يعرف كيف وصلتْ هذه الأدراج المباركة إلى مكتبة دار الوثائق الوطنيّة.

- فحضرتك إذن تؤمن بالمعجزات، أستاذ؟- سأله آلبارو بينما كان يشعل سيجارته.

ابتسم الدكتور مندوثا.

- طبعاً، ما زلتُ أذكر... قلتُ لك إنّك لن تنجح في الفصل إلَّا إذا وقعت معجزة، وأخيراً حصلتَ على خمس درجات.

- لم أدرس في حياتي كما درستُ تلك المرة. أتريد أن أقرأ عليك حرب بلاد الغال؟[17]... «تنقسم بلاد الغال إلى ثلاثة أقسام، يقطن البلجيكيون في أحدها، والقسم الآخر هو أكيتانيا، أمّا القسم الثالث، ولغتهم هي اللغة السلتية، فهو ما نسميه غاليا...».

أحسّ فرناندو بمدّ حنينه يرتفع، وإن اعترف بأنّ الدكتور مندوثا بالذات لا يشغل مكاناً بين أجمل ذكرياته عن الجامعة. الرجل العجوز الذي يراه الآن نحيفاً ضعيفاً وفي جلده ألف ثنية وثنية، كان، آنذاك، عظيم الجسم، يبلغ من العمر ما يبلغه هو الآن، وكان مصمماً على أن يعلّمهم لغة غريبة، وبأيّ ثمن كان. مع ذلك، فقد حمله فعلُ السنين وقناعته بصحّة ما كان مندوثا يذهب إليه على أن يشعر بألفة نحو معلّم اللغة اللاتينيّة العجوز، الذي صار أمين مكتبة المحفل الكبير.

انتظرهم مندوثا في مدخل البناية التي كان فرناندو يدخلها للمرة

17- بلاد الغال أو Galia هي فرنسا القديمة.

الأولى في حياته. كان قد مرّ آلاف المرات بالباص أو سيراً على الأقدام من أمام كتلة الإسمنت تلك، المتوجة بكرة أرضيّة يقوم فوقها الفرجار والكوس اللذان يؤطران حرف G لامعاً، يشير إلى «الرب» الشامل خالق الماسونيين، وقد شعر فرناندو على الدوام بفضول صوفي لمعرفة ما يمكن أن يعنيه ذلك النوع من القيادة الوطنيّة للغموض الماسوني. لكنّه صار يعدّ الماسونيّة، بعد أن وصفت بالمؤسسة الرجعيّة والبرجوازيّة، قبيلة من قبائل ما قبل التاريخ محكوماً عليها بالزوال. ربّما لهذا السبب كان يشبهها بالغيتو الغامض الذي يلوذ به القليل من الرجال المسنين– تخيّلهم دائماً يرتدون البدلات وأربطة العنق–، الحريصين على المحافظة على فكرة سامية وطقوس ستكنسها، كما هي حال الدين، رياح الأزمنة الجديدة. لكنّ الماسونيين أفلحوا، في النهاية، كما أفلح رجال الدين، في البقاء على قيد الحياة، بعد أن قبلوا بعدد لا حصر له من التغييرات الظاهرية والممارسات الباطنيّة الاجتماعية، وبعد أن أثبتوا إيماناً فريداً بتآخيهم وقدرة عنيدة على الصمود.

– معلّمي. هل تسمح لي بسؤال؟... هل كنتَ حضرتك ماسونيّاً حين كنتَ تدرسنا؟

حدّق مندوثا في عينيّ فرناندو ثم خفض بصره نحو الأوراق التي قد تقود إلى رواية هيريديا الضائعة.

– توقفتُ عن الذهاب إلى المحفل طوال عشرين عاماً. كنتُ نائماً، كما نقول... في ذلك الوقت ما كان أمامي من بدائل، وكان عليّ أن أختار بين المحفل والجامعة.

– فهمتُ... ولماذا ترى في ظهور صناديق الوثائق هذه معجزة؟

– لأنّ أوراق المحافل الماسونيّة تحفظ في المحافل، أو يؤتى بها، إن كان من سبب خاص، إلى هنا، حيث السجل المركزي. في وقت ما، بين عامي 1932 و 1933، يبدو أن أحداً ما أدخل هذه الأوراق في دار الوثائق الوطنيّة ثم نسيها، أو لم يستطع إخراجها، الله أعلم لماذا. الغريب أنّها لا

تحمل رقم الواردة، ثمّ إنّها رزم وأضابير متفرقة، فكأنّها اختيرت كيفما اتفق... أمّا أنا فلديَّ انطباع بأنّ الشخص الذي حضّر ذلك الدُّرج أراد ألّا تضيع هذه الورقة، هذه الورقة بالذات. لأنّ بقية الأوراق لا تحتوي على أشياء مهمة، بل هي أوراق عادية.- رفع مندوثا الورقة المطبوعة على الآلة الكاتبة ونظر إليها، وكأنّه يراها لأوّل مرّة-. الغريب أنّها كتبت في ورقة منفصلة.

- لماذا؟

- لأنّ المحاضر موجودة في سجلات خاصة بها، وهذه السجلات، كما هو معروف، تكتب بخط اليد. وممّا زاد في تعقيد القصّة، أنّ ذلك المحضر، أي الأصل الذي أخذت منه هذه النسخة، ما زال في سجله... لكنّهما ليستا متطابقتين، ففي هذه تفاصيل لا تحتويها تلك.

- لا أفهم شيئاً - اعترف آلبارو.

- فكأنّ أحداً يصرّ على معرفة ما جرى في تلك الليلة - قال فرناندو.

- بالضبط. طلبتُ منهم أن يعملوا لي نسخة مصوّرة، لكنّ هناك أمرين أو ثلاثة أريد أن أخبركم بها. الأول هو أن تتعاملوا مع هذه القصّة بحذر. فوراء هذا كلّه سبب قاهر...

- لا أفهم ثانية، معلّمي - قال آلبارو-. الحذر من ماذا؟

- انظر. لقد سألتُ في محفل «أبناء كوبا» في (ماتانثاس)، وما من أحد يعرف شيئاً عن تلك الوثائق. وإذا كان الماسونيون قد امتلكوها في وقت من الأوقات، لأنّ ابن هيريديا سلّمهم إيّاها، فما الذي يفسر عدم وجودها في المحفل؟ ولماذا لم يتكلّم أحد عنها ثانية؟ ولماذا ما تزال مفقودة أو مخبأة؟ لا بدّ أنّ شيئاً خاصّاً جدّاً كان موجوداً في تلك الأوراق. لذلك أظنّ أنّها ليست رواية...

- ربّما ليست رواية - وافق فرناندو-. حسب علمي، لا أحد يعرف ما هو مكتوب في تلك الأوراق، إن كانت هي الأوراق نفسها التي أظنّها.

كلّ ما يعرف منها هي ملاحظة لزوجة هيريديا تتحدث فيها عن مخطوطة لا يجب نشرها. أمّا قصّة أنّ هيريديا كان يكتب رواية عن حياته فقد اخترعها صحفيّ مكسيكي بعد وفاته.

- رواية لم يرها ذلك الصحفي. تذكروا الآن أشياء أخرى- وبدأ يعدّ على أصابعه-: أولاً، هيريديا كان شاعراً وليس روائيّاً؛ ثانياً، إنّه كان مريضاً بالكذب، شأنه شأن أيّ شاعر؛ وأخيراً، هيريديا لم يترك أيّ دليل نصيّ مؤكد يشير فيه إلى شيء يفترض أنّه كتبه قبل وفاته بقليل... وإذا لم تكن الأوراق إلّا رواية، فعلامَ هذا الغموض؟ ولماذا أخفوها طوال تلك السنين؟

بدأ فرناندو تيرّي يتجوّل متوتراً. إنّه يعرف الأدلّة التي يقدمها مندوثا، لكنّ سنوات دراسة حياة هيريديا ونسبة رواية (تشيكوتنكاتل) إليه، وهي نسبة فيها أخذٌ وردّ، وإن كانت ممكنة، فضلاً عن تعليقاته المضيئة والمبكرة حول الرواية التاريخيّة، لطالما دعمت شكوكه. لقد سعى لسنوات عدة إلى البحث عن خيط يقوده إلى تلك الوثائق، التي لا يوجد عنها إلّا أخبار قليلة غير مباشرة لم تقد إلّا إلى تكهنات جديدة يزداد الشك فيها يوماً بعد يوم. أمّا الآن، ومع وجود المحضر الماسوني، فيمكن، وللمرة الأولى، تأكيد وجود وثيقة يبدو أنّ أحداً لم يقرأها، ويمكن أن تكون الرواية المذكورة التي كتبها هيريديا بين عامي 1837و 1839، قبل وفاته بقليل. كان فرناندو يصاب بالرعشة لمجرد التفكير في احتمال العثور على ضالته: فقد تصبح تلك الأوراق النصَّ الأهم عن الأدب الكوبي، ولذلك جاهد في تعزيز آماله.

- إذا كشف ذلك المحضر عن أنّ خوسيه دي خيسوس ترك للمحفل أوراقاً تعود إلى أبيه ولا يمكن نشرها، فلا بدّ أنّ مردّ ذلك سبب قاهر، كما تقول حضرتك، يحول دون أن يبيع تلك الوثائق، لأنّ الرجل كان سيبيع حتّى أمّه لو وجد لأمّه شارياً...

- لذلك ما زلت أستغرب الأمر - قال أمين المكتبة.

- لماذا تستغربه، بروفسور- تدخل آلبارو، بعد أن أشعل سيجارة

أخرى- وهذا هو الجيد في الموضوع... أسألك عن شيء آخر: هل هناك آخرون يعلمون بمضمون ذلك المحضر؟

- أعطيت نسخة إلى الجامعة ونسخة أخرى إلى باحث يعمل في دار الوثائق الوطنية في (ماتانثاس). وأخرى للمحفل، بالطبع. فليس هذا موضوعاً خاصّاً. لكنّي أثق بحضراتكم أكثر. هل تعلمون شيئاً؟ مهما كان مبلغ «سخريتكم»، لم أرَ بعدكم مجموعة من الطلاب مثلكم. منذ أن بدأتُ الدروس معكم كنتُ أعلم أنّكم لستم أناساً عاديين. ما صار إليه أمر دلفينا؟... من المؤسف أن فيكتور وإنريكه ماتا وهما في ريعان الشباب، ومؤسف أيضاً ما فعلوا بك - قال وهو ينظر إلى فرناندو.

- ما عدت أذكر ذلك، معلمي - كذب فرناندو كذبة مفضوحة-. ما كنتُ على أيّة حال أنفع أستاذاً.

- وممّ تعيش في مدريد؟

حرك فرناندو رأسه وهو يبتسم. ليس سهلاً التغلب على الدكتور مندوثا.

- أعمل أستاذاً.

- تأسفتُ كثيراً أن طردوك من عملك في الكليّة... بدا لي ذلك سخافة وقد قلت ذلك للعميدة وإن لم أستطع أن أفعل شيئاً. وماذا كان في مقدوري أن أفعل؟ لكنّي أشعر أنّ واجبي كان يحتّم عليّ أن أفعل شيئاً. المهم. أنا الآن عجوز بائس، أتقاضى راتباً تقاعديّاً لا يكاد يسد الرمق، ولئن شربت اللبن وأكلتُ اللحم فلأنّ ابني الأصغر، ابني الذي لم يدرس، لديه كشك في سوق للفلاحين ويكسب قريباً من خمس مئة بيزو في اليوم من بيع لحم الخنزير وسرقة الناس. يكسب في اليوم ما يقرب من ثلاثة أضعاف ما أكسب شهريّاً...

- أشكر لك أنّك ذكرتنا حين عثرتَ على تلك الورقة.- عاود فرناندو الجلوس-. حضرتك تعرف ما تعنيه هذه القصّة بالنسبة إليّ.

- ليتكم تعثرون على شيء - قال ونظر ثانية إلى عيني فرناندو.

- وماذا ترى أن علينا أن نفعل؟

عاد مندوثا ينظر إلى الرزمة.

- إن جئتَ للبحث عن تلك الأوراق فابدأ بالبحث عنها. كان ابن كارلوس مانويل ثرنودا في مرات عديدة «الخبير الموقر» في محفل «أبناء كوبا». لديَّ عنوانه. أظنّ أنّه يمكن أن يكون البداية، أليس كذلك؟

***

ضرب كارلوس مانويل ثرنودا بالمطرقة الثقيلة على اللوح، فسرى صوت لم يلبث أن تحوّل إلى أمرٍ ترددت أصداؤه في أركان المعبد من «المشرق» إلى «الحراسات» عند «المغرب» وعند «الجنوب»، فنهض الرجال الستة والثمانون من مقاعدهم. بدت «عين العناية الإلهيّة» من فوق عرش «الخبير الموقّر الأكبر» ترقب من مثلثها ذي الأنوار السبعة، ديكور القاعة المثقل بالرموز، والذي يلخّص الكون: السقف ذو القبّة الزرقاء، الجهات الأربع والتماثيل الناصعة البياض تلك التي تمثّل (مينيرفا) و(هرقل) و(فينوس) تسبح في ضياء أعمدة سليمان التي ترمز إلى «القوة» و«الاستقرار»، المضاءة في قمتها الرخامية بكرات من الكريستال مزينة بالكرة الأرضيّة والكرة النجميّة. ثلاث شموع كبيرة تنير «مذبح القسَم»، حيث ترقد أسمى رموز «الأخوّة»: الدستور الماسوني فوق فرجار وكوس بناة القباب والعقود القدماء. بالقرب منها الكتاب المقدس، الذي هو «دستور» «مهندس الكون الأعظم»، مفتوح على المزمور 133 لكي يتذكّر كلّ «خبير» و«صانع» و«مبتدئ» وإلى الأبد «أنشودة الصعود» تلك، التي رتلها داود في أيّام الأصول.

هُوَذَا مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَسْكُنَ ٱلْإِخْوَةُ مَعاً

مِثْلُ ٱلدُّهْنِ ٱلطَّيِّبِ عَلَى ٱلرَّأْسِ، ٱلنَّازِلِ عَلَى ٱللِّحْيَةِ، لِحْيَةِ هَارُونَ، ٱلنَّازِلِ إِلَى طَرَفِ ثِيَابِهِ

مِثْلُ نَدَى حَرْمُونَ ٱلنَّازِلِ عَلَى جَبَلِ صِهْيَوْنَ. لِأَنَّهُ هُنَاكَ أَمَرَ ٱلرَّبُّ بِٱلْبَرَكَةِ، حَيَاةٍ إِلَى ٱلْأَبَدِ.[18]

من عرشه الكائن في «المشرق»، الذي ارتقى إليه صاعداً درجات الحكمة السبع - النحو والبلاغة والمنطق والرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك-، حيّا كارلوس مانويل ثرنودا بإيماءة من رأسه خوسيه دي خيسوس هيريديا، الذي كان جالساً على يمينه، فكأنه يستأذنه للبدء بالطقوس. وبإيماءة بسيطة أعطى العجوز الإذن، فدقّ الخبير الموقر بعناية مطرقة نقاشي الحجر، وسرى صوته الغائر الوقور في الهيكل ناقلاً هيبة مرتبته.

- أخي الحارس الأول، هل أنتَ ماسوني؟

- يعلم إخواني أنّي ماسوني، أيّها الخبير الموقر- أجاب من «المغرب» راميرو خونكو، الحارس الأول للهيكل، وهو رجل شديد الهزال، بدت بدلته واسعة عليه وأوشك مئزر الخبير أن يهبط إلى ما دون وركيه.

- أخي الحارس الثاني، كم عمرك؟ - سأل «الموقر» وهو ينظر إلى مرتفع صغير في ناحية الجنوب، من حيث ردّ عليه الحارس الثاني بطريقته، وهو بقّال أسود.

- خمسة عشر عاماً، أيّها الخبير الموقر - قال كانديدو ألفونسو، في إشارة إلى سنوات عضويته.

- ما هو واجبك الأول في المحفل، أيّها الأخ الحارس الثاني؟

- حماية الهيكل من تدخّل الغرباء.

- تكرّم بتنفيذ ذلك- أمر ثرنودا، ثم تناول رشفة من الماء المخلوط بالأملاح الصفراوية، الموضوع إلى جانبه، للتخفيف من ثقل أكلته

18- الترجمة مأخوذة من http://listen.bible.is/ARZVDV/Ps/133

المفضلة من سمك القدّ المتبل على طريقة (بثكايا)،[19] التي تناولها في مطعم (نبتون)، مع علمه بعاقبة ذلك على مرارته.

في تلك الأثناء كان الحارس الثاني يعطي الأوامر إلى رعاياه.

- أخي الشمّاس الثاني، انظر إن كانت حراستنا مؤمنة.

دقّ ريكاردو خونكو، الواقف بالقرب من مدخل القاعة، ثلاث مرّات على الباب بمقبض سيفه البرّاق، ليتلقّى، من الطرف الآخر، جواباً مشابهاً: ثلاث دقات صماء على الخشب.

- أخي الحارس الثاني، الهيكل محروس كما يجب - أعلن ريكاردو خونكو، وأبلغ الحارس الثاني، وقد يمّم وجهه مجدداً شطر «المشرق»، بنتيجة السؤال.

- أيّها الخبير الموقر، هناك أخ يحمل سيفه ويحرس داخل الباب بمودّة وحبّ أخويين، وهناك أخ آخر غيره يحرس خارج الباب بالسلاح نفسه وبالشعور ذاته، لكي لا يقترب أحد ويسمع...

تابع الرجال الستة والثمانون، واقفين ومتزينين بالجواهر والمآزر التي تدل على مراتبهم، المراسم المهيبة لافتتاح جلسة المحفل الماسوني «أبناء كوبا» المنعقدة في الحادي عشر من نيسان من عام 1921. كان حرص الماسونيين اللامتناهي يحاول الإبقاء طيّ الكتمان على أسرار إخوانيّة ترجع أصولها إلى أيام بناء هيكل سليمان، أكثر ملوك اليهود حكمة، وأول زعيم خشي السلطة الموازية لإخوانية الرجال الأحرار تلك، الذين أقسموا على طاعة أهداف مُعلّمهم البنّاء.

- تفضّلوا بالجلوس إخواني - قال الخبير الموقر، الذي استدار نحو خوسيه دي خيسوس، وكأنه يقدم له المقعد باهتمام خاص. علا صوت الأجساد والكراسي للحظة بين جدران المكان ولم يبقَ واقفاً في مرتفع «المشرق» إلّا خبير المراسم بانتظار عودة الهدوء. كان سيرافين دل مونته

19- Vizcaya هي إحدى محافظات إقليم الباسك الإسباني.

رجلاً أشقر بحمرة، له ملامح فلاح، لكنّه كان يرتدي بدلة مفصلة على قياسه، تطل من أكمامها ساعة ذهبيّة العقارب والأجراس.

- أيّها الخبير الموقر، أيّها الأخوة المحترمون - قال ثمّ أمسك عن الكلام في توقف تمثيلي-. لقد شاء مهندس الكون العظيم أن يلتئم شمل محفلنا هذه الليلة لمناسبة خاصة جدّاً. هنا، وعلى جهة «المشرق»، لدينا واحد من إخواننا الذين وهب مؤسستنا جلّ نصيبها من الشهرة والسمعة على مدى سنوات حياته الماسونيّة الستين. لذلك فإنّ محفل «أبناء كوبا» الأم، الذي شهد بداياته في عام 1861، يتشرّف اليوم بمنح مرتبة «الخبير الموقر» مدى الحياة للأخ المحترم الجليل خوسيه دي خيسوس إي يانيث.

عاود الرجال الستة والثمانون الوقوف وصفقوا بحرارة. نزل كارلوس مانويل ثرنودا حينئذٍ من أعلى نقطة في الهيكل واقترب من المحتفى به ومدّ له يده بلطف. استند خوسيه دي خيسوس على ذراع «الموقّر» ونهض، رافعاً على صدره ظرفاً أصفر مربوطاً بشريط بنفسجي فاتح. عانقه ثرنودا وخلع حلية التوقير، في بادرة غير مألوفة، وعلقها على عنق العجوز: تلألأت المسطرة الفضيّة، المتدلية في شريط حريري أزرق سماوي، والمزينة بسبع نجوم، من الفضة أيضاً، على صدر آخر الأحياء من ذريّة خوسيه ماريا هيريديا.

- أخي هيريديا المحترم- قال له كارلوس مانويل-. أطلب منك باعتبارك «الخبير الموقر مدى الحياة» أن تشرفنا بترأس جلسة هذه الليلة.

قبل خوسيه دي خيسوس، الذي كان خبيراً موقراً للمرة الأخيرة عام 1906، الطلب المهذب وصعد، وهو يحاذر أن تخونه ساقاه، إلى أعلى نقطة من «المشرق» الماسوني. لاحظ كارلوس مانويل ثرنودا في تلك اللحظة أنّ بدلة العجوز كانت بالية البطانة، من المؤكد بسبب الاستعمال الكثير. بعد أن جلس على العرش، تحسس خوسيه دي خيسوس المطرقة، التي لم يمسك بها منذ سنوات، وضرب بها ثلاث مرات ليوعز بمواصلة أعمال الجلسة.

حينها احتلّ الأخ «الخطيب»، وهو رجل طويل وقوي وذو مظهر لطيف، وسط ساحة «المشرق» ووجه نظرته ناحية المذبح، مع كتابه المقدس، وفرجاره وكوسه. وبرهن كريستوبال أكينو، الذي اختير من جديد لتلك المهمة، في تلك الليلة على مدى إجادته لفن البلاغة الماسونيّة.

- إخوتي الموقرون: منذ مئة سنة، في البناء البسيط الذي يقوم في الأراضي التي يشغلها اليوم محفلنا المحترم العزيز، محفل «أبناء كوبا»، أنشئ أوّل معبد ماسوني في مدينة (ماتانثاس)، أسسه المدعوون بـ «الفرسان العقلاء». في تلك الأوقات، كانت الماسونيّة الحديثة تعيش طفولتها في كوبا، وكان النظام الكولونيالي الغاشم يرى فيها عدوّاً محتملاً من منظور الأفكار الديموقراطية والأفكار المؤمنة بالحريّة الشخصيّة التي طالما ألهمت إخوانيتنا. لذلك كان الانخراط في الماسونيّة في تلك الأوقات يتمّ بقدر كبير من السريّة، ويستدعي أداء قسم الولاء والكتمان، فقد كان الانتماء إلى الماسونية وحده عملاً ينطوي على مخاطر لا تعدّ ولا تحصى... بين جدران المعبد العتيقة تلك، وفي ليلة تاريخيّة، تكاتفت أيادي عدد من الرجال الشجعان، حاملة سيفاً حادّاً، في إشارة إلى أخوّة لا تقهر حتّى في أسوأ الظروف والأحوال. وراح كلّ منهم، الواحد تلو الآخر، يردد القسم الذي دعتهم الأزمنة إلى ترديده: «هل تقسمون بهذا السيف على الدفاع عن الاستقلال والموت من أجله؟»، وقال المبتدئون: «أقسم»، ثمّ يأتيهم الردّ: «إن فعلتم ذلك فإنّ أمريكا ستجزيكم عن فعلكم خيراً». وشاء الحظ، وكان ذلك من دواعي الفخر لمؤسستنا، أن يكون من بين أولئك خوسيه ماريا هيريديا إي هيريديا، وكان حينها طفلاً لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وقد بدأ حينها يشتهر، بسبب قصائد الحب المتوهجة والوطنية المتأججة التي كان يكتبها، ومهووساً، منذ ذلك الحين، بواحدة من أعظم أمنياته: حريّة كوبا. وكان لذلك القسم، الذي ردد ليلة الحادي والعشرين من أيلول من عام 1822، أن يغيّر وإلى

الأبد حياة السعادة والدعة التي كان يحياها شاعرنا الشاب، ليضعه على أصعب الدروب وأشدها قسوة، درب ملتوٍ قاده إلى أن يعاني النفي وظلم الطغاة والمرض والذل والخيانة التي لا يمكن وصفها، وإن جعل منه، بأخلاقه الراسخة وطبعه الصلب، المنافح الأكبر عن الديموقراطية، والرجل العادل الذي دافع، أيام كان في المكسيك، بحرارة عن قيمة الدستور، وأوصله، بفضل أحاسيسه الرائعة، إلى أن يصبح أب الشعر الكوبي، وروح الوطن الرقيقة وشاعر كوبا الوطني، الرجل الذي كان، بحسب تعبير أخينا خوسيه مارتي إي بيريث،[20] أوّل شعراء أمريكا، هادر كباطن أراضيها، هادئ كهدوء جبالها...

***

شيئاً فشيئاً بدأ فرناندو يألف كمائن الذاكرة، ويحاول التعايش معها، لكنّه لم يفلح قط في التعافي من هجماتها الغادرة وصدماتها الخؤون. كانت في البداية شديدة، كلّ يوم تقريباً، بل مؤلمة. خلال تلك الشهور التي عاشها كالمنبوذ، أسيراً في حدائق (الأورانج باول) في ميامي، يعاني حرّاً قاتلاً، وتتردد في سمعه الشتائم التي على كلّ من يحاول الخروج من كوبا أن يسمعها، وقع فرناندو في أولى تلك الكمائن حين صار يرى في وجوه آلاف اللاجئين الخارجين من الجزيرة من ميناء (مارييل)[21] وجه صديق من الأصدقاء الذين ركبوا البحر مثله نحو منفى بلا عودة. لكنّ كمائن الذاكرة أصبحت، بعد ذلك، سريعة ومتفرقة، حين استردتْ حياتُه وقع حركتها وعمل ما وسعه من الساعات؛ صارت تتبخر بالسرعة ذاتها التي تظهر فيها، ربّما مخففة بسبب التعب والعجلة التي كانت تدفعه للتموضع في عالم جديد. لكنّ سهام تلك الذكريات عادت، في السنوات الأخيرة، تترصده وتلحّ عليه، بعد أن ظنّ أنّه شفي تماماً منها.

20- José Martí (1853-1895). بطل الاستقلال الكوبي ومن أبرز أعلام الأدب في أمريكا اللاتينيّة.

21- Mariel هو الميناء الذي شهد عام 1980 نزوح آلاف الكوبيين إلى ميامي الأمريكيّة، على الجهة المقابلة للسواحل الكوبيّة.

آخر هجمات ذاكرته وقعت له قبل أيام قليلة من عودته إلى كوبا. ومع أنّه كان يألف تلك الرؤيا المكررة، فقد داهمته هذه المرة بقوة كان حسبها زالتْ وانقضت: كان عند شباك الحساب في (بريكا)، ليدفع ثمن طقم القدور الذي قرر شراءه لأمّه، حين رأى دلفينا تخرج من كافتيريا وتقترب منه. أحسّ بقلبه ينط من مكانه، انقطعتْ أنفاسه، بل لقد رفع يده ليسترعي انتباه فتاة في الثلاثين من العمر، سوداء الشعر، واسعة العينين، طويلة الساقين، واصلت طريقها بخطوات واثقة ورشيقة، وخلّفته وراءها عالقاً بين أشواك الواقع المسمومة.

كان طيفا إنريكه وأمّه هما اللذين زاراه أكثر من سواهما. كانا يظهران له في المطاعم، في عربات المترو، في الحدائق، في دور السينما، في محلات بيع الكتب، وربّما ظهر له أيضاً أصدقاؤه «الساخرون» الآخرون، بمن فيهم المرحوم فيكتور. حتى رجل الأمن رامون كان ينط عليه من بين الضباب، ليتركه وقد جفّ فمه وبات مرّ المذاق. مع ذلك، فمن بين جميع النساء اللاتي أغرم بهنّ في كوبا، كانت دلفينا، وهي الوحيدة التي تمناها في السرّ، والوحيدة التي لم يداعبها، والوحيدة التي ألزم نفسه بدفنها قبل أن يصبح النسيان مسألة حياة أو موت، هي من تلحّ في الظهور لتثير ذكرياته وتنبهه إلى أنّ النسيان ضرب من المستحيل.

لاحظ فرناندو، وهو يقف أمام تلك المرأة الرائعة المفعمة بالحيوية، على سنواتها السبع والأربعين، أنّ الشبح اليافع الذي يطارده في ذاكرته يتغلغل في بدنه ويمتزج به ليحقق تجانساً مقلقاً: فما زالت دلفينا، بشعرها الطويل الناعم الساقط على كتفيها، تحتفظ بسواد عينيها الكبيرتين نقيّاً، وبدا وكأنّ السنين لم تقوَ على بشرة ذراعيها الطويلتين السمراوين. لم تكن تلك الفتاة ابنة العشرين التي عرفها واستحضر ذكراها في هذيانه الذي كان يفضح الحسد الذي كان يحمله إزاء فوز فيكتور بقلبها، ولم تكن ابنة الثلاثين التي رآها للمرة الأخيرة قبل خروجه من كوبا، وقد تزوجت من صديقه، لكنّها لم تكن أيضاً تلك المرأة المُسنّة المتعبة التي

حسب أنه سيراها بعد كلّ تلك السنوات. وكان في ذلك ما أشعره برضا عميق.

- لكنّك لم تتغيري؟ أنتَ نفسك...

وأدرك في الحال غياب لباقته ولياقته: وهل كان عليه أن يجد عجوزاً مخددة الوجه مثل آلبارو، الذي صهرته السنون والحياة؟ هل كان عليه أن يراها وقد سقط شعرها وهدل كرشها وأحاطت الهالات السود بعينيها كما يرى نفسه في المرآة الشريرة التي طالما همّ برفعها من باب حجرته؟

بعد أن رأى أمّه، شعر فرناندو بالحاجة إلى الشروع بترميم ماضيه. فكّر في زيارة دلفينا، بل فكّر في أن يبادر إلى زيارتها قبل أن يتناول قهوته المضاعفة في مقهى (لاس بيغاس) ويلتقي بعض أصدقائه القدماء. لكنّ خوفاً بارداً من رؤية صورة محطّمة جعله يكظم لهفته ويؤجّل الزيارة. سببان قويان كان يحثّانه على تحقيق ذلك اللقاء الذي خطط له دائماً منذ أن قرر القيام بتلك الرحلة القصيرة. أمّا السبب الأول- وذلك ما كان، على الأقل، يحاول أن يقنع نفسه به - فهو وفاة فيكتور البعيدة زمانياً، في عام 1981، إذ لم يحضر لتقديم العزاء الغريب الذي قدّمه الآخرون حين سهروا على جثمان لم يكن موجوداً، ولم يعد إلى وطنه إلّا بعد ثمانية أعوام، كومة من العظام المجهولة، موضوعة في صندوق معدني مغلق، شأنه شأن الكوبيين الآخرين الذين قضوا في سهوب أنغولا وغاباتها. أمّا السبب الثاني فكان أكثر بهرجة، وإن كان سامياً، وأكثر غرابة، وإن كان واقعيّاً: كان فرناندو يرى أنّه ما زال مغرماً بدلفينا، كعهده منذ أن تعرّف إليها، بداية العام الدراسي 1969، وكعهده حين ظلّ مغرماً بها بعد ذلك، وإن أصبحت امرأة فيكتور.

إنّه ما زال يسأل نفسه عن سبب ابتعاده عن تلك القصّة إلى أن أضاع على نفسه كلّ فرصة للعب دور البطولة فيها. كانت دلفينا، منذ أن دخلت حياتهم، بمثابة حجر المغناطيس القادر على إثارة الغريزة الذكرية لمجموعة «الساخرين»: لم تكن الأجمل ولا الأكثر أناقة أو ثقافة بين

الفتيات الست والثلاثين اللائي بدأن الدراسة معهم، لكنّها كانت أكثرهنّ جاذبيّة بسبب الثقة والاعتداد بالنفس اللذين كانت تواجه بهما الحياة وأنوثتها، وبسبب الإحساس بالواقع الذي كان يلفّها، مثل هالة مغناطيسيّة. لقد اعترف الجميع، أثناء أحاديثهم غير الأدبية التي اعتادوا تداولها في سطح بيت آلبارو، بالجاذبية التي تتمتّع بها دلفينا. أشار أركاديو الوسيم إلى ذلك وكأنّ الأمر لا يعنيه كثيراً، فقد عوّدته الحياة على أن تكون لديه فرصة للاختيار، وإن كان ليتمنّى في الواقع أن يفرّغ لها جزءاً من وقته، كما قال ذات ليلة. أمّا الفلاح كونرادو فقد تأسف أن وقع في حبّ ماريّا فيكتوريا، فسدّت الصداقة التي نشأت بينها وبين دلفينا عليه الطريق إلى النعيم، لكنّه اعترف بأنّه صوّب سهامه نحوها قبل ذلك مرتين، لكنّ سهامه طاشت، لأنّ دلفينا ردّته بلطف. واعترف فرناندو بأنّ دلفينا كانت تروق له، لكنّه لم يشأ أن يغامر ومن دون أن يكون متأكداً: فالإخفاق في مغامرة المرتفعات تلك قد يكون مهلكاً. أمّا تفكير توماس فقد انتهى به إلى أنّ لدى دلفينا رجلاً ممتازاً مخفيّاً، ولذلك فهي لا تعير اهتماماً لأحد. أمّا النِّغرو ميغيل أنخل، الذي كان يرى منذ البداية أنّ الأمر لا يستحق كلّ ذلك الاهتمام، فقد حكى في تلك الليلة أنّه حلم بها وانتهى، بأمانته المعتادة، إلى القول بأنّه ربما كان مغرماً بها، وإن بدا له أيضاً أنّ دلفينا لم تكن تعجبها الألوان الغامقة. أمّا آلبارو فربّما كان يضمر لها الكراهية، فقد أكّد أنّ الفتاة لا بدّ وأن تكون سُحاقيّة وأشياء أخرى أسوأ: ما من فتاة يمكنها أن تعيش وهي تأكل كلّ هذا الخراء، خصوصاً الآن، فقد ينتهي العالم في أيّة لحظة والواجب هو الاستمتاع ما وسعك ذلك، فقد ثبت أنّ السُّكْرَ يسمّن وأنّ العضو الذي لا يستعمل يضمر... كان فيكتور هو الوحيد الذي امتنع عن التعليق، لم يعلّق أيضاً بعد تلك الليلة من أيلول، بُعيد بدء السنة الثانية من الدراسة الجامعيّة، حين وصل إلى بيت آلبارو مع دلفينا وهو يمسك بذراعها: لقد دهش «الساخرون» حين رأوا الفتاة في أرضهم، وتضاعفت دهشتهم حين رأوا فيكتور يجلسها إلى جنبه ويمسك بيدها، بينما كانت هي تضع إحدى يديها على فخذ المحظوظ.

كان «الساخرون» قساة معهما، وحاولوا، بعد أن تشاوروا في الأمر، الانتقام. بحثوا، تحت قيادة فرناندو، الذي زرع الأرض ألغاماً من دون أن يكشف عن مسؤوليته، عن طريقة يحولون فيها دون حضور فيكتور إلى جلساتهم بصحبة خطيبته، وإن راحوا يقتنعون شيئاً فشيئاً بأنّ دلفينا لن تصبح امرأة الفرسان الثلاثة - قال توماس-: واحدة للجميع. وأخيراً تقبلوها، ولكن من باب القبول بما هو غير مقبول، على الأقل في نظر فرناندو، الذي شعر، على الرغم من الصداقة التي تربطه بفيكتور، وعلى الرغم من كلّ مغامراته العاطفيّة، بلوعة التفكير فيها، إلى أن اقتنع بأنّه مغرم بتلك المرأة... أما زال مغرماً بها؟، سأل نفسه، بعد أن قبلها في وجنتيها، على عادة الإسبان. وأخذها من ذراعيها وتراجع خطوة إلى الخلف، ليتأملها من مسافة مناسبة.

- لكنك لم تتغيّري؟ أنت نفسكِ...

ابتسمت دلفينا إزاء الإطراء الخطير من طرف الواصل حديثاً.

- آي، فرناندو، ما زلتَ ذلك الرجل الكذوب الذي لم أعرف مثله في حياتي.

امتد الحديث بينهما ثلاث ساعات. جلسا في شرفة الشقّة، والشارع (17) أسفلهما. شربا القهوة مرتين ودخّن فرناندو عشر مرّات. لم يتكلما عن فيكتور إلّا دقائق قليلة، وخمّن أنّ دلفينا تفضّل تجنب الحديث عنه. وتحدثا ساعة تقريباً عن تنقّل فرناندو بين محطات منفاه الطويل من ميامي إلى نيويورك إلى مدريد. وخصّصا بقية الوقت للكلام عن حياة دلفينا طوال تلك السنوات: علم فرناندو أنّها ما زالت تعمل اختصاصيّة في الفنون التشكيليّة وأنّها ألّفت كتاباً حول رسامي كوبا في أعوام الثمانين، وأنّ أمّها توفيت لكنّ أباها ما زال حيّاً ومستعدّاً لأن يعيش ألف سنة، وأنّها لم تكتب له لأنّ فرناندو كان قد طلب ألّا يكتب له أحد، وأنّ شعرها مصبوغ لأنّه مليء بالشيب، وأنّها بعد وفاة فيكتور لم تعاود الزواج، ليس لقلّة الخاطبين، وأنّ أمراً غريباً وقع لها قبل ثلاثة أشهر:

كانت في صندوق الحساب في سوق (الفوسكا) لتدفع عن كيسين من السباجيتي، فشاهدت فجأة فرناندو يدخل في المحل. كانت رؤيته من الوضوح أنّها رفعت يدها لكي يراها هو...

في تلك اللحظة أحسّ فرناندو تيرّي بانفجار في داخله ورأى العالم ينهار. ما كان لمعلومة أن تكون أكثر قسوة ولا أشدّ إيلاماً من تلك، بل ما كان لعلمه بأنّ رواية هيريديا التي يبحث عنها هي محض سراب أن يكون أكثر قسوة وأشدّ إيلاماً. إنّ إيمانه في أنّ واجبه كان يحتّم عليه أن يكافح بدلاً من أن يتراجع، وضعه في إزاء حالة مؤسفة: فهو الآن يشعر بأنّ تلك المرأة كان يمكن أن تكون له؛ وأنّ تلك الشرفة كان يمكن أن تكون شرفة بيته؛ وأنّ منظر المدينة الذي يراه الآن، كان يمكن أن يكون ما يراه عند الاستيقاظ. لقد حمله إدراكه أنّ الحبّ تسرّب من بين أصابعه على الشعور بفداحة خطأ قادر على تفريغ الكون من معناه.

***

في شتاء عام 1819 ذاك، سنحتْ لي فرصة استدللتُ منها على وجود الربّ وتفرده في خلق الجمال. كان ذلك حين سافرتُ للمرة الأولى إلى مدينة (ماتانثاس). صحيح أنّني استمتعتُ ببعض من أجمل عجائب الطبيعة، كمصبّ نهر (الأورينوكو) الرملي الواسع، الذي تشطر زرقةُ البحر مياهه الحمرَ شطرين وتخترقه لأميال طويلة، مثل خنجر مضرّج بالدماء؛ أو شلالات نياغارا، في مشهد قوّة وعنفوان لا نظير له أثار فيّ أسمى صور الإلهام الشعري؛ أو منظر جبل (بيبادو دي تولوكا) الفريد، الذي ترزح قرون من التاريخ تحت قدميه، والذي صعدت إليه ربّما لأكتشف كيف جفّ فيّ نبع الشعر. لكنّ الأعجوبة المعمولة على مقياس بشري، المرسومة بأكثر الريشات دفئاً وألواناً، هي أعجوبة وادي (ياموري)، الذي ينبسط أمام السائح بأشجار نخيله الملكيّة المهيبة،[22] وأنهاره الوادعة، وحقول قصبه الحلوة، وهي أعجوبة المنظر الخلّاب

22- Palma real نوع من النخيل الذي تشيع زراعته في كوبا.

الذي تعرضه مدينة (ماتاناس)، بخليجها الذي يحتضنها. لقد بدت لي تلك الأعجوبة هدية ولعنة في الوقت نفسه، فمنذ تلك اللحظة الأولى، سقطتُ أسيرَ ذلك المنظر الذي أعلنته منذ ذلك اليوم ملكاً خالصاً لي، والذي طالما آلمتني ذكراه الدائمة في سنوات منفاي، بين البرد والحنين.

كان خالي إغناثيو، الذي دعاني لقضاء بضعة أسابيع معهم في (ماتاناس)، يضحك مستغرباً وهو يتأمّل الاستغراب البادي على وجهي. كان يعرف أنّ السفر برّاً عبر (الكامينو ريال) سيقودنا إلى ذلك المكان المرتفع الرائع من الوادي الخصب، حيث ينساب نهر (سان خوان) صوب البحر وحيث تبدو المدينة تحت قدمي الزائر الذاهل. ولكي يشبعَ إعجابي، اقترح عليّ إغناثيو التوقف عند مزرعة (لوس مولينوس) العملاقة، التي يمتلكها أصدقاؤه من أسرة الماركيز (برادو أمينو)، الذين كانوا غائبين، في ما بدا، عن عقارهم الفردوسي. مع ذلك، فقد شربنا عصير المشمش الأمريكي عند بوابة ذلك البيت المنيف، الذي سأتخذه ملجأ في أيامٍ صعبة قادمة، ونحن نراقب المشهد الرائع، بينما كان خالي يقول لي إنّ المدينة، وهي أنظف من هافانا وأهدأ منها، ريفيّة باعتدال، وأقل تلوثاً بر ذائل العصر (كنت أعرف إلى ماذا كان يرمي، فقد أصبح إغناثيو منذ ذلك الحين مستودع أسراري)، سترضيني إلى درجة أنّه كان متيقناً من أنّي سأتذكرها دائماً. وكان خالي، كعادته، على حقّ.

إغناثيو هو أصغر إخوة أمّي، وقد بدا مقدراً له أن يكون من الناجحين في الحياة. كان له مكتب محاماة في (ماتاناس) ومزرعة البن (خيسوس ماريّا)، القريبة من ناحية (كولون). وكان يعمل لحساب أغنى عوائل المنطقة فيستمتع بتناول ألذّ المأكولات وشرب أفضل أنواع النبيذ ولبس أرقى الملابس وأغلاها، وكان له ولع شديد بالكتب أيضاً، حتى لقد أهداني بعضاً من نفائس كتبه أثناء تلك الإجازة وفي مناسبات أخرى عديدة على مدى حياتي. مع ذلك كنتُ أستغرب ألّا يحفلَ خالي بالنساء، وهو الشاب المهذب. كان يتحدث عنهنّ أحياناً مشيراً إلى جمالهنّ أو

أناقتهنّ، لكن من دون أن يبدي الاهتمام المحموم الذي تثيره فيّ أيّة فتاة جميلة تمرّ من جانبي. كنتُ حينئذٍ عاجزاً عن تصوّر المأساة الرهيبة التي سيعيشها ذلك الرجل الطيب، الذي أدين له بالكثير، والمجبر مدى حياته على إخفاء ميوله المنحرفة في ما يتصل بالحب وبالجنس.

كان يسيراً عليّ، بفضل علاقاتي بإغناثيو، الدخول في أجواء المدينة الأدبيّة. كان الزملاء من أهل (ماتاناثاس) قد قرؤوا قصائدي القليلة التي كانت قد نشرت في مجلات العاصمة، لذلك استقبلوني في الحال بترحاب ومن دون الحساسية التي نجدها بين كتّاب المدن الكبيرة. كنتُ في نظرهم أشبه ما أكون بالحشرة الغريبة، إذ رأوا فيّ ذلك الشاعر الذي درج على طريق الشهرة ولمّا يشبّ عن الطوق. كان لأبناء (ماتاناثاس)، الفخورين بقرويتهم، على حدّ تعبير إغناثيو، إيمان قويّ بالشعر والفن، وكانوا يؤكدون أنّ من المقدّر لتلك المدينة القريبة من البحر، والتي يخترقها نهران هادئان، وكأنّها فينيسيا مداريّة، أن تصبح جنّة للفنون الجميلة.

لقد وفّرتْ تلك الإقامة القصيرة في (ماتاناثاس) الأجواء لاثنين من الأحداث المهمة في حياتي: كتبتُ في هدوء الصباح، وبجرة واحدة تقريباً، أولى أعمالي المسرحيّة، والتي عنونتها «إدواردو الرابع أو المغتصب الرحيم»، والتي نلتُ بفضلها الشهرة المبكرة والحاسمة في المدينة، فقد نقلتها، مع مسرحيين هواة آخرين، إلى خشبة المسرح، وفي فعل شبابي لم أكرره، تجرأتُ على الصعود إلى خشبة المسرح تحت جلد شخصية غيّرمو. وأظنّ أنّني أبليت بلاءً مقبولاً.

أمّا الحدث الثاني، ولم يكن أقلّ أهميّة من الأول، فقد وقع أثناء واحد من تلك الأيام الممتعة من الراحة والمسامرات والشعر والشراب. حدث عند مصب (الياموري)، عصر يوم دافئ من أيام كانون الثاني، حين رأيتُ تلك الشابّة التي لم تصبح أكبر ملهماتي فحسب، بل الجرح النازف الذي حملته في الباقي من أيام عمري.

كان حبّي المعلن آنذاك إيزابيل الأثيريّة، التي أسميتها، كما يفعل كلّ

شاعر مع محبوبته، «ليسبيا» أو «بليسا». واضح أنّ في كلا الاسمين تلاعباً بالأحرف، بريئاً في ظاهره، القصد منه التستر على اسم الفتاة الصريح. أمّا حبّي الحقيقي فكانت بتينيا، المرأة التي أنهتْ عذريتي وقادتْ لواعج الرجل المستجد على هذا الطريق. كنتُ أظنّ أنّ طاقتي العاطفيّة قد ارتوت من تينك المغامرتين، لكنّي حين رأيتُ تلك الشابة، بثوبها الأبيض الشفاف الذي كان يبرز لون بشرتها الذي يقرب من لون الزيتون، أحسستُ بوخزة في قلبي. حضرت وهي ترتدي قبعة من الدانتيل، تطل من تحتها أمواج من خصل الشعر المجعد الأسود، بينما كشفت فتحة الصدر في ثوبها عن نهدين منتصبين، وارتفع الطرف الخلفي من تنورتها ليوحي بعجز قادر على منافسة عجز بتينيا. حين رأيتها تبتسم بسهولة تفيض حياة وشفتين مبللتين بقطرات براقة من العرق، أدركتُ أنّ قلبَ الرجل شبيه بحقل خصب يمكن للجوافة وللمانجو، للقشطة والبابايا، للقرنفل وللورد أن تتعايش فيه... وحين كانت تهمّ بالنزول من المركب، اقتربتُ، في واحد من تلك القرارات المرتجلة، ومددتُ يدي لأساعدها في النزول على الرصيف. وقد أفادتني تلك اللفتة، فضلاً عن الكشف عن قلة ذوق الشباب الذين كانوا يرافقونها، في أن أنتزع ابتسامة أخرى من وجهها وأن أتطلّع عن قرب إلى صفين من اللآلئ الرائعة تختفي وراء شفتيها الحمراوين. ابتسمتُ لها أنا أيضاً، ولمّا انتهيتُ من مهمتي، بدأتُ الانسحاب، حين سمعتُ صوتها.

- شكراً جزيلا أيّها السيد - همستْ.

- من دواعي سروري، آنستي...

- دولورِس[23] خونكو، لخدمتك.

- خوسيه ماريّا هيريديا، عند قدميك.

- الشاعر؟

23- Dolores هذا الاسم في الإسبانية له صيغة أخرى تستعمل بين الأهل والأصدقاء وهي «لولا». في هذه الرواية سيظهر هذا الاسم بالصيغتين وحسب مقتضى الحال.

- تحت أمرك دائماً.

منذ تلك الأمسية السعيدة ظلّ صوت لولا خونكو وابتسامتها محفورين في ذهني، هاجساً على مستقبل سيحملنا إلى البعيد الأبعد عن أيّة حدود. ما كان لأحد أن يتصوّر حينها أيّة لحظات من السعادة سنعيش وكم ستعذبنا صروف الأيام إلى حدّ تحويلنا إلى عبيد للشقاء.

كان من المنطقي أن أشعر بحزن كبير حين ابتعدتُ عن (ماتانثاس)، وأنا الذي لم أمضِ فيها سوى أسابيع قليلة. ربّما كانت حياتي ستكون فيها مختلفة، أقلّ بريقاً، لكنّها كانت ستكون أقلّ شقاءً لو أنّ رغبتي في البقاء في تلك المدينة الوادعة المزدهرة تحققت في تلك اللحظة. كان عليّ أن أؤدي امتحاناتي في المرحلة الثانية من الحقوق في الجامعة وما كان أمامي من خيار غير أن أعود.

من حسن الحظ أنّني راجعتُ مع خالي بعض الدروس واجتزتُ من دون صعوبة الامتحانات المملّة، التي حُدد بعدها موعدُ سفرنا إلى المكسيك: في نهاية آذار صعدنا إلى المركب (آرغوس) المتجه إلى (بيرا كروث)، إلى حيث سنجد نمطاً من الحياة كنتُ أعلم أنّه مختلف جدّاً عن نمط الحياة في كوبا. لكنّ صحة والدي كانت في تدهور، وشبيه بصحة أبي كان طبع أمّي الحاد، التي كانت تصرّ على أن أكون قريباً منها، ولا سيّما بعد مصابنا في أخي الشاب رافائيل، الذي توفي قبل أشهر من ذلك. لقد وضعني حادثُ الموت ذاك، وكان الأول من بين حوادث كثيرة أخرى في أشخاص عزيزين واجهتها في حياتي، أمام حقيقة هشاشة الوجود البشري: في تلك السنة، رأيته يضحك وينمو، ثمّ فجأة أصابته حمى شديدة حوّلته في ظرف يومين إلى بقايا إنسان محشور في تابوت أبيض. أدركتُ ما في خط الحياة الواهن من مأساويّة وحقيقة، قدر ما في غرور الإنسان وطموحه من خيال.

كان دومنغو، من حسن حظي، وعلى الدوام قوّاداً ممتازاً، فما كان أبي وأمّي يمنعاني من الخروج معه حتّى حين يكونان على أسوأ مزاج.

وهكذا استخدمتُه كثيراً للهرب من أجواء بيتنا السقيمة. صحيح أنّ هدف ذلك الخروج كان في بعض الأحيان - أو في كلّها، حين يمكنني ذلك، لكي أكون صادقاً- هو ماخور مدام آن- ماري، فقد كنتُ في كثير من الأحيان أذهب إلى بيت دومنغو، أو إلى ساحة السلاح أو ساحة (ألاميدا دي باولا)، حيث نتبادل أطراف الحديث حول مشاريعنا الأدبية.

أدركُ الآن أنّ شيئاً بالغ العظمة، من قبيل بناء بلد، كان يتشكّل في تلك الحوارات الطويلة، من دون أن نفهم غاية ذلك التصميم أو منتهاه، وبنا، في أعوامنا الستة عشر، من الحماس والطيش أكثر مما بنا من التفكّر والبصيرة. منذ ذلك الوقت كان دومنغو مهووساً بفكرة، أصبحت لاحقاً عقيدة، تحويل الشؤون التقليدية الكوبيّة إلى مادة أدبيّة. وكما كان واضحاً شغف دومنغو بالعربات وبالكتب، أو رغبته في أن يكون شاعراً كبيراً، فقد كانت تلك الفكرة واضحة أيضاً في ذهنه، ولذلك فقد كان يتكلم دائماً عن أنّ أدب الجزيرة يجب أن يعكس طبيعة البلاد ونماذجها الإنسانيّة لتمييزها عمّا كان يأتينا من مدريد، منهكاً صفراً من العاطفة. صحيح أنّ الشعراء الذين سبقونا غنّوا لمحاسن الطبيعة الكوبية، لكنّهم كانوا في نظرنا مبتذلين وسرديين، مجردين من العاطفة، وكنّا نفكّر أنّنا لن نصل إلى إبداع أدب جديد حقيقي إلّا حين نفرض رؤية حميمة لحياة البلد... تأخرتُ أعواماً لكي أكتشف المنبع الأصلي الذي خرجت منه تلك الأفكار، التي لم يكن دومنغو إلّا صداها المردد، حين استمعتُ، وأنا في فيلادلفيا، حيث أمضيتُ أسوأ شتاء في حياتي، إلى الأب باريلا وهو يردد، جملة إثر جملة، الخطابات التي تعلمها دومنغو العظيم وسرقها

في تلك الأيام، وعلى سبيل تحدي رفاق جلساتنا وإثبات قدرتي، اعتكفتُ أسابيع عديدة في بيتي وكتبتُ، بسهولة جريان القافية على لساني، مسرحية من فصل واحد حول منظر للريف الكوبي - رأيته مرّة أثناء تجوالي في أطراف (ماتانثاس)- وعنونتها «الفلاح المرعوب». لكنّي، وقبل أن أقرأ النص عليهم، تجرأتُ وعرضتها على الأب باريلا،

بعد أن أجبرته تقريباً على أن يترك الكمان جانباً، وإن رأيته يضحك مستظرفاً بعض أبياتها. وكان في حكمه، المريح دائماً، شيء من التحذير والإنذار.

- هذا جميل. مع ذلك عليك مراعاة أمرين: الأول، وهو أمر لا يمكنك تفاديه: شبابُكَ. والثاني، وهو أمر يجب أن تتعلمه منذ الآن: إنّ الأدب ليس منافسة.

لم أنسَ كلمات الخوري الصالح هذه، كما لم أستطع أن أمحو من ذهني ملامح وجه دومنغو وأنا أقرأ قطعتي المسرحيّة: لقد بدا له تجاوزاً لا يغتفر أن أخرق، بشكل من الأشكال، توزيع الأملاك الذي أقامه، والذي تقرر بموجبه أن تكون موضوعات الريف وأهل الريف من حصته، فها هو يسمعني أقرأ شيئاً يتجاوز إمكانياته، كتب على عجالة، لكنّه قادر على إثارة سعادة الأصدقاء وفرحهم... أمّا أنا فقد كنتُ غافلاً عن التفكير في أنّ ذلك اليوم يشهد انقلاب صديق عزيز إلى عدوّ لدود، ولم أكن أعي أنّ السعادة توازنٌ حرج، قد ينكسر بالسهولة ذاتها التي ينكسر فيها أحسن الزجاج صقلاً.

***

هل ما يحدث لي هو ما يحدث لكَ نفسه أم إنّني أتوهّم ذلك؟ سأل نفسه حين اخترقت السيارة المنحدر الطويل واستعدّ للاستمتاع بواحد من أحبّ المشاهد إلى نفسه. قد لا يشعر شخص آخر، في عالم مليء بالمناظر الخلّابة، بشيء خاص يجذبه، أمّا هو فقد كان منظر مدينة (ماتانثاس) يحرّك فيه كلّ شعيرة من شعيرات بدنه حين يفاجئه بعد منعطف على الطريق. كانت مشاعره من الشدة والحضور أنّه، بعد السنوات العشرين من الغربة، أعاد رسم ذلك الطريق مئات المرات، وجعل من الشاب هيريديا يسافر مراراً إلى جانبه ليستمتع بالمنظر الذي استمتع به الشاعر عند دخوله للمرة الأولى المدينة التي كان يشعر فيها بسعادة أكبر وشقاء أوفر. ومع أنّ فرناندو كان يعلم أنّ السفر من هافانا في

تلك الأوقات يمكن أن يكون عن طرق أخرى، وأنّ المدينة عام 1818 لم تكن غير ضيعة فقيرة وادعة، فإنّ جمال ذلك الجزء الأخير من «الطريق الأبيض»، والخليج من خلفها، والمدينة محفوفة بنهريها، وادعة غافية عند قدمي الزائر، كانت تجعله يتمنّى لو أن هيريديا عاش تجربته البصريّة التي يشعر بها قويّة حاضرة.

- هل اجتزتَ ذاك الشعور؟ - سأله أركاديو من المقعد الأمامي.

- ليس لذلك من علاج، انظر إليه - قال آلبارو من المقعد الخلفي-. ولا أهرامات مصر!

- أو شلالات نياغارا - أضاف فرناندو من دون أن يبعد بصره عن المنظر.

شعر فرناندو بنظرة هيريديا الرومانسيّة فوق نظرته، تضع أثقالاً على مشاعره وآلاماً على غيابه، ممّا أثار فيه إحساساً لم يتملكه حتى تلك اللحظة. لقد استيقظ، في ذلك الفجر البعيد، غارقاً في عرقه، وقد انتصب عضوه، وبه رغبة شديدة في كتابة قصيدة حب. لقد أحسّ بأنّ حياته تتخذ منحى آخر. فقد رأى، وكان عمره آنذاك أربعة عشر عاماً، وللمرة الأولى منذ أن اكتشف متعة الجنس اليدوي، أنّ أرقه لا يقوده إلى الحمام، حيث اعتاد أن يتخفّى ليمارس عادته السريّة المتكررة. إنّه يشعر بأنّ حاجة أشدّ وأقوى، قدرت حتّى على قهر عضوه، وضعت القلم في يده، من دون أن يمتلك أدنى وعي بما سيثير فيه ذلك الفعل: فلو لم يكتب تلك القصيدة التي لا يتذكر منها الآن حتّى ولا فضلة بيت، ولو أنّه ذهب إلى الحمام ليلبّي داعي غرائزه البدائية، لسارت حياته، ربّما، بعيداً عن الإعصار الذي يجعله يتلقى في شخصه، مثل ارتداد لا يستحقه، المشاعر التي كان على الشاعر الحقيقي أن يعيشها.

- أين نتجه الآن؟ - أراد أركاديو أن يعرف، بعد أن دخلت السيارة في متاهة المدينة-. أنا أضيع دائماً هنا على كثرة ما جئتُ إلى هذه المدينة.

- ما عنوان ثرنودا؟ - وجّه فرناندو سؤاله إلى آلبارو.

- شارع (كونتريراس)، رقم 96.

- أنا أعرف كيف نصل إليه - أكّد فرناندو-. واصلْ طريقك حتى الناصية القادمة ثمّ استدرْ يميناً. إنّه بعد المكتبة.

بينما كان فرناندو يتأمل بأسف الحالة المزرية التي صار عليها المكان، دهش من قدرته على تذكّر خريطة المدينة بذلك القدر من الوضوح. فلطالما جال، أثناء سنواته طالباً وباحثاً، في شوارع (ماتانثاس) يبحث عن بصمات هيريديا ودومنغو دل مونته[24] وبلاثيدو[25] والشعراء الآخرين الذين كانوا السبب في أن يطلق على المدينة- المليئة بالكتاب والرسامين والموسيقيين، والمليئة أيضاً بالرقيق وتجار الرقيق، كما كان يحدث في مدن اليونان القديمة- اسم «أثينا كوبا». وها هو تذكره الحميم لشوارع المنطقة وزواياها يطلّ الآن من درج منزوٍ من أدراج وعيه ليقود أركاديو الى بيت قديم ذي شبابيك عالية مشبكة وباب عظيم مزدوج من خشب غامق اللون.

غادر الأصدقاء الثلاثة السيارة ودق آلبارو الباب. أحسّ فرناندو بتوتر اللحظة ونظر أركاديو إلى البيت باهتمام المتفحص فكأنّ البيت قادر على أن يكلمه.

فتح لهم رجل يناهز الأربعين تبادل معهم السلام. بدأ آلبارو الكلام، وكان في المقدمة.

- نبحث عن السيد لياندرو ثرنودا...، جئنا من طرف الدكتور مندوثا، من المحفل الكبير.

- أنا ابنه، لكن... العجوز مات من سنتين.

- وكيف إنّ مندوثا...؟ - احتجّ آلبارو، فقد بدا له غير مقبول ألّا يمتلك البروفسور تلك المعلومة. لكنّه أدرك فجأة غرابة الموقف ونظر

24- Domingo Del Monte (1804-1853). ناقد وكاتب كوبي.

25- Diego Gabriel de la Concepción-Valdés المعروف بـ Plácido. شاعر كوبي زنجي (1809-1844).

إلى صديقيه. بدا فرناندو شاحباً بينما راح أركاديو يتأمل البيت، وكأنه يدرسه.

- هل من خدمة أستطيع تقديمها؟...- قال الرجل، ربّما مدفوعاً بالفضول الذي أثاره فيه أولئك الأشخاص الذين يبحثون عن ميت. حينئذٍ تقدم فرناندو.

- ربّما تستطيع أن تساعدنا. هل يمكننا الدخول؟

كانت الصالة الكئيبة الباردة بمثابة معرض للأثاث الخشبي القديم الجميل. جلسوا وشرح له فرناندو الموضوع: إنّهم جاؤوا بحثاً عن لياندرو، ابن كارلوس مانويل ثرنودا، الذي قد يعرف شيئاً عن مكان بعض الوثائق التي تلقاها محفل «أبناء كوبا» قبل ثمانين سنة.

- أعتقد أنّي لا أستطيع مساعدتكم - أجاب الرجل-. بل أنا لستُ ماسونيّاً.

- ألم يكن أحد...؟ - انطلق آلبارو-. فالمحفل ما زال موجوداً، أليس كذلك؟

- بلى، بالطبع. لكن، انظروا، إن كان من أحد يمكنه معرفة ذلك فهو العجوز أكينو. يبلغ قريباً من الثمانين عاماً وأظنّ أنّه ماسوني منذ أن ولد. وإن كانت هناك مشكلة...

- أيّة مشكلة؟ - بدا آلبارو وكأنه يوشك أن ينط على الرجل.

- هو الآن يعيش في (كولون). لقد أخذه ولده إلى هناك.

- يمكننا الذهاب إلى (كولون) - تدخل أركاديو، من دون أن يكفّ عن الطواف ببصره في أركان البيت-. هل تعرف عنوانه؟

- أظنّ أن أمّي تعرف عنوانه. لحظة. - نهض الرجل واتجه نحو داخل البيت، بينما راح فرناندو وآلبارو وأركاديو يتبادلون النظرات.

- أنا أدفع البنزين - قال فرناندو، ورفع أركاديو يده، ليقلل من أهميّة الموضوع.

- هذا البيت يروق لي... فيه شعر، أليس كذلك؟

- ما أتفه ما علينا أن نسمع - وضرب آلبارو بيده منزعجاً على ذراع الكرسي-. الشعر هو أن نتأخر سنتين...

ضحك الاثنان الآخران، وأحسّ فرناندو في تلك اللحظة بضعف الخيط الموصل الذي ظنّوه وثيقاً. فلا أحد من شهود العيان في ذلك الحادث الذي وقع عام 1921 بقي على قيد الحياة، اللهم إلَّا إذا كتب له أن يعمّر مئة سنة؛ ثمّ، حتّى إن عثروا على من يستطيع أن يزودهم بمعلومات موثوقة، فما الذي سيحمله على أن يكشف لهم عن سرّ اؤتُمن عليه الماسونيون، المتكتمون بالفطرة؟ ثمّ إنّ هناك المسألة التي بدت له منذ البداية أشدّ رعباً: إذا كانت الأوراق ما زالت موجودة فلماذا يبقيها المؤتمنون عليها مخفيّة؟ لقد أقامت تلك الشكوك، مضافاً إليها خبر وفاة لياندرو ثرنودا، جداراً بين الرغبة وتحقيقها، بدا له منيعاً حين خرجت من داخل البيت امرأة تناهز السبعين، لكنّها بدت قويّة ونشيطة، بدلالة الصدرية التي كانت تحملها على عنقها.

- صباح الخير. أنا (آلما)، أرملة لياندرو. هلّا قصصتم عليّ الحكاية؟

وبينما راح آلبارو يقصّ الحكاية، ظنّ فرناندو أنّه اكتشف بريق اهتمام في نظرة تلك المرأة التي ذكّرته كثيراً بأمّه.

- أنا مفتونة بقصص الماسونيين - أقرّت (آلما) حين انتهى آلبارو من حديثه-. كان زوجي ماسونيّاً منذ أن كان عمره سبعة عشر عاماً إلى أن توفي وهو في السادسة والسبعين. أنا نفسي كنتُ أكاسيا[26]...، أقصد، أنا الآن ماسونيّة، وإن لم أذهب إلى المحفل منذ قرون. مسؤوليات البيت والأحفاد.

عدّل أركاديو جلسته على حافة الأريكة ونظر إليها.

- آلما، ألم يحدثك زوجك قط عن تلك الوثائق؟

26- أو زهرة الطلح وهو أحد الرموز الماسونية وتمثل الحياة والخلود.

- كلا. أنا متأكدة. دام زواجنا أكثر من خمسين سنة ولم يكلمني قط عمّا كان يحدث داخل المحفل... حضراتكم تعرفون كيف يتعامل الماسونيون مع المسائل التي تخصّهم. لكنّ المشكلة ليست هذه. المشكلة هي أنّ أباه، كارلوس مانويل، لم يكلمه هو الآخر عن ذلك. تأملوا أنّ ما تحكونه لي جرى عام 1921، أليس كذلك؟ لياندرو ولد عام 22... وأبوه توفي عام 29. وعليه فليس من الممكن أن يكون علم بذلك، على الأقل، عن طريقه.

أحسّ فرناندو بالستارة تسقط مرّة واحدة. لفّه تعب عميق ورغبة جامحة في الخروج من البيت ومن المدينة، في ألّا يتوقف إلّا عند شقة السطوح في مدريد لكي ينسى ذلك البحث العقيم الذي حمله على أن يتخلّى عن قراره بالعيش في النسيان وألّا يعود إلى الجزيرة.

- عليكم أن تقابلوا أكينو العجوز. هو كان خطيب المحفل وأمينه العام منذ ألف سنة - واصلت (آلما) الكلام-. أنا لا أعرف عنوان ولده، لكنّي أعلم أنّ حفيده هو مدير متحف كولومبِس. المكان معروف. ليتكم تعثرون على تلك الأوراق، لأنّ تلك القصّة تعجبني... ألا تعلمون حضراتكم أنّني حفيدة حفيد بيبيّا أرانغو؟ وهل تعلمون حضراتكم أنّ هيريديا اختبأ في بيت عائلتي القديم، الذي كان يقوم على هذه الأرض نفسها، قبل أن يرحل عن كوبا؟

- تقولين إنّه كان هنا؟ - سأل أركاديو وقد فوجئ بالمعلومة، وبينما كانت العجوز تردّ عليه بالموافقة، ألقى بإيماءة رضا على وجه آلبارو-. أنا كنتُ أعلم بهذا. فهذا بيتُ شِعر.

***

البحر من جديد. كلّ شيء عاد يبدأ من جديد. المكسيك في الحاضر، كوبا، فنزويلا، بنساكولا، سانتو دومنغو في الماضي، وأمامي، البحر من جديد، دائماً في طريقي إلى أرض جديدة. ما الذي يخبئه لي المستقبل؟ كنتُ أسأل نفسي وهدير البحر ما زال يتردد في سمعي بينما

تحملنا العربة إلى الرقم 9 من شارع (مونتريّا)، حيث سكننا الجديد. راح الحوذي يتجنّب حفر الطريق والباعة المتجولين بمهارة عجيبة، بينما كان يحدثنا عن العنف الذي اندلع في السنوات الأخيرة في مدينة المكسيك. بالكاد كنتُ أسمع ما يقول، لأنّ سحابة من الغموض كانت تضيّق على ذهن الشاب ذي الستة عشر عاماً الذي فارق حبيباتٍ وأصدقاءَ ومعلمين ومشاريع وأماكنَ عزيزة عليه ليدخل في عالم مختلف، بدا لي، ما إن رأيته، كالحاً ومنغلقاً، في مقارنة لم أستطع تفاديها مع حياة هافانا المنفتحة. فقد أثّرت السنتان اللتان عشتُهما في كوبا عميقاً في قلبي، فانعكستْ في أمور مهمة تعلمتها كالصداقة والحبّ والأخوّة الشعريّة، وحتى فقدان العزيز، وأنشأتُ روابط، ربّما لم أكن أدرك آنذاك متانتها، لكنّي كنتُ أحسبها متينة راسخة. هناك شعرتُ، وللمرة الأولى، بالانتماء إلى مكان ما، وعرفتُ معنى أن يكون لي أرض وبيت. تلك الجزيرة التعيسة، التي قدّر لي أن أولد فيها، والتي لم أعد إليها إلّا لظروف طارئة، والتي انتقلتُ فيها، وبقفزة هائلة، من الطفولة إلى النضج، صارت تتحوّل في عيني إلى حاجة، ثمّ إلى لعنة لم أستطع منها فكاكاً. لماذا لا أنسبُ إلى سانتو دومنغو؟ أو لماذا لم أكن فنزويليّاً أو مكسيكيّاً، ما دمتُ عشتُ في تلك البلاد سنوات أكثر من تلك التي أمضيتها في كوبا؟ فهل أنا أوّل من عانى مرارة الشعور بأنّ القلبَ ما كان ليرضى عن تلك البلاد الرخيصة بديلاً؟ ألم يكن من الأفضل لنجاحي ولصحتي، بل ولشعري، أن أختار وطناً آخر غير تلك الجزيرة التي يتعايش فيها، وبأعلى قدر وأعمقه، أرفعُ ما في عالم المادة من جمال وأشدّ ما في عالم الأخلاق من قبح؟

كانت الإجابات هي كلّ ما كنتُ أحتاجه في تلك الأيام، وجاءتني المكسيك بالمعجزة، ومن دون أن تكشف لي عن روحها كما فعلتْ كوبا: معجزة القناعات التي انتهت بي، في السنتين اللتين عشتهما في

أرض (أناواك) المقدّسة،[27] أن حوّلتني إلى الرجل الذي أصبحتُ عليه إلى الآن، حين لم يتبقَّ لي، بعد سياحتي الطويلة في العالم، غير شيء أملكه وفكرةٍ أراها حقيقة وأملٍ أحلم به: ذاكرتي؛ وفكرة أنّ الإنسان لا يستطيع أن يبلغ مداه إلَّا في ظلّ ديموقراطيّة وتحت حكم دولة يسود فيها القانون؛ وحلمي البعيد في أنّ يكون الربّ لطيفاً بي متسامحاً معي في خطاياي الكثيرة.

كان البلد الذي وصلنا إليه عام 1819، شأنَ أمريكا بأسرها، يشهد غلياناً سياسيّاً، فقواه وتياراته كانت تتأرجح بين أن تظلّ مرتبطة بإسبانيا أو أن تقطع الحبل السرّي القديم الذي يربطها بها. أنا كنتُ أرى، وأنا ابن موظف أمين من موظفي حكومة المركز، أنّ أيبيريا العجوز يمكنها أن تكون وطناً لجميع الإسبان على هذا الطرف من البحر أو ذاك، شرط أن تغيّر سياستها الكولونياليّة وأن يتبنّى نظامها الملكي صيغة دستوريّة ثابتة، لها قوانينها ومبادئها اللازمة للحيلولة دون ظلم الطغاة المستبدين وتجاوزاتهم. هذا ما عبّرتُ عنه، في أبيات حماسية، عندما وجد فرناندو السابع نفسه، وهو الداهية المراوغ، مجبراً على إقرار دستور عام 1812، لمصلحة عاصمة الإمبراطورية وأراضي ما وراء البحار، مدفوعاً بالإفلاس الذي أصاب البلد وببسالة جنود الجنرال رييغو.[28] ما كان أشدّ سذاجتي حين فكّرتُ أنّ في وسع الطغاة أن يدخلوا تغييراتٍ تُضعف سلطتهم وترخي القيود التي يبقون بواسطتها على الشعوب مكمّمة الأفواه... فملك إسبانيا، شأنه شأن طغاة الماضي والمستقبل، لم يُقدم إلَّا على تغييرات سياسية انتهازيّة هدفها كسب الوقت لترميم بنيان دولته القمعية، وليعود بعدها إلى حصاد فضاءات الحرية الطفيفة التي منحها.

27- Anahuac هو الاسم القديم للمكسيك بلغة (الناواتل) التي كان يتكلم بها سكان المكسيك الأصليون.

28- Rafael del Riego (1784-1823). قائد عسكري وسياسي ليبرالي إسباني. قاد حركة ضد الملك فرناندو السابع من أجل إعادة العمل بدستور 1812.

كان أغرب ما وقع لي، وأنا على تلك المسافة البعيدة، أنّني، ومنذ وصولنا إلى المكسيك، لم أرَ في الإقامة المكسيكية إلَّا انقطاعاً مؤقتاً عن إقامتي الدائمة في كوبا، التي سبق وأن اتخذتُ قراراً حاسماً بشأنها. كنتُ أشعرُ بانسجام مطلق في اتصالي بالروح الكوبيّة، الأكثر انفتاحاً وبراغماتيّة من الطبع المكسيكي الصعب، الذي بدا لي منغلقاً على ذاته، غارقاً في تأملاته، إلى درجة أنّه غيّر جانباً من سلوكي حتّى عدتُ، وفي أشهر قليلة، أشدّ هدوءاً وأكثر ميلاً للتأمل والتفكّر.

بعد وقت قصير من وصولي، كسبتُ صديقين مخلصين استطاعا أن يخففا عنّي وطأة الفراغ الذي تركه فيّ البعدُ عن رفقة الأمس: الكريم أناستاسيو ثريثيرو[29] والمخلص بلاس دي أوسيس[30]. كانا كلاهما مثلي يدرسان الحقوق في جامعة المكسيك، ولكن كان الشعر، ومن جديد، هو ما مدّ جسر المودّة بيننا. بفضلهما رحتُ أطّلعُ على ما يطمح إليه الشباب المثقفون المكسيكيون، وهم في غالبيتهم مناصرون للاستقلال. كانوا يرون أن لا قبل للمنظومة الإمبراطورية القديمة ببلدان فتيّة تحتاج إلى شقّ طريقها الخاص بها. كان من الصعب عليّ، في تلك الحوارات التي دارت بيننا في حانات المدينة وحدائقها، أو على مصاطب الجامعة، أن أقدم لهم جواباً منطقيّاً ومترابطاً عن منظورات الانفصال في كوبا: فما من شيء في الجزيرة، على حدّ معرفتي، يبدو سائراً نحو الاستقلال، وحين يرد ذكر ذلك الاحتمال، يظهر شبح يمكنه أن يبثّ الشكّ في روع أكثر الناس تصميماً وجرأة. وماذا لو انتفض السود، كما انتفضوا في هاييتي؟ لذلك، ما كان خيار حرب الاستقلال يذكر، لا بين الأصدقاء الشباب ولا بين آبائهم الأغنياء، ولا حتى بين أبرز الليبراليين الكوبيين، من مثل الأب باريلا، فقد كانت هناك ثقة في إمكانية إصلاح الأمور داخل الأسرة الواحدة، من دون أن تصل الدماء إلى النهر الذي لا يعرف مصبّه إلَّا الربّ.

29- Anastasio Zerecero (1799-1875). عسكري ومؤرخ مكسيكي.

30- Blas de Osés. لم نعثر له على ترجمة وإن ورد له ذكر في أكثر من مكان.

أدين لشراهة أناستاسيو - وهي خطيئته الوحيدة الظاهرة- بالمتعة الشديدة التي أيقظها فيّ المطبخ المكسيكي وولعي منذ ذلك الحين بالأفوكاتو، على الرغم من أنّني من المدافعين المتحمسين عن الأطباق الكوبيّة، ولا سيّما القلقاس المغلي والمتبّل بالثوم وعصير البرتقال الحامض، والبامية المطبوخة بلحم الخنزير والموز الناضج، وحساء البقول، حيث تجتمع كلّ الأطعمة واللحوم الممكنة ليخرج من مزيجها الحميم الذوق الأمثل لجوهر كلّ واحد من مكوناتها. كان أناستاسيو، الذي كان يتمتّع بقدرة مادية تفوق في أحيان كثيرة قدرتي، يترجم امتنانه، وهو يسمعني أنشد قصيدة من قصائدي، إلى دعوات لتناول الطعام أو شرب البولكه[31] في أماكن متعددة من المدينة، من أغلاها سعراً وأجودها نوعيّة إلى أكثرها شعبيّة من تلك الموجودة في أطراف المدينة، حيث يأكل الرجال على الطاولات والمسدسات في أيديهم جاهزة للاستعمال كما حدث ذات مرّة، حين جاء صبيّ المطعم أحدهم بالطعام وقد بالغ في مقدار الشطّة المطلوبة.

أمّا بلاس دي أوسيس فقد عشتُ بفضله تجربة فريدة وجّهت مسار حياتي وشعري وإلى الأبد. كنتُ قد تلقيتُ أقسى ضربة في حياتي القصيرة آنذاك: فلقد توفي والدي الطيب، والقاضي العادل، والمواطن المخلص للتاج الإسباني، والأب المثالي، في الحادي والثلاثين من تشرين الأول، وكان من نتائج نموذجيته المفرطة واستقامته وإخلاصه أنّه تركنا أنا وأمي وإخوتي في فقر مدقع. كان حادث وفاته مؤلماً، وإن كان منتظراً، لكنّ ما آلمنا أكثر هو ألّا نتمكّن من أن نوفر لذلك الرجل النزيه، الذي خدم الإمبراطورية طوال أربعين سنة، جنازة نصرانية مقبولة إلّا بفضل ما جمعه زملاؤه وأصدقاؤه من مال. لقد صار وضعنا المادي، الصعب أصلاً، ميئوساً منه، فما كان تقاعد التسعين بيزو الذي خصصوه لنا يكفي إلّا للإبقاء علينا أحياء. وكتبتُ، وأنا متألم، قصيدة «إلى أبي،

31- Pulque نوع من العرق المكسيكي يستخرج من نبتة أغاف السيزال.

في أيّامه»، ثمّ كتبت بعدها، وأنا مستاء، سيرة للموظف فرانثيسكو دي هيريديا، الذي عاش فاضلاً ومات فقيراً منسيّاً، وهو كلّ ما ناله مكافأة على سهره وتضحياته طوال حياته في خدمة ملك راح يبتعد عنه أكثر فأكثر. وجدنا أنفسنا حينها أمام خيار صعب ومعضلة مرعبة، فكان أوّل ما فعلته أمّي، حين تولت قياد الأسرة، أنّها كتبت إلى خالي إغناثيو تسأله إن كانت طيبته تسمح له بإيواء أرملة لها ثلاث بنات شابات وولد مراهق في منتصف دراسته الجامعية.

وحدث أثناء انتظارنا لردّ إغناثيو- كنتُ أصلّي كلّ ليلة لكي نعود إلى كوبا- أن خطرت ببال أوسيس فكرة البحث عمّا يسليني، فقمنا، صبيحة يوم أحد، في شتاء عام 1820 المكسيكي اللطيف، برحلة إلى آثار معبد قرابين الأزتيك المعروف بـ «هرم قرابين تشولولا»، القريب من مدينة (بويبلا دي لوس أنخلس).

وإذا لم أكن، حين خروجنا من كوبا، أكثر من نَظّام مستجد، قادر على أن أكتبَ عشر قصائد غزليّة في اليوم الواحد أو أن أصف شعراً حوادث ومواقف يوميّة، فأظنّ أنّ مرتفعات الجغرافية والتاريخ والقامات الإنسانية التي عرفتها في المكسيك أحدثت فيّ تغييراً مهمّاً في حياتي وفي شعري... كانت على وجه الخصوص واحدة من أولى قصائدي التي كتبتها حال وصولنا تقريباً هي التي أعطتني قياس إمكانياتي الحقيقيّة: عنونتُ القصيدة «إلى بوبوكاتبتيل»،[32] وكان فيها جرعة من التأمّل ومن التماهي مع الطبيعة والزمن والتاريخ، انفجرت، كانفجار ذلك البركان، حين استوعبتُ الدرسَ الحقيقي الذي خلّفه لنا هرم قرابين تشولولا الكئيب، وأنا جالس على الأرض، عصر ذلك الكانون الأول، وقد مات أبي وتعلّق مصير عائلتي المفلسة على صدقات الآخرين.

32- Popocatépetl اسم بركان نشيط يقع في وسط المكسيك وهو ثاني أكبر براكين تلك البلاد.

أشرتُ من قبلُ إلى مبلغ افتتاني بالطبيعة ومقدار ما تستهويني مناظرها. مع ذلك، قليلة هي المناظر التي يمكن أن تقارن بالمنظر الذي أبصرتْه عيناي ذلك اليوم، حتى لقد أوشكتا أن تدمعا من فرط التأثر: المرج الخصب، وسنابل الحقول التي لا يهزّها نسيم العصر إلّا لماماً؛ الهرم الأخرس، الذي قست أحشاؤه من دماء الأبرياء، قرابين الخرافات والطغيان والجنون البشري؛ وفي الخلف منه، ظهرت البراكين المكسيكية الثلاثة: (إزتاكسيهواتل) و(أوريزابا) والمزاجي (بوبوكاتبتيل)، أهراماتٍ أبديّة أخرى، هامدة، لكنّها ليست ميتة؛ قممها مغطاة بالثلوج المتحدية، ولكن لم تطأها قدم إنسي. الحياة والموت والخلود في ثلاثة أسطح متتابعة منذرة وذات دلالة: لم يبقَ من ألق الهرم وملوكه البناة غير شاهد حجري على قسوتهم المطلقة، تعكسها قرابين الأبرياء الذين كانت قلوبهم تنزع بسكاكين من حجر الصوان، وهو بعدُ تنبض، إرضاءً لإرادة الآلهة وتنفيذاً لرغبات الحاكمين. لكنّهم ماتوا أيضاً، أولئك الذين «دعوا مدنهم بالأبدية/ وحسبوا أنّهم أتعبوا الأرضَ بأمجادهم./ كانوا: ولم تبقَ منهم أيّة ذكرى»، في تلك الأثناء، واصلت الحياة خط سيرها على الأرض، بينما راح الخالد الأبدي يراقب من عليائه غير المدنسة.

في تلك اللحظة المضيئة، وبينما كانت القصيدة تنتظم في ذهني المضطرب، أدركتُ تعسّف البشر في تطلعهم إلى الظهور والكبرياء والسلطة، وأقسمتُ أمام القمر الوليد، ودفاعاً عن أرواح الرجال المعذبة التي قدمت قرابين على مذبح فظاعات الإنسان، أن أكرّس، ما وسعني ذلك، كلّ قواي البدنية والفكرية لمحاربة أسوأ ما ابتدع الإنسان إرضاءً لأحقر صور حرصه على السلطة: العبودية والطغيان.

***

- أما من جديد؟ - سأل جرياً على عادته، لكنّه أحسّ بدوار حين سمع جوابَ أمّه، وتمنّى من كلّ قلبه لو أنّها ردّت عليه بما اعتاد أن يسمعه منها.

«لا يا ولدي»، هذا هو ما اعتاد فرناندو أن يسمعه من كارميلا ردّاً على سؤاله الذي يطرحه كلّ مساء لدى عودته إلى البيت. واعتادت هي أن تجفف يديها بالصدرية قبل أن تتحقق من أنّ إبريق القهوة بدأ يرشح.

كانت، بعد ذلك، ستقول: «إنّه يرشح». لكنّها ردّت على استفهام فرناندو الروتيني بما لم يكن راغباً في سماعه إطلاقاً:

- إنريكه ينتظرك. وصل قبل ما يقرب من ساعتين...

لو أنّ فرناندو سمع منها ذلك المساء ردّها الدائم على سؤاله الأزلي لكان حمل فنجان قهوته، وسار، وهو مستمتع برائحتها، صوب الشرفة، حيث اعتاد أن يتناولها ارتشافاً، ولكان نزع حذاءه وجواربه، بينما وضع السيجارة بين شفتيه وسرح بنظرته في أشجار الباحة: لقد تحوّلت سلسلة المشاهد تلك إلى ممارسة ثابتة تقريباً، وإن تغيّرت فليس بسبب الجواب عن ذلك السؤال المكرر: لم تصل الرسالة أو المذكرة أو الاتصال أو الملف المخلّص بعد. كان فرناندو، طوال يوم عمله على مصعد الحمل، ناقلاً لفائف الورق في الصحيفة، من أجنحة التخزين إلى مكائن الطبع، يتلهّف للعودة إلى منزله لعلّه يجد ردّاً على واحدة من احتجاجاته أو التماساته، أو أن يجد من يبلغه بأن وضعه بات واضحاً أو أنّ عقوبته ومدتها باتتا، على الأقل، معروفتين.

في السنة والنصف التي أمضاها خارج الجامعة، لم يفقد فرناندو الثقة في أن يراجع أحدٌ قضيته، ويدرك أنّه اتهم وحوكم وحكم عليه في جريمة لا وجود لها. مع ذلك، ولكي يظهر اطمئنانه إلى أن تلك المراجعة حادثة لا محالة، ولكي يبدي إرادته واستعداده لتجاوز نقاط ضعفه الأيديولوجية المحتملة، فقد قرر أن يعمل ساعتين إضافيتين طوعيتين يومياً، فضلاً عن المشاركة الفاعلة والمتميزة في جميع نشاطات المطبعة السياسية والاجتماعية والنقابية، وأن يتكفّل بتحديث جدارية النقابة وتحرير خطابات الأمين العام للحزب والشبيبة والمدير.

لقد تلقّى في الواقع، خلال الأشهر التي تلت طرده من الجامعة،

عدة ردود على رسائله: جاءه ردّ من رئيس الجامعة يشرح له فيه أنّ موضوعه في يد الوزير؛ ووصله ردّان من مكتب الوزير يبلغونه فيهما بأنّ قضيته ستدرس وأنّها حوّلت إلى لجنة وزاريّة ستحدد له موعداً رسميّاً؛ ووصله ردّ من مفوضية وزارة الداخلية يذكرونه فيه بأنّ عقوبته إداريّة وليست أمنيّة، لذلك فهي من غير اختصاصهم؛ وجاءه ردّان آخران، مع إشعار بالوصول، من مكتب مجلس الدولة، فيهما تأييد على أنّ شكواه رفعت إلى الجهات المختصّة... أمّا الرسالة الأخيرة فقد وصلت قبل ما يقرب من ثمانية أشهر، صمتَ بعدها الأشخاص الذين يتولون زمام مصيره، وهو ما أصابه باليأس، وإن ظلّ يضع ثقته في إجراء تصحيحي يردّ إليه اعتباره، وهو إجراء لم يصل إليه إلّا بعد شهر ونصف من انتقاله إلى منفاه.

كان كلّ شيء سيبدو متوقعاً ومحبطاً لو أنّ أمّه ردّت عليه بذلك الجواب المنتظر، لكنّ خبر وجود إنريكه في البيت كان أسوأ من وضع الانتظار الذي وضعوه فيه، ربّما لما تبقى من حياته.

- لكنّ هذا المخنّث...- قال وأمّه تشير عليه بأن يسكت.

كان فرناندو، منذ البداية، قد ألقى باللائمة على إنريكه في كلّ ما وقع له من مصائب. لذلك فإنّ الحديث الذي يوشك أن يبدأ بينهما جاء متأخراً عاماً ونصف عام عن موعده، عاماً ونصفاً قذراً ومدمراً للأعصاب، لجأ خلاله إلى شتّى الطرق ليخفف من الضيق الذي كان في ازدياد، وليخدع إحساسه بأنّ الزمن يمرّ، لاعناً خاوياً، نحو بئر ليس لها قرار. لقد حاول فرناندو، على الرغم من تعبه، أن يحافظ على انضباطه في الدراسة، فخصص وقتاً من كلّ ليلة لقراءاته حول القرن التاسع عشر الكوبي. وبينما كان يعالج شكوكاً ما لبثت أن تحولت إلى حقائق، كان يملأ مساحات فارغة ويكتشف حقائق ضائعة، يفرّ من واقعه ويحلم بعودة موفقة مُرضية إلى الجامعة، يكون فيها أكثر استعداداً وثقافة

وقدرة في حقل اختصاصه، فكأنّه عاصر هيريديا و(باريلا) و(ساكو)[33] و(دل مونته) [24] و(بلاثيدو) [25] و(مانثانو)[34] و(سواريث)[35] و(إيتشيباريا)[36] و(تانكو)[37] والشاب (بيّابرده)[38]: لقد صارت كلّ قصّة خفيّة وكلّ حافز وكلّ نيّة صرّح بها مخترعو الانتماء الأدبي الكوبي المجتهدون أولئك أو شعروا بها، جزءاً من حياته ومن أفكاره عن الجزيرة وعن الصورة الروحيّة والشعريّة التي حوّلوها هم إلى صورة بلد لم يكتب عنه أحدٌ حتى ذلك الوقت، بلد منحوه وجهاً وكلمة، رموزاً وأساطير تميّزه.

الشعر هو ما كان يستعصي عليه في أمسيات الدراسة تلك. صحيح أنّه لم يكتب في السنوات السابقة، حين بدأ بكتابة أطروحته والعمل في التدريس، إلّا القليل من الشعر. لقد كانت واجباته تأخذ منه الكثير، ونادراً ما كان يخصص وقتاً لكتابة الشعر، لكنّه كان يمتلك وعياً راسخاً، يمنحه الثقة اللازمة في قدراته الشعريّة، ثقة في أنّ الشعر لم يتبخّر، بل إنّه يقبع نابضاً في ذهنه، متهيئاً للظهور لحظة يقرر هو تشغيل محركات إبداعه التي لا يسبر غورها. مع ذلك، فمنذ أن طرد من الجامعة بدا وكأنّ آليّة ما أصيبت بالضمور: حاول واجتهد ووضع الخطط والأهداف وأجبر نفسه على الكتابة، لكنّ ذهنه كان عاجزاً على نظم بيت واحد، وكانت الأفكار

33- José Antonio Saco (1797-1879) سياسي ومؤرخ وكاتب كوبي. كان نائباً في البرلمان الإسباني عن كوبا. عارض الاتجاه الذي كان يدعو إلى الانضمام إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

34- Juan Francisco Manzano (1797-1854). كاتب كوبي من أصل زنجي وكان عبداً مسترقّاً قبل أن يعتق.

35- Leonardo Santos Suárez. لم نعثر له على ترجمة وإن ورد له ذكر في أكثر من مكان.

36- José Antonio Echevarría (1815-1885). كاتب وتربوي كوبي. كان هو وراء اكتشاف ما عرف بأنّه أوّل عمل أدبي كوبي «مرآة الصبر» (1608) الذي ينسب إلى سلفستري دي بالبوا.

37- Félix Tanco (1797-1871). شاعر وروائي وكاتب كوبي.

38- Cirilo Villaverde (1812-1894). شاعر وكاتب كوبي.

تتلاشى قبل أن تتبلور في حروف مكتوبة. لكنّ الأدهى والأخطر هو أنّ إحساسه بالكراهية والرغبة في الانتقام صار يحاصره أكثر فأكثر. ومع أنّ الصورة الأكثر حضوراً كانت صورة إنريكه، وهو يطارده مرتعشاً، ومتهماً إياه بالمشاركة في الجريمة وبكتابة أشعار تحوم الشكوك حول سلامتها الفكرية والسياسية، كما قال له رجل الأمن رامون، فقد كان يضايقه الحسد الواضح الذي كان يثيره فيه تدرّج أركاديو وصعوده، إذ صار يتلقى الجوائز ويسافر إلى مؤتمرات ومعارض؛ وتقلقه أيضاً مثابرة ميغيل أنخل، المواظب على روايته الأولى؛ وكذلك حسن طالع فيكتور، الذي ترقى إلى مساعد مدير الأفلام القصيرة، بينما كان هو ينفق أيامه عاملاً على مصعد الحمل ويحلم بمستقبل مداوٍ شافٍ يرفض أن يأتي. راح فرناندو يشعر وكأنّه تحول إلى شخص آخر، مختلف عن نفسه، غارق في إحساس من حقد مرّ يضبب نظرته وخيبة أمل تلازمه وحزن يشكّل حالة معنوية مقيمة فيه تقريباً. فهل سيكون في مقدوره أن يستردّ الضحكة والشعر والمرح الذي استمتع فيه بالحب لو وصلت إليه الرسالة الموعودة المنقذة؟

في ذلك العصر كسر فرناندو كلّ الروتين الذي اعتاده، فشرب القهوة في المطبخ، وأشعل السيجارة، قبل أن يتبع أمّه، التي كانت قد خرجت بفنجان قهوة آخر بين يديها، نحو الشرفة حيث كان إنريكه.

حرّكت رؤية الصديق الخائن مشاعر الكراهية فيه: وجد على الكرسي رجلاً هزيلاً حليق الشعر، علت وجهه نقاط حمر. كان إنريكه يحاول بيده المرتعشة أن يرفع فنجان القهوة إلى شفتيه. وبدت الشهور الثمانية عشر التي مرّت من دون أن يراه وكأنها ثمانية عشر عاماً مدمرة، بل لقد بلغ بالصديق القديم أن تصوّر أنّه ما كان ليستطيع أن يربط صورة إنريكه غريب الأطوار بتلك الصورة المتهرئة لو أنّه رآه في مكان آخر وظروف أخرى. وأخيراً تكلّم، من دون أن يتجرأ على الوقوف ولا على إتمام قهوته:

- كيف حالكَ، فرناندو؟

- الآن لا أعرف- اعترف فرناندو ونظر إلى أمّه.

- هل انتهيتَ من القهوة، ولدي؟- اهتمتْ كارميلا بقهوة إنريكه، فتناول آخر رشفة قبل أن يعيد الفنجان.

- شكراً، كارميلا...، قهوة لذيذة.

- حسناً، أنا ذاهبة إلى البقّال - قالت المرأة ونظرت إلى ولدها نظرة فيها مناشدة بالهدوء وطول البال.

امتنع فرناندو للحظات من النظر إلى إنريكه: انتظر أن يبدأ هذا بالتوضيح، لكنّه فوجئ بأنّ شعوراً بالشفقة يغمره بدلاً من الشعور بالكراهية والرغبة في الانتقام. لم يكن إنريكه أيضاً يجرؤ على النظر إليه، بل ركّز نظرته في الأرض: كان في حاجة إلى لفتة تشجيع تزيل توتره. وأخيراً بادر إنريكه.

- لقد خدعونا كلينا- قال، ولمس فرناندو في صوت صاحبه حيويته المعتادة، فكأنّ إنريكه ثاب إلى نفسه وكأنّ كلماته نطقت بحقيقة بسيطة.

كان فرناندو تيرّي ليفضل أن يسمع أيّة شتيمة، بل أن يُضرب ضرباً، على أن يسمع ما سمع. تمكّن الغضبُ منه ثانية، غضب عنيف، فجّر خزين حقده ويأسه ورغبته في الانتقام، المكبوت طوال عام ونصف. طارت السيجارة التي كانت في يده واحتقنت أوردة عنقه بدم مريض.

- يا لك من مخنّث. عن أيّ خداع تتحدث؟ كلّ ما حدث هو أنّكَ ألصقت بي تهمة! قلتَ لهم إنّني كنتُ عارفاً بعزمك على الخروج من كوبا واختلقت ألف كذبة وكذبة... بسببك نغّصوا عليّ حياتي. من ذا الذي خدعنا؟ كنتَ أنتَ من خدعني! ظننتُ أنّكَ صديقي، لكنّك أحطّ من أن تكون صديقاً لأحد، لأيّ أحد.

تحمّل إنريكه انهمار التهم عليه انهمار مطر مشتعل وهو جالس على كرسيّه، من دون أن يحاول أن يدافع عن نفسه، وقد ضاعت نظرته بين ساقيه.

نظر فرناندو، وهو يشعل سيجارة أخرى، إلى المشهد الحزين. لقد شعر، وهو يصبّ غضبه على المسؤول الرئيس عن مصائبه، بشيء من الانعتاق. لكنّه لم يتخيّل، في تلك اللحظة من التنفيس، أنّ شتائمه، وصورة إنريكه المسحوق، والراحة التي شعر بها بعد أن أفرغ كراهيته، ومقاطع كلمة «م- خ- ن- ث» القاسية، ستطارده طوال حياته على أنّها واحدةٌ من أكثر أفعاله مدعاة للندم. هل كنتُ أنا من دفعه تحت عجلات الشاحنة؟ سيسأل نفسه بعد ذلك، وسيعاود سؤالها، على مدى السنين.

- خدعونا كلينا- كرّر، ثمّ نظر أخيراً إلى وجهه: كانت في عينيه نداوة مرعبة وتحدٍّ ثابت.

حسب فرناندو نفسه يوشك أن يضرب إنريكه، فقد كان إصرار هذا على فكرة الخداع يولّد فيه غضباً قاتلاً، لكنّ منظر رفيقه القديم البائس الضعيف منعه من ذلك.

- وماذا كنتُ سأجني من الكذب؟ قل لي، ماذا كنتُ سأجني إن كانوا سيحبسونني على أيّة حال؟... أنا لم أتهمكَ بشيء. لكنّهم قالوا لي إنّك قلتَ لهم إنّني كتبتُ أشياء ليست ثورية وإنّ...

- عمَّ تتكلّم؟ - قفز فرناندو وقد شعر بطعنة خنجر في أحد أضلاعه.

- أنتَ تعرف جيداً أنتَ كنتَ الوحيد الذي قرأ قسماً من «الكوميديا السوداء الكوبيّة». وقد قالوا لي إنّك قلتَ لهم إنّ ذلك العمل لا يصدر إلّا عن ناقم سياسي...

- من أين أتيت بكلّ هذا الخراء؟ - نهض فرناندو ببطء.

- مما قالوه لي هم! - صرخ ونهض أيضاً من مقعده. وفجأة بدا وكأنّ تحفظ إنريكه وخجله قد تلاشيا-. ألا تفهم؟ لقد خدعونا وخوزقونا كلينا. اسمعني جيداً، فرناندو: إمّا أنّهم نصبوا لنا فخّاً أو أنّ أحداً يعلم بما كتبتُ اتهمني، وهو نفسه من اتهمكَ...

- دع عنك هذه الحكايات، إنريكه، لن تقنعني بكلامك...

- سأقنعك- أصرّ، وكأنّ إقناع فرناندو صارت مهمته في الحياة-. قد أكون مخنثاً، لكنّ في مقدوري أن أكون أكثر رجولة منك، إن استدعت الضرورة ذلك، وأنتَ تعرف ما تعني الصداقة بالنسبة إليّ. ما كنتُ لأتهمك قط، وأنا متأكد من أنّك ما كنتَ لتتهمني، تمام؟

شعر فرناندو وكأنّ معدته تنط نحو تجويف بعيد في أحشائه. ففي ما قاله إنريكه ما يجعله يشكّ في صدق ظنونه على مدى عام ونصف، فالواشي المفترض يكشف له الآن عن ضعفه هو: فهل يعلم إنريكه بأنّ فرناندو اتهمه فعلاً أمام رجل الشرطة رامون؟ لكنّه قال:

- بالطبع لا...

- انظر، فرناندو. ذات يوم سأحكي لك ما جرى معي في المعتقل... لن تستطيع أن تتخيل ذلك. ولكن كان لديَّ كلّ الوقت لأفكّر، وأنا الآن أعرف أنّهم خدعونا لأنّ هناك أحداً ما وشى بنا. وهذا الأحد له اسم.

- ماذا تقول الآن، إنريكه؟

- كيف لا تفهم؟: بين النِّغرو و(كونرادو) و(آلبارو) و(أركاديو) و(فيكتور) و(توماس) يوجد من اتهمك بأنّك كنتَ على علم بأنّي سأرحل.

- معنى هذا أنّ عليّ أن أرتاب فيهم وأصدقكَ أنتَ؟

نظر إليه إنريكه بحدة بدت صادرة من أحشائه. وبدأ فرناندو تيري يحدق في ذلك الوجه الذي كوته الشمس فتغضّن قبل أوانه، ويرى في العينين الملتهبتين الغامقتين صورة حقيقة مؤلمة.

- افعل ما بدا لك، فرناندو، لك ألا تصدقني ولك أن تثق بهم. لكنّك ستكتشف الحقيقة ذات يوم. هذا مؤسف...

قال بصوت خفيض ثمّ دخل البيت، باحثاً عن الباب. نظر فرناندو إلى المقعد الذي كان إنريكه جالساً عليه. اللعنة على أمّه، فكّر فرناندو، إذ أحسّ بأنّ ثقته في خيانة إنريكه بدأت تتزعزع.

***

استمع بلهفة غامرة إلى المديح الذي خصّ كريستوبال أكينو به شاعر الوطن الذي مرّ بالحياة مروراً أليماً وعاصفاً. لطالما سمع بمن يشيد بتلك الشخصيّة التي لا تشوبها شائبة، حتّى إنّه حفر في ذهنه صورة لرجل لم يُكتب له أن يراه، فقد توفي والده بعد يوم من بلوغه عامه الثالث.

ملأت عبارات الثناء والخطابات، ولوقت طويل، ذهنه الخالي من الذكريات. ثناء وخطابات كتلك التي زيّنت الوصف الذي سمعه من جدّته وشقيقته لوريتو، والقصص التي قرأها طوال السنين. لكنّ الأشياء اكتسبت معناها الحقيقي فجأة، حين وجد خوسيه دي خيسوس هيريديا أنّه الوحيد بين رجال العالم الذي يعرف الصورة الحقّة للرجل الذي كان أباه، وهي صورة مختلفة عن ذلك التمثال النقيّ الطاهر، المعمول من الكلمات والذكريات والأبيات الشعريّة المكررة المحفوظة.

منذ ذلك الحين، صار خوسيه دي خيسوس يثير إعجاب سامعيه وهو يتكلّم عن أبيه، إذ كان يصف بدقّة متناهية فصولاً من حياة الشاعر، أغلبها سابقة لولادته. مع ذلك، فمن بين جميع الحوادث الممكنة كان يشعر بميل حاقد لوصف الأيام الأخيرة التي عاشها أبوه منبوذاً محكوماً بالنسيان، من دون مال ولا مجد ولا أصدقاء، هناك في بيت شارع (أوسبيثيو دي سان خوان) القديم، في مدينة المكسيك: كان الحديث عن ألم هيريديا من الواقعيّة أن بدا للسامعين تجربة شخصيّة لولده أكثر منها حشداً من قصص سمعها منذ طفولته.

لم يكن خوسيه دي خيسوس يوماً من الأيام مستعدّاً، كما كان في تلك الأمسية، لرواية القصة الحزينة عن أبيه الشاعر وهو يملي على زوجته خاكوبا، من سرير المسلول، المكوي بالحمّى، ذكريات الرجل الذي حاصرته رياح زمانه. كان العجوز عازماً على الخوض في كلّ جزئية تعطي استذكاره بريقاً ومصداقية وحسّاً إنسانيّاً: لون شعر أمّه الذي فقد لمعانه، منشوراً في خلوة دارها؛ الرائحة المرّة المنبعثة من الأدوية التي يتناولها أبوه ومن الخلطات الغامقة التي يدهن بها صدره المتأجج؛

ضوء مصابيح الزيت المشتعلة طوال الليل؛ البرد الجارح لآخر شتاءات هيريديا المكسيكية، الذي أثار حنينه الدائم إلى دفء كوبا؛ والإشارة إلى اللحظة المأساوية التي ناداه فيها الشاعر، وهو في احتضاره، باسمه الذي طالما ناداه به، «بيتشي»، ليعلّق على رقبته ذلك الحلزون الصغير المعلّق بشريط، والذي لم يفارق خوسيه دي خيسوس قط، كما طلب منه أبوه. فهل سيعرض أيضاً الحلزون الشاحب المسروق من البحر قبل قرن من ذلك؟... كان العجوز يعلم أنّه يحتاج إلى أن يقدّم أفضل خطاباته لكي تظلّ تفاصيل ذلك الحدث وأهمية سرّه محفورة في ذاكرة أولئك الرجال، الوحيدين الذين أظهروا ولاءً متيناً راسخاً لقسمهم على الكتمان إلى أبد الآبدين والذين اختارهم، لتلك الفضيلة بالذات، حرّاساً على الوثيقة الأشد قوّة والأكثر صراحة من بين ما كتبه خوسيه ماريّا هيريديا وتركه من دون نشر، مجموعة أوراق قديمة يعلم ابنه جيداً أنّ سعرها يمكن أن يصل إلى مبلغ منقذ في سوق الباحثين عن الماضي.

لم يتجرأ خوسيه دي خيسوس، حتّى حين كانت العائلة تمرّ بأشدّ حالات الفقر، على أن يسلّم تلك الوثيقة لآخرين. كان من الصعب عليه التغلّب على إلحاح الداهية فيغارولا وعروضه، وهو يصرّ على أنّ المكتبة الوطنية لن تشتري منه مجموعة مخطوطات هيريديا المقترحة من خوسيه دي خيسوس إلَّا إذا ضمّت رسالة عام 1823 التي يكرر الشاعر فيها مشاركته في مؤامرة «شعاع بوليفار وشمسه» الاستقلالية وبعض الأوراق التي فيها ضربٌ من المذكرات أو ربّما رواية لم يطلع أحد معروفٌ عليها، والتي ما كان فيغارولا يشك في وجودها منذ أن عثر على ملاحظة بخط خاكوبا يانيث، مخفيّة بين أوراق واحد من الكتب القليلة التي انتشلت من مكتبة الشاعر الشخصية المبعثرة. في تلك الوريقة تشير خاكوبا إلى أنّ «رواية حياته» يجب أن تبقى، بناء على رغبة زوجها الشخصيّة، من دون نشر. ثمّ – كان فيغارولا يؤكد ويعيد التأكيد–، إنّ على خوسيه دي خيسوس أن يعلم بأنّ صحفياً مكسيكياً

أكّد وجود تلك الأوراق الغريبة. الصحفي هو خيراردو آريولا، وهو واحد من الأصدقاء القلائل الذين زاروا الشاعر وقت احتضاره، حين تكلّم، في واحدة من مروياته التي أعقبت وفاة هيريديا، عن نص طويل، ربّما رواية، كتبه الكوبي في الأشهر الأخيرة من حياته... وما عساه يكون غير «رواية حياته» التي أشارت إليها خاكوبا؟ سأله، أو بالأحرى تساءل الداهية فيغارولا. لكنّ خوسيه دي خيسوس نفى أن يكون لديه خبر عن وجود تلك الوثائق، ووضع فوق منضدة المكتبي العارف ببواطن الأمور رسالتين شخصيتين شديدتين، وجههما هيريديا من منفاه الأمريكي الشمالي إلى دومنغو دل مونته، يتهمه فيهما بأنّه هو من سرّب المعلومات عن مؤامرة 1823 الاستقلاليّة. ثمّ إنّه عرض عليه شهادة شرف النسب تعود لجده الماركيز دي ميسس حررها أبوه ووثائق أخرى منوعة تلقي المزيد من الضوء على حياة الشاعر في المكسيك.

يبدو أنّ تينك الرسالتين المرسلتين إلى دومنغو دل مونته، واللتين أشار إليهما عدد من الدارسين، وكانتا مجهولتين حتّى ذلك الوقت، خففتا من شراهة المكتبي، الذي مرّر عليهما أنامله، فكأنهما منقوشتان على جسد امرأة. معروف أنّ هيريديا كان قد كتب عدة رسائل إلى دل مونته، لكنّ هذا لم يحتفظ إلّا بعدد قليل منها، لم تكن من بينها أيّة واحدة مرسلة بين 1821 و1823، وقد استبعدها جميعها من «مجموعة المراسلات» التي جمع فيها الرسائل الكثيرة المرسلة إليه على مدى أكثر من عشرين سنة... لكن لنرَ - كان فيغارولا لحوحاً-: لنقلْ بأنّ تلك الوثائق غير موجودة، لكنّ رسالة الاعتذار التي ترجع إلى عام 1823 عُرفت وأذيع جزء منها، ولا بدّ أنّ أحداً يمتلك الأصل...

مع أنّها لم تكن المرة الأولى التي يبيع فيها وثائق تعود لوالده، لم يشعر خوسيه دي خيسوس بالمهانة كما شعر بها صبيحة ذلك السادس من آب من عام 1917 أمام رجل كان يمارس عليه سلطة المكتبي الضعيفة، بحثاً عن المجد في بلد لا يهتمّ فيه أحد بالمكتبات ولا بالأوراق القديمة ولا

بالشعراء ولا بعفو الربّ. لكنّه كان يحتاج إلى المال، كما احتاجه أبوه في أسوأ أيام منفاه المكسيكي، حين فقد امتيازات السلطة لأنّه حاول أن يحافظ على كرامته، بل لقد امتنع عن تسلّم مرتب الحكومة البائس: وكان عليه، لإعالة أسرته، أن يلجأ إلى أيّ عمل وإلى الاقتراض من أقاربه وإلى رهن القليل والعزيز من الجواهر التي كانت لديه، بل إلى بيع مكتبته.

حينئذٍ حكى له خوسيه دي خيسوس عن مصير النسخة الأصلية لتلك الرسالة التي كتبها أبوه إلى فرانثيسكو إيرنانديث موريخون[39]، حاكم التحقيق في قضيّة المتآمرين في (ماتانثاس)، وكان قصده منها واضحاً: تبرير هروبه من كوبا والاحتجاج على اتهامه بأنّه شارك في خطط الداعين إلى الاستقلال. لقد سلّمه صديق من الأصدقاء، لم يكشف خوسيه دي خيسوس النقاب عن هويته، النسخة الأصليّة بعد أن انتزعها من مضبطة القضيّة. وهمس العجوز، وبه خجل، أنّه أحرق الرسالة محاولاً أن يمحو من ذاكرة الرجال الضعفَ المرعب الذي أبداه أبوه في تلك اللحظة المأساويّة من حياته. ما لم يقصّه على فيغارولا هو أنّه، لو كان عرف بما صار يعرفه الآن، لما أتلف الرسالة التي قامر فيها الشاعر، عن وعي، بحكم الأجيال اللاحقة، في محاولة يائسة منه في الإبقاء على أمله في حبّ كبير وعلى إمكانية أن يحمل بين ذراعيه ذات يوم ولداً لم يعرفه قط...

وأخيراً وافق خوسيه دي خيسوس على المبلغ البائس الذي دفعه له فيغارولا مقابل رزمة الوثائق، واحتفظ لنفسه بـ «رواية حياته» تلك، التي كان قد حملها معه من هافانا، محفوظة في ظرف كبير ومربوطة بشريط بنفسجي فاتح، قاصداً إيداعها في محفل «أبناء كوبا». شعر آخر أبناء خوسيه ماريا هيريديا بضغط على صدره حين تذكّر أنّه لن يتلقّى سنتاً واحداً عن تلك الأوراق التي كان لها أن تنقذه لياليَ كثيرة من النوم طاوياً جائعاً.

***

39- Francisco Hernández y Morejón (1808-1874). لم نعثر على تفاصيل من ترجمته.

- ماذا...؟ هل تثير مشاعرك كما تثيرها (ماتانثاس)؟

تناول آلبارو جرعة من الرون من قارورته، أشعل سيجارة واستلقى على المقعد الخلفي. كانت السيارة تتقدم متعبة، متجاوزة الحفر والكلاب والأشخاص الغافلين أو، ربّما، المنتحرين الذين يسيرون في وسط الشارع، وبحراً من الدراجات وعربات الخيول والثيران، تسير بفوضى في شارع البلدة الرئيس.

- هذا يبدو مثل فيلم من أفلام الغرب الأمريكي- ضحك أركاديو وانحرف يميناً، ليوقف السيارة في شارع جانبي.

- ولكن من الغرب البعيد، البعيد جدّاً...- قال آلبارو، وهو مغلق العينين-. ما أقبح هذه البلدة، تبّاً...

لئن بدت هافانا له غريبة و(ماتانثاس) جميلة، وهي في فترة انحطاطها، فإنّ دخوله في (كولون) أحدث في فرناندو شعوراً بالسقوط في مكان ضائع في الزمان. كانت سنوات الأزمة قد أزالت المفاتن التي ربّما حظيت بها، في وقت من الأوقات، تلك البلدة الواقعة في سهل (ماتانثاس) الغنيّ، أمّا القبح البيّن الذي كانت عيناه تريانه فقد رسم أمامه حالة معنوية قريبة من الكآبة. لذلك سأل نفسه، بينما كان أركاديو يستفسر عن عنوان المتحف، إن كانت الزيارة تستحقّ العناء.

- صارحني، بارو، هل تظنّ أنّ تلك الأوراق يمكن أن تظهر؟

رفع آلبارو نظره وكأنه خرج من سبات.

- لماذا تسألني؟ أنا أظنّ ما تظنّه أنت: إنّ هناك خيطاً موصلاً لم يكن من قبل موجوداً. فبين اليأس من وجودها واحتمال وجودها شوط، وثمّة شوط آخر بين وجودها وظهورها... لكن، ماذا جرى لك؟ هل أنتَ نادم على أنّك أتيت؟

- الواقع، لا أدري...

- هذه هي مشكلتك دائماً: إنّك لا تدري شيئاً البتة. انظر، تأمّل أركاديو، كلّ شيء أمامه واضح: همّه هو أن يكون شاعراً، أمّا ما عدا

ذلك فإلى الجحيم؛ كونرادو مستعد لحرق نصف الجزيرة ليبلغ هدفه؛ توماس لا يهمه شيء وهو يعلم بذلك ويقبل به ويستمتع... أمّا أنتَ فلا تدري إن كنتَ تريد أن تكون شاعراً، أم معلماً، إن كنتَ ستؤلف كتاباً عن هيريديا، إن كنتَ تحبّ دلفينا، إن كنتَ تريد أن ترحل، أن تعود...

- وما سبب هجمتك هذه عليّ، صديقي؟

- سببها هو أنّني أراكَ تأتي، فرناندو، أراكَ تأتي، وأنا أعرفك. تأمّل مدى جهلك، حتّى إنّك لا تمتلك الشجاعة لكي تصفح وتعفو. تفضّل النسيان على العفو، أليس كذلك؟

- صحيح، لكن ما علاقة هذا بالشجاعة؟

- حسناً - قال آلبارو، وكأنّه تعب-، سلْ نفسك بهذا التفكير، لكنّك تعلم أنّ ذلك كذب: لأنّك لن تنسى، على الأقل ما دمت ترى في نفسك شهيداً وتواصل التفكير في أنّ واحداً منّا هو من علّقك على الصليب... لماذا لا تتخذ قراراً وتبرئ الآخرين من هذه التهمة؟ - أشعل سيجارة، من دون أن ينظر إلى فرناندو، حين لاحظ اقتراب أركاديو.

- عندي قدرة عالية على التصويب الدقيق. المتحف في الناحية الأخرى - قال أركاديو من نافذة السيارة وأشار إلى نهاية الشارع.

للمتحف مظهر جميل. لقد أقاموه في بيتٍ خشبي كبير وقديم، سقفه عالٍ ومرصوف بالقرميد الفرنسي، أمّا نوافذه الكبيرة فقد طليت بالأبيض بينما طليت جدرانه بالأخضر البرّاق. أكّدت لهم حارسة القاعة الأولى أنّ المدير موجود في مكتبه وسألتهم عن طلبهم. حاول أركاديو الوسيم، الواثق من شهرته في أوساط الجزيرة الثقافية والنسائيّة، أن يمهّد الطريق بأن أعطى اسمه والتوصية التي جاء بها من آل ثرنودا.

بينما كانت المرأة تتجه صوب نهاية البيت، راح فرناندو وآلبارو وأركاديو يتأملون الأعمال الفنيّة الشهيرة، مستنسخة ومعلقة على الجدران. كانت نسخاً عالية الجودة حوّلت المتحف إلى نموذج مصغّر لأفضل ما في (لوفر) باريس و(برادو) مدريد و(أورساي) باريس و(موما)

نيويورك و(أرميتاج) سانت بطرسبورغ. وقف فرناندو قبالة لوحة «لاس منيناس»[40] مصغرة، وتذكر التأثر البالغ الذي شعر به حين زار متحف (البرادو) للمرة الأولى ووقف أمام تحفة بيلاثكيث تلك. ثمّ انتهز فرصة الدخول المجاني إلى ذلك القصر في مدريد أيام الأحد ليتأمّل تلك اللوحة الفخمة التي كان يستودعها أسراره شيئاً فشيئاً. خصص في كلّ زيارة عدة دقائق لتأمّل الوجه الذي رسمه بيلاثكيث لنفسه، باحثاً في نظرته، التي رسمها بنفسه، عن حدقة فذّة لعبقري يتأمّل العالم من زمانه وارتفاعه. والآن، وعلى بعد كلّ تلك الكيلومترات عن اللوحة الأصليّة، وبعد سنوات كثيرة من زيارته الأخيرة إلى متحف (البرادو)، نقل له لقاؤه بتلك النسخة إحساساً قويّاً بالسلام مكّنه من التغلّب على الضيق الذي سببته له كلمات آلبارو. حينئذٍ ظنّ فرناندو أنّه اكتشف في عيني الرسّام بريقاً ساخراً ومخيفاً يكلّمه عن سرعة انقضاء الوقت وعن كلّ التفاهات.

أبلغتهم الحارسة أنّ المدير بانتظارهم ودلّتهم على الطريق المؤدي إلى الباحة الداخليّة، المزروعة بأشجار البرتقال والتين والجوافة، التي نما بينها الحبق والياسمين ومسك الليل. استقبلهم روبرتو أكينو عند باب مكتبه وسلّم على آلبارو باهتمام خاص: إنّه يعرف شعره، وهو في رأيه أفضلُ ما كتب في البلد من الشعر، قال، بينما انصرف فرناندو إلى ملاحظة ردة فعل أركاديو، الذي كان يحوم بنظرته في الغرفة وكأنه لا يسمع شيئاً، أو وكأنّه يبحث هناك عن شعر، إلى أن خصّه أكينو بالمديح.

- كتابكَ الأخير أعجبني كثيراً - قال، فتلقّى شكر الشاعر وابتسامته اللطيفة.

كان روبرتو أكينو أصغر سنّاً من زواره بسنوات وقد بدا لطيفاً، فضلاً عن أنّه بدا مطلعاً على ما يحدث في عالم الثقافة، ليس في كوبا فحسب، بل في أنحاء العالم. وضع على طاولة المكتب السيرة الكبيرة التي ألّفها

40- Las Meninas أو «الوصيفات» وهي واحدة من أشهر لوحات الرسام الإسباني دييغو بيلاثكيث (1566-1660) والتي صوّر فيها عائلة فيليب الرابع.

أوليفيه تود عن كامو[41]، وكان مكتبه مرصوفاً بالكتب، من الأرضيّة حتّى ارتفاعات لا يمكن بلوغها، لكنّه اعترف بأنّه لا يضع هناك إلّا الكتب الأقل عرضة للسرقة: أمّا نفائس مكتبته فهي في بيته وهو لا يعيرها إلّا لأصدقاء محددين.

- وهو أسوأ ما يمكن للمرء أن يفعل... الأصدقاء هم من لا يعيدون الكتب، فلا أحد يعير كتبه للأعداء.

حين ذكر له فرناندو سبب زيارته، استمع روبرتو أكينو إليه بصمت وترقب خلا من علامات التعجّب والدهشة.

- عرفتُ لياندرو ثرنودا جيداً. كان صديقاً مقرباً من جدي ومن أبي، الماسوني أيضاً.

- وهل يمكننا الحديث مع جدك؟ - طرح فرناندو أخيراً السؤال الأهم وانتظر الجواب بقلق.

- بالطبع. جدي عمره الآن اثنان وتسعون عاماً، وذهنه أصفى من أذهاننا مجتمعين... لكن دعوني أسألكم شيئاً مهمّاً: هل تعلمون حضراتكم أنّ حكومة ماتشادو أغلقت محفل «أبناء كوبا» في عام 32؟ لقد اتهموا العديد من أعضائه بالتآمر وأغلق المحفل حتى وفاة ماتشادو عام 33... بحسب جدي فإنّ الشرطة أجرت تفتيشاً وحملتْ أوراقاً لم يعد أحدٌ يعرف شيئاً عنها.

كان في الذهول والإحباط والوجوم الذي علا وجوه الزائرين ما جعل روبرتو أكينو يتوقف عن كلامه. من الواضح أنّ البروفسور مندوثا ما كان يعلم هو الآخر شيئاً عن ذلك الحادث.

- من الأفضل أن تتكلموا مع جدي، لأنّ القصّة أعقد من ذلك - اقترح عليهم وأغلق كتاب سيرة كامو.

اعتاد أكينو العجوز في كلّ عصر أن يتأمّل مسارَ الحياة من باب بيته،

41- Olivier René Louis Todd (1929). صحفي وكاتب فرنسي.

وهو مسترخٍ على كرسيه الخشبي ذي المساند، وبيده اليمنى مروحة من الورق المقوّى، وفي اليسرى سيجار عظيم، وعلى رأسه قبعة مهترئة من القش. كان رجلاً متماسكاً على الرغم من سنوات عمره، كبير اليدين مفتولها، رأسه عظيم كرأس الثور، محصور بين أذنين لهما شكل البوق ينبعث منهما شعر كثيف. ومع أنّ الطقس لم يكن حارّاً فقد كان يلحّ في تبريد وجهه بالتردد ذاته الذي تتحكّم فيه قدماه باهتزاز أريكته. اقترب حفيده من مكانه، وبعد أن قبّله من خدّه شرح له بصوت مرتفع هويّة زوّاره. توقف العجوز عن تحريك كرسيه ومروحته الورقيّة ونظر بطيئاً وعميقاً إلى القادمين، بينما راح يمصّ سيجاره العملاق مرّات عدّة.

- وهل جئتم حضراتكم من هافانا؟ - صرخ العجوز، الذي كان في ما يبدو يشكو من بعض الصمم.

- نعم. خرجنا هذا الصباح وعرّجنا على (ماتانثاس)- قال أركاديو بنبرة الصوت ذاتها.

- وهل ستعودون اليوم إلى هافانا؟ - صرخ ثانية العجوز.

- طبعاً - ردّ أركاديو.

- يا روبرتو الصغير - التفت أكينو إلى حفيده-، ائتِ بكراسي للشباب.

- أنا أساعدكَ - قال آلبارو وذهب خلف روبرتو.

- وأين ستتعشون هذه الليلة؟ - واصل أكينو استجوابه، بعد أن بصق باتجاه زاوية من زوايا الباب.

- لا عليك، أكينو. سنتعشى في مكان ما...

كان روبرتو يخرج أحد الكراسي حين استدار جده لينظر إليه.

- روبرتو الصغير...، قل لأمّك أن تذبح فروجين وتعدّ الطعام لهؤلاء الشباب.

حاول أركاديو وفرناندو الاعتذار، ولكن لم يبدُ على الرجل العجوز أنّه سمعهما.

- يبدو عليكم أنّكم تحبون الرز مع الدجاج مثلي. لو أنّهم سمحوا لي لأكلت الرز والدجاج يومياً - قال منساقاً وراء ذوقه في الطعام، ثمّ أومأ إلى حفيده بأن ينقل أوامره.

حاول فرناندو، وهو محرج، أن يبحث له عن حجة جديدة يعتذر بها.

- عذراً أكينو، نحن...

- اسمع أيّها الفتى، لا تتعجّل، هناك وقت أطول من الحياة. ودعني أقول لك أمرين: إذا زرت بيتي، فعليك أن تقبل دعوتي للطعام، لأنّك إن لم تقبل دعوتي فهذا يزعجني كثيراً... انتظر، انتظر، أنا لم أنتهِ من كلامي. لأن الشيء الآخر الذي أريد أن أقوله لكم هو أنّي انتميت إلى الماسونية عام 24، وأنا أبلغ الثامنة عشرة من عمري، وبدأتُ أشغل الأمانة العامة للمحفل عام 30. مضى وقت طويل، أليس كذلك؟ ورأيت بعينيّ هاتين كيف فتّش زبانية ماتشادو المحفل عام 32 وحملوا كلّ ما وجدوه.

- وماذا جرى لتلك الوثائق؟

- لا أعرف، لكن لا يهم، لأنّهم لم يأخذوا غير القليل من التفاهات.

لمس فرناندو سخرية واضحة في صوت العجوز وشعر ببصيص من أمل في زاوية ما من زوايا تلك القصّة.

- ألم يأخذوا كلّ ما كان موجوداً في المحفل؟

- قلتُ لكَ إنّ ما حملوه تفاهات. أوراق قديمة، وصولات ماء وكهرباء، بعض الكتب، شهادات...

- وبقيّة أوراق المحفل؟

- لم تكن هناك حينها، لأننا كنّا نعلم بأنّ الشرطة قادمة... دعني أشرح لك الأمر - عاود العجوز تحريك مروحته اليدويّة-: تعلمون أنّ ماتشادو كان ماسونيّاً ثمّ طرد من المحفل؟ أليس كذلك؟ لا أستغرب ذلك... ما حدث هو أنّ الماسونيين كتبوا إلى ماتشادو رسالة طلبوا فيها منه أن يتخلّى عن الرئاسة، لأنّه تحوّل إلى دكتاتور وما عاد أحد في كوبا يحبه.

جرت بيننا نقاشات حول تلك الرسالة، لأنّ ابن القحبة ملأ المحافل الماسونية بالجواسيس، والمفروض أنّ الماسونيّة ليس عليها أن تتدخل بالسياسة، لكنّ من المفروض أيضاً أنّ الماسونية تكافح الطغيان. وهذا هو ما أبلغنا به ماتشادو في الرسالة التي بعثناها إليه. لكنّه ما كان ليتخلّى عن السلطة، لذلك اعتبرناه خائناً لمبادئ الأخوّة وقررنا طرده.

- وأوراق المحفل؟ - تدخل آلبارو، وهو يشعل السيجارة بعقب سابقتها.

- الأوراق التي تبحثون عنها لم تكن في المحفل. ولا في الأمانة العامة ولا في غرفة الخبراء السرية، وكان هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تكون محفوظة فيه. وهل تدرون كيف أعرف بهذا؟ لأنّنا أنا وأبي تعاونّا على إخراج أرشيف المحفل. كانت عشرة صناديق.

تبادل أركاديو وفرناندو النظرات، بينما وقف آلبارو. كان السؤال يحوم في الأجواء، وتقدم آلبارو على زميليه.

- وإلى أين أخذتموها؟

- إلى مكتبة (ماتانثاس). أخفيناها في أحد الأقبية، بين أوراق قديمة أخرى. كان مدير المكتبة ماسونيّاً أيضاً وقد أبقاها هناك إلى أن مرّت العاصفة.

- وهل تعلم حضرتك إنّ كان بين تلك الأوراق وثائق سلّمها خوسيه دي خيسوس إلى المحفل؟

- لم أرّ تلك الوثائق قط، وإن سمعت عنها. خوسيه دي خيسوس سلّمها بسرية تامة...

أومأ فرناندو إلى آلبارو ليسمح له بمداخلة وجلس هو على حافة الكرسي ليكون قريباً جدّاً من العجوز.

- وما كانت تلك الوثائق؟

- لا أدري. شيء حول حياة هيريديا، أظنّ...

- لكنّ حضرتك كنت الأمين العام ووثائق هيريديا تلك كانت في المحفل، أليس من المفروض أنّك تعلم بذلك؟

- طبعاً، من واجبي أن أعلم بذلك - قال أكينو بثقة-، ولهذا قلتُ لك إنّ تلك الوثائق لم تكن موجودة في الصناديق التي أخرجناها عام 32، ولا بين الأوراق التي تركناها للشرطة. أنا واثق من ذلك ثقتي من أنّ اسمي هو أفورتونادو سلفادور أكينو روماغوسا.

شعر فرناندو وكأنّ قلبه يوشك على الانفجار في صدره.

- أليست لديك فكرة عن مكان وجود تلك الأوراق، أو إن كان أحد قد أخرجها من المحفل؟

ابتسم العجوز وسرّع إيقاع تأرجحه.

- لا شكّ عندي أنّ تلك الأوراق موجودة. كان أبي، كريستوبال أكينو، خطيب المحفل وكان هو من أثنى على هيريديا وخوسيه دي خيسوس عام 21... بالمناسبة، من المناسب أن نعلم المكان الذي استخرج مندوثا منه نسخة ذلك المحضر، لأنّي أتصوّر أنّها التي تركناها في الأرشيف خوفاً من بحث الشرطة عنها، لأنّ تلك الأوراق لم تظهر بعد ذلك قط... لكن، المشكلة هي أنّ الجميع في المحفل يعلمون أن ليس في مقدور أحد أن يقرأ مخطوطة هيريديا ولا أن يتكلّم عنها حتى العام 39، لأنّ خوسيه دي خيسوس لم يكتفِ بطلب حفظ الأوراق، بل طلب أيضاً أن يظلّ وجودها طيّ الكتمان. لا بدّ أنّ تلك الوثائق تنطوي على شيء مهم، ألا يبدو لكم ذلك؟... ما أنا متأكد منه هو أنّه في عام 30، حين أنهيت دراستي الجامعية وبدأتُ أعمل أميناً عامّاً، لم تكن تلك الأوراق في المحفل. أمّا مَن أخرجها من هناك ولماذا وأين أخفاها فذلك ما لا أعرفه.

- ألم تشكّ بأحد قط؟ - أطلق أركاديو سؤاله، بصرخة وصلت بلا شك إلى محيط مربعين سكنيين.

حاول العجوز أن يمصّ سيكاره، لكنّه وجده وقد انطفأ. أطال النظر إليه، كمن يتأمّل خائناً لا تغتفر خيانته، ثمّ رمى به إلى الشارع محتدّاً.

- أنا الآن جائع. سنتحدث في ما بعد. لأنّ الحديث يطيب حين تكون البطون ملأى، أليس كذلك؟... لوكريثيا!

***

سألتُ نفسي ألفَ مرّة عمّا كانت ستكون عليه حياتي لو أنّ تلك الرسالة لم تبلّغنا بالردّ السعيد الذي أوصلنا إلى هنا. «أختي الغالية ماريّا: بيتي هو بيتك وبيت أبنائك الأعزاء، ومهمتي منذ اليوم هي أن يصبح خوسيه ماريّا، الذي أحبه حبّي لولدي، المحامي الذي أراد له الطيب المرحوم أبوه، رحمه الله، أن يكونه». هل سأعملُ مساعداً دائماً في مكتب موثّق عقود من المكاتب الكثيرة الموجودة في المكسيك؟ أم سأكون جنديّاً في صفّ الملكيين، كما كان سيتمنّى أبي، أو في صفّ دعاة الاستقلال، كما كان يتمنّى قلبي؟ أم سأصبح، ربّما، صحفيّاً من أولئك الذين يكتبون منشورات دعائية كلّ يوم ويحلمون بالقليل من الوقت الذي لن يأتي، لتأليف كتابهم الذي لن يؤلفوه؟ والأهم من كلّ هذا: هل سأكونُ سعيداً؟ هل سأعرفُ، بالقدر الكبير الذي حظيتُ به، الراحةَ التي تغمركَ وأنت تشعر بأنّك نافعٌ ومشهور، والعذابَ الذي يؤلمك وأنتَ تحسّ بأنّك محتقر ومنسيّ؟

ما كان لأيّة مسألة من تلك أن تمرّ في ذهني حين فتح لنا الخال إغناثيو أبوابَ الأمل، هدية بمناسبة عيد ميلادي السابع عشر، وبدأنا التحضير للعودة إلى الجزيرة. لقد ملأتني فكرة عبور البحر ثانية بالفرحة، ولم يخالط ذلك النهر الغامر من الرضا لعودتي إلى كوبا سوى قطرة من الحزن سببه فراق أصدقائي المكسيكيين.

سافرنا أواخر كانون الثاني البارد من عام 1821 ووصلنا إلى هافانا في شباط دافئ، يمنح نور الشتاء الكوبي الحميد فيه الأشياء عمقاً غريباً، قبل أن تتسطح وتنبسط بعد ذلك في أشهر الحرّ الطويلة التي وهبتها أمّنا

الطبيعة إلى الجزيرة. كانت بانتظارنا في الميناء رائحة المدينة المميزة ومعها الخال إغناثيو، الذي انطلق، بعد أن تركني في بنسيون في شارع (لوس ميركاديرِس)، على جناح السرعة مع بقيّة العائلة إلى (ماتانثاس)، حيث كان بانتظاره الكثير من العمل.

ما إن دخلت العربة في العطفة ولوّحتُ بآخر إشارات الوداع لشقيقاتي حتى انطلقتُ راكضاً إلى معهد القديس كارلوس، وكانت الدروس توشك على الانتهاء. في عروقي كانت تجري فرحة لا أستطيع احتواءها، فقد كان الإحساس بالحرية التي أتمتع بها للمرة الأولى في حياتي يبثّ فيّ النشاط.

كان اللقاء بدومنغو وسلفستري وسانفيليو وبقيّة أفراد المجموعة مؤثراً وصاخباً. كانوا قد علموا بوفاة أبي عن طريق خبر صحفي قصير، وتلقيتُ في المكسيك رسالة كتبها سلفستري ووقعها عدد من الأصدقاء تحمل تعزيتهم مع خبر وفاة دون ليوناردو، والد دومنغو، قبل شهرين من وفاة والدي، في إشارة إلى إرادة سماوية مأساويّة، مصممة على أن تضع حياته في موازاة حياتي وصولاً إلى نقطة الاختلاف المرّ.

لم يكن يخطر في بال أيّ منهم أن أظهرَ ذات عصر، ومن دون سابق إعلان، وأنا ما زلتُ أرتدي بدلة سميكة من القماش الإنكليزي، لأبادرهم بالخبر الذي أطلقته في الحال: لقد عدتُ لأبقى هنا إلى الأبد.

احتفلنا باللقاء في أحد المحلات التي افتتحت أثناء غيابي، في المنطقة القريبة من جادة (البرادو). كان اسم ذلك المحل «الأناناس الفضيّ»، وقد بات مشهوراً بين الشباب، فقد كان المحل الوحيد الذي فيه مكائن لصنع المشروبات، والوحيد الذي يقدّم مثلجات الفواكه وخليط الحليب بالثلج، وهو ما كان يجتذب جميلات هافانا. ينشّط المكان أيضاً ثلاثي من عازفي الغيتار، يضمّ أسودين وخلاسيّاً واحداً رشيقاً كان يغنّي بصوته المخمليّ الرخيم أغانيَ عاطفيّة. بعد تناول كريم المشمش الأمريكي المثلّج، صعدنا إلى ما هو أعلى مرتبة، فذهبنا إلى أقرب حانة وطلبنا

نبيذاً. أتينا على عدة جرار من النبيذ الأحمر الناري البرتغالي، وقد انضمّ في تلك الأثناء إلى طاولتنا شاب كولومبي نحيف فطن يتطلع إلى أن يصبح شاعراً ويحفظ الكثير من النكات، كان اسمه فيلكس تانكو، وهو مقيم من عدة سنوات في (ماتانثاس). وبينما كنّا نشرب، راح أصدقائي يحكون لي عمّا فاتني من أجواء هافانا، التي تغيّرت كثيراً في السنتين الأخيرتين. سؤالان كانا يلحان عليّ، مع ذلك فضّلتُ تأجيلهما، فقد كان دومنغو، وهو يقرأ أفكاري، قد قرر أن يدعوني تلك الليلة إلى العشاء معه في بيت أخيه الذي اتخذه مسكناً له.

ممّا حكاه لي أصدقائي فهمتُ أن من بين أكثر المستجدات مدعاة لفرحهم هي رياح الحريّة التي تشيع في أجواء الجزيرة منذ أن أقيم النظام الدستوري. لقد خيّمت على هافانا حالة من الفوران السياسي الحقيقي، بل لقد بدأتْ تنشب منازعات دامية بين المؤيدين للدستور وأنصار الحكم الاستبدادي المطلق. ما لم أفهمه هو أن يواصل المهاجرون الأوروبيون الأغنياء انحيازهم إلى النظام الاستبدادي، أمّا السبب الذي يكمن وراء ذلك الموقف السياسي فهو، بحسب سلفستري، أنّ أولئك الأغنياء الكوبيين كانوا يحصلون من الملك على ما يتمنون، بينما تعرّض القوانين الجديدة الكثير من امتيازاتهم للخطر.

- وأنتم؟ هل أنتم دستوريون أم استبداديون؟ - سألتُهم وأنا أخشى أن أبدو غبيّاً أمامهم، لأنّ خلف العديدين من أصدقائي ومن أصدقاء أصدقائي تقف بعض أكبر مصادر الثروة في الجزيرة. لكنّ خبرتي جعلتني أفكّر في أنّ ميولهم هي أقرب إلى الديموقراطية الدستوريّة التي أميل إليها أنا أيضاً.

تبيّن، لحسن الحظ، أنّهم دستوريون وليبراليون، وأنّهم ازدادوا ميلاً إلى تلك الأفكار منذ أن سجلوا، قبل أسابيع من ذلك، بجمعهم في قسم القانون الدستوري المرغوب الذي أنشئ في المعهد بقرار من أسقف هافانا، والذي تولّى مسؤولية التدريس فيه الأب باريلا بلحمه وشحمه.

كان الوقت ليلاً حين انصرف كلّ منّا إلى مسكنه. أمسك دومنغو، الذي كان يسكن في شارع (سان إغناثيو)، بذراعي، وبدلاً من أن يأخذني إلى بيته، قادني إلى جادة (البرادو) حيث جلسنا على مصطبة شاغرة. هناك حكى لي عن مبلغ ما تغيّرت حياته منذ وفاة أبيه المفاجئة. وحكى لي أنّ أمّه، دونيا روسا، صفّت ممتلكات دون ليوناردو واستثمرت المال في شراء مزرعة متواضعة بالقرب من (ماتانثاس). أمّا هدف صديقي الآن، وهو المضطر إلى حياة التقشف، فهو الانتهاء من دراسته في أسرع وقت والبدء في كسب شيء من المال.

- أفظع شيء هو أن تتعلّم أن تكون فقيراً. هل تفهمني؟ لا يمكنك تصوّر هذا، خوسيه ماريّا - قال لي، لكنّه أخطأ: فأنا لا أتصوّر الفقر، بل أعرفه. لم يكن دومنغو، وهو في مركز العالم، يفكر في نفسه إلّا قليلاً، فقد صار يشعر بأنّ مكانه المتميّز في المجموعة ما عاد نفسه، وهو الذي كانت بحبوحته المادية السابقة تسمح له بأن يكون الأول في الدعوة وفي التبذير.

- قلت لك ذلك ذات مرّة، وأكرره عليك الآن: سأكون غنيّاً، مهما كلفني ذلك، ورغم أنف الجميع. فأنا والفقر لسنا على وفاق.

- والشعر؟

- جيد، جيد، ولكن ليس على قدر شعرك. بدت لي قصيدتك «إلى بوبوكاتيبتل» رائعة.

- أما زلتَ تلعب؟

- أحياناً... لكن أقلّ من قبل.

- وما عدتَ تذهب إلى بيت مدام آن- ماري؟

- فقط حين يدعوني أحد للذهاب، تصوّر.

- هل نذهب هذه الليلة؟

- ومن أين ستأتي بالمال؟...

- لديَّ نقود لشراء الكتب. لكن إن أعرتني كتبك...

كانت الساعة تقترب من التاسعة حين وصلنا، حاملين المصابيح اللازمة، إلى باب أجمل بيت في المدينة. تكلمنا في الطريق، بين ضحك وتندر، عن الاهتمام القليل الذي أعارتني إياه الشابة إيزابيل، التي أوصل دومنغو بعضاً من قصائدي الغزليّة إليها عن طريق شقيقتها. وبحسب صديقي، فإنّ إيزابيل، الفتاة التي كانت قبل ثلاث سنين جميلة واعدة، خُطبت منذ بضعة أشهر، لتاجر من (مالقا)، لديه ضعف ما لديها من السنّ، ومن المال أيضاً، وهو ما له دلالته إذا علمنا أنّ إيزابيل هي من عائلة (رويدا إي بونثه دي ليون). أمّا المحظوظ فيدعى (بيدرو بلانكو فرنانِدث دي ترابا)، وهو واحد من أشد مهندسي تجارة الرقيق وحشيّة، وهي التجارة التي ازدادت أرباحها منذ أن بدأ العد التنازلي لمنعها رسميّاً، بعد الاتفاق بين إسبانيا وإنكلترا عام 1817.

حين علمتْ صديقاتي العاهرات بوجودي في الماخور غمرهنّ الفرح وخرج العديد منهنّ من غرفهنّ بعد أن تركن عملهنّ معلّقاً لتهنئتي وتقبيلي: قلن لي إنّي كبرتُ وصرتُ أصلب عوداً وأتمّ شباباً، وعبّرن عن الفرحة الصادقة لعودتي. أمّا محبوبتي بتينيا، التي أفسحت المجال باحتشام وابتسام لصديقاتها كي يحتفين بي، فقد انتهزت توقفاً لتطلب منّي أن أنتظرها، فستنتهي من عملها في ظرف عشرين دقيقة.

صفّقت آن- ماري، وهي تؤدي دور الرئيسة صفقتين لينسحب الجميع إلى عمله. وبصفقتين أخريين دعت إليزارديتو، الخلاسي المساعد، وطلبت منه أن يأتي بزجاجة من أجود أنواع نبيذ (بوردو) الأحمر لديهم.

- أنا مسرورة لوجودك بيننا عزيزي - قالت لي آن- ماري بصوتها العميق الجميل-. لن أبالغ إذا قلتُ لك إنّنا افتقدناك، وإن بقي صديقك دومنغو وفيّاً ومواظباً... كان هو عزاء بتينيا في غيبتك.

أحسستُ بنبرة السخرية التي وضعتها مسؤولة الماخور في تعليقها. وتقبّلتُ بصلابة غريبة فكرة أنّ علاقتي مع بتينيا تتجاوز مهنتها، وأنّ ما

تفعله ضمن تلك المهنة لا يؤثر فيّ، لكنّ قولها بأنّ دومنغو كان يتردد عليها ترك في فمي طعماً مرّاً لم يفلح في إزالته إلّا النبيذ الرائع الذي دعتنا المدام لشربه.

في ليلة عودتي تلك إلى هافانا تفجرتْ فيّ كلّ الشهوة التي جاهدتُ في إطفائها منفرداً طوال عامين. جاء إليزارديتو في طلبي حين صارت بتينيا مستعدة لاستقبالي، بعد أن تحممتْ وتعطّرت واستلقت على السرير عارية. شمعتان كبيرتان عطريتان تلقيان لوناً قرمزيّاً على جسدها الذهبي الذي تتلألأ في مركزه غابة أنوثتها السوداء، المنفتحة قليلاً نحوي، مثل جرح كبير.

تقدمتُ محتدماً وواثقاً نحو السرير، وقد وضع بالقرب منه مجسّم للمعبودة (يمانجا)، ملفوفاً بدثار أزرق مشوب بالوردي، وأظنّ أنّني رأيتُ في وجهها الصغير علامة الرضا. حين هممتُ بالاستلقاء على السرير أوقفتني بتينيا. وضعت يدها على صدري، بقوة من يمتلك سلطة. حينها تقدمتْ على السرير حتى بلغتْ حافته وقد فتحت ساقيها لتلفهما على ساقيّ. داعبت حلمتيَّ بيديها بينما وضعت شفتيها على بطني لتُشعرني بحرارة جوفيّة، راحت تشتدّ مع هبوط لسانها ومداعباته وهروبه وانزلاقه إلى أن صار فمها مغارة مناسبة لالتهام رجولتي... الآن أظنّ أنّني لم أمت في تلك الليلة، قتيل اللذة والمتعة، إلّا لأنّ القدر كان يتهيأ لأن يدفّعني أحزاناً لا تحصى ومعاناة لا تنتهي ثمناً لجرأتي على الظنّ بأنّني أصبحت أسعد إنسان على وجه الأرض.

في أيام قليلة تعلّمتُ أن أنعم بالحرية الجديدة التي صارت كوبا تنعم بها وبالاستقلال المريح الذي صرتُ أصرّف به شؤوني: حالة لم يسبق لي أن عشتها، وامتيازات من الإرادة المستقلّة والقرار السيادي لم أتوفر عليها من قبل. مع ذلك، فسرعان ما أدركتُ أنّ مع الحرية تأتي الفوضى صنواً لها، وما كان أعمّ الفوضى في الجزيرة آنذاك. ففي الصحف الكثيرة التي ظهرت من جرّاء حرية المطبوعات، صار كلّ شيء تقريباً قابلاً

للنشر، لكنّ ما شاع من النشر كان التهجّم السافر على كلّ ما يعدّ مناوئاً لمصالح المجموعة التي تموّل المنشورات الكيدية التشهيرية. صارت الشتائم الأشد تطلق بالأبيض والأسود، بلا مواربة، في حرب تستعر بين عشرات المجاميع العاملة.

ومع وصول الحرية إلى حياتي وصلت السياسة، وهي في العادة سرطانُ الشعر: دخلت في كياني بطريقة فيها من اللطف والانسجام ما جعلني أفكّر أنّ دمي كان مستعدّاً لتلقيها والقبول بها مكوناً من مكوناتي الحياتيّة. وانجرفتُ مع السياسة ريشة في مهبّ الريح، وسلّمتها طائعاً قيادي، من دون أن أدرك أنّني هكذا أضعُ أولى خطواتي على طريق سيتجاوزني ويورثني هزائم وأحزاناً.

بينما كنتُ أعدّ بحث تخرجي للحصول على الليسانس في الحقوق من جامعة هافانا، وكانت آنذاك ما تزال تقليديّة، كانت بقيّة مشاغلي تتوزّع بين إمضاء وقت العصر مع أصدقائي، الذين كنتُ أحياناً أرافقهم إلى المعهد لأستمع إلى مواعظ الأب باريلا الحماسيّة، وإنفاق الليالي، دائماً تقريباً، في مطبخ بيت مدام آن- ماري، حيث كُنّ، بأمر من صديقتي الفرنسيّة، يقدمن لي الطعام والشراب والشموع، لكي أتفرّغ لكتابة قصائدي، بانتظار انصراف آخر الزبائن، ليصبح الطريق أمامي، نحو غرفة بتينيا، سالكاً.

كان موضوع الحديث المفضل لدى مجموعتنا هو الانتخابات البرلمانية القريبة، فالمهاجرون الأوروبيون يعلّقون آمالهم على فوز مثلثهم الذي يترأسه الأب باريلا، بعد أن تلقّى الضوء الأخضر من معلمه أسقف هافانا. أمّا المتطلعان الآخران فكانا الثري الهافاني ليوناردو سانتوس سواريث والتاجر الكتلاني المقيم منذ سنوات طويلة في (ماتانثاس) توماس خينير[42]، وكان رجلًا ذا علاقات تجارية واسعة تدخل ضمنها، حسب ألسنة السوء، صفقات تتصل باستيراد العبيد...

42- Tomás Géner (1787-1835). أحد أعيان (ماتانثاس). ساهم في التطور الاجتماعي والثقافي في المدينة. من بين أعماله إنشاء مكتبة عامة.

سرعان ما كشفت الآمال العريضة المعلّقة على ذلك الحدث سذاجتنا السياسيّة. كان يؤمّل أن تضمن الأصوات الكوبيّة في البرلمان إصدار القوانين المناسبة وألّا تشكّل التبعيّة السياسية للجزيرة عائقاً أمام تطورها وأمام حياة أبنائها المولودين على أرضها. لذلك احتفلنا، كما فعل الكثيرون من المهاجرين، بفوز (باريلا) و(سانتوس سواريث) و(خينير)، أمام النظرة المتجهمة للسلطات الكولونياليّة، التي كان تنظر بريبة إلى ولادة بذرة قوميّة لا تدرك مديات عواقبها المستقبليّة.

بات الخوري الطيب باريلا ميّالاً للقتال، وهو الذي أبدى نزعة دستوريّة وكشف عن فكر ليبرالي عنيد. صار يهاجم الحكومة الملكيّة والدولة المركزيّة وكافة صور الطغيان هجوماً يزداد وضوحاً ومباشرة، بينما راح يشرح الدستور الإسباني ويفسّره بتعليقات محمّلة بكلمات وتعبيرات لم تألفها مسامع الكوبيين كالاستقلال والديموقراطية والسيادة.

ذهبتُ عدة مرّات إلى المعهد، واختلستُ شيئاً من وقته بحجة عرض قصائدي الجديدة عليه ليقرأها، وقد استقبلني بترحاب في صومعته. رافقني في بعض المناسبات دومنغو وسلفستري، واتخذت الأحاديث الشعريّة دائماً منحى آخر لتصبّ في الحياة السياسية الراهنة. وبانتظار السفر الوشيك للأب إلى مدريد، التقيناه للمرة الأخيرة، وحضر ذلك اللقاء أيضاً (ثينترا) و(سانفيليو) و(تانكو) وشاب من مدينة (بايامو)، سمعتُ عنه كثيراً لكنّي لم أتعامل معه، وكان اسمه خوسيه أنطونيو ساكو، وكان أصدقاؤه يدعونه «ساكيته»، وعلى الرغم من حداثة سنّه فسرعان ما حلّ محلّ باريلا في كرسي الفلسفة.

أذكر أنّنا لم نتكلّم في ذلك اليوم عن الشعر، بل اتجهنا إلى لبّ القضيّة، بل إلى لبّ لبّها، فقد سأل دومنغو الأب باريلا عمّا يأمل الحصول عليه لكوبا من البرلمان الإسباني، فأسمعنا جواباً خطيراً.

- لا شيء - قال ونزع نظارته التي أضفت عليه مظهر شاب شاخ-.

ليس في مقدور هذا البلد أن يأمل من برلمان إسبانيا ولا من حكومتها غير أن يظلّ خاضعاً منقاداً لقوانينها الغريبة.

- ولماذا قبلتَ أن تكون نائباً؟- سألتُه، بعد أن وجدتُ تناقضاً بين ردّه وقراره.

- لأنّ أفضل ما يمكن فعله الآن هو إثبات أنّ برلمان إسبانيا لن يفعل شيئاً في صالح كوبا. حين يطغى الظلمُ على الحياة فمن المهم معرفة ما يمكن فعله وقوله في كلّ لحظة، ومن المهم أيضاً معرفة ما لا يمكن فعله ولا قوله. عدم الحصول على شيء من الحكومة أمرٌ صحي، فهكذا سيتبيّن للكوبيين أنّ الطريق الوحيد الممكن هو الاستقلال، وهو ما يحدث في أنحاء أمريكا.

بعد سماعنا تلك الأفكار، التي نطق بها الأب باريلا بلا تحفّظ، صار كلّ منّا ينظر إلى الآخر. ومع أنّ موضوع التحرر كان يطفو على حواراتنا من حين لآخر فقد كنّا دائماً نلفظ كلمة «الاستقلال» بصوت خفيض، وكان سماعها بنبرة عالية على لسان شخص من مثل باريلا يضفي عليها قيمة تضاعفت حين نظر الخوري، والنظارات من جديد على أنفه، إلى كلّ واحد منّا وأطلق سؤاله.

- أليس هذا هو ما ترونه حضراتكم؟

وكان سلفستري الطيب، الساذج أحياناً والبسيط، هو من وضعنا في مواجهة واقعنا، بسؤال مهموس تقريباً، أطلقه وكأنه جاثٍ على ركبتيه أمام طاقة كرسي الاعتراف.

- أبتاه. وهل استقلال كوبا ممكن؟

- نعم، ولكن ليس في الوقت الراهن... فضيلة هذا البلد ومأساته تكمنان في أنّه يقع وسط العالم، وسيظلّ في وسط العالم لوقت طويل: من يريد أن يحكم كوبا اليوم هي إسبانيا وإنكلترا والمكسيك. وغداً ستكون فرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو سواهما. ثمّ هناك

الحجج والذرائع: هاييتي اليوم هي مثال ما قد يحدث في حال نشوب حرب من أجل الاستقلال، أمّا الكارثة الأخرى فهي حين يقع ما يعطي الذريعة لعدم التغيير، وبين التهديدات والذرائع سيعملون دائماً على أن يبدو من المفضل ترك الأشياء على حالها. لا يهم أن يوجد آلاف الرجال المستعبدون، أو أن يموت آخرون من الجوع، أو أن تبيع النساء أجسادهنّ: كلّ شيء مقبول حين يتصل الأمر بالحفاظ على السلطة، وحين تنتهي أسطوانة النظام الدستوري - قال وتذكّر أنّه سمع العبارة على شفاه أخرى- سترون إن كنتُ محقّاً أم لا.

- وماذا في الإمكان عمله؟ - سألتُ وأنا واثق من أنّني لن أجد في العالم خبيراً أفضل منه بمستقبل كوبا.

- لا شيء. أو، الكثير، حين يمتلك الواحد الشجاعة الكافية لكي يضحي بحياته في سبيل الوطن، من دون أن ينتظر جائزة ولا أن يفكر بالطبع في النصر.

- حضرتك اليوم متشائم، أبتاه- قال ساكو، الذي كان يتابع الحديث بصمت، وهو موقف اكتشفتُ في ما بعد أنّه ليس من طبعه، وهو المجادل اللاذع.

- لنقل واقعي، ساكو.

ذهبنا بجمعنا، وكأننا في موكب، إلى ميناء هافانا، صبيحة ذلك اليوم التاريخي الثامن والعشرين من نيسان من عام 1821، لوداع الخوري ورفاقه النوّاب في البرلمان. احتشد شباب هافانا في أطراف (ألاميدا دي باولا) ليشاهدوهم وهم يصعدون إلى السفينة التي حملتهم إلى شبه الجزيرة[43] في مهمة تمثيل مصالح أبناء كوبا. تابعت عيناي في وسط الحشد خطوات الراهب النحيف الذي جعلني في الأسابيع الأخيرة كثير التفكير. التفت باريلا، وقد صار على ظهر السفينة، ووضع يده اليسرى

43- شبه الجزيرة هنا هي شبه الجزيرة الأيبيرية التي تضمّ إسبانيا والبرتغال.

على قلبه، ثمّ رسم باليد اليمنى إشارة الصليب وباركنا: أحسستُ فجأة بأنّني أشهد فصلاً أخيراً. ما زلتُ لا أعرف لماذا، لكنّ شيئاً ما كان يقول لي، ويلحّ في القول، بأنّ ذلك الرجل الطيب، العاشق لأرضه، يودعنا لينفذ حكماً قاسياً صدر في حقه بعدم الرجوع إلى الأرض التي ولد فيها.

***

لمعت عينا فرناندو تيري وآلبارو ألماثان وأركاديو فيريت استغراباً وهي تتأمّل سلفادور أكينو وهو يلتهم الصحن الثالث من الرز المتناثر مع الدجاج المزيّن بالفلفل الأحمر. مع الصحن الأول تناول صدراً، ومع الثاني، فخذاً مع ملحقاته، أمّا مع صحن الرز الثالث فقد ركّز اهتمامه على أجنحة الدجاجتين المذبوحتين إرضاءً لشراهة العجوز، الذي كان يأكل بملعقة عظيمة غامقة، كأنها من البرونز، ويشفع صحنه الرئيس بسلطة الأفوكاتو وجرار من عصير الليمون المحلى بالكثير من السكر. واكتفى حفيده وزواره الثلاثة بصحن واحد مُلئ لهم حتى حافاته، فكان كفيلاً بإسكات جوع أيّ كائن طبيعي.

- من المؤسف ألّا يكون الكاستر حاضراً- قال وهو يمسح بالفوطة يديه، بعد أن مصمص الجناح الرابع ورمى بالعظمة إلى الكلب «سلطان»، المفترس، كالعجوز-. فالحليب صار عزيزاً..

بدؤوا بشرب القهوة التي أتتهم بها لوكريثيا في فناجين من الخزف خاصة بالزوّار. انتبه فرناندو إلى أنّ الساعة اقتربت من التاسعة وأنّ أمامهم أن يعودوا قافلين إلى هافانا. لاحظ تثاؤب أركاديو مرتين وحاول أن يقود الحديث إلى خاتمته.

- حسناً، أكينو. فمن يمكن أن يكون قد أخرج تلك الأوراق من المحفل؟

تأخر العجوز في الجواب وهو يشعل سيجاره السادس والأخير في ذلك اليوم. وبدا سارحاً، وهو يتأمّل أسفل السيجار المتوهج.

- منذ سبعين سنة وأنا أفكر في ذلك، وهو لعمري وقت طويل للتفكير في شيء من الأشياء، أليس كذلك؟ الاحتمال الأول هو أنّ ابن هيريديا لم يسلِّم تلك الأوراق، لذلك لم تظهر في المحفل...

- لكنّه ذهب لتسليمها...- تدخل آلبارو، وقد استبدّ به اليأس من خفايا تلك القصّة.

- هو ذهب لتسليمها، لكنّ أحداً لم يتأكد، حسب علمي، من أنّه سلمها حقيقة. ومن يدري فربّما أراد أن يظنّ الجميع أنّ الأوراق موجودة في المحفل بينما كانت واقعاً في مكان آخر...

نظر أركاديو إلى آلبارو وفرناندو.

- ممكن، لكنّي لا أرى ذلك منطقيّاً، أليس كذلك؟

- فعلاً - قال العجوز-. أمّا الاحتمال الآخر فهو أنّ الأوراق موجودة في المحفل وأنّ أحداً ما أخرجها من هناك قبل حدوث المشاكل مع الحكومة. هذا «الأحد» لا بدّ أن يكون «الموقر» أو «الحارس الأول»، لأنّ تلك الأوراق كانت مودعة في كوّة في «غرفة الخبراء»، ولا يملك مفتاح هذا المكان غير هذين المسؤولين.

- هو ثرنودا إذن- استنتج فرناندو، المتلهّف للإمساك بطرف الخيط المفقود.

- ممكن - مصّ أكينو مصتين من سيكاره-، لكن كان هناك «موقرون» آخرون في تلك السنوات. كان من المألوف في ذلك الوقت إعادة انتخاب الموقرين، ليس كما يحدث الآن، فالجميع يتململون والجميع يريدون أن يجلسوا على المنصة والضرب بالمطرقة بعد سنتين من الدخول إلى المحفل... لنرَ: ثرنودا كان هو «الموقر» عام 21. في عام 22 و 23 أصبح راميرو خونكو هو «الموقر»، بعد أن كان «الحارس الأول» مع ثرنودا. في عام 24 حتى 26 عاد ثرنودا وفي عام 27 و 28 و 29 كان والدي. ولئن كنتُ متأكداً من شيء فأنا متأكد من أنّ والدي لم يأخذ

تلك الأوراق، بل لم يقرأها، وإن كان حدثني عن أنّ الظرف الأصفر، المربوط بشريط بنفسجي، ظلّ لوقت طويل في كوّة «غرفة الخبراء».

أكّد العجوز كلامه بهزّ رأسه وهو يمص سيكاره بشراهة.

- هناك شيء لا أفهمه- قال أركاديو، وقد عاوده الاهتمام، وهو يحرّك يديه فكأنّه يطلب أن يفسح له في الحديث-. لا أعرف أين سينتهي بنا هذا. ما أتمنى أن أعرفه هو لماذا تحدثنا حضرتك عن شيء جرى في المحفل بينما يفترض أنّه سرّ، لا أفهم أيضاً لماذا لم تقصصه على أحد من قبل...

- كل شيء يتوقف على الزاوية التي ينظر منها إلى الأشياء - قال العجوز-؟ أولاً لأنّ ما أقصّه ليس سرّاً ماسونيّاً، ولو كان سرّاً ماسونيّاً لما بحتُ به ولو عُذبت، هل هذا واضح؟ أنا أتكلّم عن أمور حدثت في المحفل، وكان يمكن لها أن تحدث في كنيسة من دون أن يكشف الخوري بسبب ذلك عن سرّ الاعتراف. لكن تذكّر أنّ تلك الأوراق كان يفترض أن تنشر من ستين عاماً ويطلع عليها الجميع... وليس صحيحاً ما تقول من أنّني لم أقصص ذلك على أحد من قبل - وبدأ يعدّ بأصابعه، الغليظة مثل أغصان شجرة عتيقة-. لنرَ، لقد تحدثتُ مع مؤرخ (ماتانثاس)، لأنّه يبحث أيضاً عن تلك الأوراق؛ وتكلمتُ بذلك مع شاب آخر كان يبحث عن معلومات حول سيرة دومنغو دل مونته؛ تكلمتُ حول ذلك أيضاً مع حفيدي روبرتو، ولدينا نظرية حول الموضوع - التفت العجوز إلى حفيده-. هيّا، روبرتو، أيّ من الاثنين يمكن أن يكون؟ خونكو أم ثرنودا؟

ابتسم الشاب وبدا محرجاً من الموقف الذي وضعه جده فيه.

- دعك عن هذا، جدي. أنتَ تعلم أنّني لا أعرف شيئاً.

- هيّا، روبيرثيتو...

- حسناً، جدي- وافق والتفتَ إلى الزائرين وقد بدا عليه الضيق-.

لقد قلتُ له، ونحن نتحدث عن الموضوع، إنّ أيّاً من الاثنين يمكن أن يكون أخذ الأوراق، إذا كانت تلك الأوراق هي ما أفكّر فيه.

- تمهّل، تمهّل، فقد تهتُ ثانية- قال آلبارو-. هذا وأنا الذي لم أشرب اليوم ولا قطرة واحدة.

- تذكروا أنّ كلّ ما أقول هو محض افتراض...

أحسّ فرناندو فجأة بتيّار يسري في بدنه. لا، قال لنفسه: لا يمكن أن يقع ما خطر على باله، لكنّ اختلاط الأمور الغريبة بالواقع في تلك القصّة صار يزداد شيئاً فشيئاً، ولذلك سأل:

- راميرو خونكو... هل هو من عائلة خونكو في (ماتانثاس)؟ هل هي عائلة لولا خونكو، الفتاة التي وقع هيريديا في عشقها؟

نظر روبرتو نحو العجوز أكينو، الذي كان قد بدأ يهزّ كرسيّه، وقد ضاعت نظرته في الزمان.

- هذا هو ما أظنّه.

- فهل كانت إذن من العائلة؟ - كانت العجلة تحرق فرناندو.

- نعم، وهنا تكمن المشكلة- اعترف روبرتو-. المنطق الذي أجده في هذه القصّة هو أنّ هيريديا حين كتب قبل وفاته طالباً ألّا تنشر إلَّا بعد انقضاء مئة سنة على وفاته فلأنّ فيها إشارات إلى ناس ما زالوا أحياء، وهو لم يرد أن يُلحق الضررَ بأحد منهم. هل أنتم معي؟ - التفت إلى آلبارو، الذي هزّ رأسه موافقاً بصمت-. هيريديا كان مفتوناً بالتاريخ، وفي شعره تطلّ الذاكرة والعاقبة بين حين وآخر...

- قصيدة «في هرم قرابين تشولولا»، قصيدة «إلى نياغارا»، و«إلى هرم مصر العظيم»- ذكر فرناندو أمثلة خطرت بسرعة على ذهنه وأنشد-: «كلّ شيء يموت / وفق ناموس الكون./ حتى هذا العالم/ الجميل البرّاق الذي نسكنه/ هو الجثّة الشاحبة المشوّهة/ لعالم آخر مضى...». بل أظنّ أنّه كان يهمه كثيراً...

- لذلك أظنّ أنّ تلك المخطوطة لم تكن رواية كما قيل ذات مرّة، بل مذكرات أو شيء من هذا القبيل. لكنّ المهم الآن هو أنّ حديثاً شاع في (ماتانثاس) عن أنّ لولا ولدت طفلاً قبل أن تتزوج فيليب غوميث على الرغم من كلّ ما فعلته الأسرة للتعتيم على ما حدث...

- عن هيريديا يقال الكثير- احتجّ آلبارو-. يقال أيضاً إنّه كان يعاشر الخلاسيّة لويسا مونتِس، وإن زوجها حين علم بالأمر قتلها طعناً بالخنجر...

- سمعتُ بهذه القصّة، وإن كان هذا أمراً مختلفاً، خصوصاً وأنّ أحداً لم يتكلم عن الموضوع... لكنّ الطفل الذي يفترض أنّه ابن لولا ولد في كانون الثاني من عام 1824، بعد ثلاثة أشهر من رحيل هيريديا عن كوبا. وهذا معناه أنّ الحمل وقع في نيسان من عام 23...

- نيسان؟ - سأل فرناندو، وكان في الواقع يتكلّم مع نفسه-. في ذلك الوقت هو كان في (ماتانثاس)...

- في حزيران أخرجت الأسرة لولا من المدينة وحملوها لتسكن في مزرعة (ميرا فلورِس)، التي كانت في هذه الأنحاء، بالقرب من (كولون)، ولم يعاود هيريديا رؤيتها قط. في سجل التعميد ورد أنّ الطفل هو ابن روبين، أخ لولا الأكبر، ومنحوه اسم استيبان خونكو. استيبان هذا كان والد راميرو. فإن صحّت الرواية فإنّ استيبان هو ابن لولا خونكو، وراميرو هو حفيدها...

- وأنتَ تظنّ أنّ راميرو كان أيضاً حفيد هيريديا- أكمل فرناندو الفكرة، حين أحسّ بالسيجارة تكوي أصابعه.

- إذا كانت المخطوطة مذكرات- واصل روبرتو- وقرأها راميرو، فمن المحتمل أنّه عثر على هذه القصّة، هذا إذا حدثت كما نخمّن. ولذلك فإنّ كلّ ما حاولت العائلة إخفاءه طوال قرن سيصبح علناً حين تبصر الأوراق النور.

- لا بدّ أن يكون الأمر هكذا، لا بدّ أن يكون الأمر هكذا- أصرّ أركاديو.

- لا تزعجنا، أركاديو، هذا يبدو من المسلسلات المكسيكيّة - قال آلبارو.

واصل روبرتو أكينو استطراداته وكأنّه لم يسمعهم.

- ما هو مهم هو أنّ راميرو خونكو، وقد صار عجوزاً ومريضاً، أصرّ على أنّ يصبح «موقر» المحفل. وليس لهذا في نظري غير تفسير واحد هو أنّه كان يريد الحصول على تلك الأوراق.

استمع فرناندو تيرّي إلى التأكيد وعيناه مركزتان في عيني روبرتو أكينو الزرقاوين، ورأى بريقاً شارداً في قاع تلك النظرة.

- عذراً، روبرتو، من لا يفهم الآن هو أنا... مع كلّ هذه المعلومات التي تمتلكها، ألم تفكّر يوماً بالبحث عن أوراق هيريديا؟

ابتسم روبرتو أكينو. تأخر في الردّ، وكأنّه يعالج في البحث عن الكلمات المناسبة.

- لقد أمضيت سنوات في ذلك، خصوصاً عندما كنتُ أعمل مدرساً في (ماتانثاس). لكنّي تركتُ الموضوع حين اقتنعتُ بأنّ مذكرات هيريديا تلك، إن وجدت ذات مرّة، فإنّها لم تكن في المحفل قط. لقد صار لدى خوسيه دي خيسوس، الذي كان يموت جوعاً، فجأة مال قبيل وفاته. وما كان لديه من رأسمال غير مخطوطات والده التي راح يبيعها في كلّ مكان. أليس هذا صحيحاً، جدّي؟

وجّه الجميع نظراتهم إلى العجوز، الذي نسوه وهم يستمعون إلى العرض المشوّش الذي غيّر جميع الأفكار السائدة حتى تلك اللحظة. لكن لم يصلهم من كرسي العجوز إلّا تنفس ساكن لرجل نام بهدوء، والسيجار بين أصابعه حتى نصفه، نومة من صالح الحقيقة والحياة وبات في سلام معهما.

***

كان ضرباً من الخيال أن أجدَ، وسط الهزّات السياسية والانفلات الجنسي الذي عشته منذ عودتي إلى هافانا، الوقت الكافي والصفاء الذهني اللازم لكتابة أطروحتي الجامعية، التي عنونتها: «العبيد ليسوا من المواريث»[44]، وكان إشبيني يوم تقديمها هو دومنغو. ليس ضرورياً أن أتحدث عن الوجوه العابسة التي قابلني بها أساتذتي من الرهبان الدومنيكان: كان ذلك الموضوع القديم المأخوذ من القانون الروماني ذا وقع تخريبي هدّام في بلد تذكّر فيه العبودية بعصور ما قبل الميلاد. كان هدفي رومانسياً أكثر منه براغماتيّاً، إذ حاولتُ من خلاله الكشف عن أبغض أوجه الاسترقاق من زاوية حقوق أفراد يبعدون عنوة عن أوطانهم وعوائلهم، ويضربون ويعاملون كالحيوانات، وتنزع عنهم امتيازاتهم المدنية والإنسانيّة التي تقوم عليها أسس الديموقراطية الحديثة.

أمّا مشروعي الأقرب إلى نفسي في تلك الأوقات، والذي كنتُ أكرّس له جلّ وقتي، فكان إصدار مجلة أتخذ من صفحاتها منطلقاً لتجديد أدب الجزيرة، البعيد كلّ البعد عمّا يفترض أن يكون عليه في تلك الأجواء السياسية والاقتصادية المفعمة بالحركة. كان دومنغو وسانفيليو منذ البداية أشدّ المتحمسين والداعمين للفكرة، لكنّ الصعوبة كانت في الاتفاق على نوعية النشر المطلوب. فدومنغو، الذي كان يصرّ على أنّ الصحافة يجب أن تكون سوطاً اجتماعيّاً، كان يريد منشورات ناريّة، سواء في الأدب أم في السياسة، وكان يريد أن يفرد لهذين الموضوعين حيزاً كبيراً من المجلة. أمّا سانفيليو فكان يميل إلى أن يكون النشر أكثر تأملاً وتفكّراً، فلسفيّاً تقريباً، كما هي شخصيته. بين ذينك الطرفين كان أخلص حلفائي هو سلفستري، الذي أفلحتُ في كسبه إلى فكرتي في جمع التأمّل مع الخفّة، والمجادلة مع الفطنة، من دون التفريط بجودة النصوص الشعريّة. هكذا، فكرتُ، نستطيع أن نصل إلى جمهور أعرض، يُقبل على مواضيع ليست بالغة العمق، فيألف المجلة ويتفاعل معها ويدعمها.

44- هو باللاتينية Servis heredis legari, non potet

شاء الحظ أن يصل إلى هافانا في شهر نيسان صديقي بلاس دي أوسيس، الذي سفّره والده إلى خارج المكسيك خوفاً على حياته، إذ كان يجاهر بتأييد الاستقلاليين المكسيكيين والتضامن معهم. عليّ أن أعترف بأنّ ثروة أوسيس وطيبته تتناسبان عكسيّاً مع شاعريته، فقد كان واسع الثراء وواحداً من أكرم من عرفتُ من الأشخاص. كان مؤمناً بكلّ مشاريعي، فلم يكن صعباً عليّ أن أقنعه بالمساهمة بماله والدخول معي ناشراً للمجلة: ليلتان ممتعتان كانتا كافيتين للظفر بموافقته. أمّا أين أمضينا تلكما الليلتين فقد كان في بيت مدام آن- ماري - شريكتي السريّة في المكيدة، إذ وضعت تحت تصرفي النبيذ والنساء- ولذلك، قررنا أنا وأوسيس وسلفستري أن نسمي المجلة العتيدة «مكتبة السيدات» في إشارة تكريمية لمدام آن- ماري وفتياتها اللطيفات.

بذلنا نشاطاً محموماً في إصدار العدد الأول، وجعلتني قلة خبرتي مغالياً في طموحي، لكنّ الدعم الصادق الذي تلقيته من أبناء بلدي خفّف عنّي كثيراً من الأعباء فانصرفتُ بحماس إلى الترجمة لمؤلفين أجانب يمكن لأشعارهم أن تكون مناراً يهتدي به ذوق الكوبيين، الذين يجهلون الكثير عمّا كان يكتب في العالم. وفي موازاة عملي في المجلة، اشتغلتُ لبضع ساعات في اليوم في مكتب توثيق للعقود، وهي ساعات يشترط عليّ إنجازها لإتمام سنتين من العمل مساعداً لموثق حتّى أكون مؤهلاً للعمل محامياً. وما كان لي أن أكتفي بكلّ هذا، بل رحتُ أضاعف رؤوسي، كما يفعل قنديل البحر، وواصلتُ ترددي على بتينيا، واستأنفتُ مغامراتي الشعريّة مع ملهمتي إيزابيل، التي انفرط عقد خطبتها لأسباب ماديّة. وما عادت عروقي مجرى لدم يسيل، بل لحرائق تستعر...

في الحادي والعشرين من أيار من عام 1821 صدر عن مطبعة دياث دي كاسترو الهافانيّة العدد الأول من مجلة «مكتبة السيدات». وإنّي لأقسم بأنّ الثقّة في أنّ مجلتنا ولّدت شعاعاً من نور وسط ظلمة

المشهد السائد آنذاك ليس مردّها زهوي المعهود وغروري المتصل بالمسائل الأدبية. لقد راح خبر ظهور المجلة ينتقل من فم إلى فم، وهبّ المهتمون بالأدب إلى مراكز البيع، خصوصاً إلى صيدلية والد سانفيليو، في وسط المدينة، لاقتناء المجلة وتهنئتنا بصدورها. بينما تكفّل تانكو وخالي إغناثيو في (ماتانثاس) بالترويج للمجلة، وفرحتُ حين علمتُ بأنّ العديد من مرتادي بيت مدام آن- ماري قد ذهبوا، بدفع وتشجيع منها، للبحث عن المجلة، وإن كنتُ أشكّ في قصدهم من شرائها... لم أخطئ إلّا في أنّني ظننتُ أنّ خارج حلقة القرّاء الجدد والمجبرين، هناك قرّاءً لمجلة مصرّة على تخصيص حيّز لشعراء موهوبين، لكنّهم مجهولون. ولمّا لم يكن تمويل أوسيس الطيب مطلقاً بلا حدود، فقد اضطررنا إلى نعي «مكتبة السيدات» مع صدور العدد الخامس منها.

كان مؤلماً وقع ذلك الفشل على نفسي، ومؤلماً كان تقبّله واستيعابه: لقد شعرتُ، وأنا المقدّر لي، كما كنتُ أظنّ، أن أفوز في كلّ مجال، بالنفور من مجتمع لا يفسح طريقاً للشعر، وقررتُ أن أضرب صفحاً عن تلك المحاولات وأن أخصص وقتاً أكبر لعملي المؤجل، الذي هو، في نهاية المطاف، همّي الأساس في الحياة. ولبلوغ ذلك الهدف قرّرتُ أن أرحل وأبتعد، وبعد أن ودّعتُ أصدقائي وعشيقاتي الحقيقيات والموهومات، صعدتُ، ببدلتي المتعرقة وصندوق كتبي، إلى العربة التي حملتني إلى (ماتانثاس)، حيث سأسير نهائيّاً على حبل قدري الواهن.

إن كنتُ وجدتُ أنّ هافانا قد تغيّرت في ظرف عامين من غيابي عنها، فقد أدهشتني (ماتانثاس) بالتقدم المبهج الذي شهدته. أدهشتني البيوت المنيفة والساحات المزدحمة والأسواق المكتظة بكلّ ما يحلم به الخيال الجامح، بينما تنازعت الخليجَ مراكب تنتمي إلى مئة بلد، محمّلة بصناديق السكّر وأكياس البنّ وألواح الخشب الثمين. لا شكّ أنّ الازدهار مسّ «فينيسيا كوبا» بعصاه السحرية، وإن لم يكن سرّاً خافياً

على أحد أنّ الأصل في تلك الثروات يعود إلى تجارة «أكياس الفحم» وعملهم[45].

بفضل كرم الخال إغناثيو والكثير الذي يمكن للتسع مئة بيزو التي كانت أمّي تتسلمها أن تفعله في مدينة مثل (ماتانثاس)، فقد أقامت العائلة في بيت واسع جيد التهوية واقع في شارع (أوريلي)، على الرصيف الأيمن، بالقرب تقريباً من نهر (سان خوان). خصصوا لي في نهاية البيت غرفة لها باب ونوافذ مفتوحة على الفناء الوسطي. لقد بدت لي تلك الغرفة قصراً بالقياس إلى غرفة النُّزُل في هافانا، وقد توفرتْ لي فيها العزلة التي كنتُ أحتاجها للكتابة، بعيداً عن صوت البيانو الذي كانت تعزف عليه شقيقتي العزيزة إغناثيا في الصالة ولساعات طويلة.

ومع أنّ أمّي حاولت، كعادتها، أن تفرض عليّ جدولاً ونظاماً شبه عسكري، فسرعان ما أدركتْ أنّها لن تكسب المعركة. فبين الساعات التي عليّ أن أمضيها في مكتب إغناثيو لمواصلة تدريبي، والنشاطات الاجتماعيّة الكثيرة التي انغمستُ فيها منذ وصولي إلى (ماتانثاس)، لم أكن أمكث في البيت، وإن مكثتُ فلكي أعتكف في غرفتي المغلقة، وأنهمك في كتابة الشعر.

أعترف بأنّي، بعد وصولي، أصبتُ بالإحباط، حين علمتُ بأنّ شخصاً يدعى فيليبّو غوميث، وهو ابن صاحب مزارع ثري، أوقع لولا خونكو الجميلة في شباكه. كنتُ قد علّقتُ، من دون سند قوي ولا أساس متين، آمالاً على لقاء تلك الحوريّة، وها أنا ذا أشعر بجرح في كبرياء رجولتي، فكيف ليتيم مثلي، فقير معدم أن يتطلع إلى أن يكون مقبولاً في كنف عائلة خونكو الثريّة.

أمّا ما كان أشدّ إلحاحاً عليّ وعلى ذهني فهي فكرة أنّ مصير كوبا يجب أن يكون مصير كلّ أمريكا ذاته. لقد حملني خبر أنّ مدريد طعنتْ في شرعية انتخاب النواب الكوبيين في البرلمان، وأنّ على نوابنا أن

45- إشارة إلى السود العبيد.

ينتظروا سنة كاملة قبل ممارسة مهامهم، على التفكير في صحة ما ذهب إليه الأب باريلا حين لم يعلّق آمالاً على تلك الجهة السياسيّة. كانت المنظورات قاتمة، إذ كان معلوماً أنّ فرناندو السابع الماكر لم يوافق على الدستور إلَّا مكرهاً، وأنّه قد يضرب ضربته في أيّة لحظة ليعود بالبلاد إلى نظامها القديم. وماذا يمكن الانتظار للمستقبل؟ هل صحيح أنّ القبول بالنير الإسباني خير من المغامرة وخسارة كلّ شيء في ثورة يقوم بها العبيد؟ هل صحيح ما يشاع عن حملة يجهزها بوليفار تمكننا من الاستقلال والانضمام إلى كولومبيا الكبرى؟

كان سلفستري ألفونسو هو من أبلغني، في واحدة من تلك الرسائل المعتادة التي كنتُ أتبادلها مع أصدقائي الذين تركتهم في هافانا، بذلك الخبر السيّئ. سألته، وأنا المتطلع إلى الإحاطة بكلّ شيء، وقد ظننتُ أنّني قطعتُ كلّ سبب مع لولا، إن كان يعلم شيئاً عن ملهمتي إيزابيل، وكان الجواب الذي حصلتُ عليه قاطعاً: «خوسيه ماريّا»، كتبَ لي، «انسَ تلك السيدة، فقد فاتك قطارها. هل تعلم من أوقعها في شباكه وباحتمالات نجاح جيدة؟ إنّه صديقنا المشترك (الاثنين)[46]...». هل كان ألماً ما شعرتُ به؟ هل كان غضباً؟ أم كان إحباطاً فحسب؟ غيرة؟ لا لم تكن غيرة بالطبع، فأنا لا أحبّ، ولم أقع حقيقة في حبّ «بليسا» التي ألهمتني الكثير من قصائدي. لكنّي سألتُ نفسي: لماذا تقرّب دومنغو منها بالذات وعاف الكثيرات سواها؟ لا شكّ أنّ في تلك القصّة مخططاً خبيثاً، أمّا الرسالة التي أرسلها إليّ دومنغو فلم تمنحني إلَّا القليل القليل من الهدوء. شرح لي فيها أنّ والد إيزابيل، وهو صديق قديم لوالده، هو من رتّب لعلاقة لم تكن تخطر له على بال، وأنّه لم يوافق إلَّا بعد ما رأى من عزوفي عن الفتاة وتحقق من حقيقة مشاعري نحوها... أمّا ما لم يذكره لي، بالطبع، فهو أنّ والد إيزابيل كان غافلاً تماماً على مقاصده،

46- هو الاسم الذي كان الأصدقاء يطلقونه على دومنغو. ولما كان دومنغو يعني «يوم الأحد» فقد كانوا يسمونه تندراً «يوم الاثنين».

كما قال لي سلفستري، وأنّ الزواج بواحدة من عائلة (رويدا إي بونثه دي ليون)، كما كنتُ أعرف، لم يكن يكفي لانتشال دومنغو من الفقر، بل لانتشال دومنغو وجميع أيّام الأحد والاثنين في العام الواحد بل والقرن. وكتبتُ له ردّاً على هيئة قصيدة عنونتها: «إلى السيد دومنغو، من الحقل»، لمته فيها على خيانته، وفي الوقت نفسه سامحته، لأنّ المسامحة هي من صفات الأرواح الرفيعة السامية، كما أفترض أن تكون عليه روحي. وكانت تلك ربّما المرّة الأولى التي أسامح فيها دومنغو.

فضلاً عن تانكو المشاكس، فقد عقدتُ في (ماتانثاس) صداقات مع ثلاثة زملاء جدد، وحاولتُ أن أعوّض بهم عن جزءٍ من صداقاتي وعن المعاناة التي سببها لي دومنغو المتلوّن. كانوا ثلاثتهم أكبر سنّاً منّي، خصوصاً أنطونيو بتانكور، صهر الأخوين بابلو وخوان آرانغورين، ومن عشّاق الشعر، وأبناء عوائل عريقة تعمل في التجارة، وممّن لدغتهم أفعى السياسة، كما لدغتنا كلّنا تقريباً. كانوا هم من أفسح لي مكاناً في مجتمع (ماتانثاس)، فقد كان الخال إغناثيو، في تلك الأوقات، غارقاً في عمله ومتورطاً، في ما يبدو، في واحدة من مغامراته العاطفية الغامضة. مع هؤلاء الأصدقاء الجدد حضرتُ حفلات ومسامرات وجولات، وبفضلهم تعرّفتُ على الدكتور خوان خوسيه إيرنانديث، السياسي الراديكالي الخطير، الذي كانت تخشاه السلطات الإسبانية والكوبية على حدّ سواء، حتى إنّهما تعاونتا لقطع الطريق عليه والحيلولة دون حصوله على مقعد مؤكد في البرلمان أثناء الانتخابات التي دعموا فيها خينير. كان الدكتور، كما عرفته، مجنوناً مهووساً معجباً بخطابات فلاسفة الثورة الفرنسيّة ومشاركاً لهم في أفكارهم. يكرس ساعات عدّة من يومه لعلاج الفقراء وتوزيع الأدوية على الأحياء والعناية بالكلاب السائبة وصبّ الشتائم على النخاسة والعبوديّة. كان في شخصيّة ذلك المهووس عرقٌ من شهيد مسيحي، لذلك بدأ يشدّني نحوه إعجاب شديد، فقد كان فيه شيء يقول لي إنّه قادر على تطبيق ما يقوله. لذلك أظنّ أنّه هو من حرّك

ساقي وجعلني أقدم على أولى الخطوتين اللتين كانتا تفصلاني عن أن أكون استقلاليّاً مؤمناً. أمّا الخطوة الثانية فقد أقدمتُ أنا عليها بنزق وطيش.

أنفقتُ ساعات طويلة مع الدكتور إيرنانديث وتانكو وبقيّة الأصدقاء للحديث عن الوضع في كوبا. وبدا أنطونيو بيتانكور مقتنعاً بالحاجة إلى البحث عن سبل لبلوغ الاستقلال، فقد كان يؤكد أنّ السود، بعد إلغاء الرّق، سيفقدون المبرر للثورة، وهو ما لم يكن الشقيقان آرانغورين واثقين منه - شأنهم شأن بقية الكوبيين الأغنياء، الذين لم تكن بين خططهم التخلّي عن الأموال التي استثمروها في مجموعة العبيد التي يمتلكونها. أمّا الدكتور فكان ينظر أكثر إلى المستقبل: إذا كان في كوبا الآن من البيض قدر ما فيها من السود، ففي السنوات القادمة سيكون عدد السود أكثر بكثير، لأنّ النخاسة غير القانونيّة والسُّكّر هما التجارتان الأكبر حجماً آنذاك. ثمّ إنّه يعتقد أنّ صعود الليبراليّة، جنباً إلى جنب مع ضعف القوة العسكرية الإسبانية، التي أنهكتها حروب أمريكا الجنوبيّة، يجعلان من اللحظة لحظة مناسبة. ولغرض إقناعنا، فقد كلّمنا عن اتصالات تجري مع بوليفار، الذي أرسل عملاء سريين إلى الجزيرة لتأكيد دعمه للكوبيين في حال قررنا خوض الحرب: إنّه يضمن تزويدنا بالقوات والسلاح لإلحاق الهزيمة بالإسبان ولنشر السلم في ربوع البلد، إن كان ذلك ضروريّاً.

في أمسية من أمسيات آب الحارة دعانا الدكتور إلى الطعام في بيته وفاجأنا بطبق رائع من الآخياكو[47]. قال لنا، ونحن نتناول القهوة، إنّه يريد أن يخبرنا، وقد بتنا داعمين موثوقين للتحرر والاستقلال، بأنّه ينتظر وصول مبعوث خاص من بوليفار، سيأتي له بمهمة الشروع في عملية الاستقلال، وحينها ذكر، بصوت منخفض، اسماً كان مجهولاً عندي في تلك اللحظة، لكنّني سأتذكره مراراً طوال حياتي: خوسيه فرانثيسكو ليموس[48].

47- Ajiaco طبيخ من الخضار واللحم والفلفل الأحمر.

48- José Francisco Lemus (1791-1845). لم نجد له ترجمة مستقلة. يذكر اسمه في معرض الحديث عن سيمون بوليفار وجهوده لتحرير كوبا.

كان من الشائع في هافانا أن ينظر إلى أيّ رجل واصل حديثاً من أمريكا الجنوبيّة على أنّه عميل من دعاة الاستقلال، أمّا ليموس، على حدّ قول الدكتور إيرنانديث، فلم يكن محرّضاً بسيطاً، بل كان يتولى منصب قائد جيوش بوليفار، وكان يتلقّى أوامره مباشرة من الجنرال الأعظم. أثناء وجوده في كوبا قبل ذلك الوقت بسنة، أسس محفلاً سريّاً، أسماه «شموس بوليفار»، أسستْ منه فروع في كافة أنحاء الجزيرة. كانت المؤامرة تسير وفق ما خطط لها، وقد أثارت أجواؤها الغامضة روحي، وكانت، آنذاك، ميّالة إلى الانضمام إلى حلقات المبتدئين وإلى المؤامرات. لذلك كنتُ أوّل الموافقين حين سألنا الدكتور إن كنّا مستعدين للدخول في المحفل الذي سيؤسسه في (ماتانثاس)، بينما تردد الشقيقان آرانغورين وتردد بيتانكور، أمّا تانكو فقال إن ذلك لا يبدو مقدراً له النجاح...

رغبتُ في الكلام مع دومنغو، عقب الخبر المفاجئ عن علاقته العاطفيّة، فرتّبت نفسي للسفر إلى هافانا. لكنّ مواردي الفقيرة التي تسمح لي بشيء من العيش المريح في (ماتانثاس) ما كانت لتغطّي إقامتي في مدينة ترتفع فيها أسعار السكن والطعام والنقل أسبوعيّاً، حتّى لو كانت إقامة قصيرة. أذكر أنّ بابلو وخوان آرانغورين دعواني، وقبل ثلاثة أيام من موعد سفري، إلى حفلة بمناسبة عيد ميلاد قريبة لهم أقيمت في أفخم صالة رقص في المدينة. وبفضل بابلو، الذي كانت له قامتي وجسمي، فقد ارتديتُ ما يناسب تلك السهرة التي ستحييها أوركسترا المايسترو (أولبيانو) الشهيرة، التي استقدمتْ خصيصاً من العاصمة لتلك المناسبة. وقع لي في ليلة الموسيقى والفرح تلك حادثان بالغا الدلالة. أمّا الحادث الأول فكان عند دخولي إلى القاعة التي اجتمعت فيها عليّة القوم في المدينة. رأيتُ رؤوساً كثيرة تلتفت وسمعتُ من يقول بصوت خفيض: «ذاك هو هيريديا الشاعر»، وبرق الإعجاب في الكثير من العيون. تضخّم غروري، وهو ضخم دائماً، في ذلك اليوم، وغُمرت أنايَ بإحساس

بالقدرة على أن أطول السماء ما إن أرفع يدي، وشجعني على القيام بما صار مع الوقت واحداً من أهمّ ما قمتُ به في حياتي: تقدمتُ صوب مجموعة من الآنسات اللواتي اكتشفتُ بينهن لولا خونكو. توقفتُ على مسافة معقولة منهنّ، ومن دون أن أتفوّه بكلمة، ركّزتُ عينيّ في عينيّ الفتاة لوقت اقترب من درجة الوقاحة، إلى أن خفضت هي، مهزومة، عينيها، بينما ارتسمت على شفتيها ابتسامة.

لم يمنعني من الإقدام على خطوة أخرى عنيفة وجريئة إلّا واحد من أكبر المحددات في حياتي: فأنا لم أتعلّم الرقص. أو بالأحرى، لم أرقص جيداً قط، وعلى من يشكو من هذه المصيبة أن يمتنع عن الرقص في بلد يرى في من يرقص وهو لا يجيد الرقص أكبر دليل على حماقته. لكنّي كنتُ أحمل سلاحاً قويّاً، استعملته في اليوم التالي: جلستُ والقلم في يدي وكتبتُ قصيدة حب يائسة. عنونتها، متصنعاً الكتمان: «إلى فلانة، في حفلة الرقص»، حشدتُ فيها استعارات وتشبيهات وصفات يصعب على مسامع امرأة - كما قالت بتينيا- أن تظلّ مؤصدة أمامها: سعفة رشيقة ومنتصبة، ملاك سماوي، أجمل من القمر الأبيض، يقول لها، ويتغنّى بعينيها السماويتين، وشفتيها الورديتين، ونظرتها الوادعة وضحكتها الطروب.

طلبتُ من سائق العربة التي حملتني إلى هافانا أن يتوقف عند بيت دوناتو خونكو، والد لولا. وضعتُ قصيدتي في ظرف معطّر، وطرقتُ، بجرأة أعوامي السبعة عشر وغرور شهرتي الصاعدة، باب البيت. حين فتحت العبدة سلّمتها الظرف وطلبتُ منها أن تسلّمه إلى الآنسة دولورِس.

ما إن وصلتُ إلى هافانا حتّى تركت حاجاتي في الغرفة التي تكرّم عليّ بها سلفستري ألفونسو في بيته الفخم، وجريتُ، من دون وداع تقريباً، كاليائس، صوب ماخور مدام آن- ماري، مستعجلاً التنفيس عمّا تراكم في داخلي من رغبة. لكنّي ذهلتُ إذ وجدتُ ذلك البيت الطافح بالبهجة مغلقاً. اقتربتُ مهدوداً، بل غاضباً، لأقرأ اليافطة المعلقة على

محجّر الباب تعلن عن بيع العقار لبلدية هافانا. شاهدت على الجدران، وكانت بيضاً ناصعة، بقعاً صفراً وحمراً وسوداً، وميّزتُ آثار إطلاقات استهدفت البيت، وقرأتُ عبارات مبتذلة، كتبت بالألوان أو بالفحم، تكيل أفظع الشتائم والبذاءات.

شعرتُ بارتعاش شديد في ساقيّ، شلّ حركتي لدقائق. لا بدّ أنّ أمراً فظيعاً حدث في ذلك المكان لكي تقع تلك المهزلة. عدتُ أدراجي وكأنني خيال نفسي. بدأ الظلام يحلّ حين وصلت إلى (ألاميدا)، واثقاً من العثور هناك على أصدقائي وعلى تفسير لما وقع في بيت مدام آن-ماري. تلقاني دومنغو وسلفستري وسانفيليو بالعناق. كان عناق دومنغو حارّاً على نحو ذكرني بخيانته الأخيرة، لكنّ همّي في تلك اللحظة كان أكبر من ذلك بكثير.

- ما الذي حدث، حلّفتكم بالرب؟

- لقد اتهموها بالتجسس - قال دومنغو-. قالوا إنّها جاسوسة فرنسيّة، هل فهمتني؟ - وشعرتُ بكلماته تتردد في مسامعي، بينما راح يحكي لي أنّ الشرطة الخاصة التابعة للحاكم العام اكتشفت أنّ مدام آن-ماري كانت تبعث بمعلومات سرّيّة إلى ملك فرنسا، العازم على إقامة حكم مطلق في إسبانيا وكوبا. لم أفكّر في تفاهة التهمة بل انشغل بالي بمصير أولئك النسوة، ومنهنّ بتينيا.

- ما فعلوه كان مسرحية، خوسيه ماريّا - أكّد سانفيليو، الحادّ كعادته-. طلبوا منهنّ أن يحملن حاجياتهنّ وينصرفن، من دون أن يلاحقوهنّ بأيّة تهمة قانونيّة.

- وأين هنّ الآن؟

- ركبن السفينة إلى نيو أورلينز...

- وبتينيا، هل رحلت...؟

- جمعوا نفراً من المحرضين شتموهنّ ورموهنّ بالبيض الفاسد والطماطم العفنة. دفعوا ثلاثة ريالات لجوقة الصارخين. وفعلوا

بإليزارديتو الأفاعيل، فضربوه وبصقوا عليه...- قال سلفستري ونظر إليّ. أنا ساعدتُ بتينيا في جمع حاجياتها وقد أعطتني هذه الرسالة لك.

سحبتُ الورقة الصغيرة من يده فرأيتُ فيها حروفاً متعثرة وكتابة مليئة بالأخطاء وقرأتُ: «عزيزي خوسيه ماريّا: أتمنّى أن أقرأ في المستقبل كثيراً من أشعارك. لن أنسى أنّني كنتُ في يوم من الأيام ملهمة أعظم الشعراء الذين ولدتهم هذه الجزيرة، التي أغادرها وبي ألم كبير. لكنّي أعلم أنّنا سنلتقي: تقول أمّي (يمانجا) إن ما من شيء بلا نهاية، حتى البحر، وإنّ ربّ السماء في العادة كريم، حتّى مع الشعراء والمومسات. محبتك التي تقبّلك، بتينيا».

ليس من الصعب تصوّر يدي، وقد طويتُ تلك الورقة ووضعتها على صدري، وهي ترتفع مرات ومرات تنادي على النادل، وليس من الصعب فهم أن ينتهي بي الأمرُ وقد وقعتُ صريعَ الشراب.

- كدتَ أن تنتهي أمس - قال لي دومنغو حين فتحتُ عينيّ في صباح اليوم التالي. كنتُ أشعرُ بذهني مشوشاً. وبعد أن ذهبتُ إلى الحمام واغتسلتُ وشربتُ القهوة التي تكرّم عليّ بها سلفستري، استطعتُ أن أدرك ما حدث، وعلمتُ أنّني أتيتُ أشياء غريبة كثيرة كان من بينها أنني قطعت المسافة من الحانة إلى البيت وأنا أهتف ضد الحاكم العام وأكيل له السباب.

- لقد جننتَ، خوسيه ماريا- قال دومنغو.

- لم يناسبك النبيذ - شرح لي سلفستري-. فأنت لم تأكل شيئاً منذ أمس. هيّا، عليك أن تتناول فطورك.

حين دخلنا غرفة الطعام علمتُ أنّ الساعة كانت الحادية عشرة صباحاً، وأنّني نمتُ عشر ساعات متواصلة. تلقّت معدتي المعطوبة برضا العصير والفاكهة التي التهمتها. وخرجتُ مع دومنغو إلى باحة البيت الداخلية وأنا أحمل فنجاناً ثانياً من القهوة. جلسنا تحت شجرة نارنج مثقلة بالثمار، بانتظار عودة سلفستري، الذي ذهب إلى مكاتب والده محاولاً الحصول منه على بعض النقود.

- حسناً دومنغو. وكيف تسير الأمور بينك وبين إيزابيل؟

في ذلك اليوم رأيت دومنغو، وللمرة الأولى، يفقد هدوء المقامر: كنّا في الثامنة عشرة من العمر وكان ما زال أمامنا أن نقطع أصعب مراحل وجودنا. لذلك، قال لي، وهو ينظر إلى الأرض:

- سامحني. أعلم أنّني أسأتُ التصرف.

- كذبتَ عليّ مرتين - بادرته القول، وربّما بالغتُ في غرس الرمح في أرض رطبة.

- هل تريد أن تعرف الحقيقة؟

- لطالما فضلتُ ذلك. حقيقتي مع إيزابيل أنتَ تعرفها. أمّا حقيقتك فلا أستطيع إلّا أن أتصورها.

- لا تكن قاسياً، خوسيه ماريّا- قال لي. وشعرتُ بأنّ تأنيبي لم يكن متناسباً وبأنّ شيئاً في داخلي ينهار. لقد راحت بقايا الكراهية، التي ربّما أججها ما وقع لبتينيا ورفيقاتها، تتساقط مع استماعي إليه وهو يتكلم-. أنتَ لا تحبّ إيزابيل ولن تحبّها أبداً، أمّا أنا فنعم. هل تدري لماذا؟ لأنّي أستطيع معها أن أحصل على ما أريد. الحبّ أعقد ممّا يقوله الشعراء. الحب ضرورة، في كلّ المعاني والمقاييس. هل تفهمني؟

- في الواقع لا أفهمك كثيراً- قلتُ ردّاً على استفهامه البلاغي الأبدي الذي يثير انزعاجي أحياناً.

- اسمعني جيداً: أنا أحتاج أن أحبّ امرأة جميلة، لكنّي أحتاج أيضاً من تلك المرأة أن تساعدني في الخروج من فقري، لأني لا أقوى على الحياة هكذا. مواردي في تناقص وما يدفعونه لي في مكاتب المحاماة قليل ولا يسد الرمق. المحامون يستغلوننا، وأنت تعرف ذلك. حتّى لو بدأنا نمارس المهنة فلن يستطيع أحد أن يضمن المكسب الجيد. لذلك أحببتُ امرأة تملك المال...، أليس هذا أسهل؟ انظر، أنا أعلم أنّها تحبّني: أعلم بذلك منذ وقت طويل. وأعلم أيضاً أنّ أباها كان صديقاً لأبي لأنّه كان يناسبه أن يصادقه. سهّل له أبي أعمالاً مع الحكومة،

ساعده في الحصول على طريق سالك مع الجمارك، وحصل له على عروض مشاريع مع الجيش، لذلك فإنّ السيد رويدا كان صديقه. أما وقد توفي السيد ليوناردو... فمن ذا الذي يهمّه أمر ابنه المحامي الدعيّ الفقير؟ أنت تعلم أنّهم حاولوا تزويج إيزابيل من تاجر رقيق مقرف... لكنّ المشروع فشل، وما كان لي أن أترك إيزابيل تفلت من يدي هذه المرة. هل فهمتني؟

ولمّا كانت قدرتي على الصفح عن دومنغو مطلقة، فقد اجتمعنا في الليلة التالية مرّة ثانية للحديث عن مشروع لإصدار مجلة جديدة. وحدث ليلتها أن كايتانو سانفيليو وضعني على طريق كذبة خطيرة لا رجعة فيها.

كان سانفيليو يرى أنّ إصدار مجلة جديدة لمجرد الحصول على فضاء لا يحلّ المشاكل التي نواجهها. المناسب في نظره، وهو يتابع في ذلك أفكار باريلا، هو إصدار لا ينحاز إلى الطرف الناري ذي النزعة الاستقلاليّة الأمريكية، الذي مثلته مجلة (آرغوس)، ولا إلى الطرف الشعري، الذي كانت عليه مجلة «مكتبة السيدات». إصدار يكون قادراً على الانتقال بسلاسة من المواضيع السياسية إلى الأدبية، من دون أن يغفل المواضيع الفلسفيّة. إصدار يحاول، على وجه الخصوص، خلق روح كوبية.

كان النقاش تلك الليلة طويلاً كالعادة. وكانت لنا، أنا ودومنغو وسلفستري وسانفيليو، آراء سياسية متشابهة لكنّها مختلفة، في إشارة واضحة إلى طبعنا الكوبي: فما من شيء في العالم بقادر على جمعنا على رأي واحد ما لم ينهض واحد منّا دكتاتوراً، كما سيتكفّل دومنغو بالبرهنة على ذلك. لذلك انطلقتُ، متعباً من النقاش، مقتنعاً بأنّ الضغط قليلاً على المسمار سيوصلني إلى مبتغاي، في طريق أغلق عليّ فيه غروري واعتدادي بنفسي كلّ خيار للعودة.

- أعتقدُ أنّ مشكلة كوبا لا يمكن حلّها بالمجلات ولا بالقصائد ولا بالتوسل في البرلمان...

- وماذا ستفعل. - سأل سانفيليو، بجديته المعهودة.

- سأصبح ماسونيّاً. سأنضمّ إلى محفل من المتآمرين في سبيل حريّة كوبا.

***

- كيف يمكنكَ أن تكون واثقاً إلى هذا الحدّ، فرناندو؟

- ومن قال لكِ إنّني واثق من أيّ شيء، دلفينا؟

- أليس من الأفضل أن تنسى كلّ هذا؟

- هذا هو ما حاولتُ فعله... لكنّي أعلم الآن أنّني لا أستطيع. خصوصاً حين أفكّر في أنّ ما جرى لإنريكه لم تكن حادثة عرضيّة.

- أيّة قصّة هذه، يا إلهي؟

- ربّما كنتُ أنا من دفعه تحت عجلات الشاحنة.

- ستصاب بالجنون، هذا كلام سخيف. بالطبع كانت حادثة. عليك أن تُخرج ذلك من دماغك. ما أفظع هذا، أليس كذلك؟ أكثر من عشرين عاماً وأنت تدوّر الموضوع في رأسك.

- كان ذلك أسوأ عقاب.

جاءه المساءُ بالراحة. فتلك اللحظة تروق لفرناندو، لأنّها متذبذبة مترددة، كحياته، في منتصف كلّ الطرق. لقد تراجع الحرّ الشديدة فوصلت إلى (ألاميدا دي باولا) القديمة نسمة دبقة محمّلة برائحة الخليج الزيتيّة.

لم يتردد في قبول دعوة دلفينا، فوصل عند الخامسة لاصطحابها، وقد رشّ نفسه بأفضل ما لديه من عطور. كان له في الوضعيّة الغريبة من طرق الباب، وتقبيل دلفينا في خديها، والجلوس في الصالة، وانتظار أن تنتهي من ترتيب هندامها وزينتها، ورؤيتها خارجة من الغرفة، معطرة هي أيضاً، تخشخش بأساورها، وسماعها وهي تسأله، وكأنّها سألته من قبل، إن كان يعلم أين تركتْ المفتاح اللعين، الذي يضيع منها دائماً، وتطلبُ منه أن يساعدها في البحث عنه لتكتشف أنّها تركته في قفل الباب، وابتسامة

الاثنين، وكأنّ ما وقع كان أمراً ظريفاً، ما أثار فيه شعوراً مقلقاً ومشوشاً بأنّه يقف على أعتاب شيء ما، وإن كان يعلم تماماً أنّه ليس في ظرف يسمح له بالشروع في أيّ شيء: فتلك القفزة القاتلة قد تورثه جرعة عالية من المعاناة والألم.

بينما كان فرناندو ينزل مع دلفينا عبر شارع (أوبيسبو) في الطريق إلى قلب المدينة القديمة، اكتشف وجهاً من وجوه الحياة في هافانا. فلطالما حمله الشارع التجاري، العتيق الصاخب في ذاكرته، إلى سحر أجواء الشعر الأثيريّة، التي كان يحسّها متربصة في الهواء، في حرز من زحف الخرائب الماديّة التي تحسر البصر. ولطالما رأى فرناندو أنّ غياب الجمال في ذلك الزقاق الضيّق وجد ما يعوّض عنه في حركة أرواح حارسة ينبثق منها معناه الحقيقي. في ذلك الزقاق جال هيريديا ودل مونته وساكو وباريلا، غير مرّة، بل لقد أقام هذا الأخير فيه. قريباً من ذلك المنظر المبتذل في ظاهره، أقام خوليان دل كاسال[49] عالمه المشرقي المعطّر الخافت. وجال فيه خوسيه مارتي المرة تلو المرّة، أثناء سنواته شاعراً شابّاً محموماً بحلمه الأعظم: استقلال كوبا. وتمشّى فيه ليثاما[50] وباكيرو[51]، طلباً للجنس لا للشعر، كما فعل لوركا، الذي هام حبّاً، في واحد من باراته، بخلاسيّ من عمّال الرصيف في الموانئ، رآه يستعرض ذراعيه المفتولتين وشعره الأسود الملتفّ الذي يموج ليصعد من صدره صوب عنقه.

تحرّكت مشاعر فرناندو وهو يرى ما تركه كبار الشعراء من بصمات على مكان له في ذاكرته مظهر سوقي قذر مهدّم، لذلك أدهشه أن يرى ذلك الشارع وقد شفي ممّا كان به من خراب واكتسب حياة جديدة، فبات مسرحاً للرقص على وقع موسيقى الدولار المعدنيّة، التي لا مكان فيها للشعر: لقد عادت المحلات القديمة والبارات والمقاهي والمكتبات

49- Julián del Casal (1863-1893). مثقّف وشاعر وصحفي كوبي.

50- José Lezama Lima (1910-1976) كاتب وشاعر كوبي.

51- Gastón Baquero (1914-1997) من كتّاب كوبا وشعرائها البارزين في القرن العشرين. اختار العيش لاجئاً في إسبانيا بعد انتصار الثورة الكوبية عام 1959.

إلى فتح أبوابها الصدئة التي ظلّت مغلقة لسنين لتعرض كمّاً مدهشاً من الخيارات، من دون بطاقة تموينيّة، وبدولارات بعيدة المنال. شرحت له دلفينا أنّ أصحاب المحلات التي كانت تبيع، ولسنوات طويلة، بضاعتها بالعملة الملعونة، بطريقة أو بأخرى، لأنّ مجرد حيازتها كان يعرّض المواطن الكوبي لعقوبة بالسجن، غطّوا على تلك الوفرة بستائر سميكة لا تسمح حتى برؤية ما لا يمكن بلوغه. لكنّ تلك الستائر سقطت ذات يوم من نفسها، وتضاعف عدد المحلات التي تتعامل بالدولار في أنحاء الجزيرة، لتبيع، بحرية وسهولة، ما لم يكن موجوداً إلّا في أحلام الكوبيين المستحيلة: أجهزة تلفزيون يابانيّة وملابس بعلامات تجارية وعطوراً ذات نوعيّة وأجهزة موسيقى متطورة، حتى الطعام: لحم غنم ونقانق إسبانيّة ومعجنات إيطاليّة وسكاكر وشوكولا وحتى العلكة، التي ارتبطت لسنوات بتفاهة الأمريكان وعجرفتهم. لقد ازدحم المشهد الكوبي، بعفويّة مثيرة للدهشة، بذلك العالم الذي كان الحاجز الوحيد فيه يعتمد على امتلاك الأوراق الخضر بعيدة المنال أو عدم امتلاكها. أمّا الآن فقد صار ممكناً شراء الحلي والزهور الغريبة وأشجار أعياد الميلاد مع زينتها والأثاث والكتب بالدولارات، وإن بدا لفرناندو مؤلماً على وجه الخصوص أن يرى صالون حلاقة للكلاب يقدم خدمات قص الشعر والتسريح والغسيل، بالدولار أيضاً، في وسط مدينة تغصّ بالكلاب السائبة، المبتلاة بالجرب والاحتقار.

كان من أثر تلك الحركة الاقتصادية المأساوية أن بدأ سحر المدينة القديمة الخفيّ، الذي كان المطمور بالإهمال والقاذورات، يظهر في أركان غير متوقعة. لقد تأمّل فرناندو مدينته، وهو في حيرة من أمره، وقد بدت له أخرى، على الرغم من أنّها هي ذاتها المتهالكة النتنة، فرأى قصراً شيّد على طراز بداية القرن التاسع عشر ينهض في مكان لا يتذكره إلّا بقعة مهجورة؛ وقام محل تجاري قديم من محلات هافانا، عامر بالخزف البرتغالي والمرمر الإيطالي المنقوش، مكان أعمدة وسخة تراكبت

على بعضها كالعنقود؛ وارتفع بناء عليه شعار يمثل سلاحاً ووجوه تماثيل وخشباً ثميناً محفوراً بأزاميل من القرن التاسع عشر وقضبان صبّها حدادون ماهرون، في مكان كانت تتكدس فيه أطنان من القذارة التاريخيّة.

لقد منعه ذلك الخليط من المتقابلات، الذي ظلّ يحاول فهمه، من أن يقوّم بموضوعية معرضاً لعدد من الفنانين الشباب، نظمته دلفينا في واحد من قصور هافانا التي أنقذت من موت محقق. كان التصنّع والتقليد، وكانت المديات المتطرفة والقسرية لتجاوز الحداثة، وكانت الرغبة الواضحة في طليعيّة تتجاوز مراكز صناعة الطليعة، تشوّش بصر رسّامين ينتمون إلى باريس أو نيويورك أو ميلان أكثر من انتمائهم إلى كوبا، لذلك لم يستطع أن يمدّ بينه وبينهم جسراً من التواصل ولا أن يتعاطف معهم.

خرج إلى الشارع محتجّاً بالتدخين، بينما كانت دلفينا تنتهي من مراسيم الافتتاح. أحسّ بشيء من الألم وهو يرى رأي العين تلك المرأة التي طالما حلم بها، تلبس ذلك الرداء الأبيض المعمول من قماش هندي، وقد ازدادت بشرتها سمرة، وازداد شعرها سواداً، وأقامت مع مرور السنين فضاءً وعالماً خاصين بها، يرى فرناندو نفسه بعيداً عنهما. لم يكن سهلاً عليها تجاوز موت فيكتور، لكنّ تعلّقها الشديد بالحياة فرض عليها أن تنظر إلى المستقبل أكثر من أن تنظر إلى الماضي، وبدت دلفينا وكأنّها أعادت تسليح وجودها بطريقة ترضيها، أو على الأقل لا تعذبها. لذلك رفضت، بعد أن جلسا في ساحة (ألاميدا دي باولا)، والليل يجتاح المدينة، القبول بقصّة خيانة وموت طاردت فرناندو طوال أكثر من عشرين عاماً، عبر حياة صار يراها، يوماً بعد يوم، غريبة عنه خاطئة.

- لو كنتُ مكانك لما استطعتُ أن أعيش هكذا - قالت، وعيناها مثبّتة في البحر.

- أنا لم أختر أن أعيش هكذا. افهميني. أنا لا أحقد على أحد ولا

أرغب في الانتقام من أحد. بل أنا لا أستطيع أن أشعر بالكراهية. لكنّي حين أتذكر ما جرى لي، أجد أنّ واجبي يحتّم عليّ أن أطالب بحقي في أن أعرف. الحق في إدانة مذنب وتبرئة أبرياء، فبين آلبارو وتوماس وأركاديو وكونرادو وميغيل أنخل وفيكتور هناك خائن واحد...

- وهل تبرئ إنريكه لأنّه ميت؟

- كلا، بل أسامحه، لأنه كان الخاسر الأكبر في هذه القصّة، ولأنّي اقتنعتُ بأنّه تعرّض للخيانة مثلي، على الرغم من أن تلك القناعة كلفتني كثيراً... إنريكه كان يخاف، لكنّ خوفه ليس هو خوف الآخرين ذاته. هو كان يعرف أنّ اتهامي ما كان لينقذه. لكنّه كان يشعر بالذنب عمّا حصل لي.

- ولذلك انتحر؟ فرناندو! ألا ترى أنّك تبالغ؟

- المرة الأخيرة التي تحدثتُ فيها معه...- بدأ، لكنّه أدرك أنّ تلك القصّة ما زالت تطغى عليه.

- أريد منك الآن أن تقول لي شيئاً وأن تكون صريحاً معي. بعد كلّ تلك السنين، من تظنّ أنّه فعل؟

- جميعهم - قال-. فكّرتُ أحياناً في آلبارو، وأحياناً أخرى في أركاديو، وهكذا شككتُ في الجميع...

- أنا لا أظنّ أنّ فيكتور كان قادراً على فعل شيء كهذا.

- ولا أنا. ولا أظنّ أنّ آلبارو أو أركاديو أو الآخرين كانوا قادرين على فعل ذلك، لذلك حاولتُ أن أدفن تلك القصّة. لكنّي لا أستطيع نسيان أنّ من فعل ذلك هو واحد منهم. وما قال عنّي وعن إنريكه، انظري كم كلفنا ذلك.

- أنا أشفق عليك.

- وأنا أشفق أيضاً على نفسي، لكنّ الحزن لا يقدم ولا يؤخر... تذكّري أنّ من خاننا، إن لم يكن فيكتور، ما زال حيّاً، وإن قال آلبارو إنّنا جميعاً ميتون. تناولتُ الطعام قبل أيام مع خمسة رجال، أحياء يرزقون، كلموني، عانقوني، سألوني عن أحوالي... كيف استطاع من خاننا أن

يعيش كلّ هذه السنين وهو يعلم أنّه قتل إنريكه وقتلني، مرات ومرات، وقتل الصداقة التي كانت تربط بين الآخرين؟ لقد قضى هذا على كلّ ما حلمنا به معاً. لكنّه نال عقابه، نال عقاباً أسوأ من عقابي... لأنّه اضطر أن يعيش وهو يشعر بالقرف من حياته والاشمئزاز من نفسه.

- وتقول إنّك لا تحمل حقداً ولا تشعر برغبة في الانتقام؟ كلّ هذا يبدو لي نصف جنون... هلّا ضحكتَ وسكرتَ ورميتَ بكلّ شيء إلى الوراء وتمتّعتَ بالأشياء الجميلة في حياتك؟

ابتسم فرناندو وهزّ رأسه موافقاً: وهل بقيتْ أشياء جميلة؟

- سأحكي لك شيئاً... لقد فعلنا المستحيل لكي لا يصحبكِ فيكتور إلى جلسات «الساخرين». ليس تعصّباً للذكوريّة، بل لسبب أقلّ غرابة وأشدّ فظاعة، ربّما لم يقصصه عليك فيكتور...

- لماذا كان إذن؟

- لأنّنا كنّا جميعاً، وبدرجات متفاوتة، مغرمين بك.

- لم أفكّر في أنّكم على هذا القدر من الراديكاليّة، ولا في أنّ الأمر على هذا القدر من الجديّة...

- يسعدني أننا كنّا على ذلك القدر من الراديكاليّة. لأنّ هذا ينقذك من أن أشكّ في أنّك كنتِ مَن خاننا. ما كان أفظع من أن تكون ملهمتنا الجماعية خائنة!

- فعليّ إذن أن أكون ممتنة لكم أن أخرجتموني من المجموعة؟

- ممتنة لا... بل، لا أدري، نظيفة... شيء عظيم، دلفينا، أنا في الحقيقة مثير للشفقة. مع ذلك دعيني أقل لك إنّني أحياناً أسكرُ وحتّى أضحك...

كانت هي من ابتسمت وتناولت علبة السجائر التي كانت على الدكة الحجريّة القديمة.

- لا أذكر أنّك تدخنين.

- لا أدخن تقريباً. لكنّ سماعكَ وأنت تتكلّم أثار حزني. أنتَ مسكون بكلّ هذا، برحيلك، ولا تستطيع أن ترى غير تلك الظلمة. وليس هذا عدلاً ولا جيداً... هلّا غيّرنا الموضوع؟ لا أدري، قل لي ما الذي حدث لرواية هيريديا اللعينة...

نظر صوب البحر وقد صار دثاراً أسود.

- نعم. الرواية الملعونة التي لا تظهر... لكنّي سأقول لك شيئاً قبل ذلك، لأنّي لا أريد أن أعيش سنواتي الثلاثين القادمة وأنا أحمل هذا في داخلي: اسمعي، دلفينا، وإن بدا لك ما سأقول مضحكاً وحزيناً، الحقيقة هي أنّي ما زلت مغرماً بك. من الفظيع أن يقول الإنسان وهو في التاسعة والأربعين ما كان عليه أن يقوله وهو في التاسعة عشرة، لكنّ الأفظع من ذلك هو أن يموت في التاسعة والسبعين من دون أن يصرّح بذلك.

أحسّ فرناندو، بعد أن انتهى من ذلك الاعتراف الذي فاجأه، بأنّه تحرر من عبء ثقيل، واكتشف أنّه نفسه لم يكن ينتظر ذلك التنفيس من عقله الباطن.

- ظننتُ أنّ هذا الأسلوب ما عاد مستعملاً- قالت، بعد صمت طويل. تمكّن فرناندو، على الرغم من الظلام الذي فاجأهما واللهفة التي غمرته، أن يلحظ رطوبة برّاقة في عيني المرأة وأحسّ بتعب بعيد في صوتها-. الناس الآن تعشق باليد. يدعونكَ إلى الطعام، إلى السينما، لتناول شيء، وفجأة تشعر بيد امتدت إلى ظهركَ أو وضعتْ على فخذك، هذا إذا كان ممن يراعون آداب اللياقة، أو يتحسسون مؤخرتك، إن كان من المندفعين.

- أتصوّر أنّ ألف رجل حام حولكِ خلال هذه السنوات.

- تسع مئة وتسعة وتسعون - قالت وهي تبتسم ابتسامة حزينة، وأمرته، أكثر مما عرضت عليه-: هيّا بنا، أريد أن أمشي قليلاً... انظر، أظنّ أنّ معظم الذين حاولوا معي كانوا راغبين في شقتي أكثر من رغبتهم فيّ. أنتَ تعلم أنّ الناس هنا مهووسة بالبيوت والسيارات. فالحصول على البيت والسيارة أصعب من الحصول على الزوجة أو على الزوج.

- في حالتكِ أنا لستُ متأكداً من ذلك. فقد كنتِ على الدوام تمتلكين مغناطيساً يجذب الرجال إليك.

ابتسمت هذه المرة بصدق.

- مغناطيس لعين... أتريد أن أعترف لك بشيء؟ - ولم تنتظر ردّاً منه- منذ ثلاث سنوات وأنا لا أنام مع أحد. بعد أن مات فيكتور ظللتُ وقتاً طويلاً من دون علاقات، وكانت تلك الفترة هي التي حاول فيها الكثيرون التقرب منّي، وهو تصرّف من قبيل اشتهاء الموتى، موجود عندكم معشرَ الرجال: إذا مات أحدكم فهناك مكان لآخر حيّ محلّه.

- ولماذا لا تنظرين إلى الأمر من زاوية أخرى؟ - قال، وهما يدخلان في منطقة كانت في وقت من الأوقات تضمّ أشهر بارات الميناء، التي اختفت كلّها تقريباً، مثل مقهى (لاس بيغاس) القديم-. أنتِ كنتِ في الثلاثين، وكنتِ في أفضل حالاتك. أنا كنتُ حينها في قمّة يأسي وألمي، وحين كنتُ أراك مع فيكتور كانت الغيرة تقتلني...

- لقد حدث الكثير من الأمور، فرناندو.

- وستحدث أخرى أكثر، دلفينا. لا أدري إن كانت أسوأ، لكنّها ستمرّ، وأنت ما زلتِ تلك المرأة التي تروق لأيّ رجل.

- يسعدني أنّني ما زلتُ... تعال، أنا أدعوكَ إلى تناول الآيس كريم.

كان المقهى يبيع بالدولار، لكنّ دلفينا أصرّت على أن تدفع هي. وربّما تساءل فرناندو عن مصدر نقودها لكي تنفقها على أمور غير ضروريّة. بحثا، وهما يحملان كأسي البوظة، عن أقرب طاولة إلى البحر.

- كنتُ أفكّر في ما قلتَه لي- بدأت هي، بعد أن ذاقت البوظة-، لماذا يتملكني أحياناً شعور بأنّني عجوز؟ ألا تشعر بأنّ الحياة تغادرنا، فرناندو، وبأننا الآن في المنحدر؟ هل تذكر ميريام، القروية الشذياء التي حضرت إلى جامعة أورينته؟ لقد ماتت بالسرطان منذ عام تقريباً... وهل تذكر سيندو، الحزبية الكبيرة؟ لقد أصيبت بجلطة وانهارت في بدنها وروحها:

تسير متكئة على العصا وتجرجر قدميها. وصديقتي ماريّا فكتوريا، التي كانت خطيبة كونرادو؟ استأصلوا لها الرحم وهجرها زوجها الذي جرى وراء أخرى... وفضلاً عن فيكتور وإنريكه، مات أيضاً أوسكاريتو وميرتا كابانياس... حين أجري هذه العملية الحسابية، ولا تظنن أنّي أجريها كلّ يوم، أصابُ بالفزع، مع ذلك، أشعر بأنّ ما يقع يمنحني قوة. فالشيء الواضح الوحيد الذي يبقى هو الرغبة في الحياة، وليس للكراهية ولا للحقد ولا لخيبة الأمل أن تساعد على هذا. لقد كلّفني ذلك، لكنّي قررتُ أن أواصل الحياة - توقفتْ عن الكلام، لتحمل الملعقة الصغيرة إلى فمها وتذيب قطعة البوظة بشفتيها ولسانها، مستمتعة بالطعم، وكأنه إحدى ملذات الحياة.

- كان عليك أصعب.

- حاولتُ أن أدفنَ فيكتور فأقمتُ عدة علاقات، كانت اثنتان منها طويلة بقدر ما. لكنّها لم تكن ذاتها على الرغم من أنّني بذلت جهدي لتكون كذلك. شيء ما كان يقول لي إنّ في إمكاني أن أظلّ طول العمر مع أولئك الرجال، لكنّي أعرف دائماً أنّ ذلك ليس هو ما أبحث عنه.

- أنا قضيتُ حياتي في هذا...- اعترف هو-. هنا وهناك. في مدريد ارتبطتُ بخطيبات عديدات لكنّ شيئاً كان ينقصني دائماً.

- الشيء الوحيد الذي أندم عليه أحياناً هو أنّني لم أنجبْ طفلاً- همست دلفينا، وهو تنظر إلى البوظة-. حاولت أن أنجبه بطريقة من الطرق، لكنّ ذلك بدا لي أنانية من ناحيتي تجاه الطفل... أعتقد أنّ أيّاً منّا يجب أن يعيش مع أبيه وأمّه. ربّما لأنّني كنتُ محظوظة بوجود أبي وأمي.

- يبدو أنّنا جميعاً خسرنا، أليس كذلك؟

- هذا هو ما لا تريد أن تفهمه، فرناندو: كلّنا نمرّ بأشياء حلوة وأشياء مرّة، أحياناً الأشياء المرّة أكثر من الحلوة، صحيح، لكنّنا لا نستطيع أن نمضي يومنا بالشكوى، كما تفعل أنتَ - اختتمت كلامها-. على من

يقع الذنب في أن يكون آلبارو سكيراً وفي ألّا يكتب؟ ومن المسؤول عن أنّ أركاديو يكتب وينشر؟ وعن أن يكون توماس مستهتراً وميغيل أنخل ساذجاً؟ لو أن الرب موجود على الأقل...

- أوَليس الربّ موجوداً؟ - سأل فرناندو بصوت خفيض.

- كم الساعة؟... عليّ أن أطعم أبي. هيّا. - عادت إلى أمره، فخرجا إلى الشارع.

- حين أراكِ أشعر بشيء غريب - قال وهو يشعل سيجارة-. من بين جميع الأشخاص الذين أعرفهم هنا، لم يبقَ أحد على حاله سواك أنتِ وأمّي. أمّا الآخرون فأنا لا أتعرف عليهم تقريباً.

- لا تقل ذلك. أنا أيضاً تغيّرتُ. العالم تغيّر. انظر إلى صديقك كونرادو... ألم يخبرك أحد بأنّه صار قديساً؟

- لا تزعجيني، دلفينا...

- لم يقل شيئاً لأحد، لكنّي أعرف إشبينه، لأنّ ابنه رسّام. تحوّل إلى الإله (أوشون)[52]، وهو يقيم احتفالًا سنويّاً كبيراً في بيت إشبينه... هناك يحتفظ بحُلة القديس.

- الفلاح اللص - واضطر إلى الابتسام-. وماذا عن انقلاب ميغيل أنخل الكبير؟ أكاد لا أصدق.

- صدّق، لأنّه يصدّق ما يفعله... وموضوعك معي، فرناندو، ألا يمكن أن يكون نزوة؟ أليس لأنّك ربّما لا تريد أن تمضي حياتك بسؤال معلّق؟ - سألته من دون أن تنظر إليه حين رأت الحافلة تقترب.

- ليس لأحد أن يحب آخر كلّ هذه السنين ويكون في الأخير صاحب نزوة. لقد أصبحتْ حياتي جحيماً، دلفينا، رحلتُ على الرغم منّي، وتحوّل كلّ ما حلمتُ به إلى دخان، وأنتِ من يستطيع انتشالي من هذا الماضي...

52- Oshún وهو أحد آلهة الديانة اليوروبية ويوافق في كوبا عذراء المحبّة، أو عذراء النحاس، شفيعة كوبا.

اذهبي لرؤية أبيك، لكن فكّري في أنّ محاولة ذلك قد تكون مجزية- قال لها وهو يطبع قبلة على خدها، بينما كانت هي تصعد إلى الحافلة.

على الرصيف، وبينما كان فرناندو تيري يتأمّل الأوتوبيس المبتعد، أحسّ بقناعة بأنّه لم يخطئ: فإن لم تنفعه تلك الرحلة في العثور على حقيقة حياة هيريديا، فلربّما ستنفعه في العثور على بعض حقائق حياته هو.

***

ربّما كانت جدته ماريا دي لا مرثيد الوحيدة القادرة على مواجهة تلك اللحظة الحاسمة. كانت تلك المرأة، التي عرفها وهي عجوز، تجسد العزم والتصميم على أفضل ما يكون التجسيد. ولذلك فهو يتذكرها دائماً وهي تحمل بيدها عصاها وترتدي صدرية سوداء مزرّرة حتى عنقها، حتى في فصل الصيف، فكأنّ حرارة الطقس لا تؤثر فيها. يتذكرها جالسة في الباحة التي يضوع منها عطر التين والياسمين وزهر البرتقال، في بيت إغناثيو هيريديا في (ماتانثاس) إلى حيث أوتْ هي، وإلى حيث أوى أيضاً خوسيه دي خيسوس مع شقيقتيه لوريتو وخوليا وأمهم خاكوبا المحتضرة، بعد سنوات قليلة من وفاة أبيه. ربّما لم ترتعش ساقا الجدة مرّة كما ارتعشت ساقا هيريديا مرّات، أو كما ارتعشت ساقاه هو حين لم يستطع الوقوف إلَّا بصعوبة لحظة نهوضه والظرف الأصفر بين يديه ليسلّمه وليتنازل عن ملكيته الحصرية له. ما كان لها، وهي التي تمتلك جواباً عن كلّ سؤال، وتستطيع أن تقاوم كلّ مصائب الحياة، أن تعاني الشكوك التي عاناها حفيدها، ولكانتْ عرفت، وفي اللحظة الحاسمة، أفضلَ الخيارات، كما عرفتها منذ أن وصلت خاكوبا إلى كوبا ووضعت بين يديها تلك الوثائق لتسلمها إلى من أُرسلت إليهم.

وما هي إلَّا ثلاثة أيام حتّى فارقتْ خاكوبا يانيث الطيبة العالم، هرمة ذاوية، محكومة ربّما بالقدر ذاته الذي حكم على الرجل الوحيد الذي صادفته في الحياة. حينئذٍ صار كلّ شيء أسهل على ماريا دي لا مرثيد هيريديا إي كامبوثانو: ما إن قرأت وصيّة ولدها المحزنة المؤلمة، التي

لا شكّ أنّها كشفت لها عن أسرار ومعاناة لا يمكن تصورها، حتى قررتْ في عجالة أن تلك الأوراق لا بدّ وأن ترى النور في وقت من الأوقات، لكنّها اختارتْ أن تحتفظ بها معها على الرغم من رغبة الشاعر الصريحة في أن تسلّم إلى ابنه الذي لم يره قط. خمّنت الجدّة، التي كانت تفخر بمعرفة معدن الرجال، أنّ تلك الوثائق، إن وصلت إلى المرسل إليهم الحقيقيين، فإن هؤلاء سيخفونها، كما اختفت أدلّة أخرى، بل كما اختفى أفراد وشخصيات: لقد رأت أنّ ذكرى ولدها تستحقّ حظّاً آخر، وإن كان الثمن مخالفة وصيّة الفقيد.

قرّرت العجوز، في عرض لقوتها، أن تدعو لولا خونكو لزيارتها. وبعد أن سلمتها آخر رسائل هيريديا التي كتبها إليها، نبهتها إلى عزمها على نشر مذكرات للشاعر يستذكر فيها تفاصيل حياته العاطفيّة. ولم يعلم خوسيه دي خيسوس إلّا بعد سنوات كثيرة، وعن طريق شقيقته لوريتا، التي كانت الشاهد الوحيد على اللقاء، بأنّ المرسل إليها الصريحة الأولى لتلك الأوراق طلبت الاطلاع على الوثيقة، لكنّ الجدة لم تسمح لها بذلك، وإن أعطتها وعداً قاطعاً: ليس عليها ولا على ابنها أن يشغلا باليهما بمضمون الأوراق، فقد قررتْ ماريا دي لا مرثيد، في تلك اللحظة، ألّا تنشر الأوراق إلّا بعد مضي مئة عام على وفاة هيريديا. ومنذ ذلك اليوم حفظت الجدّة تلك الأوراق في خزانتها، مشفوعة برسالة بيّنتْ فيها تفاصيل ما سيصير إليه أمرها مستقبلاً.

قد تكون الجدّة غيّرتْ مع الوقت رأيها، وربّما أتلفت الأوراق من دون ضجّة، فبعد وفاة لولا خونكو، لم يعلم بوجود الأوراق، ولسنوات، غيرها. لكنّها، وهي الثابتة على قراراتها، احتفظتْ بها إلى أن استودعتها، وقد أحستْ بدنوّ أجلها، حفيدتها لوريتو بعد أن ألزمتها بالقسَم على الحفاظ على الأوراق والحيلولة دون أن يطلع عليها أحدٌ ووضعها، حين يحين الوقت، في أيد أمينة إلى أن يستحق موعد نشرها، الذي حددته ووعدت به لولا خونكو.

مع ذلك، فقد اقتنع خوسيه دي خيسوس، بعد معارك كثيرة من أجل إصلاح سيرة أبيه، وصولاً إلى إزالة لحظات ضعفه وشكّه، بأنّ الصمت خيرٌ من الكشف عن اعتراف مدمّر لن ينفع إلّا في نبش ماضٍ بدأ مظهره يروقُ شيئاً فشيئاً، وتحريك ما استقرّ مع السنين، وهدم قواعد وتعرية الفصل الأكثر بؤساً من إنسانيّة شاعر وضعه التاريخ، بعد جهد، في مذبح صغير كان له من دونه أن يظلّ شاغراً وإلى الأبد.

لقد كرّس خوسيه دي خيسوس سنوات طويلة لإخفاء ما يشين سيرة أبيه وإبراز ما يزينها، وهو لاهٍ عن وجود تلك المذكرات الخطيرة. وأضيفت محاربة النسيان الرسمي، الذي كان سببه إيمان الشاعر بالاستقلال ونزوعه إليه في بلد كان ما يزال، ولسنوات قادمة وكثيرة أخرى، مستعمرة، إلى اللامبالاة التي بدأها بخبث أوائلُ من رفعوا شعر هيريديا نشيداً وراية لمختلف الأغراض، والذين قرروا، بعد انقضاء وقت الانتفاع المباشر من الرجل ومن أشعاره، تنحيته جانباً وقتله عن طريق النسيان، لكي لا يكشف نورُ عظمته عن وجود ذلك الكم الهائل من الهزال الشعري. إنّ الانتصار الشخصي الذي حازه هيريديا خارج حدود الجزيرة الضيقة تحوّل إلى وصمة عار، وحاولت سيول الحسد والإحباط أن تغطّي على عمل كان من حقه أن يكون فخراً ونصراً للجميع. ما أبعد الوحدة البائسة التي انتهت إليها حياة الرومانسي العظيم، وجنازة الفقراء التي شيّع بها، والقبر البائس الذي دفن فيه الرجل الذي لامس المجد بكفّه، عن عالم الصالونات المضاءة المزينة، وعدّة الشاي المعمولة من الخزف الصيني، ودعوات العشاء الكبيرة في عدد المدعوين المتنوعة في أطايب الطعام، ومكتبات الكراسات المغلّفة بالجلد، والامتيازات الاجتماعية التي تمتّع بها بعض أصدقائه الكوبيين الذين كوّنوا ثرواتهم من تجارة العبيد. ربّما لهذا السبب لم يردّ أيّ من زملاء الحلم الشعري القدامى أولئك على نداءات ماريا دي لا مرثيد حين بدأت حملة لجمع المال اللازم لشراء قبر جديد في المكسيك والحيلولة دون نقل عظام

الشاعر إلى حفرة جماعيّة في مقبرة (تبلاك) حيث ألقي بها في النهاية، كما يُلقى بعظام أيّ فقير من فقراء الأرض، ومن دون أيّ شاهد. ما كان أفظع ذلك الفعل، والآن ما من أحدٍ يعلم ماذا حلّ برفات رجل حكم عليه بأن يتيه في البلاد وهو حيّ وأن يتيه بين القبور وهو ميّت.

لم يستطع خوسيه دي خيسوس أن يرأب جزءاً من الصدع وينال نصيباً من الرضا إلّا بعد أن توقّف بعض الرجال الذين عاشوا مع هيريديا ولازموه عن التدخل بنفوذهم وأصواتهم، وحتّى بمالهم، لإخفاء أصداء عظمته. وربّما جاء أعظم دعم وسند، كما هو منطقيّ، وإن لم يكن منتظراً، من الرجل الذي اعترف، من ارتفاعه الملهم، بقامة هيريديا المساوية لقامته. لا شكّ أنّ خوسيه دي خيسوس طالما أسف على أنّه لم يستمع إلى تلك النبوءة التي تغنّى بها خوسيه مارتي، الكوبي الآخر ذو العزيمة، الذي حكم عليه أيضاً بالنفي، حين أطلق تحديه وأكّد أنّ هيريديا هو أوّل شعراء أمريكا، وأنّه غابة الشعر الكوبي البِكر الكثيفة، وحين وضعه في مكانه الذي يستحقّه، على القمّة السامية التي تليق بإمامة الشعر الكوبي. ثمّ جاءت لحظة استعادة البيت في سانتياغو، حيث ولد أبوه، ولحظة إطلاق اسمه على الشارع الذي يقوم فيه البيت. ثمّ حلّت لحظة الاعتراف بأنّ هيريديا هو صوت الوطن الشعري الأول حين نُقشت على شعار الأمّة الوليدة التي حلم بها، سعفة كوبا ونجمتها، وهما الرمزان اللذان تغنّى بهما في هاجس الرائد وإحساس المؤسِّس الذي فيه.

والآن، وقد تحقق كلّ شيء، بعد مكافحة النسيان في بلد يموت فيه الشعراء الحقيقيون جوعاً ونسياناً ويخترق الرصاص فيه صدورهم، فإنّ في مقدوره أن يشعر بالسخط على اعترافات قاسية صرّح بها شخص ودّع الدنيا، لكنّه بدا مستعدّاً لهدّ قواعده وأسسه من أجل تأكيد التصاقه بشيء لا أحد يريد أن يعرفه: الحقيقة... وها هو الخطأ الفادح الذي لم يحسب له هيريديا ولا ماريا دي لا مرثيد حساباً له أن يظهر واضحاً، وبعد سنوات طويلة، أمام الرجل الذي يتحتّم عليه أن يقرر مصير الشاعر، وهو

الذي لم يسعَ إلى ذلك ولم ينتظره. لأنّ أيّاً ممّن افتروا عليه وانتقدوه، وأيّاً ممن استخدموه أو أساؤوا إلى اسمه وسمعته، لم يكن جزءاً حاسماً من ذاكرة الناس، ولأنّ أيّاً منهم لا يستحق التضحية بصورة أبيه. كان خوسيه دي خيسوس يعلم أنّ خوف هيريديا وخيبة أمله وشكه وشقاءه ويأسه سيكون لها وزن أكبر من وزن مجده الشعري، أكبر من وزن كلّ أشعاره وقصائده، وحينها ستتقدم السخرية على التفهّم.

لذلك ألحّ، المرة تلو المرة، وعلى امتداد خطابه الحماسي الموجه إلى إخوانه الماسونيين، على الدعوة إلى الكتمان: ليس لأحد أن يتكلّم، خارج جدران ذلك الهيكل الصماء المقدسة، عن طبيعة تلك الجلسة؛ ليس على أحد، حتى عام 1939، أن يقرأ تلك الأوراق التي استودعها أمّه المحفل؛ واختتم طلباته، أمام استغراب الحضور، بأن يودع الظرف، كما سلّمه هو، في قبّة «غرفة الخبراء السرّيّة» وأن يسأل الأخ راميرو خونكو، حين تصل لحظة تنفيذ الوصيّة- قال، وهو يشير إلى الحراسة الأولى-، عن المصير الأخير لوثائق لن يتنازل خوسيه دي خيسوس عنها إلّا حين يتحقق من دنوّ أجله.

- في حضراتكم، إخواني، أضع كلّ ثقتي، كما فعل أبي ذات يوم. وأترك في حفظكم وضمانتكم هذه الأوراق القديمة التي سيجد فيها من سيحظى بقراءتها بعض الفضائل التي تقوم عليها مؤسستنا: إيمان بالحقيقة، حب للعدالة، دفاع عن الديموقراطية. بين أيدي حضراتكم، وفي حصافتكم وتكتمكم أضع روح والدي وأضع قلبي.

خيّمت المهابة وجوّ الغموض، الذي تهوى إليه قلوب الماسونيين، على المكان بعد الكلمات الأخيرة. وقف الرجل العجوز بعد أن تغلّب على رعشة قدميه، وحمل الظرف الأصفر على صدره من دون أن يعاود النظر إلى راميرو خونكو، ونزل على درجات الحكمة السبع لكي يقف في المرتفع الشرقي حيث كان كارلوس مانويل ثرنودا بانتظاره. تابع الماسونيون الستة والثمانون المدعوون إلى الجلسة بصمت خوسيه دي خيسوس وهو يضع بين يدي «الخبير الموقر» الظرف الغامض ويعيد له،

في الحال، شارات التوقير الفضيّة. نظر ثرنودا إلى عيني العجوز ورأى أنّه يوشك على البكاء. التفتَ ليتجنّب النظر إلى ذلك المشهد المؤلم، وهو يحمل الظرف بين يديه، ونزل من المشرق نحو مذبح الاستحلاف. هناك، وعلى الكتاب المقدس، والدستور الماسوني والفرجار ومسطرة بنائي الكاتدرائيات الأوائل، وضع الظرف وتكلّم، من دون أن يرفع بصره:

- أنا، كارلوس مانويل ثرنودا، «الخبير الموقر» لمحفل «أبناء كوبا» المبجّل، أقسم على أنّني سأتكتّم بكلّ حرص وحميّة على خبر وجود هذه الوثائق التي تستقر فوق أقدس رموز إخوتنا، بالقدر نفسه الذي أتكتّم فيه على أيّ سرّ من أسرارنا الماسونيّة. من هذه الليلة، وبمشيئة من أخينا العزيز خوسيه دي خيسوس هيريديا إي يانيث، فإنّ المحفل الذي يضمنا هو الحارس على مذكرات أخينا النابه الذكر خوسيه ماريا هيريديا إي هيريديا، الذي بدأ في أسرار الماسونيّة قبل مئة سنة، تحت العهد بالكفاح حتى الموت من أجل استقلال أمريكا. سيؤدي كلّ أخ حاضر بيننا قسماً غليظاً بالحفاظ على هذا السر كما أقسم في مناسبة أخرى وبملء إرادته على الحفاظ على أسرار إخوتنا.

بدأ الرجال بالمرور من أمام المذبح ونطقوا بصوت منخفض بالتعهد الذي طلبه منهم «الخبير الموقر». من مرتفع «المشرق»، رآهم خوسيه دي خيسوس، وهو واقف وحده، يمرون من أمام روح أبيه الحيّة وتنفس راضياً حين وصل الدور إلى راميرو خونكو، الذي نظر إليه لحظة، قبل أن يقول: «أقسم». وأخيراً أحسّ بأنّه تحرر من حمل كان ينوء به، وتنفس، فخوراً بنفسه، فقد تغلّب على فقره وعلى داعي الإغراء الذي لا يرحم.

***

مرّ عام كامل، طويل إلى حدّ اليأس وهادئ إلى حدّ الملل، بين قراري بأن أكونَ ماسونيّاً واليوم الذي دخلتُ فيه، بعينين معصوبتين وصدر مفتوح، إلى القاعة، حيث أدّيتُ، وأنا أحمل في يدي سيفاً، قَسَم الولاء والإخلاص للإخوانيّة القديمة للمبتدئين في أسرار التناسب والتوازن.

بدا وكأن دوامة حياتي هدأتْ في تلك الشهور التي عرفتُ خلالها إيقاعاً روتينياً كان يثير فيّ إحساساً بالرغبة في أن يتغيّر كلّ شيء، وفي الوقت نفسه، أن يظلّ كلّ شيء في ذلك السلام الممكن. لكنّي، وكما سيثبت لي المستقبل، كنتُ أحدَ أبناء التاريخ وكان سيأتي ليدقّ عليّ بابي حتى لو كنتُ مختبئاً في أبعد غور. ولكن حدث أنّني كنتُ أنا من فتح الباب، مدفوعاً بالقدر، وأجتاز العتبة التي ما كان من سبيل إلى الرجوع بعد اجتيازها.

قبل أيام من نهاية عام 1821 زارني في (ماتانثاس) دومنغو، على غير توقع. جاءني ليحتفل معي بعيد ميلادي التاسع عشر. كانت فرحتي بلقائه كبيرة، وكانت فرحتي بهديته كبيرة، وكانت نسخة رائعة من كتاب روسو «إيميل»[53]، مشفوعة بالعديد من النصائح– طبعاً فلا بدّ من أن ينصح– حول طبيعة الشعر ومقصد الدراما. كانت أعياد ميلاد سعيدة وخالية من الهموم، بلغت صداقتنا أثناءها أوجها. حدّثني كلّ ليلة عن مغازلاته العقيمة الخائبة مع إيزابيل. وحدثته كلّ يوم عن مغازلاتي مع لولا وما كنتُ أنتزع منها من ابتسامات.

طلب منّي أن نمضي ليلة رأس السنة في مزرعة (ثيريس)، وهي ملك لعائلته التي اشترتها بالمال الذي تركه لهم المرحوم والده. استمتعنا هناك بمنظر سهل (ماتانثاس) الفريد، في رفقة والدته وإخوته وأخواته. لقد وافقتُ، في الواقع، على الذهاب إلى ذلك المكان البعيد لأنّ لولا سافرت في رحلة مشابهة إلى واحدة من مزارع عائلتها، وكانت المدينة من دونها تبدو وكأنها فقدت كل فتنتها. إنّ ما بدا ضرباً من اللعب المهذب اللطيف اكتسب في روحي عمقاً، حتّى صرتُ، بعد عدة أشهر، أجد نفسي منساقاً في حبّ مطلق لا أستطيع الفكاك منه نحو تلك المرأة الرائعة.

مع فجر الثاني من كانون الثاني عدنا طيراناً إلى (ماتانثاس) للاستمتاع

53- Émile وهو كتاب الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (1712-1778) الشهير في التربية.

مع أصدقاء آخرين بأيام الأعياد التي تمتدّ حتّى الاحتفال بيوم الملوك [10]. قلّما شعرتُ بما شعرت به في تلك الأيام من حرارة الصداقة وقيمة المشاركة. لقد أمضينا، بعد أن نحّينا جانباً جدالاتنا السياسية، وقتاً أطول في الحديث عن اهتماماتنا الأدبيّة المشتركة وولع كلّ منّا: دومنغو باللعب - أنفق كلّ ما لديه تقريباً في نزالين للديكة في حلقات (بويبلو نويبو) للمصارعة -، وتانكو بالنبيذ - كان يستطيع أن يشرب أيّة كميّة- وأنا بالجنس - بفضل الشقيّة الناريّة، لويسا مونتِس، وهي خلاسيّة رائعة كانت تعيش في (لوما دي خيسوس ماريّا) والتي طالما خدعت زوجها لترتيب الوقت والمكان اللازمين لمغامراتنا العاطفيّة.

مع عودة دومنغو إلى هافانا شعرت بالفراغ. صحيح أنّ لي أصدقاء طيبين في (ماتانثاس)، لكنّ أحداً منهم لم يستقر في قلبي كما استقرّ دومنغو. كنتُ أكرّس ساعات الصباح لعملي الممل في مكتب المحاماة، بينما أنفق بعض أوقات العصر في التنفيس عن رغباتي مع لويسا مونتِس. أمّا ساعات المساء فقد كنتُ أخصصها للكتابة. كنتُ أكتب بشغف وسلاسة لم أعهدهما منذ أيام مراهقتي المحمومة. وما إن انقضت أسابيع قليلة حتّى كانت رؤيتي لمأساة (آتريو) لكريبيّون[54] جاهزة، وقد عرضناها لأوّل مرّة في السادس عشر من شباط، في مخزن للغلال حولناه إلى مسرح. كان على رأس الممثلين أنطونيو إيرموسيّا، الذي كان آنذاك شابّاً يافعاً مفعماً بالطاقة والنشاط. مع أنّي كتبتُ تلك المأساة، التي تحكي عن مخاطر الاستبداد، بماء الورد، فقد كانت بالغة الجرأة من منظور مجتمع (ماتانثاس)، وكانت بمثابة موجة حرّكت الأفكار، وقد حظي عملي فيها بالكثير من التعليقات، وقرّبتني أكثر من قمّة شهرتي الأدبية، على الرغم من النجاح القليل الذي لقيته على مستوى شباك التذاكر.

في الوقت نفسه كتبتُ عدة قصائد غزلية، وهي من أشدّ ما كتبتُ

54- Prosper Jolyot de Crébillon (1674-1762). مسرحي فرنسي.

حرارة وعاطفة، وأهديتها جميعها إلى حورية (اليوموري)، التي تلقتها في الوقت المحدد. وجهتُ عناية خاصة لدى كتابتي القصيدة التي عنونتها: «إلى لولا، في أيّامها»، وكانت هديتي لها بمناسبة عيد ميلادها السابع عشر والبشير الذي كسر أخيراً حاجز الابتسامات: صارت شعلة آمالي ناراً حين سلّمني أنطونيو بيتانكور، بعد يومين، ملاحظة ظريفة على هيئة مثلث موقعة بحرف (ل): «شكراً، سيّدي. لم أكن أنتظر هدية جميلة كهذه بمناسبة عيد ميلادي. لذلك أعذر لكَ جرأتك، ولك أن تحسبني منذ هذا اليوم صديقتك». وأضافت، في سطر منفرد، أسعد خبر: «آملُ أن أراك لدى عودتي من هافانا».

لا حاجة بي إلى وصف كم كانت طويلة الأسابيع التي مرّت إلى حين عودتها. كنت أكتبُ يوميّاً تقريباً إلى سلفستري وإلى دومنغو طالباً منهما أن يزوداني بأخبار لولا، وإن كنتُ أداري على اهتمامي الغامر بها بتعليقات عن مشاريعنا الأدبية. ذكر لي دومنغو، المتحمس لدخوله الوشيك إلى عالم الصحافة، أنّه ماضٍ، مع ثينترا، وبدعم من ساكو وسانفيليو، في مشروعه لإصدار مجلة ستكون في البداية أدبيّة أكثر منها سياسيّة، لكنّها، بحكم اسمها - الأمريكي الحر- ستخوض في مسائل أكثر عمقاً من تلك التي طالما تحدثنا عنها: لا بدّ - كما قال أصدقائي- من البدء بشدّ الحبل لنرى مدى قوته وتحمّله.

كانت الرسالة التي آلمتني وفاجأتني حقّاً في تلك الأيام هي تلك التي بعث لي بها من المكسيك بلاس دي أوسيس، والتي أطلعني فيها على آخر مستجدات الأحداث في بلده. حكى لي عن تفاصيل خيانة أغوسطين إيتوربيده[55]، الضابط الملكيّ القديم، الذي تحوّل إلى جنرال يدعو إلى الاستقلال، والذي استولى، بتخطيط المرتد وانتهازيته، على السلطة في البلد الجديد ليقيم حكماً استبداديّاً غير متوقع ويعلن نفسه

55- Agustín de Iturbide (1783-1824) عسكري مكسيكي حارب لصالح الملك ثمّ انقلب عليه لصالح استقلال البلاد قبل أن يعلن نفسه إمبراطوراً عليها عام 1822.

إمبراطوراً. كان الوضع في المكسيك من السوء، بعد اثنتي عشرة سنة من الحرب، أنّه يكاد يبعث على الضحك. مع ذلك فقد برزتْ من ذلك المشهد ملاحظة مثيرة للمشاعر: إنّ في مقدور حمّى السلطة، والتطلع إلى المجد، والرغبة في الظهور أن تقود إلى خيانة أسمى المثل وأعدل القضايا، وما إعلان إيتوربيده نفسه إمبراطوراً إلّا مرحلة استبدادية أولى من سلسلة من المراحل الاستبدادية التي سيتحتّم علينا، الشعوب الإسبانية- الأمريكية الجديدة- أن نعاني منها، ودائماً باسم شعارات مخزية من قبيل: «المصلحة العامة» و«من أجل مستقبل أفضل للوطن».

وكان ردّي على ما جرى في المكسيك حادّاً وواضحاً، يفصح عن مبلغ إيماني حينها بالشعر، والذي كنتُ أظنّه، ويا لي من حالم، قادراً على تغيير مجريات الأمور. في تلك الحالة من الثورة والفوران كتبتُ قصيدة «إلى ساكني أناواك»، لتكون صرخة جديدة في وجه الطغيان وفي صالح الديموقراطيّة والحريّة، وأرسلتُها من فوري إلى أوسيس لكي يحاول أن ينشرها في إحدى مجلات هافانا. وسرعان ما وصلني ردّ مقلق من دومنغو، إذ سألني إن كنتُ جننتُ أو إن كنتُ راغباً في أُحمَلَ سجيناً أو أبعدَ منفيّاً، فظهور تلك القصيدة في الصحافة سيعني أنّني أجاهر بنزعتي الاستقلاليّة. ورددتُ عليه أنني كتبتُ القصيدة بقلبي لا بعقلي، وأنني مستعدٌّ لتحمل كلّ التبعات والمخاطر، وكررتُ عليه رغبتي في أن يوصل القصيدة إلى يد قادرة على نشرها وإذاعتها.

مع الصيف عادت لولا وعاد الحبُّ ليكون مركز اهتمامي. أمضيتُ ساعات العصر لأيام عديدة مع سلفستري، الذي جاء لوقت إلى (ماتانثاس)، وذهبتُ معه إلى مرفأ (يوموري)، على أمل لقاء لولا في ذلك المكان المثقل بالفتنة والسحر. وما انفككتُ أترددُ على ذلك المكان حتّى حصل اللقاء عصر يوم أحد، وحين اقتربتُ منها وقبّلتُ يدها، لمستُ من حرارة بشرتها أنّ ما بي بها، وأحسستُ في تلك اللحظة بأنّ حياتي بلغت أخيراً كلّ مداها.

بين تلك القبلة الخجول التي طبعتُها على يدها والقبلة الأولى التي تبادلتْها شفاهنا، فرّطنا كلانا في أيام وأسابيع وأشهر انقضت، وكان لنا أن نكرسها للحب. لم أشأ أن أسرّع الإيقاع العفيف والمثير للسخط الذي يجب على علاقتنا، أن تلتزم به، مراعاة لقواعد الحشمة، وآثرتُ التروّي والانتظار، بينما رحتُ أنفّس عن رغبتي في فراش الخيانة الزوجية مع لويسا مونتِس الممتعة. مع ذلك، كان التجوّل مع لولا بالقرب من النهر ومرافقتها إلى حفلات الرقص، حيث كنّا نتكلّم عن كلّ ما كانت القواعد تجيز لنا الكلام عنه، والسير معها في ساحات المدينة وحدائقها، بل والذهاب بصحبتها إلى المسرح أو إلى بعض الجلسات الأدبية التي كان أصحابها يحرصون على دعوتي إليها، يغمرني بالسعادة لمجرد قربي من تلك المرأة، التي كانت أوّل امرأة تمناها كياني وروحي.

لكنّ الحبّ، حتّى الحبّ، الذي كان يأخذ الكثيرَ من قوتي ووقتي، لم يستطع أن يشغلني عن الاجتماعات والنقاشات السياسيّة، ولم أكفّ عن لقاء أصدقائي المناصرين للاستقلال، ولا سيّما الدكتور إيرنانديث. بدأت المجموعة التي نأتلف فيها للحديث عن تلك الموضوعات والنقاش حولها بتنظيم لقاءات في منزل دون خوسيه تيوربه تولون[56]، وكان يحضرها، فضلاً عن أصدقائي الشقيقين آرانغورين وبيتانكور، العديدُ من الشخصيات، ومن بينهم راهب ثرثار مجنون، دومنيكي مثل والديّ، اسمه فديريكو خينيبرا، كان يتحدث عن إنزال المسيح من صليبه والطواف به في أحياء العبيد العاملين في مزارع (ماتانثاس). كانت تلك الحوارات، التي كنّا نناقش فيها ما يخطر على بالنا، بمثابة دردشات، تعرض في أحيان كثيرة تنوعاً في المعايير إلى درجة أنّنا انتهينا، وبصورة عفوية، إلى تسمية مجالسنا تلك بـ «الدردشة».

في «الدردشة» كنّا متأكدين من وجود عملاء مخبرين للحكومة، لذلك كان الدكتور إيرنانديث يخبرني، في حوارات أخرى أكثر خصوصيّة، أنّ

56– José Teurbe Tolón لم نعثر له على ترجمة مستقلة.

الأحداث لن تلبث أن تتخذ مساراً جديداً. أسرّني، بعد ذلك بقليل، أنّ الكولونيل خوسيه فرانثيسكو ليموس، العائد مؤخراً إلى البلاد، أعاد النشاط إلى محفل «شموس بوليفار» في هافانا، فقد جاء بالتعليمات لإعطاء دفعة أخيرة للانتفاضة، أمّا مركز الحركة فسيكون في المحافل الماسونيّة التي صارت تنتشر في كافة أنحاء الجزيرة تقريباً، ملتئمة في إخوانيتين متوازيتين: «إخوانية السلسلة» و«إخوانية الشموس».

- وأنت، خوسيه ماريّا، هل أنتَ مستعد للانضمام؟

أذكر أنّ الصوت الرقيق الناعم للدكتور إيرنانديث كان يستطيع، بشيء من السحر، أن يبلغ درجة الأمر.

- حضرتك تعلم أنّني مستعد، دكتور.

- وهل تدرك ما تعرّض نفسك إليه، ولدي؟

- أظنّ ذلك...

- قد ننتصر وقد نُهزم، لكن ليس عليك، في الحالتين، أن تنتظر مقابلاً غير جحود الرجال. وقد نموت، قبل ذلك، أو نسجن أو ننفى... فهل ما زلت عند موقفكَ؟- سأل، وحين رآني أهزّ رأسي موافقاً أخذني من ذراعيّ-. فاستعدّ إذن، فسأبعث في طلبك في أيّة ليلة قريبة قادمة. يمكنك أن تخدم استقلال كوبا بأشعارك قدر ما يمكنك أن تخدمها بساعديك.

انتظرتُ بفخر محموم مكالمة الدكتور إيرنانديث، بينما واصلتُ جولاتي مع لولا ونضالاتي مع أوراقي وخصومي وواصلتُ كتابة أشعاري، إلى أن وقع في أيلول من عام 1822 ذاك إعصار ضرب (ماتانثاس) وعصف بحياتي.

أظلمت السماء منذ منتصف النهار، وبدأت ريح دافئة وثقيلة تهبّ في دفقات متقطعة، إلى أن انضمّ المطر إلى الجوقة عند المساء، وصار يهطل سيولاً تجرف الشوارع. مع أولى زخات المطر وصل إلى بيتي الدكتور إيرنانديث وأدخلته أمّي إلى غرفتي بعد أن قدّمتُ له منشفة. كانت ملابسه مبللة لكنّ نظرته كانت تتأجج ناراً. ما إن تبادلنا التحية حتّى

شرح لي سبب زيارته المفاجئة: في ليلة الثاني والعشرين، إن بقي شيء قائماً في المدينة، سينطلق متآمرو محفل «الفرسان العقلاء». الموعد هو العاشرة، في مخزن المؤن العائد لدون مانويل ريّوس، وإن تكتمي، وتكتم بقيّة المبلّغين والمدعوين، أهمّ من حضوري.

حين انصرف الدكتور أحسستُ في صدري بثقل مسؤولية تفوق طاقتي، وأحسستُ أيضاً بسياط الخوف. لقد انصرم عهد الكلمات والقصائد وبدأ عهد الفعل والسلاح، وأحدث قربُ تلك القفزة الحاسمة، التي كنت حتّى ذلك اليوم أراها بعيدة، بل غير محتملة، قلقاً عميقاً تحوّل إلى شعوري بأنّي محبوس بين جدران غرفتي الأربعة. خرجتُ حينها من البيت، كالممسوس، من دون أن أستمع إلى توبيخ أمي ولا إلى توسلات أخواتي.

عصفت الريح الهوجاء بالشوارع، وراحت قطع القرميد والخشب تتطاير. لكنّ حرارة خارجة من قلب الأرض شاعت في الأجواء الملتهبة، بينما كانت السماء، التي اخترقتها سحب مشتتة، تتلألأ بسطوع سقيم. كنتُ أسير مسلّماً الريح قياد طاقتي المحررة، وحملتني خطواتي إلى قدّام بيت حبيبتي لولا، المغلقة غلقاً محكماً كما هو منتظر، لكي أتوجّه من بعدها إلى مرفأ (يوموري) حيث ولد حبّي وترعرع. هناك، وجدتُ ثوراً عملاقاً مربوطاً إلى دعامة، يخور من خوف. بادرتُ من دون تردد وفككتُ وثاقه، ولكي لا تجرفني موجة جديدة عاتية من الريح، تشبثتُ بالدعامة. حاول الثورُ، وقد بات حرّاً طليقاً، أن يجتاز النهر الذي علا منسوبه، لكنّه عاد وبدأ، قريباً جدّاً منّي، بحفر الأرض بقائمتيه القويتين، وكأنّه يريد أن يحفر بهما قبره. شعرتُ، والثور بقربي يصاحبني، أنّ نهاية العالم باتت وشيكة: لقد اختفى الضوء الخافت الذي بزغ قبل قليل في السماء، وانبسط دثار صفيق فوقنا، بينما كانت الريح تزأر، فكأنّ جنوداً من الشياطين تدفعها دفعاً، والمطر يشقق سطح الأرض، ومرفأ (يوموري) الوادع يخرج عن حدوده وأمواج البحر القريب تنط وترامى، مستعدة لمحو ما هو بشري وما هو سماوي. لقد أظهرت لي أمّ الأعاصير القويّة

الجامحة تلك، ومن جديد، مدى ضآلة الإنسان أمام جبروت السماء والطبيعة، وحجم تفاهة الغرور والتكبّر والبروز والتطلع والمخاوف الدنيوية التي نهدر فيها أيامنا نحن الرجال. لكنّ المعجزة الحقيقية وقعت فجأة، فكأنّ ذلك التأكيد المروّع لم يكن كافياً: لقد حلّ الهدوء فجأة، لوقت لا علاقة له بفعل عقارب الساعة ومقياسه، واندفع شعاع من النور النقي الصافي من السماء ليسقط عند قدميّ. توقف الثور عن الحفر، فكأنّ صوتاً من داخله أمره بالتوقف، ورفع بصره إلى السماء المضيئة التي رفعتُ أنا أيضاً بصري إليها. أطلقتْ ذراعاي المتعبتان المهزومتان الدعامة وسقطتُ على ركبتيّ أمام النور، بينما أحسستُ بدموع ساخنة تنهمر على وجهي المبلل بالمطر. هل كان ذلك حلم شاعر أم كابوس رجل مرهق في بدنه؟ هل كانت قناعة بأنّ حياتي ستتغير جذريّاً أم هلوسة ناتجة عن الخوف؟ أم كان وجه الرب حقّاً هو ما رأيتُه أمامي، في جزء من اللحظة، مع ذلك البريق النجمي، قبل أن يعود المطر والريح والسحب المشتتة في انفجار مروّع، وأرى، بأم عيني، الثور العملاق يطير، مرفوعاً كالريشة الخفيفة المرميّة نحو مهاوي المحيطات؟ لماذا الحيوان الثقيل البريء ولستُ أنا؟... ما زلتُ إلى اليوم، وأنا أستذكر أيام حياتي، لا أعلم إن كنتُ أصبتُ في تلك الليلة الرهيبة بهلوسة أم إنّي اصطفيت لكي أشهد واحداً من معجزات ربنا التي لا يحيط بها علمٌ ولا يُسبر لها غور.

***

مع أنّ حياة فرناندو تيرّي سلكتْ دروباً متعرجة منذ ذلك الصباح الذي استدعاه فيه رجل الأمن رامون إلى مكتب الجامعة، فقد أخطأ حين ظنّ، وهو يستمع إلى مدير مجلة (تابا كوبا)، الذي كان يكلمه والسيجارة في فمه، أنّه يشهد أعظم مواقف الإذلال، مع ذلك، فقد تقبّل الأمر وهو ساكت واستبعد أيّة فكرة للردّ، بعد أن قرر أن يثبت أنّه ليس الرجلَ الذي يبحث عن عقوبة إدارية.

كان فرناندو قد وصل إلى المجلة يحدوه الأمل في العودة إلى

عمله السابق فيها. كان قد غاب شهراً كاملاً عن المطبعة، بسبب تمزّق في عضلات ظهره نتج عن محاولته الإمساك بلفة من الورق سقطت بينما كان يحاول تركيبها على ماكنة الطبع الدوّارة. حين انتهت الإجازة المرضيّة، التي استغلّها للمطالعة ولكتابة بضع قصائد، عاد إلى المطبعة، حيث استدعاه المدير المناوب ليبلغه بخبر سعيد: يبدو أنّ مكانه قد تغيّر، فقد قرروا إرساله للعمل في مجلة، وعانقه وهو يقول له إنّه مسرور أن تعرّف على رجل مثله. وفي مكتب مدير الأفراد تسلّم فرناندو فرحاً الأمر بنقله إلى مجلة (تابا كوبا) والتحاقه فوراً بمكان عمله الجديد.

استقبله الخلاسي مدير النشر، وهو مدير سابق لمزرعة للتبغ أصبح في وقت من الأوقات «طليعيّاً وطنيّاً في المنافسة الاشتراكية»، وكان حازما ودقيقاً معه: الوظيفة الوحيدة المتوفرة هي وظيفة مصحح، وإن هم وافقوا على أن يعمل معهم فلأنّ أحداً أرسل به إليهم، لكنّهم سيرمون به كما يرمى بالكرة في فتحة منضدة البليارد عند أدنى زلّة وأتفه سبب: فما أكثر مشاكلهم لكي يتلقوا فوقها أناساً تغطي أضابيرهم أطنان من الخراء. وهكذا فهو يعرف مقدماً الباب الذي يخرج منه، بل إنّه، تيودورو ثالديبار، يهديه نصف البيزو الذي هو ثمن تذكرة الباص...

ومع أنّه التزم منذ البداية نوعاً من التسليم المسيحي، الذي ما كان يتماشى وإلحاده الداخلي، وحاول أن ينظر إلى الجانب المشرق من عمله الجديد، فقد توارى عنه ذلك الجانب المشرق ثمّ اختفى ولم يظهر، حتّى انتهى كلّ شيء على نحو مخجل ومدمّر. لقد نبّه المدير، وكان تنبيهه واضحاً: ليس عليه إلّا أن يراجع ألواح الطباعة، لتصحيح الأخطاء المطبعيّة والإملائية ومعالجة حالات الخلط بين الحروف فحسب، ممّا يعني أنّ عليه أن يجترّ مقالات ومقابلات حول زراعة التبغ وإنتاجه، مزروعة بالأمنيات أكثر منها بالوقائع، ومضطربة في كتابتها، أربع مرات أو خمساً... أمّا العقوبة المميّزة المنتخبة المنتقاة التي أخضع لها فكانت البقاء ثماني ساعات في مكتب التحرير، حتى لو انتهى من عمله قبل ذلك بألف ساعة.

عاش الأشهر الأولى من عمله الجديد في توتر شديد، في حرب دائمة مع الأغلاط والأخطاء الإملائية. مع ذلك، ولكي يبيّن اهتمامه بعمله، فقد بدأ باستثمار ساعات فراغه بإعداد تقرير مفصّل إلى المدير، هدفه التقدم باقتراح لوضع قواعد أحدث وأنسب للتحرير والتصميم والطباعة.

كان شعور فرناندو بالإنهاك، حين عودته إلى بيته، يفوق ما كان عليه تعبه أيام عمله في المطبعة، حيث كان ينفق عشر ساعات في المصعد وفي عمل كلّ ما هو ضروري، وذهنه مركز في المكافآت النقابيّة لأفضل عامل في الشهر وفي الفصل وفي نصف السنة وفي السنة، وحتّى في الشهادة التقديرية للعامل المتميّز في القرن، إن هم قرروا يوماً ما منح تلك الشهادة الرفيعة. أمّا الإرهاق الذي يصيبه الآن فهو إرهاق ذهني، يسبب له ضيقاً يسري في أنحاء جسمه ويجبره على ملازمة بيته والجلوس في الشرفة أو مشاهدة أحد برامج التلفزيون إلى أن يغلبه التعب. حينئذٍ تصل أسوأ لحظات يومه: كان النوم يطير من عينيه ما أن يلقي بنفسه على السرير. لجأ أولاً إلى شرب نقيع (التيلا) الذي تعدّه له كارميلا، وإلى تمارين الاسترخاء ثم إلى حبوب كانت تمنحه نوماً مضطرباً يحلم خلاله بألواح الطباعة والأخطاء المطبعية وبالسجائر وهي تتراقص أمامه.

في الشهر السابع من العمل في المجلة، أنهى فرناندو دراسة وافية مفصلة تفيض موضوعيّة، وطلب، عن طريق مديرة المكتب، مقابلة مع المدير، بعد أن أرفق دراسته بتقرير مطبوع على الآلة الكاتبة، بنسخة أصليّة ونسختين مطابقتين تامتين. لم يقدّم في تلك الدراسة انتقادات بل مقترحات يقوّم فيها ويقترح ويبيّن، بحذر، أنّ في الإمكان تحسين تصميم المطبوع وتحريره، ويثبت، ظنّ، الاهتمام الذي يوليه لعمله. وفضّل، من باب قلة الثقة، ألّا يخبر محرر المجلّة ولا مصممها بالتقرير، فما كان يعلم به غير عاملة التنظيف، وهي امرأة بدينة وبطيئة الفهم، يلقبونها «كوتشين»، وقد وهبتها الحياة القدرة على إعداد قهوة فاخرة، والتي كان بسببها على وشك أن يتضارب مع المصمم حين حاول هذا

ذات مرّة أن يجبر المسكينة، في مستودع أدوات التنظيف، على أن تحشر قضيبه في فمها. منذ ذلك اليوم أصبحت كوتشين حليفته وصار فرناندو يحظى بامتياز تناول أوّل فنجان من قهوتها.

حدّد المدير، الذي كان يمرّ مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيّاً مروراً خاطفاً بالتحرير، الموعد بعد ثلاثة أيام، الجمعة عند السادسة مساءً. انتظر فرناندو بقلق موعد اللقاء. وعلى الرغم من أن عمله ينتهي الساعة الخامسة فقد انتظر بانضباط حتّى السادسة والنصف. حين رأى المدير يصل، بطيئاً ومبتسماً، وحين سمعه يقول له: «عجباً، أيّها الكادر، لقد فاتني أن مصححي النجم في انتظاري»، أدرك أنّ الرجل كان في جلسة شرب. حتى ذلك اليوم، لم يسمع منه عبارة: «صباح الخير» إلّا في مرات معدودة تصادفت مع توجيهات تتصل بالعمل.

- هيّا، أيّها الكادر، ادخل من هنا - قال له حين دخل مكتبه، حيث أحدث فيه جهاز التكييف، الذي لا يعرف التوقف، رعشة-. انظر كم الساعة الآن وما زال هذا يعمل...

بحث الرجل عن أفضل سيجار في علبة من الخشب الثمين، زوّدت بمنظم للرطوبة ولصق في زواياها شريط فضّي. وعثر أخيراً على السيجار الذي بدا له مناسباً: سيجار كورونا كبير، بنيّ اللون برّاق من دون عروق. وضعه في فمه بينما صبّ لنفسه فنجان قهوة من إبريق موضوع على طاولة ملحقة. لم ينتظر فرناندو منه أن يدعوه لتناول القهوة معه. قطع المدير، المنشغل بنفسه، نهاية السيجار بمقصلة، وتفحّص بعناية نتيجة قصّته. أعاد السيجار إلى فمه وأشعله بعود ثقاب طويل من خشب الأرز. وحين كان على وشك أن يجلس، أوقفه شيء ما.

- انتظر لحظة، أيّها الكادر، سأذهب إلى الحمّام...

خرج المدير من مكتبه فاقترب فرناندو من علبة السيجار ورفع غطاءها. في الوجه الداخلي، المحفور على الخشب، قرأ اسم المالك الأصلي لتحفة النجارة تلك، ولم يستغرب أن تذكّر أنّ ذلك الاسم،

الذي ضاع من ذاكرة البلد، كان، في وقت من الأوقات، يساوي ملايين البيزوات، التي استثمرت في معامل السكر ومزارع التبغ. ثمّ نظر إلى الأضابير الثلاث التي تضمّ تقريره وأحسّ برغبة شديدة في البكاء.

مرّت عشر دقائق، وعاد المدير، لكنّه عاد برفقة المسؤول، الذي رمق فرناندو بنظرة من يشاهد حيوان خلد الماء، وجلس، من دون أن ينطق بكلمة من فمه الذي تنبعث منه دائماً رائحة التبغ الكريهة.

- اشرح لنا مقترحك، أيّها الكادر.

كاد فرناندو أن يخترع أيّ عذر آخر ليبرر الاجتماع: إنّه يحتاج إلى إجازة، إنّه مقبل على إجراء عمليّة في القلب، إنّه يموت من النعاس، لكنّه قرر أن يمضي قدماً في ما عزم.

- كنتُ أريد أن أقدّم لحضرتك هذا... تقريراً...

- تقرير؟ - دهش المسؤول.

- تقريراً خاصّاً بالتحرير- واصل فرناندو الكلام-. قمتُ بعمل دراسة لعمل المجلة وأقترح عليك إمكانية القيام ببعض التغييرات في التصميم والأسلوب والطباعة، وأشياء من هذا القبيل، بهدف تحسين نوعيّة المجلة.

نظر المدير إلى المسؤول، بينما كان يمصّ سيجاره. ونظر الخلاسي إلى فرناندو وسأله:

- وهل تبدو لك المجلة سيئة؟

- لا، ليس الأمر هكذا، الأمر هو أنّ...

- اترك التقرير هناك، أيّها الكادر- قاطعه المدير وانحنى على كرسيه الدوّار-. من الجيد أن تهتمّ بتحسين نوعيّة المجلة. هذا يعجبني - ونظر إلى المسؤول-. هكذا يجب أن يكون الناس، ثالديبار، مهتمين بعملهم. لكنّ الموضوع، أيّها الكادر - حوّل وجهة عينيه إلى فرناندو-، هو أنّ ذلك ليس عملك: عملك هو ألواح الطباعة والأخطاء، وأعتقد أنّ الرفيق ثالديبار شرح لك الأمر جيداً، أليس كذلك؟

- بلى، لقد قلتُ له ذلك - اعترض ثالديبار وعضّ بقوّة على سيجاره.

- هل يمكنني الانصراف؟ - همهم فرناندو، وهو يشك في قدرته على الوقوف على قدميه. لم يشعر بأنّ قدميه ترتعشان، بل أحسّ بهما غير موجودتين، وفكّر في أنّ الخروج زحفاً من ذلك المكتب ليس بالطريقة الذليلة كثيراً على شخص مثله، بعد أن تحوّل إلى زاحف ذليل ذي بطن رطبة تخطر على باله أفكار عبقرية من مثل عمل تقارير.

- نعم، انصرف (بالبرتغالية) - قال المدير بالصيغة التي اعتاد استعمالها لكي يذكّر الجميع بأنّه شارك في حرب أنغولا، حيث تعلّم أن يقول: «ظلّ وحده»، «ذهب»، و«أنت مجنون»، وبأنّه أطلق النار أكثر من سواه من فرقة القائد ماتشو كوخونِس وقتل من السود من أتباع جبهة يونيتا[57] أكثر من غيره.

وضع فرناندو الأضابير على المكتب واعتمد على مسندي الكرسي ليقف على قدميه. خطا نحو الباب حين عاود سماع صوت المدير.

- هل تعلم، أيّها الكادر، مَن هو أشدّ المعجبين بالمجلة؟ إنّه الرفيق الوزير. ألا يبدو لك أن من الجنون أن نقول للرفيق الوزير بأننا سنغيّر المجلة لأنّ عبقريّاً يعمل عندنا يقول بأنّ المجلة خراء؟ انظر، أيّها الكادر، أنا أراك في وضع صعب، بل ميئوس منه.

- هل يمكنني الانصراف؟ - عاود السؤال، وعيناه في الأرض.

- نعم، قلتُ لك نعم، انصرف، انصرف (بالبرتغالية)...

كان من حسن حظه أنّه لم يعلّق بشيء، وإلّا لطرد طرد الكلاب. حين خرج من المكتب أصابته حرارة الطقس والخجل بالغثيان. وأخيراً خرج إلى الشارع، حيث بدأ الظلام يحلّ. استند إلى الحائط الذي علّقت عليه لوحة برّاقة تعلن عن «مجلّة تابا كوبا». نظر إلى جانبي الجادة القديمة وكأنّه يبحث عن مكانه. وبينما غرق جسمه بالعرق، تراجع شعوره

57- UNITA أو الاتحاد الوطني لاستقلال كامل أنغولا.

بالغثيان واستعادت ساقاه قدرتهما على المشي وتذكّر أنّه موجود في شارع الملكة القديم، وهو الشارع ذاته الذي وسّعه وحدّثه قبل قرن ونصف الطاغية ميغيل تاكون[58] الذي كان لخوسيه ماريا هيريديا معه لقاء مذلّ كالذي كان له هو مع المدير، مع فارق أنّ هيريديا كان شاعراً كبيراً وتاكون كان عبقريّاً من عباقرة الطغيان.

نزل من شارع الملكة واتجه صوب حديقة (لا فراترنيداد) هائماً على وجهه. وجد في طريقه مقهى فطلب فيه قهوة مضاعفة واشترى علبة سجائر. كانت الأفكار تغلي في رأسه، لكنّ شيئاً ما بدأ يتضح: إنّه لن يقدر على النظر ثانية في وجه المدير. قد يتحمّل العيش وهو ينوء بثقل الإهانة التي لحقت به، وقد يستطيع أن يعزّي نفسه بالقول بأنّه كان المذنب الرئيس في كلّ ما حدث من أمور غريبة، بل كان في مقدوره أن يصالح النوم من دون حبوب منومة، لكنّ ما لن يستطيع فعله هو معاودة النظر في ذلك الوجه وسماعه وهو يقول: «أيّها الكادر». كلا. إطلاقاً. قد يكون ثمن قراره غالياً، فهو لن يستطيع أن يظلّ من دون عمل، وحتى لو تكفّلت أمّه بإعالته، فإنّه يعرّض نفسه إلى مخاطر أكبر، إلى قوانين قديمة ضد التشرّد وأخرى جديدة ضد المجازفة، وهو إن ترك الطريق الذي رسمه «أحدٌ ما» لكي يولد من جديد، فربّما لن يتسلّم الرسالة أو التبليغ أو الحكم الصريح الذي ما زال ينتظره، وستضيع عليه فرصة العودة إلى الجامعة. ولكن، فكّر، إذا كان طريق خلاصه لا يمرّ إلّا عبر تلك المجلة، فإن من الخير له، بوصفه هندياً هاتويّاً[59] جديداً، أن يموت في المحرقة ويظلّ في الجحيم.

اجتاز حديقة (الكابيتول) على غير هدى، واخترق الحديقة المركزيّة،

58- Miguel Tacón (1775-1855) عسكري إسباني تولى منصب الحاكم العام في كوبا وأجرى إصلاحات كثيرة فيها قبل أن يعود إلى مدريد ليشغل مقعداً في مجلس الشيوخ.

59- نسبة إلى هاتوي Hatuey الذي كان زعيماً من زعماء التاينو، وهي من قبائل الأراواك التي سكنت جزر الكاريبي والتي قاومت المستعمرين الإسبان.

وحين ولج بوابات مركز هافانا الأستوري القديم، الصدفة دائماً وأبداً، شاهده مستنداً على عمود، يتكلّم مع شاب يافع يرتدي بدلة طالب مبعوث. كان قد مرّ أكثر من عام من دون أن يراه، ولم يخطر ببال فرناندو أنّ تلك ستكون المرة الأخيرة التي سيراه فيها، لكي يبدأ بعد ذلك بسؤال نفسه: هل قتلتُه أنا؟ هل دفعتُ به تحت عجلات الشاحنة؟

بدا إنريكه أشد نحافة مما كان عليه حين خرج من المزرعة الجماعية، كان أصلع تقريباً وقد تحولت النقاط الحمر في وجهه إلى بقع غامقة منتفخة. بدا بأعوامه الثلاثين منهكاً هامداً، فلم يبقَ فيه إلّا صدى من ذلك الشاب الذي كان يشعّ تميّزاً وطاقة إيجابيّة. ومن دون تفكّر في ما يفعل، توقف فرناندو لينظر إليه، شاعراً بالراحة، ربّما، لرؤية من لحقت به هزيمة أشدّ من الهزيمة التي لحقت به، حتّى إنّ إنريكه أدار رأسه حين أحسّ بأنه مراقب. وانتهز الطالب المبعوث، وقد أثار وجود الغريب توتره، انشغال إنريكه ليبتعد، ربّما خشية أن يكون فرناندو عاشقاً غيوراً.

- هل أضعتُ عليكَ صيدكَ؟ - سأله وهو يقترب.

- يبدو هكذا - اعترف الآخر وأشعل سيجارة.

- كيف حالكَ؟

- ألا ترى؟ وأنت؟

كان فرناندو على وشك أن يقول إنّه على ما يرام. ولو أنّه أخبره بتلك الكذبة، فهل كان كلّ شيء سيجري بطريقة مختلفة، ربّما؟

- وقع لي للتوّ أفظع شيء في حياتي...

- وقع لك ماذا...؟ هل تريد أن نتكلم برهة؟ هيّا بنا، ربّما نجد شراباً.

كان البار الذي دخلوا إليه يغصّ بمرتاديه من العمّال المكلفين باصطياد الكلاب السائبة، وكان في اسمه من الكراهية أكثر ممّا فيه من الخيال: «مزرعة الموز». بلا ثلج ولا مرطّبات، رون سادة، وفي أقداح من الألمنيوم. كان من حسن الحظ أنّ صاحب البار يسمح للشاربين بالخروج إلى الشارع مع الكؤوس. جلسا، وفي يد كلّ منهما جرعة

مضاعفة من ذلك الشراب، عند باب مخزن للشراب مغلق كانت الجرذان تطل برؤوسها من داخله لتراقب حركة المارّة.

بعد ثلاث كؤوس مضاعفة، حكى فرناندو لإنريكه ما جرى له خلال السنوات الأخيرة، وغمره بيأسه وخجله وبقراره حول عدم العودة إلى عمله مهما حدث. تركه إنريكه يفرّغ شحنته ووعده أنّه سيحكي له ذات يوم قصته.

- أنتَ ما زلتَ تنتظر شيئاً، فرناندو، أمّا أنا فلم يبقَ لي غير هذا - وأشار إلى الشوارع الكريهة القذرة التي فقدت ألوانها، خصوصاً في تلك الأنحاء من المدينة-. إن أمسكوا بي محاولاً الصعود ثانية في مركب فقد يزجون بي في السجن لا أدري كم من السنين. إن قدمت كتاباً إلى دار للنشر وتعرفوا على هويتي فلن يوافقوا على نشره. لن يسلموني وظيفة لها علاقة بما درسناه. فأنا الذي لا يمتلك قاعدة أنسحبُ إليها ولا روحَ الشهيد، لا أنت. ثمّ إنّي مخنّث، وما عدتُ أداري صفتي هذه... أنا أسير بين أربعة جدران في هذه الجزيرة. وأعتقد أنّني بعد كلّ هذا أستحق ما جرى لي: «الكوميديا السوداء» التي كتبتها لها علاقة بجزيرة ضائعة ليس لأحد أن يخرجِ منها. أليس هذا طريفاً؟ ما أكثر ما لهوتَ مع الأدب لينتهي الأمر به منتقماً منكَ. أما زلتَ تظنّ أنّني المسؤول عن كلّ ما جرى لك؟

- ما عاد هذا يهمّني...- قال فرناندو: حين تقع في الحفرة فلن يعود مجزياً أن تخرج منها متشبثاً بإلقاء الذنب على آخرين أو بحجج أو اعتذارات تطيب خاطرك وتعيد اعتبارك.

- بالطبع تهمّ، فرناندو، لأنّ الحياة سددتْ لك صفعة قوية. انظر، أنا لا أعلم ماذا أستطيع أن أفعله لأقنعك بأنّني لم أتهمك بشيء. الشرطة التي استجوبتنا تعلم بكلّ شيء. أنا لا أستطيع إلّا أن أعطيك كلمتي، وإن كنتُ أعلم أنّك لا تثق بكلمة مخنّث.

- لا علاقة لهذا بـ...

- بلى لها علاقة، لأنّك صرختَ في وجهي يوم كنتُ في بيتك و...

لأنّي سمعتُ التسجيل الذي عمله لك رجل الأمن رامون، وأنتَ قلتَ له إنّني مخنّث، وبأنّ ما حدث كان من سفالاتي...

- ابن القحبة ذاك...؟

- ذلك كان عمله وقد أدّاه جيداً. هو شوّش تفكيرك فتطوعتَ لقول ما أرادوا هم سماعه منك. لكن لاحظ أنّه لم يُسمعك أيّ تسجيل لي.

شعر فرناندو بالخجل يأكله ويمنعه من النظر إلى إنريكه: ليس لشعور بالعار من أنّه نكّل بأحد، بل من أنّه تصرّف بحقارة ولؤم واتهم بريئاً. أدرك أنّ الاعتذارات لن تجدي نفعاً، بينما رتّب في رأسه أحجية ما عاد لإنريكه فيها دور ولا مكان.

- لكن، من عساه يكون إذن؟

ابتسم إنريكه لأوّل مرة. وضع على الأرض القذرة كأسه المعدنية وفتح يديه، وكأنه يلعب ورقاً.

- أمامك أن تختار بين كونرادو وآلبارو وفيكتور وميغيل أنخل وتوماس وأركاديو... لكن هل تعلم ما هو الأسوأ؟

- وهل هناك ما هو أسوأ؟

- طبعاً. على الأقل في نظري. منذ ثلاث سنوات وأنتَ تظنّ بي الظنون. وما لم تعرف الحقيقة فسيظل الشك مقيماً في رأسك. ستفكر فيّ دائماً. وليس من المريح أن تعيش هكذا، بذنب لم يكن ذنبي، لكنّه في حقيقة الأمر ذنبي، لأنّي لو لم أركب في ذلك اللانش لما حدث الأمر الآخر، أليس كذلك؟ لقد فكّرت ألف مرّة، لكنّي أقسم لك بروح أمّي إنّي لم أحسب أنّني بذلك سألحق الضرر بأحد، وخصوصاً أنتَ.

- لا داعي لهذا الكلام، فليس له معنى.

- بلى له معنى، لأنّ ما فعلوه بك اليوم أسوأ من كلّ ما مررتُ به في المزرعة، وأنت لا تتصور ما مررتُ به... أمّا أنتَ فقد اغتصبوك اليوم وستحمل هذا الخراء في داخلك لما تبقّى من حياتك. ومع أنّي لم أتهمك بشيء، فالذنب في ذلك كلّه ما زال يقع عليّ، أليس كذلك؟...

بعد أربعة أشهر، حين تلقى خبر أنّ شاحنة من نوع KP3 دهست إنريكه في جادة المرفأ، كان لفرناندو أسبابه وهو يسأل نفسه: هل كان من الضروري أن يموت هو؟ هل قتلتُه أنا؟ هل دفعتُ به تحت عجلات تلك الشاحنة؟

***

لحظة عصّبوا أعيننا اختفت الرعشة من ساقيّ، وتقدمتُ حافياً وهادئاً، يقتادونني من ذراعيّ، نحو داخل المكان، وأنا على وعي من أنّني أقدم على أخطر الخطوات في حياتي. لكنّي سرتُ بلا وجل ولا خوف، بل كنتُ مبتهجاً بشكل من الأشكال. قريباً منّي كان ما يقرب من عشرين رجلاً، معصوبي العيون أيضاً، من شتّى الأعمار، وكنتُ أعرفُ بعضهم لأنّهم كانوا يشاركون في «الدردشة»، وأعرف الآخرين لأنّهم من سكان المدينة. فكم منهم كان يشعر بالسكينة المبهجة التي كنتُ في تلك اللحظة أشعر بها؟ وكم منهم كان يشعر بالخوف والتردد والرغبة في أن يكون بعيداً عن ذلك المكان؟ ومن سيكون الخائن القادم في بلد لكلّ عمل سريّ فيه وشاية تقابله؟

عند الباب استقبلنا الدكتور إيرنانديث، وفوجئت بوجود الكاهن فديريكو خينيبرا أيضاً، الذي كنتُ أظنّه قادراً على فعل الكثير من الأشياء، لكنّي لم أتصوّره منخرطاً في أحداث تلك المغامرة البعيدة كلّ البعد عن منابر الواعظين وصلوات المؤمنين. كان الدكتور يكرر على كلّ واحد منهم بحسب دور وصوله السؤال ذاته: وأجبنا جميعاً بأنّنا راغبون في السير قدماً في ما بدأناه. بعد ذلك، وفي قسم ملحق بالمخزن، حيث كان علينا أن نخلع ملابسنا باستثناء القميص والبنطلون، انتظر الدكتور والكاهن وصول بعض المتخلفين، ثمّ عُصّبت أعيننا واقتادونا للشروع في المراسم الاحتفاليّة.

علا وقع خطوات قويّة، لها صوت جلد يابس، طافت في المكان الحار فكأنّها تستكشفه. ثمّ سمعنا قرعَ معادن، ثم سكونَ صمت متوتر، كسره من بعدُ صوت آمر.

- انزعوا عنهم قمصانهم!

خطوات جاءت من زوايا مختلفة، اقتربت منّا، وأمسكت يدٌ حديدية بأزرار أفضل قمصاني لتتركه ينزل على وركيّ. ثمّ عاودت الخطوات الابتعاد بعد أن نفّذت الأمر.

- أيّها السادة - جلجل الصوتُ الذي سمعناه من قبل-، هذه مراسيم حفل سرّي، فليس مسموحاً أن تذيعوا شيئاً مما يُقال أو يُرى هنا. الخيانة قد تودي بحياة أشخاص كثيرين. أسألكم للمرة الأخيرة: هل بينكم من يريد الانسحاب؟ من أراد الانسحاب فليرفع يده اليسرى.

عاد الصمت، ثم عاد، بعد قليل، وقع الخطوات: تقترب، تتوقف قبل أن تصل إلى حيث أنا ثم تتراجع.

- هل من شخص آخر؟ - سأل الصوت وعاد الصمتُ المطبق، ثمّ سُمع أمرٌ جديد-: الإخوان، خلف المبتدئين.

أحسستُ بخطوات عدة رجال، وشعرتُ بأحد يقف ورائي، وازداد حضوره وضوحاً حين بلغت حرارة أنفاسه رقبتي. بدأ العرق يبلل عصابة عيوني.

- هذه الليلة، إخوتي الأعزاء، سنبدأ العمل في هذا المحفل الذي أسميناه «الفرسان العقلاء» مع واحد وعشرين عضواً، سيحملون اعتباراً من هذا اليوم الدرجة الأولى من درجات «الشعاع»، والذين انضمّوا طائعين مختارين إلى كفاحنا من أجل استقلال الجزيرة، وهي المعركة التي لن تنتهي إلّا بإقامة جمهورية (كوباناكان) الحرّة الديموقراطيّة - وتوقف الصوت-. سيقسمون على الولاء للقضية والحفاظ على أسرارنا. سيقسمون على الاستعداد للكفاح من أجل كوبا ومن أجل أمريكا جمعاء. سيكونون جزءاً من حركة «شعاعات بوليفار وشموسه». ارفعوا العصابات عن أعينهم!

رفعت يدان العصابة عن عينيّ لكي تريا مبهورتين المشهد الاحتفالي المهيب: عشرات من الشموع، مرتبة على الأرضيّة، تشيع نوراً خاصّاً

في الصالة الفسيحة، ذات السقف المرتفع، والمغلقة إغلاقاً تامّاً. في الوسط، قدّامنا، فرشة من السيوف البرّاقة موجهة نحو صدورنا. خلف السيوف، بين خمس شموع مرتبة على شكل نجمة، وُضعَ مجلّد ضخم خمّنتُ أنّه الكتاب المقدس، محفوفاً بفرجار وشاقول وكوس وجمجمة بشريّة. وبعيداً عن الكتاب، وقف رجل نحيف عابس الوجه، ذو نظرة مرتابة مستفهمة، يرتدي بدلة مثقلة بالأشرطة والميداليات والحبال، وحزاماً عريضاً من الجلد يتدلى منه سيف ذو مقبض مذهّب وقراب مطلي بالذهب. عُلّق وراءه، على الجدار الخلفي، علم أزرق، رسمت عليه شمس حمراء بازغة ينطلق منها ستة عشر خيطاً من شعاع أصفر، تنتشر نحو الطرف العلوي من القماش.

- اسمي خوسيه فرانثيسكو ليموس - قال الرجل العابس، صاحب الصوت الوحيد الذي سمعه حتى تلك الساعة-. أنا كولونيل جيوش المحرّر سيمون بوليفار، وأنا، بأمر منه، الجنرال الأعظم لجيش جمهورية (كوباناكان). وأنا، هنا معكم، «الشمس العظمى» لحركتنا. وبوصفي هذا فقد عيّنتُ الإخوان دون مانويل مادروغا ودون خوسيه تيوربه تولون والدكتور خوان خوسيه إيرنانديث «شموساً أولى» لإخوانيّة «الفرسان العقلاء».

من وراء ظهورنا خرج المذكورون، وهم يرتدون بدلة تشبه تلك التي كان يرتديها ليموس، لكنّها أقلّ زينة ونياشين. تابعتُ سيرهم بنظري، وبينما وجدتُ الرتبة الممنوحة للدكتور إيرنانديث وبتيوربه تولون متوقعة مستحقة، فقد فوجئت بأن تمنح لدون مانويل مادروغا، قائد المليشيات الوطنية، والذي كنتُ أرى فيه شخصاً موالياً للنظام. كشف الرجال الثلاثة عن وجوههم بعد أن اصطفوا أمام القائد الأعظم، واستلّ الأربعة في وقت واحد سيوفهم ووجهوها نحو الكتاب المقدس. ثمّ تماسكت أيديهم وشرع ليموس يقول:

- يمكن للحلقة الواحدة أن تكون قويّة، لكنّها لن تبلغ أيّ هدف. ولكي نمدّ الخط الذي نحتاجه، فالسبيل الوحيد الفعّال هو السلسلة،

شرط أن تكون سلسلة برهنت على قوّة كلّ واحدة من حلقاتها. نحن سنكون تلك السلسلة، وسنعمل على الوصول إلى هدفنا. مهمتنا الأولى اليوم هي مدّ سلسلة في أرجاء الجزيرة، وغداً سيكون الشروع في المعركة الحاسمة. كلّ من قبل منكم برتبة «شعاع» سيبلغ رتبة «الشموس» العليا حين يكون قد قدّم الدليل على الحب والولاء للإخوانيّة، وكسب لصفها سبعة «شعاعات» جديدة.

وصاح حملة «الشمس الأولى» الأربعة بصوت واحد:

- اتحاد! صمود! شجاعة!

اليوم، وبعد عشرين سنة تقريباً من ذلك الحفل المهيب، الذي أقسمنا فيه، والسيف في أيدينا، على الدفاع، بل والموت، في سبيل استقلال أمريكا، ما زالت تتردد في صدري أصداء التأثر الذي غمرني. وتنفستُ فخوراً، فقد اجتزتُ أخيراً الحدود النارية لما يمكننا عمله، الحدود التي كلّمنا عنها الأب باريلا، وعبرتُ إلى عالم من المخاطر، كنتُ الوحيد الذي عبر إليه من بين جميع أصدقائي الكُتّاب. ولا أشعر بالخجل من الاعتراف بأنّني شعرت بالتفوق.

كانت إحدى القرارات الأولى التي اتخذتها في تلك الليلة هو أن تنضمّ جميع الشعاعات الجديدة، ومن سيلتحق قريباً بسلسلة الأخوّة، ومن دون تأخير، بسلك المليشيات الوطنيّة للمدينة لاستغلال التدريب العسكري الذي سيخضعنا له التاج الإسباني الذي سيتحتّم علينا أن نكافحه. وهكذا صرنا نحضر كلّ أسبوع، ببدلات عسكرية جديدة زاهية، وتحت ذريعة الاستعداد للدفاع عن الدستور، إلى ميدان شبيه بحقول مارس[60]، في حيّ (فيرساي) الجديد، حيث اكتشفنا أسرار الأسلحة الناريّة وألفنا ثقل السيوف القتالية. وقبل أن تنقضي السنة، كنتُ قد كسبتُ ضمن فوج التدريب ستة رجال وضممتهم إلى حظيرة المؤامرة، واستطعتُ بفضلهم أن أترقّع إلى مرتبة «الشمس» العليا. كان بين تلامذتي أصدقائي القدامى

60- Champ de Mars ميدان مارس وهو مساحة خضراء واسعة تقع في باريس.

خوان وبابلو آرانغورين ونسيبهم أنطونيو بيتانكور، وقد أثبت هذا الأخير فيْ التدريبات أنّه أكثرنا مهارة في استعمال أدوات الحرب.

وجدت أن من الصعب عليّ، بل من المستحيل، أن أكتم سرّ انتمائي الجديد والخطير. كان الزهو الذي غمرني بعد أن انخرطتُ في أول مغامرة كبيرة لتحرير الجزيرة، بعد أن تعاطفتُ معها شاعراً، ثمّ شاركتُ فيها جنديّاً مقاتلاً، يحول دون أن أتكتم على ذلك الانتماء القادر على الدفع بيّ إلى أوليمبوس الشعراء المحاربين، الذي كنتُ أؤمن آنذاك بوجوده. أمّا أوّل من أسررتُ له بذلك فكانت بالطبع حبيبتي لولا، مساء يوم أحد لن أنساه، حين صعدنا على ظهر مركب صغير سار بنا في نهر (يوموري) الهادئ ووصل بنا إلى أعالٍ لم نصل إليها يوماً من أيام جولاتنا.

أتذكّر - وأنّى لي أن أنسى! - أنّ كانون الأول كان في نهايته لكنّ بعض الدفء ما زال موجوداً، والشمس تنعكس على التيّار. كنتُ قد سافرتُ قبل أيام قليلة إلى هافانا في رفقة تانكو لحضور تأسيس «الأمريكي الحرّ»، المجلة الجديدة التي نشرها دومنغو وثينترا، ولحمل نسخ من كتاب «شذرات قليلة من ثورة المكسيك: من صرخة إيغوالا حتّى صعود إيتوربيده إمبراطوراً» الناري، الذي ظهر تحت اسم مؤلف مستعار، «أمريكي حقيقي»، والذي ظهرت في صفحاته الأخيرة، من دون توقيع أيضاً، قصيدتي «إلى أهل أناواك»، التي كان دومنغو قد أوصلها إلى بيثنته روكافويرته، أحد ناشري الكتاب.

لسبب غريب علم جميع من يعرفني في العاصمة بأنّني أنا مؤلف تلك الأبيات الوطنيّة التي كانت تحمّس المكسيكيين على إسقاط دكتاتوريّة الإمبراطور. لقد حملني غروري الأعمى على الظنّ أنّ ذلك قد يكون ضريبة الشهرة، فقد قدّرتُ بأنّ مردّ ذلك هو طريقتي المتميزة في الكتابة، أو تفكيري السياسي الميّال إلى الاستقلال. مع ذلك، لم أتجرأ، آنذاك، على الاعتراف للأصدقاء، ولا لدومنغو وسلفستري، حول انتمائي إلى محفل «الفرسان العقلاء»، وإن كنتُ تكلمتُ معهم عن ثقتي التامة تقريباً بوجود

مؤامرة يخطط لها، وسألتهم، بصفتي «شمس» في الحركة، إن كان أحدهم مستعدّاً للمشاركة في المؤامرة في حال وقوعها. وقلت لهما، لمنحهما المزيد من الثقة، إنّ أشخاصاً مطلعين تحدثوا لي عن اهتمام بوليفار باستقلال كوبا وبالوضع العسكري المتردي في إسبانيا. بل لقد أكّدتُ لهما مجدداً أنّني نفسي مستعد للانضمام إلى تلك المأثرة التي لا بدّ منها. وكان الجميع، بمن فيهم تانكو، الذي كان لا ينفك يصرّح بحبّه للعدل وبغضه للاستعباد، ميالين، بشكل أو بآخر، إلى المشاركة في المؤامرة، ووجدتُ في تبريراتهم قاسماً مشتركاً خطيراً: والسود؟ ألن يثور السود؟ كان دومنغو هو الوحيد الذي اهتمّ بالموضوع إذ طلب منّي، بعد أن انتحى بي جانباً عند خروجنا من نادٍ للقمار، أن أعلمه أولاً بأول عن سير أيّة مؤامرة، لأنّه بدأ يؤمن بأنّ ذلك هو السبيل الوحيد الممكن لتغيير قدر البلاد.

في اليوم التالي لعودتي إلى (ماتانثاس)، وبدقة الموعد الذي يتطلبه الحب ويأمر به القلب، خففتُ للقاء لولا في المرفأ المعتاد. بدت لي صورة حبيبتي أروع، حين وافقتْ على الصعود برفقة (تيتي)، عبدتها الجميلة والكتومة التي تخدمها منذ كانتا طفلتين، إلى القارب الذي جلنا فيه الجنّة لأول مرّة.

جذّفتُ لدقائق نحو أعالي النهر، بحثاً عن مشهد ممر (يوموري) الرائع، حيث يفسح الجبل المشطور إلى شطرين المجال لمجرى النهر. كنتُ أجذّف وأتكلّم عن مواضيع عامة: عن سفرتي إلى هافانا، وعن التحيّات التي حملني إيّاها إليها أصدقائي، ولا سيّما سلفستري، الذي تربطها به صداقة قديمة، وعن الموضة الجديدة في ارتداء تنورات مزررة من الأمام معمولة من قماش إنكليزي رقيق وصل حديثاً إلى الجزيرة. لم أقترح عليها أن نتوقف في مكان منعزل للحديث وحدنا عن موضوع بالغ الأهميّة إلّا بعد أن اجتزنا الممر المائي وصرنا نبحر في مياه محرمة في عُرف العادات والتقاليد.

- وهل هو من الخطورة أنّ (تيتي) لا تستطيع سماعه؟ تذكّر عدد الرسائل التي وصلتني منك...

- إنّه مهم جدّاً، لولا- كررتُ عليها، وأنا أنظر إلى عينيها. وأخيراً وافقتْ.

تركنا (تيتي) الكتومة تحت شجرة مانغو عظيمة، مغطاة بباكورة زهور الموسم، وسرتُ أنا ولولا دخولاً في الوادي. عاودتني الرعشة الأبدية في ساقيّ، ليس بسبب الاعتراف الذي كنتُ أعدّه في رأسي، بل لأنّني قدّرتُ أنّ في إمكاني، وأنا معها، أن أهدّ جداراً وأجتاز حالة تقبيل اليد وتلامس الأذرع المثيرة للأعصاب. جلسنا تحت زيتونة سوداء عظيمة، مئوية بلا شك. كلمتها عن مشاركتي في المؤامرة، وفصّلتُ لها الحديث عن حفل التنصيب الذي شاركتُ فيه، وأطلعتها على الندبة الصغيرة المحفورة على كتفي الأيمن، وهي ما بقي من الجرح الذي علّموني به ساعة أدائي القسم. بدا القلق واضحاً على وجه الفتاة وأنا أتكلم، وحين لاحظتُ البريق الندي في عينيها، اندفعتُ لأحكي لها عن انتفاضة توشك أن تقع، وعن ثورة أوشك أن أشارك فيها، وقد لا أعود إلى رؤيتها حتّى بعد مرور وقت طويل.

- بل ربّما لن نرى بعضنا... فالموت ورقة من أوراق اللعب في الحرب.

- لا سمح الرب- قالت الفتاة بصوت مهموس ونظرت إلى عيني-. أنت تقتلني حزناً، خوسيه ماريّا.

- وأنتِ تقتلينني حبّاً.

كان الحزن الصادق الذي بدا على وجه الفتاة، إذ علت خديها حمرة رسمتها الشمس، والقلق الذي ولّدته فيها قرارتي الخطيرة، بمثابة إعصار آخر دفع بي دفعاً إلى شفتيها المكتنزتين. هل هناك ما هو أجمل من الإحساس بتعثّر الخطوات الأولى في الردّ على قبلة حب؟ هل هناك ما يتجاوز، في ميزان الرجال، معرفتنا بأنّ أيدينا هي أوّل ما يداعب وجه الفتاة الشابة الدافئ الحريري، بعد أن تحصل على الرخصة والإذن؟ هل يمكن تصوّر هدية أثمن من الشعور بانفجار في القلب، بالقرب من صدرنا، أحدثته قوة حبّ انطلقت من عقالها؟ رحتُ أستمتع بتلك الأحاسيس

الفريدة وأنا أسأل نفسي إن كانت غايتي من دخول عالم الخطر والموت ذاك هي الضغط على تلك المرأة التي أفقدتني صوابي والتي كنتُ أتمنى أن أصل معها إلى أبعد الحدود... وتوسّلتُ بالفنون التي تلقيتها من بتينيا، وطبقتها مع لويسا مونتِس، فرحتُ أتحسس بشفتي شفتي لولا، لأسقط تمنع البداية وخوف الحياء، ثمّ لأنظّم مشاعرها غير المدربة، حين بدا وكأن حرارة داخلية خنقتها. وهيأتُ الأرضية لمهمات أكبر، فبعثتُ بلساني أمامي ليدخل في صندوق فمها الرائع ويداعب لسانها، ليوقظه ويضمّه إلى لعبة حبّ يحرر كلّ توتر ويرخي كلّ يد قلقة ويسحق كلّ محظور ويعرّي كلّ جسد، لكي أصل، في صعود متدرّج جريء، إلى تقبيل نهدين أبيضين ودافئين، متوجين بزهرة حمراء منتفخة الأوراق، ومداعبة شعر ناعم وغامق، ينبثق منه عطر حلو وحامض كما هي الحياة، ولأفضّ، بحرارة مندفعة، غلق لولا خونكو السماوي، حيث أولجتُ ما يشبه مسماراً فولاذيّاً غير متناسب يسعى إلى تمزيق منديل من حرير...

في تلك الثانية وقع أمر غريب لشخص يتبجّح بحنكته في العشق: لقد رأيتُ بوضوح أنّني لم أكتشف الحب في أعلى درجات السموّ والرضا إلّا في تلك اللحظة... ولم ألبث أن تعلّمتُ، وبفضل تلك المرأة نفسها والمشاعر التي كانت تثيرها فيّ، ما يعني أن يموت الإنسان من الحب، وأن يكون عاجزاً حتّى عن التعبير عنه شعراً.

دخلتُ عامي التاسع عشر وأنا محمول على سحابة من حب ومن شعر، وعبرتُ من عام 1822 السعيد إلى عالم 1823 المروّع، يلفّني الشعور بأنّني ملكُ العالم وأكثرُ الرجال حظّاً على وجه الأرض، لأنّني كنتُ هكذا فعلاً: ذلك كان لقاءنا الأول فحسب، وإن كان اللقاء الذي علق في ذاكرتي من بين اللقاءات العاطفية الكثيرة التي سعدنا بها أنا ولولا في الأشهر اللاحقة.

أمّا في ميدان الشعر، فقد وصلتُ في كوبا آنذاك إلى أعلى مراتب الشهرة حين نشر دومنغو، في المجلّة التي كنتُ أشارك فيها، إعلانا ناريّاً مختلقاً

عن طبعة قادمة لقصائدي. وفي بداية آذار بدأ دومنغو، بعد فشل مجلة «الأمريكي الحرّ» أيضاً، بالكتابة في «المراقب السياسي والأدبي»، وهي مجلة يفصح عنوانها عن مضمونها، وكانت تعتمد على مساهمات أسماء معروفة من مثل (سانفيليو) و(خوسيه أنطونيو ساكو) و(أناكليتو برمودث) و(ثينترا) و(دومنغو) أيضاً. لكنّ اسمه كان قد ذاع قبل ذلك في الأوساط الأدبية والاجتماعيّة حين أثار بمقالة صغيرة له حول الأجواء الشبابية في ميدان (ألاميدا دي باولا) تعليقات غاضبة. وشاءت الصدفة أن يرى ذلك النص النور بينما كان هو في زيارة إلى (ماتانثاس)، ولذلك تكلمتُ معه، بعد أن قرأتُ المقال بعجالة، حول المقاصد التي دفعته إلى كتابة تلك المقالة التي وجّه فيها سهام نقده إلى بعض عادات الشباب التي هي، في نظره، منافية للأخلاق والحشمة. لقد هاجم الشباب الذين يقلدون الصرعات الأجنبيّة وأولئك الذين، كما قال، يسقطون في الرذائل والملذات، عارضاً على الملأ، وللمرة الأولى، موهبته خطيباً وواعظاً أخلاقيّاً.

- أنتَ تتكلم عنك وعنّي، أليس كذلك، دومنغو؟ - سألته، مندهشاً أكثر منّي منزعجاً، حين التقينا.

- أنا أحاول أن أماشي الأجواء، خوسيه ماريا- قال لي، وأظنه كان صادقاً في ما يقول-. كلّ واحد يعمل بالطريقة التي يستطيع: أنتَ تثير الإعجاب بأشعارك والضجة بأعمالك المسرحية. أنا أسلك طريق الصحافة، وهو الطريق الذي أستطيع بلوغه. انسَ ما أقول: المهم هو أن تقرع الأجراس لكي تجلب الانتباه... لا تكن مغترّاً بهذا القدر: فلا أنت الوحيد الذي يتردد على المومسات، ولا أنا الوحيد الذي يراهن حتّى على حذائه. هل فهمتني؟

- صرتُ أفهمك - قلتُ له، وخطر في بالي، مع نشوة النبيذ الخطيرة، أن أحكي له عن شعوري بأنّني في ظروف تسمح لي بجمع أشعاري ونشرها في كتاب. اعترفتُ له حينها بأنّ سبب تلك الرغبة هي أنّ حياتي قد تتغيّر في أيّة لحظة... بعد ثلاث كؤوس قصصتُ عليه مغامراتي التآمريّة...

بدأ، وقد بدت عليه الدهشة، يلقي عليّ ألف سؤال وسؤال، رددتُ عليها بكلّ صراحة. وبعد أن شربنا وتكلمنا كثيراً سمعته يقول شيئاً حملته على محمل هراء صادر عن سكير ثمل:

- هل تدري، خوسيه ماريّا؟ أنتَ ستكون السبب في هلاكي. أنتَ تفعلُ كلّ ما رغبتُ أنا في فعله، ووصلتَ إلى كلّ ما رغبتُ في الوصول إليه. تكتب الشعر الذي تمنيت كتابته، وتحب النساء اللائي تمنيت حبّهنّ وتؤمن بالأشياء التي تمنيت أن أؤمن بها. أحياناً أتمنّى أن أكرهكَ بسبب ذلك، لكنّي لا أستطيع: فأنا أحبك كثيراً...

وفجأة أقدمَ على فعل هزّ بدني: مال نحوي وأمسك بثنية سترتي وطبع قبلة على شفتي، وأنا بين مصدق ومكذب، عاجز عن صدّه وردعه.

عزوتُ إلى النبيذ ذلك الانفجار الذي حمل دومنغو على تعرية دواخله أمام عيني المذهولة، ومنعته من شرب المزيد. أحسب أنّ ساقيّ لم ترتجفا قط كما ارتجفتا في تلك الليلة الباردة من كانون الثاني ذاك.

بعد شهرين من ذلك، وبينما كنتُ أستمتع بحبي الجامح، ناسياً قلقي على تأخر اندلاع الثورة الانفصاليّة، ومنصرفاً إلى مهمة شاقة في كتابة تراجيديا حول شخصيّة البطل المكسيكي (تشيكوتنكاتل)[61]، تلقيتُ خبراً يقول إن دومنغو سلّم مجلّة «المراقب» إعلانا ناريّاً حول قرب صدور مجموعة أشعاري. في نص الإعلان، الذي نشره من دون توقيع، وصفني دومنغو بأنّني أوّل شاعر في الجزيرة جعل «القيثارة الكوبية تصدح بنبرات رقيقة راقية»، وأخطأ إذ وضعني في مواجهة بقيّة الشعراء، حين قلل من قيمتهم وازدراهم، وكأنّه لم يقصد الترحيب بكتاب أشعاري بل مهاجمة الآخرين. لم تتأخر ردّة الفعل المتوقعة، فاندفع الشعراء النابهون يتساءلون عن المزايا والأمجاد التي يقوم عليها تفوقي. وسرعان

61- Xicohténcatl (1484-1521). محارب وزعيم من زعماء قبائل تلاكسكالا، إحدى ولايات المكسيك حاليّاً. حارب الفاتحين الإسبان ثمّ تحالف معهم لغزو أنحاء أخرى من البلاد.

ما حوّلتني الفضيحة إلى علم يدافع عنه البعض ويشتمه البعض الآخر، لكنّها كانت أيضاً مناسبة لكي يتحوّل «صاحب الإعلان»، كما وقّع دومنغو ردوده على هجمات المستائين، إلى صوت قوي يحمل صفة الصوت الشجاع في عالم الأدب في الجزيرة. وهكذا بدأ دومنغو طريقه نحو الشهرة القائمة على شهرتي، ونحو صيت المتنبئ المستشرف، ونحو الثروة الماديّة الأكثر تألقاً... لم أستطع أن أفصل شوائب القانون عن معدنه، إلّا بعد سنوات كثيرة، وأنا أعبر البحر من جديد، مبتعداً عن كوبا وإلى الأبد، وحينها أدركتُ الحجم الحقيقي الذي كان يتستّر وراء ذلك الفعل الشبابي، الذي لم أفهمه في وقتها، وإن كان يناسب طبع ميكيافيلي المكفهر.

***

كم تغيّر ذلك النهر المتواضع الوادع في مئة عام؟ لا شكّ أنّ مياهه صارت أشدّ كدراً، فكلّ شيء تكدّر، لكنّ طبيعتها الجوهريّة وتركيبتها الأصيلة لم تتغيّر إلّا قليلاً: ليست المئة سنة بالوقت الطويل قياساً إلى حياة نهر، لكنّها وقت طويل جدّاً بالقياس إلى حياة إنسان. لم يبقَ مما رأى أبوه في مرفأ (يوموري) القديم غير النهر والبحر القريب منه، الذي تنتهي حياته فيه. مع ذلك فقد تمكن الإهمال والبؤس من بصمة الإنسان التي زيّنت ذلك المكان الملوّن السعيد الذي تردد عليه الشاعر العاشق، فلم يبقَ من المرفأ غير ألواح الرصيف المتعفنة، وغير الدعامات التي أقيمت عليها مظلّة يتقي بها شباب (ماتانثاس) لفحة الشمس وهم ينتظرون المركب الذي سيحملهم نحو أعالي النهر بالبراءة الظاهريّة لتلك الأزمنة. ولم يبقَ أيضاً أيّ من أبطال تلك الأيام المشرقة والمضطربة: في الواقع لم يبقَ شيء تقريباً من الذاكرة. لقد كشف اللقاء بين ما هو أبدي خالد، الذي هو صنيعة معمار الكون العظيم، وما هو فانٍ زائل، الذي هو صنيعة الإنسان، لخوسيه دي خيسوس هيريديا عقم نواياه وتفاهة أفكاره: هل هناك من يهتمّ حقّاً بمعرفة عدد من أحبّهم شاعر حزين طواه النسيان

وهويتهم؟ ومن عساه يهتمّ بعدد وهويّة من كرههم رجل مرهف وشقيّ أخطأ في حساب قدرته على مقاومة الألم وقوته على مواجهة المصائب؟

سيكون كلّ شيء أسهل إن هو وجد إجابة بسيطة، بدلاً من تلك الأسئلة المزعجة، فكّر. وفكّر أنّه لم يذهب ذلك الصباح إلى المرفأ الخرب، للقاء شخص عارف مطلع، وليمنعه من الهرب أو من الصمت، إلّا بحثاً عن إجابة وإلّا بحثاً عن الحرية التي ستعود عليه بها تلك الإجابة. الحقيقة، قال لنفسه، هي أنّ أباه لم يكن محقّاً إذ وضعه في ذلك الموقف غير المتوقع، وهو الذي خبرَ الهرب وعرفه.

رآه خوسيه دي خيسوس يقترب، وبحث في الرجل، كما فعل دائماً منذ أن علم بأصله، عن أيّة علامة فارقة في جسمه يمكنها أن تؤكد له مقالات أبيه. فلو صحّ أنّ استيبان خونكو هو ابن خوسيه ماريا هيريديا ولولا خونكو، كما يقول الشاعر، فإنّ راميرو هو حفيده وابن أخ خوسيه دي خيسوس. لكنّ راميرو خونكو كان، وهذا هو المهم، المالك الحقيقي والوحيد لتلك المذكرات، التي كان هيريديا تركها لكي يقرأها ولد له لم يره. لذلك، فإنّ الحديث الذي سيجريه مع الشخص الذي سلّم عليه وصافحه برمز الأخوّة، هو ما سيقرر مصير الأوراق التي سلّمها في الليلة البارحة لتكون في رعاية محفل «أبناء كوبا» وحمايته.

كان راميرو يصغر خوسيه دي خيسوس بعشرين عاماً تقريباً، وإن بديا أتراباً. لقد تركتْ زحمة العمل بصمات غائرة فيه بعد أن عقد العزم على إنقاذ ثروة العائلة التي بدّدها الخراب الذي أحدثته الحرب الأخيرة والفساد المالي الذي توالى إبّان الاحتلال الأمريكي، وجعل من تلك المسألة مسألة كرامة وشرف. حين جلس بالقرب من خوسيه دي خيسوس، أطلق زفرة ارتياح وانتظر لحظاتٍ إلى حين استقرت عظامه وعضلاته على خير وضعيّة ممكنة.

– ما قصّة مخطوطات أبيك؟ ولماذا تسألني أنا عنها؟ – سأل راميرو وأشعل واحدة من سجائره الطويلة.

فكّر خوسيه دي خيسوس أنّ من الأفضل ترك الأمور الجانبيّة والدخول في الموضوع مباشرة. نظر إلى النهر وإلى بقايا المرفأ وأعمدة المنصّة حيث بدأت قصّة الحبّ التعيس تلك وقال:

- أوراق أبي هي قصّة حياته، أو كما كان يسميها هو، رواية حياته، لكنّ تلك الرواية لها صلة كبيرة بك وأنا أريد أن تعرف ذلك...

وراح يزوده بتفاصيل عن محتوى الأوراق.

- بحسب أبي، فإنّ استيبان خونكو لم يكن ابن روبين، كما قيل دائماً، بل هو ابن لولا خونكو... هي ولدت الطفل قبل أن يتزوجها فيليب غوميث وأنتَ تعلم ماذا يمكن أن يعني ذلك هنا في (ماتاناتاس). الواقع هو أنّ أباك استيبان هو ابن هيريديا ولولا- وتنفس عميقاً لكي ينتهي من كلامه-. لولا خونكو هي جدتك... وأنتَ راميرو هيريديا.

في تلك اللحظة غمر خوسيه دي خيسوس خجلٌ من فعل لا صلة له به، فعل لم يكن ولا يمكن أن يكون مسؤولاً عنه. إنّه، وبضربة واحدة، يزحزح حياة شخص عن مركزها، ويزعزع أسس وجودها المنطقيّة والقائمة ليرمي به إلى الفراغ والشك والاضطراب. وعاد إلى سؤال نفسه إن كان أصاب في ما فعل. أمامه رجل شاحب الوجه، منذهل مشوّش، تدور في رأسه، بلا شك، صور من السنوات الستين التي عاشها من حياة هي حياته وما هي بحياته، من ماضٍ ينتمي إليه، لكنّه في الوقت نفسه ماضٍ بني على كذبة كبيرة يمكنها أن تسقط عنه كلّ شرعيّة وتلغيه. راميرو خونكو، راميرو هيريديا: لا شكّ أنّ المسألة صعبة. صعبٌ أن يكتشف الواحد في أواخر عمره أنّه ليس هو من ظنّ أنّه هو، بل هو آخر...

- أنتَ تعرفني منذ وقت طويل وتعلم كيف أعيش: تلك الأوراق تساوي مالاً، ومع أنّ أبي يذكر فيها أشياء ليست في صالحه، فأنا لم أبعها أيضاً من أجلك. ولأنّ هذه الأوراق هي في الواقع أوراقك. هو كتبَ تلك المذكرات لكي تسلمها لولا إلى ابنها استيبان. أمّي جاءت بها من المكسيك لتسلمها له، لكنّ جدّي رفض أن يسلمها لأحد حين توفيت

أمّي. قال إن وصلت تلك الأوراق إلى عائلة خونكو، فلن يطلع أحد على حياة هيريديا الحقيقيّة... منذ سنوات وأنا أفكّر في هذا كلّه، وأظنّ أنّ من الضروري أن تعلم بذلك. عليك الآن أن تقرر ما نفعله بتلك الأوراق: أنتَ تستطيع أن تخرجها من المحفل وتفعل بها ما تريد، لأنّها، كما قلتُ لك، أوراق أبيك، وهي ملكك. المعروف الوحيد الذي أطلبه منك هو أن تنتظر لنشرها حتى عام 1939، فذلك هو الشرط الذي وضعته جدتي...

نظر راميرو خونكو إلى النهر، الذي بدا وديعاً ساكناً، فكأنّ ماءه متوقف عن الجريان. هكذا هي حياته: مترددة بين الاتجاه المعروف الذي يقود إلى البحر أو الآخر الغريب الذي ظهر له فجأة ليطلب منه أن يعود القهقرى صعوداً نحن النبع الذي فيه أصل كلّ شيء.

- حين تُنشر تلك الأورق سأكونُ أنا قد مُتّ - قال أخيراً، دائماً من دون النظر إلى خوسيه دي خيسوس-. كم سنة بقيت؟ عشرون تقريباً؟ لا، لن أعيش حتى ذلك الوقت. لذلك لن أخجل من شيء، هذا إذا كان هناك ما يبعث على خجل يتحتم عليّ أن أشعر به. ربّما أولادي، أحفادي، ذكرى جدي روبين وعمّتي لولا... لا أدري.

- أفهم مشاعركَ. أنا نفسي لم أرَ تلك الأوراق إلّا قبل عشر سنوات. كان لأبي طوال حياتي صورة في ذهني ساعدتني على خلق الصورة التي أمتلكها عن نفسي. حين قرأتُ تلك الأوراق، علمتُ أنّه ليس هو ذلك الشخصيّة التي يدرسونها في المدارس، بل كان شخصاً بائساً غارقاً في مسائل تتجاوز طاقته، شخصاً جرى له كلّ ما في الحياة من حلو ومرّ، وإن كان الجانب المرّ هو ما بقي.

- هل تحاول تبريراً أم إنّك تواسيني؟

- أنا أقول لك ما شعرتُ به، راميرو.

- لا أحد يستطيع أن يفهم ما أشعر به. لا أنتَ ولا غيرك - قال ونهض بقوّة غريبة-. طالما تكلموا في (ماتانثاس) عن لولا وهيريديا. وها هي أشعار أبيك... لكنّي راميرو خونكو، وهذا ما لا تستطيع أيّة ورقة أن

تغيّره. حقيقة هيريديا هي حقيقته، وحقيقتي هي حقيقتي. أنا لا أريد أن أقرأ شيئاً من تلك الأوراق ولا أريد رؤيتها. افعل ما بدا لك، ما يمليه عليك ضميرك، ما يبدو لك أنسب، لكن لا تحشرني في هذا الأمر: لن أدخل في هذه القصّة، ولن أغلق فم هيريديا. ليس لي أن أصلح حياة أحد، ولا حتى حياة أبي، ولا أحد، فما عاد لحياتي من حلّ ممكن. اعذرني أن لا أستطيع أن أقدم لك الشكر على أنّك حكيت لي كلّ هذا...

بدأ راميرو خونكو، بخطاه الوئيدة، عودته نحو المدينة. ربّما بدا أشدّ انحناءً، لكنّ خوسيه دي خيسوس عزا ذلك إلى ظلّه. حين غاب الرجل عن النظر، عاد إلى تركيز انتباهه في النهر وفكّر أنّه حين يموت فإنّ راميرو سيموت أيضاً، أمّا النهر فسيظل في مكانه، سيظل في مكانه لقرون وقرون كثيرة إن كانت تلك هي إرادة مهندس الكون العظيم، الذي لا يخلق الجبال والأنهار فحسب، بل يقدر على هدمها. فكيف لشيء على ذلك القدر من الضآلة، كما هو مصير رجل من الرجال، أن يعجزه؟

***

كان لأولئك الرجال طعم ماضٍ راسخ وواعد: (آنسلمو دي لا كاريداد خونكو إي بونثه دي ليون)، ابن راميرو وألفونسينا، مولود في (ماتانثاس) عام 1894، متوفى في هافانا عام 1982، ما زال اسمه يظهر على أنّه صاحب البيت الكائن في شارع D الرقم 120، منطقة (البيدادو). هناك تقيم بناته ووريثاته الشرعيّات، (أورتنسيا أغراثيادا) و (كارمن آلوديا خونكو إي بيليث دي لا ريبا)، بالإضافة إلى أقارب كثيرين لم تكلّف جهود كونرادو البيروقراطيّة نفسها مشقة تحديدهم.

كان فرناندو وآلبارو ينتظران رؤية بيت كبير قديم، لكنّهما اكتشفا مبنى حديثاً ذا طابقين، ونوافذ كثيرة، يحرسها زجاج لمّاع غير قابل للكسر. يبدو أنّهم أضافوا إلى البيت مؤخراً جداراً ذا سياج من القضبان ويافطة كتب عليها: «بالمار دي خونكو. مطعم. مواعيد: 12 ب.ظ. إلى 2 صباحاً».

- البرجوازيّة الكوبية القديمة عادت إلى امتيازاتها - قال آلبارو وضغط على الجرس الموضوع في السياج الحديدي.

- وجود المال هنا واضح - علّق فرناندو وهو يحاول التطلع عبر القضبان إلى بيت آنسلمو خونكو في هافانا.

- مساء الخير. هل تريدان تناول الطعام؟ - بادرتهم الشابة ذات العشرين سنة، الشقراء المبتسمة، بالسؤال، حين فتحت لهما.

- لا، ليس هذا بالضبط... نريد أن نقابل أورتينسيا أو كارمن ألوديا.

- تفضلا...- قالت، وقد علت وجهها سحابة من قلق-. هل حضرتكما مفتشان؟

تبادل فرناندو وآلبارو النظرات.

- قولي لها إنّنا صحفيان نبحث عن معلومات حول عائلة خونكو في (ماتانثاس)- اختلق آلبارو.

- حسناً... انتظرا هنا - تركتهما الفتاة عند بداية درج صغير له درجات رخاميّة ينتهي في فسحة تفضي إلى بابين. بين الحاجز الحديدي والدرج تمتد، على طول الجانب الأيسر من البناء، حديقة كثيفة يقطعها ممر من بلاط سداسي الأضلاع يتلوّى صوب تعريشة جلس تحتها عدد من الأشخاص يأكلون على طاولات مقلدة تحكي الطراز الكولونياليّ، معمولة من حديد منقوش، ومغطاة بشراشف بنيّة اللون. حين فتحت الفتاة واحداً من بابي فسحة الدرج بلغت أسماعهم معزوفة على البيانو من تأليف أرنستو ليكونا[62]، مصدرها منطقة المطعم، وقد وُضعت بمستوى الصوت الذي يناسب الذوق الجيد.

- تفضلا - قالت-، ستستقبلكما الجدة كارمنثيتا.

ما إن اجتازا عتبة صالة الاستقبال الفسيحة، المضاءة بالنور الداخل من النوافذ الكثيرة، حتى وجدا نفسيهما في وسط ما دعاه آلبارو بـ «آخر

62- Ernesto Lecuona (1895-1963). موسيقي وعازف بيانو كوبي.

بقايا الأوليغارشيّة الكوبية المنقرضة». نظر فرناندو مندهشاً ورأى أنّ ديكورات المكان جديرة بأن تظهر في كتالوج للتأسيسات السرياليّة: على بيانو صالة قديم وضع فرن ميكروويف ينقصه الباب وجرّة خزفيّة صينيّة الصنع وهوائي التلفزيون، تلّ من المجلات ومقود سيّارة، بينما احتل صندوقان من الطماطم مقعد العازف.

جلس فرناندو وآلبارو على أريكة وضع عليها شيء شبيه برداء منزلي وسلّة في داخلها رأسان من الكرنب. انصرفت الفتاة وواصل الزائران، باهتمام المفكرين تقريباً، التطلّع إلى معرض الأشياء الغريبة الفريدة ذاك، الذي كان من تنظيم الإهمال والفوضى. كان كلّ شيء ممكناً في صالة الأختين خونكو. شدّ انتباههما، فضلاً عن البيانو، الثمين ربّما، تمثالان نصفيان من الرخام لشخصيّات تمكنا، بفضل المعرفة التي اكتسباها من الدكتور مندوثا، أن يتعرفا عليهما: قيصر وشيشرون. كان هناك بين ما يمكن إنقاذه أريكتان عاليتان، من خشب وجلد، مطعمتان بعاج بهت لونه، وهما صناعة تعود إلى القرن التاسع عشر بلا شك. علّقت على الحائط لوحة زيتية، لا تحمل توقيعاً، لمجموعة مؤلفة من امرأتين ورجلين، وسيمين جميعهم ونضرين، يرتدون ملابس بيضاً ويجلسون في حديقة وقد ظهرت خلفهم التعريشة.

- يبدو أنّها الحديقة نفسها الموجودة في الخارج، أليس كذلك؟ - علّق فرناندو.

- بلى - قال صوت، والتفت الاثنان ليجدا أمامهما امرأة تجاوزت الستين بقليل تشبه واحدة من السيدتين اللتين تظهران في اللوحة.

- مسرورة لرؤيتكما. أنا كارمنثيتا خونكو.

قدّم فرناندو وآلبارو نفسيهما ثمّ عاودا الجلوس.

- عمر هذه اللوحة خمسون سنة تقريباً. رسمت عام 37، حين كنتُ في الثالثة والعشرين. تلك، التي على اليمين، هي أنا.

نظر فرناندو ثانية إلى اللوحة وفكّر أنّ فيها شيئاً غير مفهوم. إذا كانت

الأرقام التي تحدثت عنها المرأة صحيحة، فإنّ حساباته تكشف عن أنّ كارمن خونكو أقرب إلى سنّ الثمانين منها إلى الستين وقليل الذي تبدو عليه.

- أمّا الرجلان فهما شقيقاي (كوكو) و(بيتو). كوكو توفي منذ أربع سنوات وبيتو يعيش في ميامي منذ عام 1960. أمّا الشابة الأخرى فهي أورتنسيا، شقيقتي.

- لكنّ هذا البيت ليس هو بيت عام 37.

- لا. هذا البيت بناه كوكو عام 56، لكننا أبقينا على التعريشة، وها أنتَ ترى كم هو نفعها بعد كلّ هذه السنين. هناك كنّا نقيم الحفلات العائلية أيام كان أبي موجوداً بيننا. وباستثناء باتيستا [12]، وكان أسودَ قاتلاً، وعذراً عن كلمة «أسود»، لكنّه كان قاتلاً، فقد تناولت الطعام عندنا جميع الشخصيّات المهمّة في هذا البلد بين عام 34، حين اشترينا البيت القديم، وعام 59...(غراو)[63] و(بريّو)[64] و(أدّي تشيفاس)[65] و(خورخي مانياتش)[66] و(طوني غيتيراس)[67]... أيضاً حين جاء إلى كوبا (غابرييلا ميسترال)[68] و(جوزفين بيكر)[69] و(بيدرو إنفانته)[70].

63- Ramón Grau San Martín (1887-1969). رجل دولة كوبي ورئيس الجمهورية بين 1933-1934 و 1944-1948.

64- Carlos Prío Socarrás (1903-1977). رئيس كوبا بين عامي 1948 و 1952.

65- Eduardo Chibás (1907-1951). مؤسس حزب الشعب الكوبي الذي انضمّ إليه كاسترو إعجاباً بشخصية مؤسسه وأفكاره.

66- Jorge Mañach (1898-1961). كاتب وصحفي وفيلسوف كوبي. كتب واحدة من سير الزعيم القومي الكوبي خوسيه مارتي.

67- Antonio Guiteras Holmes (1906-1935). ثوري كوبي برز اسمه أثناء انتفاضة 1930.

68- Gabriela Mistral (1889-1957). شاعرة ودبلوماسية وتربوية تشيليّة. حازت جائزة نوبل للآداب عام 1945.

69- Joséphine Baker (1906-1975). ممثلة ومغنية وراقصة فرنسية من أصل أمريكي زنجي.

70- Pedro Infante (1917-1957) ممثل ومغنٍّ مكسيكي.

أمّا (كاروسو)[71] فقد أكل في بيتنا الذي في (ماتانثاس)، أيضاً (ساره برنارد)[72] و(بادرسكي)[73]، لأنّنا كنّا حينها نسكن هناك.

بينما كانت كارمن خونكو تستحضر أمجاد الأسرة التليدة في مجالي المجتمع والثقافة، تملك فرناندو الإحساس بأنّه أصبح أخيراً على الطريق الذي سيقوده إلى جواب مؤكد. إذا كانت مخطوطة هيريديا تروي قصة الحب المفترضة بين لولا خونكو والشاعر، فإنّ راميرو خونكو يجب أن يكون، وهو ممن عاشوا سنوات العشرين وكان لهم حق الاطلاع على الوثائق، المعنيّ الأكبر بعدم نشرها.

- ولماذا انتقلتم إلى هافانا؟ إذا كانت العائلة من أعرق عوائل (ماتانثاس)؟

ابتسمت كارمن برقة وذوق.

- وهل من سبب آخر غير المال؟ حين توفي جدي راميرو، واجه أبي، وكان اسمه آنسلمو، رحمه الله، وأخوه ريكارديتو مشاكل بسبب الميراث. كان عمّي ريكارديتو سمكة قرش، كما يقال في العامية. لذلك تمكّن في عهد ماتشادو[74] أن يصبح والياً على محافظة (ماتانثاس)، واستطاع خلال مدة ولايته من مضاعفة ثروته عشر مرّات. ذلك الطريق العام عاد عليه بأموال لا يعلم مقدارها إلّا الله. إلى أن تعب والدي من المشاكل مع أخيه، وأراد أن يتخلص منها ويبتعد، فاشترى هذا البيت من أشخاص هم من أبناء عمومة بونثه دي ليون وانتقلنا إليه عام 34.

- لكنّ عائلة عمك ريكارديتو لا تسكن في (ماتانثاس)، أليس كذلك؟ - سأل آلبارو، وهو في خشية من أن يكون سار في الطريق الخطأ.

71- Enrico Caruso (1873-1921). مغني أوبرا إيطالي.

72- Sarah Bernhardt (1844-1923). ممثلة فرنسيّة.

73- Ignacy Paderewski (1860-1941). سياسي وموسيقي وعازف بيانو بولندي أمريكي.

74- Gerardo Machado (1871-1939). من قادة حرب الاستقلال الكوبية ورئيس الدولة بين عامي 1925 و 1933.

- لا، بقي في (ماتانثاس) من كبار السن من العائلة بعض أبناء العمومة الأباعد. أمّا عائلة العم ريكارديتو فقد رحلت إلى ميامي عام 59. لم يستطيعوا إخراج كلّ أموالهم، لكنّهم حملوا الكثير منها معهم. وهم الآن يعيشون هناك كالملوك، بينما انظر إلى حالنا نحن، نجاهد بمطعم. من حسن الحظ أنّ أخي بيبيتو يرسل إلينا من حين لآخر بعض النقود، وإن كان يفعل ذلك مرغماً، لأنّه يقول عنّا إنّنا شيوعيات. هو يرى في كلّ من بقي في كوبا شيوعيّاً ولا يغفر لنا أنّنا بعنا اللوحات الثمينة التي كانت في البيت... لكن ليس هذا ما جئتما من أجله، أم إنّه هو؟

ابتسم فرناندو وآلبارو على استحياء حين شاهدا امرأة عجوزاً سوداء، ربّما من سنّ كارمن، تخرج من داخل البيت وهي تحمل صينيّة فيها ثلاثة فناجين من القهوة.

- شكراً بيبا - قالت صاحبة المنزل للواصلة حديثاً، ثمّ وجهت كلامها للزائرين-. أظنّ أنكما تشربان القهوة...

تناول آلبارو فنجانه ثمّ اقتربت السوداء من فرناندو وأخيراً من كارمن.

- إن حافظ هذا البيت، الذي يبدو كمصحّ عقلي، على شيء فهي عادة تقديم القهوة للضيوف. وإن اضطررنا إلى البحث عنها تحت الأرض...

- إنّها قهوة لذيذة جدّاً - قال فرناندو مادحاً.

- إنّها قهوة (بيلون)، من ميامي، حيث يشرب الناس أجود قهوة كوبيّة.

- هل يزعجك أن ندخّن؟ - سأل آلبارو.

- لا. بالطبع لا. أبي كان مدخناً كبيراً، وأنا أدخن أحياناً. شكراً بيبا - قالت كارمن وهي تعيد الفناجين إلى المرأة السوداء، التي عادت أدراجها إلى البيت.

- في الواقع، سيدة كارمن...

- كارمنثيتا...

- سيدة كارمنثيتا...

- من دون سيدة...

ضحك فرناندو بانفتاح أكبر واستقر على الأريكة بقدر أكبر من الاسترخاء.

- كارمنثيتا... قلتُ لحضرتك إنّ عائلة خونكو تعنينا من طرف ثانوي. ما نبحث عنه قد يكون ذا صلة بحضراتكم، لأنّ جدك راميرو يمكن أن يكون على صلة...

- جدي راميرو؟...

حكى فرناندو عن مساعيه في البحث عن أوراق هيريديا المفقودة حتى وصوله إلى أكينو العجوز، وعلى الرغم من أنّه فضّل تجاهل العلاقة بين لولا وهيريديا، فقد أكّد على القول بأنّ راميرو خونكو هو واحد من القلائل الذين يمكنهم الوصول إلى وثائق الشاعر. وبينما كان يسرد القصّة بدا على وجه المرأة اهتمام أكبر. كانت عيناها، بسوادها العميق ذاته الذي تغنّت به قصائد هيريديا وهو يصف نظرات لولا خونكو، تبرق مضطربة، واكتشف فرناندو أنّ في تينك العينين يكمن سرّ شبابها الظاهري.

- ماذا كانت تلك الأوراق؟ أقصد، هل تعرفون مضمونها؟...

- نعتقد أنّها مذكرات هيريديا، أو شيء كالرواية - قال فرناندو-. لسنا متأكدين، إذ يبدو أن لا أحد قرأها...

تنهدت كارمن عميقاً ونظرت إلى البيانو الذي ربّما أحسّ، أيّام عزهم في (ماتانثاس)، بمداعبات أصابع إغناثيو بادرسكي.

- هناك شيء تعلمون به لكنّكم لم تقولوه تأدباً. وهو، كما أظنّ، السبب الذي تعتقدون أنّه حمل جدي راميرو على أخذ الأوراق، أليس كذلك؟

- بلى - نظر فرناندو نحو آلبارو، واندفع صوب الوجهة الوحيدة الممكنة-. على حضرتك أن تعلمي ما قيل قبل زمن طويل عن هيريديا ولولا خونكو...

- إنّ استيبان خونكو لم يكن ابن روبين، بل ابن العمة لولا وهيريديا.

- هذا ما قالوه لنا... لكننا لا نعرف ماذا يقال بين العائلة.

- في العائلة؟ في العائلة لا يدور أيّ كلام حول ذلك، وإن سمعوا شيئاً فقد كانوا ينفونه، ولك أن تتخيل الأمر، فتاة من عائلة خونكو تحمل بطفل من دون زواج... لكنّي أظنّ أنّ التقولات ما كانت في الحقيقة تزعجهم كثيراً، فليس بالقليل أن يكون لهم طفل أبوه هو هيريديا. كان للأمر أن يكون سيئاً لو أنّ الأب موسيقي خلاسي، أمّا هيريديا الشاعر... كم في هذه الحياة من مفارقات: ما عاد أحد في هذا الزمن يريد أن يكون شاعراً ميتاً من الجوع، بل صار الجميع يتمنّى لو كان له ولدٌ خلاسي موسيقي، يسافر إلى بلاد العالم ويمتلك سيارة جديدة ويكسب دولارات.

- هذا صحيح- أكّد آلبارو وأشعل سيجارة أخرى.

- لذلك يحسد الناس حفيدتي ماريثيلا، الشقراء التي استقبلتكم، كثيراً. زوجها موسيقي. يقول أخي بيبيتو إنّ ذلك هو أكبر عار لحق بالعائلة، لكنّه لم يفهم شيئاً من الحياة.

- هذا يحدث...- علّق فرناندو، وهو يحاول ألا يصيبه اليأس-. وماذا عن تلك الأوراق، إذن...؟

- الأوراق، الأوراق. من كلامكم أفهم أنّكم تظنون أنّ جدي قد يكون خبأ مذكرات هيريديا لكي لا يطلع أحد على العلاقة التي ربطته مع لولا، ولأنّ الاطلاع عليها سيكشف أنّه حفيد هيريديا فعلاً.

- هذه واحدة من الاحتمالات...

- لا، لا أظنّ ذلك، بحسب ما أعرف عن جدي. إن كان من أحد لا يهتمّ بما يمكن أن يفكّر فيه الناس فهو جدي. سأحكي لكم شيئاً. زمن حرب الاستقلال عام 95 بقيت عائلتي بلا قرش واحد. فبين ما تبرّع به والد جدي استيبان للثوار وما صادره الإسبان منا وما احترق وضاع أثناء الحرب، بقينا تقريباً مفلسين. بعد ذلك تبخر القليل الذي كان عندنا من

سندات مزورة أدخلها الأمريكان في كوبا. وكان جدي راميرو هو من أصلح حال العائلة قليلاً بعد أن اشتغل كالحيوان. حين ولدتُ كانت عائلة خونكو قد صار لديها بعض المال، لكن ليس كما كانت من قبل، في زمن لولا. بدأ أبي حينها يزيد في رأسماله لأنّه كان أفضل محامٍ في (ماتانثاس)، وإن أنفق كلّ ما يملكه وما لا يملكه على الحفلات، لذلك كانت تزور بيتنا كلّ الشخصيات التي تأتي إلى كوبا والذين يعيشون هنا. هل ذكرتُ لكم (كاروسو)؟ نعم، لكنّي لم أحدثكم عن نات كنغ كول[75] ولا عن آنا بافلوفا[76]... العم ريكارديتو من ناحيته جمع على عهد ماتشادو ثروة كبيرة، وكانت من السياسة أكثر ممّا كانت من العمل والتجارة. لذلك لا أظنّ أنّ راميرو خونكو خاف أن يكشف النقاب عن حقيقة كتلك، فقد كان بينه وبين كبار السن في عائلة خونكو حرب وثروة ما عادت موجودة وما يقرب من مئة سنة.

- لكن في تلك الفترة...- بدأ فرناندو.

- المال كان يغطّي على كلّ شيء، كما هو شأنه في كلّ وقت وحين، والعائلة صارت ثريّة من جديد.

سحق آلبارو، وقد استبد به التوتر، عقب السيجارة في منفضة الزجاج الزرقاء.

- إنّه كريستال فينيسي - قالت كارمنثيتا-. المنفضة... اشتريت خمساً منها في فينيسيا حين قمت برحلة إليها عام 52... وهذه هي الوحيدة الباقية من الخمس.

- جميلة جدّاً - قال آلبارو.

- فحضراتكم لم تسمعوا، إذن، شيئاً عن تلك الأوراق؟ وأختك، وإخوتك؟ - سأل فرناندو، من دون أن يعبأ بمنفضة الكريستال الفينيسي.

75- Nat King Cole (1919-1965) مغنٍّ أمريكي وعازف جاز.

76- Anna Pavlova (1881-1931) راقصة باليه روسية.

- طالما جرى الحديث عن هيريديا في العائلة، أمّا عن تلك الأوراق التي تتكلمون عنها...

بينما كانت كارمن خونكو تهزّ رأسها نافية أحسّ فرناندو تيرّي بروحه تهوي إلى الأرض. ها هو طريق آخر ينغلق وما من ضوء يلوح في الأفق.

- وأقرباؤكم الذين في ميامي؟ - سأل، محاولاً أن ينفخ في روح واحدة من آماله المحتضرة.

- أنا متأكدة من أنّ أخي بيبتو لا يعرف شيئاً عن الموضوع. أمّا عن أبناء عمومتي من ناحية ريكارديتو فلا أستطيع أن أقول شيئاً. فنحن لا نعرف عنهم الكثير منذ أن سافروا...

وأخيراً طرح آلبارو، وقد ركّز نظرته في البيانو، السؤال الذي حمله هو وفرناندو منذ البداية في ذهنيهما.

- وأنتم، كارمنثيتا، لماذا لم ترحلوا عن كوبا؟

- نرحل؟ لماذا نرحل؟ تذكّر أنّنا نحن، آل خونكو وآل بونثه دي ليون وآل بيليث دي لا ريبا، كوبيون منذ ثلاثة قرون، لم نمتلك المال دائماً، لكنّنا استطعنا أن نعيش. من يريد الذهاب، فليذهب، لكن عنّي أنا على الأقل، وأنا كوبية أباً عن جدّ، فعليهم أن يطردوني من هنا، وإلّا، فأنا لا أذهب إلى أيّ مكان. ها، وإذا كنتُ أنتمي إلى آل هيريديا بدلاً من آل خونكو، فالداعي إلى ذلك أكبر...

تبادل فرناندو وآلبارو نظرات التأثر بعد ما سمعاه من كلام العجوز الواضح والقاطع، لكنّهما باتا أيضاً واثقين من أنّ أوراق خوسيه ماريا هيريديا وهم ضاع كما ضاع كبرياء آل خونكو ومجدهم التليد.

***

لشهر نيسان ذاك من عام 1823 في ذاكرتي صورة الهدوء الذي يسبق العاصفة. ذاع صيتي شاعراً كما يضوع سيل جارف من العطر، وترددت قصائدي على ألسنة العاشقين وصدحت بها حناجر الوطنيين. كان الزهو

والظهور يمنحاني من الغذاء قدر ما يمنحني منه الطعام أو أكثر، بينما كنتُ أنا ولولا خونكو، نعبد أحدنا الآخر كما يعبد كائنان بدائيان آلهتهما وأربابهما، في شهوة دائمة لا يخفف من استعارها ولا يحرر أجمل ما فيها من طاقة إلّا الفعل الجنسي. لقد درّبتنا شهورُ التعلم والتطبيق وجعلت منّا عاشقين ممتازين، يكمّل أحدهما الآخر ويرضي أحدهما رغبة الآخر بالقدر نفسه من المتعة والعطاء، لذلك كانت دقيقة الفراق تعدلُ في نظرنا قرناً، بينما لا نرى في ساعات اللقاء والحبّ إلّا ثواني سريعة خاطفة. واصلنا علاقتنا في سرّيّة مطلقة - كانت سرّاً حتى على أقرب أصدقائي- وكنّا ننتظر بصبر نافد وقت تقديم طلبي لنتمكن، حين تسنح لي الفرصة وأمارس عملي في المحاماة، من إضفاء الصفة الرسميّة على علاقتنا وتحديد موعد قريب لزواجنا. لذلك كانت تكبر في ذهني، كدودة متطفلة، فكرة الحديث مع الدكتور إيرنانديث ومصارحته بقراري التخلّي عن مشاركتي في مؤامرة لا أرى لها قياماً، إذ تعجز السلسلة التي يطمح الجنرال الأعظم ليموس إليها عن ضمّ الحلقات اللازمة لنجاحها، بعد أن لم ينضمّ أيّ من ذوي النفوذ والسلطة إلى الخطة وتحججوا بما تحجج به أصدقائي للانخراط في مغامرة يعترض دربها دائماً السؤال ذاته الذي لا جوابَ له: وماذا عن السود؟ كان سوء الأوضاع هو الشيء الوحيد الذي يحول دون الضحك أمام صورة السود الذين جيء بهم من أفريقيا ليكونوا عبيداً أرقاء لكنّهم سرعان ما أصبحوا المتحكمين بإرادة أسيادهم، يقيّدونهم بالسلاسل ذاتها ويسلبون حريتهم.

كان كبريائي يحول دون ذلك التراجع المخجل، وكانت صورة البطل التي تراني عليها لولا وأصدقائي تسدّ أمامي طريق الانسحاب، وإن كنتُ، في تلك الأثناء، أرغب حقّاً في البقاء في (ماتانثاس)، بالقرب من حبيبتي، أكتب الشعر والمسرح، وأكسب من عملي المال اللازم للظفر بحياة سعيدة هانئة. سافرتُ إلى هافانا وأنا أحمل تلك النيّة في بالي، عازماً على الحصول على شهادتي في مزاولة المحاماة في أقرب وقت.

صعدتُ في مركب حملني إلى (بورت برنس)، حيث مقرّ المحكمة الإقليميّة، وأنا مقتنع من أنّ كلّ شيء سيتحدد بعد عودتي، فما لم أكن راغباً فيه هو أن أرهق لولا معي في مغامرة تحمل في طياتها عذاباً وألماً: إن كان طريقي في السياسة مقضيّاً، لا رجعة فيه ولا معدل عنه، فما أحراني بأن أقتلع قلبي، كما اقتلع أوديب عينيه، لإخراج لولا من حياة لا توفر لها أيّة ضمانة، فضلاً عن خطورتها وبؤسها.

كانت هافانا التي وصلتُ إليها في تلك المرّة مدينة تشرف على السقوط في براثن الفوضى، فالعنف في ازدياد، وكذلك موائد القمار والمواخير، وفي ازدياد كانت مزادات العبيد العلنيّة المهينة، فكأنّ حكومة الجنرال ديونسيو بيبس[77] الجديدة قررت حقن المجتمع، المريض أصلًا، بجرعة إضافية من السلوك الشائن والإهمال. أمّا الأخبار القادمة من إسبانيا وردود الفعل التي تُحدثها في كوبا فقد رفعت من حرارة الأجواء السياسية إلى مستويات غير مسبوقة، واصطفّ أصدقائي إلى جانب ما بدت محرقة خارجة عن نطاق السيطرة. علا دوي أول طلقة مدفع في تلك الحرب الصامتة حين أبلغ عن أنّ قوات «الحلف المقدّس»، التي شكّلها ملكُ فرنسا، تتحشّد في جبال (البيريني)، مستعدة لغزو شبه الجزيرة واجتثاث ذلك النموذج السيّئ من نظام الحكم الدستوريّ، الذي شهد، في ذلك اليوم نفسه، حدثاً كان سيبعث على الأمل لو أنّه وقع في ظروف أخرى: لقد قدّم باريلا، كاشفاً عن مخالبه ومبدياً استعداده لتخطّي كلّ حدود الممكن، مشروعاً جريئاً هدفه إلغاء الرقّ ومنح الحكم الذاتي لجزيرة كوبا.

لقد دفعت خطورة الوضع بأصدقائي الطلاب في معهد سان كارلوس إلى إصدار بيان يؤيدون فيه النظام الدستوريّ، ونشروه في «المراقب السياسي والأدبي»، أمّا دومنغو، وهو المتخصص في تحرير

77- Dionisio Vives (1755-1840) جنرال إسباني. تولّى سفارة بلاده في الولايات المتحدة ثم تولى منصب الحاكم العام في كوبا.

هذا النوع من الكتابات، فقد أخفى اسم الكاتب، وإن ظهر اسمه بين أسماء الموقعين الكثيرين على وثيقة تنادي بالحرية وبالسيادة وتحمل على خونة الدستور. لكنّ ما لم يكن يعرفه أصدقائي هو أنّ غزواً لإسبانيا العزلاء وبلا رأس، إسبانيا التي خانها قادة جيشها وغدر بها ملكها، قد بدأ قبل أسبوع من نشر إعلانهم الناري ذاك. حينئذٍ خاطر باريلا وخينير وسانتوس سواريث ونواب آخرون بمصائرهم ولعبوا أخطر أوراقهم حين أعلنوا عدم أهليّة فرناندو السابع لحكم البلد وحكم مستعمراته ونقلوا مقرّ البرلمان إلى إشبيلية ثمّ إلى قادش، لكنّهم لم يكسبوا إلّا إطالة احتضار نظام سياسي محكوم عليه بالموت.

إن كان الكبرياء والغرور وجرعة العجرفة التي أمتلكُها هو ما منعني من قبلُ من التقرّب من الدكتور إيرنانديث الطيب لأطلب منه إعفائي من الانضمام إلى الحركة الاستقلالية، فإنّ موقف أصدقائي والأسوة التي أعطاها باريلا والنواب الآخرون هو ما يسدّ عليّ الآن طريق العودة، هذا إن بقي من مجال للعودة.

في تلك الأجواء العاصفة، وفي ليلة أسرفنا فيها الشراب وتجادلنا ساعات طويلة حول الحلول الممكنة للأزمة، قررتُ، من دون تفكّر ولا تفكير، أن أرفع رهاني مع الأصدقاء، فاعترفتُ لهم بانتمائي إلى حركة «شعاعات بوليفار وشموسه». أذكر ممن كانوا معنا، فضلاً عن مسامرينا المعتادين، ساكو، الذي أصبح، على وقع تلك الأحداث المستجدة، عضواً في مجموعة يجد فيها صدى أفكاره ومواقفه.

بينما كان دومنغو يركّز عينيه المستفهمة القصيرة النظر في وجهي وينفث دخان سيجاره نحوي، علت وجوه سلفستري وثينترا وسانفيليو، وحتى ساكو، الدهشة حين علموا بموضوع انتمائي إلى الحركة. أمّا أبلغ تعليق فقد صدر، كما هو متوقع، من دومنغو، الذي همس، من دون أن ينفث دخان السيجارة من فمه:

- لقد جُننتَ. هل تفهمني؟ - وأضاف، وأظنّه كان صادقاً وإن قال

ما قال على الرغم منه -: أنت تسير دائماً في المقدمة، أمّا هذه المرة فقد تخطيتَ الحدّ.

كلّمتهم، بلسان طليق جريء، كما اعتدتُ حين أشرب، عن دعم بوليفار وعن المحافل وعن السلسلة وعن وجود ليموس في كوبا مع عسكريين آخرين قدموا من أمريكا الجنوبية، إلى أن وضع ساكو من جديد إصبعه على الجرح الأبدي:

- وماذا عن السود، أيّها الشاعر؟ ما الذي سيحدث إذا ما ثاروا؟ كلّ ما قلتَه جميل، لكن إن لم تردّ على سؤالي فلا تأمن لمن يمتلكون سلطة القرار في كوبا.

- لكن الاستقلال...- احتججتُ.

- الاستقلال اليوم بات وهماً. هل ترى أصدقاءك الطيبين؟- وأشار إلى أصدقائي-. هم يغبطونك الآن على شجاعتك، لكنّهم في الغد، حين يصبحون أغنياء، وسيصبحون أغنياء بالتأكيد، سيقولون عنك إنّك كنتَ تهذي. انتظر وسترى، أيّها الشاعر.

بعد يومين، صعدتُ إلى المركب الذي نقلني إلى (سان فرناندو دي نوبيتاس)، المرفأ القريب من بلدة (بورت برنس)، محمّلاً بشكوكي وحزني الكبير. لكنّي حين وصلتُ إلى تلك المدينة وجدتُ بلدة منغلقة، نبذها الزمن، ليس فيها نموّ (ماتانثاس) ولا حيويتها، ولا تعرف صخب هافانا ولا تحررها. شوارعها غير مرصوفة وبلا إنارة تقريباً، قليلة الحركة على مدار ساعات النهار، يتوقف فيها كلّ نشاط ما إن تحين الثامنة مساءً، فكأنه يمتثل لإرادة ملكيّة، فيغلق الناس أبوابهم، وتسدل المحلات ستائرها ويحلّ الصمت في المدينة القديمة، التي عاشت في أزمنة أخرى أيام مجد وثراء بفضل ازدهار تجارة التهريب. كان الملل يخيّم على الأجواء، كثيفاً سميكاً، حتّى ليمكن قطعه بالسكين. فشعرتُ برغبة في العودة.

اضطرتني ضائقتي المالية إلى قبول ضيافة القاضي خوسيه أيوخنيو

برنال، وهو من أصدقاء والدي القدماء. صحبته، في بعض الأمسيات، إلى مسامرات عقدت في باحات بيوت أقربائه وأصدقائه الجميلة، للحديث عن موضوعات تافهة، وليطلبوا منّي قراءة بعض من أشعاري، التي كان فيها من الجرأة ما لا يتناسب وذوق جمهور السامعين المعتدل.

بدت الأسابيع الأربعة التي أمضيتها في معاملات شهادتي دهراً، وبدا كلّ شيء محكوماً بالفشل حين اكتشفوا أنّ ما يزال أمامي أن أتمّ السنتين الضروريتين من التدريب بين التخرج والحصول على الشهادة. من حسن الحظ أنّ كلّ شيء في كوبا يبدو مستحيلاً، مع ذلك فما من مشكلة فيها من دون حل: فقد ظهر الوقت المطلوب للتدريب في الأوراق بفضل نفوذ (بيرنال) وصديقه القاضي (كامبوثانو) وبفضل المئة وثلاثين بيزو التي أعارني إياها القاضي لأضعها في الأيدي المناسبة. وهكذا أصبحتُ في الثامن عشر من حزيران من عام 1823 محامياً شاباً مستعدّاً للهروب من تلك المدينة التي لا تطاق...

ما إن وصلتُ إلى (ماتانثاس) بداية تمّوز حتى ركضتُ صوب ساحة (بيخيّا) ووقفتُ عند الناصية القريبة من بيت حبيبتي، من دون أن أعبأ كثيراً بما أبلغتني به أمّي من أنّ سلفستري موجود في المدينة. طوال الأشهر السابقة، كنت كلما احتجتُ إلى الاتصال مع لولا أو رغبتُ في ذلك، كنتُ أحضّر ملاحظة وأنتظر أن تخرج (تيتي) أو أيّة واحدة من العاملات في البيت - وكنّ جميعهنّ حليفات لنا- لأمرر لها الورقة. لكنّ أحداً لم يخرج في ذلك العصر من البيت المغلق بإحكام، بينما راحت الساعات تمضي والظلام يحلّ ويغلبني التعبُ والعطش والجوع والرغبة في التبوّل.

تجاوزت الساعة التاسعة ليلاً حين تناولتُ شيئاً من طبق الباميا مع اللحم البارد، وكانت أمّي أعدته للاحتفال بحصولي على الشهادة، ثمّ دخلتُ غرفتي وأغلقتُ على نفسي الباب. كان قلبي يحدثني بأنّ شيئاً غريباً وخطيراً يحدث. وأخيراً تغلب عليّ التعب فنمتُ ولم أستيقظ إلّا

حين شعرتُ بأنّ هناك من يحرّك ساقي، وحين فتحتُ عينيّ، جرحني شعاع شمس.

- انهض. الساعة الآن هي العاشرة صباحاً - صاح به صوت سرعان ما تبين له أنّه صوت سلفستري ألفونسو-. هيّا، اغتسل وتناول قهوتك. علينا أن نتكلم.

- ما الذي حدث؟

- استيقظ أولاً - أجاب-. أنتظركَ في غرفة الطعام. لكن اغتسل جيداً، فرائحة «شعاعات» تنبعث منك.

حين دخلتُ في الصالة كان سلفستري يشرب فنجاناً من القهوة، فقدم لي فنجاناً آخر. ومن دون أن يتفوّه بكلمة مدّ لي يده بورقة وردية اللون. تناولتُ رشفة من القهوة ثم قرأتُ الورقة التي كنتُ أعرف مرسلها: «اضطررنا إلى الخروج من المدينة. سأكتبُ لك قريباً. أحبّك أكثر من أيّ وقت مضى. حبيبتك لولا».

- غادروا للتوّ- قال لي حين رأى دهشتي-. (تيتي) أعطتني هذه الورقة... وأنا الذي صدقتك حين قلتَ لي إن لا شيء بينكما، وإنّك لا تريد أن تعذّب لولا معك في حياة المعاناة التي تعيشها...

فضّل سلفستري، وهو الذي في إمكانه أن يتكلم لساعات من دون أن يأخذ نفساً، هذه المرة ألّا يحتطب من شجرتي الساقطة ويزيد من ألمي بعد ما رأى من التعبير الذي ارتسم على وجهي، حيث بدت علامات الذهول الناجم عن ذلك المفاجئ.

وسرعان ما فقدت المدينة، مع غياب لولا، جاذبيتها، وحياتي فتنتها. وتحقق لي في تلك الأيام مدى حبي لها وتعلقي بها، من دون أن أتصوّر أنّ الأسوأ لم يأتِ بعد.

لم يمضِ إلّا وقت قليل على بلواي تلك حتى وقع حادث ثانٍ أشدّ هولاً نبّهني إلى وصول العاصفة القاضية. كان اليوم هو الأول من آب. حضر إلى بيتي، في الصباح الباكر، الدكتور إيرنانديث، وظننتُ أنّ

السبب اندلاع شرارة الثورة، وتأسفتُ أن تندلع في وقت لا أتمنى فيه غير أن أضع رأسي في حضن لولا الدافئ. لكنّ الخبر كان مختلفاً. كان خبراً مروعاً.

- لقد اكتشف أمرنا - قال لي، وشعرتُ بأنّ ذلك الرجل الطيب الشجاع يوشك على البكاء.

لقد تسللت شرطة القائد العام الخاصة إلى خليّة المؤامرة في هافانا، بعد وشاية تقدم بها عبد يعمل في المطبعة التي تطبع فيها البيانات التي كان ليموس يعتزم توزيعها عند انطلاق شرارة الثورة. وقد اعترف الذين اعتقلوا أولاً بكلّ ما لديهم من معلومات.

- أليس هذه هي اللحظة المناسبة للثورة؟ - سألتُ، فقد كنتُ أعرف أنّهم إن أمسكوا برأس الخيط فلن يلبثوا إلى يصلوا إلى بقيّة المجموعة، وافترضتُ أنّ خطّة المؤامرة، بعد سنوات من العمل، لا بدّ وأن تكون جاهزة.

- ما سأقوله لك محزن، خوسيه ماريا: كلّ شيء جاهز للثورة منذ كانون الأول، لكنّ هناك مسألة معلّقة دائماً...

- السود - قلتُ، وهزّ الدكتور رأسه موافقاً.

- لا حلّ ما دام العبيد. لا أحدَ يريد مساندتنا... إنّها مصيبة كوبا.

- وماذا سنفعل؟

- في الوقت الحاضر، ننتظر. ربّما لن يصلوا إلينا. لكن إن وصلوا، فنصيحتي لك هي أن ترحل.

- لا أستطيع الرحيل! - صرختُ تقريباً.

- هل تدري ما هو الأسوأ في الأمر؟ الخجل الذي أشعر به وأنا أتكلم عن هذا مع أناس مثلك. أشعر بأنّي المسؤول عن الإتيان بكَ إلى هذا الجنون... كنتُ واهماً حين ظننتُ أنّ في وسع هذا البلد أن يغيّر قدره. لكن ما من حل، ولن يكون هناك حل لوقت طويل، وربّما أبداً. فبلد يفضّل الطغيان على مواجهة المخاطر يستحق كلّ أشكال الطغيان.

مرّ خمسة عشر عاماً على سماع هذه الكلمات، وما زلتُ غير قادر على أن أخرجها من رأسي، ولا أن أنسى الصورة الأخيرة التي تركها ذلك الرجل الذي كان يفيض إيماناً: رأيته يخرج من بيتي مكسوراً وخجلاً، حتى من دون أن يودعني...

مرّت عدة أيام وأنا في ذهول وحيرة، أعاني قلقاً يثير اضطرابي وخوفي. فالأحداث تتسارع في هافانا، حيث نظرت السلطات في قضيّة المتآمرين، بينما قادت الوشايات إلى اعتقالات جديدة، شملت الجنرال الأعظم ليموس، الذي اعتقل ببدلته ونياشينه وشعاراته، لكن من دون أن يُجرّد من سيفه. وبعد ليموس، سقط في (ماتانثاس) الدكتور إيرنانديث الطيب، وأدتْ تلك الاعتقالات إلى أن يهتزّ بقيّة المتآمرين خوفاً. أمّا أنا، فتظاهرتُ بأنّ حياتي تمضي طبيعيّة، وذهبتُ إلى البلدية لأعادل شهادتي في المحاماة، وإن لم أبدأ بممارسة المهنة. ولم يثر اهتمامي أيضاً أن تنشر مجلة «المراقب» قصيدتي المهداة إلى ثورة اليونانيين، مع نشيدها للحرية... في حرّ آب الجهنمي ذاك، وحين رأيتُ أنّ حياتي معلّقة بخيط غير وثيق قوامه صمت إخواني من «الفرسان العقلاء»، بدأتُ بالتخطيط، وبمساعدة من سلفستري، للذهاب إلى مزرعة (ميرا فلورِس)، حيث كانت تقيم عائلة خونكو. كنتُ أحاول أن أسمع من لولا تفسيراً لصمتها وأن أطلب منها، بعد أن توضّح لي الأمر، يدها للزواج، وما كان أمامي غير احتمالين، كلاهما أفضل من حالة الضياع التي أعيشها: فإمّا سأحظى بالقبول من لدنهم، وعندها سأعيش سعيداً، أو إنّهم سيرفضون طلبي، وحينئذٍ سأرمي بنفسي في مهاوي النضال.

كنتُ أتهيأ للسفر حين تلقيت رسالة من الدكتور إيرنانديث، بعث لي بها من سجنه. كان النص موجزاً. أمرٌ في كلمة واحدة: «ارحل». وكان التوقيع رسم شعاع وشمس. لكنّي لم أكن أستطيع الرحيل من دون أن أكلّم لولا، وأدركتُ في تلك اللحظة مقدار خطئي إذ فكرتُ في الذهاب إلى مزرعة عائلة خونكو، فلو كنتُ ذهبت فعلاً لما جنيتُ غير توريط

لولا وعائلتها في مغامراتي السياسيّة. مع ذلك كان عليّ أن أراها... وباقتراح من سلفستري، قررنا أنّ أفضل مكان أختبئ فيه، إلى حين تتوضّح أفكاري، هو هافانا لا غيرها.

خرجنا في نهاية آب من (ماتانثاس)، بينما كانت المدينة تشهد اعتقالات جديدة، وعُيّن فرانثيسكو إيرنانديث موريخون، وهو رجل معروف بقسوته، قاضي تحقيق في القضيّة. ولكي أواصل حياتي الروتينية ظاهريّاً، فقد أقمتُ في بيت سلفستري، عادلتُ شهادتي في بلدية العاصمة، وبدأتُ العمل في مكتب المحامي خوسيه فرانكو، وهو صديق قديم آخر من أصدقاء أبي، وكان يعمل مستشاراً للقنصليّة الملكيّة.

فاجأني اختفاء دومنغو عن لقاءات الأصدقاء واجتماعاتهم. وكان السبب، كما أوضحه ثينترا، الذي بدا وكأنّه صار تابع دومنغو ووصيفه، هو أنّ صديقنا سافر إلى (ماتانثاس) في الوقت ذاته الذي توجهتُ أنا فيه إلى هافانا، متأثراً بالقطيعة التي وقعت بينه وبين إيزابيل. أمّا القصّة التي حكاها لنا ثينترا فهي أنّ تاجر العبيد، دون بيدرو بلانكو، عاد إلى طلب يد إيزابيل، فما كان من دومنغو، وقد أصابه اليأس، إلّا أن تخلّى عن مشاريعه الأدبية وقبل بوظيفة المستشار القانوني التي عرضها عليه عمدة بلدة (غوانه)، الواقعة في الطرف الغربي من الجزيرة، وهي بلدة خالية من السكّان تقريباً، لكنّه ذهب لوداع أمّه وإخوته، قبل أن يسافر إلى تلك البلدة.

لم يعد دومنغو إلى هافانا إلّا منتصف أيلول، ولم يكلف نفسه، لأسباب عدة، زيارتي قبل نقله إلى (غوانه)، وقد ترك ذلك الفعل غير المفهوم مرارة في نفسي، سيّما وأنّ الأخبار القادمة من (ماتانثاس) جعلتني أفكّر جديّاً في البديل المؤلم الذي أمرني به الدكتور إيرنانديث... لكنّ ذهني لم يستطع إلّا بعد سنوات طويلة، وبعد أن ظهرت أدلّة أخرى، أن يربط الأطراف السائبة وينتقل من الشك إلى الفهم الواضح التام للأسباب الحقيقية لموقف دومنغو الغريب.

تهيأتُ لوداع أصدقائي وأنا عازم على الاختباء في مكان أمين. ما كان

ليخطر على بالي أنّني أودّع سانفيليو الوداع الأخير، وأنّ ساكو سيكون، لوقت من الأوقات، رفيق منفاي، وأبرعَ من ذبّ عن قصائدي وأشعاري، وأنّني لن أعود إلى لقاء سلفستري إلّا في نيويورك الباردة، وأنّ تانكو وثينترا وبيرمودِث سيضنون عليّ بالسلام حين نعاود اللقاء. في تلك الليلة، وبينما كنا نتناول نبيذاً حزيناً ونتكلم عن مصير الجزيرة المأساوي، أنهيتُ عضويتي في مجموعة من الأصدقاء ستترك فراغاً مقيماً في قلبي.

حين وصلتُ إلى (ماتانثاس)، مررتُ ببيت خالي إغناثيو متخفياً؛ ما كانوا يعرفون شيئاً عن آل خونكو، لكنّي علمتُ أنّ أصدقائي الذين جندتهم هناك في الحركة قد اعتقلوا. كان الشقيقان آرانغورين ونسيبهما، أنطونيو بيتانكور، يقبعون في السجن منذ ثلاثة أيام، ومعهم عدد من أعضاء «الدردشة» و«الفرسان العقلاء». من عساه يكون الذي أبلغ عنهم؟ هل من المعقول أنّهم لم يبحثوا عنّي إلى الآن؟ لا شكّ أنّ مقاومة الدكتور إيرنانديث وقوّة عزيمته هما ما أمّنا لي البقاء حرّاً، مع ذلك فإنّ مصيري أصبح يتوقف على آخر من اعتقلوا.

بطلب من خالي، الذي كان قد هيأ كلّ شيء، انطلقتُ إلى مزرعة (لوس مولينوس)، وهي ذاتها التي منحتني انطباعي الأول عن (ماتانثاس). هناك استقبلتني الماركيزة رَيْنا ماريا، أرملة برادو أمينو، بكل حفاوة وودّ، وكانت مغرمة بالشعر. في ذلك المكان الطبيعي الرائع، بالقرب من نهر (سان خوان)، وعلى الرغم من المشهد المؤلم لمجاميع العبيد وهم يخرجون كلّ صباح نحو حقول القصب، فقد عشتُ في ظلّ واحدة من أكبر ثروات كوبا، وفهمتُ استحالة الاعتماد على الأثرياء للشروع في ثورة: فما أكثر ما سيضحون به من ترف وسلطة ومال من أجل تغيير سياسي لن يأتي لهم، في النهاية، بمنافع كبيرة، ولا سيّما الآن، حين صعد إلى عرش إسبانيا ملكٌ دمية، مربوط إلى المال الكوبي لضمان طعامه ولبسه. كان استعباد الآخرين بالنسبة إلى أولئك الأثرياء من ذوي الأصول الأوروبيّة أسلوب حياة صار طبيعياً إلى حدّ أنّ امرأة

متعلمة ومقبلة على الحياة، كتلك التي أعيش الآن في كنفها، يمكن أن تكون هي نفسها التي صممت، قبل عدة سنوات، على وأد النبوغ الشعري الفطري في الشاب خوان فرانثيسكو مانثانو [34]، الذي ولد عبداً في أملاكها، والذي عذبته بقسوة بالغة لأنّه سعى فحسب إلى كتابة الشعر ونشره. فالأسود في نظر الماركيزة، وفي نظر كلّ من هم من طبقتها، لا يبلغ درجة الكلب، لذلك فمن غير المفهوم أن يستطيع القراءة والكتابة.

كدتُ أن يغمى عليّ إذ فاجأتني تلك المرأة ذات صباح بعزمها على أن تترك البيت لأيام لتزور أصدقاءها من آل خونكو في مزرعة (ميرا فلورس). وكدتُ أن أتوسل إليها جاثياً أن تأخذني معها، لكنّي أدركتُ غرابة تفكيري، فرجوتها أن تتكرم عليّ بأن تسلّم رسالة موجزة إلى صديقتي لولا.

- فهي صديقتك إذن؟ - ابتسمت الماركيزة-. الجميع في (ماتانثاس) يقولون إنّكما أكثر من صديقين. هات الرسالة، سأوصلها إليها.

لا أدري كم مرة كتبتُ الرسالة ثمّ مزقتها... خمس عشرة مرّة؟ عشرين مرّة؟ ألف مرّة؟ كانت الحيرة والتردد يحولان دون أن أجد النبرة المناسبة في رسالة أريد لها أن تحمل غضباً وحبّاً وغيرة... وأخيراً حزمتُ أمري وقررتُ أن أترجاها أن تخبرني عن حالها وعن سبب صمتها. أمضيتُ الأيام التي قضتها الماركيزة خارج البيت قلقاً: بلا نوم تقريباً ولا أكل، بل ومن دون أن أفكر في وضعي. وحين رأيتها تصل عائدة جريت من دون خجل نحو العربة وطلبتُ منها أن تخبرني عن لولا.

سلمتني الماركيزة ظرفاً ورديّاً. ابتعدتُ لأستظلّ بشجرة لوز، وقلبي في خفقان، بينما راحت أصابعي، التي لم تعرف اضطراباً كذاك، تحاول تمزيق ظرف الرسالة. لكنّ ما غمرني وأنا أقرأ السطور القليلة لم يكن نبض قلب وخفقان فؤاد، بل كان شيئاً أكثر من هذا وذاك. ها هي الآن أمام عيني، كلمات وضعتني منذ ذلك اليوم وفي لحظة أمام واحدة من أكبر مآسي حياتي: «حبيبي خوسيه ماريّا»، كتبت لولا. «لقد سمع الربّ أخيراً

توسلاتي وحمل لي أخبارَكَ وعلمتُ أنّك حرّ طليق وفي مكان آمن. أنا واثقة من أنّك لن تصاب بسوء، من أجلك ومن أجل ابننا. نعم، حبيبي، فأنا حامل في الشهر الخامس وهذا هو السبب الذي حمل والديّ على المجيء بي إلى المزرعة، فهما يريدان أن يخفيا أمر حملي. أنا مصرّة على أنّ خير ما يمكنهما فعله هو أن يسمحا لي بالزواج بك، لكنّهما يعارضان ما أقول، وخصوصاً بعد أن علما بالظروف التي تمرّ أنتَ بها. ما زلتُ أصلّي إلى الربّ لكي تنجلي الغمّة، وأن تظلّ حرّاً طليقاً، وأن نستطيع، بعون القديس استيبان، أن نتزوّج وأن ننعم بولادة ابننا بسلام. ستشرح لك الماركيزة شيئاً آخر، فعليّ الآن أن أنهي رسالتي. تذكر أنّ حبي لك لا ينتهي، كنبع الجبل الذي يولد منه نهر (يوموري)، الذي صنعنا بالقرب منه أعظم ما في هذه الحياة من المعجزات. قبلاتي الكثيرة لك. لولا».

***

– أنا جلبتُ واحدة – قال ميغيل أنخل.

– وأنا جلبتُ أخرى – قال كونرادو.

– أنا أتيتُ بنصف. لا، أكثر من النصف بقليل – قال فرناندو.

كان آلبارو يرفع أصابعه كلما سمع بكمية الشراب الموجود، وأبقى على يده في الأعلى، إصبعان منتصبتان وسبابة اليد الأخرى تقطعهما.

– اثنتان ونصف – قال، كالمحبط.

– وأنا لا أملك سنتاً واحداً– قال فيكتور.

– أمّا أنا فلا ينظرْ أحدٌ إليّ – قال توماس.

– أنا بلّغتكم أنّي لن أجلب الرون – قال إنريكه

– وأنا أيضاً مفلس – قال أركاديو–. خرجت أمس مع صديقة...

– دعكَ من القصص – قاطعه آلبارو منزعجاً–. ومع نصف منّي، ثلاث زجاجات. هذا جيد، أليس كذلك؟ وبما أنّ إنريكه ما عاد يشرب...

وضعوا الزجاجات على مصطبة خشبيّة صغيرة، وضعوا عليها أيضاً

صينيّة وكؤوساً وجرّة فيها ثلج وبعض شرائح الليمون. فرشوا جريدة عصر ذلك الثالث والعشرين من تشرين الأول 1974 لتكون بمثابة الشرشف.

- «كبد الأدب الكوبي الأسود»، هذا هو ما سيقولونه لك - نظر إنريكه إلى آلبارو وهو يملأ الكؤوس بالرون ويوزعها على الشاربين، وكان بعضهم يضيف إلى الشراب ثلجاً أو ليموناً-. تأمّل كيف يحسن الخدمة...!

- اسمعي، أيتها الأختُ الراهبة خوانا، لا تضايقيني أكثر- ردّ آلبارو وضحك الجميع، حتى إنريكه-. هل ستقرأ قطعة من «الكوميديا السوداء» أم لا؟

- لا. ليس الآن. - حاول إنريكه أن يعدّل جلسته، فكأنّه لم يكن مرتاحاً على كرسيه-. لن أقرأ شيئاً منها قبل أن أتمّها. وقد سبق أن قلتُ هذا.

- اسمع، إنريكه، حاول أن تكون هذه القصيدة الغريبة جيدة، فمنذ عام تقريباً وأنتَ تحاول معها ولم تنتهِ منها بعد.- أعاد ميغيل أنخل السيجارة إلى شفتيه بعد أن تناول جرعة من الرون.

- لا أدري، ربّما هي فعلاً قصيدة تافهة - قال إنريكه، وهو يعالج للجلوس على نحو مريح.

- هل تعرف رأيي، إنريكه؟ - سأل أركاديو-. عليك أن تنسى تلك «الكوميديا السوداء» وأن تكتب بدلاً منها شيئاً آخر. فتعثرك فيها لا بدّ وأنّ له أسبابه...

- أتعثر لأنّني أريدُ أن أقول فيها أشياء كثيرة، ولا أعرف كيف أعبّر عن بعضها، وهناك أشياء أخرى لا أدري إن كنتُ أستطيع قولها.

- ما لا تعرف كيف تعبّر عنه هو الأسوأ - تدخل فيكتور، الذي لم يذق شرابه بعد: فبينما راح الآخرون يشربون بلا حساب، أمضى هو الليلة كلها بكأس أو اثنتين، تناولها برشفات صغيرة-. أمّا البقية فقلها. هناك وقت للقطع والقص، فلا تبدأ بممارسة رقابيّة على نفسك من الآن.

- لا أفهم هذا الهوس الذي لديكم بالدخول في مشاكل - سأل كونرادو وهو يضيف الثلج إلى كأسه.

- أظنّ أن ما يقوله هذا الفلاح اللص صحيح. - كان توماس قد تناول جرعته الأولى وكان يحمل كأسه في يده، مقلوبة نحو الأسفل-. أنا لا أحبّ أن أكتب عن مزاج، وإذا خطر ببالي شيء يمكن أن يسبب مشكلة، أسجله في مكان ما لكنّي لا أكتبه. المهم...

- يا لها من فكرة - قال آلبارو-. وهكذا لا تبحث عن المشاكل، ولا حتى مع نفسك.

- هل تعرف ما سأفعله بالرواية التي أريد أن أكتبها؟ - عاد توماس-. سأنسى السياسة، وسأنسى أيّ شيء فيه رائحة السياسة. لأن الهوس بالسياسة هو ما دمّر الأدب الكوبي.

- لا تكن خنزيراً، صديقي - تدخل ميغيل أنخل، وسيجارته بين شفتيه-. السياسة موجودة في كلّ شيء. بالطبع من الممكن أن نكتب في السياسة، لكن ما لا يمكن فعله هو أن نجعل من السياسة شغلنا الشاغل.

- أنا لا تهمني السياسة في شيء - قال فرناندو-. أنا أكتب شعراً وما يهمني هم الناس، إن كانوا يعانون أو يحبون، إن كانوا خائفين من الموت أو معجبين بالبحر.

- أوَليس هذا موقفاً سياسيّاً؟ - سأل ميغيل أنخل.

- اسمع، نِغرو - صبّ توماس الرون في كأسه ـ مشكلتك أنّك تفطر على الميكروكروم وتأكل عند العصر شمندر بزئبق الكروم. فأنتَ أشد حُمرة يوماً بعد يوم.

- لا تستهزئ، توماس. أنت تعلم أن ما أقوله هو الحقيقة. أمّا أن يركب بعض الكتّاب موجة السياسة ليصعدوا، فتلك مسألة أخرى.

- لا. هذه هي المسألة، هذه هي المسألة - شدد آلبارو وترك كأسه على الأرض-: هناك الكثير من الانتهازيين الذين يتملقون بما يكتبون...

- اسمع، بارو، هل نسيت كم أزاحوا من الناس بسبب ما كتبوا، بل بسبب ما لم يكتبوا؟ - سأل كونرادو.

- لا، لم أنسَ. بالطبع لم أنسَ.

- أنتَ ترى الأشياء سهلة جدّاً - قال أركاديو-. لكن إن طردوك فجأة من عملك، إن لم ينشروا لك... إن لم يسمحوا لك بالسفر...

- إن كان بسبب ما كتبتُ، وأنا مؤمن بما كتبتُ، وكنتُ صادقاً في ما كتبتُ، فسأسكت - قال آلبارو-. لكنّي لن أحني رأسي لكي أستطيع أن أسافر وأنشر وأظهر...

- أراك تصطنع الجرأة والشجاعة...- همس توماس.

- وإذا حدث وغيّرتَ طريقة تفكيرك فعلاً؟ وإذا حدث واقتنعتَ بأنّ ما تكتبه مضرّ وما كان لك أن تكتبه؟ - عاود أركاديو السؤال.

- فأنتَ إذن حقير ومنحط وستبقى حقيراً منحطّاً - أنهى آلبارو حجته.

- نستنتج إذن أنّ من الخير عدم الدخول في تلك المشاكل، كما كان يقول جدي - قال توماس.

- لكنّنا إن لم ندخل في المشاكل فاقرأ علينا السلام - قفز إنريكه-. لا بدّ للأدب أن يكون متصلاً بالواقع، والواقع ليس الجنّة. الأدب هو أيضاً ذاكرة البلد ومن دون ذاكرة...

- هل تعتقد إذن أنّ الكاتب هو الضمير الناقد للمجتمع؟- سأل ميغيل أنخل جادّاً.

- يا صديقي، احشر كتاب الماركسيّة في مؤخرتك - قال إنريكه وكان صوته قريباً من الصراخ-. الكاتب رجل بائس مهموم، يعيش في بلد ويكتب مما يحدث أو مما لا يحدث في البلد. وإن كان هو كاتباً حقّاً، فهو يحاول أن يكون صادقاً مع نفسه، وإن كتب عن المخنثين.

- لكن إذا لم يكتب الجميع إلَّا عن الأمور الجيدة التي تحدث، ولا يضعون أصبعهم على الجرح... - بدأ فيكتور.

- الأدب قطعة من خراء - قاطعه أركاديو.

- وعن ماذا يجب أن نكتب لكي يكون الأدب جيداً؟ - دخل كونرادو في النقاش-. قولوا لي، أيّها السادة النوابغ، عن ماذا يجب أن يكتب الكاتب؟

- لا أعرف، لكنّي أعرفُ ما أريد الكتابة عنه - ردّ فرناندو-: عن الناس، عن الأمل وعن اليأس...

- هذا يقال له حميمية... أم إنّه الفردانيّة؟ - تشكك توماس.

- هذا أمر سهل، فرناندو- قال ميغيل أنخل-. أعتقد أنّ من الواجب الكتابة حول ما يشعر به الفرد وحول ما يؤمن به.

- فإن آمن برجال ميليشيا وقتلة يعلّمون القراءة والكتابة ويمحون الأميّة...؟ - هاجم كونرادو.

- اكتب عن هذا إذن - قال إنريكه-، لكن لا انطلاقاً من انتهازيّة، بل عن عقيدة وإيمان. الغريب أن لا أحد الآن يكتب عن قاتل أو عن رجل ميليشيا مخنّث، فلا شكّ في وجود رجال ميليشيا مخنثين... بل أنا أعرف بعضهم.

- كنتُ أعلم أنّك ستنتهي متحدثاً عن هذا الموضوع - احتجّ أركاديو-. إن لم يكتب الواحد عن المخنثين فليس هو بكاتب. تعال هنا، ألا تدور «كوميديتك السوداء» حول المخنثين؟

- ربّما - قال إنريكه-. موضوع لا بأس به، أليس كذلك؟ ليس من السهل في هذا البلد أن تكون مخنثاً.

- اسمع أيّها الخلاسي الصغير. لا تجرني بالكلام، لن أقول شيئاً - وابتسم إنريكه.

- ويلكم، ها قد أتينا على زجاجتين - هتف توماس-. أنتم تشربون أكثر من ...

- ما أتمناه حقّاً هو أن أكتب رواية عن القرن التاسع عشر - قال ميغيل أنخل-. لأنّني أعتقد أنّ الكاتب يكون أكثر حريّة حين يمرّ وقت على الأحداث، لا أدري، لأنّ الالتزام مع الواقع يكون أقلّ وقد...

- ها قد انتقلنا من «الحميميّة» إلى «التهربيّة» - قال إنريكه.

- لا. أنتَ تعرف أنّ المسألة ليست مسألة تهرّب من الواقع - دافع ميغيل أنخل-. من غير المجدي أن تكتب عن القرن التاسع عشر بعقلية كاتب من القرن التاسع عشر. يجب أن تنظر إلى التاريخ من الحاضر.

- وهكذا لا تمارس رقابة ذاتيّة على نفسك؟ - سأل فيكتور.

- يا للرقابة!- قال كونرادو مغتاظاً.

- مشكلته أنّه لا يكفّ عن فضح نفسه- قال آلبارو وهو يداعب جمجمة موهومة-: أمارس الرقابة على نفسي أم لا أمارسها؟ هذا هو السؤال.

- لكنّي لا أريد الكتابة عن القرن التاسع عشر بسبب الرقابة أو الرقابة الذاتيّة، بل لسبب معاكس لذلك تماماً. هل تعلمون على كم من الأشياء يمارس كتّاب القرن التاسع عشر رقابتهم الذاتيّة؟ السياسة والجنس والدين. والعنصريّة...

- ويلك، نِغرو، واضح أنّك تتهرّب - تدخل فرناندو-. اطرح السؤال على نفسك بهذه الطريقة: على كم من الأشياء من سياسة وجنس ودين وعنصريّة، ولا أدري ماذا قلتَ، يمارس كُتّاب اليوم الرقابة فيها على أنفسهم؟

- هذا يعجبُني - قال آلبارو-. نحنُ نكتبُ عن القرن التاسع عشر ونتركُ ما يحدث الآن لـ «ساخرين» من العام 2074، وهم بدورهم سيتركون مشاكلهم إلى أمثالهم من العام 2174 وهكذا يعيش الجميع في سلام ويكتب رواياته من دون أن يمارس أيّة رقابة على نفسه... أبناء هذا الزمان يسافرون إلى الخارج وأبناء 2072 سيسافرون إلى القمر والذين من بعدهم إلى كوكب بلوتو.

- بالمناسبة، يقولون إنّ معرض كتاب بلوتو هو أفضل معارض المجرّة - قال أركاديو وضحك الجميع إلّا آلبارو.

- إن نظروا إليه من هذه الزاوية فهم على حق - اعترف ميغيل

أنخل- ، لكنّ القرن التاسع عشر يهمّني لأنّي أحبّ تلك الحقبة... في كوبا أسهل عليك أن تكون مخنثاً من أن تكون أسود.

- كان يمكنك أن تكون عبداً، مثل مانثانو، وما كان في مقدور دل مونته، في هذه الحالة، أن يخلّصك، وعليه فالزم الهدوء هنا- قاطعه كونرادو.

- لم يبق إلّا أقلّ من زجاجة... نبّههم توماس مذعوراً.

- صبّ لي قليلاً قبل أن ينتهي - طلب فيكتور.

- وما الذي تكتبه الآن، نِغرو؟ - استفهم فرناندو.

- قصّة. تدور عن أسود يشعر في هذه الساعة بالتمييز والتفرقة.

- أمّاه! - هتف أركاديو-. وكيف سيهضم هذا؟

- بدأت بكتابتها أمس. ربّما أقرؤها عليكم الأسبوع القادم. ما زلتُ لا أتبيّن مسار الأحداث، لكنّي أعرف ما معنى أن تكون أسود. فهذا واضح.

- نعم. أعرفكَ، وأعرفُ ما تريد الوصول إليه - تجرأ إنريكه- الأسود المسكين أمريكي تأكله كلاب الولايات المتحدة العنصريّة.

- وهل الأسود مخنّث؟- سأل أركاديو، وهو ينبّه أركاديو بشفته.

- هل تعلم، أركاديو؟ - بدا إنريكه مستاءً- أنتَ مسكون بمسألة المخنثين إلى درجة أنّني لن أستغرب أن أراك في يوم من الأيام متورطاً مع رجل... أقصد، مع أسود.

- دعوا عنكم هذا - تدخل فيكتور-. اسمع، فرناندو، وماذا عن القصيدة التي كنتَ عازماً على قراءتها اليوم.

- ما زالت لا تعجبني - قال فرناندو-. بين الاجتماعات وبحثي حول هيريديا، لم أتمكن أن أكتب شيئاً تقريباً... هنا الوحيد الذي لا يهدأ هو إنريكه.

- لأنّ الكُتّاب يكتبون - قال إنريكه.

- فأنتَ إذن كاتب؟ - سأله كونرادو.

- أنا نعم، وأنتَ؟

- أنا أتطلّع...

- ما عدتُ أدري إن كنتُ أريد أن أكتب، ولا ماذا سأكتب...- تدخل آلبارو- حين أنتهي من دراستي في الجامعة سأعمل «بارمان».

- باتمان؟ - قال توماس.

- هل تدرون. - قال فرناندو- وأنا أفكر في كلّ ما نتكلم حوله، خطر على بالي أن أتطلع من ثقب صغير إلى المستقبل، لا أعلم، بعد خمسة وعشرين عاماً، وأرى ما الذي سيكون فعله كلّ واحد منّا، وماذا سيكون حال كلّ واحد منّا...

- لا أدري لماذا أتخيّل أنّك سترى أشياء أقبح...- همهم إنريكه.

- ربّما لا - قال فرناندو وطاف بنظره في وجوه أصدقائه-. لا تكن متشائماً، إنريكه.

- ما أراه هو أنّ علينا أن نكتب، الآن وبعد خمسة وعشرين عاماً. هل تعلمون لماذا؟ - توقف ميغيل أنخل عن الكلام مطولاً.

- لماذا، أسود؟ - سأل فيكتور.

- لأنّ الكتابة وحدها تدلّك على ما تريد كتابته، بل على المكان الذي تريد أن تبلغه، إن كنتَ تريد أو لا تريد أن تزاوج السياسة مع الأدب، إن كنتَ كاتباً ناجحاً أم فاشلاً، إن كنتَ تراقب ما تكتب أم إنّ غيرك سيراقب ما كتبتَ من بعد. قد تتشكك، قد لا تدري كيف تعبّر عن شيء، كما يحدث مع إنريكه الآن. لكنّه كاتب، لذلك فسيواصل الكتابة، وهذا هو خير ما يمكن للواحد أن يفعله.

- أشاطرك الرأي - قال فيكتور.

- ليتني أعرف- قال كونرادو؟

- وأنا... - قال توماس- خسارة، انتهى الشراب.

***

اضطرب خوسيه دي خيسوس حين اختفى الضوء. هل هي النهاية؟ الآن؟ من دون ألم، ومن دون سَكرة الموت تقريباً؟ ربّما بقيت ثلاث أو أربع ساعات على حلول الليل، وقد ظنّ، حتى لحظة توقفه عن الإحساس بالضوء، أنّ ما زال أمامه وقت. لاحظ في نوبة الأطباء الصباحية، بلا دهشة ولا خوف، مسؤول الردهة يهزّ رأسه يمنة ويسرة، لكنّه لم يكن في حاجة إلى حركات النفي تلك، مرسومة على وجهٍ يقول «ما- من- فائدة»، لكي يعرف أن لا فائدة ترتجى ولا علاج يؤمّل، غير انتظار وصول موت محتّم، ربّما بادي الكسل والبطء. منذ ثمانية أيام وهو يعاني انسداداً في عضله الشرجي، وقد أدخل، بفضل مساعي إخوانه الماسونيين، في عزبة سيدتنا المقدسة عذراء (كوبادونغا)، حيث أفلحت الحقن الشرجيّة والخراطيم في تفريغ الفضلات القليلة التي طرحها جسمه، الذي عاد عاجزاً حتّى عن أداء تلك الوظيفة. كان بدنه يموت عضواً فعضواً، منهكاً من سنوات العمل الطويلة، ومع كلّ موت جزئي كانت تحلّ راحة انتهاء واحد من الآلام التي تعذبه.

مع ذلك، وبينما كان يموت بالتقسيط، أحسّ بصحوة غامرة تحلّ على ذهنه. لقد ظنّ دائماً أنّ أفضل شيء، لحظة دنو الموت، هو أن يتمّ كلّ شيء فجأة، ليوفر على نفسه لحظات الاحتضار التي شاهد الكثير من المسنين يمرّون بها ويعانونها، ذاوين عاجزين عن التفكير، بعد أن صاروا نباتات ذابلة، ليس في وسعها حتى تمني الموت المخلّص.

من غرفته، العالية الدعامات، الكبيرة النوافذ، المطلة على حديقة تملؤها أشجار الحور والمطاط والبونسيانا الصيفيّة المزهرة، حظي خوسيه دي خيسوس هيريديا بالتطلّع إلى السماء، التي لاحت من وراء كؤوس الأشجار، وأمضى أيامه الأخيرة يتأمّل حركة الغيوم وتغيّر الضياء وتناوب الألوان في قبّة زرقاء تشبه تلك التي تغطّي سقوف المحافل الماسونيّة حيث أنفق ليالي وليالي من حياته. أطلق العنان لذهنه، وهو ينظر إلى حركات السماء، ليحلّق نحو مفترق الطريق الوحيد الذي بدا

له أنّه تركه معلّقاً. فمنذ ليلة عام 1921، قبل خمس سنوات، حين سلّم إلى محفل «أبناء كوبا» مذكرات أبيه، وخوسيه دي خيسوس يعاني كثيراً ويراجع نفسه إن كان أخطأ حين أقدم على فعل ذلك. ومع أنّه ما كان يشكّ في أنّه اختار خير مكان وأفضل أشخاص، فقد كان رفض راميرو خونكو الدخول في تلك القصّة، التي كانت تمسّه مباشرة، يجعله يشكّ في صحّة قراره. أمّا الآن فإنّ مصير الوثيقة، وقد وضعت في المسار النهائي لنشرها، لا يكوي ضميره، بل يحرقه، مثل لهيب لا يخمد، مُصرّ على أن يسلبه هدوء الموت الذي ينتظره. بعد قرن من العيش في كذبة- سأل العجوز نفسه، وهو يرقب خيط السحب الرمادية التي كانت تمرّ متتابعة من أمام القمر-، هل كان من الأفضل الإبقاء على وجه الزيف الجميل أم مواجهة وجه الواقع المريع المتقيح؟ لقد آمن أبوه، وهو رجل من عصر آخر وذو طبع مختلف، بالحقيقة دائماً، وإن لم ينطق بها دائماً، أمّا خوسيه دي خيسوس، فقد كان رجلا بائساً أغلق حياته ولاذ بإحسان إخوانه الماسونيين وراميرو خونكو، الذي صار يرسل له كلّ شهر بعض المال، منذ أن علم بهويته. ثمّ إنّه، في ذكرى إقامته التسعين على الأرض- ثلاثة أضعاف ما عاش أبوه- لم يترك في العالم لا أشعاراً ولا أولاداً ولا شهرة، ومع ذلك، فقد امتلك القدرة، وبأشد أنواع الصمت جبناً وانتهازيّة، من إنقاذ ما كان الزمن قد وضعه في ملاذ ربّما أقلّ ضرراً ومأساويّة بالنسبة إلى الجميع: حتى بالنسبة إلى هيريديا. لقد رافق عذاب الشكّ، الذي أذكاه قرب المنيّة، تلك الساعات الأخيرة الثقيلة، التي كان منظرُ السماء هو المنظر الجميل الوحيد فيها. هي السماء ذاتها التي تناوب فيها، منذ نشأة الكون، الضياء والظلمة.

قبل يومين من ذلك، أخذ خوري العزبة اعترافه، بعد أن تغلّب على تمنّعه إزاء ماسوني ملحد، ومنحه الزيوت المقدسة، بعد أن تلا عليه المسحة الأخيرة. كان خوسيه دي خيسوس كاثوليكيّاً، شأنه شأن الكثرة الكاثرة من الماسونيين في كوبا، وكان دائماً مؤمناً عن قناعة، بالاستناد

إلى حرية العبادة والدين التي تنصّ عليها مبادئ طائفته، وإن كان متكتماً، لذلك لم يكن يذهب إلى الكنيسة إلّا نادراً، ولم يؤدِّ سرّ الاعتراف إلّا منذ سنوات كثيرة. لكنّه، في اليوم السادس من إقامته في المستشفى، وأمام اقتراب ساعة الموت، طلب حضور القس واعترف له بذنوبه. وكان من دواعي دهشته أنّ القسّ باركه ومنحه الغفران وأعانه على أداء صلوات التوبة وصلوات العقائد والصلوات المريميّة والربّانية التي كان المحتضر نسي كلماتها تماماً. وحين انتهى من الصلوات، طلب من الخوري أن يبقى معه دقائق أخرى، وترنّم بصوت خفيض ما صارت عنده أناشيده للسماء: لقد سمحت له ذاكرته المشوشة أن ينشد، بنبرة منخفضة لكنّها واثقة، «نشيد المنفي»، وقصيدة «نياغارا»، بل سمحت له على نحو خاص أن ينشد قصيدة «في هرم قرابين تشولولا»، تلك الأبيات التي ضمنت للخاطئ خوسيه ماريا هيريديا، على الأقل، موقعاً في سماء الرجال، التي لا بدّ، في آخر قرارته في الحياة، أن يحفظ عليها الألوان اللطيفة التي صبغها الزمان بها، أو أن يملأها بسُحب غامقة، مشحونة بطاقة مؤلمة.

في تلك الليلة، كما في بقيّة الليالي التي أمضاها في الضيعة، زارته لجنة ماسونيّة، مكلّفة بالاهتمام بصحته والتحقق من أنّه يتلقى ما يحتاج من عناية ورعاية. كانت سفارة ذلك النهار مؤلفة من ثلاثة إخوة ماسونيين، قرروا، بعد أن سألوه عن حاله وحاجته، أن يخرجوا إلى باب الردهة ليدخنوا ولينتظروا انتهاء الوقت المحدد للزيارات. تمكن خوسيه دي خيسوس أن يستمع، وهو على سريره، الحديث الذي دار بين عوّاده حول ظلم حكومة الجنرال ماتشادو وتعسفها، لكنّه أحسّ برعشة عميقة حين انحرف الحوار عن مساره فجأة ليبدأ أولئك الرجال بالحديث عن الموت المفاجئ للأخ راميرو خونكو في (ماتانثاس) في اليوم السابق. من تلك اللحظة لم يستطع أن يستمع إلى المزيد: لقد تمكن منه قلق أثار انزعاجه، وحين كان إخوانه يهمّون بالانصراف توجّه إليهم بطلب:

- هلّا أسديتم لي معروفاً؟

- ماذا تريد، هيريديا؟ - سأله أحد الماسونيين، وقد انحنى على العجوز.

- بلّغوا ثرنودا وأكينو. أريد أن أتكلم معهما.

- ثرنودا وأكينو من (ماتانثاس)؟ - سأل الماسوني للتأكد بعد أن ظنّه يهذي.

- نعم... الأمر بالطبع مستعجل.

- سنرسل لهم اليوم برقية.

- شكراً - قال خوسيه دي خيسوس وتمنّى على بدنه أن يقاوم حتّى لحظة اللقاء.

نبّهته الظلمة المفاجئة، الخارجة من أعماق جسمه، إلى حلول نهاية باتت تقترب أكثر فأكثر، لكنّه يحتاج الآن إلى تأخيرها إلى حين وصول كارلوس مانويل ثرنودا وكريستوبال أكينو. فحاول حينها أن يهدّئ من روعه، وراح ينتظر.

قدّر أن الوقت كان ليلاً حين أحسّ بوجود أحد في الغرفة. كانت الممرضة قد مرّت عليه قبل ذلك الوقت ببرهة، لتحمل له طعامه وأدويته، لكنّه لم يتناول إلّا الشراب وإلّا قدحاً من الحليب الدافئ، الذي طلب منهم أن يضيفوا إليه ملعقتين من السكّر. لكنّ الصوت الذي يسمعه الآن مختلف عن وقع أحذية الممرضات العسكري، ففتح عينيه على الرغم من الظلام.

- هل أنتما هنا؟- سأل وحاول أن يحرّك بدنه ليبيّن أنّه ما زال حيّاً.

- نعم، هيريديا- وتعرّف في ذلك الصوت على صوت كريستوبال أكينو.

- لا أرى شيئاً - قال-. هل ثرنودا معك؟

- نعم، أنا هنا- وبدا له صوت كارلوس مانويل ثرنودا ضعيفاً، متعباً كصوته.

- ما من أحد غيركما؟

- لا، هيريديا. ما بك؟ ألا ترى شيئاً؟

- سمعتُ أنّ راميرو مات.

- نعم. مات بالقلب - قال أكينو.

- أنا خائف.

تبادل ثرنودا وأكينو النظرات.

- لماذا، خوسيه؟ - سأله ثرنودا، بينما راح يقرّب كرسيّاً إلى السرير. نظر بتفحص إلى العجوز: وهل من خوف آخر غير الخوف من دنو الأجل؟

- أنا خائف على أوراق أبي. يجب إخراجها من المحفل.

- إنها هناك في حرز أمين، هيريديا- همهم كريستوبال أكينو، وهو يهزّ كتفيه بعد أن لم يفهم علاقة ذلك بموت راميرو خونكو.

- أنتما لا تعرفان ما تقول تلك الأوراق.

- هل هو أمر فظيع إلى هذا الحدّ؟

- نعم فظيع - قال ثرنودا، من دون أن يتجرأ على النظر إلى المحتضر-. عذراً، خوسيه، لم أستطع أن أمسك نفسي وقرأتها.

- المستغرب هو ألا تفعل ذلك - قال خوسيه دي خيسوس، وتوجّه نحو المكان الذي افترض أنّ أكينو يقف عنده-. إنّها من قبيل المذكرات التي تركها هيريديا لوالد راميرو، الذي كان ابنه.

- فصحيح إذن أنّ هيريديا...؟- سأل أكينو نفسه، لكنّ غرابة فكرته أوقفته. حلّ الصمت على الغرفة. كان خوسيه دي خيسوس ليتمنّى أن يرى وجهي أخويه، وخصوصاً وجه ثرنودا.

- أبي يحكي عن أشياء من الأفضل ألّا يعرف بها أحد - قال أخيراً-. أشياء عن نفسه، وعن لولا خونكو، وعن ناس كثيرين... يكشف النقاب عن كذب كثير. يقول أيضاً إنّ دومنغو دل مونته وشى به عام 23، وإنّه كان خائناً على طول الخط.

- دومنغو دل مونته؟... لكن، فهّموني، هيريديا لم يكن يريد لمذكراته أن تنشر؟ - لم يكن أكينو مرتاحاً، إنّه يشعر بأنّه لا مكان له في ما يدور، فسأل نفسه، في تلك اللحظة، عمّا حمل خوسيه دي خيسوس على استدعائه إلى لقاء ما زال لا يعرف دوره فيه.

- المسألة خاصة. كان على استيبان خونكو أن يقرر حول موضوع نشرها، لكنّ جدتي هي التي اتخذت القرار النهائي... وأنا الآن من يقرر. أخرجوها وأتلفوها.

استردّ صوت كارلوس مانويل ثرنودا عندها قوته.

- هل أنتَ صاح أم إنّك تهذي؟ أنا لا أدخل في هذا الموضوع - قال ونهض-. تلك الأوراق بالغة الأهمية... نعم، لا بدّ أنّك تهذي...

- لا، هذه هي المشكلة: فأنا الآن أرى كلّ شيء أوضح، وأرى أن من الأفضل ألّا يعرف أحد ما كتب أبي.

- هذا هراء. هيريديا لم يكن أباك فحسب، هيريديا كان أشياء أخرى... أنا لا أدخل في الموضوع - قال ثرنودا وغادر غرفة المستشفى من دون أن ينظر إلى الوراء.

حين رأى كريستوبال أكينو صاحبه ينصرف تمنى لو أنّ الأرض انشقت وابتلعته. إنّه لا يفهم ما الذي يجري، لماذا تصرّف ثرنودا بتلك الطريقة حيال مصير مذكرات رجل مات من سنوات طويلة.

- هل ذهب؟

- نعم، ذهب. ما الذي يحدث، هيريديا؟

- أنا سأموت، أكينو. اليوم أو غداً...

- لا تقل هذا.

- سأموت، لكنّي أريدك، قبل أن أموت، أن تقسم لي أنّك ستحرق تلك الأوراق.

- لكن، لأجل الرب، هيريديا. لماذا لم تحرقها أنت؟ لماذا تصرّف ثرنودا على ذلك النحو؟

سعل العجوز، وحسب أكينو أن بدنه يتفكك. كان سعالاً صادراً من أعمق أعماقه، أجوف ومؤذيا. حين انتهت النوبة، كانت عينا خوسيه دي خيسوس الهامدتان مغرورقتين بدموع لم يعرف كريستوبال أكينو مصدرها الحقيقي إلّا بعد أشهر عديدة.

- ثرنودا تصرّف هكذا لأنّه يعلم ما في تلك الأوراق وهو خائف... أنا لم أحرقها لأنّي فكّرتُ دائماً أنّني ربّما أبيعها في أيّ وقت من الأوقات. حين لم أستطع أن أواصل مقاومة الإغراء، بل والجوع، قررتُ أن أحملها إلى المحفل. حينها قصصتُ على راميرو خونكو ما يقوله أبي عن عائلته وطلبتُ منه أن يحتفظ بها، لأنّه هو مالكها الحقيقي.

- وماذا قال؟

- لم يشأ أن يعرف شيئاً عن الأوراق... وبعد شهر بدأ يرسل لي نقوداً. إنّه ابن أخي، هل فهمتَ الآن؟ أبوه هو أخي.

شعر أكينو أنّ الحال تستدعي أن يدخن. تحسس علبة السجائر في جيبه، لكنّه أمسك. كان يحاول أن يعيد وضع العالم تحت ضوء تلك الكلمات، لكنّه شعر بأن العالم يهرب من بين يديه.

- كنتُ سأساعدك أنا أيضاً، أقصد، بالمال...

- لا تكمل. ألا ترى أنّ ذلك أسوأ؟

- بلى، عذراً - اعترف الآخر.

- أقسمْ لي الآن، من فضلك. أقسم لي أنّك ستحرقها. هل يكفيك أن أقول لك بأنّ هذه هي رغبتي الأخيرة؟

تطلّع أكينو إلى خارج الغرفة ورأى القمر بدراً منيراً متلألئاً.

- سأخرج لحظة لأدخن.

رأى أكينو أنّ ضياء القمر يحجب النجوم. قضم سيجاراً وأشعله ومن وراءه صوت سعال العجوز الجاف المتواصل. ابتلع الدخان بشراهة وأحسّ في روحه بشيء شبيه بالألم، مبعثه صورة الرجل الذي يطلب منه، وهو على فراش موته، أن يقسم له قسماً غريباً يفوق قدرته وإمكانياته.

لماذا تحدث له تلك الأمور؟ ولماذا انصرف ثرنودا كالهارب؟ لا بدّ أنّ قصّة مؤلمة تقف وراء إخفاء تلك المخطوطة حتّى يمتنع خوسيه دي خيسوس عن بيعها، ويطالب، بعد أن سلّمها إلى المحفل، بإتلافها. ولكن، ما علاقته هو بكلّ ذلك. إنّها رغبة خوسيه دي خيسوس الأخيرة. نظر إلى جمرة سيجارة وقال لنفسه ما عاد من شيء يضرّ بالمحتضر.

- حسناً، هيريديا - قال، حين عاد إلى الغرفة، واكتشف أنّ رأس العجوز مال إلى جانب، بينما صارت تخرج من فمه حشرجة طويلة صماء. وضع كريستوبال أكينو يده المرتعشة على صدر خوسيه دي خيسوس، باحثاً عن نبضه، وأحستْ أصابعه بحافة صَدَفة بحرية، مربوطة بشريط غامق، تدلى منه أيضاً صليب فضي. حينئذٍ توقفت الحشرجة، وبدأ الصمتُ الأطول.

***

أحسّ بنظرة العينين الحمراوين قبل أن يستفيق من نومه. كانت كالدثار الساخن الذي يحرمه من نسمة المروحة. لقد أجبرته أولاً على التململ ثمّ على فتح عينيه ليجد ميغيل أنخل واقفاً قبالة فراشه وبيده فنجان القهوة. منذ سنوات كثيرة وفرناندو لا يستمتع بترف القيلولة إلّا في بعض أيام الأحد أو في وقت العطلة. إنّه يعرف أنّ استيقاظه بطيء، يصحبه في العادة سوء مزاج لا يفارقه إلّا بعد أن يشرب فنجانين من القهوة ويدخن سيجارتين. لكنّ بدنه، في ذلك العصر، وبعد صحنين من التمال[78] الذي أتحفته به أمّه، أشار عليه بأنّ خير ما يمكنه فعله بعد الطعام هو قيلولة يقضيها في سرير كونسويلو، كما اعتاد أن يفعل أيام ما قبل الجامعة. كانت أيامه في كوبا طويلة وشديدة، وبدا التعب عليه واضحاً، أمّا ما كان يتعبه حقّاً فهو أنّ طرقه لا تقوده، في ما يبدو،

78- Tamal من الأطباق التقليدية في أمريكا الوسطى. يصنع من عجين الذرة المحشو باللحم والخضار والملفوف بالأوراق النباتية (أوراق الذرة أو الموز) أو حتى أوراق الألمنيوم أو البلاستيك، ومطبوخ بالماء أو بالبخار.

إلى النهاية التي يتمناها: فلا أوراق هيريديا، ولا الكشف عن الصديق الخائن، ولا العلاقة التي يسعى إليها مع دلفينا. أمّا ما كان يشعره بالكآبة حقّاً فكان تحققه من أنّه عاد إلى بلد يتطلّب أن يشرحه الآخرون له، بلد عادت مرجعياته القديمة مفرغة من معناها، مهملة بالية.

- قهوة للطفل - قال ميغيل أنخل حين رآه يحرك جفنيه ويوجه إليه نظرة باهتة.

- ويحك، نِغرو، عكرت عليّ نومي - احتجّ، وهو يجاهد للجلوس على السرير. رفع ذراعه ببطء وتناول الفنجان، وأحسّ بأنّه يستردّ مع كلّ رشفة من القهوة جزءاً من خلاياه العصبيّة.

- وفيمَ تعمل الآن؟ - سأل، وقد نهض على قدميه-. انتظر، دعني أذهب إلى الحمام لأتبوّل وأغسل وجهي. واذهب أنتَ إلى الشرفة.

كانت الشرفة، حتى في أشدّ أيام الصيف حرّاً، باردة لأنّها تستظلّ بشجرة جوافة وشجرة مانجو وشجرتي أفوكاتو وارفتي الظلال كان والد فرناندو قد زرعها حين كان هو صبيّاً.

- ها قد صحوتُ - قال وهو عائد من الحمام، بشعر مبلل، وفي يده فنجان آخر من القهوة. نظر إلى الأشجار وتكلم وكأنّه يخاطبها-. نِغرو، أريد أن أشكرك على أنّك داومتَ على المرور ببيتي. أمي كانت تخبرني بذلك في رسائلها.

- كنتُ آتي لأراها ولأشرب قهوتها، لا لأراك.

نظر إليه فرناندو: ها هو ميغيل أنخل يبدو مرتاحاً وهادئاً، يتأرجح على الكرسي القديم، وسيجارته بين شفتيه.

- رأيتُ توماس أمس. قال لي إنّ مشرفتك تريد أن تراك...

- وكيف عرفت العجوز بوجودي هنا؟

- الدكتورة سانتوري تعلم بكلّ ما يجري، أليس كذلك؟

- لا أدري إن كنتُ أرغبُ في رؤيتها...- همهم فرناندو، وفي ذهنه صورة معلمته العجوز.

- كيف سارت الأمور في موضوع هيريديا؟

- لم يظهر شيء. - توجه فرناندو للجلوس على كرسي قبالة ميغيل أنخل تقريباً.

- إذا لم يظهر، ففي إمكانك أن تخترع الرواية. لقد اخترع دومنغو دل مونته وإيتشيباريا والآخرون «مرآة الصبر»، فهنا يمكن اختراع الكتب التي نحتاجها.

- هل ما زلتَ تظنّ أنّ «المرآة» هي من اختراع هؤلاء القوّادين؟

- تزداد قناعتي بذلك يوماً بعد يوم. تذكّر أنّ اختراع أدب بلد ما يتطلب تراثاً، وليس أفضل من قصيدة ملحمية ممثّلاً لذلك التراث. فإن كانوا اخترعوا الأدب الكوبي وألّفوا الكتب المطلوبة، ألا تبدو لك صدفة غريبة أنّ يكونوا هم أنفسهم من عثر بالصدفة أيضاً على قصيدة ملحميّة مفقودة من قرنين، لا يعلم أحد عنها شيئاً ولم يسمع بها أحد، كتبها رجل انشقت الأرض وابتلعته؟ أنا على الأقل لا أصدق هذا الكلام...

- لكن ما من أدلة. أنتَ تعلم أنّني أمضيتُ سنين أراجع سيرة كلّ واحد منهم ولم أخرج إلّا ببعض الشكوك. أكرر أنّ ما من دليل واحد على أنّهم اخترعوها.

- وما من دليل أيضاً على أنّهم لم يخترعوها. هل اطلع أحدٌ على المخطوط الأصلي الذي كتبه سلفستري دي بالبوا؟[79] لم يرَ أحد النسخة التي عثروا عليها... فرناندو: «المرآة» عمل كامل، فيه من الكمال ما يلزمه، ولذلك فقد اخترعوه وأجادوا حبكه، لم يتركوا أثراً ولا خيطاً سائباً، ولم يتكلّم أحد... أوَليس دل مونته خبيراً في المكائد والتزييف؟

- ومن منهم، في رأيك، هو كاتب «المرآة»؟- سأل فرناندو، وتذكر أنّه أثناء بحثه حول القرن التاسع عشر الكوبي كانت شكوكه حول صحة

79- Silvestre de Balboa (1563-1644). كاتب أصله من جزر الكناري. يقال إنّه كتب أوّل نصّ في الأدب الكوبي.

تلك القصيدة الملحمية، التي يزعم أنّ شخصاً يدعى سلفستري دي بالبوا كتبها في حدود عام 1608، تطلّ برأسها كما تفعل الأفعى: كان النص مناسباً وضرورياً وتامّاً (كما وصفه ميغيل أنخل)، وكان الغموض الذي أحاط بحادثة العثور عليه من الشدّة أنّ ذكاء فرناندو وسواه الكثير الدارسين لم يتقبّل تلك الحالة الواضحة والكبيرة من التزييف الأدبي.

- أنا أرى أنّ الفاعل هو إيتشيباريا - قال ميغيل أنخل-. وربّما هو دومنغو دل مونته نفسه. فعرض الثمار الكوبية الذي يقدمه في «المرآة» أكثر مناسبة لمزاجه من الحذاء الذي يلبسه، والذي يدين به للسيد آلداما، والد زوجته.

- لم يرق لك دل مونته قط.

- لا، وأنت تعرف ذلك. إنّه ابن قحبة فطن ضحك على نصف العالم.

- لكنّه تنازع مع مناصري الاندماج. ونظّم حملة لجمع المال وشراء حرية مانثانو...

- لأنّه وجد فيها دعاية جيدة له. ما عاد والد زوجته آنذاك يتاجر بالعبيد. بل على العكس، لم يكن من مصلحته أن يواصل تلك التجارة، وكانوا يريدون أن يوهموا أنفسهم بأنّهم إنسانيون محسنون. ووجدوا في العبد الأسود الشاعر عزّ الطلب. لكنّ دومنغو دل مونته كان يعامله كما يعامل الحيوان الصغير: بل كان يعيد له كتابة القصائد... وأضاع القسم الثاني من سيرة مانثانو الذاتية. فلماذا يضيّع كتاباً ويعثر على آخر؟ لأنّ سلفستري دي بالبوا كان نافعاً أمّا كتاب مانثانو الأسود فلا. الله يعلم ما الذي حكاه عن حياته وهو عبد.

ابتسم فرناندو: ميغيل أنخل ما زال كما هو. حين يؤمن بشيء فهو لا يتقبل أيّ تشكيك، حتى لو كان من الآخرين، وأحكامه قاطعة كأوصافه.

- وأخيراً أخطأ دل مونته - واصل ميغيل أنخل كلامه-، ودفع الثمن غالياً. بسبب السود...

- أنا أرى أنّه تجاوز الحدّ. لكي يبدي لطفه للإنكليز ويبدو أطهر وأنقى من الجميع. لكنّ أحدهم أبلغ عنه، فكلّ ما يحدث هنا تشيع أخباره.

- لكنّهم لم يتأكدوا من أنّه تآمر.

- لأنّه لم يتآمر. ولماذا يتآمر وهو يملك الأموال التي يملك، ويعيش الحياة التي يعيش؟ لماذا يتآمر وهو الذي ينعم بكلّ شيء؟ لكنّه أراد الإيحاء بأنّه شديد، لكنّه اهتزّ بعد ذلك وجبن واعترف بكلّ ما يعرفه و... سأل عن أقرب الطرق وأسرعها، ثمّ لم يتوقف إلَّا في فرنسا.

- ولماذا لم يرجع حين أسقطت عنه التهم؟

- ما أغربك، فرناندو. هذا واضح: إن عاد فسيعلم الجميع أنّه هو من سرّب خطط الإنكليز وأنّه المسؤول عن فشل ثورة العبيد عام43. أمّا في باريس وفي مدريد فيمكنه أن يقول إنّه ملاحق في كوبا، بل يستطيع الكتابة عن ذلك في الصحف... في مدريد، ويحك!

- نِغرو، أنا أيضاً لا أحبّ هذا الشخص، لكن ما من أدلّة على أنّه وشى.

- قل إننا لا نمتلك أدلة، لكن هناك رسائل كتبها تدينه. بعد ذلك حاولوا أن يعتّموا على الموضوع، أليس كذلك؟ فبالمال يمكنهم شراء أيّ شيء.

- هذه حقيقة.

- طبعاً حقيقة، بالطبع - كرر ميغيل أنخل وبقي صامتاً، ضائعاً في قلقه.

- وأنتَ كيف تمشي الأمور معك؟- سأله فرناندو-. استغربت أنّك لم تمرّ بنا.

- أنا لا أخرج تقريباً من بيتي. أوشك الآن على الانتهاء من روايتي. لا أفكر في شيء غير ذلك.

- توشك أن تنتهي منها؟

- وصلتُ إلى الجزء الأكثر تعقيداً. أنا مقتنع الآن بأنّه قطعة الخراء الأكبر. ما عدت تقريباً أتحمِلها... وضعتُ في هذه الرواية ما عندي وما ليس عندي، ولم تكن كتابتها سهلة. في هذه السنين حدثت لي أشياء كثيرة.

- هل تريد أن تتكلم عن ذلك؟ - سأل فرناندو، الذي كان يستعدّ للدخول في ذلك المستنقع، الذي يتعانق في قاعه هو وميغيل.

- لا أدري...

- انتظر، سآتي بالمزيد من القهوة.

عاد بفنجانين وألقى على الطاولة بعلبة سجائر.

- فرناندو، هل تذكر حين تشاجرنا مرّة عند الخروج من المدرسة؟

ابتسم فرناندو وحرّك رأسه.

- قبل أكثر من أربعين سنة... أنتَ قلتَ لي إنّني متعجرف وأنا قلتُ لك إنّك قرد أسود متوحش ومتسلّق...

ضحك ميغيل أنخل أيضاً وهو يستحضر تلك القصة القديمة.

- كنتُ دائماً عنيداً، وأمضيتُ حياتي في سباق مع العالم، وخصوصاً مع نفسي. كنتُ على قناعة من أنّني الأفضل وأنّ عليّ أن أثبت ذلك... لذلك اخترعتُ مقولة إنّني فخور بسوادي وإنّني أستحمّ مرتين في اليوم وإنني أدرسُ أكثر منكم جميعاً، لم أذهب يوماً إلى احتفال قرع للطبول[80] ولم أخبركم يوماً إن كنتُ معجباً بفتاة بيضاء. ما أعقد ما كان يدور في رأسي...

- هل تدري ماذا أتذكّر؟ أتذكر كيف أصبحنا أصدقاء بعد الشجار...

- أتذكر. كنا نتشاجر على كلّ شيء طوال تلك السنة الدراسية. لكن حين وصلنا إلى المرحلة السادسة اقترحتَ أن أكون أنا عريف الصف.

80- Toque de Santos من الاحتفالات الشعبية في كوبا التي يحتفل بها أثناء الأسبوع المقدس.

وقد فكرتُ أن أجازيك بالمثل وأقترحَ أن تكون أنتَ العريف، لكنّي سكتُّ، لأنّي كنتُ أتطلع إلى ذلك. ذلك اليوم عاودنا الحديث بيننا، ومع أنّي كنتُ في الحادية عشرة فقد انتبهتُ إلى أنّك أفضل منّي...

- لا تتفلسف، نِغرو. أنا طرحتُ اسمك لكي لا يطرحوا اسمي. لقد فعلتُ ذلك لأورطك...

نظرا إلى عينيّ بعضيهما وابتسما: على تلك المنافسة ولدت صداقة طويلة استخدمها فرناندو ترياقاً لشكوكه.

- أمّا عمّا جرى لي الآن فليس لديَّ كلام كثير - قال ميغيل أنخل-. لقد غيّرتُ جاكيتي، كما يقول بارو.

- بل غيّرتَ حتّى سروالك، نِغرو.

- لقد بدا لي كلّ شيء غريباً فجأة وأصبتُ بالإحباط... بعد ذلك طردوني من الحزب، ومن العمل وأصبتُ بارتفاع الضغط. قبل سنتين أصابتني حالة من الإغماء وكنتُ على وشك أن أموت.

- وممَّ عشت؟ أعلم أنّهم نشروا لك الروايتين في فرنسا.

- نشرتها دار بائسة لم تدفع لي إلّا القليل. لكنّي أشكر لأركاديو أن عثر لي عليها...

- إذن كان أركاديو؟

- نعم، لقد تصرّف جيداً معي. لكنّه طلب منّي ألّا أخبر أحداً بذلك.

- غداً يقدم تراتيل شعرية. هل ستذهب؟

- لا. أفضّل ألّا أذهب.

- لكن هذا شيء مؤلم، نِغرو: بارو لن يذهب لأنّه يقول إنّه لا يهضم أركاديو. وكونرادو، لأنّه مشغول. وتوماس، لأنّ الشعر لا يستهويه. وأنتَ، لأنّك لا تريد أن يشاهدوك في حفل عام. وإنريكه وفيكتور، لأنهما لا يقدران... هل هذا هو ما بقي مما أراد «الساخرون» أن يكونوه؟

- وهل يبدو هذا غريباً لك؟ أمّا أنا، فالأمر يبدو لي طبيعيّاً. ذلك كان

حلم صبية صغار، أمّا هذه فهي ماكنة طحن الناس التي تسمى الحياة الواقعيّة.

- نعم، لا بدّ أنّ هذا هو السبب... وأنتَ كيف تدبّر أمورك في الحياة الواقعيّة؟

- أعيش على ما أجد. أحياناً أترجم عن الإنكليزية، أو أعطي دروساً إلى من ينوون الذهاب إلى الشمال. من حين لآخر تُنشرُ لي قصّة في المكسيك أو في إسبانيا. لكني لم أدخل في لعبة أحد، وما من أحد يروّج لي ويدعمني. أنا مثل إشارة طريق في الفضاء.

- ولماذا كتبتَ المقالات التي ظهرتْ في إسبانيا؟

- لأنّي افترضتُ أنّ من الواجب أن أفعل ذلك... ليتني تمكنت من فعل ما فعلتَ أنتَ. لو أنّي سافرت لتجنبت، ربّما، الوقوع في ألف مشكلة. لكن تذكّر أنّني أسود وسأظل أسود أينما حللتُ. أنا هنا في شدّة وضيق، لكنّي حين أسير في الشارع أظلّ شخصاً. ثمّ أنا أعتقد أن من غير الواجب أن أذهب إلى أيّ مكان...

- أنا رحلتُ بعد أن لم يبقَ أمامي حلّ. لم أستطع المقاومة. لو أنّ تلك الرسالة وصلت قبل وقتها... حسناً، أنتَ تعرف...

- بالطبع أعرف. أم نسيتَ أنّني غامرتُ ببطاقتي الحزبية يوم حملتُكَ إلى الميناء للسفر؟

- لا لم أنسَ. هناك أشياء كثيرة لا أنساها. جيدة وسيئة، نِغرو.

- فرناندو، صارحني، هل ما زلتَ تظنّ أنّ من الممكن أن أكون أنا من رمى بكما تلك الرمية أنتَ وإنريكه؟

- لا تسألني هذا السؤال... لا أريد أن أتكلم عن هذا الموضوع.

- لماذا؟ هل تخاف أن تردّ عليّ بنعم؟ طبعاً، بما أنّني كنتُ الشيوعي البارز في المجموعة، فلا بدّ أنّني كنتُ أمتلك أوراقاً أكثر من الآخرين...

ألقى فرناندو بعقب السيجارة إلى الباحة ونظر إلى عيني ميغيل أنخل، التي قطعتها أوردة غامقة.

- أنتَ تعرف من هو الفاعل. فهو لم يهبط من السماء. بل لقد قرأ رجلُ الأمن أشعاري... لكنّي لا أستطيع ولا أريد أن أشكّ فيك. فقد كنت دائماً بمثابة الأخ...

- أنا أفهمك، فرناندو، وأعرف ما تشعر به. فالواحد منا يصبح نصف مجنون ولا يثق حتّى بإخوته...

- ليته الجنون، نِغرو. أسوأ ما في الأمر أنّ المسألة حقيقية. كان أحد...

- فرناندو، فرناندو- تأسف ميغيل أنخل وأشعل سيجارة أخرى. يعجبه أن تكون السيجارة في فمه طوال الوقت، فلا يرفعها عنه إلّا لنفض الرماد عنها، حتى صار لون شاربيه أرجوانيّاً.

- اسمع ميغيل أنخل، أحد الأمور التي كانت تمنعني من المجيء إلى كوبا هي هذه القصّة.

- نعم، لكنّك مهما رغبت في ذلك، فلن تستطيع نسيانها... مع ذلك فهناك طريقة للتحقق من الأمر.

- نعم...، بأن أسأل: نِغرو، هل كنتَ أنتَ الفاعل؟

دخّن ميغيل أنخل بشراهة، لكنّه ركّز فيه نظره.

- سأجيبك الآن - قال-، لكن دعني أقلْ لك شيئاً قبل ذلك. الفاعل يحمل على ظهره جثة إنريكه وفي عنقه ذنب كلّ ما جرى لك. هل تعتقد أنّه سيقول لك ويعترف بأنّه قتل أحدكما ودمّر الآخر؟ هل تعلم ما هي الطريقة الوحيدة لكي يصرح لك بالحقيقة؟

- كيف؟

- إذا تعهدت له بأن تعفو عنه.

- أنا أتعهد له بذلك.

- حقّاً؟

- نعم.

- تعهدْ بذلك لي.

- أتعهد لك بذلك.

- كلا. اسألني الآن.

- ويحك، نِغرو، لا تقل لي...

- أسألني، يا رجل!- صرخ ميغيل أنخل وسقطت السيجارة على ساقيه. حينئذٍ نهض من دون أن يبعد نظره عن فرناندو- اسألني!

نهض فرناندو وشعر بيديه تتعرقان. هل كنتَ أنتَ، نِغرو؟ سأل نفسه.

- هل كنتَ أنت؟

تأخر ميغيل أنخل في الردّ، وعيناه دائماً حمراوان ومركزتان في فرناندو.

- لا - قال-. لم أكن أنا. فلو كنتُ أنا، لكنتُ قتلتُ نفسي - أكّد، وهو يرفع سيجارة أخرى إلى شفتيه ويشعلها-. لكن أستطيع أن أساعدك على التعرف على الفاعل.

***

لطالما عدّني من عرفني ومن لم يعرفني شخصاً صاحب نزوة وهوى، ولطالما اتهموني بأنّي عشتُ حياة شاعر، مغالية دائماً، وعلى حافة المغامرة، ولكن من دون أن أتجرأ على الوصول بها إلى آخر المدى. يقولون إنّني، لكي أصنع لي شخصيّة متفردة، اختلقتُ مغامرات عاطفيّة وحالات هجر ومشاهد غيرة، صنعها خيالي الرومانسي المحموم. بل لقد قالوا عنّي إنّني جبان، ورفعوا دليلاً على ذلك الرسالة التي كتبتُها في تشرين الثاني المشؤوم من عام 1823 إلى المدعو فرانثيسكو إرنانِدِث موريخون، مفتش التحقيق في قضيّة «شعاعات بوليفار وشموسه» في مدينة (ماتانثاس). في تلك الرسالة تنصّلتُ من كلّ مسؤوليّة، وأظهرتُ للجلاد يديّ اللتين لم يلطخها دم، واعترفتُ له أنّني لم أحاول قط أن أناضل من أجل الاستقلال، وأنّ كلّ ما فعلته هو أنّني أردتُ خلق أجواء تساعد عليه، ضمن الحدود الدستورية للبلد الذي ولدتُ على أرضه...

لكنّ من حاكموني تساءلوا: وكيف يمكن للقلم ذاته أن يسطّر، وفي اليوم ذاته تقريباً، رسالة البراءة تلك وقصيدة «نجمة كوبا»، التي تعدّ واحدة من أكثر القصائد الوطنية التي كتبت في الجزيرة إثارة لمشاعر الألم؟ «إذا الشعب لم يجرؤ على تحطيم قيوده بيده // فما أسهلَ ما سيتناوب عليه الطغاة/ ولن ينال حريته أبداً».

لكن، كيف لأحد من الذين يدينونني أن يتصوّر مبلغ الألم الذي أصاب قلبي وأنا أقرأ رسالة حبيبتي وأسمع، في الوقت نفسه تقريباً، بأنّ أصدقائي، الشقيقين آرانغورين وأنطونيو بيتانكور، أشاعوا أنّي واحد من «الفرسان العقلاء» وأنّي أحمل مرتبة «الشمس» وأنّي أنا من جنّدهم هم وسواهم في المؤامرة؟ طلبتْ مني الماركيزة رَيْنا ماريا، بعد أن سمعتْ بخبر الوشاية، أن تتحدث معي على انفراد. قالت لي، في مهابة وجدّ لم أعهده فيها من قبل، إنّها ما عادتْ، وقد باتت حالي غير حالي، قادرة على أن توفر لي السكن في بيتها لوقت أطول، لكنها استدركت قائلة إنّ ذلك لا يعني أنّ عليّ أن أخرج فوراً، بل حين نجد بديلاً آمناً. وكررتْ عليّ طلبَ لولا في أن أهرب من كوبا، وعن أيّ طريق، حين يبدؤون بمطاردتي، فحريتي أهمّ من إقامتي سجيناً. كنّا جميعاً نعلم أنّ الأعمال الانتقاميّة يمكن أن تكون جذريّة، وحبيبتي ترجوني أن أظلّ حرّاً وعلى قيد الحياة، وأن أفعل أيّ شيء لأترك باباً مفتوحاً لعودتي. وهكذا، وبيدين موثقتين، وبقدم في السجن تقريباً، طلبتُ من الماركيزة أن تتصل بخالي، وهو الرجل الوحيد الذي أستطيع الوثوق به، ليخرجني من المزرعة ويبحث لي عن السبيل إلى الهروب نحو أيّ بلد مجاور.

جلستُ، ورسالة لولا أمامي، وتوسلاتها ترنّ في سمعي؛ بقلب متألم من الوشاية، وبشعور مرير من طيش قادة مؤامرة كانت أشبه بحلبة سيرك؛ أفكّر في سجن قد يدوم سنوات أو مشنقة قد أموت معلقاً فيها، جلستُ ليلة الخامس من تشرين الثاني ذاك من عام 1823 في الحجرة التي خصصتها الماركيزة لي، وكتبتُ، بجرّة واحدة، ومن دون شعور بالعار

ولا تردد، رسالتي التي وجهتها إلى قاضي التحقيق في (ماتانثاس). لم يكن قصدي أن أخلّص نفسي ولا أن أعتذر: كنتُ أحاول فحسب أن أضمن عودتي إلى كوبا لألتقي بزوجتي وبثمرة حبّنا المقدسة، الطفل الذي سيولد وأنا بعيد عنه. ذلك هو الشعور الوحيد الذي كان يحملني على مواجهة موقف مخجل مثل كتابة رسالة طلب البراءة لم أتّهم فيها بالطبع أحداً، ولم أورد فيها ذكراً لأحد، ولم أحرج فيها أحداً من الذين اعتقلوا. لم اهتمّ للمخاطر التي سأتحملها مستقبلاً، أو التي أتحملها الآن، لأنّ اليد التي كتبت تلك الرسالة كانت تتحرك مدفوعة بأقدس الدوافع وأسماها: دافع الحب.

في صباح اليوم التالي، حين وصل خالي إلى المزرعة، سلّمني نسخة من قرار الاعتقال الصادر بحقي، وسلمتُه الرسالة التي كتبتها إلى القاضي واستودعته معها مصيري. كان من حسن حظي، ومن حسن صنيع إغناثيو المعهود، أنّه حصل لي على سكن مؤقت، في مكان آمن: انتقلتُ إلى بيت خوسيه آرانغو، وهو أحد أصدقائه المقربين، وأحد سكان المدينة البارزين الذين يحظون بتقدير السلطات واحترامها.

كانت الرحلة إلى (ماتانثاس) هذه المرّة، عبر وادي (يوموري)، من قبيل النزول إلى الجحيم. كنتُ على بعد شهرين من عامي العشرين، وكان الرجل الذي صنعته الظروف منّي يبدو أقرب إلى نهاية كلّ شيء منه إلى بداية الحياة: تراكمتْ مشاعرُ السخط والنفور والإحباط والغضب والألم في داخلي وامتزجت بالخوف والعار اللذين ظهرا أيضاً بعد أن سلّمتُ الرسالة... الحب وحده، الذي تلقى الصدمة والعذاب، هو ما ظلّ قائماً، منزوياً في قلبي، راغباً في الانتهاء من كلّ الجنون الذي سيطر على وجودي في سنّ لا تهتمّ أغلبية الرجال فيها عادة بلون جواربهم وبريق شعورهم إلّا قليلاً.

في غرفة صغيرة، توفرت لي فيها الشموع والنبيذ والكتب، أمضيتُ الأيام الثمانية ضيفاً على دون خوسيه آرانغو. وسلّم خالي الرسالة إلى

السلطات وانتظر إشارة قبول منهم، ولكن من دون أن يتوانى في تأمين خروجي من الجزيرة.

أثناء لجوئي عندهم، كانت الشابة اللطيفة «بيبيّا»، ابنة دون خوسيه، وهي المعجبة بأشعاري بالطريقة النقيّة التي تتقنها النساء، تزورني في غرفتي صباحاً وعصراً لتسليني في وحشتي وتخفف عنّي وحدتي. اعترفتُ لتلك الفتاة، المهذبة المتفهمة، ذات ليلة بكلّ أسراري، كنتُ في حاجة إلى من أستودعه إياها، فكأنّ ذلك الشرط كان ضرورياً لكي تتبلور مصيبتي. طلبتُ منها أن تبحث لي عن تانكو وأن تطلب منه أن يأتي لزيارتي لأكلفه بجمع أشعاري المنشورة. سلمتُها أيضاً رسالة أودّع فيها حبيبتي لولا (وكلّي ظنّ أنّه سيكون وداعاً مؤقتاً). كم أقسمتُ في تلك الورقة على أن حبنا سيكون أبديّاً. وشرحتُ لمحبوبتي في تلك الرسالة أغلى ما كنتُ أتمناه آنذاك: أن أعيش معها حياة وادعة، بعيداً، في مكان لا مجال فيه للحديث عن سياسة ولا عن عبودية، لا عن مال ولا عن ملوك؛ مكان خارج التاريخ، لا يعرف العالم وتوتراته له سبيلاً، حيث لا يسمع بقصائدي أحدٌ، ولا يقرؤها سوى فردين اثنين: امرأة حبيبة وولد عزيز.

في مساء اليوم الثالث عشر أرسل لي خالي رسالة يطلب فيها منّي الاستعداد، فقد سار كلّ شيء وفق ما هو مرسوم، وسأركب في الليلة اللاحقة في الباخرة (جلاكسي)، المتجهة إلى (بوستون)، في الولايات المتحدة. لكنّ التبليغ لم يهدئ من روعي، بل لقد سبّب لي قلقاً غريباً، وتذكرتُ، في تلك اللحظة، الوداع الحاشد والمحزن الذي أقمناه قبل عام مضى للأب باريلا. خرجتُ من غرفتي مؤرقاً، وتمشيتُ في باحة البيت الداخليّة، وبي شعور من يحتاج إلى هواء وفضاء. كان يقلقني أن أرحل من دون قصائدي، وهي كلّ ما أملك، لكنّ تانكو لم يظهر. نظرتُ حينها إلى شجرة المانجو المعطاء، وكانت تحجب السماء تقريباً، وتشبثتُ، من دون تفكّر، بجذعها وبدأتُ بتسلقها لكي أقفز منها إلى سطح المسكن. من هناك، وعلى ضوء القمر، وكان بدراً، تأملتُ الخليج،

يغصّ بالمراكب المضاءة بمصابيح فناراته. نظرتُ إلى سطوح البيوت الكالحة. الشوارع الخالية. الجبال، البعيدة، الجاثمة كالحيوانات وقت سباتها. ورأيتُ مياه نهر (يوموري) تتهادى، أكاد ألمسها تقريباً، وسألتُ نفسي، والدموع تملأ عينيّ، كم سأبقى بعيداً عن ذلك المكان، بعيداً عن أرضي، محروماً من استنشاق هوائي وعناق امرأتي. كانت أجوبة خيالي قاسية، لكنّي لم أتصوّر أنّ الواقع سيردّ عليّ بأجوبة تتجاوز في قسوتها العقوبات التي في مقدور شاعر شاب أن يتخيلها. في اليوم التالي بدأتُ منفاي، ومعه بدأتُ أدرك كم هي محدودة السعادة وكم هو مطلق الألم.

القسم الثاني

المَنَافِي

البَحْرُ ورِحْلاتُ العَوْدَة

... حان وقتُ انتهاء رواية حياتي

لكي يبدأ واقعُها

خ.م.هـ 20 أيّار 1827

- عبثاً حاول فرناندو تيري أن يستحضر ذكرى المرة الأخيرة التي صعد فيها إلى سطح بيته. وعلى الرغم من أنّ تلك البقعة كانت قريبة منه وفي متناوله، فقد كان لها في نفسه دائماً طعمُ جزيرة غريبة غامض، لذلك كانت ملجأه الذي يلوذ به لينعم بالحرية. لقد ظلت العديد من رحلاته إلى السطح، بالتسلق على قضبان الشباك والتشبث بالأنبوب النازل من خزّان الماء، عالقة في ذاكرته عبر الزمن والمسافات. يتذكر صعوده إلى السطح ليلة اختار أن يبكي وحيداً موت أبيه. ولكن، متى كانت آخر رحلاته إليه؟ لم تسعفه ذاكرته بالجواب، ربّما لأنّه جاهد لتذكّر المرّة الأولى التي قرأ فيها، وهو في ذلك السطح، سؤال خوسيه ماريا هيريديا المأساوي حين أدرك، وبه قلق من تفاوت الأقدار التي تلاحقه، طبع الشخصيّة القصصيّة التي تسكنه، وسأل - سأل من؟- إلى متى سيعيش تلك القصّة الخيالية التي تلفّ حياته والتي لا يستطيع منها فراراً...

صرّت ركبتاه وتصلّب ظهرُه وهو يصعد. تسارعت أنفاسُه وخشي في لحظة من اللحظات ألّا يتحمّل الأنبوبُ وزنه. وحين وصل أخيراً إلى الخزّان، الساخن من أشعّة الشمس، فكّر أنّه كان سيتأسف كثيراً لو لم يحاول تلك المغامرة قبل رحيله عن كوبا... طاف في السطح وتأمّل مناظر الحيّ المتميّزة. كان بيته يقع في القسم الأعلى من المنطقة، لذلك استطاع أن يميّز من بعيد قبّة (الكابيتول)، والبرج الرمادي المنتصب في ذكرى خوسيه مارتي، وهياكل بعض المباني في (البيدادو). سار نحو

الطرف الآخر وشاهد منظراً حميماً، إنّها الأشجار التي زرعها أبوه، والتي طالما تسلقها هو للوصول إلى ثمارها. تحت ذلك الغطاء الأخضر، في الزاوية الأخيرة من قطعة الأرض، رأى قبور الكلاب التي رافقته في طفولته وشبابه - (كوكو) و(نغريتو) و(موتشو) و(كانيلو)-، أضيف إليها قبران آخران لضيفين من ضيوف بيتهم، رفاق كارميلا في سنوات وحدتها الطويلة، واللذين لا يعرف فرناندو عنهما إلّا القليل ممّا حدثته به أمّه في رسائلها. لقد عاد به ذانك القبران، اللذان يحملان اسم (رينتي) و(سومبرا)، إلى رواية أخرى، مبتورة وضائعة أيضاً، رُسمت أحداثها في ذلك البيت - الذي كان بيته-، ولكن دونما تدخل منه: وأدرك أنّه ما عاد إلّا شاهداً على حكاية كان له فيها دائماً دور البطولة.

كانت الشمس تجنح إلى المغيب من خلف الأشجار حين جلس على خزّان الماء وأخرج جواز سفره من جيب قميصه. كان الختم الرسمي الذي خوّله الدخول إلى الجزيرة يغطي على الملاحظة المكتوبة بخط اليد، والتي تنبّه، بحروف سود، إلى أنّ مدة الإقامة في كوبا هي ثلاثون يوماً. كان قد أنفق أكثر من نصف المدّة، وقد بدأتْ فكرة العودة إلى إسبانيا تعذبه، فقد بقي كلّ ما جاء من أجله مغلفاً بضباب الأمنيات، وما كان بين يديه غير جواز المرور المحدود ذاك. كيف كان جواز المرور الذي تلقاه هيريديا لزيارة بلده؟ هل كان يحدد الأيام والساعات والدقائق لآخر إقامة له في كوبا؟

كان فرناندو يشعر بأنّ الطرق المؤدية إلى الأوراق الضائعة سُدّت في بيت الشقيقتين خونكو، لكنّ حديثه قبل أيام مع ميغيل أنخل صبّ ملحاً على الجرح: فإذا كان أصدقاء هيريديا القدامى قد قدروا على صنع قطعة أدبيّة مزيفة من حجم «مرآة الصبر»، ليضمنوا ماضياً أدبيّاً كان حتى ذلك الوقت خاوياً، فكم من المحاولات بذلوا للتكتم على فعلتهم؟ التطابق المثير للقلق بين تاريخي عودة المنفي إلى كوبا والظهور الإعجازي للقصيدة الملحمية المنسوبة إلى سلفستري دي بالبوا، كان

من قبيل الشرارة التي فجّرت القنبلة. ومع أنّ أحداً لا يعرف تفاصيل آخر حديث دار بين هيريديا ودومنغو دل مونته، عقب وصول الشاعر عام 1837، فإنّ فرناندو يخمّن أنّ ذلك اللقاء، المشحون بتوترات اللحظة ومشاعر النفور المتراكمة بين الاثنين، لم يكن مناسباً لمصارحة لا تخطر ببال رجل من مثل دومنغو دل مونته. لكن، وماذا عن أحاديثه مع تانكو وإيتشيباريّا وبلاس دي أوسيس، وربّما مع أصدقاء قدامى آخرين؟ وماذا عن الموقف الآخر لدومنغو دل مونته، حين رفض أن يمنح رفيقه القديم فرصة ثانية للقائه، بعد أن عاد من منفاه مجروح القلب من جرّاء الحكم القاسي الذي صدر ممن كان في وقت من الأوقات خير أصدقائه؟ إن كانوا قد اخترعوا فعلاً تلك القصيدة الملحميّة، فلا بدّ أنّ هناك، فضلاً عن دل مونته، أصدقاءً مقربين آخرين يعلمون بالموضوع. ولو أنّ الدسيسة وُجدت فعلاً، وسمع هيريديا بها عن طريق واحد منهم، فأيّة قوة كانت ستمنع رجلاً محتضراً من الاعتراف ومن فضح كذبة كبيرة وضعت الأساس لتاريخ ضروري وبعيد للأدب في الجزيرة؟ كان له في الافتراءات التي تلقاها في كوبا، أثناء إقامته القصيرة والمؤلمة تلك، من طرف المزيفين المحتملين، دافعاً كافياً للانتقام وللفضح، لكنّ صمتَ هيريديا، الذي لم يشهّر، بحسب علم الجميع، بذلك الحدث الخطير، وجّه الأدلة وجهة تاهت هي الأخرى في ضباب السنين والصمت.

نظر فرناندو إلى الضياء الذي خلفته الشمس ورأى أنّ الدليل السهل الذي يوفره اللقب خونكو ربّما صعّب إمكانية الارتياب في الأفراد الآخرين الذين يمتلكون حق الاطلاع على المخطوطة غير الموجودة. لكنّ قلّة من الماسونيين، بحسب أكينو العجوز، هم من سنحت لهم فرصة امتلاكها، وأنّ راميرو خونكو، بحسب علمه، هو الوحيد الذي كان يمتلك سبباً معقولاً لذلك. وماذا عن والد العجوز أكينو؟ ألا يمكن أن يكون له سببه الذي لا نعرفه، والذي يخفيه ولده أو ربّما يجهله؟ ألا يمكن أن يوجد في المحفل شخص من ذريّة دل مونته، أو آلداما الأثرياء،

أو حتّى من ذرية خوسيه أنطونيو إيتشيباريا قدّم نفسه على أنّه المحظوظ الذي اكتشف القصيدة الملحميّة المعجزة؟

نظر ثانية إلى جواز سفره ووجد أنّ الطرق التي عليه أن يقطعها هي من الكثرة والتعقيد ما يلفّ روحه بقلق كثيف، بعد أن سيطر عليه إحساس بأنّه لن يصل إلى الحقيقة الضائعة. ربّما كان من الأفضل ترك الموتى والخونة في قبورهم التي أطبق عليها الزمن، من دون تغيير ما استقرّت عليه الأمور. لكنّ البريق المزعج الصادر من تحذير لا يخبو كان يمنعه من القبول بتلك النتائج الأنانيّة، فقد كان مقتنعاً بأنّ هيريديا كتب شيئاً، ولا بدّ أنّه كتبه لكي ينشر، وأنّ وراء الامتناع عن تنفيذ إرادته ما يشين.

حاول فرناندو، وهو على سطح المنزل، أن يبعد عن ذهنه فكرة أنّ إصراره يخفي في الواقع رغبة دنيئة في البروز والبطولة والانتقام، فاقمتها جروح خيبات الأمل المتراكمة في سنوات التهميش والنفي والتخلي عن أبسط ضرورات الحياة. سيكون العثور على تلك الوثيقة الملعونة بلا شك نصراً كبيراً على كلّ الشياطين الذين أفسدوا عليه حياته، وقد يتمكن ذلك الانتصار، الذي سيرفعه كأساً ذهبية، من تعويض عقم حياته التي أمضاها شاعر من دون شعر، وغياب الكتب التي كان عليه أن يكتبها لكنّه لم يستطع أن يكتبها، والمرارة الجوهرية لإقامته التافهة والفارغة في الأرض. كان يخفف عنه التفكير في أنّ عالمه سيستردّ، أخيراً، المعنى الذي سرقوه منه: على الأقل جزءاً منه. لأنّ البقية تعتمد على كشف النقاب عن خيانة؛ وعلى اللقاء مجدداً مع الشعر؛ وعلى إعادة قدرته على منح الحب وتلقيه. وماذا عن جميع القصص التي استبعد منها وما عادت قابلة للاسترداد؟... كانت الانكسارات والآلام التي مرّ بها فرناندو تيري من الكثرة ومن الوضوح، وهي مصفوفة في وضع قتال، أنّه أحسّ بنفسه غريباً أمام إصراره القادر على الإبقاء عليه واقفاً طوال عشرين سنة، محروماً إلّا من ضوء خافت في الأفق، كذاك الذي سمح له أن يرى من مكانه على السطح، وهو يلفّ الزاوية، خطواً متمايلاً ودقيقاً لامرأة تخرج

من الظلمة ومن عساها تكون غير دلفينا؟. تذكّر حينئذٍ متى صعد للمرة الأخيرة إلى سطح بيته.

***

في الرابع من كانون الأول من عام 1823 رست الباخرة (جلاكسي)، وما إن وطئتُ أرض (بوستون) حتّى أدركتُ في الحال معنى الشتاء، وتملكني في تلك الثانية إحساس بأنّ هلاكي سيكون على يد ذلك البرد القارس. بدت لي حزينة كئيبة صورة النهر المتجمّد ومشهد الحقل الذي بدا وكأنّ النار أتتْ عليه، صفراً من أيّ خضار يسلّي الناظر إلى تلك الأرض القاحلة المرعبة. الشوارع الخالية تشبه شوارع بلدة مدمّرة، والأشخاص القليلون الذين اقتربوا من الرصيف كانوا يسيرون صامتين حزانى مكورين في دثارهم فما ترى وجوههم إلَّا بالكاد. كان كلّ شيء أبيض، أو رمادياً، أو أسود، من دون تدرّج في الألوان ولا درجات، وكان في ذلك ما نبّهني إلى أنّني لن أعيش هناك لوقت طويل، فدون ذلك انقباض في النفس سيقتلني قتلاً.

كانت تكوّنت لديَّ أثناء الرحلة فكرة أوّلية قاتمة عمّا كان ينتظرني، فحتى الرعاية اللطيفة التي تلقيتها من القبطان هاردنغ، الذي استوصوه بي خيراً وذكروا له أنّي هارب سياسي مهم - مع مبلغ معتبر دفعوه له-، لم تستطع أن تنقذني من طقس فاق في قسوته الإعصار الذي كان يعصف بروحي. ارتديتُ، حين صعودي إلى الباخرة، ملابسَ تعود إلى القبطان نفسه، كانت جلبتها أختي إغناثيا إلى بيت آل آرانغو، وبها حققت إغناثيا، بمساعدة بيبيّا، معجزة تحويلي إلى شيخ بحّار يحمل على كاهله زوابع وأعاصير كثيرة. وفي هدأة الليل وفي صحبة دون خوسيه آرانغو، أوصلوني بعربتهم إلى مكان قريب من الميناء، حيث كان ينتظرني هاردنغ.

ما إن صعدنا حتّى أعطى القبطان أوامره برفع المرساة، وأبحرنا لثلاثة أيام في بحر هادئ. وكم سألتُ في تلك الأيام نفسي إن لم يكن

من الأفضل لو أنّي بقيت في كوبا وواجهتُ قسوة السجن، لأنعم، على الأقل، بقرب لولا وأهلي وأصدقائي. حينئذٍ أرادت الطبيعة، ربّما لكي تتناسب مع ما كان يعتمل في روحي، أن تبدي لي مبلغ ما يمكن أن يصل إليه غضبها، فكان علينا أن نمضي باقي الرحلة وسط رياح وأمطار، حتّى اكتسحتنا، ودرجة الحرارة أربعون، موجة من الجليد بلغت من الشدّة أنّ ماء البحر كان يتجمّد حين تصعد الأمواج على ظهر السفينة. وتمكّن القبطان بمهارته من أن يصل بنا إلى (نانتوكيت)، حيث اصطحبنا دليلاً عارفاً بتلك السواحل وما يقع فيها من حوادث. لكنّ دليلنا كان بالغ في الشرب فما كان إلّا لمعجزة أن تحول دون أن نمزّق أشلاءً بين الشعَب الحادة التي كنا نبحر في وسطها.

حين وصلنا إلى ميناء (بوستون)، سرتُ نحو مكتب التاجر بيتر باكون، صديق خالي إغناثيو، وكنتُ أحمل له كمبيالات صرفها لي في الحال. نصحني باكون بنزل السيدة ماكوندراي، على مسافة مربعات سكنية قليلة من مكتبه، في الرقم 15 من شارع (باتلر)، حيث أغلقتُ على نفسي يومين، محاولاً أن أسترد عافيتي من آثار الرحلة وأكيّف نفسي على فكرة أن أسير في الشوارع بجزمة ومعطف وقفازات وبرنيطة من جلد. لكنّي استغللتُ الوقتَ أيضاً لأكتب بعض الرسائل، لأختطّ عادة تسلّيني وتعوّضني عن الحوار مع أشخاص عزيزين، بالكتابة إليهم مطولاً عن شؤون حياتي وشجونها. لقد سطّرتُ مئات الرسائل على مدى خمسة عشر عاماً من نفي كان آنذاك في بدايته.

كان جهلي بالمستقبل هو أسوأ ما في تلك الأيام. فبعد أن توقفتْ، بين عشيّة وضحاها، حياتي في كوبا، حيث حبّي وأصدقائي وعملي وبيتي ومكانتي وأفكاري ورغباتي، رُميتُ إلى حفرة لا جدران لها ولا قاع، تعلّقتُ بها كما تعلّق الدمية، من دون مكان محدد أيمّم نحوه نظري وأوجّه إليه خطواتي ومقاصدي. كنتُ وحيداً تماماً، في بلد مجهول، بلغة لا أجيدها، أعتمد في عيشتي على نقود أتلقاها من خالي وفي أجواء

قد تبثّ الرعب في قلبي. فهل هذا خير من السجن؟ وهل يمكن للنفي أن يكون على هذا القدر من السوء؟

في اليوم الثالث تحسنت حالة الطقس فخرجتُ إلى الشارع طلباً لجانب مشرق في المدينة التي يتحتّم عليّ أن أعيش فيها لوقت لا يعلمه إلّا الله. كان أوّل ما استرعى انتباهي هي الشوارع: وشتان ما بين تلك الشوارع المنتظمة العريضة النظيفة المرصوفة وشوارع كوبا الضيقة القذرة. كانت العربات تنساب برشاقة فوق تلك الطرق المواتية، فلا يخشى المارة أن يغطيهم وحل. وعبثاً حاولتُ أن أقنع نفسي بجمال تلك البيوت، المشيدة من حجر ظاهر، وكان بعضها مؤلفاً من ثلاثة طوابق أو من أربعة، زرع بعض ساكنيها الزهور في نوافذها. كان مركز المدينة يغصّ بالناس في ساعات الصباح تلك، مع ذلك فاجأني ألّا أرى أثراً للصخب الذي يخيّم على ساحات هافانا وجاداتها، حيث لا يتخاطب أهلنا بالكلام، بل يتبادلون الصراخ، ويحيون بعضهم بعضاً عبر الشرفات ومن بين العربات، وينشرون ضجيجهم في كلّ ناحية. لا وجود هنا للسود من سائقي العربات، ممن يرفعون عقيرتهم للإعلان عن بضاعتهم، ولا للسوداوات من بائعات الكرشة والأحشاء، اللائي ينادين على الزبائن بعباراتهنّ المكررة. نظام وهدوء يشيعان في المدينة العريقة، التي هي واحدة من أهمّ مدن الولايات المتحدة الأمريكية وأقدمها.

عقب أيام وصلتني، وأنا في محلّ باكون، أخبارٌ عن وصول النواب الكوبيين في البرلمان الإسباني إلى نيويورك. كان بينهم باريلا وخينير وسانتوس سواريث، هربوا كلهم بعد أن حلّ فرناندو السابع البرلمان وحكم عليهم بالموت. خفّف خبر وصولهم من شعوري باليأس، وبادرتُ، بعد ترتيب المسائل المالية مع باكون، إلى السفر إلى نيويورك في عربة تجرها الخيول، فوصلتُ إليها نهاية كانون الأول، قبل أيام قليلة من عيد ميلادي، للقاء أولئك الأبطال.

كان باريلا قد أقام في نزل بسيط في شارع (برودواي)، في وسط جزيرة

(مانهاتن)، وقد أبدى فرحه للقائي. وبعد أن عانقني الراهبُ وباركني، قادني إلى المطبخ الصغير الذي أقامه في غرفته لعمل القهوة على الطريقة الكوبية التي تعجبنا: كثيرة البنّ قليلة الماء وتُقدم في فناجين صغيرة من الخزف مع ما يكفي من السكر لإزالة المرارة العميقة، لا الجوهرية. سرى دبيب ذلك المذاق، البعيد كلّ البعد عن مذاق الماء الأسود والماسخ الذي اعتاد الأمريكان أن يشربوه، في مشاعري وطار بي إلى الوطن البعيد ليحطّ بي في مركز كلّ حالات الفقد التي كنتُ أغانيها.

حمل لي الراهب، الذي تحوّل سكنه إلى محجّ أمّهُ كلّ المهاجرين الكوبيين، أخبار طازجة عن مستجدات الأحداث في البلد. وقد فرحتُ إذ علمتُ أنّ صديقي تيوربه تولون، من (ماتانثاس)، تمكن من الهرب، مع ذلك فقد أزعجني خبر اعتقال أكثر من ست مئة شخص اتهموا بالمشاركة في المؤامرة. حكى لي باريلا أنّ تلك المؤامرة كان محكوماً عليها بالفشل منذ بدايتها، لأنّ جواسيس القائد العام بيبيس وعيون مسؤول المالية والاقتصاد في هافانا، الكونت دي بيانويبا سيّئ الصيت، كانوا قد اخترقوا الحلقة حتّى العظم، وصار معلوماً الآن أنّهم كانوا يتلقون منذ عدة أشهر تقارير حول كلّ قرار من القرارات وكلّ خطة من الخطط التي كان يضعها قادتها. لقد تضافرت الوشاية والتجسس، المزدهران في كوبا، ليعملا بدقة وبراعة وليتحوّل سرّ المحافل المزعوم إلى ضرب من لعب الأطفال الذين لا يقدرون المسؤولية حقّ قدرها. مع ذلك، فقد خلقت المؤامرة الفاشلة، في رأيه، أجواءً مناسبة للشروع في نضال مفتوح لصالح الاستقلال، لذلك فقد وافق على طلب المنفيين وأشخاص آخرين مقيمين في كوبا لتزعم الحركة التي تطمح إلى الاستقلال. لكنّهم اشترطوا عليه، كما كان منتظراً، ألّا يخوض في موضوع العبودية إلّا بعد تحقيق النجاح. أمّا الراهب فقد طالب بحرية الرأي ولم يوافق على نشوء جمعيات أو محافل تكون بمثابة خلايا للتآمر. وأسرّ لي شيئاً تركني مذهولاً وكشف لي عن مدى سذاجتي السياسيّة:

- الأمور معقدة، خوسيه ماريّا: من لديهم المال والسلطة لدعم الاستقلال هم من يقفون في وجهه، أكثر مما تفعل الحكومة الإسبانية. هل تعرف من هو القائد العام بيبيس؟ - وخفض صوته وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد-. هو من رجال زميلي خينير. لا، لا تندهش. الأثرياء في كوبا هم من يقرر هوية الحاكم في كوبا، لأنّهم في الواقع هم من يتحكم بمجريات الحياة في البلد ويمولون الملكيّة الإسبانيّة. أمّا موضوع البرلمان الإسباني فكان قناعاً ليس غير، وسترى كيف أنّ الحكم بالموت على خينير سيطويه النسيان بعد بعض الوقت. لكنّي سأنتهز الفرصة وسأفعل كلّ ما في وسعي، إن لم يكن لنيل الاستقلال، فعلى الأقل لجعل الناس في الجزيرة يفكرون في الاستقلال باعتباره خياراً ممكناً. وهذا أكثر صعوبة من ذاك.

أقلقتني تلك المكاشفة المحزنة، فطلبتُ من الراهب أن يستمع إلى اعترافي أمامه. ابتسم باريلا وقال إنّه لا يمكنه أن يتصوّر أنّ لي ذنوباً رهيبة، لكنّه ذهب إلى صندوقه وأخرج عدّته وأراني أيضاً كمانه القديم، الذي ما كان يفارقه. جلس على كرسي ودعاني إلى الجلوس على آخر، لكنّي اخترتُ أن أجثو على ركبتي قريباً منه، وحكيتُ له، من دون أن أنظر إلى وجهه، قصتي مع لولا، وعن شبقي الدائم، وعن حبّي اليائس وعن رسالة الاعتذار التي وضعتها في يد من يطاردونني. وختمتُ بأن عبّرت له عن مدى خوفي من عدم قدرتي على العودة إلى كوبا... أصغى باريلا إليّ، بلا مقاطعة، وأمرني أن أمرّ، عند خروجي من بيته، بكنيسة (سان باتريثيو) القريبة وأن أصلي الصلاة الملائكية فيها ثلاث مرات وأن أبتهل كثيراً من أجل سلامة المرأة والولد، اللذين تركتهما في كوبا، ومن أجل صحتهما. لكنّه أمرني قبل ذلك أن أجلس على الكرسي، لأنّ الغفران يمكنه أن ينتظر، ولأنّه يريد أن يسمعني معزوفة أندلسية رائعة كيّفها على كمانه.

قررتُ البقاء في نيويورك والاستعداد للمساهمة مع باريلا في أيّ مشروع تآمري، وأقمتُ في نُزُلٍ أحصل فيه على حجرة وطعام وتدفئة

مقابل ستة بيزوات ونصف في الأسبوع. رحتُ أتسلى، بعد أن عدمتُ الاهتمام بالقراءة وتضاءل حماسي لكتابة الشعر، بالسير في الشوارع الموحلة أيام يسمح الثلج والمطر بذلك، واعتدتُ أن أمشي خمسة أو ستة فراسخ لاستكشاف أحياء الإيطاليين والإيرلنديين الجديدة، ولأجرّب أطباق الأولين الشهيّة وويسكي الآخرين الرائع.

مع ذلك فلطالما شعرتُ وكأنّني أختنق. ومع أنّي احتفلتُ مع باريلا وخينير وتيوربه تولون وأصدقاء آخرين ببلوغي العشرين، فإنّ الشعور بعدم الراحة كان يلتهمني، وبدأت منذ ذلك الحين بالتفكير في الرحيل إلى الجنوب، ربّما إلى (بنساكولا)، حيث أمضيتُ سنوات عديدة من طفولتي، أو إلى (نيو أورلينز)، حيث حلّت آن- ماري وبتينيا، وهما مدينتان أستطيع فيهما أيضاً التخاطب مع الناس بالإسبانية أو بالفرنسيّة، وليس بالإنكليزية الوعرة التي ما كانت تستهوي سمعي، وإن كنتُ سأفتقد في تلك الأنحاء حرارة الصداقة التي كنتُ في أمسّ الحاجة إليها والإحساس بالانتماء إلى إخوانيّة كنتُ أحبها.

في كانون الثاني بدأتُ أتلقى ردوداً على رسائلي الأولى، ولم يبلغني مخبراي - وهما سلفستري وخالي إغنائيو- في أيّ منها أيّ خبر عن لولا. كنتُ أعدّ الأيام عدّاً، وأخمّن أنّ الولادة ستحدث على أبعد تقدير في ذلك الشهر من العام. لذلك كانت لهفتي لوصول ساعي البريد تزداد يوماً بعد يوم، بينما البردُ يحطم معنوياتي.

لم تصلني الرسالة إلّا بداية آذار. كانت مكتوبة بخط لولا، محشورة في ظرف صغير مغلق، مضموم إلى رسالة من سلفستري يبلغني فيها أنّ الأسوأ قد مرّ. فضضتُ كالمجنون ظرف رسالة حبيبتي وتطلعتُ إلى الحروف الجميلة التي سطرتها: لكنّ عينيّ راحت، وأنا أقرأ تلك الكلمات التي انتظرتها بشوق ولهفة، تغرقان بالدموع ونفسي تتمزّق إرباً، فكأنّ ذئاباً متوحشة تعمل فيها فتكاً وتمزيقاً. كتبت لولا سطوراً موجزة وباردة تقول فيها إنّ ابننا ولد ميتاً وإنّ علاقتنا، مع تلك المصيبة، وصلتْ

إلى نهايتها. أضافت إنّ والديها رتّبا أمر زواجها من فيليب غوميث في الصيف، لذلك فهي تتمنّى عليّ ألّا أكتب لها مجدداً، بل ترى أنّ من الأفضل لي أن أنساها.

من السهل تصوّر أنّ الاحتفال بالربيع انقلب عندي مأتماً. ولئن كنتُ حتى ذلك الحين لا أكتب الشعر إلّا لماماً- لم أكتب إلّا القصيدة المطولة التي أهديتها إلى بيبيّا آرانغو- فمنذ ذلك اليوم ما عدتُ أكتبه البتّة، ولم أكتب رسالة واحدة طوال أسابيع، ولم أحضر أيّ اجتماع من اجتماعات باريلا. ما كنتُ آكل إلّا قليلاً، وما عدتُ أفعل شيئاً غير الاستلقاء على الفراش ومطالعة رسالة لولا المرّة بعد المرّة، من دون أن أفهم ذلك الانقلاب في موقفها. هل هي لولا التي أحببتها من تصدني اليوم بهذه القسوة؟ كم مارسوا عليها من ضغط وكم فرضوا عليها من قرارات لكي تضع حدّاً لكلّ الأحلام التي تقاسمناها؟ هل غيّرها موت طفلنا إلى حدّ أنّها فضّلت القطيعة النهائية؟ لم أرَ نفسي قط، ولا أراها، أقرب إلى الموت مما رأيتها في تلك الأيام المشؤومة، حين اقتنعتُ بأنّني ارتكبتُ خطأً فادحاً حين غادرتُ الجزيرة من دون أن أتحدث مع المرأة التي أحببتها كثيراً. في نيويورك العدوانية والبعيدة، بدا لي واضحاً أنّ القدر، الذي قسا عليّ أكثر مما أستحقّ، يحاسبني أخيراً، وبفوائد عالية باهظة، على أحزان الحبّ المصطنعة التي أسستُ عليها شهرة الشاعر الرومانسي المعذّب، وعلى تقلبي في مسائل القلب وطموحي إلى تجاوز ما كان، في لحظتي، ممكناً عمله. هزمتُ وأنا متآمر، وأهزم الآن وأنا عاشق، وفي الوقت نفسه كنتُ أشعر بأنّني ضائع في أرض أرى نفسي فيها أجنبيّاً تماماً. آي، فلماذا لا يخطر على بالي بيت شعر ملعون واحد، إن كان ألمي كبيراً وحقيقيّاً؟... بعد أسابيع ذهبتُ إلى باريلا وطلبتُ منه مجدداً الاعتراف. كنت أحتاج إلى الكلام معه لأجد من أبثّه شقائي، لكنّي كنتُ أيضاً أحتاج إلى أن أكلّم الرب وأن أقول له إن العقاب يفوق أحياناً ذنوب الإنسان.

***

- لماذا صعدتَ بي إلى هنا؟

- اشربي قهوتكِ أولاً وسأحكي لكِ في ما بعد.

كان فرناندو قد تركها في الشرفة وخفّ إلى بيت الجيران، ليعود بسلّم خشبي قديم أسنده على إفريز الحائط.

- اصعدي وانتظريني في الأعلى- أمرها وامتثلت هي لأمره وعلى وجهها أمارات الاستغراب. ثمّ حمل هو إلى السطح كرسيين وجرة مملوءة بالقهوة.

- لا تشربيه كلّه، اتركي لي شيئاً منه - طلب منها وتأملها وهي ترتشف قهوتها، وقد سقط عليها ضوء خافت قادم من مصباح في الشارع كان يصبغ السطح بضوء ضارب إلى الصفرة.

- ما الذي جاء بكِ؟

- أريد أن أتحدث معكَ بخصوص موضوعين أو ثلاثة. لكنّي لم أتصور أن يكون حديثاً على هذا القدر من الارتفاع.

- ألا يعجبكِ؟ - سأل وهو يمدّ يده وكأنه يعرض مشهد وادٍ أخضر رعوي.

- لا بأس به.

- هل تعلمين ماذا فعلتُ في المرة الأخيرة التي صعدت فيها إلى هنا؟... كنتُ محبطاً وأظنّ أنّني صعدتُ لكي لا أفكر في شيء. حينئذٍ صعدت الجارة التي تسكن هناك وبدأتْ تنشر الغسيل. عندها رأيتُ أن لا بدّ من الانصراف، وحسبتُ أنّني لن أعود إلى الصعود إلى هذا السطح... كنتُ أحبّ كثيراً الصعود إلى هنا.

- كنتَ تحب أشياء كثيرة ما عدت تحبها الآن. الكتابة مثلاً.

استمتع فرناندو كثيراً وهو يتطلع إلى صورة دلفينا الجانبية حين أدارت وجهها نحو عالم خزانات الماء وهوائيات التلفزيون والأشجار وأوكار الحمام وحبال الغسيل المنتشرة في المحيط، ورأى فيه منظراً لا يوحي برومانسية أو إلهام لشخص سواه.

- يمكننا أن ننزل، إن أردتِ.

- المكان جيد. والجوّ هنا لطيف.

- حين وصلتُ إلى مدريد بدأتُ الكتابة من جديد - قال وهو يشعل سيجارته-. بعد أربع سنوات في الولايات المتحدة، حين عدتُ إلى سماعِ الناس وهم يتكلمون الإسبانية رأيتُ أنّ في مقدوري أن أكتب شعراً.

- هل نشرتَ شيئاً؟

- لم أكلّف نفسي حتى عناء المحاولة. لقد أضعتُ اهتمامي بالنشر في الطريق... لم أشأ أن أتعرّف على كُتاب آخرين، وقررتُ ألّا أواصل العمل في كتابي عن هيريديا، وفضلتُ أن أدفن كلّ ما كان في داخلي، وكلّ ما حلمتُ بتحقيقه في كوبا. بحثتُ عن عمل أعيش منه مثل أيّ شخص...

- وهل كنتَ مضطرّاً فعلاً إلى الرحيل؟

- أعتقد ذلك. على الأقل أعتقد أنّني لم أكن أستطيع البقاء هنا.

- لكنّ الأمور تبدلت بعد ذلك.

- لو كنتُ عرّافاً لانتظرتُ تلك الرسالة التي وصلت بعد شهرين تقريباً. لا أستطيع أن أجزم بأنّي فعلتُ الشيء الصحيح. لكنّي حين أتذكر ما جرى لي آنذاك أرى أنّني فعلتُ الشيء الصحيح. ما كنتُ هنا سأعود إلى أن أكون كما كنت.

- هل أنتَ متأكد؟

- ما عدتُ متأكداً من شيء، دلفينا.

- هذه مشكلتنا جميعاً حين نقترب من الخمسين.

- بالإضافة إلى الكرش والصلعة - وافقها وحاول أن يقود الحديث إلى مساره-. لكن لم تقولي لي لماذا أتيتِ.

نظرتْ إلى عينيه، وأحسّ فرناندو بعناق الخوف: إنّه ليخشى الفشل قدر خشيته النجاح، فالأول يتركه مجرداً من كلّ شيء، بل بجرح أكبر من

ذاك الذي أحسّ به عند عودته، بينما يضعه الآخر أمام مشكلة ربّما يتعذر حلّها، وقد تنتج عنها آلام جديدة.

- لقد فكرتُ في ما تكلمنا عنه قبل أيام - توقفتْ عن الكلام، وأجبرها صمتُ فرناندو على أن تواصل الكلام-. وأظنّ أنّه جنون.

أسقط فرناندو السيجارة وسحقها على أرضيّة السطح.

- نعم، إنّه جنون - قال أخيراً-. بلغنا قريباً من الخمسين، أنت تعيشين هنا، وكنتِ زوجة فيكتور، وفيكتور كان صديقي، ثمّ إنّي ما عدتُ أروقُ لك.

ابتسمت.

- هل أنتَ متأكد من ذلك؟

نظر إليها.

- وماذا عساي أظنّ؟

- فرناندو، أنا أشيخ، ولا أحب هذا. أعيش وحيدة، ولا أحب هذا أكثر. ولا أحبّ أن أعود الآن عذراء من جديد. يمكنني، لكي أشعر بالراحة، أن أنام معك، أن نبدأ علاقة غراميّة، أن أقنع نفسي بأن ذلك ممكن... ثم ماذا بعد؟

- بعد ذلك تستمر الحياة.

- لا تتفلسف، فذلك لا يلائمك.

- ألا تتمنين أن تعيشي في إسبانيا؟

- لا - ردّت بحزم-. أريد أن أظلّ هنا، حتّى لو متّ جوعاً. لا أريد الرحيل...

- لماذا؟

- لأني لا أريدُ أن أنظرَ إلى نفسي في مرآتك، لا أريد أن أرتكب خطأ، لأنّي أريد أن أظلّ هنا... فرناندو، لا تفكّر فيّ وفكّر في نفسك. فبعد أن يزول عنك ما بك من ضجر، على افتراض أننا بدأنا علاقة ما، فهل يمكنك أن تتصوّر شعوركَ وأنت مضطرٌّ إلى الرحيل؟

رفع فرناندو لاإرادياً يده نحو جيبه وأخرج سيجارة أخرى، وكان قرر ألّا يدخن إلّا سيجارة واحدة كلّ ساعة، ولكن خانته مشاعر القلق واللهفة.

- هذا صحيح - همهم-. لكن يؤلمني أن أرى أنّني لا أستطيع أن أتصرف بحياتي كما أتمنى، يؤلمني ألّا أستطيع أن أضحك، ويؤلمني الآن ألّا يكون لي الحق حتى في أن أحب امرأة.

- ما أقبح ذلك.

- وما أنكره. ليس هذا عدلاً. ليس عدلاً ما جرى لنا: لا موت إنريكه وفيكتور، ولا إدمان آلبارو، ولا تذبذب توماس... هل علمتِ لماذا صعد إنريكه إلى ذلك اللانش وأراد الرحيل عن كوبا؟ هو حكى لي عن السبب في المرة الأخيرة التي التقينا فيها. أراد أن يرحل لأنّه أغرم: من سرق اللانش كان صديقه، وقد قرر إنريكه أن يرحل معه. أراد أن يرحل بسبب الحب، هل تدركين ذلك؟ يا إلهي، ما أسخف هذا الحديث- قال وألقى بالسيجارة بعد أن دخن نصفها.

- أعتقد أنكَ أحسنتَ صنعاً إذ عدتَ. رأيتَ أمّك وأصدقاءك وصعدتَ ثانية إلى السطح، عليك أن تفعل ذلك وإن آلمك. أمضيتَ لا أدري كم من السنين وأنت تحاول نسيان ما لم تستطع نسيانه، وفي الأخير لم تتمكن من ذلك... لأنّي ما زلتُ أفكّر أنّ أيّاً من أصدقائك لم يخنكَ. صحيح أنّ بعضهم تصرف بسوء، لكنّ أيّاً منهم لم يخنك.

- ولماذا أنتِ متأكدة هكذا؟

- رسالة من فيكتور. الأخيرة التي كتبها لي من أنغولا. قرأتها ألف مرّة وقد أقنعتني بذلك.

- ماذا يقول في الرسالة؟

- كتبها قبل أن يقتلوه بيومين. يقول لي إنّه لا يريد أن يموت.

سكتت. انتظر فرناندو أن يرى دموعاً في عينيها، لكنّ نظرتها كانت تحمل ألماً صلباً، ولم يرَ في حدقتيها غير انعكاس المصباح المعلق في

عمود الكهرباء. فاجأه ثبات دلفينا وأثارت قوتها فيه شيئاً من الحسد.

- هل تريدين أن تتكلمي عن هذا؟

- نعم- قالت-. أريد أن أتكلّم لأخرجه من داخلي... سلموا لي الرسالة عقب يوم من تلقي خبر مقتله. هل تتصوّر؟ كانت الرسالة بمثابة عودته إلى الحياة، ليموت ثانية. رسالة طويلة، يحكي لي فيها أشياء لم يحدثني بها من قبل. عنك وعن إنريكه وعن الذنب الذي شعر به لأنّه لم يساعد إنريكه أكثر. كان يريد أن يكتب لك ليطلب منك أن تسامحه لأنّه لم يكن قريباً منك وقت محنتك وحين كنتَ في حاجة إلى دعم أصدقائك. كلما كنتُ أقرأ الرسالة وأتذكر أنّ فيكتور مات وفي قلبه تلك الشوكة كان العالم ينهار من حولي. ظللتُ شهوراً أتخيّل كيف كان كلّ شيء، كيف كان الطريق، كيف شعر حين انفجرت القنبلة، أتساءل إن كان وجد الوقت الكافي لكي يعرف أنّه سيموت... كنتُ أتعذّب وأنا أفكر في سبب موته، هو بالذات. أمّا أقسى ما اعترف لي به فهو أنّه لطالما خاف أن يفعل شيئاً أو أن يقول شيئاً هنا في كوبا. بينما اكتشف في أنغولا، حيث كان يغامر بحياته كلّ يوم، أنّه يتصرّف ويتكلم من دون خوف. هناك اكتشف أنّه ليس جباناً، لأنّه كان في مكان لا يمكنه أن يكون فيه جباناً.

بقي فرناندو صامتاً. كانت تلك الطريقة في إعادة شخص ميت قريب إلى الحياة مؤلمة. ظهرت كلّ الغرابة التي أحاطت بموت فيكتور، وهو في الثلاثين، في صوت دلفينا، التي كانت تبحث عن سبب. رأى حينها أنّ ذلك الحوار الفردي، الذي أثاره هو، جرّ إلى عقاب بالغ، وشعر برغبة عارمة في معانقتها، في حمايتها، في أن يطلب منها العذر على أن أجبرها على النبش في ماضٍ تعايشت معه طوال ما يقرب من عشرين سنة.

- لكنّها كانت بالدرجة الأولى رسالة حب. كانت آخر رسائله الغراميّة... كنتُ أحبّه كثيراً، فرناندو. فيكتور كان خطيبي وزوجي وكان أحسن إنسان في العالم. ما كان يستحق أن يموت، وهو الذي يعرف بأني سأعاني ويفكر في أنّه لم يحسن التصرّف مع أصدقائه.

- لكنّه لا...

- ليس هو ما تفكر فيه، بل هو ما كان يفكر فيه فيكتور. هو كان يعتقد أنّه لم يتصرّف كما هو واجب معك ومع إنريكه. وأنت تعلم جيداً، فرناندو، أنّك شككتَ في فيكتور طوال هذه السنين. لكنّي أستطيع أن أطلب منك، بلا تردد ولا شكّ في ما أقول، أن تمحوه من قائمتك: هو لم يشِ بك. فيكتور كان صديقاً لك.

- شكراً، دلفينا.

- ما أفظع هذا... لا أحبّ أن أشعر كما أشعر الآن، لكنّي كنتُ في حاجة إلى أن أصرّح بكلّ هذه القصّة. هل تدري ماذا نفعل نحن في هذا السطح؟ إننا ندفن فيكتور. منذ سبعة عشر عاماً وهو يطلب أن ندفنه وإلى الأبد. ولم يكن ذلك ممكناً وأنتَ تشكّ فيه.

شعر فرناندو بالأرض تميد به. ربّما لأنّه تلقّى روح فيكتور التي أعتقته. وربّما لأنّ واحداً من الأسباب الذي أبقى عليه حيّاً ثابتاً على قدميه طوال السنوات بدأ يتصدّع. وفكّر: إن لم يكن فيكتور، ولا إنريكه، ولا ميغيل أنخل، فهل لا بدّ من خائن؟ بقي آلبارو وتوماس وأركاديو والفلاح كونرادو، وليس هذا بالقليل. لكنّ تحرر فرناندو من شكّه منحه شعوراً دافئاً بالراحة. هل في مقدوره ذات يوم أن يمحو بقيّة «الساخرين»؟

- أشكرك دلفينا على هذا الحديث. أنتِ تعلمين كم كنتُ أحبّ فيكتور... أتمنى أن أطّلع على هذه الرسالة. ليس الآن، بل في يوم آخر.

- الأفضل ألّا تقرأها... لقد فكرتُ كثيراً في أن أرسلها لك لكنّي لم أنتهِ إلى قرار بذلك. لم أكن أتصوّر أنّك معنيّ إلى هذا الحدّ بمعرفة أنّ فيكتور لم...- وتلجلج صوتها.

- أتريدين أن ننزل؟ هيّا بنا نتناول شيئاً هناك.

- في ما بعد. أنا الآن مرهقة. لكنّ الحال ستهدأ، لا تقلق. منذ وقت طويل وشعور الأرملة يتملكني، عليّ أن أخرج ذلك كلّه من داخلي ذات مرّة.

- كان أمراً فظيعاً - قال فرناندو ليكشف عن نفسه أمام غرابة كلماته العاجزة عن التعبير عن حجم ما تعانيه دلفينا.

- هل فهمتَ الآن لماذا لم أستطع أن أحبّ ثانية؟ لماذا أنا غير قادرة على البدء من جديد؟

- أنتِ تعاقبين نفسك أكثر من اللازم، كان في إمكانك أن تنسي...

- انظر من يقول هذا. حارس الذاكرة والأحقاد. ولماذا لم تنسَ أنتَ، قل لي؟

- حاولتُ، لكنّي لم أستطع. ربّما لأنّ الأمر يتصل بحياتي.

- وفيكتور كان جزءاً مهمّاً جدّاً من حياتي أنا.

- ومن حياتي أيضاً... أشعر الآن بالدناءة. ما كان عليّ حتّى أن ألمّح لك...

- لا، بالعكس. كان مهمّاً عندي أن أعرف أنّك معجب بي وأنّك كنت تفكر فيّ. إنّه من قبيل الشعور بأنّي ما زلت حيّة. أعلم أنّي معك لن أكون قطعة لحم، بل سيمكنني أن أكون امرأة من جديد.

- أنتِ تفقدينني صوابي. أنا لا أفهم شيئاً.

- ليس عليك أن تفهم كلّ شيء، فرناندو. ولا عليك أن تعقّد على نفسك حياتك ولا عليّ حياتي. وليس عليك أن تُغرم بي - قالت ونظرت إلى عينيه-. ماذا نفعل؟ ننام هناك تحت أم نذهب إلى بيتي؟

***

عاد الشعر فجأة، فكأنّه عاد ليخفف عنّي ما لحق بي من بؤس وبلوى. انصرم الربيع ولاحت طلائع الصيف، مع ذلك أبى السلام أن يعود إلى روحي، وما زلتُ لا أدري لِمَ قبلتُ دعوة عدد من الأصدقاء الكوبيين إلى رحلة لزيارة شلالات نياغارا الشهيرة. لكنّي الآن أظنّ أنّ ذلك كان من تدبير الربّ، الذي هيّأ لي، بعد أن تعب من سماع شكواي وأشفق ربّما عليّ من كثرة ما سامني من عذاب، أن أشهدَ واحدة من بدائعه، لكي

أكتب، بعد أن أشفى للحظة من الشلل الذي أحدثه فيّ الألم، القصيدة التي كتب لها أن تكون أشهر قصائدي.

أذكر أنّني، بعد أن وصلنا إلى «جزيرة الماعز»[81]، في الجانب الإنكليزي من بلدة (سالتو دي أغوا) الشهيرة، شربتُ فنجاناً من الشاي الثقيل بعد أن لم أجد قهوة، وانفصلتُ عن رفاق الرحلة، وأنا راغبٌ في مواصلة تجوالي وحدي، امتثالاً لحاجة في داخلي. كنّا في الساعات الأخيرة قد تكلمنا كثيراً عن خصوصية ذلك المنظر، ورأيتُ أن أستمتع به منفرداً، وأنا أجهل أبعاد المشهد الذي ستراه عيني وأجهل مواصفاته الحقيقيّة. اتجهتُ في الطريق المؤدي إلى الجسر الذي يربط جزيرة الماعز بالضفة الأمريكية من النهر، ودلّتني تيارات الماء على الطريق المتجه إلى المسقط. وبينما كنتُ أتقدم في الضفة، كان الشلال الإنكليزي أو شلال (هيرّادورا) ينهمر من على جانبيّ، فبدا لي ذلك وحده مشهداً عظيماً وخطيراً. ولمّا ابتعدتُ مسافة عن المكان وتمكنتُ من إلقاء نظرة شاملة إليه، اكتشفتُ أنّني أقفُ على حافة الشلال الأمريكي، ولم أتمالكْ نفسي من هزّة أصابتني، حين وجدتُ أنّني كنتُ، ومن دون شعور، على خطوات قليلة من الهاوية السحيقة.

توقفتُ وظللتُ لدقائق غير قادر على فهم أحاسيسي وسط حالة الذهول التي أثارها فيّ ذلك المشهد المهيب. كان النهر الفيّاض يجري مزمجراً ليسقط من شاهق، قريباً من قدمي تقريباً: وكانت المياه، وقد تناثرت رذاذاً من أثر ارتطامها، تصعد في أعمدة تغطي ارتفاع المنحدر وتغطي طرفاً من المشهد الفريد. أمّا هدير المياه فكان يصمّ سمعي، وتحجرتُ وأنا أتأمّل قوس القزح الذي رسمته الشمس، مثل جرّة فرشاة عظيمة مرّت على الندى المستديم. لم أرَ في حياتي ما يشبه ما رأيته حتى تلك اللحظة، ولم أرَ ما يشبهه في بقيّة أيام عمري. لا بدّ أنّ يد

81- Goat Island هي جزيرة صغيرة غير مأهولة تقع وسط شلالات نياغارا وتشكّل الحدود الطبيعيّة بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية.

الخالق تقف وراء تلك التحفة المعجزة، المختلفة عن سواها من تلك التي، لسبب أو لآخر، استقرّ أثرها في قلبي. أمّا هنا فكلّ شيء يتمثّل لي قوة جامحة وعنفواناً بلا حدود وموتاً محققاً، وفي الوقت نفسه، جمالاً رفيعاً، فيه من القوّة ما يبعث أفكاري من قبرها ويركزها في ما كانت حدقتاي ترسلاه إليها.

لا أعرفُ كم من الوقت أمضيتُ أمام الشلالات، مع ذلك لم أشبع نظري من تأملها. أحسستُ للحظاتٍ ببدني يفرغ، وروحي تطفو خارج حدودها المادية، طليقة مستمتعة، بعيداً عن لحمي البارد المتخشّب، الجالس على حجر رطب، مثل بقايا دمية لا نفع يرتجى منها. بكيتُ، لا من ألم، بل ممّا رأيتُ من جمال، وأظنّ أنّ ذلك البكاء الملطّف وشعوري المفاجئ بأنّ ما زال أمامي أن أفعلَ شيئاً، هما القوة التي حالت دون أن أقدم على فعل كان يشدني، منذ أن وصلتُ، نحو الهاوية: كان يكفي أن أتقدم خطوة واحدة لكي ينصهرَ جسمي في ذلك الزبَد، وتطير أحزاني، شعَاعاً، في الهواء، من دون اسم ولا هويّة، من دون عذاب.

بدا لي، وأنا أتأمّل سقوطَ المياه وصعودَ الرذاذ، أنّني أرى في ذلك المشهد صورة مشاعري وأعاصير حياتي، ولم أشعر، كما شعرتُ في تلك اللحظة، بثقل وحدتي، ووطأة الصدّ المحزن الذي أعيشه، والعبث المطلق الذي يلوّن سبل حياتي، فيجعلها تركض، مثل تيارات نياغارا، في طرق وعرة ومهلكة. سألتُ نفسي حينئذٍ، وعيناي نديتان من ماء ودموع، لماذا لا أصحو من حلمي. يا إلهي، متى تنتهي رواية حياتي ليبدأ واقعها؟

في وسط تلك الفورة الروحيّة وتلك القناعة بالخطأ الذي يمثله وجودي كلّه، أخرجتُ ورقة، وبعد شهور طويلة من الجدب الشعري، أحسستُ بمشاعري تفيض، كما النهر من الجبل:

أعطوني قيثارتي، أعطوني إيّاها
فالإلهام يستعر في روحي المضطربة.

كم من الوقت مضى في ظلمة
من دون أن ينير بضوئه جبهتي...!
نياغارا المتلاطم المتموّج
ليس غير وجهك المَهيب يُعيد لي
هِبةَ السماء التي تلذذت اليد الظالمة
بسرقتها من ألمي.

تظلّ جميعُ الآراء التي صدرت لاحقاً حول هذه الأبيات بعيدة عن تصوّر الطريقة التي حاولتُ أن أنقل بها سيل مشاعري المأساوية على قطعة الورق. كان عذابُ العاشق الذي عانى الصدود، والأب الذي حُرم من ولده، والمنفي الذي لا يحلم بعودة، هو ما شكّل تلك اللحظة المُلهمة، حين عاد الشعر ليمنحني سبباً واحداً جيداً لمواصلة العيش. وتعلمتُ في تلك اللحظة، بأعوامي العشرين وبإحساس من يحمل قروناً على ظهره، أنّ الحياة تستحقّ أن نحياها ما دامت هناك قصيدة تنتظر أن تُكتب... لكن، ماذا عساي أفعل الآن وقد تبدد الشعر؟

عدتُ أدراجي وأنا أحملُ أبياتي، وبدأتُ أجول غابات «جزيرة الماعز» وقِفارها، إلى أن وصلتُ إلى حافة الشلال الإنكليزي. كان يشقّ عليّ أن أبرح ذلك المكان، فلبّيتُ، قبل انصرافي، داعي الروح وعدتُ، مغامراً بزعل أصحابي، إلى حافة الشلال الأمريكي. هناك وقفتُ عند الحجر ذاته الذي كتبتُ عليه قصيدتي، ورحتُ أتأمّل سقوط المياه العجيب لدقائق طويلة. لكنّي، حين قررتُ الانصراف، وابتعدتُ عن ذلك الحجر، رأيته يتدحرج ويسقط في الهاوية: لقد سقط ذلك الحجر، الذي كنتُ قد تخيّلتُ موتي فوقه، ثمّ أحسستُ بانبعاثي فوقه، سقط إلى حيث لن تصل إليه قدما إنسي، برد قلبي فجأة، إذ أدركتُ مرّة أخرى كم هو دقيق الخط الفاصل بين الحياة والموت، وكم هي ضئيلة مشيئة الإنسان أمام مشيئة الربّ.

بفضل الشعر أحسستُ بأني ولدتُ من جديد، وقررتُ، تدعمني هدنة الصيف اللطيفة، أن أعود إلى مسائل كانت ضائعة في صخب عذاباتي. كان أوّل ما أردتُ تصفيته هو ما يخصّ دومنغو. علمتُ عن طريق سلفستري أنّه، بعد أن اجتاز العاصفة، عاد من بلدة (غوان) النائية ليعيش مجدداً في هافانا، وراح يندب حبّه الضائع وفقره. كانت الرسالة التي كتبتُها له في تلك المناسبة مرّة وقاسية، انطلقتُ فيها من قراره بعدم لقائي في هافانا واختفائه بعد ذلك في (غوان) النائية: كانت قناعتي تزداد في أنّه اختفى عن الأنظار خوفاً من انتقام الحكومة، ووصلت إلى أن أقول له إنّني لا أشك في أنّه تعاون مع السلطات، حاله حال الكثيرين من المخبرين والخونة، فقد تقرّب من المتآمرين وكان يعلم بخططهم وقد استغربتُ أن تمضي عليه أشهر المطاردات والقمع وهو في سلام وأمان.

مع مرور الأيام بدتْ تلك الرسالة لي مفرطة وغير متناسبة، ففي تلك اللحظة لم أكن متأكداً من أن تهمتي له غير صادرة عن أحقادي ولا قائمة على شكي في أنّ انتقال دومنغو في غير وقته يخفي ما هو أكثر من إهانة عاطفيّة. حين كتبتها كنتُ شديداً وقاسياً، لم أتخيّل حينها الأعماق التي سيصلها لومي وملامي: لكنّ ردّ دومنغو، مع ذلك، كان فيه من الأسف أكثر ممّا فيه من الغضب، وقد تساءل فيها كيف يمكن لي، وأنا «صديقه الرقيق»، أن أشكّ في «نقاء مبادئي السياسيّة»، وأن أظنّ به الظنون، وهو «الصادق، النقي، عاشق الحرية الغيور عليها»، ونفى أيّة علاقة له بالجلادين، وكانت في نبرته من الألم أنّني ندمتُ فوراً على علو نبرتي وغفرتُ له ثانية، بعد أن انتبهتُ إلى مقدار شططي معه، هكذا قلتُ له في رسالة جديدة، تراجعتُ فيها عمّا اتهمته به.

في شهر تمّوز سافرتُ إلى فيلاديلفيا أطلب معنى لحياتي. كان باريلا قد انتقل إليها ليبدأ في إصدار صحيفة «الهافاني»، ذات الميول الاستقلاليّة المنفتحة. علمتُ هناك أنّ من يموّل الصحيفة أشخاص كوبيون، يعيشون في الظل، لكنّهم صاروا، بعد أن أرهقتهم الضرائب

التي تفرضها العاصمة، يميلون إلى تحرر يقوم على الطريقة التي اتفقوا عليها مع باريلا، أي من دون التطرق إلى موضوع العبودية ومن دون تدخل أيّة قوة أجنبيّة. وحين وجد الأثرياء الكوبيون أولئك، وبينهم أقارب سلفستري ومالكو ضياع وثروات كثيرة آخرون، وهم في معظمهم تجار رقيق سابقون، أنّ جيوبهم باتت مهددة، بادروا إلى الهجوم، فمولوا انتقال ساكو إلى الولايات المتحدة، بهدف ظاهر قوامه التعاون مع باريلا في المهمة الجديدة، وآخر مخفيّ قوامه وضع رجل يحظى بثقتهم إلى جانب الراهب العنيد. لكنّ الصحيفة، وعلى الرغم من محدداتها ومن حياتها القصيرة، كانت إحدى أعمال القسّ الطيب الكبرى، وقد ساعدتُه، في الأسابيع القليلة التي أمضيتها إلى جانبه، في مختلف الأعمال التي يتطلبها إصدار أيّ مطبوع.

في تلك الأثناء كان شيئاً غريباً يطرأ عليّ وعلى نظرتي إلى الولايات المتحدة. وأقول «غريباً» لأنّي في الأيام التي أمضيتها في فيلادلفيا أدركتُ كم تضايقني ما كانت، قبل عام مضى، فضائل في (بوستون). فكم يغيظني الآن نسق هذه المدينة الواحد وانتظام شوارعها وتشابه مبانيها، المتداخلة مثل أعشاش الحمام. صرتُ أحسّ بالضيق الذي يولده تراكمُ العمل المكرر، وبنفاق البروتستانتية المتحكمة، بينما كان غياب الصراخ في الشارع، والألوان في البيوت، والمحلات التجارية المتداخلة المنتنة، وزحمة الناس السوقيين النشطين، يقول لي إنّ ذلك المكان ليس مكاني.

بتلك المشاعر التي تضيّق على روحي تلقيتُ خبر بدء محاكمتي في كوبا بتهمة التآمر على التاج الإسباني. وقبل ذلك بقليل كانت سلطاتُ الجزيرة قد نشرت رسالة الاعتذار التي أرسلتها، قاصدة تشويه سمعتي. لا أكذب إن قلتُ إنّني لم أهتمّ كثيراً بالأمر، لكنّي أحسستُ بالندم لأن الأسبابَ التي دفعتني إلى كتابة الرسالة قد اختفت، بعد أن تركت أثراً بالغاً في قلبي.

عند رجوعي إلى نيويورك بدأتُ بالتفكير جديّاً في الانتقال إلى جنوب البلاد أو حتّى إلى بلد آخر يكون الجوّ فيه أفضل. فكرتُ في المكسيك وفي كولومبيا، بل فكرت في سانتو دومنغو، حيث يعيش الكثيرون من أقاربي من آل هيريديا، لكنّ خالي إغناثيو، المتحكّم حينها بمقدراتي، بسبب مساعدته لي ماديّاً، منعني من الحركة، فهو لم يفقد الأمل في احتمال تبرئتي، ثمّ إنّي إذا سافرتُ إلى أحد تلك الأماكن، وكانت آنذاك بؤراً للتآمر على كوبا، فقد ألحق الضرر بموقفي في المحاكمة. كانت ترعبني فكرة أن أمضي هناك شتاءً آخر، فكأني كنتُ أتنبأ بالنتائج القاتلة التي ستحمله لحياتي. اضطررت إلى الامتثال للأوامر وحصلتُ على عمل في أكاديمية (بانثيل) مدرّساً للغة الإسبانيّة. كان مرتبي خمس مئة بيزو مضافاً إليها سكني وطعامي. لكنّي لم أتجرأ على معادلة شهادتي في المحاماة، فبين الصعوبة التي كنتُ ألاقيها في اللغة والتعقيد الذي تعاني منه المنظومة القضائية في البلاد كنتُ أعلم أنّ من المستحيل أن أمارس المهنة هناك.

حلّ الشتاء في تلك الأثناء بخناجر ثلجه وأمطاره ورياحه الباردة: ومع أنّ حالتي المعنوية كانت هذه المرّة أفضل، فقد عانى بدني ما عانى خلال ذلك الشتاء المشؤوم. تعرضتُ لنزلات البرد والرشح المستمرة والمصحوبة بالحمّى، وشخّص الأطباء أعراض إصابتي بالتهاب في الرئة. ما لم أعلمه آنذاك هو أنّ الضعف الذي أصاب بدني وبلغ رئتيّ كان وراء أن يغزو جسمي ذلك السل الرهيب الذي يجعلني اليوم أبتهل إلى الربّ أن يرفق بي ويغفر لي خطاياي الكثيرة...

في نهاية ذلك العام الكئيب وصل إلى سكني خبر إدانتي والحكم عليّ بالنفي الدائم. حكت لي أمّي، وهي تبلغني بنتائج المحاكمة، كيف أنّهم أخلوا سبيل العديد من المتهمين أو أصدروا في حقهم أحكاماً بسيطة تبعها مباشرة قرار بالعفو عنهم، ولا سيّما أولئك الذين تقف وراء ألقابهم ملايين الدراهم والضياع ومزارع البن ومخازن الشحن في الموانئ. مع ذلك فقد كانت الأحكام على جميع المتهمين التعساء -

وأنا واحد منهم- تتراوح بين السجن والنفي. تكلمت أمّي، وكانت ما زالت تؤمن بمعجزات السياسة، مع إغناثيو واقترح عليّ خالي أن أتوجّه إلى المحكمة، بصفتي شخصيّة عامة، وأشرح لها قضيتي، وأن أطلب منها، في الوقت نفسه، العفو عنّي، بعد أن أتعهد بالامتناع عن المشاركة في أيّة حركة جديدة.

أجبتُ وأنا محزونٌ على رسالة أمّي. أتذكّر أنّ جسمي كان، وأنا أكتب، يرتعش، لا أدري إن كان من برد أم من حمّى، وأنّ أصابعي المتخشبة ما كانت قادرة على الإمساك بالقلم. بدأتُ شارحاً مدى حبّي لها ولأخواتي، ومدى شوقي للعودة إلى كوبا وإلى جوّها الذي يناسب ما بي من علّة. فهناك تركت ما أحبّ، فلا يكاد يمرّ يوم من دون أن أتذكر وطني، لأنّي أعلم أنّني لن أقوى على العيش في مكان سواه ولا أن أشعر بالراحة التامة، ولا أن أكون الشخص الذي أريد أن أكونه، إلّا وأنا بين شواطئ تلك البقعة الدنيا من الأرض في وسط الكاريبي. لكنّي قلتُ لها أيضاً إنّ الثمن الذي يطلبونه مقابل عودتي المحتملة باهظ ولن أجد في نفسي الشجاعة لكي أعود إلى الجزيرة بعفو بينما يقبع رجل من قامة الدكتور إيرنانديث في السجن، ومعه آخرون آمنوا باستقلال تلك الأرض وطالبوا بمستقبل أفضل لها. فإن كان خضوعي هو الثمن وهو السبيل الوحيد، قلتُ لها، فأنا أفضّل العيش بعيداً، هارباً، على أن أعود إلى كوبا مستفيداً من قرار العفو... أذكر، وأنا أكتب، أنّ ريحاً باردة كانت تهبّ في الخارج في كانون الثاني من عام 1825. وأذكر أيضاً أنّني شعرتُ بأبواب عودتي المنشودة إلى جزيرتي الحبيبة، إلى حيث ولدتُ، وإلى حيث لم أقضِ من حياة البلوغ غير ثلاث سنوات، توصد في داخلي. وفي تلك اللحظة شعرتُ أنّني تحوّلتُ من لاجئ إلى منفيّ.

***

فتح كريستوبال أكينو الباب وتنشّق مرتاحاً رائحة المؤامرة اللذيذة. وعلى الرغم من أنّه تنشقها مئات المرات على مدى حياته الماسونيّة،

فقد كانت تلك الرائحة المميزة، التي توحي بالغموض والموت، تحمله دائماً إلى أوّل إقامة له في ذلك المكان من خمسين سنة مضت. لكنّ أكينو الشاب لم يستطع، آنذاك، على الرغم من رغبته في اجتياز حدود طالما تمنّى اجتيازها، ومع علمه بأنّ يد أبيه، دون سالوستيانو، كانت تقوده ممسكة بيده بعد أن عُصبت عيناه برباط من قماش أبيض، أن يتجنّب رعشة عميقة حين سمع دقات على الباب الخشبي، ردّت عليها من الطرف الآخر، وعلى سبيل الشيفرة، دقات أخرى، أكدتها طرقات موزونة على الباب. أحسّ، حينئذٍ، بصرير مفاصل الباب، وبينما كان يبلع ريقه الناشف وصلت إلى شمّه، وللمرة الأولى، تلك الرائحة الدائمة التي عاد الآن يستمتع بتنشقها. لا شكّ أنّ أول دخول في «الغرفة السريّة» للذين يرتقون إلى مرتبة أعلى، حادث لا ينسى، فهو أكثر من قطع مسافة خمسين خطوة للدخول إلى غرفة مساحتها تسعة أمتار مربعة، كائنة في نهاية الهيكل. هو الصعود الأخير إلى اكتشاف الأسرار العظيمة – بعد اجتياز درجات «المبتدئ» و«الرفيق»–، التي لا يبلغها إلّا «الخبراء» الماسونيون، ورثة الأسرار التي حفظتها الإخوانية منذ تأسيسها الألفي. انتقل كريستوبال أكينو، وقد أصابه دوار من ذلك العطر الذي يرسم خط حياته، من يد أبيه إلى يد رجل آخر، قاده، بعناية أقلّ، خطوات أخرى، وهو يكرر على مسامعه أنّ الكتمان هو الأساس الأول التي تقوم عليها الماسونيّة. وحين رفعوا عن عينيه العصابة، جاهد للوقوف في مكان ضاعت حدوده في الظلمة التي ما كانت تزيحها الشمعات الأربع الموقدة في الزوايا إلّا قليلاً، والذي كانت زينته لا تتعدى الجماجم والسيوف، التي وضعت لتذكر المبتدئين بمبدأين أساسيين من مبادئ الحياة: إن الموت يساوي بين الجميع، وإنّ الحرية هي أثمن ما يمتلك الإنسان، لذلك فإنّ عليه أن يناضل في سبيلها حين يحين وقت النضال.

سحب كريستوبال أكينو السلسلة وأشعل المصباح المتدلي من السقف، على بعد شبرين من رأسه. كانت الحجرة مخيفة، حتى مع ذلك

النور، وكانت الجماجم والسيوف وقطع القماش السود مصفوفة على المنضدة الخشبية الصغيرة بانتظار لحظة بدء الطقوس، لكنّه لم يعرها إلّا القليل من اهتمامه واتجه مباشرة إلى الكوّة المحفورة في الحائط، قريباً من الباب. بحث بين حزمة المفاتيح عن المفتاح المناسب وفتح القفل. تنحّى جانباً ليفسح للضوء لكي ينير الفتحة الصغيرة فرأى بين الكتب والوثائق الحافة الصفراء للظرف الذي سلّمه المرحوم خوسيه دي خيسوس هيريديا إلى المحفل. حرك أكينو يده لتناول الظرف، لكنّ شيئاً ما أوقفه. لقد عاودته الشكوك التي ساورته منذ أن تعهّد بإتلاف تلك الأوراق، مثل سرب من الدبابير الهائجة. كانت الأدلّة القليلة المتوفرة تقول له إنّ في داخل ذلك الظرف ما يتجاوز القصص العائليّة والاعترافات الشخصية التي انطمست ربّما مع الوقت. كان إلحاح خوسيه دي خيسوس ورفض ثرنودا المشاركة في ذلك الفعل التاريخي يضعان التعهد الذي أعطاه أكينو في مفترق صعب: هل عليه أن يقرأ الأوراق ويقرر بمفرده؟ كان يعلم أنّ ليس من حقّه أن يخالف إرادة خوسيه دي خيسوس، لكنّه كان يرى أنّ المعرفة وحدها هي ما سيسمح له بأن يكون عادلاً مع ذكرى رجل من مقام خوسيه ماريا هيريديا: حينئذٍ يستطيع أن يقرر إن كان من الأنسب إتلاف المذكرات أو الإبقاء عليها حتى اليوم المحدد للكشف عنها ونشرها، كما فعل منذ أن استدعاه خوسيه دي خيسوس هيريديا وهو يحتضر.

تناول الظرف الأصفر بعناية. شعر في أصابعه بطبقة الرطوبة الدبقة وبعرقه هو. أغلق الكوّة وسحب السلسلة بعد أن وضع الظرف تحت إبطه، فاشتدّ الظلام وادلهمّ. كنس ضياء الشمس الغرفة السرّيّة حين فتح الباب. كان النهار في الخارج صافياً بارداً، فكأنّ الباب الخشبي يرسم الحدود بين عالمين يشغلان نقطتين متناظرتين من جغرافيا الكون.

عاد كريستوبال أكينو إلى بناية المعبد الرئيسة. كان القلق الذي لازمه في الأيام الأخيرة قد تحوّل إلى ضيق يعذبه ويشعره بوخز مؤلم في

صدره. دخل في الأمانة العامة ووضع الرزمة على المكتب، بالقرب من زجاجة الكحول التي اشتراها من الصيدليّة ليضمن اشتعالاً فعالاً وسريعاً للأوراق التي يفترض أنّها رطبة من جرّاء وجودها طيلة ذلك الوقت في الكوّة. وبينما أشعل سيجارة من سجائره، لم يكفّ عن التفكير في خطوته التالية. رفع حينئذٍ نظره إلى الحائط خلفه، حيث علّقت صور أعضاء الإخوانية النابهين، في ثلاثة صفوف متوازية تغطّي المجال كلّه تقريباً: هناك كان خوسيه مارتي [20]، واقفاً على قدميه، بمنديل الخبير الماسوني وبنظرة الرسول؛ الجنرال أنطونيو ماثيو[82]، ذو المظهر القوي؛ وكارلوس مانويل دي ثيسبيديس[83]، أبو الوطن، الذي مات بعد أن تخلّى عنه حتى إخوانه الماسونيون؛ وكاليستو غارثيّا[84]، الجنرال الأقوى عزيمة من بين جنرالات كوبا؛ وإغناثيو آغرامونته[85]، بنظرته الحلوة القاهرة؛ وخوسيه ماريا هيريديا، برسمه الذي أتقن الفنّان تصويره ونظرته الحزينة وهالة الرومانسيّة الواضحة عليه. بدا ذلك الرجل، الذي اعتاد كريستوبال أكينو أن يرى صورته منذ سنوات طويلة، وإن كفّ عن التطلع إليها مع الوقت، كائناً بعيداً توقف زمانه، رجلاً لا يصل إلينا منه إلّا صدى أشعاره التي تعلمناها في المدارس وقصص مشاركته في أولى الحركات التي دعت إلى الاستقلال في الجزيرة. لكنّ عيني الشاعر الآن تنظران إليه وكأنها تنظر إلى شخص تعرفه. تلك النظرة، الشابة المشحونة، مع ذلك، بالحزن، كانت تريد أن تقول له شيئاً كان يشعر بأنّه عاجز عن تفسيره. هل أنا في سبيلي إلى الجنون؟ سأل نفسه وشاح ببصره عن الصورة ليثبته من جديد في الظرف الأصفر.

82- Antonio Maceo (1845-1896) جنرال كوبي من قادة جيش التحرير.

83- Carlos Manuel de Céspedes (1819-1874). من زعماء الاستقلال في كوبا. رفع السلاح في وجه الإسبان عام 1868 في ما عرف بحرب السنوات العشر.

84- Calixto García (1839-1898). من قادة الانتفاضات العسكرية الكوبية المتتالية على الإسبان.

85- Ignacio Agramonte (1841-1873). ثوري كوبي من قادة حرب السنوات العشر.

حينها وضع سيكاره على حافة المكتب وفتح الظرف. أخرج حافظة مستهلكة من الورق المقوّى كانت تحيط بالأوراق، مربوطة بشريط، ورأى الخط المسترسل، المنقوش بالحبر الأسود على الورق الأصفر، المسامي الثقيل. وراح أكينو يقرأ، من دون أن يحلّ الشريط عن الأوراق:

«مع أنّي تأخرتُ سنوات كثيرة قبل أن أكتشف أنّ سحر هافانا يكمنُ في رائحتها، فأنا الآن متأكد من ذلك. من يعرف هافانا يعلم أنّ لها نوراً خاصّاً، كثيفاً وخافتاً في الوقت نفسه، وألواناً زاهية تميّزها من بين ألف مدينة من مدن العالم. لكنّ رائحتها وحدها هي التي تمنحها تلك الروح المميّزة، التي تبقي عليها حيّة في الذاكرة. لا أريد أن أقول إنّ رائحة هافانا أطيبُ أو أسوأ، ولا إنّها طيبة أو نتنة، بل أقصدُ إنّها رائحة غير خالصة، تتولّد من مزيج محموم يرشحُ من مدينة تثير العجب وتسود فيها الفوضى».

***

- هل تعرف ما الذي تفعله، يا بنيّ؟

سلّمته كارميلا وعاء حلوى جوز الهند المغطاة بقطعتين من الجبن الأبيض، من دون أن تكفّ عن النظر إلى عينيه. تجنّب فرناندو للحظة نظرات أمّه ثمّ قرر أن يواجهها.

- أظنّ ذلك: إنّني أنتحر.

مع أنّ الفكرة قديمة إلى حدّ أنّه تعلّم أن يتعايش معها، فقد كانت فكرة إلحاق الأذى بنفسه واضحة أمامه، وها هي تعود بإصرار شديد. شعر بها للمرة الأولى عام 1978، حين قرر ألّا يعود إلى مجلة (تابا كوبا)؛ وعصرت قلبه عام 1980 حين اجتاز، من دون مودّع يودّعه، صفّ الساخطين الذين وصفوه بالقذارة المعادية للمجتمع، وهو يصعد في اليخت الذي حمله إلى المنفى الذي كان يعلم أنّه لن يعود منه؛ واستعادها حين توجّه في مدريد نحو القنصليّة ليطلب رخصة بالعودة

لزيارة الجزيرة لينبش ماضيه، أكثر مما ينبش ماضي هيريديا. لكنّ قناعته الآن بأنّه يضع قنبلة تحت قدميه تعادل في شدتها إحساسه بأنّه يعيش حلماً سعيداً يخشى أن يصحو منه.

- لأجل الرب، فرناندو، لا تقل هذا.

- لنرَ. اجلسي وسنتكلّم.

- هل تريد الكلام حقّاً؟

منذ أن عاد وهو يؤجل ذلك الحديث مع أمّه، فقد كان يحاول أن يبقيها بعيدة عن آلامه. كان يعلم أنّ كارميلا شاركته آلامه طوال تلك السنين، وكان يرى أنّ من الأفضل أن يجنبها المزيد من الحزن. لكنّ فرناندو، منذ الليلة التي أغلق على نفسه وعلى دلفينا الباب، قبل ثلاثة أيام مضت، ليتضاجعا، بتوجس وحذر، فكأنهما يقتفيان أثراً ويقيسان كلّ خطوة أثناء تقدمهما في أرض مجهولة، وقع في منطقة وسطى ورديّة، تمكنه من نسيان بعض وساوسه، حتّى إنّه استيقظ في ذلك الصباح بإحساس غريب بالحاجة إلى الكتابة. نهض وهو حريص على ألّا يوقظ دلفينا، التي تناثر شعرها على وجهها، وانفرجت شفتاها وانكشف صدرها. وتأمّلها وقد أمسك نفسه عن تقبيل تلك الحلمة الغامقة، محاولاً أن يتلذذ بصورة امرأة نائمة شديدة القرب من الحقيقة. حين استلقيا في الليلة الماضية، تضاجعا بعفويّة أكبر، وظلّ، لساعات طويلة، يحتفظ في حليمات لسانه وفي حاسة شمّه بعطر المرأة الدافئ. بحث بين أوراق دلفينا عن ورقة بيضاء وجلس في غرفة الطعام ليكتب بقلم رصاص قصيدة عن الحب الوليد. فكّر للحظة في ماتشادو[86] وفي قصيدته المعجزة عن الربيع، لكنّه أفلح في العثور على طريقه الخاص مع الأبيات التي راحت تنساب على الورق.

- كنتُ على الدوام مغرماً بها. حتّى قبل أن تكون خطيبة فيكتور.

86- يشير إلى الشاعر الإسباني الكبير Antonio Machado (1875-1939) وقصيدته الشهيرة «جاء الربيع».

- هل تعلم أنّكَ ستعقد حياتك؟

- نعم، بالطبع أعلم و...

- إذن واصل طريقك، ولا تنظر إلى الوراء...

حين انتهى أطلّ على الغرفة ليتحقق من أنّ دلفينا ما زالت نائمة، ثمّ كتب لها ملاحظة شرح لها فيها أنّه ذاهب إلى بيته وسيعود مساءً. ثمّ وضع منفضة السجائر فوق الملاحظة والأوراق المليئة بالشطب والمسح حيث كتب قصيدته عن امرأة نائمة.

سار فرناندو هائماً على وجهه في شوارع (البيدادو)، محاولاً أن يرتّب أفكاره ضمن الحالة الجديدة. كانت عودة الحب والشعر المفاجئة تلك تثير قلقه، وكانت حاجة جسده وفكره لوجود دلفينا بالقرب منه تؤلمه، كما هو الإحساس المنشط بأنّه يقتل نفسه كلّما أشعل سيجارة وملأ رئتيه بذلك الدخان المؤذي والممتع. كان فرناندو يعرف أنّه على حافة الخمسين وربّما كانت تلك فرصته الأخيرة للاستمتاع بالحب: كلّ يوم، في مستقبله المجهول، هو خطوة نحو الشيخوخة، مع ما يضاف من عجز وآلام وتعب...

- لأنّي من عشرين سنة وأنا أعدّ العدّة لهذا، أيتها العجوز.

- لا يمكنكَ العيش هكذا، فرناندو.

- لم أختر أن أعيش هكذا.

- هل أنتَ متأكد؟

قادته قدماه إلى قريب من كلية الآداب، حيث كانت مجموعة من الطلبة يتحادثون وهم جالسون على الدرج، وتذكر فرناندو أنّ له موعداً مؤجلاً مع المشرفة على أطروحته، الدكتورة العجوز سانتوري. لكنّه ما كان يشعر بالحماس للعودة إلى ذلك المكان الذي دخله للمرة الأولى كتفاً إلى كتف مع ميغيل أنخل وفيكتور، اللذين كانا يحملان القسائم التي ضمنت لهما التسجيل في ذلك المكان الذي ولجا من خلاله عالم

الفنون الجميلة والآداب السامية الذهبي. لم يعد إلى الكلية منذ ذلك اليوم من كانون الأول من عام 1976 الذي أمضى عصره منتظراً أن يتحدث مع العميدة عن مشكلته. لقد تحوّل ذلك المكان في ذاكرته إلى مدخل لجهنّم، وحاول طوال السنوات الأخيرة من حياته في كوبا الابتعاد عنه. لكنّه تنبّه الآن، وهو يقف ينظر إلى تصميم البناء المعتم والساخن، الذي أصبح رمادياً مع الوقت، إلى أنّه، منذ ثلاثة أيام، وهو لا يتذكر هيريديا، بل لا يتذكّر الخيانة التي غيّرت مجرى حياته. لقد أعاده حمّام الجنس والراحة الذي ألقى بنفسه فيها إلى حالة سابقة لأحزان حياته الكبرى، وتكفّل عقله الباطن، المحتاج إلى تلك الهدنة، بالتعتيم على الذكريات المؤلمة ليفسح المجال واسعاً لعودة الحب وربّما الفرحة والضحك، فتلك كانت مطالب دلفينا.

- أقسى ما في الأمر كان البُعد ومعرفة أن ما من سبيل إلى العودة... من الضروري أن يعيش الواحد الظرف ليفهم ما يعنيه.

- ظننتُ أنّك تآلفتَ وتكيفتَ مع ظرفكَ، يا ولدي.

- لم أستطع. لقد تغيّرتُ كثيراً. الأصدقاء الذين تعرفتُ عليهم هناك ليسوا كالذين أعرفهم هنا. ما أحبه الآن لا يشبه ما أحببته هناك... أحياناً أستغرب حالتي التي كنتُ عليها. لا أعرف نفسي تقريباً.

لم يكن يشوّش أفق ذلك الإحساس بالراحة والرفاهية غير غمامة المستقبل. لم تبقَ أمامه سوى عشرة أيام في كوبا وهو يريد أن يستمتع بها رشفاتٍ حتى الثمالة، ليحظى على الأقل بعزاء تلك المكافأة التي ستستنفد جرأته بجروح جديدة، لم تجد لديه إزاءها أيّة مقاومة.

- حين كنتُ أشعر بهذا الشعور، كنتُ أتذكر هيريديا. كتب مرتين، وهو في المنفى، أنّه كان يعيش حلماً.

- حلم رواية حياتي.

- أما زلتِ تذكرين؟... «متى تنتهي رواية حياتي لكي يبدأ واقعُها؟».

- فرناندو، أنتَ لا تعلم كم مرّة قرأتُ أطروحتك. أعتقد أنّني حفظتها عن ظهر قلب. لقد كنتَ ما كنتُ أتمنى أن أكونه. لكنّ كلّ شيء انهار فجأة. حياتي أيضاً ما عادتْ نفسها.

كان على فرناندو، فضلاً عن حاجته إلى الارتواء من دلفينا، أن ينهي ما جاء من أجله. فالتخلّي عن مسعاه معناه أنّه سيقتل، من دون رحمة، الكائن الغريب والمعذب الذي رافقه في العشرين سنة الأخيرة، فليس له من خيار غير تصفية حسابه مع الماضي والعفو عن الأبرياء وإدانة المذنب. كان لفكرة العودة من دون نزع تلك السهام من على ظهره القدر من خطورة فكرة التخلص نفسها من الحب الوليد. أم إن من الممكن أن ينسى ويبدأ من جديد؟ هل يستطيع أن يقفز من فوق ماضيه ويسقط في واقع الحاضر؟ هل لديه القدرة والإمكانيات ليصحح مسار السنوات الأخيرة من وجوده؟ هل سيكون في مقدوره أن يتقبّل فكرة أنّ تلك العودة تغيّر حياته؟

- قولي لي شيئاً، أيتها العجوز. لماذا ليس لديك كلب؟

- هل تريد الحقيقة؟

- نعم بالطبع.

- لأنّي أخاف أن أموت ذات يوم... فمن سيتكفّل حينها بالحيوان المسكين؟

- عجباً، أيتها العجوز...

انحرف إلى جادة كارلوس الثالث القديمة بحثاً عن شارع (إنفانتا). كانت تلك الجادة الرائعة واحدة من أكبر إنجازات الحاكم العام تاكون، وهو نفسه الذي أهان هيريديا بأن منحه رخصة بعودة مؤقتة مثقلة بالشروط، واقتنع فرناندو أن ليس أمامه من مهرب: الماضي يهاجمه في كلّ ناحية من نواحي المدينة، في كلّ رائحة، في كلّ إيماءة تبدو على وجوه الناس، ولن يستطيع توجيه حياته من جديد أو، على الأقل، تهدئة

ضميره، الذي ما انفكّ يؤنبه، وامتلاك القدرة على البدء، إلّا بعد أن يلبي متطلبات ذلك الماضي: كلا، ما من مجال للنسيان.

- وأنتَ، فرناندو، ماذا ستفعل؟

- ما يجب عليّ فعله: أحلّ مشاكلي مع الحياة وأكفّ عن التخفّي.

- ما معنى هذا؟

- اليوم، حين استيقظتُ، كتبتُ قصيدة. لم يحدث لي هذا منذ أكثر من عشر سنوات.

- هذا شيء يسعدني. لكن ليست هذه هي المشكلة الوحيدة. ولا الأسوأ. هل أنتَ مستعد حقّاً للوصول إلى النهاية ومواجهة ما قد يحدث؟

- وهل لديَّ خيار آخر؟

حين وصل إلى حارته ورأى بيته، بعد يومين من الغياب، هاجمه إحساس بأنّ العودة ممكنة. لم يكن الأمر هكذا في حالة هيريديا. ولا في حالة باريلا أو دل مونته أو ساكو أو كوبيين كثيرين آخرين، حُكم عليهم، على مدى ما يقرب من قرنين، بأن يهيموا وإلى الأبد وأن يتركوا عظامهم في بلاد بعيدة. أمّا مارتي فقد تمكن من كسر التعويذة: فقد عاد ليموت، لكنّه عاد. فهل كانت تلك التضحية ثمن عودته؟ هل قرر الانتحار حين عاد؟ عشرة أيام - حسبها من جديد- بقيتْ أمامه من مدة إقامته وبعدها سيكون مضطرّاً للابتعاد عن العالم الذي أراد عبثاً أن يدفنه.

- أردتُ أن أنسى كلّ شيء، لكنّي لم أستطع. أعلم الآن آنّني أحسنتُ صنعاً في عودتي. نعم، عليّ أن أواجه ما هو قادم.

- أنا سعيدة لأجلكَ، فرناندو. اسمعْ، كان مهمّاً عندي أن أراكَ مجدداً، لكنّي أظنّ أنّ عودتكَ إلى كوبا كانت أكثر أهمية بالنسبة إليكَ.

- كان عليّ أن أعود، أيتها العجوز. وإن كان لكي أنتحر.

***

كتبتُ شعراً كثيراً في شهور البرد القاسية تلك، وأنا أتأمّل ارتفاع سور

إدانتي: سجني كان، يا للعجب، هو العالم الواسع، لأنّ فضاء حريتي وحياتي، يا لمصيبتي، موجود على أرض الجزيرة التي ولدت عليها ومنعت من العودة إليها. راح حنين المنفي يفترسني، ويضع وسمَه على كلّ فصل من فصول حياتي وبصمته على الكثير من أفكاري، وأحسستُ بمبلغ العقاب الذي يوقعه أولئك الذين يمارسون وظيفة مالكي الأوطان والمتحكمين بالمصائر، حين يعطون لأنفسهم الحق في الحكم على من يخالفهم الرأي.

لكنّ الشعر واصل التدفق وسط فيض الأحزان ذاك، نسيت نصائح باريلا وشحنتُ أشعاري بكلّ الكراهية التي أحملها وكلّ الألم الذي أعانيه، وصرختُ في وجه الطاغية وبكيتُ حال كوبا وناديتُ بحريتها. وكتبتُ وكتبتُ حتى استطعتُ، في ربيع عام 1825 ذاك، أن أؤلّف مجلداً من أشعار عزمتُ على تقديمها لدار من دور النشر.

وكعهدي في سنوات بعيدة ماضية، فقد تأبطتُ ما كتبتُ وما ألّفتُ وقصدتُ القس باريلا طلباً لرأيه وإجازته. وقد شاء الحظ أن يرافقني في تلك المغامرة الأدبية واحدٌ من أخلص زملاء معهد سان كارلوس وأنبلهم. فقد كان من دواعي راحتي وسلام روحي أن جاء إلى الولايات المتحدة صديقي الطيب سلفستري، الذي حمل لي معه سعادتي الدائمة التي أشعر بها قريباً من رفيق قديم من رفاق الزمن الجميل.

حمل لي سلفستري، فضلاً عن بعض قصائدي الضائعة، التي كنتُ أحتاجها لإكمال مجموعتي الشعريّة، أخباراً، وفوجئتُ إذ علمتُ أنّ قصائدي الوطنية، التي دخلت كوبا سرّاً، قد ذاعتْ واشتهرتْ، على الرغم ممّا قصدت إليه السلطات الاستعمارية حين نشرتْ رسالتي وأذاعتْ خبر صدور الحكم عليّ، وأنّ الناس صاروا يرون فيّ شاعراً شابّاً يعجبهم شعره وميوله الواضحة إلى التحرر. لقد صارت قصيدة «نجمة كوبا»، تلك القصيدة المؤلمة، التي كتبتها عقب وقت قصير من رحيلي، نشيداً للتخاطب بين الشباب الليبرالي، بل صاروا يتداولون نسخاً مخطوطة من قصيدة «نياغارا».

دار الحديث بيننا، بالطبع، عن عرس لولا خونكو وفيليبّو غوميث في كاتدرائية هافانا، وعن سفر العروسين إلى مزرعة (ميرا فلورِس)، حيث قررا السكن والاستقرار. وتحدثنا عن المرض المفاجئ الذي أصاب سانفيليو، حتى صار الأطباء يخشون على حياته. وتكلمنا عن عائلتي، التي كان يزورها كلّما ذهب إلى (ماتانثاس)، وقد اعترف لي بأنّ في داخله سبباً إضافياً يدفعه لزيارتهم، ألا وهو انجذابه إلى أختي إغناثيا. وأطلنا الحديث طبعاً حول دومنغو، الذي لا يكلّ ولا يملّ، وكان سلفستري ما يزال يدعوه بـ «يوم الاثنين» [46]، وإن دافع عنه دفاع الصديق المخلص عن صديقه، مع ذلك فقد أقرّ بأن دومنغو ينساق أكثر فأكثر خلف السلطة والمال وصولاً إلى حدود يمكن أن تكون خطيرة. روى لي النهاية التعيسة التي انتهى إليه حبّه للجميلة إيزابيل، بعد أن أجبره جفاؤها على أن يعتكف شهوراً في مزرعة أسرته، حيث عانى وبكى تباريح الحب في الكثير من الرسائل، كما فعل «فارتر»[87]، بينما كان أقرب أتباعه - وعلى رأسهم ثينترا وتانكو- يطلبون منه أن يعود إلى المدينة.

بعد أن تناولنا الطعام في مطعم كوبي رائع في شارع (برودواي) - حيث لا طبقُ الخنزير المشوي ولا طبقُ الكسافا المرشوشة بنقيع البرتقال يبلغان مبلغَ ما لهما من مذاق وطعم في الجزيرة-، توجهنا إلى بيت باريلا، الذي استقبلنا بقهوة لذيذة وأخبرنا بما أثار قلقنا: لقد حاول قاتلٌ مأجور، مبعوث من حكومة المستعمرين في هافانا، اغتياله وسط الشارع قبل يومين، وقد فشلت المحاولة بفضل تدخل ساكو. الشيء الإيجابي في ما حدث، بحسب باريلا، هو أنّه يبيّن أنّ نشاطه صار ملموساً في البلد، لذلك يحاولون إزاحته. أمّا الجانب السلبي، بحسبه، فهو أنّ التأييد الذي كان يتلقاه من الشخصيات الداعمة بدأ بالانكماش مع عودة علاقة تلك الشخصيات بالتاج إلى سابق عهدها. انتبهتُ، وأنا أستمع إلى القس، إلى أنّ تلك المكائد السياسية، المبنيّة على المصالح

87- إشارة إلى كتاب «آلام فارتر» للأديب والفيلسوف الألماني غوته.

الغامضة والمزيفة، تثير يوماً بعد يوم اشمئزازي وتكشف لي عن مدى سذاجتي وأنا أتبنّى قضيّة الاستقلال بعاطفيّة وبراءة.

وبينما كنتُ أجاهدُ للاستمتاع بوجود سلفستري في نيويورك والاستراحة من برد الشتاء، استمرّ تدهورُ صحتي، فقد صرتُ أعاني من حمى مفاجئة، وآلام في أنحاء جسمي وتعب وصعوبة في النوم من جرّاء نوبات السعال المستمرة. وما عاد شكلي هو ذاته الذي كان عليه حين خرجتُ من كوبا شابّاً قبل ذلك الوقت بسنتين، ففضلاً عن اللحية غير الكثيفة، كان خطوط وجهي بادية من النحافة ولونه شاحباً من قلة الشمس. بل لقد كان مظهري من السوء أنّي قررتُ أن أؤجل فكرة عمل تصوير لي، بعد أن فكّرتُ في إرسال صورة تجمعني وسلفستري هدية إلى أختي إغناثيا التي ما انفكتْ تطلب منّي، في كلّ واحدة من رسائلها، صورة لشقيق روحها. كانت حالتي الصحيّة ونصائح الأطباء تحثّني على ضرورة البحث عن جوّ أنسب وأقرب إلى أجوائي المفضلة: مكان دافئ لا تتخشّب فيها أصابعي حين أكتب، مكان لي فيه قدر أكبر من الحياة. لكنّي، وبعد أن فقدتُ الأمل في صدور عفو عنّي، طلبتُ من خالي إغناثيو أن يساعدني في الخروج من تلك البلاد أو، على الأقل، في أن أنتقل إلى الجنوب، لأنّ فكرة انتقالي إلى (نيو أورلينز) ظلتْ تروق لي وتغريني، كما كانت تغريني فكرة الإقامة في أحد بلدان أمريكا الإسبانية الجديدة، حيث أستطيع أن أمارس المحاماة وأكسب ما أعيل به نفسي.

عقب عدة أسابيع، وبتشجيع وإجازة من باريلا، اتصلتُ باثنين من أصحاب المكتبات في نيويورك: (بيره) و (كاهل)، وهما مهاجران ألمانيان وافقا على طبع أشعاري بسعر معقول يتحملان هما نسبة منه بصفتهما موزعين مطلقين. واستطعتُ، بفضل سلفستري، الجاهز دائماً للمساعدة، وإرسالية خاصة من طرف خالي إغناثيو، أن أدفع تكاليف طبعة رضبختُ فيها، وأنا أفكّر في وصولها المنتظر إلى الجزيرة، لأسوأ رقابة: رقابة ذاتي لذاتي وحذف جميع القصائد التي تشير من قريب أو من

بعيد إلى حرية كوبا. حين قبلتُ بعملية الإخصاء تلك، التي لا بدّ منها مع قسوتها، كنتُ أؤسس - أنا المؤسس أيضاً هنا- لصيغة الرقابة المحزنة في الأدب الكوبي، وإن كنتُ أخمّن أنّ الكثيرين سيحذون حذوي على مدى السنين.

سلّمتُ مخطوطة الكتاب إلى الناشرين ليلة الثامن عشر من أيار من عام 1825، قبل يوم واحد من عودة سلفستري إلى كوبا، وأصرّ صديقي على الاحتفال بالمناسبة في مطعم شعبي إيطالي يقع في الرقم 87 من شارع (بـرودواي)، حيث أكلنا، بسعر الذهب، طبقاً من فواكه البحر المرشوشة بالكثير من النبيذ الأبيض... ما لم أستطع تصوّره هو أنّني، في تلك الليلة السعيدة، كنتُ أودّع وإلى الأبد واحداً من أنبل من عرفتُ من الرجال وأصدقهم. إذ لم أتمكن في اليوم التالي، وقد شلّني الصداع الذي لازمني طوال تلك السهرة، من النهوض من فراشي ومرافقته إلى الميناء، وهكذا أضعتُ فرصة معانقة الشاب الذي مات بعد تلك المناسبة بثلاث سنوات في هافانا تاركاً فراغاً في قلبي لا يمكن ملؤه.

في بداية تمّوز ظهرتْ «أشعاري» العتيدة. حين ذهبتُ إلى المطبعة للحصول على نسخة من تلك الكراسات، وكانت ما زالت تنبعث منها رائحة الحبر، تملكني واحدٌ من أغرب المشاعر في حياتي: شيء من عدم التصديق، كثير من الغرور وحتى قليل من الخوف حين تلمستُ أوراق الكتاب وتحققتُ من وزنه. على غلافه ظهر اسمي، وضمّ داخله أفضلَ ما في حياتي، بحروف صغيرة دقيقة الحافات. كنتُ أحمل تجربتي الشعرية متحققة بين يدي، وبدا لي مستحيلاً أن أكون مبدع تلك الأبيات التي ما عادت، يا للغرابة! ملكي، بل أصبحت، هي نفسها، مالكة نفسها ومصيرها.

كان كبيراً حظ ذلك الكِتاب، الذي أقنعني بأنّي شاعر كبير، أستحقّ إطراء الكاتب الإسباني الشهير ألبرتو ليستا[88] والشاعر الغنائي الفنزويلي

88- Alberto Lista (1775-1848). شاعر وصحفي وناقد أدبي إسباني.

أندريس بيّو[89]، وهما من هما في عالم الشعر المكتوب بالإسبانية. لقد أشادوا في مدريد ولندن وكاراكاس وباريس، بل في الولايات المتحدة، بقصائدي، ووصفوني، بعدها في المكسيك، بـ «أرفع شعراء هذه الجزيرة، بل كلّ أمريكا»، بينما ترجمت بعضُ نصوصي إلى الإنكليزيّة والفرنسيّة والإيطاليّة، وحتّى إلى الألمانية الصعبة. وندمتُ كثيراً على أنّي حذفتُ قصائدي الوطنية، لكنّي أصبحتُ، منذ ذلك الحين وعلى الرغم من غيابها، مرجعاً في الشعر الجديد في أمريكا، وعرفتُ بـ «شاعر نياغارا»، وعدّوني المترجم الأول للطبيعة الأمريكيّة، وأرفعَ شاعر مدني، والرومانسي الأول في أمريكا، بل لقد وصفوني بالمؤسس لإحساس مختلف عن الإحساس الإسباني. لا أشعر بأيّ خجل حين أتذكّر الزهو الذي أحدثته فيّ تلك الأحكام وذلك المديح، فقد رأيتُ كيف أنّي استرجعتُ، بفضل الشعر، الاسم والروح التي أرادوا أن يسلبوني إيّاهما حين منعوني من العودة إلى كوبا وحين حاولوا التعتيم على شهرتي في الجزيرة. لقد عدتُ، على الرغم من الرقباء والطغاة والحاسدين، عدتُ، بفضل الشعر، وهو الضئيل الشأن الذي لا يقهر، لأكون هيريديا، مؤمناً بأنّ الشاعر هيريديا أرفع شأناً وأعظم أهميّة ممّا يمكن للمسكين المريض خوسيه ماريا هيريديا أن يظن. رزمتُ حينها مئة نسخة وأرسلتُ بها إلى كوبا، وأنا متهيئ لسماع خبر احتجازها أو اختفائها، وصعدتُ، بلا تردد ولا تفكير، إلى مركب متجه إلى المكسيك طلباً لإنقاذ حياتي وباحثاً عن فضاء لهويتي.

كان صعباً عليّ أن أترك مجدداً الأصدقاء الذين عشت معهم طوال سنواتي في الولايات المتحدة. ومع أنّ قلبي اعتاد الرجوع إلى البحر وألف الوداع الذي ما كنتُ أعرف له نهاية، فقد آلمني دائماً أن أرحل مخلّفاً ورائي علاقات المودّة والألفة. لكنّ قدري كان أن أهيم، كنت أعرف ذلك، وهذا هو ما ألقيته على مسامع باريلا وخينير وساكو بينما كنّا نشرب القهوة التي أتى لي بها ذلك الراهب، الأكثر قداسة وطهارة من

89- Andrés Bello (1781-1865). كاتب فنزولي وشاعر ولغوي بارز.

بين الذين عاصرتهم، صاحب الإيمان الأصدق والأحق، والذي لم تلبث أفكاره أن تعرّضت للنقد والرقابة في كوبا، والذي لم يلبث أثرياء كوبا أن رموا به إلى سلة المهملات. حين توادعنا عند باب نزله، بعد عزف قصير على الكمان، اعترف لي بأنّ الرئيس غوادالوبه فيكتوريا[90] دعاه إلى المكسيك وأرسل له جواز سفر خاصّاً. مع ذلك، وعلى الرغم من أنّ الفكرة راقت له، فقد كان يفضّل أن يواصل عمله السياسي والديني في الولايات المتحدة، فقد كان الجميع يعلمون بجهود فيكتوريا في سبيل استقلال كوبا، وكان هو يفضّل أن يتحقق الاستقلال على يد الكوبيين، حين يقررون هم الاستقلال.

- سنحصل على ما نحن قادرون على الحصول عليه - قال لي - وما نستحق أن نحصل عليه. إن كان لنا أن نكون أحراراً، فيجب أن يكون ذلك بأيدينا، لكي يكون للحرية ثمنها ولكي نقدّرها حقّ قدرها. أمّا إذا بقينا عبيداً، فلعجزنا عن التخلّص من ربقة الطغيان ونير الاستبداد. لذلك أفضّلُ البقاء هنا، حيث لن يساعدني أحد، بل حيث أعرف أنّ السياسيين لا يحبونني. وسأقاوم البرد ما استطعتُ، وسأتحدث بهذه اللغة التي أراها كطنين الذباب. وسنرى ما يقدّر الربّ بعد ذلك.

مع كلمات الراهب وعناقه الحار على ظهري صعدتُ في الثاني والعشرين من آب من عام 1825 إلى السفينة (شاسيغ)، المتجهة إلى ميناء (البارادو) المكسيكي. ثارت في الطريق عاصفة شديدة كادت أن تغرق السفينة، ومع أنّ القبطان كلاوديل أفلح بمهارته في إخراجنا من الورطة، فقد أبعدت العاصفة المركبَ أميالاً كثيرة عن خط مساره، وكان من نتيجة ذلك الحادث العرضي أن أمر السيد كلاوديل، ذات صباح، بإيقاظي فجراً، وطلب منّي أن أصعد إلى سطح السفينة. امتثلتُ لأمره وأنا قلق، بعد أن ظننتُ أنّ عاصفة أخرى توشك أن تعصف بنا، على الرغم من أنّني كنتُ أرى أنّنا نبحر في مياه هادئة. ولم أفهم سبب دعوته

90- Guadalupe Victoria (1786-1843) أول رئيس للمكسيك. حكم بين 1824-1829.

إلَّا حين أصبحتُ قريباً منه: أشار إلى ميمنة السفينة ورأيت على البعد خط الساحل الذي نهض فوقه ارتفاع بسيط.

- إنّه وطنك، سيد هيريديا - قال لي-. إنّه الساحل الشمالي لكوبا. وذلك الجبل هو الذي تدعونه «خبز ماتانثاس».

اقتربتُ صامتاً من جانب السفينة وسمّرتُ نظري في تلك الأرض التي ما كنتُ أراها إلَّا بصعوبة، مشوشة كالحلم. امتزج حنيني إلى كوبا مع معرفتي بقربنا من المدينة التي تعيش فيها أمّي وأخواتي، ولولا التي لا أنساها، وشعرتُ بمنفاي وكأنه طعنة خنجر. ماذا تراهم يفعلون هناك بعيداً، أختي العزيزة إغناثيا وأمي وخالي؟ هل انتهوا من شرب قهوة الصباح التي لن أنسى طعمها ما حييت؟ وبسكوت جوز الهند، والحليب مع الشوكولا؟ ولولا؟ هل تراها تنام في حضن فليبي الذي يناسبها؟ أما زالت ساقاها تحتفظ برائحة مداعبات الليلة الماضية؟ هل ما زالت تداعب نهديها باحثة عن المتعة، كما كانت تفعل حين تعلّمتْ معي؟ هل عساها تسمح لزوجها بدسّ عضوه في فمها، كما سمحتْ لي ذات مرّة، بعد تمنع من طرفها وتوسل وقُبل ومداعبات من طرفي؟ هل تراها تطلق شعرها أم تربطه؟ هل تراها نسيتني أم في مقدورها أن تحبني من جديد؟

من المستحيل عليّ أن أتذكّر جميع الأسئلة التي طرحتها على نفسي، وكلّ نوبات الغيرة ولواعج الشوق، حتّى غاب عن ناظري خط الجزيرة. نزلتُ إلى قمرتي، وقد اشتدّ حقدي وبانت كراهيتي، وجلستُ لأكتب «نشيد المنفي»، ولعلّه أصدق ما كتبت من الشعر، فقد صرختُ منه، وأنا أنظر إلى حيث يجب أن يكون وطني: «[كوبا] وإن خدمكِ خونة سافلون // فشرور الطاغية لا تنفع// وليس عبثاً أن يمتد بين كوبا وإسبانيا هذا البحر الواسع بأمواجه».

***

تبنّى آلبارو الموضوع على أنّه موضوع شخصي تقع مسؤوليته عليه وحده. قال إنّ النقود التي أعطاه فرناندو إياها تأتي لهم بزجاجتين من

السوق، لكنّه يستطيع، بالمبلغ نفسه، أن يشتري ثلاث زجاجات ويوفّر دولاراً واحداً (هل أشتري به علبتي سجائر؟)، إذا اشتراها من محل (باكان) غير المرخص قانونيّاً، فهذا المحلّ يبيع شراب الرون نفسه، بنوعية رون السوق الرسمي ذاتها، لكنّه شراب مضمون وغير مغشوش.

- تجارة (باكان) رابحة: فهو يصنع الرون في منزله، وعنده ماكنة لختم الأغطية مثل تلك الموجودة في المعامل. بعدها يبيع هذا الرون الرديء في السوق عن طريق جهتين أو ثلاث جهات يتعامل معها، ويأخذ هو الكمية ذاتها من زجاجات الرون الجيد ويبيعها لحسابه، بسعر أرخص بالطبع. وهكذا لا يمكنهم القبض على أصحاب المحلات في السوق بتهمة السرقة، إذ ما من زجاجات ناقصة، و(الباكان) عنده دائماً زبائن دائمون يشترون منه... آه، قال لي إنّه سيبدأ قريباً بصنع الكوكا كولا...

خرج آلبارو وهو يرتدي قميصه، وترك فرناندو وكونرادو، وجهاً لوجه، ينظران إلى عيني بعضهما البعض.

- هل صحيح أنّهم يصنعون كوكا كولا؟ - سأل فرناندو، وهو بعد في دهشة.

- وقهوة معبئة بطريقة التفريغ، وتبغ مونت كريستو وكوهيبا مع ختم الضمان، وكل ماركات السيجار الكوبي - قال كونرادو-. هذا جنون... يغلقون ثقباً ليظهر ثقب آخر ولا تجدي الإجراءات نفعاً حتى لو خصصوا شرطيّاً لكل فرد... يبيعون أيّ شيء: من إجازة بناء إلى تسجيل في مدرسة أو شهادة وفاة مزورة. أيّ شيء.

بدا لفرناندو أنّه لمس نبرة ألم في كلام كونرادو، لكنّه تذكّر أنّ صديقه كان يحصل على النبيذ لقاء سكاكر من شركته؛ ويحصل على الزيت مقابل حقائب دعاية؛ والبنزين مقابل علكة؛ بينما كان يتلقّى من تحت الطاولة بعض الدولارات من الإسباني صاحب المصلحة، ورأى أنّ كونرادو يشكل جزءاً في آلية البقاء على قيد الحياة، وما حزنه الظاهر إلّا من قبيل التمويه.

- علمتُ أنّك حملتَ القط إلى الماء[91]، أيّها القوّاد - قال كونرادو حينئذٍ، وهو يبحث عن سبيل للابتعاد عن أحزان حقيقية أو مصطنعة-. من كان يتصدّق؟

- أنا نفسي لم أكن أتصّور ذلك - قال وهو ينظر إلى عيني كونرادو.

- هل صحيح ما يقول بارو؟ هل عدتَ إلى الكتابة؟

رفع فرناندو كتفيه، ليقلل من أهمية السؤال.

- ماذا دهاك؟ اسمع أيّها العجوز، لا تعانِ مقدماً.

- لقد كانت العصيّ كثيرة، كونرادو. وإن استعدّ الواحد لها كانت أقلّ إيلاماً. أمّا ما يؤلم حقّاً فهو حين تنهال عليك العصيّ وأنت في شغل عنها.

همّ كونرادو بالردّ لكنّه لم يفعل. نظر إلى صديقه ثم طأطأ رأسه.

- أنا أعرف ماذا جرى لك... كنتُ أتحدث مع بارو وقال لي إنّك ما زلتَ تعتقد أنّ واحداً منّا ألقى بك إلى التهلكة.

- انظر، أيّها الفلاح، هذه القصّة مع دلفينا أبانتْ عن كلّ شيء. ما كنتُه وما أنا عليه وما كان يمكنني أن أكون عليه... والخوف، والسنوات التي عشتها خائفاً. هل تذكر المرة الأخيرة التي التقينا فيها قبل أن أسافر؟

لم ينسَ يوماً ذلك اللقاء مع كونرادو، قبل أشهر من رحيله عن كوبا. كان آنذاك قد فقد الأمل في وصول الرسالة التي كان يأمل أن تصلح شأنه، وصار يعيش عاملاً مساعداً لنجار كان يصنع كعوباً خشبيّة لصانع أحذية متخصص بعمل كعوب سميكة ليبيعها في السوق السوداء. لكنّ فرناندو كان يخشى، في كلّ يوم، أن تداهم الشرطة معمل النجارة وتتهمه بالعمل من دون تصريح. ما كان يريد أن يبلّغ رئيس لجنة الدفاع في منطقته بأنّه لا يعمل، إذ كانت ترعبه فكرة أن يصنّفوه في خانة العاطلين عن العمل أو

91- تعبير «أخذ القط إلى الماء» Llevar el gato al agua يدل على نجاح الشخص في تجاوز صعوبة وبلوغ المراد.

المهمشين، بعد خروجه المشين من مجلة (تابا كوبا). كانت خشيته من مواجهة مشاكل جديدة تبلغ به أحياناً شعوراً عُصابيّاً بالاضطهاد، فصار لا يترك بيته إلّا ليغلق على نفسه في ورشة النجارة، فلم يعد لزيارة مكتبة ولا مسرح ولا قاعة محاضرات، بل لم يعد لزيارة أصدقائه القدامى، بعد أن تيقن من أنّ أحدهم وشى به. كان آلبارو وميغيل أنخل هما الوحيدين اللذين تحديا شكوك فرناندو وتحديا مخاوفهما أيضاً فزاراه ذات مرّة في منزله وتناولا معه القهوة وتركا له كتباً لم يقرأها.

لكنّه قرّر، عصر ذلك اليوم الشباطي من عام 1980، وبعد أن تغلّب على مخاوفه، أن يخرج إلى الشارع. كانت سينما (لارمبا) قد برمجت، في عروض صباحية متوالية، دورة من أفلام ألفريد هيتشكوك، وكانت تعرض في ذلك اليوم فيلمي «الدوّار» و«سايكو»، وهما من أفلامه المفضلة. كان فرناندو قد طلب رخصة من النجار للخروج باكراً، وعند السادسة عصراً دخل في السينما. كانت تلك الصالة، التي حولوها من سنوات إلى سينما تجريبيّة، من بين الأماكن الممتعة التي تستقر في ذاكرته، فعليها كان يتردد، بصحبة فيكتور وإنريكه وآلبارو وبقية «الساخرين»، كما يتردد المسلمون على مكّة، بحثاً عن أعمال يعدونها معقدة وثقافية، وقد تشربوا فيها بحلقات كاملة من التعبيريّة الألمانيّة، والكوميديا الصامتة الأمريكيّة، والسينما التشيكيّة السابقة لعام 1968، وأفلام أورسن ويلز[92] وكوروساوا[93]، ومن الكثير من أفلام الواقعية الجديدة الإيطالية، حتّى إنّهم اخترعوا لغة «روما الجديدة» للكلام في ما بينهم وهم يأكلون البيتزا النابولية الماسخة والسباجيتي البولوني الزائف، من مطعم (ميلان) لبيع البيتزا.

عند الساعة الحادية عشرة إلّا ربعاً غادر صالة السينما ترافقه صورة

92- Orson Welles (1915-1985). ممثل ومخرج ومنتج أمريكي.

93- Akira Kurosawa (1910-1998) مخرج وسيناريست ياباني.

أنطوني بركنز[94] المرعبة. كانت الجادة المركزية قد بدأت تخلو من المارة، وإن ضجّت النوادي الليلية بمجاميع الشباب والشابات، واجتمع في (الكوبيليا) شعراء جدد آخرون. من جهة (البيكو بلانكو) كان يبلغ مسامعه صوت خوسيه أنطونيو منديث[95]، أجشّ دافئاً خفيفاً، وهو يغنّي «النعيم هو أنت». موجة من الحنين لفّت جوارح فرناندو وأعماقه، فأحسّ بالمنفى وهو في حضن وطنه: ما عادت تلك الأرض التي كانت أرضه تنتمي إليه، وما عاد يربطه بالحياة غير ذكرياته المثخنة بالجراح، ونبهته الوحدة الطاغية التي كانت ترافقه في شارع (O)، وهو يبحث عن شارع (إنفانتا)، إلى مقدار ما فقده في سنوات التهميش تلك.

لكنّ عادة قديمة غير مدروسة جعلته يأخذ ذلك الاتجاه، وقد عرف السبب حين وقعت عيناه على الأحرف القليلة المتبقية من إعلان ضوئي في واجهة كباريه (لاس بيغاس). فتقدّم، وفي فمه سيجارة وفي يده عشرون سنتاً، نحو طاولة الخدمة السوداء في الكافيتريا، وشعر وقد استردّ جزءاً من شخصه:

- أعطني قهوة مضاعفة، أخي - قال، وهو لا يتخيّل أنّه كان يتلفظ، وللمرة الأخيرة في حياته، بكلمات لن تكتسب معناها العميق إلّا في ذلك المكان، الذي تردد عليه بصحبة أصدقائه، طوال ليالٍ كثيرة ولسنوات طويلة، بعد مشاهدة فيلم من الأفلام أو حضور عرض من العروض المسرحيّة، أو عند الانتهاء من جلسة سمر في بيت آلبارو أو جلسة شراب لطيفة، ليتناول آخر فنجان قهوة له في الليل أو أول فنجان قهوة له في الصباح، إذا كان الوقت أقرب إلى النور منه إلى الظلام.

تناول، وهو متكئ على طاولة الخدمة، قهوته المضاعفة والحلوة، وتأمّل، وسيجارته المشتعلة في يده، نشاط العاملين، بين حامل للفناجين

94- Anthony Perkins (1932-1992) ممثل أمريكي اشتهر بدوره في فيلم (سايكو) لهيتشكوك.

95- José Antonio Méndez (1927-1989). مغنٍّ كوبي وعازف غيتار وموسيقي.

وعامل على ماكنة القهوة القديمة من طراز (ناشيونال)، التي شاركت في ألف حملة وحملة. حينئذٍ بلغ سمعه صوت، يقف إلى جانبه تقريباً.

- أعطني فنجاني قهوة مضاعفة، أخي - والتفت بروح معلّقة بحثاً عن وجه «الساخر» الذي نطق بتلك التعويذة السحرية... كان الاصطدام بعيني كونرادو السريعتين مباشراً، لكنّ الاثنين ظلّا بلا حركة، فكأنّهما ما كانا يستطيعان تصديق ما بدا يقيناً. يذكر فرناندو أنّه ابتسم، لكنّ الأعصاب بدأت تفعل فعلها وداهمه خوف مختلف، لكنّه أشدّ ضرراً، من جميع الجهات: ماذا أفعل؟ سأل نفسه، هل أسلّم عليه؟ هل سيسلّم عليّ؟ إلى أن مدّ الفلاح يده.

- كيف حالك، فرناندو؟

- أنا بخير- كذب كذباً فاضحاً-. وأنتَ؟

- أنا بخير، بخير - قال الآخر-. أعمل هنا في الجهة المقابلة. أنا الآن المدير المناوب لإذاعة هافانا كوبا.

- أخبروني بذلك.

- ها، انظر - تحرك كونرادو، وقد بدا عليه القلق-، هذا فونسيكا، أحد الأصدقاء...، إنّه أمين عام الحزب- تنبّه فرناندو، وهو ينظر إلى فونسيكا، إلى أنّه كان يقول ذلك بقصد -. لقد درس معي... حسناً، فرناندو، نحن ذاهبون، فلدينا عمل. لقد حدثت مشكلة كبيرة، فقد اقتحم حشد من الناس سفارة البيرو[96]... اتصل بي، حسناً؟ - وصافحه ثمّ أدار له ظهره. عندها فقط لاحظ فرناندو أنّ الفلاح الماكر ترك فنجانه على طاولة الخدمة السوداء من دون أن يمسّه.

عقب ثلاثة أشهر، حين قرّر فرناندو مغادرة كوبا من باب سفارة بيرو التي فتحت في تلك الليلة، كان لقاؤه ذاك مع كونرادو واحداً من الدوافع

96- يشير هنا إلى حادث اندفاع حشد من الكوبيين إلى سفارة بيرو في هافانا طلباً للجوء فيها عام 1980. وكان ذلك الحادث بداية عبور الآلاف من مواطني كوبا البحر إلى ميامي الأمريكية على ظهر القوارب من ميناء ماريل [21]

التي فعلت فعلها فيه أكثر من سواها، وها هو، بعد عشرين سنة تقريباً، يشعر بألم تلك التجربة المرّة التي أثبتت له أنّه لم يكن الخائف الوحيد.

- وأنا أيضاً لم أستطع نسيان ذلك - قال كونرادو-. كلما تذكرتُ ما حدث، تمنيت لو أنّ الأرض بلعتني. لكنّ الواحد منّا ما كان يعرف في ذلك الوقت... فعلاً، كنتُ خائفاً.

- ولماذا أردتَ مقابلتي في مدريد؟

- الأمور تغيّرت في ما بعد. أنا نفسي تغيّرتُ. ما عاد الأمر الآن هو نفسه آنذاك...

- كم هذا رائع! - قال فرناندو وهاجم-. بات في مقدورك الآن حتى أن تصبح خادم أيقونات.

- هل وصلتكَ الأخبار؟

- لقد كنتَ دائماً فلاحاً ماكراً، كما كان توماس يقول، لكن من هنا إلى السحر والدجل...

- لقد وقعتُ في ورطة. كانوا يهمّون أن يحطموا حياتي بتدقيق قاموا به في الشركة. وحين يصل الماء إلى الحلقوم، فلا بدّ من التعلّق بأية قشّة. بدأتُ أمارس السحر، لأنتهي وقد أصبحتُ قديساً... أوشون [52] - قال وحشر يده في جيبه: أخرج من كيس صغير معمول من قماش أصفر ربطة من قلائد العنبر وعرضها عليّ راضياً.

- فأنتَ إذن لا تؤمن حقّاً؟

- بلى، بلى أؤمن. المشكلة هي أنّني رأيتُ أشياء كثيرة... القديسون قالوا لي أنّ أرتبَ أمورَ ماضيَّ... لذلك ذهبتُ لأراك في مدريد.

- حمداً للربّ أن ساعدنا القديسون في ذلك - ولم يمسك فرناندو نفسه عن الابتسام-. لأنّ ليس من العدل أن ينتهي بنا الأمر إلى أن يكره أحدنا الآخر دوماً.

- لذلك فقد فعلتَ حسناً أن أتيتَ.

- وماذا عنكَ أنتَ والنِّغرو؟

- هذا أكثر تعقيداً. ميغيل أنخل مغمور بالخراء من قمة رأسه إلى قدميه وأنا لديَّ ما أفعله... ماذا تريد أن أشرح لك. لقد تغيرت الأشياء، لكن ليس كثيراً، والقديسون لا يمكنهم أن يمضوا الحياة يعينونك على الخروج من النار- وأعاد ربطة القلائد إلى الكيس.

- فما زلتَ خائفاً إذن؟

رفع كونرادو رأسه وعادت نظرتاهما تتقاطعان.

- النِّغرو مجنون وأنا عندي عمل يجب...- بدأ وحاد ببصره من جديد.

- نعم، لقد ذكرتَ ذلك، وسافرتَ إلى الخارج ولديك سيارة وحصلت لزوجتك على عمل في أحد الفنادق وحصلتَ على سجائر الكوهيبا الأصليّة بدلاً من المصاصات...، لكن أما زلتَ خائفاً؟

- لا تلحّ عليّ، فرناندو. ألا تعرف...؟

- أعرفُ ماذا، كونرادو؟- قال وقد رفع صوته ومال بجسمه نحو الأمام- كيف لا أعرف؟ كان عليّ أن أتحمّل عشرين سنة خارج كوبا وسأحتاج إلى أن أقضي السنين الباقية من حياتي في أرض الشيطان البعيدة تلك، ولا أعرف؟...

- حسناً، تمالكْ أعصابك.

- كيف تريدني أن أتمالك أعصابي؟ أم إنّك نسيت أن ابن قحبة ادعى أنّه صديقي باعني كما يبيع كيساً من البطاطا؟ وأنّ الأمر بلغ ببعض منكم أنّكم كنتم تتهربون منّي؟ قل لي، خبرني، كيف تريدني أن أتمالك أعصابي؟

عدّل كونرادو من جلسته ببطء. ودار بخطى غير واثقة حول المقعد الذي كان جالساً عليه وتقدم نحو جدار السطح.

- لم أكن أنا، فرناندو - قال-. لا أعلم من كان، ولا أستطيع أن أتهم أحداً، لكنّي أقسم لك بكلّ مقدس أنّني لم أكن من فعل ذلك. يمكنك أن

تظنّ بأنّي تصرّفتُ كالجبان الذي أدار لك ظهره، وبأني انتهازي فضّل أن يسافر وأن تكون عنده سيارة، وبأنّي تحوّلتُ إلى قديس لأنّ ذلك يناسبني... ظنّ ما بدا لك أن تظن، لكن اسمعني جيداً: أنا لم أبلّغ عنك، هل تسمعني؟ لست أنا من وشى بك. أحسّ فرناندو بالخجل وهو يرى ذلك الرجل الذي كان يوماً من الأيام صديقه ينهار أمامه. كان كونرادو يرتعش وهو مسنود إلى جدار السطح، لكنّه واصل النظر إليه، ووجد فرناندو في غور عينيه شرارة التحذير تلك التي اعتاد الفلاح الماكر، الواصل حديثاً من قرية صغيرة من قرى (لاس بيّاس)، أن يرمق بها عالماً عقد العزم على بلوغ قمته.

- وأنا أصدقك، كونرادو. اعذرني على ما قلته لك- ونهض ليعانق الآخر، في تلك اللحظة فتح باب السطح ليطلّ آلبارو وهو محمل بالزجاجات.

- ماذا؟ هل أثار منظر الغروب عواطفكما؟

***

شعرتُ بالخلاص والسعادة وأنا أطأ أرض المكسيك في الخامس عشر من أيلول من عام 1825. كم كانت بعيدة عن مخيلتي فكرة أنّني سأقضي بقيّة حياتي تقريباً في تلك البلاد. وكم كان بعيداً تصوّر ما سأترك من أشلائي فوق تلك الأرض، شأن أولئك الذين حكم عليهم التعصّب وذبحوا بحدّ الحجر أسفل هرم (تشولولا). لكنّ عودتي إلى مكان أعرفه، لغته هي لغتي، مكانٍ لا أموت فيه من البرد، لي فيه أحباب وذكريات، كانت تولّد فيّ إحساساً بالانتماء لم أشعر به في الولايات المتحدة.

لذلك ما إن ارتحتُ قليلاً من عناء السفر حتّى توجهتُ إلى (خالابا العليا)، حيث كان في انتظاري كوبي مثلي وله اسم كاسمي ليستقبلني استقبالَ الصديق القديم. قبلتُ كرم خوسيه ماريا بيريث، وهو صديق أصدقاء لي، إذ دعاني للبقاء أياماً معه. هناك علمتُ، وقد أخذت منّي الدهشة كلّ مأخذ، أنّ صدفة غريبة حالت دون أن أتسلّم في نيويورك

دعوة وجهها إليّ الرئيس فيكتوريا وجواز سفر، مشابهين للذين حظي بهما باريلا، واللذين كنتُ سأنعم بواسطتهما بمرتبة ضيف البلاد المكرّم.

كانت أيام (خالابا) حافلة ولطيفة، ولم تعكّر صفوها إلّا قطرة من قلق أحدثه فيّ خبر مفاده أنّ مجموعة مغالية من الكوبيين سمّتني عضواً في «المجلس الوطني الكوبي في المكسيك»، وأصدرتْ بياناً تحريضيّاً أدرجت اسمي ضمن قائمة من وقّعوا عليه، فكان في ذلك تأسيس لتقليد كوبي آخر قوامه التوقيع على بيان من دون قراءته. لم أعرْ بالاً للموضوع وتصالحتُ مجدداً مع ذلك النمط من السلوك الكوبي حين استمعتُ، في واحد من مقاهي المدينة، إلى جوقة كوبية يقودها المايسترو مارينو كوبياس[97]، وهي تعزف الموسيقى الراقصة التي طالما استمعتُ إليها في الجزيرة، بأجوائها الحزينة المعبرة عن روح بلادي، شأنها شأن أفضل القصائد.

أفلحتُ في نهاية ذاك الشهر في التخلّص من ضيافة خوسيه ماريا بيريث الكريمة، وأخذتُ العربة المتجهة إلى العاصمة. لكنّي بدأتُ أشعر، وأنا في الطريق، بالإنهاك، واشتعل بدني، ثمّ أدركتُ، من البقع الغامقة التي كسته، أنّني مصابٌ بالحصبة. لا أبالغ إذا قلتُ إنّني لم أحسّ يوماً بدنوّ أجلي كما أحسستُ به حينها. وتضافرت الحمى والآلام والغثيان لتلقي بي، طوال أسبوع، لم أذق فيه طعاماً ولا نوماً، بين مخاوف وهلوسات مريعة. لا أدري كيف اعتنوا بي في نُزل في (بويبلا)، إلى حيث تمكنتُ من الوصول، وأظنّ أنّ قوة الشباب والدولارات القليلة التي بقيتْ معي هما ما تمكنا من إخراجي حيّاً من تلك الحالة الصحية الحرجة.

في الرابع عشر من تشرين الأول، وصلتُ إلى مدينة المكسيك، وكنتُ ما أزال أحمل علامات الضعف والمرض. أرسلتُ من البنسيون الذي نزلتُ فيه إشعاراً للرئيس، فترجاني هو أن أذهب للقائه في أقرب فرصة ممكنة. حين دخلتُ قصر الحكومة ووقفت أمام غوادالوبه فيكتوريا،

97- Mariano Cuevas لم نعثر له على ترجمة.

الذي نظر إليّ وهو في شكّ من أن أكون أنا الشخص الذي كان ينتظره. بل لقد سألني مرتين إن كنتُ أنا المحامي هيريديا، وحين اقتنع بأنّني أنا هيريديا، عانقني عناقاً حارّاً... ولا بدّ أنّ بطل الاستقلال المكسيكي الأسطوري كانت له أسبابه حين طلب منّي أن أستريح قبل كلّ شيء وأن أستعيد عافيتي، لذلك أمر بإنزالي ضيفاً على القصر. لا شكّ أنّ وجهي الذي أنحله المرض وهدّه التعب وعينيّ اللتين علّمتهما هالتان سوداوان لم يبرحا مكانهما، على الرغم من سنواتي الاثنتين والعشرين ولحيتي الخفيفة، جعلته يفكّر في استحالة أنّ تكون تلك الأطلال البشريّة هي الرجلَ الذي ذاعت شهرته شاعراً ومتآمراً فدعاه إلى العيش في بلده.

لولا الحصبة الملعونة لكانت حياتي في المكسيك بدأتْ على خير ما يمكن أملاً وتفاؤلاً. حين تحادثتُ أخيراً مع فيكتوريا، طلب منّي أن أسكن في القصر وخصّص لي راتباً مؤقتاً لحين تعييني في منصب يناسب وزني ورتبتي، وتحدث لي أيضاً عمّا يعلّقه عليّ من آمال إذا ما قررت المكسيك دعم استقلال كوبا.

أخيراً رفعتُ عن كاهلي الحمل الذي كان يمثله اعتمادي ماديّاً على خالي، وانصرفتُ إلى مراجعة ما كنتُ كتبته من تراجيديا «أبوفار» لدوسيس[98]، بعد أن عملتُ في ترجمتها أثناء رحلتي من نيويورك، و«سيلا»، للفرنسي جوي[99]، التي عدّلتُ فيها لتكون تكريماً لفيكتوريا، لكن من دون إهدائها إليه، فأنا لا أجرؤ على ذلك السلوك الذليل - في كوبا يقال له «مسح الجوخ»-، حتى لو كان الشخص المعني صديقي، ما دام شخصاً غير عادي، وتحيط به هالة السلطة. وعُرض العملان، اللذان سرعان ما وجدتُ لهما داعمين متحمسين، لأوّل مرّة في شهر كانون الأول، وحظيا بتصفيق الجمهور واستحسان النقاد، ورسخا مكانتي في البلد.

98- Jean-François Ducis (1733-1816). كاتب ومسرحي وشاعر فرنسي.

99- Étienne de Jouy (1764-1846). مسرحي وصحفي وكاتب انطباعي فرنسي.

كان كلّ شيء في المكسيك عام 1825، وفي شتاء تلك الأنحاء اللطيف، يبدو سائراً نحو مداواة جراح جسمي وروحي. وكان من دواعي سروري رؤية ذلك البلد وقد رسّخ في سنوات قليلة استقلاله ونظامه الجمهوري الاتحادي، عقب محاولة إيتوربيده الفاشلة لإقامة إمبراطوريّة [55]، وصار يعيش حالة من الازدهار، في ظلّ حكومة منتخبة بإرادة شعبيّة، فكأنّ خمسة قرون مرّت منذ آخر إقامة لي هنا لا خمسة أعوام.

استرددتُ علاقتي مع صديقيّ القديمين أناستاسيو ثريثيرو وبلاس دي أوسيس - كان هذا يتنقّل حينها بين كوبا والمكسيك-، وعقدتُ صداقات جديدة مع أناس كثيرين من عالمي السياسة والثقافة في العاصمة. عينتُ أخيراً موظفاً من الدرجة الخامسة في أمانة الدولة وفي مكتب العلاقات الداخليّة والخارجيّة، وواصلتُ الإقامة في القصر. لقد سمحتْ لي تلك الحالة المتميزة ماديّاً واجتماعيّاً بأن أنطلق للعمل في مختلف المشاريع، فتقدمت للمشاركة في إنشاء الجريدة الأدبية «الإيريس»، وكتبتُ خطاب افتتاح معهد العلوم والفنون والأدب، الذي أنشئ مؤخراً، ثمّ ما لبثوا أن انتخبوني عضو شرف فيه، ونشرتُ قصائد في العديد من المجلات الأكثر ذيوعاً في البلد، وتلقيتُ الدعم لإعداد دراسة فلسفية طَموح حول تاريخ العالم. وانخرطتُ أيضاً في الحياة السياسية المكسيكية وحضرت اجتماعات جماهيرية للرئيس (كتبت في بعضها خطاباته)، ونلتُ مودّة بعض العسكريين، مثل الجنرال سانتا آنا[100]، والسياسيين، مثل أندريس كنتانا روو[101] وانضممتُ إلى الفرع الماسوني اليوركي[102]، وهم ليبراليون متصلبون رئيسهم هو فيكتوريا

100- Antonio López de Santa Ana (1794-1876). عسكري وسياسي مكسيكي. تولى رئاسة المكسيك إحدى عشرة مرّة.

101- Andrés Quintana Roo (1787-1851) سياسي ومحامٍ وشاعر مكسيكي.

102- تقاسم الساحة السياسية في المكسيك تياران ماسونيّان: «اليوركيون» و«الاسكتلنديون». وكان لكلّ فريق منهما آراؤه وأيديولوجيته.

نفسه... فضلاً عن أنّني، وبسبب شهرتي وشبابي ووجاهتي الاجتماعية، استطعتُ أن أنام في بعض من أرقى الأسرّة المكسيكية، في رفقة نساء فاتنات. عشتُ تلك الأشهر بطولها وعرضها في نشاط ذكّرني كثيراً بأسعد أيامي في كوبا، بل لقد شعرتُ في بعض الأوقات وكأنّني شفيتُ من الحنين الأبدي إلى وطني. مع ذلك فقد كنتُ أعي أنّني أخدع نفسي بذلك القول، فما كان ذلك إلّا من قبيل تأجيل الشوق ودفع الحنين: كان حنيني لعائلتي وشوقي لأصدقائي، فضلاً عن الألم الذي أورثني إيّاه الحب الضائع البعيد والمتأجج، تحدث في داخلي إحساساً بالفراغ لم يستطع كلّ المديح والإطراء أن يملأه. وقد يكون أوضح مثال على ذلك الفراغ المؤلم، وأكثر صوره مأساوية هو قلّة ما كتبتُ في تلك الأيام التي بدت سعيدة في ظاهرها، فكأنّ الشعر يرفض أن يشارك الرجل، الذي تهتف له صالونات الطبقات العليا من مجتمع السياسة والأدب، حظّه وشهرته.

رُسمت لي في تلك الأوقات أيضاً، وبالمجان، أول صورة، وقد أرسلتُ بها إلى أمّي وشقيقاتي. ولئن قبلتُ أن أقف أمام الرسّام، فلأنّ هذا أصرّ على تخليد صورة الرجل الذي بات محطّ إعجاب الجمهور واستحسانه، ولأنّ جسمي تغيّر في ظرف أشهر وصار مناسباً لأن تصوّره ريشة أضافتْ إلى ملامحي شيئاً من الشاعريّة، لكي تبدو عليّ، فضلاً عن علامات الصحة، الصرامة والقوة مؤطرتين بهالة من الرومانسيّة، كما هي حال صور رُسمت للشاب سيمون بوليفار.

كانت روحي، في غمرة التصفيق، تشعر بحزن مرير لما يجري في كوبا. ولطالما قرأتُ في رسائل سلفستري ودومنغو وأقاربي عن الانهيار الأخلاقي الذي يسود الجزيرة، إذ فتحت السلطات الاستعمارية الأبواب على مصراعيها لكلّ رذيلة وآفة - خصوصاً تجارة الرقيق الممنوعة- في سياسة قصدها إفساد الأهالي وتقييدهم بسلطة اقتصاديّة ومشاركة مدنية. في الوقت نفسه كان خبر اضطرار باريلا إلى التوقف عن إصدار صحيفة

(الهافاني)، بسبب انقطاع الدعم المالي عنه، يؤشر بوضوح إلى أن فكرة الاستقلال تبخرت أمام أعيننا وأعين كلّ من كان مثلنا يحلم بها. لذلك بدأتُ أتساءل إن لم يكن حماس الرجال الذين ضحوا من أجل القضيّة العادلة وهماً، وأقسمتُ على أن أتخلّى عن كلّ جهد موجّه إلى النضال من أجل استقلال بلد ارتضى لنفسه أن يقع في شِراك مصير يستحقه هو ويتمناه رجالاته. لهفي عليك يا كوبا!

حين هاجمتني أفكار الإحباط ومشاعر اليأس، سعيتُ إلى أن أعمل في ما يروّح عن نفسي. أنفقتُ عدّة أشهر لإنجاز رؤيتي لعمل شينيه [103] في مسرحية «تيبريو»، ولطالما عنّفني دومنغو - وهو محقّ في جانب- وألحّ عليّ في ألّا أضيّع موهبتي على ترجمة أو تقليد، بل أن أحتفظ ببنات أفكاري لأستخدمها في أعمالي التي أكتبها أنا. لذلك عزمتُ على الانتهاء، في جلسات كتابة طويلة، من رواية (تشيكوتنكاتل)، التي تحفظتُ كثيراً على نسبتها إليّ، إذ لم أشعر يوماً بأنّ ذلك العمل الأدبي يحظى برضاي وقبولي. لم يكن أحد يعلم بنيتي على كتابة قصّة عن حياة البطل الأمريكي، الذي عرفتُ أسطورته في سنواتي المكسيكية الأولى، والذي حاولتُ، قبل ذلك، أن أجعل منها رواية دراميّة، غير باريلا، الذي تحدثت له عن الفكرة حين كنتُ في نيويورك. بعد أن شرعت في ذلك العمل وتركته مرات عدة قررتُ استئنافه، وفي نهاية عام 1826 صدر العملُ مطبوعاً في فيلادلفيا، صحيح انّه كان عملاً غير متقن، لكنّ له الفضل في أنّه أوّل رواية تاريخية مكتوبة بالإسبانيّة.

في تلك الأثناء، تردد صدى نجاح رؤيتي لمسرحية «تيبريو»، التي وضعتُ لها عنوان (كايو غراكو)[104]، في كافة أرجاء المكسيك. كان

103- André Marie de Chénier (1762-1794). شاعر وصحفي فرنسي.

104- Tiberio Graco و Cayo Graco شقيقان عاشا في القرن الثاني قبل الميلاد وكانا نائبين في مجلس الشيوخ في روما. انتهت حياة كايو غراكو بمقتل ثلاثة آلاف من أعوانه وانتحاره بعد مواجهة مع خصومه السياسيين.

أداء أندريس بريتو[105] الشهير واحداً من أجمل أدواره وأكثرها تأثيراً في مسيرته الفنيّة الحافلة، وقد كنت مصيباً حين فكّرتُ في إهداء العمل إلى فرناندو السابع، الطاغية الإسباني المقيت: «هذا أول إهداء أوجهه إلى ملك من الملوك وآخره»، كتبتُ. «لا أظنّ أنّهم سينعتونني بالمداهن لأنّي أهدي تراجيديا (تيبريو) إلى طاغية إسبانيا، وهو ملك أناصبه العداء. فعلاً! ما من أحد يستحق هذه الهدية أكثر من جلالتكم، فما أكثر الشبه بين طبعكم وطبع الوحش الذي كان رعبَ روما وعارها!».

في يوم الافتتاح، وبينما كنتُ أتلقّى التهاني والعناق، وقع واحد من الأحداث الذي جعل من أيامي تلك أياماً استثنائية. كنتُ محاطاً بصديقيّ (بلاس دي أوسيس) و (كنتانا روو) حين خرج من بين جمهور المعجبين رجل تجاوز الخمسين بقليل، بدا لي أنّي أعرفه معرفة قديمة، وتذكرته، بعد جهد، حين ذكر لي اسمه: إسيدرو يانيث، أو القاضي يانيث، كما كان يدعوه أبي، وكان من أعزّ أصدقائه في سنوات عمله الأخيرة في محكمة جنايات تلك المدينة. تقدم منّي الرجل، فخوراً بعلاقته القديمة مع أسرتي، ليهنئني وليطلب مني، في ما يشبه الرجاء، أن أسلّم على زوجته وبنتيه، المفتونات بقصائدي. طلبتُ، من دون كبير حماس، من أصدقائي أن ينتظروني وذهبتُ لألبي الدعوة التي لم أستطع تجنبها. تقدمتُ مع القاضي من امرأة قويّة تبسمت لي، بينما ظلت أخريان، شابتان بلا شك، وقد أدارتا ظهريهما. حين وصلتُ إلى حيث المجموعة، نادى يانيث مسروراً على ابنتيه.

- غراثيلا، خاكوبا...

ما إن التفتت خاكوبا، وهي أصغر البنتين، ونظرت إليّ بعيني الكهرمان السوداوين، حتّى وجدتُ أنّها لم تصوّب تلك النظرة إلى وجهي، بل إلى قلبي. كانت البشرة النقيّة الصافية لابنة السبعة عشر عاماً تتلألأ تحت أنوار المسرح، بينما كانت ابتسامتها وشفتاها الحمراوان تلقيان نوراً مضافاً على العالم. وبينما كنتُ أتحدث مع النسوة عن موضوعات تبعث

105- Andrés Prieto . لم نعثر له على ترجمة.

على الملل، لفّني شعور بأنّ باباً بدأ ينفتح، بعد أن ظننتُ كلّ الظنّ أنّه أوصد، ربّما، ليدخل الحب، ربّما ليس بالقوة العاصفة التي ميزته في أوقات أخرى، ولكن بخطى القدر المحتوم الثابتة.

بعد أيام قليلة أبلغني الرئيس فيكتوريا بخبر تعييني بمرتب كبير، قاضياً على مقاطعة (بيرا كروث)، وكان لي في ذلك مكافأة كبيرة إذ سأعود لأعيش قريباً من البحر، في طقس مداري ممتاز. ولما كانت المدينة على مرمى حجر من كوبا فقد بدأتُ بالتفكير في ترتيب سفر أمي وشقيقاتي إلى طرفي، لأعود للقائهن وعناقهنّ... وهكذا صارت السماء، كما تقول الاستعارة المطروقة، في متناول يدي.

حملتني تلك الفرحة الغامرة إلى بيت القاضي يانيث، بعد أن صرتُ زائرهم المألوف. مع ذلك فقد قررتُ، في تلك المرّة، وعلى الرغم من انشغالي بأمر سفري القريب من العاصمة، ألّا أخرج من ذلك البيت إلّا بالردّ الذي كنتُ أنتظره، وصرّحتُ لخاكوبا، في الفرصة الأولى التي اختليتُ فيها للحظات بها، بحبّي لها وطلبتُ منها أن تقبل بي زوجاً. أحسستُ بحرارة حقيقة لم أكن أؤمن آنذاك بوجودها: لم تكن تلك الفتاة تحبني، بل كانت تعبدني، كانت ترى في اختيار الشاعر الكبير لها هدية من السماء. ورأيتُ أنّني كنتُ مأخوذاً بذلك الجمال وتلك البراءة، وأنّ روح لولا خونكو المقيمة أصبحت طيفاً متراجعاً سيحكم عليه بالموت يوم سيتحتّم عليّ أن أتكلّم مع تلك المرأة. وأبرمت قبلةٌ خفيفة وعذبة عهد الحب بيننا، وغمرني شعور بالسعادة وأنا أفكر في أنّني سأعمل من جديد أستاذاً لتلميذة لا خبرة لها ولا دراية بفن الحب.

في تلك الليلة، وبعد أن أبلغنا آل يانيث جميعهم بخبر علاقتنا، قرّرنا تحديد تاريخ لزواجنا. وبعد ذلك بقليل، كتبتُ، من غرفتي الفخمة في قصر الحكومة، إلى سلفستري أزف له البشرى: «سأتزوج في تشرين الأول. فقد حان وقت انتهائي من رواية حياتي لكي يبدأ واقعها».

...إلى أين سأذهب، حين يكفّ قلبي عن الخفقان
وتسقط يداي نحو الأرض لتبدأ فسحةٌ من الصمت.
أيوخنيو فلوريت[106]

***

لطالما كانت ساعة الغروب ساعته المفضلة للسباحة في البحر. كانت المياه الدافئة، والشمس التي انكسرت حدة منتصف النهار فيها، والرمال التي غادرها الناس بعد أن احتشدوا في الشواطئ طوال النهار الصيفي الطويل، ترسم حدود الجوّ الهادئ الذي راح فرناندو يستمتع فيه أثناء تلك الهدنة اللطيفة الفاصلة بين النهار والليل، ويحسّ بالأمواج وهي تداعب جسمه وتخفف من أثر ما عبّه من الجعّة.

ولدت فكرة الرحلة بين دلفينا وميغيل أنخل. قال النِّغرو إنّ في مقدوره في ذلك اليوم أن يستخدم سيارة أخيه، بعد الساعة الثالثة دائماً، وتعهدت دلفينا بدفع كلفة البنزين، أمّا فرناندو فسيأتي بالجعّة، بينما أعدّت آنا خوليا، زوجة ميغيل أنخل، الخبز المحمّص وكريّات السمك، وأتحفهم آلبارو – الذي أصرّ على أن يواصلوا طريقهم حتى (باراديرو)[107]– بحضوره وبعهد منه بأنّه لن يصل في الشراب إلى حدّ السكر.

منذ أن وطئ فرناندو رمالَ (سانتا ماريا) وأحسّ بأنّ قدميه الحافيتين تغوصان في ذلك الرمل الناعم، بدأ يستردّ أحاسيسه التي ظنّ أنّه فقدها أو نسيها. أخذ بيد دلفينا وتقدم صوب البحر ونزل فيه، من دون أن يخلع

106- Eugenio Floret (1903–1999). شاعر ومترجم وناقد أدبي كوبي.
107- Varadero. واحد من أجمل شواطئ كوبا. يقع في محافظة ماتانثاس على بعد 130 كم إلى الشرق من هافانا.

بنطلونه، حتى بلغ الماء ركبتيه. واستمتع، والشمس على مستوى عينيه، بمداعبات بحر تختلف مياهه عن المياه الباردة التي عرفها في الشواطئ الأوروبية وخاض فيها طوال سنواته الأخيرة. ومن دون أن يتفوّه بكلمة، أدخل يده في الماء فبدا له كثيفاً ومتماسكاً، وبلل به وجهه.

- ما بك، فرناندو؟

- لا شيء - قال، لكنّه قرّر في الحال أن ليس عليه أن يكذب-. أنا سعيد، لكنّي خائف.

التفتَ إلى دلفينا وقبّلها بحرارة. ضغطتْ هي على يديه وأسندت رأسها على كتفه.

لكنّ صيحات آلبارو، وهو يلوّح بزجاجة الجعة، أخرجتهما من شرودهما، وبعد أن تبادلا قبلة سريعة، خرجا إلى الشاطئ.

لقد تردد «الساخرون»، في أوقات أخرى مناسبة، على (سانتا ماريا) حاملين البيتزا وزجاجات الرون، وحتّى مضارب السكواش ليلعبوا في الملاعب التي ما عادت موجودة في فندق (الأتلانتيك). تذكّر أنّه وتوماس كانا أكثر المتحمسين لتلك الرحلات، وتذكر، بشيء من الخجل، أنّه كان يسترق النظر إلى دلفينا، التي كانت تصرّ آنذاك على ارتداء بكيني جريء وفيه من الإيحاء ما يثير البلبلة بين بقيّة مجموعة الشعراء.

بدأ الظلام يحلّ حين قرر آلبارو أن ينزل إلى الماء، بعد أن تحقق من أنّ صندوق الجعّة فارق الحياة -- كما اعتاد أن يقول. تبعه ميغيل أنخل وآنا خوليا، واستطاع فرناندو أن يقنع دلفينا بالنزول في البحر، فقد كانت تفضل أن تسبح قبل أن تغرب الشمس. شكلوا، والماء في مستوى صدورهم، حلقة وانطلقوا يتحدثون تحت ضوء الأنوار البعيدة المنصوبة في باحة الفندق.

تكلموا عن أولاد ميغيل أنخل وآنا خوليا، وكلاهما مُصِرّ على دراسة الطب، وعن أولاد آلبارو الثلاثة، الموزعين على خط الزيجات الفاشلة

التي راحوا يخلفونه وراء ظهورهم، مثل زجاجات الرون. وانبرى فرناندو ليكشف عن نفسه، لا يدري كيف، وراح يحكي لهم وقائع سنوات المنفى الطويلة: أيام ميامي المشوّشة، حين اضطر إلى العيش طوال ثلاثة أشهر في حدائق (الأورانج باول)، إلى أن تولّت كنيسة بروتستانتية في (فورت لاوردال) شأنه وتكفلت بمعيشته، ثمّ استطاع الخروج إلى شوارع يكاد لا يعرفها في مدينة تصوّرها دائماً نسخة من مدن كوبا، لكنّها في الواقع لم تكن تتطابق مع أيّ صورة من تلك الموجودة في ذاكرته. واشتغل، خلال السنة الأولى تلك، في أعمال بناء مركز ميامي التجاري والمالي، وقد أحسّ حينها باحتقار المهاجرين الكوبيين القدامى له، إذ عدّوه حثالة، بينما أضيفت إلى صفته القانونية والعنصرية الجديدة لكونه «أمريكيّاً لاتينيّاً»، مرخص له بالعمل من دون إقامة دائمة، رتبة «مارييليتو» الاجتماعية المهينة[108]. سافر بعد ذلك شمالاً، مدفوعاً بحاجته إلى تغيير الأجواء والعثور على نفسه، وعاش ثلاث سنوات بين (أونين سيتي) و(نيوجيرسي)، حيث لم يتغيّر شيء من صفتيه: أمريكي لاتيني وكوبي من منفيي (مارييل)، واضطر، فوق ذلك، إلى تحمّل برد الشتاء الطويل كلما خرج صباحاً من شقته الصغيرة لأخذ الباص الذي يحمله إلى (مانهاتن)، حيث عثر على وظيفة حارس في مستودعات متحف (غوغنهايم). كانت أوقاتاً عاشها في انتظار دام أربع سنوات للحصول على رخصة الإقامة الرسمية في الولايات المتحدة، التي لم تنفعه، بعد حصوله عليها، إلّا لشدّ الرحال من جديد، هذه المرة إلى إسبانيا، بحثاً عن ذاته الضائعة أو، على الأقل، عن أجواء أخرى وعادات أخرى، وطلباً لجرس لغتها المحبب لديه.

عاش منذ ذلك الحين في شقّة في السطوح بمركز مدريد، كان قد استأجرها بسعر بسيط. مرّ عام تحوّل فيه من مصفف كتب في إحدى المكتبات إلى أستاذ في مدرسة ثانوية، حيث درّس اللغة والأدب لطلاب

108- Marielito نسبة إلى Mariel وهو الميناء الذي ركب منه آلاف الكوبيين البحر عام 1980 مهاجرين إلى ميامي. [21]

مهتمين بـ «الروك» والعربدة والكحول أكثر من اهتمامهم بمغامرات دون كيشوت وأشعار لوركا والاستعمال الصحيح لصيغة الفعل المستمر. مع ذلك، فقد تمكن فرناندو من تنظيم حياته، فأقام علاقات عاطفية متباينة في ثمارها، وعقد صداقات عادت عليه بكتب وساعات انقضت في دور السينما وأحاديث دارت في المقهى، بل لقد كتب شعراً واستغلّ في السنوات الأولى وقت فراغه ليقرأ عن كوبا، عن تاريخها وأدبها، بينما ألزم نفسه بألّا يفقد مفرداته ولا نبرة أهل هافانا السريعة في الكلام، وإن تألم لاضطراره إلى السؤال عن «الأوتوبيس» بدلاً من السؤال عن «الغواوا»، أو السؤال، وهو يشتري الجوارب، عن «كالثتينس» بدلاً من السؤال عن «مدياس». ما كان يكفّ عن التفكير في الجزيرة، حتى وهو عالم بأنّ عودته ممنوعة قانوناً بسبب صفة «المهاجر» النهائية التي يحملها، وهو نوع من النفي المؤبد الذي لا يحتمل النقض إلّا في حالات خاصة جدّاً، وعبر إجراءات بيروقراطية معقدة. عاش حاضره على أنّه امتداد ظالم لماضيه، إلى أن حلّ ذلك الصباح الذي استيقظ فيه وبه رغبة في الاستماع إلى الموسيقى، فوضع في جهازه القديم مجموعة من الأغاني الكوبية، كان اشتراها عصر اليوم السابق من بائع أسطوانات عجوز، واستمع إلى «الكوبيّة الجميلة» لإدواردو سانجيث دي فونتِس[109]، وعندها تحقق لديه أنّ من الخير له، ومن أجل سلامة عقله، أن ينسى كوبا، وعلى وجه التحديد، أن ينسى ماضيه. تذكر فرناندو كيف نزع الأسطوانة من صحن الجهاز ونظر إلى نفسه في المرآة وقرر قتل ذاكرته والابتعاد عن إغراء قراءاته عن القرن التاسع عشر الكوبي والتخلي عن انتماء مهووس ليس له من نفع غير حمله إلى الحنين وإلى الكراهية.

حرّك فرناندو يده وأمسك بيد دلفينا، وكأنّه يخشى أن تبتلعه الرمال. شعر بأنّ صدره ما زال ضيقاً حين رفع حجر ذكرياته وروى للمرة الأولى

109- Eduardo Sánchez de Fuentes (1874-1944). موسيقي ومؤلف العديد من الكتب حول الموسيقى الكوبية.

كيف أنّ أكثر ما ساعده، في عملية البتر الضرورية للماضي تلك، كان تذكر الحديث الذي تبادله، أيام كان في ميامي، مع أيوخنيو فلوريت العجوز، الذي اختار منفاه في الولايات المتحدة من أعوام الخمسينيات. كان ذلك الشاعر، الذي ولد في إسبانيا، لكنّه اختار أن يكون كوبيّاً، والذي كان أسطورة وإن نسيه وطنه الأم وطرده وطنه بالتبني، مرجعاً بعيداً كما هي العشرينيات، التي ذاع فيها شعره الطليعي، المجدّد النقي، ذو الصفات الأصيلة الجهيرة. لقد اكتشف فرناندو أشعاره في كتب قديمة عثر عليها في محلات بيع الكتب القديمة، وكانت وحياً أرضيّاً في نظر الشاعر المستجد الذي كان قد بلغ، بطرق بديلة أخرى، إلى معرفة واحد من أعظم أصوات بلاده الشعرية، صوت لا يرد له، ذكر في قاعات الدرس الجامعية إلّا نادراً، لكنّه صاحب قصائد رائعة مسكونة بالبحر وهوائه وضيائه، مترعة بهواجس حنين غريب لعالم سيفقده.

توجه فرناندو صباح يوم من أيام الأحد، وكأنّه في رحلة حج، إلى بيت (ساوث ويست) الصغير، حيث يسكن فلوريت مع أخيه خيراردو، الذي كان يصغره بأعوام قليلة. اتصل به تلفونيّاً قبل يومين من ذلك، وبعد أن شرح له بالصراخ أنّه تخرج في الجامعة برسالة حول هيريديا وأنّه يعرف شعره، ردّ عليه العجوز بأنّه سيسعد بلقائه ودعاه لتناول الفطور عند العاشرة صباحاً، بعد عودته من القدّاس.

في الساعة العاشرة ودقيقتين دق فرناندو الجرس فردّ عليه صوت خاوٍ صادر من بيت بلا ساكنين. أعاد الكرة مرة ومرتين، وحين همّ بالالتفاف من وراء الحديقة، شاهد سيارة فورد قديمة موديل الستينيات، خضراء اللون تصل وقد امتدتْ منها يد تلوّح له بالسلام. كان فلوريت بحسب تقديراته في الثالثة والثمانين من العمر، لكنّ الرجل النحيف الذي نزل من باب المقعد المجاور للسائق، مرتدياً قميصاً كوبيّاً أبيض نظيفاً، بدا أصغر من ذلك بكثير.

- المشكلة هي أنّ خيراردو يقود بسرعة ثلاثين ميلاً - أوضح له، وهو

يشير إلى العجوز الآخر، الذي ابتسم له بينما كان يغلق باب السيارة-. تعال معي، سيحضّر لنا خيراردو طعام الفطور.

وبدلاً من أن يتوجه الشاعر إلى المدخل الرئيس فقد حشر المفتاح في باب افترض فرناندو أنّها الباب المؤدي إلى الكراج.

- تعال، اعبر- وفجأة خامر فرناندو إحساس من يجتاز مرآة تحمله إلى بلد العجائب: كانت الغرفة الكبيرة - أربعة أمتار x ستة- مغلّفة بالكتب، من أرضيتها إلى سقفها، أمّا الفراغات القليلة الموجودة فكانت مشغولة بلوحات لرسامين كوبيين: زجاجية لإمليا بيلايث، «المدينة» لبورتوكاريرو، منظر طبيعي لرومانياك، «الخلاسيّة» لكارلوس إنريكيث، «فلاحون» لآبيلا، لوحة مائية لميخارِس. على بيانو أسود وعمودي، مكشوف المفاتيح، وضعت نوتة موسيقية متهالكة لسانجيث دي فونتِس، وتدلى علم كوبي انطمست ألوانه من بعض الرفوف. وبينما توجه العجوز لتشغيل مكيّف الهواء اقترب فرناندو من الرفوف ليقرأ عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها خاصة: مانياك، إيجاسو، ليثاما، باكيرو، بيّابرده، الكثير من كتب مارتي، كاسال، ماريانو برول، أليسيو دييغو، رخينو بوتي، هيريديا...، أما من مؤلفين غير الكوبيين؟ أما من رسامين سوى الكوبيين؟ أما من موسيقيين إلّا الكوبيين؟ أما من علم عدا علم كوبا؟

حين التفت فرناندو، كان فلوريت قد احتلّ واحدة من الأريكتين المعمولتين من الخوص والموضوعتين في وسط الغرفة، فبدا وكأنه صغر وتقلص، فكأنّ قميصه الكوبي الأبيض اتسع وكبر حتّى تحوّل إلى ما يشبه الكفن.

- كلّ هذه الكتب لمؤلفين كوبيين؟ - سأله وهو يجلس على الأريكة الأخرى.

- كيف؟ آه، عذراً - وأخرج من جيب قميصه الكوبي سماعة أذن حشرها في أذنه-. أنا أشدّ صمماً من الحائط. ماذا كنت تقول؟

- سألتُ إذا كانت جميع هذه الكتب لمؤلفين كوبيين.

- لا بالطبع. هناك كتب لمؤلفين إسبان، هنا لآخرين إنكليز وأمريكان. لكنّ معظمها لكوبيين، فعلاً. جلبت الكثير من الكتب من كوبا، ورحت أشتري البقيّة شيئاً فشيئاً. إنها حصيلة سبعين سنة من جمع الكتب.

بدأ الهواء المكيّف، الموضوع على درجته القصوى، يبرد الغرفة. شعر فرناندو برجفة خفيفة، لكنّه أراد أن يعزوها إلى البرد وليس إلى تحققه المؤلم من أنّ ذلك الرجل، الذي خرج من كوبا قبل أكثر من ثلاثين عاماً، لم يبرح الجزيرة. اكتشف حينها أنّ المكان لا يحتوي نوافذ ولا زجاجاً ولا مناور في السقف: ما كان من نور غير نور مصباحين متجمدين يضيئان تلك الأجواء المزيفة، المعزولة بإحكام عن العالم الخارجي الخانق الذي كان يرفضه.

- لأن حضرتك لم تعد قط إلى كوبا، أليس كذلك؟

- كلا. خرجت منها مرّة واحدة ونهائيّاً. فكرتُ أحياناً في العودة، لزيارة أناس معينين، لكنّي ما عدتُ أرغب في العودة. لن يعرفني هناك أحد، ولن يتذكرني فيها أحد. فالجميع ماتوا. لم يبقَ غيري.

- ولم تواصل الكتابة؟

- أقضي يومي هنا في المكتبة، أقرأ كثيراً، أعزف على البيانو، الذي يعجبني كثيراً، أسمع أعمالاً من الأوبرا ومن الثرثويلا[110]، لكنّي لا أكتب. لقد جفّت قريحتي وأصبحتُ يابساً.

استأذن خيراردو ودخل يحمل صينيّة فيها فنجانان أبيضان من القهوة بالحليب وصحنان فيهما خبز محمّص مطلي بالزبدة وفنجانان صغيران من القهوة، قويان أبيضان، طليت حافتاهما بالأخضر. وضع الصينية على كرسي البيانو، وهو يذكر أيوخينيو بأن عليه أن يتناول فيتامينه وأن ينتبه لكي لا يلطخ قميصه، ثمّ قربها من الأريكتين. كانت حركاته واثقة ثابتة حتّى إن فرناندو خمّن أنّه يكرر تلك الطقوس يومياً.

110- Zarzuela: هو فن المسرح الغنائي الإسباني.

- صحة وعافية - قال وهو ينظر إلى فرناندو، وخرج.

- شكراً، خيراردو. تفضّل فرناندو - دعاه فلوريت، الذي تناول واحداً من فنجاني القهوة بالحليب وغمّس فيه قطعة الخبز المطلية بالزبدة-. هذا هو فطوري دائماً.

لاحظه فرناندو وهو يلوك الخبز بحذر. لقد مال العجوز كثيراً بجسمه لكي لا يوسخ قميصه النظيف وذكّره ذلك المنظر بعصفور قبيح لا حول له ولا قوة وسط ذلك البرد القارس.

- هل ترى فناجين القهوة هذه؟ جلبت اثني عشر منها من كوبا، ولم يبقَ لي منها سوى أربعة... أحبّ هذه الفناجين. لقد سرقتها كلّها، واحداً واحداً، من مقهى (بيستا أليغري) - وابتسم، بخبث انتشله من الزمن.

- معلّمي، كيف كانت سنواتك التي أمضيتها خارج كوبا؟ - تجرأ على سؤاله، من دون أن يدري ما الذي يريد الوصول إليه على نحو دقيق.

- مثلها مثل سنوات جميع اللاجئين: مقرفة. منذ سنوات وأنا لا أذهب إلى البحر، وكان أكثر ما أحب الذهاب إليه في كوبا. لا أخرج من هنا إلّا إلى الكنيسة أو إلى دار الأوبرا، ولا يهمني إن كان الموسم جيداً أم لا. الكنيسة والأوبرا أدّتا دائماً الوظيفة ذاتها، ألا تتفق معي؟ ما عدتُ أكتبُ وما عاد أحد تقريباً يقرأ لي. هنا لا أحد يعرف من أكون، ولا يهمهم أن يعرفوا ذلك. والشيء نفسه يحدث في كوبا. معظم الناس يظنون أنّني متّ من سنوات. والمؤلم هو أنّني لا أدري متى سأموت. أمّا عقوبتي فهي أن أكون دائماً الأكبر سنّاً. ها أنا أعيش بعد أن قتلتُ برول(111) وباياغاس(112) وليثاما [50] وإليسيو(113)، الذي كان طفلًا... ألا تتناول فطورك؟

- لا شكراً...، حسناً، سأشرب القهوة- وافق فرناندو وحاول أن يشرب قهوته. شعر بحنجرته مغلقة، بل لم يشعر برغبة في التدخين. تلك

111- Mariano Brull (1891-1956). شاعر وكاتب كوبي.

112- Emilio Ballagas (1908-1954). من شعراء كوبا الطليعيين.

113- Diego Eliseo (1920-1994). شاعر وكاتب وقاصّ كوبي.

الوحدة الكونيّة التي يعيشها ذلك الشاعر كانت بمثابة سيف ذي حدود كثيرة، مستعد لبتر أيّ أمل.

- هل تعلم لماذا أنا هنا دائماً؟ بقية البيت كالسجن. بنت خيراردو ولدت مجنونة، وقد ماتت أمها أثناء الوضع، ولم يشأ أن يضعها في المستشفى. البيت كلّه لها. خيراردو يربطها من قدمها لكي تستطيع المشي، لكنّ الحبل لا يصل بها إلى الباب. حين تصاب بنوبة تصرخ كالشيطان. لكنّي أغلق كلّ شيء، وأشعل مكيف الهواء والموسيقى، وأنزع سماعة الأذن. هي الآن تبلغ الخامسة والأربعين، وإذا سارت على خطى آل فلوريت، فإنّها لن تموت أبداً.

بينما كان فرناندو يستمع إلى قصة ابنة الأخ المربوطة كالكلب، شعر بضيق في صدره، وحسب أنّه مشرف على الاختناق، وفكّر أنّ الشاعر يعيش هو الآخر مربوطاً: إلى الكتب، إلى اللوحات، إلى الموسيقى، إلى العَلَم، إلى فناجين القهوة التي جاء بها من البلد الذي عاش فيه وكتب سنوات طويلة، مربوطاً إلى حياة ما عاد لها وجود، ومن سنوات كثيرة. كان لجوء فلوريت ضرباً من السجن، وكان عزاؤه الوحيد هو إعادة إنتاج كوبا في جزيرة أخرى مساحتها 4x6 أمتار.

- لقد اعتدتُ رؤية العالم من هذه الزاوية الغريبة والبعيدة. لكني لم أستطع أن أقتلِ الماضي... بالطبع لا أحد يستطيع ذلك. حسناً، دعني أعزف لك شيئاً من الموسيقى- قال العجوز ورفع الصينيّة ووضعها فوق المكتب. قرّب المقعد إلى البيانو -. إنّها للعم إدواردو.

- العم إدواردو؟

- سانجيث دي فونتِس - أوضح فلوريت-. ألا تعلم أنّه عمّي؟

نفى فرناندو بحركة من رأسه، لكنّ العجوز كان قد أصبح في مواجهة البيانو. كانت أصابعه صغيرة، ناتئة العظام: أصابع ميت. بتلك الأصابع نزع السماعة من أذنه وبدأ يبحث عن المفاتيح المطلوبة، ليُسمع فرناندو أغنية «الكوبية الجميلة».

***

أحسّ بغصّة الحزن في حنجرته وهو ينظر، بعينين جديدتين، إلى صفوف أشجار الكازوارينا المعمّرة، بلحائها المجعّد، التي وُشمت آلاف المرات بحروف أولى وقلوب وجروح أقلّ رومانسيّة؛ أرضيّة الجادة المرصوفة المظلمة والقذرة، التي تضيع في البعد حتى يبتلعها البحر؛ قاعدة المرمر التي حلّ فيها تمثال نصفي متواضع لمارتي محلّ التمثال العملاق لفرناندو السابع، الذي أنزله من مكانه عام 1900 جمع من الشبّان كان هو من بينهم، بفرح غامر وحقد متراكم يملأ نفوسهم بإهانة رموز الماضي الاستعماري الذي تشبّث، متعسفاً قاسياً، بآخر بقعة من إمبراطورية ضائعة ما عادت له سيطرة عليها. لكنّ نظرة خوسيه ماريا هيريديا، وهو يلاعب نظرة كريستوبال أكينو، كانت تضع جرعات إضافيّة من المعنى إلى مكانٍ كان أكينو، حتى قبل أيام قليلة، يظنّه عاديّاً ومألوفاً، شأنه شأن الكثير من الأماكن التي ألفها من تلك المدينة منذ طفولته البعيدة، والتي بدأت الآن تكتسي معانيَ ودلالات.

سار كريستوبال أكينو نحو نهاية الجادة، وهو يعلم أنّه أبكرَ في الوصول، مدفوعاً بالحاجة إلى إعادة ترتيب الكثير من الأفكار التي اكتسبها على مدى حياته. لن يستطيع أن ينزع من ذهنه، ربّما للباقي من أيامه، اعتراف خوسيه ماريا هيريديا القاسي، الذي قرأه بروح قلقة، ووضعه أمام إنسانية عارية لرجل ظنّه دائماً صلباً عبقريّاً لا تُطال سماؤه، فإذا به يشعر نحوه، منذ ذلك الحين، بشفقة مقلقة مزعجة. كانت تلحّ عليه بألم خاص ذكرى الأحاسيس التي يصفها المنفيّ إذ استحضر، وهو على فراش الموت، عصرَ يوم من أيام عام 1836. كانت تلك الجادة الجديدة المشؤومة قد افتتحت حديثاً، ثمرةً من ثمار سمعة (ماتانثاس) المشينة، التي تقوم على تجارة السُّكّر والعبيد. لقد سار بين تلك الأشجار نفسها، وكانت حينها صغيرة نظيفة القشور، ومشى على الرصف اللامع إلى أن توقف أمام تمثال الملك الإسباني الذي تلاعب بمسار حياته إنساناً وشاعراً، كما نتلاعب بدمية منزوعة الإرادة: وهنا سأل هيريديا نفسه عن

المعنى الحقيقي لحياته، التي حطمتها الخيانة والنفي والنسيان، والواقعة دائماً تحت رحمة السياسة والطغيان. لكنّ كريستوبال أكينو لم يكن قادراً أيضاً على التخلّص من ذكرى آخر حديث بين هيريديا ولولا خونكو، وهو الحديث الذي دار بينهما في (ماتانثاس) صبيحة السادس والعشرين من شهر كانون الأول من عام 1836، فقد بدا له خاتمة عقوبة غير متناسبة في شدتها، وقادرة على تحطيم أقسى الرجال قلباً وقتل ذلك الكائن الملائكي المرتاب الذي هو «مُغنّي نياغارا» الشهير.

بعد أن فتح الظرفَ الذي حشرت فيه الأوراق التي أقسم على إتلافها، بدأ كريستوبال أكينو يعيش واحدة من أغرب تجارب حياته المديدة. أنفق ست عشرة ساعة بين تدخين وتقليب. وقرأ تلك المذكرات الفريدة، مشدوداً إلى صفحاتها الباهتة التي ما زالت، مع ذلك وعلى الرغم من مئة عام مرّت على كتابتها، حيّة متوهجة. كان يشهد حدثاً لا يتكرر، حدثاً يطلعه على مشهد شخصيّ خاصّ، لكنّه حدثٌ يمدّ مجساته إلى كافة أنحاء ما تلاه من زمان. وكان في ذلك الحدث ما ولّد شرخاً في قناعته الهشّة أصلاً في القَسَم الذي أعطاه لمن كان أدنى مثابة إلى الموت منه إلى الاحتضار.

لم تخفف الأيام التالية من إحساسه بأنّه يتعايش مع مسؤولية تتجاوز قدرته، بل لقد زادت من شكوكه إلى حدّ أنّها سرقت من عيونه نومها ومن حياته هدوءها الذي ألفه واعتاده. لذلك اتفق على لقاء مع كارلوس مانويل ثرنودا واختار عامداً ذلك المكان غير المحبب في ذاكرة هيريديا، فلعلّ أشجار الكازوارينا والبحر والتاريخ تساعده على اتخاذ القرار الأنسب.

وعند ساعة الموعد، في العاشرة بالضبط، دخل ثرنودا من طرف الجادة القريب من المدينة، وجاء أكينو من الطرف المقابل، وتقدم نحوه. على أمتار قليلة من قاعدة المنصة التي يشغلها تمثال مارتي، الذي حملت الجادة اسمه في حفل تكريمه بعد إقامة الجمهوريّة، تصافح الرجلان وأضافا إلى المصافحة ملامسة التعريف الماسونيّة ثمّ جلسا

على دكة صخرية، وأدارا ظهريهما إلى المدينة وولّيا وجهيهما صوب بحر الخليج الأخضر.

- لا أستطيع فعل ذلك، كارلوس مانويل.

أخرج أكينو سيجاراً ووضعه بين شفتيه.

- هل قرأت الأوراق؟

- كان عليّ أن أقرأها.

- هل فهمتني الآن؟ هل عرفتَ الآن لماذا رفضتُ؟ خوسيه دي خيسوس لم يجرؤ على فعل ذلك، كما لم يجرؤ راميرو خونكو. ليس هذا إنصافاً مع ذكرى هيريديا - أكّد ثرنودا مشدداً على كلماته بحركة من رأسه، كررها مراراً.

- آل خونكو ليسوا الوحيدين الذين وجدوا صعوبة في تنفيذ ذلك. هناك ذرية من آل دل مونته وآل إيتشيباريا وآل آلداما... وبعضهم ماسونيون، هل تعرف ذلك؟

- بالطبع أعرف.

- وثرنودا الذي يذكره هيريديا؟

- كان جدي - قال الآخر.

- فماذا نفعل إذن؟

- أنا لن أفعل شيئاً. وقد قلت ذلك لخوسيه دي خيسوس...

- لا تصرّ على ذلك، ثرنودا، عليك أن تساعدني.

كان أكينو قد وضع في ميزان واحد وصية خوسيه دي خيسوس والحقيقة التي تخفيها تلك الأوراق، وقد أشّرتْ إبرة الميزان إلى أنّ الحد الأدنى من الوفاء للشاعر وذكراه يستدعي الحفاظ على المخطوطة ونشرها.

- هل تريدني أن أساعدك حقّاً؟ - سأل ثرنودا، من دون أن ينظر إلى صديقه.

- لأجل هذا اتصلتُ بك.

- لا تفعل شيئاً. أو ابحث عن شخص آخر يقرر ذلك.

- في مَن تفكر؟

- أفكر في ريكارديتو خونكو...

لم يستطع أكينو أن يتجنب الابتسام. فقد كان قد فكّر في إمكانية أن تكون الكلمة الأخيرة حول مصير مذكرات الشاعر في يد ورثة راميرو خونكو، وبالتالي، خوسيه ماريا هيريديا، لكنّ إحساساً شديداً بالقلق خامره حين فكّر أنّ من سيبتُّ في أمر تلك الأوراق رجل من مثل ريكارديتو خونكو.

- ريكارديتو ليس من آل راميرو – قال أكينو وأشعل سيكاره.

- أعرف ذلك. إنّه سياسي...

- بل قل إنّه لص. شأنه شأن جميع الذين يعيشون تحت ظل ماتشادو.

- لكنّه يمتلك حقّاً لا أحد يجادله فيه. فأوراق هيريديا تعود له، لأنّه ابن راميرو الأكبر، ولأنّه هو من سيتضرر منها.

- هذا يخرّب كلّ شيء، ثرنودا. إنّه سمكة قرش، وثروته في نموّ وازدياد. أترى ذلك الطريق «المركزي»؟ إنّه صفقة حياته.

- لكنّ ذلك لا يعنيك. ما من صلة بين هذا و...

- بلى، هناك صلة، وأنت تعلم ذلك.

- إذن لا تسلمه الأوراق وتولّ أنتَ القرار. أحرقها أو احتفظ بها أو انشرها أو افعل بها ما ترى...

نهض ثرنودا وهو يهمّ بالانصراف.

- لكن، ما الأمر...؟ – بدأ أكينو ونهض هو أيضاً-. اسمع، أيّها العجوز، ما قصّتكَ مع تلك الأوراق؟ ماذا جرى لكَ؟ هل يتصل الأمر بجدكَ؟

خطا ثرنودا خطوتين ثمّ استدار.

- ما من شيء جرى لي. أو بالأحرى جرت لي أشياء كثيرة... أنا لا صلة لي بأحد في هذه القصّة: فلستُ من خونكو ولا من دل مونته ولا شيء من هذا. جدي عاش حياته من دون أن يسألني عمّا يحدث لي. الشيء الوحيد الذي أراه هو أن من الواجب نشر هذه الأوراق. وليغضب من يغضب. لكنّي لا أريد أن تكون لي صلة بكل هذا. ليست هذه مشكلتي.

- لا تكن أنانيّاً، بلى، هي مشكلتك أيضاً. تاريخ هذا البلد مشكلتك، ما يقوله هيريديا عن الطغيان هو مشكلتك، هل تفهمني؟

- أنتَ مثل دومنغو دل مونتي، يسأل من يحاوره إن كان يفهم ما لا يمكن تجاهله... لكنّي لا أريد أن أتورط في هذا. هذا التاريخ نفسه الذي تتكلم عنه علّمني أنّ من الأفضل ألّا تتدخل، أن تعيش على الهامش، وأن تدافع عن قرارك، إن استطعت ذلك بهدوء. لا يعنيني ما كان من أمر آل خونكو وآل دل مونته في شيء. كما لا يعنيني ما كان من أمر جدي، هل تسمعني؟ ولا صلة لأوراق هيريديا بآل خونكو ولا بآل دل مونته ولا بآل ثرنودا، بل لها صلة بشيء أكبر من ذلك بكثير، لها صلة بالحقيقة، والحقيقة في هذا البلد لم تنفع بشيء تقريباً في يوم من الأيام.

بينما بدأ كارلوس مانويل ثرنودا بالابتعاد، عاود الشعور بالضيق يطبق بكماشتيه على كريستوبال أكينو. أخوه في الماسونيّة، الكائن الوحيد الذي يعرف بموضوع الوثائق، يدير ظهره لمستقبله ويتركه وحيداً ليواجه القرار الصعب. لم يُبعد ذلك الحوار شكوكه، بل لقد زاد فيها، وإن خطّ أمامه طريقاً خطيراً للحل: اسم ريكاردو خونكو، حاكم محافظة (ماتانثاس)، هو قطعة يمكن تحريكها في لعبة الدومينو تلك التي يبدو أنّها ستصل إلى نهايتها مع النقلة القادمة.

عاد أكينو، وهو يجاهد تعبه الشديد، إلى طرف جادة مارتي الذي ينتهي بالبحر. انحرف عن الجزء المرصوف وتقدم خطوات فوق الصخور التي طالتها مياه الخليج. نظر يمينه إلى مصبّ (اليوموري)،

وعلى بعد مئتي متر منها، مصب نهر (سان خوان)، من حيث انطلق يخت سياحي فخم منتفخ الأشرعة برّاق الخشب، وعلى مؤخرته يرفرف علم صغير لكوبا. ما كان أكينو يعرف أصحاب ذلك اليخت، أو بالأحرى لم يكن مهتمّاً بمعرفة هويتهم، لكنّه تخيّلهم أنيقين براقين راضين، نظيفي الأيدي مرتاحي الضمير. لا شكّ أنّهم نسوا أنّ أصل ذلك الجمال لا يعود إلى أكثر من مئة سنة، حين كان ذلك النهر يحمل إلى مزارع الوادي مجاميع العبيد الذين تنهض على جهدهم وعرقهم ثرواتُ المدينة الكبيرة، الثروات التي أخّرت لسنوات طويلة نهاية العبودية واستقلال كوبا. تنبّه أكينو إلى أنّه، حتى تلك اللحظة، لم ينظر إلى ترف (ماتانثاس) وثروتها بتلك النظرة المحملة بالوضوح والمشحونة بالتحامل، وفكّر أنّه لو لم يتقاسم هيريديا رواية حياته لما حمل تلك النظرة.

***

فجأة تغيّر كلّ شيء: شعرتُ بخنجر الغدر يُغرس في ظهري، وأيقنتُ في لحظة أنّني كنتُ واهماً حين ظننتُ أنّ المكسيك هو وطني الجديد، إذ لم يكن ظنّي ذاك إلّا سراباً راح يتبدد كالدخان من أمام عيني.

بدأ كلّ شيء حين قرّر الرئيس فيكتوريا أنّ منصبي قاضياً على مقاطعة (بيرا كروث) قليل في حقّي، وطلب منّي أن أمكثَ في العاصمة لأنّه أعدّ لي خططاً أعلى قدراً وأرفع شأناً. انتهز السيناتور الراهب خوسيه ماريا ألبوتشي[114]، الناطق بلسان فريق الماسونيين الاسكتلنديين [102]، والعدو المحافظ اللدود للرئيس فيكتوريا، فترة الانتظار تلك ليقدّم إلى مجلس الشيوخ طلباً بعزلي من منصبي في القضاء بدعوى أنّني لستُ مكسيكيّاً، كما تقتضي اللوائح والقوانين، بل إنّني لا أبلغ الخامسة والعشرين سنة التي يشترطها المنصب.

انزعجتُ لتلك الهجمة، فطلبتُ من الرئيس أن ينعم عليّ بالجنسيّة المكسيكيّة، وأعددتُ ملفّاً حاولتُ أن أثبتَ فيه أنّني أتممتُ الخامسة

114- José María Alpuche (1780-1840). راهب وسياسي مكسيكي.

والعشرين من عمري وأنّ لديَّ من الشهود من يدعم أقوالي، وأكّدتُ أنّني بدأتُ دراستي الجامعية في سانتو دومنغو في عام 1812. لكنّي أدركتُ، وأنا في غمرة تلفيقاتي تلك، أن ليس لكلّ ذلك من معنى، واخترتُ أن أتخلّى عن المنصب وأن أظلّ في العاصمة، بالقرب من حبيبتي خاكوبا على الرغم من صدور قرارٍ من مجلس الشيوخ برفض طعن ألبوتشي في تعيين أصدره الرئيس.

لكنّ الرئيس فيكتوريا أصرّ على أن أعمل قاضياً ومحامياً في مدينة (كويرناباكا) القريبة، تعويضاً لي عن ذلك المنصب، وحدّد لي راتباً معتبراً قدره خمس آلاف بيزو. وذهبتُ إلى هناك، فرحاً، وخصصتُ أيام العمل للعمل، بينما صرتُ أمضي نهاية الأسبوع في العاصمة، في صحبة خطيبتي، التي كنتُ أنتظر الزواج بها وأخذها للعيش معي. لكنّ قلبي كان يحدثني، في غمرة ذلك الهدوء، بأنّ عواصف جديدة باتت وشيكة، وربّما، وبسبب تلك القناعة، عاودني الشعرُ بعد أن اختفى تقريباً لوقت طويل، فكتبتُ في تلك الأشهر العديد من القصائد المهداة إلى خاكوبا، وكتبتُ أيضاً بعضاً من أعمالي الأخيرة ذات النفس الوطني.

حلّ أيلول من عام 1827 وأنا أعيش تلك الفسحة من السلام والشعر، وتزوجتُ خاكوبا، لأمنح حياتي ذلك المعنى الواقعي الذي ظننّتُها فقدته. ما كانت حوادث حياتي ثمرة بحث من جانبي أو رغبة من طرفي قدرَ ما كانت فرضاً محتوماً ومقدراً. لكنّ كلّ شيء بدأ يصبح واقعاً حين أبلغتني زوجتي، نهاية العام، أنّها حامل. تذكرتُ بالطبع لولا في تلك الأيام، لكنّ حياتي ما عادت تنظر إلى الماضي، بل باتت تتطلع نحو المستقبل، وراحت تنتظم في مسالك طبيعيّة مستقرة كنتُ أتوق إليها، غير مشغول إلّا بنشر أشعاري وعمل كلّ ما في وسعي لإسعاد زوجتي الجميلة الشابة، زوجتي الحقيقية، زوجتي التي كانت تطعمني كلّ يوم وتكافئني حبّاً من جسدها ومن روحها، فكنتُ أخرج معها للتنزّه، أوقات العصر المناسبة في (كويرناباكا)، يرافقنا الكلب الذي أصرّت خاكوبا

على أن نمتلكه، والذي سميناه (هاتوي)، وهو اسم زعيم هندي قتله الفاتحون الإسبان [59].

كثيراً ما كنتُ أتلقّى رسائل من كوبا، وطالما وصلتني أصداءُ شهرتي في بلدي ومسقط رأسي. لم أتبادل مع دومنغو إلّا القليل من الرسائل، فعلى الرغم من صفحي الواضح عنه، ما عادتْ صداقتنا هي نفسها. بل لقد بلغ بي الأمر أنّني، ولتبرير إهمالي وتهاوني، صرتُ أقول له، وأنا أتفنن في إهانته، إنّني لئن لم أكتب إليه على الدوام فلكي أحولَ دون أن تضرّ رسائلُ ترده من شخص مُبعد بموقفه، وهو الشاب المحامي اللامع، الحاصل على الدكتوراه من إسبانيا. وتقبّل هو الضربة، يا للغرابة، بكلّ لياقة ولم يلمني قط على ترفّعي، بل اكتفى بأن عبّر عن أسفه أنّني لا أكتب له أكثر، وهو صديقي القديم الحميم. كان اهتمام مراسلاتنا ينصبّ على النصائح الأدبية وعلى المشاريع الفنيّة أكثر ممّا ينصبّ على أخبارنا الخاصّة، لذلك فقد أبقيتُ على حرارة علاقتنا منخفضة لبعض الوقت، وإن لم أكفّ أنا عن حبّي له وادعاء أنّ كلّ غمامة لا بدّ وإن تزول يوم نلتقي ونتكلم وجهاً لوجه كما جرى لنا دائماً.

أثارت فيّ رسالة أختي إغناثيا حزناً ولوعة إذ أخبرتني فيها بمرض سلفستري الطيب المفاجئ ووفاته. لم أصدق ما حدث، فأمضيتُ أياماً في حالة من الذهول محاولاً رفض ما لا يقبل ردّاً، أكلّمُ نفسي وأجادلها في أنّ الربّ لا يمكن أن يكون قاسياً إلى درجة أنّه يبقي أحياء على كلّ تلك الكائنات الدنيئة السافلة المقززة التي تعمر الأرض ليسلبنا شابّاً لم يلطخ طموحه خبث ولا كراهية ولا حقد: وها هو أكثرُ من عرفتهم أمانة ونزاهة يلتحق بملاك جيلنا الآخر، كايتانو سانفيليو، الذكي الكريم، الذي كان قد مات من سنتين مضتا...

وكان لي في ولادة ابنتنا الأولى، التي أسميتها باسم أمّي، ماريا دي لا مرثيد، ما أخرجني من كآبتي. وأصبحت البنت، الصغيرة المتوقدة، شأن عمتها إغناثيا، منذ ذلك الحين، مركز اهتمامي وهمّي، ومصدر

فخر والدتها وجنون جدّها وجدتها المكسيكيين. وكم تمنيتُ أن تسعد عائلتي برؤيتها.

فكّرتُ في تلك الأيام أيضاً في تهيئة طبعة جديدة من قصائدي، بعد أن نفدت الطبعة الأولى. كانت فكرتي هي أن أحدّث مجموعة عام 1825 وأن أصدر أشعاري التي كتبتها في الوطن وفي السياسة في كتاب منفرد أضعُ له عنوان «أشعار أمريكيّة». لكنّ حالة المطابع المكسيكية المزرية والتكاليف الباهظة التي يكلفها الطبع في نيويورك اضطرتني إلى تأجيل تنفيذ المشروع، فقد كان مرتبي يسمح لي بعيشة كريمة، لكنّه لم يكن يسمح بذلك الترف الشعري، بل لم يكن يسمح لي بأن أرسل دفعات مالية منتظمة إلى أمّي، المقيمة في بيت أخيها إغناثيو.

وبينما كنتُ أحاول أن أنظّم حياتي، بدأ السلام التام تقريباً، الذي عاشته المكسيك طوال سنوات، يتعكّر مع اقتراب موعد الانتخابات. لقد وجدتُ نفسي، على الرغم منّي تقريباً، محشوراً في الصراعات السياسيّة والقانونيّة التي نشبت، بعد أن قرّر الرئيس فيكتوريا أن أرشّح نفسي للدورة التشريعيّة القادمة. اكتشفتُ مفزوعاً إلى أيّ مدى كانت سياسة البلاد العليا تتقرر في أقبية المحافل الماسونيّة السريّة ودهاليزها، وعلمتُ أنّها كانت منقسمة إلى فريقين: فريق اليوركيين، وهم ليبراليون وجمهوريون، وفريق الاسكتلنديين، وهم محافظون وملكيّون. كان مرشح هؤلاء الأخيرين، وهم معارضون للرئيس فيكتوريا، هو مانويل غوميث بدراثا[115]، وهو خطيب مفوّه، لكنّه لا يمتلك مواهب سياسيّة. وسط تلك الأجواء الملتهبة، حيث الهجمات المتبادلة التي يُتهم فيها «الأجانب» عادة بالتحكّم بالحياة الاقتصادية والسياسية للبلاد، قرر البرلمان، في جمعية عامة، تسليم وشاح الرئاسة إلى غوميث بدراثا، في خطوة شكّلت بداية حرب أهلية طويلة وقاسية، نتج عنها، في السنوات

115- Manuel Gómez Pedraza (1789-1851). عسكري وسياسي مكسيكي. تولى الرئاسة بين عامي 1832 و1833.

العشر اللاحقة، فوضى عارمة وصعود ثلاثة عشر رئيساً ونهاية السلام والازدهار. كانت تلك بداية معركة مدمّرة كان هدفها تسليم البلد الفتيّ إلى حالة من النهب والفوضى بدا غير قادر على الخروج منها.

في السادس عشر من أيلول من عام 1828، وفي ميدان (كويرناباكا) الكبير، صعدتُ إلى المنصة لألقي خطاباً في ذكرى «صرخة الاستقلال» المكسيكية. في تلك المناسبة قلت- وردد العديدُ من صحف الجمهوريّة مقالي-: «يجب ألّا ننسى أنّ العدالة هي أساسُ الحريّة؛ فلا سلام من دون عدالة، ولا ثقة ولا ازدهار ولا سعادة من دون سلام»، ودعوتُ إلى احترام الدستور وإلى تجنّب العربدة السياسيّة التي تتهدد البلاد، بعد ما سمعنا ذلك الصباح من أنّ الجنرال سانتا آنا [100] أعلن الثورة في (خالابا) على مجلس الشيوخ... منذ تلك اللحظات انفلتت الأحداث من عقالها، في عاصفة جرفتني معها، حين توجب عليّ، بصفتي الجديدة مدعياً عامّاً للدولة، أن أستلّ سيفي دفاعاً عن العدالة، فعلى أثر الحركة العسكرية، هجمتْ مجموعة من المجرمين، أطلقت على نفسها اسم «الشعب»، على العديد من محلات العاصمة ونهبتها. واضطررتُ إلى المشاركة في حملة قمع عنيفة رأيتُ فيها مشاهد مروعة فيها دماء وأشلاء وموت.

كان مؤلماً أن أرى المكسيك واقعة بين خيارين لا ثالث لهما: فإمّا الاستبداد وإمّا الفوضى. وبدا واضحاً أنّ شيطاناً رجيماً هو من لعب بعقول الجمهوريين الأمريكيين، حين جعلهم يواجهون بعضهم البعض، طلباً لثمرة الجحيم الحقيرة: السلطة. لقد عرفتْ كولومبيا بوليفار العظمى ذلك وشهدته، وها هي المكسيك تشهده وتطبقه.

حينها بدأت تراودني فكرة الرحيل عن المكسيك، التي طالما وُصفتُ فيها بالأجنبي. ولكن، إلى أين؟ لقد صار اغترابي يبعث في نفسي الحزن أكثر فأكثر، وكنتُ أعلم أنّني في كوبا، على الرغم من الاستبداد، سأحظى، على الأقل، بأجواء مناسبة، فأنا هناك أزداد شأناً، بعد أن صاروا يعدونني شاعراً عظيماً، بل رائد الشعر الغنائي الكوبي.

لكنّ قناعاتي كانت تصطدم دائماً بالواقع المرّ، فيدبّ الإحباط في نفسي ويتكفّل بإضعاف روحي الثوريّة. ولكي يزداد وضعي يأساً، ولكي أدرك بأنّ المصائب قد تتوارى لكنّها لا تزول، فقد ماتت ابنتي ماريا دي لا مرثيد بالزحار، في الثاني والعشرين من حزيران من ذلك العام: فها هو الربّ يستوفي ما وهبني من السعادة بقسوة تزداد يوماً بعد يوم ألماً وحدّة.

اضطررتُ نهاية العام إلى حمل السلاح مجدداً في دفاع أحمق عن حكومة بدت، بشكل من الأشكال، شرعيّة. وبعد أن هُزم فريقنا الليبرالي، صعدتْ إلى السلطة حكومة محافظة، فشاعتْ مرحلة من الإرهاب والملاحقات، وقعتُ ضحية من ضحاياها، حين فقدتُ ادعاء الدولة واضطررتُ إلى العودة إلى محكمتي الصغيرة في (كويرناباكا) وبراتب بائس.

في تلك الأثناء وقعتْ أحداث أخرى أضفتْ بعض الهدوء على وقع حياتي، ففي السابع والعشرين من تشرين الثاني من عام 1829 انبثق نور الأمل من جديد حين ولدت لنا بنت أسميناها (لوريتو) لنذر نذرته أمّها[116]، وكانت بعدُ محزونة على موت ابنتنا البكر. وكان من حسن طالعنا أن نرى هذه الطفلة المتيقظة الرائعة وهي تكبر، في تلك السنوات القليلة التي كتب لي أن أحياها، فكانت واحداً من الأسباب القليلة التي أبقت عليّ متماسكاً في سنواتي الصعبة.

ووقع لي حادثٌ مكدّر حين طلب منّي اللاجئون الكوبيون من «المجلس الوطني» الدعم لحركة جديدة تهدف إلى الاستقلال، أطلقوا عليها اسم «النسر الأسود». ومع أنّهم اختاروا أسوأ توقيت لطلب الدعم

116- لأنّ Loreto هو اسم بلدة في إيطاليا فيها كنيسة «البيت المقدس» الشهيرة التي يحجّ إليها المؤمنون الكاثوليك لأنّ الملك جبريل بشّر العذراء عندها بأنّها ستصبح والدة. أمّا انتقال المشهد من الناصرة الفلسطينية إلى لوريتو الإيطالية فله «قصّة» تعود إلى القرن الثالث عشر وإلى الحروب الصليبية.

من حكومة المكسيك، فقد كانوا يصوّرون لي بأنّ الوقت مناسب للانتقال إلى الفعل. لكنّي، وبعد أن عرفت ظروف الحركة وعلمتُ أنّ اتصالاتها في كوبا تجري عن طريق المحافل الماسونيّة السريّة، تذكرتُ مغامراتي الماضية وأحاديثي مع الراهب باريلا، وحذرتهم من فشلها المؤكد. قلتُ لهم إنّني لن أشارك في حركتهم، وإن كان في مقدورهم، إن وجدوا ذلك ضروريّاً، أن يستخدموا اسمي أمام السلطات المكسيكية.

لكنّ تلك الإجابة الصادقة الساذجة كلّفتني كثيراً. فقد انزعج المتآمرون وانتقدوا موقفي ووصفوني بأنّي فاتر الهمّة مرتدّ. ثمّ إنّ الحركة أجهضت، كما توقعتُ، لأنّ عيون الدولة وجواسيسها عادت تعمل كسابق عهدها. وكان الأسوأ هو أنّهم، وعلى الرغم من انتقاداتهم لي وتهجمهم عليّ، وظفوا اسمي أسوأ توظيف، فظهر اسمي في العديد من الوثائق بصفتي واحداً من الرؤوس المدبرة للمؤامرة. وكان من نتيجة ذلك أن وقع عليّ حكم ثانٍ، هذه المرة بالموت، ومن دون فرصة للاستفادة من أيّ عفوٍ مستقبلاً. أمّا جريمتي، الآن، فهي «مراسلات جنائية». فيا لهيريديا المسكين!

في تلك الأثناء كانت تصلني من هافانا أخبار متفرقة متنوعة، بعضها مثير للرضا وبعضها يبعث على القلق. من بين النوع الأول سعدتُ لقراءة بعض قصائد دومنغو، منشورة في مجلات عدّة، على هيئة مجموعة من الأشعار العاطفيّة استطاع فيها استعراض قدرته على النظم وذكائه وثقافته، لكنّه - وقد أسفتُ لذلك- لم يفلح إلّا قليلاً في البرهنة على أنّه شاعر. أمّا ما لم أدرك سببه، ولذلك عددته غريباً ومستغرباً، فهو أنّ صديقي ذكر أنّ تلك الأشعار ليست له، بل لشاعر من شعراء هافانا من القرن الثامن عشر سمّاه توريبيو سانجيث دي ألمدوّر. ولكن، لماذا يعاود دومنغو التخفي؟ هل لأنّه يحتاج كعادته إلى قناع لكي يظهر على المسرح؟... من بين الأخبار التي أثارت قلقي أنّ دومنغو تجرأ على نشر بعض قصائدي، وجزء من مراسلاتي، في مجلته الجديدة الأنيقة

«الموضة أو تسلية الجنس الجميل الأسبوعية»، وفي الوقت نفسه أطلق من سمّى نفسه بالعالم الإسباني رامون دي لا ساغرا – وهو نفسه الذي مسح به سانفيليو الأرض وأهانه قبل ذلك الوقت بسنوات حين اكتشف سرقاته من (كانت)- هجوماً عنيفاً في مجلته «دفاتر العلم والزراعة والتجارة والفن»، على أشعاري، موجهاً، بالدرجة الأساس، إلى شعبيتي المتنامية. الغريب هو أنّ الردّ على دي لا ساغرا لم يصدر، هذه المرة أيضاً، وكما توقعتُ، من دومنغو- الذي كان مجدداً من أشعل الفتيل وأقسم لي في رسالة إنّه «سيطحن» الإسباني الوقح-، بل انبرى له ساكو، الذي بدأ ينشر في الولايات المتحدة مجلة «المرسال الأسبوعي»، وهي نسخة مخففة من «الهافاني» التي كان يصدرها من قبل مع باريلا. لم يكن مقال الردّ ذاك، وفيه من السياسة أكثر مما فيه من الأدب، والمشحون بنبرة هجومية لاذعة، دفاعاً خالصاً عن أدبي وشعري، بل كان، قبل هذا، دليلاً ذكيّاً على وجود أدب كوبي مستقل متميّز، كنتُ أنا خيرَ تجسيد له. لقد كان ساكو، بهذه الطريقة، يعلن عن استقلال فنّي كوبي وصولاً إلى هدفه: البرهنة على أنّ في الجزيرة نوعين من الأشخاص، إسبانيين وكوبيين. وهكذا كان اسمي وشعري حجة لازمة شهرها المجادل واستخدمها فأقنع وأفحم. شكرت لساكو لفتته وعلمتُ، في تلك اللحظة- المجيدة في ما يبدو-، أنّ أيامي، باعتباري شاعراً كوبيّاً عظيماً، أمثّل القيم الوطنية العليا، باتت معدودة: فلن يلبث التزامي تجاه موقف داعٍ للاستقلال، ولن تلبث حملاتي على الاستبداد ومواجهتي للذوق المنحط أن تفقد فعلها وتأثيرها على عقول تصنع أدباً، ومع الأدب، مشروعاً لبلد، ستكون فيه صورتي غير مناسبة، بل غير مرغوب فيها. وهذا هو ما سأتأكد منه.

في زحمة تلك الشكوك التي كانت تنزع عنّي كلّ أمل في بلاد يزداد فيها العبيد والفساد، وتجعلني أنظر مرعوباً إلى حاضر المكسيك، النازف في حرب أهلية لا نهاية لها، كتبتُ وصيتي، وصيّة شاعر مدني

ووطني. عنونتها: «خيبات أمل»، ودّعتُ فيها، وأنا ابن ست وعشرين، (أغلقتُ الكتب، وحطمتُ قيثارتي) الأفكار التي ساقتني إلى الحركة الاستقلالية الرومانسيّة، التي ما عاد أحد يتذكرها في وطني. تخلّيتُ في أبياتي عن الكفاح من أجل رجال «غرقوا في خنوع مذلّ، وبعمى غائر عميق»، بينما يغتنون ويتسلطون تحت ظلّ الطغيان. «ارتددتُ وإلى الأبد عن فتنة المجد الثمينة/ واخترتُ أن أعيش عيشة بسيطة، منسيّاً/ بعيداً عن كلّ شهرة وجريمة وصخب...» كتبتُ، وبكيتُ على قيثارتي المحطمة...

***

طار الهزار من الزهور الجهنميّة إلى شجرة الكوثل، ومن هذه إلى شجرة الورد، باحثاً عن مكان مناسب لشدوه. أخرج تنقّلُ الطائر الأبيض والرمادي فرناندو من شروده الذي غرق فيه منذ أن وصل إلى القصر. يا لها من تشكيلة فخمة من الأخشاب والرخام - بيض من (كارارا) وحمر من (ليبانته) وخضر من بلنسية وصفر من نابولي وسود من بلجيكا-، بقضبانها الإمبراطورية التي بدتْ وكأنّها صنعت بعناية أنثويّة رقيقة، لا مطروقة في كور حداد متأجج، وسقوفها العالية الشاهقة المزينة بنقوش كلاسيكيّة زاهية، وأدراجها العريضة عرض الشوارع، ومصابيحها المطفأة التي تحاكي عناكب معلّقة، وإن كانت مصممة لتنير بألف ضوء أجواء حفلات ليليّة وهميّة لم تُقمْ في يوم من الأيام. كانت تلك التشكيلة تصنع ألقاً قاهراً في مكان حُرم، منذ أكثر من مئة سنة تقريباً، من اللمسات الفخمة المكملة التي في مقدورها أن تضاعف فخامته: سجاد فارسي؛ طلاء فلامنكي، إيطالي وإسباني؛ مرايا إنكليزية؛ برونزيات فرنسيّة؛ سجاد روسي؛ فضيّات مكسيكيّة؛ بلوريات إيطالية؛ خزفيات ألمانيّة ومشرقيّة، وشمعدانات قوطية من براغ، تلك اللمسات التي منحت، ذات مرّة، كلّ ألقها ورونقها إلى القصر الذي كان له أن ينافس قصور لندن وباريس البرجوازية فخامة ورونقاً وترفاً.

لقد تضافرت ثروة العجوز آلداما البسكائي[117]، الذي وصل إلى الجزيرة بداية القرن التاسع عشر، عارياً إلّا من ملابسه التي عليه، وحبّ الجمال والترف لدى صهره دل مونته، المحامي الذي لم يطأ يوماً عتبة المحكمة، ليُنجزا ذلك القصر الفريد الذي يقوم شاهداً على أكثر حالات سخرية القدر مأساويّة: فالثري العجوز دومنغو آلداما لم يستمتع به إلّا سنوات قليلة، بل لقد مات بعيداً عنه، وهو يعاني المرارة والهجر، ويرتعش برداً في سرير غريب منفي، أمّا صهره وسميّه، الذي صمم القصر ورتّبه على ذوقه وهواه، فلم يكحّل عينيه برؤية القصر وهو مكتمل البناء، بل أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته يجتر حقده ويحلم، في منفاه البعيد، بالحياة التي كان سيحياها فيه، والأكل الذي كان سيأكله والفراش الذي كان سينام عليه والزوار الذين كان سيستقبلهم في ذلك القصر المبهر، الذي كان يعدّه ليكون تتويجاً لنجاحه الدنيوي.

لو خُيّر فرناندو لما اختار أن يعود إلى قصر آلداما، الذي طالما أثار إعجابه وسخطه، لكنّ أركاديو، قاد خطواته بمكر صوب محيط البناء، بعد أن خمّن أنّ جاذبية ذلك المغناطيس الحجري، بأعمدته الدقيقة البناء وعطر المأساة المنبعث منه، قد تتمكنان من السيطرة عليهما وأسرهما. مع ذلك فقد حالت دون ذلك تقريباً رؤية قطعة الأرض المجاورة وقد حوّلت إلى مكبّ للنفايات، والأفراد الذين كانوا يتجمعون في ظلّ واجهات البناء وبواباته: بائعو شموع وليف تنظيف وصور قديسين وأكياس نايلون؛ فقراء وشحاذون، بعضهم مسلحون بكلاب حقيقيّة وصور للقديس لاثارو، لاستعطاف السابلة؛ سائقو تكسي مستعدون لأخذ الركاب بسياراتهم إلى أيّة وجهة في هافانا؛ تجار تبغ ورون يتصيدون سائحاً هنا أو سائحاً هناك، حتى عرّافة، منهمكة في عملها، ومعها كأس من الماء شاهدة على صدق تنبؤاتها.

117- نسبة إلى محافظة بسكايا Vizcaya الباسكيّة الإسبانية.

- منذ متى والحال هكذا؟ - سأل فرناندو، وقد أصابه ذلك المنظر المشوّش بالدهشة.

- منذ خمس سنوات أو ست. حين ساءت الأمور، خرج كلّ هذا وكأنّه كان مختبئاً تحت الأرض - قال أركاديو-. غير معقول، أليس كذلك؟

- هل تتصوّر أنّ آلداما أو دل مونته يشاهدان ما آل إليه أمرُ بوابات قصرهما؟

- أحسنا صنعاً أن توفيا قبل قرن، وهما اللذان كانا مسكونين بالخوف من السود ومن الفقر - قال أركاديو ثمّ اقترح-. هيّا ندخل. هيّا.

حوّل قصر آلداما آخر مرّة إلى معهد للتاريخ تحت إدارة القوات المسلحة، وكان ترديد اسم الشاعر المعروف أركاديو فرّيت كفيلاً بأن تفتح لهما أبواب القلعة بمكالمة داخليّة بسيطة. سار فرناندو خلف أركاديو، مغموراً بالإعجاب الذي طالما أثاره فيه ذلك المكان الذي أقيم بدماء آلاف العبيد وعرقهم، إلى أن وصلا إلى الباحة الداخليّة للبناء، ولم يعده إلى واقعه إلّا الهزار الذي طار مضطرباً.

- لماذا جئنا إلى هنا؟ - سأل، وهو يشعل سيجارته.

- لأنّي أردتُ أن أتكلّم معك على انفراد، وأظنّ أنّه المكان مناسب.

- أنا لستُ متأكد من ذلك جدّاً.

- فرناندو، هذه حجارة ميتة... هنا لا وجود للشعر.

- لا أدري... كلما رأيتُ هذه البناية تذكرتُ هيريديا...

- لذلك أتيتُ بك...

- هيريديا كان يموت جوعاً تقريباً بينما كان دل مونته يبني هذا القصر. هل تعلم أنّ بناءه كلّف أكثر من سبع مئة ألف بيزو ذهباً من دراهم ذلك الوقت؟

- يا للرخص! - تندّر أركاديو وأشار على صديقه بالجلوس على دكّة رخام رصاصيّة.

شاهد فرناندو الهزار وهو يطير ثانية نحو الزهور الجهنمية، ومن هناك بدأ يغرّد بقوّة تفيض من رئتيه الصغيرتين. كيف استطاع ذلك الطائر الوصول من الحقول إلى تلك الحديقة وسط المدينة؟ وكيف سيعود إلى مكانه، إن هو رغب في العودة؟

- ممّا لا يصدّق هو أن من دفع تكاليف هذا رجل كان قبل ثلاثين سنة من ذلك ميتاً من الجوع، وقد بدأ حياته بنّاءً.

- ما كنتُ أعلم أنّ آلداما كان بنّاءً - قال آلبارو وخلع نظارتيه الغامقتين.

- من بنّاء إلى عامل في دكّان ثمّ، من هناك، إلى الزيجة العظيمة. بعد ذلك تاجر رقيق. لقد أدخل القوّاد من العبيد إلى كوبا ما مكّنه من امتلاك أربع مزارع في (ماتانثاس)، ومخازن في الميناء، وأسهم في السكك الحديدية، وشركة سفن بخاريّة وشركة تأمين...

- في كم سنة؟

- في عشرين سنة... كان من الغنى أنّه أراد أن يفرش أرضيّة مكتبه بقطع نقود ذهبية، لكنّ ملك إسبانيا منعه من ذلك، فكيف يسمح لأحد بأن يدوس على وجهه... يمكنه، إن أراد، أن يفرش القطع الذهبية على الأرضيّة، شرط أن يضعها على حافتها.

- وكيف عرفتَ كلّ هذا؟ أنتَ مهووس بهؤلاء الناس.

- بعد ثلاثين سنة سوّى المتطوعون هذا بالأرض ونهبوا حتّى المسامير. صادرت الحكومة منهم كلّ شيء بعد أن اتهموا ابن آلداما بالتآمر. وحين أعادوا لهم القصر اضطر هؤلاء إلى بيعه، لأنّ آل آلداما كانوا تقريباً على حافة الفقر... تصوّر أنّ أحفاد دل مونته باعوا مكتبته في المزاد، وهي الأفضل في كوبا. بل كانت عنده كتب يعود تاريخ طبعها إلى ما قبل القرن السادس عشر ومخطوطات أصليّة. كم سبح وعام لكي يموت على الشاطئ! ألا تعلم أنّ هناك صالة في الطابق العلوي لم يستعملها إنسيّ قط؟ إنّها الصالة التي صممها دل مونته لتكون مكاناً لدردشاته.

- لكنّه لم يسكن هنا قط، أليس كذلك؟

- اضطر إلى الرحيل هارباً عام 43، بينما انتهى بناء القصر عام 44. لم يره تامّاً مكتمل البناء.

- وهل تعتقد أنّه كان حقّاً من أبلغ عن مؤامرة العبيد؟ لقد اتهمه بلاثيدو بأنّه كان وراء ذلك...

- يقول ميغيل أنخل إنّ دل مونته دخل في اللعبة مع الإنكليز، لكنّه تراجع حين ساءت الأمور، ويبدو أنّه كشف عن اللعبة كلّها - قال ونظر إلى عيني أركاديو.

- وأيضاً حين نفي هيريديا؟

- لا أحد يعلم شيئاً عن ذلك، لكنّي أعتقد أنّه كان على صلة بالأمر. هيريديا كان يشكّ في شيء...

نظر أركاديو لحظة نحو طوابق القصر العلويّة، وكأنّه يبحث عن شيء هناك، ثمّ نظر مباشرة إلى فرناندو.

- لا أدري ما الذي قاله لك آلبارو عنّي، لكنّي لم أبلّغ عنك - قال، وكأنّه يخرج من ضلعه سهم الذنب. أمسِ كنتُ أتكلّم مع ميغيل أنخل...

- لا أدري ما الذي على آلبارو أن يقوله لي ولا ما الذي قاله له النِّغرو، لكنّي لم أتهمكَ بشيء - حاول فرناندو أن يجد العذر لنفسه، بعد فاجأه الآخر بما قال.

- ما بك من حاجة إلى ذلك. لقد ظننتَ دائماً أنّ الفاعل قد يكون أنا.

- من قال لك ذلك؟

- اسمع، فرناندو، قد أكونُ فعلتُ في حياتي أشياء يمكن أن أخجل منها، كما يحدث للجميع، لكنّي لم ألحق الضرر بأحد... أعلمُ أنّ آلبارو يرى فيّ شاعراً متوسطاً وانتهازيّاً لا أبحث عن مشاكل، وأعلمُ أنّ كونرادو يعتقد أنّني مغرور، وأنّ توماس لا يطيقني لأنّي أسافر إلى الخارج بينما لم يصل هو إلى (غواناباكوا)... الشيء الوحيد الذي أفعله هو كتابة الشعر على قدر ما أستطيع، وهو ما فعلته على الدوام. لكنّك إن

ظننتَ أنّي واشٍ وبأنّني أبلغتُ عنكما أنتَ وإنريكه فأنت مخطئ. ولئن لم أفعل ذلك فليس لأنّني أكثر شجاعة أو وحشية من أحد: بل لأنّ أحداً لم يسألني عن شيء... ولأنّني لا أعرف أيّ شيء.

وقعت شحنة الصدق المؤلم التي حملتها كلمات أركاديو لدى فرناندو موقع اعترافِ مُحتضر، وأحسّ بالخجل من سعيه الحثيث في إثارة تلك الاعترافات.

- يقسم ميغيل أنخل وكونرادو إنّهما لم يكونا الفاعلين. ولم يكن إنريكه. وكتب فيكتور إلى دلفينا قبل أن يموت وقال لها إنّه لم يكن هو...

- أنا لا أدري من كان الفاعل، بل لا أدري إن كان من فعل ذلك أحدٌ ما. لكنّي أقسم لك إنّني لم أكن من أبلغ عنك.

- ولماذا عليّ أن أصدقك، أركاديو؟

ابتسم أركاديو الوسيم، لكنّ حزناً ثقيلاً بدا على وجهه.

- لأنّنا كنّا ذات يوم أصدقاء مخلصين، وأنت تعلم أنّ من المستحيل أن أقدم على فعل شيء كهذا - قال ونهض-. هل تظنّ أنّ لديَّ من الجرأة ما يكفي لكي أنظر إلى وجهك بعد أن وشيتُ بك؟ ويحك، فرناندو... هيّا، لننصرف، ما عدتُ مرتاحاً هنا.

كان طائر الهزار، المنصرف إلى غنائه، ينظر إلى قطعة السماء الزرقاء الصافية التي تشاهد من الباحة الداخليّة. ربّما كان يتطلّع إلى النظر إلى السماء الواسعة وهو على كأس نخلة، هناك في مكان بعيد ولد فيه. شعر فرناندو بالحزن على الطائر وعلى صديقه.

- عليك أن تغفر لي، أركاديو...

- ليس عليّ أن أغفر لك شيئاً. قد يمكننا أن ننقذ الصداقة التي جمعتنا في وقت من الأوقات، فقد أضعنا الكثير من الأشياء، وما عدتُ أقوى على خسارة المزيد.

- نعم... كنتُ أفكّر أنّني ربّما لن أعود إلى هذا المكان. أم تلك القطعة من السماء...

- متى ستسافر؟

- أمامي أسبوع.

- وماذا عن موضوع دلفينا...؟

- أنا غارق حتّى رقبتي.

- سيتحتّم عليك أن تعود- قال أركاديو، وهو يعيد وضع نظارتيه الغامقتين على عينيه-. عليك أن تعود... وماذا عن رواية هيريديا؟

- ما عدتُ أفكر فيها حتّى. لكنّي كلما تذكرتُ أنّها موجودة أو وُجدت، وأنّني لا أعرف ما الذي حصل لها في النهاية...

- وماذا تظنّ حصل؟

- أظنّ أنّ أحداً ما كذب عليّ مرّة أو عدة مرّات. يبدو لي أنّ أكينو يعرف أكثر ممّا أخبرنا به، وأنّ كارمن خونكو تخفي أشياء، وأنّ امرأة ثرنودا تصنّعت الغباء...

- اسمع، لماذا تقضي حياتك في الظنّ بأن العالم يقف ضدك؟

- ليس الأمر هكذا، أركاديو. المسألة هي أنّ هناك من يعلم أكثر ممّا يقول. أنا متأكد من ذلك.

- وماذا أنت فاعل؟

- أظنّ أنّني سأستمر في مضايقاتي - ونظر من جديد إلى الجدران القديمة للبناية الملعونة-. أرى أنّ هيريديا يستحق ذلك.

***

مهما حاولت الابتعاد عن السياسة وقطع حبال الوصل معها والإشاحة بوجهي عن النظر إليها، فقد كانت تلحّ في الطرق على بابي لتصل إلى مركز حياتي وتجرجرني إلى عواقبها المشؤومة. كانت، أظنّ، قدراً مأساويّاً لشعراء عصري وحقبة مضطربة ما كان لنا إلّا أن نشارك فيها. لقد عزمنا جميعاً تقريباً، في أرجاء الكوكب المتفرقة، بلغاتنا المختلفة وظروفنا المتباينة، أن نناضل من أجل شيء واحد: إقامة عالم جديد يحظى بحريّة أكبر، وبحسّ وشعر

جديدين أيضاً يتمتّعان بالحرية اللازمة، لكي نعطي بذلك وجهاً وكلمة لبلدان تنعم بوعي جديد. لقد قادت تلك الحرب الصغيرة إلى حرب أخرى أكبر، لم نستطع، أو لم نشأ، أن نهرب منها، كما حدث للمعلّم أندريس بيّو [89]، الذي نفي نفياً مؤبداً، أو للعظيم بايرون[118]، الذي مات في ميدان المعركة وهو يقاتل من أجل حرية أرض لم تكن أرضه، أو للنبيل الروسي بوشكين[119]، مؤلف «قصيدة للحرية»، المتآمر الذي عانى، كما عانيتُ، قساوة النفي، وإن كافأته الآلهة بنهاية أفضل من نهايتي، فلم يمت في ميدان المعركة، بل في ساحة الشرف، وهو يحمل سيفه.

في ميدان القتال، لم أقدر إلّا على القليل من أجل كوبا. أمّا في المكسيك فقد حملتُ السلاح غيرَ مرّة، مع ذلك لم أفعل من أجل حريتها الديموقراطية إلّا القليل أيضاً. فقد أذلّها زعماؤها، الذين أعمتهم السلطة وبثّت الخدرَ في أوصالهم. وبينما كنتُ أنوء بحكمين قضائيين: أحدهما بالنفي المؤبد وآخر بالإعدام، وضع الدكتاتوريون الجدد في المكسيك اسمي في القائمة السوداء، واستمروا في نعتي بالأجنبي، لأنّي حاولتُ الدفاع عن فكرة قيام حكومة منتخبة ودستور تجيزه الأغلبيّة، وهي فكرة وجدتُ أنّ الدفاع عنها ضروريّ ومشرّف.

كان مسار نكبتي في السياسة بطيئاً، لكنّه متواصل، إذ لم يعرف التوقف منذ أن استولى الجنرال بوستامانته[120] على السلطة، في الرابع عشر من كانون الثاني من عام 1830، ليقيم في ذلك البلد الفقير ما هو أسوأ من الاستبداد الإسباني. لقد استندت الحكومة الجديدة، التي كانت تعلم بأنّها موضع إدانة عالمية، على الجيش غير المنظم وعلى طبقة رجال الدين الذين أعيدت إليهم امتيازاتهم وحقوقهم ليشيعوا الرعب

118- Lord Byron (1788-1824). من أبرز الشعراء الإنكليز ومن رواد الرومانسيّة. سافر إلى اليونان عضواً في اللجنة المطالبة باستقلالها ومات هناك مريضاً.

119- Alexander Pushkin (1799-1837). شاعر روسيا الأعظم.

120- Anastasio Bustamante (1780-1853). عسكري وسياسي مكسيكي تولى رئاسة البلاد ثلاث مرات.

وليفرضوا إرادتهم. وامتلأت دوائر الحكومة والوزارات بالفاسدين، الذين أثروا في مناصبهم وسكتوا عن الفوضى التي لم يسمع بمثلها. وتصرّف القادة العسكريون تصرّف السادة الإقطاعيين الجدد، فمارسوا سلطاتهم المحليّة بشموليّة واضحة فكأنّ كلّ واحد منهم لم يكن إلّا نسخة قبيحة من فرناندو السابع. وصار الانتقام والوشاية والثأر السياسي أسلوباً في بلد راح ينهار أمام أنظار القوى الاستعمارية الطامعة.

وبلغ الرعب، في تلك الأيام، أعلى درجاته حين أمر رجال الدين بتدمير المطابع وحرق الكتب لأنّها، بحسب قولهم، تحريضيّة أو مخلّة بالأخلاق، وحين بدؤوا بإعدام أصحاب المطابع والناشرين. فهل مات أكثر من خمسة عشر ألف مكسيكي في الحرب على إسبانيا من أجل هذا؟ وهل يمكن أن يقود طريق الحرية إلى هاوية سحيقة من القمع والتعصّب والانتقام والطغيان؟ وهل سيكون مستقبل كوبا الحرة، التي طالما حلمتُ بها، حطباً لنار متعصبين استبدّ بهم الحقد وأسكرتهم السلطة؟

أردتُ، وأنا مستاء ومحبط، أن أبتعد عن أيّ نشاط سياسي، لكنّ الأكاذيب والافتراءات التي سمعتها كانت من الكثرة أنّها أثارت كبريائي ورأيتُ أنّ الحياة والموت صارا سيّان عندي، بعد أن فقدتُ كلّ شيء. تحولتُ إلى سوط يلهبُ ظهر النظام، وبدأتُ، من على صفحات جريدة «المحافظ»، حملة على ذلك الفساد وتلك الفظائع. أذكر أنّني، مع كلّ واحدة من مقالاتي تلك، كنتُ أعود إلى بيتي وأنا أعاني تلك الرعشة الأبدية في ساقيّ، فقد كان لكلّ منها أن يؤدي بي إلى الاعتقال أو القتل على أيدي عصابات المجرمين الذين يرتدون الزي الرسمي، كما وقع للذي احتضنني وأحسن إليّ، الرئيس السابق فيكتوريا، الذي «حوكم وأعدم» فجر الرابع عشر من شباط من عام 1831، من دون أن تشفع له خدماته الكثيرة الجليلة للبلد. ما أعظم مصيبتك يا مكسيك!

مع أنّ آلاماً قديمة بدأت تعتري صحتي، وعلى الرغم من أن ارتيابي صار يزداد يوماً بعد يوم، فقد كنتُ أحسّ بقوّة غريبة تحثني على

المواصلة، وعلى التغلّب على مخاوفي، لذلك، ناضلتُ، من منصبي الجديد ممثلاً للجنة قوانين الدولة، من أجل شرعيّة ما عادت مجدية، ووقفت، ضمن إمكانياتي البسيطة، في وجه الظلم، وحين أصبحتُ قاضياً في محكمة (تولوكا)، حيث كنتُ أقيم قبل ذلك بوقت، واصلتُ نشاطي هناك بفاعلية أكبر.

في وسط ذلك الإعصار، وفي الحادي والعشرين من تمّوز من عام 1831، أبصرت النور ابنتي الثالثة، التي أسميناها (خاكوبا خوليا فرانثيسكا دي باولا). كانت هذه الطفلة مخلوقاً وديعاً ساكناً ساكتاً، خلافاً لأختها لوريتو، النشيطة المشاكسة، وكان فيها ميل إلى المرض، فكنّا نخشى عليها دائماً. في تلك الآونة أيضاً، وتتويجاً لجهود طويلة، بدأتُ بنشر المجلدات الأربعة من كتابي «دروس في تاريخ العالم» الذي لم يوافق أهدافي الأوليّة البعيدة، بل كان تطبيقاً أمريكيّاً على كتاب «عناصر التاريخ» للإنكليزي تايتلر[121].

لكنّ تلك الولادات والصراعات والإحباطات التي شهدتها في تلك السنوات لم تفلح في إيقاظ الشاعر الذي بدا لي أنّني فقدتُه. من بين كلّ ما قلته هنا وسطرته، ومنها ما هو مخجل، ليس هناك ما هو أشدّ إيلاماً ورهبة من هذا القول: فقبل أن يموت فيّ الرجلُ بكثير، مات الشاعر. كان موته بطيئاً وصامتاً، لكنّي صرتُ أشعر بأنّ ذلك العنفوان وتلك المقدرة، التي وهبني الربُّ إياها لأنقل مشاعري وأترجم أحاسيسي، الحقيقية منها أو المصنوعة، شعراً، بدأتْ بالنفاد بلا رجاء في أن تعود. حاولتُ، مع ذلك، ألّا أستسلم، فلو عدمتُ الشعرَ، فماذا سيبقى لي؟ كان القبول بالحقيقة مؤلماً. ما الذي جفف ذلك النبع الذي ظننته لا ينضب؟ كيف لعينيّ ألّا يلمحا أصل القصيدة وضرورتها في كلّ فعل وفي كلّ إحساس؟ ماذا حلّ بتلك الروح التي كانت تتابعني، وفيّة مهووسة، منذ

121- Alexander Fraser Tytler (1747-1813). كاتب ومحامٍ ومؤرخ اسكتلندي. من مؤلفاته المهمة كتاب حول مبادئ الترجمة.

طفولتي؟ أسأل نفسي اليوم عن ذلك، فيعزّ عليّ الجواب، لكنّي عزمتُ في تلك الأيام على أن أظلّ ذلك الشيء الوحيد الذي كنتُه على الدوام، لكنّ الشعر القليل الذي أفلحتُ في كتابته كان وعراً متعقلاً، ليس فيه قطرة واحدة من الدم الحار الذي كان يجري في كلّ بيت من أبيات قصائدي أيام الشباب.

مع ذلك، فقد عدتُ في تلك الأيام إلى الفكرة المؤجلة في إعداد طبعة ثانية ونهائية من أشعاري. بدأنا في كوبا، بمساعدة من أسرتي ومن دومنغو، الذي تطوّع من نفسه، حملة للاكتتاب، بينما تكفّل خينير في نيويورك بمتابعة صدور الطبعة. لكنّ الجنون السياسي الذي انغمستُ فيه عام 31 والمشاكل الصحية التي بدأتُ أعانيها، أخّرت مراجعتي اللازمة للطبعة، فلم أنتهِ منها إلّا عام 32، وأعلن دومنغو الخبر في مجلته الجديدة «بيمستري كوبانا»، التي كان يديرها آنذاك، حيث وصفني بـ «العبقري السعيد الذي تفخر به كوبا». لكنّ الاكتتابات كانت قليلة، وأجبرني السعر المرتفع الذي طالب به الناشرون في نيويورك على البحث عن طبّاعين في المكسيك. وأخيراً ارتأيتُ أن أطبع الكتاب في مدينة (تولوكا) التي أعيش فيها، توفيراً للتكاليف، وقد أعانتني الطيبة خاكوبا في تنضيد الحروف ومراجعة لوحات الطباعة لتجنّب الأخطاء المطبعيّة، التي تنخر النصّ كما تنخر الدودة قلب التفاحة الشهيّة.

أخيراً، وفي حزيران من عام 1832، صار المجلدان، اللذان ضمّا كلّ أشعاري، بين يديّ. أهديتُ المجلد الأول إلى خاكوبا، وما كان لي أن أهدي الثاني إلّا إلى دومنغو، الصديق الوحيد من أصدقاء الزمن الجميل الذي ظلّ، في ما يبدو، مؤمناً بشعري. وكانت هديتي للطغاة أنّني نشرتُ كلّ أشعاري الوطنيّة ملحقة بالمجلد الثاني لأتمكّن من نزعها من النسخ التي خططتُ لتجليدها وإرسالها إلى كوبا.

ولمّا لم تكن الأجواء في المكسيك آنذاك مواتية، فإنّ الطبعة الجديدة من أشعاري لم تسبب الضجة التي رافقت صدورَ الطبعة

الأولى المنقوصة. أمّا خارج البلد فقد استقبل الجمهور الكتاب بحفاوة وحماس، ووصلت إلى مسامعي المزهوّة أصواتُ التصفيق والتهاني، التي صدر الكثير منها عن شخصيات كبيرة من عالم السياسة والفن... لكنّي لم أكن أنا، لم أكن أنا إطلاقاً، إذ لم يبقَ شيء من ذلك الشاب الذي وصل إلى المكسيك تحيط به هالة الشاعر الشاب والمحرّض الرومانسيّ. لقد صيّرتْ مني الأحزان رجلاً شاخ مبكراً، محبطاً، بل مطارداً في البلد الذي أمضيتُ فيه أكثر سنوات عمري.

وكما الحديد ينجذب إلى المغناطيس، انجذبتُ إلى أحداث السياسة من جديد. كانت فاتحة العام 32 حركة عسكريّة جديدة قادها صديقي القديم الجنرال سانتا آنا، الذي أطلق صرخة الحرب في وجه الدكتاتور بوستامانته. استدعاني القائد العسكري، الذي كان يعرف مبلغ نفوري من حكومة الأمر الواقع تلك، ووجدتُ نفسي غارقاً في حملته وأصبحتُ سكرتيره الشخصي أثناء حركة التمرد، مما اضطرني في وقت من الأوقات إلى الهرب بعائلتي من (تولوكا)، حين وصلتْ قوات الحكومة إلى المدينة ونهبت، مع أماكن أخرى محددة، بيتي حتى تركوه أطلالاً. لكنّ الجنرال سانتا آنا انتصر، قبل انقضاء العام، وكرّر واحدة من حركاته المألوفة: نصّب دميته غوميث بدراثا على رأس الحكومة واحتفظ هو بمنصب نائب الرئيس، الذي كان يمسك، في الحقيقة، بمقدرات البلاد، ويتمتّع، في الوقت نفسه، بحرية كاملة في الاستمتاع بهوايتيه الكبيرتين: عراك الديكة والسرقة.

وانتخبتُ، مع الحكم الجديد، نائباً في البرلمان، عن ولاية المكسيك، هذه المرة. فارتفعتْ، كما كان منتظراً، بعض الأصوات لتذكّر بأنّي لستُ من أبناء الجمهوريّة، لكنّ سانتا آنا، كما كان منتظراً أيضاً، فرض إرادته. مع ذلك، وعلى الرغم من الصداقة التي كانت تربطنا والانتماء السياسي الذي كان يجمعنا، لم يستطع الجنرال أن يكمم فمي العنيد، فقد اعترضتُ، في أوّل أداء لي في البرلمان، على الإجراءات التي كانت تحاول أن تضفي صفة «المكرّمين»، ممن يستحقون تقدير الوطن، على

العديد من المواطنين البارزين - وعلى رأسهم سانتا آنا نفسه-، وكلّهم على قيد الحياة وفاعلون، وعلى الإجـراءات الأخرى، التي لا تقلّ خطورة عن الأولى، التي تحاول طرد العديدين من الخصوم السياسيين وتجريدهم من حقوقهم الدستوريّة. قلتُ إنّ المستقبل وحده هو الكفيل بتمجيد الرجال، فما أكثر أبطال اليوم ومخلصيه ممن سيوصفون غداً بالأشرار الفاسدين - وقد رأيتم الدليل وسترونه مستقبلاً. وجادلتُ أيضاً في قانون الطرد والنفي، لأنّ تجريد المواطن من حماية القوانين إجراءٌ غريب وغير إنساني... أجيزَ القراران بالطبع، وعقب أيام، وبعد أن أدركتُ بأنّني أنتحرُ سياسيّاً، على الرغم من ثقتي بأنّ التضحية بامتيازاتي خير من المساهمة في العار، تخليتُ عن مقعدي في البرلمان، من دون أن أقبض رواتبي التي تدين الحكومة لي بها.

كنتُ في كلّ يوم أزداد قناعة بأنّ المكسيك ذاهبة إلى الهاوية. لقد وضعت هذه الدكتاتورية، شأنها شأن سواها من الدكتاتوريات، التي آليتُ على نفسي مكافحتها، يدها فوق القانون، بلا رادع ولا وازع، لقمع إرادة المواطنين، فجعلتْ من كلّ اختلاف وموهبة وعمل فردي جريمة، وسحقتْ معارضيها بلا رحمة. مع ذلك، واصلتُ من على صفحات جريدتي الجديدة «الفنار»، متسلحاً بشجاعة لم أعرفها من قبلُ، الدفاع عمّا كنتُ أراه عادلاً وشرعيّاً. وعلى الرغم من أنّ الجنرال سانتا آنا أوقف الدعم المادي الذي كان قرره للمجلّة، لم أبع نفسي، وواصلتُ، وأنا أشعر بالتحرر من كلّ التزام، إصدار طبعاتها، مستعيناً في أكثر من مرّة بمواردي القليلة. لقد كلفتني تلك المواقف الكثير، وبلغ الأمر أنّني هُددت واتهمت على صفحات الجريدة الرسمية في (تولوكا) بأنّي مرتزق أعمل لحساب أعداء الشعب، خدمة لقوى أجنبيّة، ومكلف بمهمة انتقاد أداء الحكومة وتشويه صورة السلطات في بلد وفر لي الوطن والكرامة والعيش، لينتهي بتحذير واضح: «حذار، سيد هيريديا. حذارِ، حذارِ». لقد صارت الصحافة وسيلة للتهديد في هذا الزمان...

لكنّ السلام لم يعد، أمّا الجنرال سانتا آنا - وكان يعرف بذي الأصابع الخمس عشرة، لأنّه فقد إحدى ساقيه في إحدى المعارك، وكان الناس يتندرون عليه قائلين إنّه إن لم يسرق أكثر فلأنّه لا يستطيع الإمساك إلّا بما تستطيع أظافره الخمس عشرة الإمساك به من المال- فقد نصّب نفسه رئيساً للبلاد بسبب «الخطر المحدق بالوطن»، بينما اشتدت حملات القمع قسوة. يا ويلي! في أيّة أرضٍ سقطتُ؟

زادت الطين بلّة الأخبار التي وصلتني من كوبا في ذلك العام المشؤوم 1833. كانت الرسائل تخبرني بوصول حاكم عام جديد اسمه ميغيل تاكون، جمع أيضاً كلّ السلطات في يده وهو معروف بكراهيته الشديدة لمواطني ذلك الجزء من العالم. لقد أوضح ذلك الضابط الملكيّ القديم حال وصوله أنّ تاريخ الجزيرة سينقسم إلى تاريخين: تاريخ ما قبل وصوله وتاريخ ما بعد وصوله، وهو، لذلك، مستعد لفعل كلّ شيء. طاغية إضافي آخر، وأنا المتعبُ المهدود...

***

لم يكن فرناندو تيرّي ليتصوّر أنّه كان يرى الدكتور مندوثا لآخر مرة، لكنّه سيحفظ، ولباقي أيام حياته، تعبير الفرح الذي ارتسم على وجه المعلّم القديم وهو يسلّم على دلفينا: كانت طالبته النموذجيّة في تلك السنة الدراسيّة، والوحيدة التي استطاعت أن تجيبه عن سؤاله عن مؤلف «الحمار الذهبي»[122]، والوحيدة التي أتقنت بسهولة حالات الإعراب اللاتينيّة، تذكّر العجوز، فكأنّه يوبّخ فرناندو. كان لقاؤه بها، بعد خمسة وعشرين عاماً، ورؤيته لها سعيدة، وتطلعه إلى جمالها، بمثابة هدية غير منتظرة قرر الأستاذ الاستمتاع بها. وبعد أن سلّم فرناندو قائمة بالماسونيين الذي حضروا جلسة محفل «أبناء كوبا» التي عقدت في الحادي عشر من نيسان من عام 1921، أمسك بيد دلفينا وسار معها نحو

122- El Asno de Oro أو «رواية التحولات». وهي رواية كوميدية مؤلفها لوكيوس أبوليوس عاش في القرن الثاني الميلادي. وتعدّ أقدم رواية كتبت باللاتينيّة.

مصطبة موضوعة تحت نوافذ المكتبة المطلة على جادة كارلوس الثالث القديمة. بدا الدكتور مندوثا مستعدّاً لتذكر أوقاتٍ خالية.

جلس فرناندو عند واحدة من طاولات القراءة ومعه قائمة الأسماء. كان يتمنّى لو أنّه حظي بمساعدة دلفينا، لكنّه أذعن لرغبة أستاذه وأنانيته. وضع، في قراءته الأولى للقائمة، إشارة على أسماء (كريستوبال أكينو) و(كارلوس مانويل ثرنودا) و(راميرو خونكو) و(خوسيه دي خيسوس هيريديا)، المعروفة لديه، ثمّ وضع علامة استفهام على ثلاثة أسماء أخرى: (ريكاردو راميرو خونكو) و(سيرافين دل مونته) و (كانديدو ألفونسو). الأول بالطبع هو العمّ ريكارديتو الذي كلمته كارمِن خونكو عنه، أمّا الاثنان الآخران، وهما مجهولان تماماً لديه، فيحملان ألقاباً لها حضورٌ كبير في تلك القصّة: (دل مونته) و(ألفونسو). فهل حاول سليلٌ بعيدٌ لدومنغو دل مونته أو من عائلة ألفونسو، المرتبطة بعائلة آلداما، بل بدومنغو دل مونته نفسه، أن يخفي أموراً مسيئة يكشف الشاعر عنها؟ الفكرة تبدو ممكنة، بل مريحة لذهنه، المهيأ دائماً للنيل من ذلك الرجل الذي عدّه، لسنوات، أفضل أصدقائه، والذي سيتلقّى منه وصف «الملاك الساقط» المهين وسيتلقى منه أيضاً الازدراء إذ دعاه مرتدّاً. أغمض فرناندو عينيه، محاولاً التحرر من كلّ حكم مسبق، وطرد كلّ تحامل، وعاد، والقلم في يده، ليراجع الورقة، محاولاً العثور على إشارة أخرى أدقّ بين الأسماء الثمانين التي تمرّ تحت بصره. وفجأة شعر وكأنّ ضوءاً أحمر يشتعل في نهاية القائمة تقريباً: رافائيل فيغارولا. كيف يمكن أن يفوته ذلك الاسم الذي يذكّره بالدكتور دومنغو فيغارولا كانيدا، مدير المكتبة الوطنية في عقدي 1910 و 1920، ومؤلف دراسة عنوانها: «الشاعر الكبير خوسيه ماريا هيريديا»؟ تذكّر فرناندو، من دون الحاجة إلى عصر ذاكرته، الحادثة التي رواها فيغارولا نفسه عن أنّه اشترى وثائق لهيريديا من خوسيه دي خيسوس، وتذكّر أنّ خوسيه دي خيسوس اعترف له في تلك المناسبة بأنّه أتلف رسالة مزعجة كتبها الشاعر عام 1823، نفى

فيها مشاركته في مؤامرة حركة «شعاعات بوليفار وشموسه». ومع أنّه لا يستطيع تذكّر التاريخ الدقيق، فقد كان متأكداً من أنّ تلك الحادثة التي رواها فيغارولا وقعت قبل عام 1921، وتذكر أنّ مدير المكتبة أشار إلى أنّه بحث عن أوراق غير منشورة تعود إلى هيريديا، رواية، ربّما، قال ابنه إنّه لا يملك أيّة إشارة إليها. كان ذلك الطريق المسدود، ولسنوات، واحدة من الإشارات القليلة إلى احتمال وجود رواية مفقودة لهيريديا، وليس لاسم «فيغارولا»، الذي يرد في قائمة الماسونيين العارفين بتسلّم أحد المحافل وثائق غير منشورة للشاعر، إلّا أن يشير إلى جامع الكتب المتمرس ذاك، والباحث المثابر عن الوثائق التاريخية، الذي أعدّ طبعة لوثائق خوسيه أنطونيو ساكو، وكان هو من نشر المجلدات الأولى لكتاب «مجموعة مراسلات» لدومنغو دل مونته، حيث جمع عميدُ الحياة الفكرية الكوبية في عصره المراسلات التي تلقاها والتي لم يضمّنها، لسبب ما، العديد من الرسائل التي وردتْ إليه من خوسيه ماريا هيريديا. فإذا كانت أوراق الشاعر في حوزة فيغارولا كانيدا، فلماذا لم ينشرها؟

فكّر للحظات محاولاً ترتيب أفعاله. لقد بدأتْ تلك القائمة من الأسماء المنسيّة تفتح أمامه احتمالات كثيرة، وهو الذي لم يخطر بباله مراجعتها إلّا قبل ستة أيام فقط من انتهاء مدة إقامته في كوبا، وحين بدأ يشعر بأنّه يقف عند بداية شيء. من طاولته سأل الدكتور مندوثا عن مكان القواميس، فدلّه العجوزُ على رفّ من الرفوف، قريب من فهرس البطاقات، ورأى فرناندو دلفينا تبتسم. بحث بين المجلدات الضخمة عن «معجم الأدب الكوبي»، وهو يأمل العثور على بطاقة تحمل اسم «فيغارولا كانيدا»، وتنفس الصعداء حين عثر عليها. قرأها بسرعة، لأنّه كان يبحث عن شيء محدد: فيغارولا كانيدا توفي عام 1925، أي بعد أربع سنوات من تسلمه الوثائق من خوسيه دي خيسوس. كان لذلك التاريخ دلالته، لأنّه يشير إلى أنّ أمين المكتبة كانت أمامه أربع سنوات ليتملّك الأوراق، هذا إذا تمكن من معرفة مكانها على وجه الدقة. فإذا كان كلّ ذلك ممكناً، وكان رافائيل

فيغارولا قد كشف السرّ لقريبه المفترض دومنغو فيغارولا، وعرف أيضاً طريقة الحصول على الأوراق، فإنّ السبب الوحيد الذي حال دون أن يقوم أمين المكتبة بنشرها هو أنّه احترم طلب خوسيه دي خيسوس، وربما طلب هيريديا نفسه، في ألّا تنشر حتّى عام 1939. ولكن، لماذا لم تنشر بعد ذلك؟ فإذا لم تكن الوثائق موجودة في المكتبة الوطنية، كما هي حال كلّ الوثائق التي اقتناها فيغارولا، فماذا حلّ بها؟ من الذي استولى عليها وحال دون نشرها؟ أم إنّ فيغارولا هو من قرر أن يخفي مخطوطة تكشف عن أمور مزعجة ومن غير المناسب الكشف عنها؟

كانت تلك الافتراضات الخياليّة والمعقدة تدغدغ ذهن فرناندو الذي عاد ليمتلئ بالحماس بعد أن بدا له ممكناً العثور على الطريق المؤدي إلى الأوراق اللعينة. دسّ القائمة في جيبه وتقدم من دلفينا ومندوثا وقصّ عليهما لقيته. ابتسمت دلفينا وهي تشاركه تفاؤله، لكنّ الدكتور مندوثا حاول أن يعيده إلى الواقع.

- كلّ هذا مهم، فرناندو، لكنّي أزداد قناعة بأنّ تلك الأوراق ما عادت موجودة.

- معلمي...

- لا أريد أن أثبط من عزيمتك ولا أن أقول لك أن تكفّ عن البحث. لكنّي الآن على قناعة بأنّ من حاز على تلك الوثائق لم يرد أن يطلع عليها أحد ولا أن يُعرف عنها شيء... فلو أن فيغارولا كانيدا امتلكها لكان نشرها، بغضّ النظر عمّا وجد فيها، أمّا إذا كان من امتلكها ريكاردو خونكو أو أحد أفراد عائلة دل مونته أو شخص له علاقة بالعائلة، فالأمر مختلف. لقد مات هيريديا قبل مئة وستين عاماً، وما عادت القرابة من عائلة دل مونته أو عائلة خونكو تهمّ أحداً لكي يخفي قصّة قديمة كهذه... أليس كذلك؟ من سرق الأوراق أو اشتراها إنما فعل ما فعل لكي لا يطلع عليها أحد. عذراً، فرناندو، فأنا أميل إلى أنّ تلك الأوراق ما عادت موجودة. بعد أن أتيتُ بك إلى هنا...

لكن فرناندو لم يقبل بالهزيمة. كان يحمل نفحة من تفاؤل، ربّما كان مصدرها هو الإحساس نفسه الذي بثته فيه دلفينا من أنّه يولد من جديد. وكان ثمّة تحذير خفيّ يقول له إنّ ليس له أن يتراجع، وإنّ ذكرى الشاعر تستأهل جهوده وتصميمه، وإنّ الحقيقة والعدالة ليستا طائرين خرافيين منسيين. ورأى أنّه إن نجح في العثور على سيرة هيريديا الضائعة، فسينقذ، بصورة من الصور، سيرته هو. هذا هو ما قاله لدلفينا بينما كانا يسيران نحو بيت الشقيقتين خونكو، فأشارت هي عليه بالرأي الذي كان يحتاج إليه:

- لا تتوقف إذن. واصل البحث ما أمكنك ذلك.

في تلك الساعة من العصر، في منتصف الوقت بين الغداء والعشاء، كان مطعم بالمار خونكو في استراحة. ضغط فرناندو على جرس السياج، وبدلاً من الحفيدة كارمنثيتا، فتحت لهما الباب العجوز السوداء التي قدمت لهما القهوة في الزيارة الأولى.

حين دخلا الصالة لاحظ فرناندو أنّ المنظر السريالي نما وكبر: ففوق البيانو يربض الآن كلب أيضاً، نظرت إليه دلفينا مندهشة، فقد كان بلا حراك حتى بدا محنطاً.

- إنّه حيّ، أليس كذلك؟ - سألتْ.

- انظري إلى بطنه. إنّه يتنفس- قال.

دخلت عليهما كارمنثيتا خونكو وهي ترتدي رداءً حريريّاً وعليه نقوش صينيّة، وحيتهما.

- هذه روسيتا - وأشارت إلى الحيوان-. لقد حممناها ووضعناها هناك فوق لكي لا تتسخ بالتراب إلى حين تجفّ. إنّها تخاف أن تسقط لذلك فهي لا تتحرك من مكانها حتى ننزلها نحن.

- وهل يمكنك إنزالها الآن؟ - سألت دلفينا، وقد شعرت بالشفقة على الكلبة.

- سأرى.- حشرت العجوز أصابعها بين شعر الكلبة-. نعم - أضافت وأخذت الحيوان من إبطيه ووضعته على الأرض: خرجت

الكلبة من الصالة بكلّ سرعتها فكأنّ نحلة لسعتها-. إنّها كلبة مجنونة تعاني من الدوار- أتمت العجوز المعلومة.

أشارت المضيفة عليهما بالجلوس على الكنبة، بينما جلست هي على ما بدا أنّه أريكتها المفضلة.

- هل عثرتَ على جديد؟

حكى لها فرناندو، وهو يختار كلماته بعناية، عن بحثه وشدّد على ما عرفه من أنّ ريكاردو خونكو أيضاً كان يعلم بوجود الأوراق الضائعة.

- بالطبع، عمّي ريكارديتو كان ماسونيّاً. أمّا أبي فلا. لم يكن يعجبه ذلك قط.

- ألا يمكن أن يكون ريكاردو...؟ - غامر فرناندو بالقول.

- سرق تلك الأوراق؟ - قاطعته العجوز-. طبعاً. عمي ريكارديتو كان كارثة. كان وهو يفاوض يقدم أسوأ الحلول، وحين صار سياسيّاً انتحر حين بدأ يعمل مع ماتشادو. لقد ربح الكثير، لكنّه أهدر الكثير أيضاً، وطالما بقي على حافة الفقر. كان يردد أنّه الابن الأكبر لجدنا راميرو ووريثه، وكان مهووساً بتاريخ آل خونكو وبثروة آل خونكو... وحتى بقصر آل خونكو. لا أظنّ أنّه كان سيرضى أن نكون من آل هيريديا لا من آل خونكو. فإذا كانت الأوراق تحكي تلك القصّة...

- هل يمكن أن يكون أتلفها؟ - سأل فرناندو، وقد تأججت أعصابه حتّى أحرقت جلده.

- على رسلك، أيّها الشاب. إنّنا نفترض فحسب، فأنا في الحقيقة لا أعلم شيئاً. أنا أتحدث عن العم ريكارديتو وكيف كان.

- لكنّ ما قلتِه يجعلني أفكّر.

- حسناً، حضرتك تريد أن تفكّر، أليس كذلك؟

- بلى، وتخطر على بالي أمور رهيبة. اسمعي، كارمنثيتا، لا أحد يعرف ما الذي قاله هيريديا في تلك الأوراق. لكنّ ما قاله لا بدّ وأن يكون

شيئاً يفوق قصة حبه مع لولا خونكو خطورة، فالجميع في (ماتانثاس) يعلمون بمغامرتهما العاطفيّة. لقد أهدى لها هيريديا عدة قصائد ويبدو أنّ أكثر من شخص تحدث عن أنّ استيبان هو ابن لولا وهيريديا. لكنّ القرار بالانتظار مئة سنة يعني الكثير. لا بدّ أنّ هيريديا عرف أموراً كثيرة طواها النسيان، أو تعرضت لما هو أسوأ من النسيان: الإخفاء. أسرار قد تغيّر مجرى حياة أكثر من شخص، بل قد تغيّر بعض الحقائق عن تاريخ هذا البلد... إن هو قصّ رؤيته، أرى أنّ تلك الأوراق تهمّ أناساً آخرين أكثر مما تهم عائلة خونكو.

تابعت كارمنثيتا باهتمام حجج فرناندو. كانت عيناها، اللتان لم يؤثر فيهما مرور الزمن، تلمعان فتبدوان أكثر شباباً. حشرت المرأة إحدى يديها ببطء في جيب ردائها، وكأنّ ذهنها كان في مكان آخر، وأخرجت علبة سجائر وعلبة كبريت فضيّة ومشرب تدخين أسود برّاقاً، تعلوه حلقة ذهبيّة. وضعت السيجارة بعناية في طرف المشرب وأشعلت النار. نظر إليها فرناندو وهي تدخن بأناقة مغرية وبمتعة المدخنين غير المدمنين.

- لقد فكّرتَ حضرتك كثيراً في تلك الأوراق - قالت أخيراً، وهي تتأمّل الصورة المرسومة على علبة الكبريت الفضيّة-. سأجعلك الآن تفكّر أكثر. انظر. في عام 37، حين كنّا نسكن هنا في هافانا، قام عمي ريكارديتو بأعمال تجاريّة وظلّ تقريباً من دون سنت واحد. أذكر جيداً التاريخ لأنّه حضر للكلام مع أبي ليقول له إن لم يخرج من ورطته فإنه سيبيع القصر، ووقعت مشادة بينهما. لكنّ عمي ريكارديتو عاد بعد أشهر قليلة فامتلك مالاً كثيراً. أقول لك «مالاً كثيراً». لم يعرف أبي قط من أين جاء بذاك المال. كان ذلك سرّاً وبقي سرّاً. وأنا أسألك: هل يمكن أن تأتي أوراق هيريديا تلك بمال كثير؟ لا تردّ عليّ الآن. فكّر قليلاً وإذا اكتشفتَ شيئاً فلا تتردد في أن تخبرني به، من فضلك. ضع في علمك أنّ قناعتي في أنّ اسمي هو كارمن هيريديا تزداد يوماً بعد يوم.

***

اثنتا عشرة ساعة، عدّ كريستوبال أكينو وهو يشعل سيجاره. إن صحّ التبليغ الذي وصله، فعند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ستداهم شرطة الطاغية محفل «أبناء كوبا». ومع أنّ زبانية الجنرال ماتشادو يعلمون أنّهم لن يجدوا في المعبد أيّ دليل على مؤامرة أو تحريض، فقد نبّه الأخ الماسوني الذي مرّر المعلومة إلى أنّ الغرض عقابيٌّ واستعراضي. سيقومون بتفتيش دقيق، لأنّهم يعرفون حتى بوجود الكوّة في «غرفة الخبراء السريّة». فقد أعطاهم المُخبر، وهو بلا شك شخص اندسّ في الإخوانية منذ بعض الوقت، التفاصيل اللازمة لكي تستعرض الشرطة الخاصة صورتها المرعبة وتبيّن مدى اطلاعها على شؤون المعارضين، بل وعلى الحياة الخاصة للأشخاص الذين يحملون أفكاراً سياسية مخالفة للنظام. ففي أرشيفها أسماء الماسونيين الذين دعموا فكرة الطلب من الدكتاتور بالتخلي عن عضويته في الإخوانية ثمّ طردوه منها. لم يستطع كريستوبال أكينو أن يبعد عن ذاكرته لحظة وصول شرطة خاصّة أخرى، تابعة لمستبد آخر، أيام هيريديا، إلى أسرار الإخوانيّة إلى درجة أنّهم فككوا المحفل الكوبي الذي كان في بداية نشأته آنذاك. لا شيء ولا أحدَ بمنجاة من الخيانة، ولا سيّما زمن الدكتاتوريات. فهل اسمه موجود في قائمة الشرطة السوداء؟ لم يكن لدى كريستوبال أكينو ما يجعله يشكّ في ذلك، فلقد تحوّل المحفل، أثناء فترة توقيره الأخيرة، إلى منبر لنقاش سياسي لم يستطع أحد تجنبه، وكان هو قد صوّت لصالح طرد ماتشادو طرداً مخزياً، بتهمة خيانة مبادئ الإخوانيّة.

كانت السنون الكثيرة التي عمل فيها أميناً لسرّ المحفل كفيلة بأن تمهّد له الأرضية. ومع أنّ ولده سلفادور شغل في السنتين الأخيرتين ذلك المنصب، فقد كان كريستوبال أكينو يعلم أنّ في مقدوره أن يفرّق وينتقي ويعزل الوثائق المهمة تقريباً، وهو معصوب العينين، ويقدر أيضاً على أن يُخرج من المحفل ما يعدّه ثميناً، ويترك التافه منه للوحوش. بعد الاتفاق مع الأخ الماسوني الذي كان يدير مكتبة (خينير إي دل مونته)،

تقرر أن ينقلوا الوثائق الأهم إلى سرداب المؤسسة، على الرغم من أنّ أكينو فكّر في أنّ الشرطة قد تعلم بمخبأ الوثائق كما علمت بأسرار المحفل وخفاياه.

وصل ابنه سلفادور فأعاده وصوله إلى الواقع. شرح لولده بدقة الأوراق التي عليه إخراجها من المعبد وتلك التي عليه تركها؛ ما يجب إنقاذه منها أولاً وما يمكنه الانتظار. وبيّن له أنّ عليه أن يقوم باختيار الأوراق ونقلها إلى المكتبة بمفرده، فما من أحد في تلك الأوقات يحظى بثقته. أمّا هو، فعليه أن يسوّي بعض الأمور التي لا يستطيع أحد غيره القيام بها.

في تلك اللحظة تذكّر كريستوبال أكينو صديقه القديم كارلوس مانويل ثرنودا، الذي تحرر بموته، قبل ذلك الوقت بثلاث سنوات، من هذه الالتزامات، ليتحوّل هو إلى العارف الوحيد بسرّ الحياة الحقيقية لخوسيه ماريا هيريديا. لقد ناء أكينو، منذ ذلك الحين، وحيداً، بحمل مسؤولية مزعجة قرر في النهاية أن يزيحها عن كاهله. فإذا لم يعد المحفل مكاناً آمناً لإخفاء أوراق الشاعر، وإذا صارت مداهمة المكتبة بالطريقة ذاتها ومن دون محاسبة ممكنة، وإذا كان بيته من بين الأهداف التي حددتها الشرطة السريّة التي لا تتوقف عند حدّ، فأين عساه يخفي مخطوطة هيريديا والوصول بها إلى منتهاها؟ ووقع الردّ الذي طالما فكّر كريستوبال أكينو فيه، والذي صار يستحسنه، موقع البلسم الشافي في نفسه.

لكنّ عليه، قبل ذلك، أن يترك آثاراً ملحوظة على خطواته. وبينما راح ابنه يضع وثائق في العديد من الصناديق، بحث كريستوبال أكينو عن سجل المحاضر لعام 1921 ووضع إشارة على محضر جلسة الحادي عشر من نيسان. كتب فيه بالحبر الأسود ملخص ما جرى في تلك الليلة، حين كُرم خوسيه دي خيسوس هيريديا، وقلّد مرتبة «الخبير الموقر مدى الحياة» الفخريّة، وردّ هذا على اللفتة بأن سلّم محفله الأم أوراق أبيه التي تضمّ اعترافاته.

- أسرع، ولكن بحذر - قال كريستوبال لابنه، وانتقل إلى رفّ أمانة السرّ المجاور، حيث الآلة الكاتبة. حشر ورقة في الماكنة وبدأ بالضرب على الحروف: نقل المحضر نصّاً، ولكن، مع تقدمه في الكتابة، بدأ يضيف بعض التفاصيل التي كان الغرض منها ترتيب قصّة تلك الليلة وبثّ الحياة فيها. فشدّد على اليمين الذي دعا كارلوس مانويل ثرنودا الحاضرين إلى أدائه، وشرح بوضوح أكبر تأكيد خوسيه دي خيسوس على ألّا تخرج تلك الأوراق من المعبد حتى عام 1939، وعلى أن تنشر إذا قُدّر لها أن تخرج منه. تردد لحظة، فهل يضمّ طلب خوسيه دي خيسوس في أن يُستشار راميرو خونكو قبل أن تنشر المخطوطة أم لا يضمه؟ وقرر أخيراً أن يحترم إرادة الأخ راميرو في ألّا يُحشر اسمه في تلك القصّة. وحين انتهى من النسخة الخطيّة المصححة والمزيدة، عاد كريستوبال أكينو إلى الحجرة حيث كان ابنه ينتهي من تعبئة الصناديق.

- لا تسألني الآن، سأحكي لك في ما بعد. ضع سجل المحاضر مع الوثائق التي سنحملها إلى المكتبة واترك هذه الورقة بين الوثائق التي ستصادرها الشرطة. أنا ذاهب إلى غرفة الخبراء.

وضع كريستوبال أكينو سيجاره بعناية في المنفضة الزجاجية وخرج إلى الممر الذي يقود إلى «الغرفة السريّة». حين فتح الباب، شمّ الرائحة الغامضة الدائمة التي باتت في تلك الليلة موحية على نحو خاص. تقدم خطوتين في الظلام وشمّ رائحة المكان حتى تشبّع به وشعر بزهو الانتماء إلى إخوانية عملت الكثير من أجل الحرية والمساواة بين بني البشر ومن أجل حرية بلدها، حين خططت لحرب استقلاله في محفل صغير. في تلك اللحظة خامر كريستوبال أكينو إحساس بأنّه يطأ تلك الأرض للمرة الأخيرة، وإن تبخر من ذهنه في الحال، فما من شيء في واقع ليلة الخامس والعشرين من تشرين الأول من عام 1925 كان ينبئه بأنّه لن يشهد ضياء الصباح التالي. سحب حينئذٍ السلسلة المتدلية من السقف واستطاع، بالضوء الخافت المنبعث من المصباح الذي وراءه،

أن يحشر المفتاح في الكوّة ويخرج الوثائق التي كانت ترقد داخله: ظرف أصفر مربوط بشريط بنفسجي وصندوق خشبي مغلوق بمفتاح، حيث حفظت سجلات الحسابات، وملكية الأرض التي يقوم عليها المعبد، وقائمة الرموز السريّة المستخدمة منذ عام 1863 وعقد تأسيس محفل «أبناء كوبا»، على طريقة الفرع الاسكتلندية والتابع للمشرق العظيم لكوبا وجزر الأنتيل. ولكي يسهّل على الشرطة عملهم فقد أغلق الكوّة من دون أن يوصدها بالمفتاح. إنّه يفعل ذلك، فكّر، ليبيّن لزبانية الحكم أنّ الماسونيين يمتلكون هم أيضاً خبرة طويلة في موضوع التجسس.

حين عاد إلى أمانة السر، كان ابنه سلفادور يرتب سجلات المحاضر التي يجب نقلها. استردّ كريستوبال أكينو سيجاره ثمّ عاد وأشعله بولاعته المذهبة ونفث في الهواء عموداً كثيفاً من الدخان.

- أخرج الصناديق واحداً واحداً من الباب الخلفي. كانديدو ألفونسو ينتظركَ في المكتبة. أنا سأحمل هذا - عرض على ابنه الصندوق الخشبي والظرف الأصفر-. حين تنتهي أغلق كلّ شيء وانصرف إلى بيتك، فامرأتك وحدها. أنا سأتأخر قليلاً.

- وهذا الظرف؟ - سأله ابنه.

- هذا تكليفٌ من الماضي وسأزيحه عن كاهلي- أجابه وابتسم.

نظر كريستوبال أكينو بألم إلى أمانة السر، حيث ستغرس كلاب الشرطة مخالبها بعد ساعات قليلة. حتّى لو تمكنوا من إخراج جميع الوثائق القيّمة، فإنّ التدنيس الذي سيتعرض له المحفل سيمثّل انتهاكاً شائناً ومهيناً. سيشهد (مارتي) و(ثيسبيديس) و(هيريديا) و(ماثيو) و(أغرامونته) و(كاليستو غارثيا)، من على اللوحات المعلقة على الجدران، مدى الحقد الذي في مقدور ماسوني مرتد خائن أن يحمله.

غادر المعبد من الباب الخلفي البعيد، وسيجاره في فمه. وتسلّق بصعوبة الجدار الذي يفصله عن الجانب الخلفي من حانة الغاليثي تيرنثيو. تحسّس طريقه في ممرّ رطب، بين أكياس المؤونة وصناديق

الجعة، بحثاً عن الشارع، وبعد أن نظر يمنة ويسرة، خرج إلى الرصيف وتقدم نحو وسط المدينة. سار لدقائق وهو لا يفتأ يسأل نفسه إن كان اتخذ القرار الصائب بخصوص مذكرات هيريديا. لكنّه لم يجد من بدائل: المهم هو الحيلولة دون أن تستولي الشرطة على المخطوطة، وربما تتلفها، ثمّ إنّها كانت، في الوقت نفسه، الطريقة المثلى للتخلّص من المسؤولية التي حملها طوال السنوات الأخيرة على كاهله.

مع أنّ الساعة لم تكن تتجاوز التاسعة مساءً إلّا بقليل فقد كانت المدينة خالية، فكأنّ إعصاراً يتهددها. كانت أعمال الشرطة قد أرعبت سكان (ماتانثاس)، بل لقد فرّ سكاراها المعتادون من بارات المركز. قطع أكينو بخطى سريعة ساحة السلاح، وخلّف وراءه الكازينو الإسباني ونزل من شارع (كونتريراس) باحثاً عن الرقم (96)، حيث تسكن أرملة ثرنودا وأبناؤه. بعد أن تحقق من أنّ لا أحدَ يتبعه، دقّ على الباب واعتذر من ميلاغروس، زوجة كارلوس مانويل، عن الإزعاج الذي سببه في ذلك الوقت المتأخر. دعته للدخول فردّ عليها بأنّه في عجلة من أمره. طلب منها حينئذٍ أن تحفظ الصندوق الخشبي في مكان آمن، فالشرطة ستداهم المحفل، وبيّن لها أنّ الصندوق يضمّ وثائق مهمّة، وإن لم تشكّل أيّة واحدة منها خطورة سياسية. طمأنته ميلاغروس ألكانترا، وهي تحمل الصندوق على صدرها، وودعها أكينو، من دون أن يحدد لها وجهته.

صعد أكينو عقبة شارع (كونتريراس)، وقطع عقبة أخرى مقابل الكازينو الإسباني، اجتاز الحديقة وتقدم، بعد أن بلغ شارع (ميلانيس)، من طرف الكاتدرائيّة باتجاه ساحة (بيخيّا) القديمة. في تلك اللحظة، لمحه سلفادور، وكان قد غادر محفل «أبناء كوبا» حاملاً أول صندوق من تلك التي كان عليه نقلها إلى مكتبة (خينير إي دل مونته). لمح أباه وهو يضيع في الشارع المقفر، فابتسم: فلا شكّ أنّ أباه، الماسوني في كلّ فعل من أفعاله، كان يتحرك على أرضه، نشيطاً ومتآمراً، وهو يسير متأبطاً ذلك الظرف الأصفر. ما لم يكن سلفادور أكينو يعرفه في تلك اللحظة

هو أنّه لن يرى، بعد ذلك اليوم، الرجل الطيب الشريف الذي علّمه أسرار الحياة والماسونيّة.

***

كم هي مساحة المجال الفيزيائي الذي يمكن لحياة الإنسان أن تشغله لو قيس بالأمتار أو بالياردات أو بالأذرع أو بالإنشات؟ لقد حشر الشاعر فلوريت وجوده كاملاً في غرفة قياسها 6x4 أمتار؛ بينما احتاج همنغواي إلى مساحة بيته الريفي (بيخيّا) كاملة، أربع غرف ودوائر ومكاتب وحتى الأشجار والمراقب. أمّا هيريديا فلم يمتلك حتى قبراً؛ كلّ ما تركه هو حفنة من القصائد وعدة مئات من الرسائل ومخطوطة مفقودة. لذلك فحين أغلق فرناندو تيري باب الغرفة، ونظر لدقائق طويلة، وهو جالس على السرير، إلى الدروج الموضوعة على أرضيّة الخزانة، التي كتب عليها الرقمان 2 و 3 بخط باهت، فكّر أنّ الجزء الأكبر من حياته، وحياة إنريكه كلّها، قد تكونان موجودتين هناك.

ما زال يذكر بوضوح جنوني كيف أنفق عدة أيام في إعداد تينك الرزمتين، مع رزمة ثالثة لم تكن آنذاك موجودة، حيث وضع، بطريقته المعهودة، الأوراق التي قدّر أنّ في الإمكان إنقاذها. أمّا مصير كمية مشابهة من القصاصات والكتابات والمجلات والأضابير، التي حسبها في وقت من الأوقات مهمّة، فكانت وقود المحرقة التي أوقدها في باحة البيت، والتي تحولت فيها كلّ تلك الأوراق إلى دخان ورماد، فكأنّها جزء من ماضيه هو.

خصصَ الدرج الأول للوثائق المتصلة بموضوع هيريديا: بطاقات، نسخة من أطروحته، مسودات الفصول المكتوبة من أطروحة الدكتوراه، أضابير تضمّ مقالات وكتابات حول الشاعر، مصوّرة أو مقصوصة. كانت تلك هي الوثائق الوحيدة التي كانت كارميلا ترسل بها إليه منذ خروجه من كوبا، وكانت محفوظة وفق ترتيب دقيق يراعي الأولويات. أمّا في الدرج الثاني فقد نظّم ما جمعه عن الكتّاب والأجواء الثقافيّة والسياسية في النصف

الأول من القرن التاسع عشر. لم يمس أحدٌ ذلك الدرج، بل ظلّ على حاله التي تركه عليها من ثمانية عشر عاماً مضت، كما هي حال الدرج رقم 3، الذي وضع فيه فرناندو نصوصه وملاحظاته الشعريّة، والحكايات التي كتبها في أوقات مختلفة من حياته، ونسخة «الكوميديا السوداء الكوبية» التي سلّمها له والدا إنريكه بعد موت ولدهما، مرفقة بورقة كتب عليها كلمات موجزة كانت السبب في إثارة شكوكه القاتلة: «هذه لفرناندو»، من دون أوامر أخرى ولا أمنيات، ولا تحمل من توقيع غير حرف (إ) شديد التدوير، كما هي عجلة الشاحنة التي أنهت حياة صديقه... في منتصف ذلك النهار، الذي راح يبتعد يوماً بعد يوم، وفي اللحظة التي «دُفن» فيها الكاتبُ والرجل، اتصل فرناندو هاتفيّاً بميغيل أنخل وطلب منه الحضور في بيته. بعد الاتفاق، أخذه النِّغرو في اليوم التالي في سيارة أبيه إلى بار «الدواليب الأربعة» القديم، حيث كانت المكاتب مفتوحة أمام كلّ من كان يرى في نفسه حثالة ينبذ مجتمعه ليقفز قفزته النهائية صوب المنفى.

منذ أن عاد، جاهد رغبته في فتح تلك الصناديق. كان يعلم أنّها قد تكون شبيهة بصندوق باندورا[123]: ما إن يُرفع غطاؤه حتى تخرج منه كلّ صور الحنين متناثرة بل مؤذية. لكن قرب سفره وإحساسه بأنّه لم يكن قريباً من أوراق هيريديا المفقودة كما هو الآن، دفعه نحو نبش ذلك القبر.

أشعل فرناندو سيجارة وأخرج الدرج رقم 3. وضعه على السرير وأزاح عنه غطاء الكارتون بعناية. اكتشف أنّه أخطأ، ولسنوات، في ترتيب وضع الوثائق، فقد رأى دائماً على السطح الظرف الذي أودعه كتابه الشعري غير المكتمل، الذي وضع له عنواناً مؤقتاً، وإن بدا له في كلّ مرّة نهائيّاً: «يوم موتي»، وهو عنوان القصيدة التي تقرر أن تكون الأولى في المجموعة، حيث يرتكب جريمة قتل أبويّة في حق ثيسار باييخو[8]: «لن أموتَ في

123- صندوق باندورا: هو حسب الأساطير اليونانية صندوق وضعت فيه جميع شرور بني البشر وأعطي إلى امرأة تدعى «باندورا» وأمرت ألّا تفتحه. إلّا أنّها عصت الأمر وفتحته فانطلقت الشرور ولمّا عادت إلى غلقه لم يكن بقي في قعره غير الأمل الذي ظلّ مغلوقاً عليه وظلّ باقياً في البشر.

باريس، لن تسقط هناك شآبيبُ // يوم مماتي غير موجود في ذاكرتي.// لن أموت في باريس، ولا في أيّ مكان بعيد/ وخصوصاً اليوم، فاليوم خميس، واليوم ينتهي الشتاء...». لماذا ظنّ نفسه قادراً على تقديم ظروف يوم وفاته المباغت؟ لماذا أجبرته الحياة على رفض كلّ واحد من تلك الأبيات المشحونة بالتفاؤل، التي تبدو الآن وكأنّها كتبت بيد شخص آخر مجهول؟ كيف استطاع، وهو الذي أحسّ على الدوام بأنّه شاعر، أن يعيش في ابتعاد تام عن ذلك الإيمان؟ هل صحيح أنّه كانت لديه أسباب للضحك؟ لقد اكتشف فرناندو الآن، وهو يطفو فوق شعره، وجود إضبارة كتب عليها (ن- س- خ- ة - ن- هـ - ا - ئـ - يـ - ـة) للـ «كوميديا السوداء الكوبيّة» (رواية مسرحيّة)، وشعر أنّه لم يكن مهيّأ لمبادرة انتهاك حرمة المقدسات تلك. لكنّ قوة خارجيّة، مصممة على كسر إرادته، أجبرته على إخراج الإضبارة. في الورقة الأولى كرر إنريكه العنوان، من دون أن يضع اسمه. قلب فرناندو الورقة على مضض ليواجه الحروف المكتوبة على الآلة الكاتبة وقد بهت لونها من مرور الوقت، ودخل عالماً بلا قاع، راح يسقط فيه من دون أن يمنّي نفسه بشيء يمكنه التشبّث به...

«علت موسيقى الغيتار والعود وطبول البونغو والشخاشيخ. مقطوعة حسّيّة، خلاسيّة، لها رائحة الجبل وطعم الرون، تحملك مخدوعاً على التفكير في ملذات حميمة، إلى أن تبدأ، وقد تشبعتَ بلحنها، تفقد الإحساس بأنّها ترافقنا. تبدأ الشمس بالشروق، مداريّة جذلى، بينما السماء، السوداء، تصطبغ بلون الرماد، مفسحة للون أزرق برّاق. ومع الصحو الحثيث تبدأ حدود الجزيرة الضائعة تتوضح: في الخلفيّة جبال تنتشر بينها وديان خضر مأهولة بأشجار النخيل الشهيّة، المرجانيّة، الإهليجية، شجرات المُغنة والخطمي. أشجار المانغو والزعرور، مزهرة تحلّق بين فروعها طيور الهزار والحسون الكوبي وعصافير باكمان المتكتمة، لاهية فرحانة، تماماً كما كانت الحال عشيّة طرده النهائي».

«تتقدم المشهد بيوت، مختلفة في عمارتها، متباينة في قدمها،

مصفوفة في شوارع ضيقة وخانقة. مشهد مقفر مهجور، بلدة أشباح، يطبع المكان الخالي من أيّ حضور بشري، وإن عُلّقت في كلّ ناحية يافطات كتب عليها -ممنوع-».

«غُمرت مقدمة الخشبة بماء متدفق شديد الزرقة: إنّه البحر، الهائج دائماً، الذي يرسم الحدّ الأدنى من مساحة الجزيرة المفقودة، يحدّها ويضيّق عليها، ويغلقها داخل نطاقها. هذا البحر عنصر مهم، سيتكرر ظهوره على مدى العمل فكرة مهيمنة عليه، لأنّه مكمّل لقدر الشخصيات، بل إنّه محدد لكينونتهم التاريخيّة، المشروطة بظرف الجزيرة ذاك الذي لا يمكن محوه».

قفز فرناندو تقريباً من مكانه حين سمع طرقتين على الباب ثمّ صوت أمّه.

- توماس وميغيل أنخل.

- لينتظرا في الشرفة- استطاع أن يردّ عليها، وتنفس مرتاحاً، وهو يعي أنّه يتنفس. لقد أعادت له تلك المقاطعة الهدوء اللازم للتخلّص من تلك القصّة التي قد تدبّ في عظامه فكأنّها مرض دقيق، لكنّه قاتل. شيء ما ذو معنى كبير، شيطاني، استقرّ طوال عشرين عاماً في تلك الأوراق التي آمن بأنّ لا مفرّ من قراءتها. أعاد كتابَ إنريكه بعناية وأغلق الصندوق ثمّ أعاده إلى المكان الذي سينتظر فيه عشرين سنة أخرى، أو ربّما إلى الأبد.

صدمته في الممر رائحة القهوة التي كانت أمّه تحضرها. تقدم نحو الشرفة ورأى توماس جالساً على الأريكة ذاتها التي جلس عليها إنريكه في زيارته الأخيرة، وهو يطرد الحرّ بجريدة يحركها، بينما كان النِّغرو في الباحة ينظر إلى شيء بين الأشجار.

- ما أشدّ الحرّ، صديقي - قال توماس حين رآه.

- إنّها جهنّم نزلتْ علينا- علّق فرناندو، من دون أن يقصد سخرية-. ماذا أضعتَ هناك، نِغرو؟

- طائر هزار- قال ميغيل أنخل، وسار نحو الشرفة للسلام على فرناندو-. لم أرَ هزاراً منذ وقت بعيد...

- كيف تسير الأمور، فرناندو؟ - سأل توماس من دون أن يتوقف عن تحريك الجريدة.

- جيدة وسيئة. لا أدري...، عليّ أن أسافر في ظرف خمسة أيام.

مع وصول قهوة كارميلا حدثت وقفة. تناولوا القهوة بصمت، وسأل فرناندو نفسه إن كان عليه أن يشرح لتوماس وميغيل أنخل ما كان يفعل قبل وصولهما، لكنّه أمسك نفسه، فقد كان يثير فضوله معرفة سبب استعمال توماس للنغرو في زيارته إلى بيته، بعد انقطاع دام عشرين عاماً. كبرتْ في ذهن فرناندو إمكانية أن يكون توماس هو من خانه، بعد استبعاده عدداً من الأشخاص الذين كان يشك فيهم، ولأنّ في التناقض الكبير في تصرفات ذلك الرجل ما يمكن أن يجعل منه جلاداً أو ضحيّة، واشياً دنيئاً أو متهماً بريئاً، عالماً عارفاً أو ساهياً لاهياً. إنّ ما بين هذا الطرف وذاك محيطاً لا ساحل له، وقد ازداد اتّساعاً بعد أن قرأ أسطراً قليلة من كتاب إنريكه.

- ما الذي جاء بك إلى هنا. - استفهم فرناندو.

- مُشرفتكَ. رأتني أمس في الجامعة وما زالتْ تردد أسطوانة ألّا تسافر من دون أن تزورها.

- ألم تتقاعد الدكتورة سانتوري؟

- تقاعدت، لكنّها ما زالت تحشر نفسها في كلّ مكان. تترأس جميع اللجان التي يخترعونها، بل إنّها في الدراسات العليا أيضاً. المهم. أنتَ تعرف كيف هي العجوز.

فكّر فرناندو قليلاً.

- لا. أنا لا أعرف كيف هي. كنتُ أظنّها شيئاً وتبيّن أنّها شيء آخر.

- لا أفهمك.

- أظنّ أنّها غسلت يدها منّي وسمحت بأن يدقوا عنقي. لو أنّها تدخلت لما طردوني.

- ويحك، فرناندو...- قاطعه ميغيل أنخل.

- أنتم تعرفون جيداً أنّ سانتوري كانت صاحبة كلمة في الجامعة. وحتى في ما هو أعلى. فإن هي قالت، فلا بدّ من الاستماع إلى ما تقول.

- في ذلك الوقت...- تردد توماس.

- الجميع يتنصّل بالحديث عن ذلك الوقت... هل تتخيّل ماذا سيحدث لو أنّهم علموا بأنّك تؤجّر سيارتك للأساتذة الأجانب الذين يأتون إلى المدرسة؟ أو ما هو أسوأ، بأنّك صديق ميغيل أنخل، وبأنّك تزورني في بيتي وتتكلم معي؟

- لطردوني - قال توماس وحاد ببصره نحو أشجار الباحة. كان يتصبب عرقاً، وما كان فرناندو يعرف إن كان ذلك من الحرّ أم من مسار الحديث. مسح توماس العرق من جبينه بإصبعه وهزّه ليبلل الأرضيّة به. كنتَ، فرناندو، محكوماً عليك بالتصفية، وما أنا بالانتحاري. ولو كانوا علموا بأني أتيتُ لزيارتك لما بقيتُ يوماً واحداً في المدرسة... لكنّ الأمور تغيّرت، وأنتَ تعلم بهذا. الكارثة كانت في ذلك الوقت. كانوا يطيحون بكلّ واحد... أنا لم يقل لي أحد شيئاً، لم ينبهني أحد إلى شيء، لكنّ الجميع في الجامعة كانوا يعرفون أنّ إنريكه وأنت وأنا كنّا كالظفر واللحم، ولو كنتُ أخرجتُ قدماً، لكانوا سيقطعونها لي بكلّ تأكيد. لكن اسمع، هل علينا أن نتكلم في هذا الموضوع؟

نظر فرناندو إلى ميغيل أنخل ولمح في عينيه الحمراوين موافقة.

- أظنّ أنّ علينا أن نتكلم... لأني ما زلتُ لا أعرف من أبلغ عنّي.

ابتسم توماس. وبدت ابتسامته حقيقية صادقة، وإن كانت متوترة.

- أنتَ معنا، نغرو؟ - التفت يبحث عن التضامن، لكنّ ميغيل أنخل ظلّ صامتاً. حينئذٍ نظر إلى فرناندو-. وأنتَ تظنّ أنّني...

- لا أدري، توماس. من يعرف الآن هو أنتَ.

- الحقيقة أنّني أرى أنّك مجنون تماماً، فرناندو. ما الذي أكسبه أنا من الوشاية بك، قل لي؟ وبماذا سأتهمك ومع من؟

- هذا ما قاله ميغيل أنخل والآخرون.

- أنا لم أفعل ذلك، ولا تعد إلى قول هذا. ما الذي دفعك إلى الظنّ بأنّني كنتُ أنا؟

- في الوقت الحاضر لا أدري...

لم يستطع توماس إلّا أن يبتسم، وبدا أكثر وثوقاً.

- هل تدري ما الذي جرى لك؟ أنتَ مأساوي ويعجبك أن تكون موضع شفقة. تحب أن ترى خراء الآخرين ولا تريد أن تشم رائحة خرائك... اسمع، أنا لم أخبرك بما سأقوله لك الآن. لقد تكلمتُ مع إنريكه وهو قال لي بأنّك اتهمته بأنّه مخنّث. أم إنّك نسيتَ ذلك؟ أعلمُ أنّ الحياة خدعتكَ وضحكت عليك واخترعتَ كلّ تلك القصّة، لكنّك لو كنتَ على قدر أكبر بقليل من الذكاء وأقلّ من المأساوية لكنتَ في حال أفضل. ماذا فعلتُ أنا منذ البداية؟ أخذت كلّ شيء كما وصلني ولم أعقّد الأمور على نفسي. لقد شاخ الواحد منّا ما يكفي على التصديق بأن الأموات يعودون، وبأنّ الشعر ينفع في شيء، وأنّ هيريديا لم يكن أكثر من غبيّ تدخل في ما لا يعنيه ثمّ قضى بقية حياته يولول، كما تولول أنتَ. وماذا تعلمتَ من ذلك كلّه؟ ولا شيء، فرناندو، ولا شيء. عشتَ عيشة مريرة وفي ضيق، تواسي نفسك برؤية ما يناسبك أن تراه وباعتقاد ما يروق لك أن تعتقده وتظنّه...

- عن أيّ هراء تتكلّم؟ وماذا تعرف أنتَ عن حياتي؟

- هذا ما أقوله أنا أيضاً - قاطعه توماس، غاضباً-: وماذا تعرف أنتَ عن حياتي؟ اسمعني لحظة، صديقي، بما أنّنا دخلنا في الخراء، فلنتمرّغ جيداً: هل تعرف معنى أن تكون أستاذاً في جامعة هافانا العريقة الموقرة ويتوجب عليك أن تفطر على طبيخ أوراق البرتقال؟ هل أكلتَ مفروم قشور الموز؟ هل ذهبتَ على الدراجة الهوائية من بيتك إلى مكان عملك،

يوميّاً، وعلى مدى أربع سنوات؟ هل شاهدتَ أمّك تصاب بالتهاب الأعصاب وبلا أدري ماذا ثم تفقد بصرها بعد ذلك بأسبوعين؟ وهل خشيتَ على ابنتك أن تصبح قحبة؟ وهل تعرف معنى أن تتملق لأحمق أجنبي وتعمل سائقاً له وهو الذي يؤدي ما تؤديه نفسه من عمل ليكسب مئة ضعف ما تكسبُ أنت؟ اسمع، فرناندو، لقد تحمّلتُ كلّ شيء وليس عندي شيء: سيارة قديمة من دون بنزين، بيت زالَ عنه طلاؤه وعدد من الكتب، لأنّي، حين ساءت الأمور، اضطررت إلى بيع كلّ ما يباع إلى أولئك الأساتذة الأجانب أنفسهم لكي أشتري الزيت والحليب المجفف والقليل من اللحم لأولادي وأمي. في أربعين عاماً أكلتُ شحنة سفينة من الحمص والبزلاء وذهبتُ إلى الاجتماعات أكثر مما ذهب الأمين العام للأمم المتحدة. لكنّي لا أمضي نهاري باكياً في الزوايا ونادباً حظي على ما كان من حياتي... فعن أيّة مأساة ستحكي لي أنتَ؟

- لكنّي اضطررتُ إلى السفر...

- وهل هذا ذنبي؟ أم هو ذنب النغرو، أم آلبارو، أم هو ذنب من؟

- أنتَ لا تريد أن تفهم- حاول فرناندو أن يشرح الموضوع، مع أنّه كان يدرك أنّه يحمل السهام التي رمى بها توماس: إنّ شكواه هو نوع من الترس، وإنّ إلقاء اللوم في مصائبه على الآخرين إنّما هو لتسكين شعوره بالإحباط. لكنّ توماس لم يتقبل التبرير ولم يبدِ تراجعاً.

- ربّما. أو ربّما أنتَ من لا يستطيع أن يفهم، لأنّك لا تحسن النظر إلى الأمور من الناحية الأخرى. اسمعني جيداً، لكي ننتهي من هذه القصّة لمرّة واحدة وإلى الأبد: أنا لم أبلّغ عنك، لا عنك ولا عن أحد. هل هذا واضح؟ وإن جئتني ثانية بهذا الكلام فسأركلك على مؤخرتك إلى أن يتمزق حذائي. والآن سأذهب إلى الجحيم. الدكتورة سانتوري تنتظرك غداً عند العاشرة، بعد أن تنتهي من دروسها. اذهب إن رغبتَ في ذلك... نغرو، هل أنتَ باقٍ؟

نهض توماس ولم يستطع فرناندو أن يتلفظ بكلمة واحدة لإيقافه.

- هل تريدني أن أبقى؟ - سأله ميغيل أنخل، وسيجارته في فمه.

- لا، اتركني وحدي...

- سآتي غداً- وهمّ بالخروج-.فرناندو، أنت الآن متضايق، لكنّي أظنّ أنّ الأمر هكذا أحسن، أليس كذلك؟

- هل تظن ذلك، نغرو؟

شعر فرناندو بأنّه لم يكن منصفاً، ولسنوات طويلة، مع أشخاص كثيرين حين ظنّ أنّه الوحيد الذي لديه مشاكل مهمة، وكان في ذلك ما كشف له عن مقدار أنانيّة الأفكار التي دارت في مخيلته ودناءة التهم التي كالها لهم. قد يكون توماس على حق في أنّ شعوره بالإحباط الشخصي هو ما منعه من فهم الآخرين. مع ذلك، فهو لا يستطيع أن يكفّ عن التفكير في أنّ أحداً ما خانه، ولئن استبعد توماس، فما زال آلبارو يلوح في الأفق خائناً محتملاً. غير ممكن، قال في نفسه، وأحس بحاجة مجهولة إلى الاعتراف وبرغبة لسماع بعض كلمات المواساة والعذر.

***

بدأت فكرة الرحيل عن المكسيك تتحول عندي إلى هاجس. توقظني في الليل وتفاجئني وأنا أتناول الطعام، وتكتمُ تقريباً على نفَسي. وعلى الرغم من أنّي حاولتُ على مدى سنوات أن أجعل من ذلك البلد بلدي، فقد كانت فكرة العودة إلى كوبا، بالذات إلى كوبا، وهو المكان الوحيد في العالم الذي حرمتُ من العودة إليه، تغريني كما الرذيلة. ومع مرور السنين راحتْ خاكوبا تألف ذلك النوع من الهوس الأليم، حتّى إنّني سمعتها مرّة تقول: «حين نعود إلى كوبا»، وكأنّها تعرف الجزيرة وعاشتْ فيها. أمّا ابنتي لوريتو، وكانت منذ صغرها اسماً على مسمى[124]، فسرعان ما بدأت تردد كالببغاء القول بأنّها كوبيّة، بل كانت أحياناً تقول إنّها من

124- اسم البنت هو Loreto وهو تصغير لكلمة ببغاء Loro

(ماتانثاس). حتّى كلب البيت كان له اسم زعيم التاينو[125]، وعلى مائدتنا كانت تقدم، وبحسب الحالة المادية، أطباق كوبيّة، خصوصاً الكسافا وتمال الذرة الطريّة، المطبوخة في طنجرة، على طريقة سوداوات هافانا و(ماتانثاس)، بالكثير من لحم الخنزير والطماطم والثوم والبصل. أعرف أنّ هذا النوع من الحنين مؤذٍ، لكنّ تلك المحطات كانت السبيل الوحيد لبقائي قريباً من انتماء لا أريد التنازل عنه. ربّما كان ذلك هو الخطأ الكبير الذي ارتكبته في حياتي، أو ربّما حدث ذلك كلّه لأنّي كنتُ عاجزاً عن أن أتصرّف بطريقة أخرى، بينما كان مقدراً لي أن أخترع نفياً لكوبا، للحنين إلى كوبا، للحلم بحرية كوبا، أمّا الآن، فأنا ألتزم بنمط الحياة ذاك لأنّني أجد فيه الدافع الرئيس الذي أبقى عليّ في الزحمة وصنع منّي الرجل الذي أنا عليه الآن، وليس رجلاً آخر مختلفاً.

صحيح أنّ آمالي في العودة انتعشت على أثر أخبار عن احتمال صدور عفو عام عن جميع الذين أدينوا سياسيّاً إبّان الحكم الملكي الإسباني السابق، لكنّي كنتُ من الضيق لما كان يجري في المكسيك المسكينة، الممزقة بالأطماع، إنّني بدأتُ بالتخطيط للرحيل إلى بلد عدواني الطبع كالولايات المتحدة، بل إلى أوروبا البعيدة، التي لا تقلّ برودة وجفاءً، بغية الهرب من فوضى السياسة وعربدة السياسيين. كانت قناعتي تزداد في أنّ تلك الأرض الكريمة، وإن وفّرت لي وطناً وموردأ للعيش وكرّمتني، كما كان يقول أعدائي، وهم محقون في ما يقولون، فقد كان الوطن يتمزّق، ويصرخ بي بأنّني لستُ مكسيكيّاً حقيقيّاً، لقد سُحبت منّي الامتيازات التي منحوني إيّاها، أو تقلّصتْ، وصار صعباً الحصول على مورد للعيش، وصارت تمرّ عليّ شهور من دون أن يدفع لي الوطن مرتبي، ممّا كان يضطرني إلى الاعتماد في مرات كثيرة على مساعدة عائلة خاكوبا.

كان ذلك الوضع المادي المحبط هو ما يربطني بالبلد، فقد كان

125- Taíno وهم السكان الأصليون في جزر البحر الكاريبي.

مستحيلاً أن أجمع المال اللازم لشراء بطاقات السفر والملابس المناسبة، والحصول على مورد للإقامة والاستقرار. ثمّ في أيّ منجم أو حقل أو مشروع بناء طريق أستطيع أن أعمل وأنا المريض؟ هل لي الحق في أن أحلم بالعمل محامياً والعيش في بلد جديد، له قوانينه الخاصة وله لغته؟ كان أفق حياتي هكذا مظلماً، وقد زاد ظلمة حين وصلتني أخبار عن الرياح الجديدة التي أطلقها الجنرال تاكون في هافانا، حين أصدر أمراً بطرد ساكو إثر منشور له دافع فيه عن الأكاديمية الأدبيّة الكوبية المُجهضة - التي أدى دومنغو في عملية إنشائها دوراً رئيساً، وإن ترك فيها لساكو دور السيّاف المثاقف المدافع...-. سرعان ما علمتُ أنّ السبب الرئيس للإبعاد هو أنّ ساكو انتقد في منشوره بعض الأصدقاء المقربين من مسؤول المالية والاقتصاد في هافانا المشؤوم، الماركيز دي بيّانويبا، الذي طالب الحاكم العام التنكيل بالكاتب، ووفقاً للصلاحيات التي تخوله إيّاها مسؤوليته في إدارة الأموال المرسلة من كوبا الغنيّة لإعالة الوزراء وأفراد الحاشية في إسبانيا التي باتت فقيرة. وبعد أن اعتقل ساكو في عملية استعراضيّة، بينما كان يعطي دروسه في معهد سان كارلوس، وجهت له تهمة نشر دعاية تحريضيّة وحكم عليه بالنفي، في الوقت ذاته الذي صدر فيه العفو العام الذي أمرت به الملكة الوصيّة على العرش. حينئذٍ، وإزاء صمت دومنغو، الذي لم يجرؤ على المنازلة، تحتّم على واحد من أكثر رجال البلد وعياً وحكمة، وهو خوسيه دي لا لوث إي كابايرو[126]، أن يتولّى الدفاع عن المنفي الجديد، الذي احتجّ بأنّ ما من رجل عاقل ورشيد يقدر على تأييد أفكار انفصاليّة، «بعد أن فقدت فكرة الاستقلال بريقها حتّى بين أكثر الحالمين بها». الحالمون، بالطبع، هم القس باريلا، المنسي تقريباً في نيويورك، وأنا، وعن كلينا قال الطاغية تاكون، بعد صدور قانون العفو الجديد، إنّ القانون لا يشملنا، لأنّنا نشطاء متآمرون محرضون طوال هذه السنين.

126- José de la Luz y Caballero (1800–1862) فيلسوف ورجل تربية كوبي.

لا أعرف إن كان رجال آخرون سيتلقون عقوبة مماثلة لعقوبتي وسيعيشون لسنوات منفيين، يحنّون إلى الوطن، غرباء، بعيدين عن عوائلهم وأصدقائهم، يحملون على ظهورهم ألف قصّة مبتورة وضائعة، يتكلمون بلغات أجنبيّة ويتحرقون شوقاً للعودة: إن كان الأمر هكذا، فأنا أرثي لحالهم وأنا على فراش الموت، لأنّهم سيذوقون أقسى عقاب يمكن أن ينزله بهم أولئك الذين يمارسون سلطتهم من موقع القوّة، سادة للوطن ومتحكمين برقاب الناس ومصائرهم.

لكنّي، وبينما كنتُ أحلم بالرحيل إلى مكان آخر، لم أتوقف عن العمل، لأكسب قوتي، ولا عن الكتابة، لكي أعيش. ولما بدأ ما تدفعه لي الدولة المكسيكية بالتناقص، تحتّم عليّ أن أوافق، نهاية عام 1833، على شغل كرسي الأدب العام والخاص في المعهد الأدبي، حيث أعطيتُ أيضاً دروساً في التاريخ القديم والحديث. وبعد أن أصبحت، بعد وقت قصير، رئيساً بديلاً للمحكمة في ولاية المكسيك، أبقيت على اهتماماتي الأدبية حيّة عن طريق واحدة من أفضل المجلات التي أصدرتها في حياتي، وهي مجلة «مينيرفا»، التي استطعتُ أن أصدر منها سبعة وعشرين عدداً، وأنهيتُ، في الوقت نفسه، ترجمتي لرواية «ويفرلي» أو «ستون عاماً الآن»، للسير والتر سكوت، وهو الكاتب الاسكتلندي الذي تقاسمت معه عشقي للتاريخ[127].

كانت الأخبار التي تصل من كوبا قليلة ومحزنة، وكان أغلبها يصلني عن طريق خينير، الموجود في الولايات المتحدة، لأنّ الأصدقاء في كوبا يخشون أن تقع المراسلات الموجهة إليّ في يد أحدهم، في تلك الأوقات التي كانت أجواء الرعب تخيّم على البلاد، وهكذا، وبتلك الطريقة الملتوية ذاتها، كنتُ أرسل بتحياتي إلى دومنغو وإلى بقيّة الأصدقاء، لأنّي لم أكن أرغب في أن أفقد علاقتي القديمة بهم، كما لم أكن أريد أن تقع أوراقي في يد شرطة النظام المتيقظة والكثيرة والفعالة في ما يبدو.

127- Walter Scott (1771-1832). كاتب وشاعر ومسرحي اسكتلندي

لذلك كان وقع الخبر الذي وصلني منتصف عام 43 عن عودة خينير إلى كوبا، مشمولاً بقرار العفو، شديداً عليّ، إذ كان يعني أنّي سأفقد رابط الاتصال بكوبا الذي كان خينير يمثله. تذكرتُ في الحال كلام باريلا، قبل عشر سنوات، حين بيّن لي مَن هو خينير وما هو تأثيره في كوبا. وفي النهاية مارسَ الكتالاني نفوذه، حين أجاز، بصفته رئيساً للبرلمان، مقترحاً باعتبار فرناندو السابع مجنوناً وغير مؤهل، وتجريده من مسؤولية اتخاذ أيّ قرار حكومي. هكذا صدر العفو عن خينير الثري فعاد، ولم يصدر العفو عن هيريديا المسكين لأنّ وجوده في الجزيرة قد يكون سبباً في حدوث اضطرابات وقلاقل... عاد خينير فأقيم له في (ماتانثاس) أضخم استقبال في تاريخ المدينة، أطلقت فيه المدافع وتلقّى العناق والترحيب من حاكم المدينة. أمّا في هافانا فقد فرشوا السجاد في طريقه وأقيمت الولائم على شرفه. وتتويجاً للحفلة التنكرية، تلقّى الكتالاني في قصر الحكومة تكريم تاكون شخصيّاً، وفي نهاية الاحتفال توادع الاثنان كما يتوادع الأصدقاء القدامى، بعناق عند سلّم العربة الفاخرة التي أقلّتْ توماس خينير، الذي صار، بين عشية وضحاها، بطلاً وطنيّاً...

في ذلك اليوم نفسه وصلتني رسالة من أختي إغناثيا تذكر لي فيها أنّ دومنغو تزوّج بعد خطوبة سريعة. وبطريقتها الماهرة المألوفة في الكلام، زودتني أختي بتفاصيل مشوقة حول الحدث. كانت أولى تلك التفاصيل أنّ اسم المحظوظة هو روسيتا آلداما، وإنّها شابة جميلة وثريّة جدّاً بالطبع، فأبوها هو الثري الشهير دومنغو آلداما، صاحب واحدة من أكبر ثروات البلد. وفوق ذلك فإنّ الثري آلداما كان يمتلك، مع عائلتي (مادام) و(ألفونسو) – وهم أقارب المرحوم سلفستري–، مجموعة السكّر الأقوى في البلاد، وهم (وقد عرف بهذا عن طريق باريلا) أصحاب النفوذ الأقوى في توجيه المشاريع السياسيّة في كوبا... فدومنغو العظيم، إذن، تزوّج من خيرة براعم تلك الحديقة – من دون أن يبلغني بذلك قط، وأنا (صديق روحه)–، ليدخل في المجتمع الراقي

الكوبي، الذي أثرى بفضل تجارة الرقيق الشائنة التي تجرأ دومنغو ذات مرّة على مهاجمتها. وبلغ به النفاق إلى حدّ أنّه أكّد لي أنّه لن يأخذ من حميه سنتاً واحداً، ورفض هدية الزواج، وقدرها ثلاثون ألف بيزو، وأنه طلب من والد زوجته أن يستثمرها في شيء نافع وأن يحوّل إلى ابنته عوائدها، فهو يعيش من عمله في المحاماة (التي لم يمارسها قط). لم يتردد، في المقابل، في قبول هدايا معينة، مثل قصر شارع (خيلابيرت) في (ماتانثاس)، والبيت الكائن في العاصمة، في شارع (هافانا) المركزي. وهكذا صار دومنغو رجلاً ثريّاً وحصل على ما هو أكثر من العربة الفخمة والمكتبة الجميلة، اللذين كان يرى فيهما هدفي حياته الرئيسين...

بعد أشهر من الهدوء النسبي، عادت المكسيك إلى الاضطراب من رأسها إلى أساسها حين فرض الجنرال سانتا آنا نظاماً مركزيّاً قصد منه الإمساك بجميع مقاليد السلطة في البلاد. هل سيكون عندنا في القريب العاجل إمبراطور ثانٍ هو نسخة من المعتوه إتوربيده؟ وما إن علمتُ بتلك الخطط التي تكشف النقاب عن نوايا «ذي الأصابع الخمس عشرة» الحقيقية الدكتاتوريّة، حتى بادرتُ إلى كتابة إعلان هاجمتُ فيه المركزيّة في الحكم وجمعت تواقيع من مواطني (تولوكا)، وأنا أحسّ بسهام الكراهية التي كان الدكتاتور يوجهها إليّ. لكنّي قبلتُ بالمغامرة التي ينطوي عليها موقفي وبقيتُ ثابتاً عليه ما وسعني ذلك، وفي كلّ منبر توفرتُ عليه. وبدا أنّ سانتا آنا، بجبروت الطغاة، وجد فيّ شرّاً لا بدّ منه، أو ندبة قديمة لا يمكن إزالتها، فلم يسمح لي بأن أفرد جناحيّ، كما لم يقصصهما لي، فأبقى عليّ في منصبي موظفاً مغموراً في محكمة ولاية من الولايات، فكأنه أبقى عليّ لكي لا أموت جوعاً.

وأتتْ لنا خاكوبا الولّادة بابننا الرابع في الخامس من أيلول من عام 1834 وأسميناه خوسيه فرانثيسكو، في ذكرى أبي الطيب، فأصبحنا في البيت خمسة. وبينما كانت لوريتو تسعدنا، لم تكن خوليا تنمو على نحو مرضٍ، بل ما كانت تبلو من علّة حتى تصاب بعلّة أخرى. بذلك الحمل

الثقيل على ظهري قبلتُ بوظيفة مدير المعهد الأدبي للولاية، ثمّ لم ألبث أن أصبحتُ رئيسه، وإن كان راتبه أقرب إلى أن يكون راتب مستخدم.

لكنّ فكرة الخروج من المكسيك ظلّت هي الفكرة المسيطرة على ذهني. كانت أمي، بمعونة من خالي إغنائيو، قد بدأتْ من الجزيرة مساعي للسماح لي بالعودة، أمّا أصدقائي القدامى فقد رفضوا، بالتصريح أو التلميح (ذلك هو ما فعل دومنغو كما علمتُ في ما بعد)، أن يسعوا في ذلك، لأنّ في مسعاهم ما يضيف إرباكاً إلى علاقاتهم غير المستقرة أصلاً مع الحكومة. وظلّ تاكون على موقفه المتصلّب، فطلبتُ من أمّي أن تكفّ عن مساعيها: لم أشأ أن تبدو عودتي الوشيكة، بعد كلّ ما جرى، منّة أو فضلاً شخصيّاً من حاكم عام يفرض الرقابة ويغلق المراكز الثقافية ويصدر الأوامر بالنفي. لذلك كان خياري الوحيد هو طلب ترخيص لزيارة الجزيرة لأيام، مستنداً إلى قوانين إسبانية، يكيّفها تاكون القدير على هواه. ركزتُ مبدئيّاً آمالي في أن تدفع الولاية الرواتب التي لي بذمتها، فإن حصلتُ على تلك الأموال فسأخرج بسرعة إلى الولايات المتحدة، لأتخلص أخيراً من الكابوس الذي أصبحتْ عليه حياتي في المكسيك.

هل تبدو قليلة مصائبي التي ذكرتها حتّى الآن؟ هل هي قليلة أم كثيرة على شخص واحد؟ لأنّ أيّ حكم لا بدّ وأن يأخذ في الحسبان أيضاً الضربات الموجعة التي تلقيتها في بحر شهرين من الربّ القابع في السماء: في السابع عشر من أيار من عام 1835، ماتت الصغيرة خوليا، بعد احتضار كاد يقتلني ويقتل أمّها - المريضة أيضاً بالسل. لكنّ من سقط في الثاني عشر من تمّوز، بعد علّة طارئة، هو الصغير خوسيه فرانثيسكو، ليسدل ستاراً من الظلمة على حياتي.

كان من أثر موت ابنتي وولدي، ثمّ موت والد زوجتي، القاضي العجوز يانيث، أنّني رأيتُ أنّ موتي بات هو الآخر وشيكاً. فقد استفحل السلّ في داخلي فجأة، ومررتُ بأزمة لم أعرفها من قبل، بينما عانيتُ من نوبات حمّى ثلاثيّة. أصبتُ في ظرف أسابيع بالهزال وتساقط شعري

واسودّت الهالات المحيطة بعينيّ، وحين أتممتُ الثانية والثلاثين بدوت وكأنّي في الخمسين. ولئن لم أمت حينها فبفضل القوة التي حقنها فيّ هوسي في العودة إلى كوبا قبل أن أودّع الحياة.

كانت هدية عيد ميلادي ذاك وصول شيء كنتُ طلبته وتمنيته طوال وقت طويل: لوحة فيها صورة لأمّي. كانت تلك اللوحة الزيتيّة رائعة، فهي تصوّر امرأة تحتفظ، على الرغم من بلوغها سنّ الشيخوخة، بقوة النظرة وحدّة التعبير اللتين كانتا تميزانها. بكيتُ كثيراً وأنا أتأمّل صورة ماريا دي لا مرثيد هيريديا، بعد اثنتي عشرة سنة طويلة ومرعبة. فهل كتب عليّ أن أموتَ من دون أن أعاود احتضان تلك المرأة التي وهبتني الحياة والكلمة، والتي طبعت على وجهي أوّل قبلة وأخذتني، عصر يوم من أيام صيف عام 1807 الساخن، وأنا ابن أربع سنوات، إلى الحانوت الوحيد في مدينة (بنساكولا) لتشتري لي كتاب إيسوب[128] الرائع في الحكايات الخرافيّة، وكان أوّل ما اقتنيته من الكتب في حياتي؟ ألن أعاود احتضان أختي الحبيبة إغناثيا، وأتعرّف على أبناء أخواتي؟ هل سأموت من دون أن أعاود النظر إلى نخلة ملكيّة؟

أمضيتُ أسابيع وشهوراً والقلم في يدي والورقة أمامي. فكّرتُ في ذلك الحدث، صباحاً وعصراً وليلاً وفجراً. فكّرتُ في حتمية وقوعه، في الألم الذي يثيره مجرد التفكير فيه. لكنّي كنتُ أعلم أنّ كلّ شيء ينصبّ على الخيار الجهنمي: إمّا الآن أو أبداً، فحياتي تنطفئ، وعلى الربّ، الذي كان قاضياً قاسياً معي، أن يغفر لي ضعفي الكبير. خرجتُ صباح الأول من نيسان الحزين من عام 1836 من بيتي، وأنا أحمل ظرفاً مغلقاً ضمّنتُه تنازلاً كاملاً أو شبه كامل عن كلّ ما آمنتُ به وما ناضلتُ من أجله وعانيت.

معروفة هي الرسالة التي وجهتها إلى الحاكم العام ميغيل تاكون. وكما هو متوقع، فقد ظنّ تاكون، منذ أن وصلتْ تلك الرسالة إليه، أنّه كسرَ شوكتي، أمّا أصدقائي فعدّوني خائناً. لكنّي لم أطلب في تلك

128- Aesop (620-564 ق.م.). كاتب إغريقي عرف بحكاياته عن الحيوانات.

الرسالة، التي لا أخجل منها، من الجنرال إلّا ترخيصاً بالعودة إلى كوبا لرؤية أمّي العجوز، ربّما للمرة الأخيرة. ولكي أثبت له أنّني ما عدتُ هيريديا ذاك الذي صوّروه له خطيراً، ذكرتُ له شيئاً كنتُ حينها شديد الاقتناع به: «سمعتُ أنّ سعادتك قلتَ بأنّك تعلم بأنّ الهدف من زيارتي هو التآمر، وفي ذلك ما يؤكد لي بأنّ مخبريك افتروا عليّ افتراءً قاسياً. صحيح أنّ استقلال كوبا كان، قبل اثني عشر عاماً، أشدّ ما أطمح إليه وأرغب فيه، وكنتُ آنذاك مستعدّاً لأهب دمي في سبيل تحقيقه، لكنّ المصائب والنكبات التي أشهدها في الأقطار الأمريكية الفتيّة غيّرت أفكاري كثيراً، وصرتُ أرى في كلّ محاولة لزرع بذور الشر الذي يعصف بالقارة الأمريكيّة في أرض كوبا السعيدة والغنيّة جريمة نكراء».

كان من قبيل المعجزة ما أحدثته تلك الرسالة من نقلة في حياتي. لقد شعرتُ في الحال بأنّ صحتي تحسنتْ وأنّ معنوياتي تغيّرتْ وأنّ أملاً عاد لينعش وجودي. وحدث أيضاً أن وضعت خاكوبا ولداً خامساً، قويّاً صحيحاً، سميناه خوسيه دي خيسوس، الذي ينمو اليوم سليماً معافى فيسعد أمّه ويسعدني. لا أنفي أنّني شعرتُ بالسعادة حين تلقيتُ، في شهر حزيران، رسالة من تاكون يصرّح لي فيها بالسفر والإقامة شهرين في جزيرة كوبا. أحسستُ يومها وكأنّ أبواب السماء تفتح لي، وإن كنتُ أعلم أنّ فعلي ذلك لا يعدو عن كونه اجتيازاً لعتبة الجحيم.

كانت تحضيرات السفر بسيطة، خصوصاً في ما يتصل بالجانب المادي. كان عليّ أن أؤمّن، بشكل من الأشكال، احتياجات خاكوبا والأطفال، وأن أحصل على المال اللازم لبطاقة السفر والسكن وشراء ملابس تناسب الطقس في كوبا وتكون أكثر اعتباراً وحشمة من السترة الخلقة والسراويل التي تهلهلت بطانتها التي اعتدتُ الظهور بها في (تولوكا). عرض عليّ بعض الأصدقاء الأوفياء، كالمحامي كنتانا رو وأناستاسيو ثريثيرو، المساعدة، لكنّي آثرتُ الاستدانة على الاعتماد على حسنة يتصدق عليّ بها صديق أو محب.

كنتُ في كلّ ليلة أحلم بلحظة السفر، وما كنتُ أتلقّى من ذهني إلّا تأكيدات على أنّني سأشهد لحظات سعيدة. كانت أمّي وشقيقاتي يتوقعن لي إقامة رائعة في (ماتانثاس)، وأكد لي خالي إغناثيو أنّه سيسعد بلقائي، وكنتُ ما زلت أظنّ أنّ أصدقائي القدماء سيفاجئونني بسيل أسئلتهم ثمّ لن يلبثوا، بعد الاستماع إلى تبريراتي وحججي، أن يغمروني بعناقهم وحبّهم. تأمّلتُ أيضاً احتمال أن أحظى أخيراً بالحديث الذي أحتاجه مع لولا خونكو وأن أسمع منها قصّة فراقنا الصعبة والأسباب التي دعتها إلى كتابة رسالتها الأخيرة القاتلة. بل رحتُ أخطط لجلسات عمل مع دومنغو، الذي فكّرتُ في أن أكلّفه بالتحضير لطبعة جديدة ونهائية لأشعاري.

في غمرة تلك السعادة وقع حادث أظهرَ لي مبلغ ما طرأ على حياتي من تبدّل. في الثاني من تشرين الأول من عام 1836، وبعد أن حددتُ تاريخ سفري نهاية ذلك الشهر، دعاني الرسام الإنكليزي الكبير سونكنس[129]، وكان في زيارة للمكسيك، لكي نبدأ أنا وهو وبعض الأصدقاء بتسلق الجبل (نيفادو)، القريب من مدينة (تولوكا). لطالما فكرتُ في القيام بتلك المغامرة، لكنّ ظروف الحياة كانت لي دائماً بالمرصاد. أمّا هذه المرّة فقد كنتُ أشعر بالراحة ولم أشأ أن أفوّتَ على نفسي الفرصة. كانت المغامرة ناجحة، واستجابت قواي المتناقصة لها بشجاعة، وحظيتُ حينها بفرصة تأمّل سعة الهضبة التي بسط الأزتيك[130] الأقوياء سلطانهم عليها قبل ذلك الوقت بأربعة قرون. غمرني التأثر وتأججت عواطفي، كما هي عادتي حين أقف أمام عظمة الطبيعة والزمن، وخلتُ أنّني أعيش يوماً آخر لا ينسى كذاك الذي تأملتُ فيه شلالات نياغارا العجيبة.

بعد قليل، بدأنا هبوط القمة، ووصلنا، وقد حلّ الليل، إلى (تولوكا).

129- Sonkins لم نعثر له على ترجمة.

130- Los Aztecas الأزتيك هم سكان المكسيك الأصليون. وكانوا أصحاب حضارة مشهورة.

وبعد أن شربتُ شيئاً من عرق الصبّار في حانة بالمدينة، توجهت نحو بيتي، حيث وجدت خاكوبا تنتظرني بينما نام الأولاد كالملائكة، أمّا الكلب (هاتوي) فقد خفّ ليلعق يديّ. استحممتُ مطولاً، وأنا أتحدث مع زوجتي، ثمّ أكلتُ بشهيّة وتناولت شيئاً من النبيذ، وبعد أن قبّلتُ خاكوبا ذهبنا إلى الفراش، لألقي بجسدي المرهق وأنام كالقديس... لم يصعد إلى ذهني، من بئر أحاسيسي الناضبة، أيّ بيت حزين وبسيط يترجم التجربة التي عشتها. وإذا كنتُ حسبتُني من قبلُ شاعراً ميتاً، فقد وجدتُ نفسي، بعد أن استيقظت صباح اليوم التالي، وقد وُوريتُ الثرى.

***

وماذا عن الأحذية القديمة؟ أفاريز لم تزيّن أيّ معبد، يكسوها الغبار الأبدي، تحاول تخليد ملاحم تاريخية لأباطرة منتصرين وجنودهم الشجعان. وأعمدة لم تسند سقفاً، على شكل نساء يعرضن صدوراً حادة حجريّة، فكأنهنّ رافعو أثقال متحولون جنسيّاً. لكنّ تلك الأفاريز وتلك الأعمدة كانت خلواً من البريق الخاص المميّز، فوظيفتها لم تكن تتعدى تعظيم أعمال سادة التاريخ وسيرهم، المجتمعين هناك أيضاً: يوليوس قيصر، أوغوسطو، أدريانو، مارك أوريليو، رؤوس صلبة من الجبصين، مفرغة على الصورة الأصلية الرخاميّة، الموجودة في أحد المتاحف. والأحذية؟ تشغل أيضاً مكانها الأعمال الفنيّة الكبيرة: «النصر المجنّح»، مقطوع الرأس دائماً؛ (فينوس) الميلوسيّة، المبتورة وربّما بسبب ذلك أكثر حسّية وإغراءً؛ رامي القرص في وضعيته الثابتة؛ صورة (أبولو) المحارب و(أفروديت) الغامضة، موزعة بين مجسمة (بارثينون)، (كوليسيوم) لم تمسسه يد وأشكال مكررة مقلدة تعود إلى العصر الهيليني وإلى العصور التي سبقته والتي تلته، والتي لم تحمل قط في بطنها العاقر العقيم (زيوت) فارس الأنثوية ولا خمور مقدونيا الذكريّة. والأحذية؟ كلب بثلاثة رؤوس، محفور على قطع صغيرة من السيراميك، يكشّر عن أنيابه من لوحة موزاييك معلقة على مدخل

متحف القطع المقلدة ذاك حيث كان فرناندو تيري يبحث من دون طائل عن زوج بسيط من الأحذية القديمة.

لأنّ فرناندو لن ينسى أبداً اليوم الذي حملت فيه الدكتورة كالديرون إلى الصف تلك الأحذية، قاصدة إدخال عنصر تشويق على درسها حول التراجيديا الإغريقية، وأراد، حينها، أن يبدو أذكى زملائه وأكثرهم حبّاً للمعرفة، فطرح سؤالاً:

- دكتورة. وهل هذه الأحذية حقيقية؟

ونبهته النظرة التي رمقته بها الأستاذة إلى خطورة الزلة التي غاصت فيها قدماه، فبدتا وكأنهما علقتا في حذاء من الرصاص.

- يا صديقي الصغير- سألته حينئذٍ الدكتورة كالديرون وهو تمسك بأحد الحذاءين-، هل أنتَ ساذج أم تسخر؟

أمّا فرناندو، فقد أبدى أفضل إيماءات السخرية، وتملّص من ذلك الموقف المثير للضحك وتلقّى ابتسامة الاستحسان من أصدقائه.

ما إن دخل المدرسة حتى بدأت المقارنة التي لا مفرّ منها بين ما هو واقع وما هو ذكريات. ومع أنّ المدرسة بقيت كما هي في بنائها وفي تخطيطها، فقد بدا له كلّ شيء ماسخاً وبارداً، بل مسكوناً بالروائح النتنة، مجرداً من الحيوية التي طبعها فيه هو وأصدقاؤه في تلك الأزمنة المصممة على أن تطلّ من الذاكرة بسحرها الحقيقي. حين وصل فرناندو إلى الطابق الثالث، لاحظ الرقم 19 مكتوباً فوق باب القاعة، وبدا له من عجائب القدر أن تحاضر الدكتورة سانتوري في المكان ذاته التي أعطى هو فيه آخر محاضرة له في كلية الآداب. وقرر، وهو مستعد لتجرع آخر كؤوس السمّ، أن يستريح قبل أن يدخل في القاعة، فوضع السيجارة في فمه واتكأ على درابزين الشرفة، كما اعتاد أن يفعل في أوقات النهار والعصر والمساء التي أمضاها في ذلك المكان نفسه، حين كان يقف إلى جنبه إنريكه، بلسانه السليط وطبعه الظريف، ليحكي لهم عن إشاعة بلغت مسامعه، أو عن دهشته وهو يكتشف أدب مارغريت

يورسنار[131] الرائع؛ أو أركاديو الوسيم، المصمم على أن يكون شاعراً وأن يبدو شاعراً، وهو يقرأ، بين الحصّة والحصّة، علناً وبمثابرة ما كتب روكي دالتون[132] وخوان خيلمان [9] وأليوت[133] وباوند[134]؛ أو توماس، وهو يلفت نظرهم إلى مؤخرة تلك الطالبة المستجدة التي صاروا يسمونها منذ ذلك الحين «مؤخرة المرحلة الأولى الكبيرة»؛ أو ميغيل أنخل، وهو يعلّق على عمله في اللجنة الأساس للشبيبة وعلى كتابات فرانز فانون[135]؛ أو كونرادو، الذي يتأبط دائماً نسخة من رواية عوليس ولا يقرؤها؛ أو آلبارو، الساخر اللامبالي، المستعد للتندر على أوّل من يقابله، فكأنّ ذلك هو همّه في الحياة. وقد يقف، في زاوية الشرفة، فيكتور ودلفينا، وقد أمسكا بيدي بعضهما، وراحا يتحدثان، بالتأكيد، عن حياتهما معاً، كيف ستكون: الأولاد والأفلام والكتب والفرحة التي يتقاسمانها... وقد تمرّ واحدة من خطيبات فرناندو آنذاك من جنبه، يضوع منها عطر الورد. وقد يتحادث مع أصدقائه عن الكثير من الأشياء التي كانت موضع اهتمامهم في تلك السنوات: عن محاضرة كورتاثار التي حضروها وكأنهم كرونوبيوس[136] مهاجرة؛ عن موت ليثاما ليما [50]، مهجوراً وحيداً، وهو الخبر الذي مرّت عليه صحف الجزيرة مرور الكرام؛ عن نثر كاربنتيير[137] الرائع الذي ظهر مؤخراً في «الكونشرتو باروك»؛ عن قراءة طبعة قديمة من رواية «تاجر

131- Margarite Yourcenar (1903-1987). أديبة فرنسيّة.

132- Roque Dalton (1935-1975). شاعر وروائي من السلفادور.

133- Thomas Stearns Eliot (1888-1965). شاعر ومسرحي أمريكي.

134- Ezra Pound (1885-1972). شاعر وموسيقي وناقد أمريكي.

135- Frantz Fanon (1925-1961). كاتب وفيلسوف وعالم اجتماع فرنسي. حارب النازيين في فرنسا والفرنسيين في الجزائر.

136- كرونوبيوس هي حيوانات لبونة منقرضة عاشت في أمريكا الجنوبية واسمها هو عنوان إحدى قصص كورتاثار: «حكايات كرونوبيوس وفاماس».

137- Alejo Carpentier (1904-1980). كاتب وروائي كوبي.

الرقيق»، التي كتبها لينو نوباس كالبو[138] والتي حذفت من المنهاج الدراسي بعد أن طلب مؤلفها اللجوء في الخارج؛ عن ألمعيّة بارغاس يوسا وروايته «مقتل إله»؛ عن المعنى المؤلم للحياة في كتيب أليسيو دييغو[139] المنشور مؤخراً أو عن الاكتشاف العرضي لشعر أيوخينيو فلوريت المشرق...

أسقط فرناندو عقب السيجارة من يده في منفضة معدنية ودفع باب القاعة 19. كانت الدكتورة سانتوري تقف قبالة السبورة، صغيرة ضعيفة. لم تغيّرها كثرة السنين التي مرّت، فكانت ما تزال قادرة على مواجهة صف دراسي من دون أن تضع نظارات على عينيها. لمعت عيناها اللتان تحاكيان عيني الأفعى حين التقتا بعيني فرناندو، لكنّ نبرة صوتها المقنع لم تتغيّر، وهي تتكلّم لطلابها عن نهاية خوان كلمنته ثينيا[140]، وهو واحد من شعراء منفيين كثيرين حاول أن يطير طيراناً معاكساً يعيده إلى وطنه فانتهى به الأمر أن اتهمته السلطات الكولونيالية الإسبانية بالتجسس واتهمه مواطنوه الكوبيون بالخيانة. وما أكثر ما حكت الأستاذة قصّة الشاعر الذي وقع أسير الاضطرابات السياسيّة لعصره؟

وبينما كانت الدكتورة سانتوري تنهي شرحها بالكلام عن إعدام ثينيا، أدرك فرناندو سبب شعوره بالخوف من العودة إلى المدرسة: لم يكن يخشى ذكرى الحكم المتعجل المتعسف الذي نفذه رجل الأمن رامون، ولا الطرد الذي عاناه منذ ذلك الحين، قدر ما كان يخشى حياة الضياع الأخرى، التي سبقت النكبة، حياة البسمة والضحكة والقهقهة، فقد كانت السعادة آنذاك ممكنة، حتّى وسط العوز والصمت والقيود، بفضل آمال

138- Lino Novás Calvo (1903-1983). روائي كوبي إسباني المولد. هاجر إلى الولايات المتحدة بعد قيام حكم فيديل كاسترو.

139- Eliseo Diego (1920-1994). شاعر وقاصّ وكاتب كوبي.

140- Juan Clemente Zenea (1832-1871). كاتب وشاعر كوبي له أثر كبير في عودة الرومانسيّة إلى الشعر الكوبي وأدب أمريكا الإسبانية. أعدمته السلطات الإسبانية في هافانا إثر مشاركته في حركة كارلوس مانويل دي ثيسبيديس العسكرية عام 1871.

كثيرة نقيّة ومشاريع مشرقة، وبفضل براءة قادرة على أن تجعله مؤمناً في قدرات الشعر وفي أصالة أحذية معينة.

- والأحذية، أستاذة؟ - طرح أخيراً السؤال على سانتوري التي فضّلتْ، بعد انتهائها من الدرس، أن تتحدث مع تلميذها السابق في متحف الآثار المقلدة المغطى بالتراب.

- الأحذية؟ لقد سرقوها منهم...، لا بدّ أنّ أحداً تصوّر أنّها حقيقية، أليس كذلك؟

- لحسن الحظ - قال فرناندو ونظرت إليه الأستاذة العجوز، من دون أن تفهم معنى تعليقه.

في نهاية المكان كانت هناك مصطبة خشبية قريبة من الشباك. استندت الدكتورة سانتوري على ظهر المقعد لتجلس من ثمّ ببطء وهي تبتسم. أخرجتْ من جيبها علبة السكائر والولاعة.

- أما زلتِ تدخنين؟ - استغرب فرناندو.

- وكيف لي أن أترك التدخين بعد كلّ هذا الوقت؟

- أنا في كلّ يوم أنوي ترك الدخان...، لكنّي لا أحاول - اعترف لها فرناندو.

- ما أطيبك، فرناندو. لطالما فكّرتُ أنّني قد أموت من دون أن أراكَ ثانية - قال الأستاذة-. هيّا، احكِ لي شيئاً عن حياتك...

تأملها فرناندو وهي ترفع السيجارة إلى فمها وتنفث الدخان، فبدا له التدخين فعلاً من أفعال المتعة الفائقة التي تمارسها تلك العانس القاسية، التي طالما شكّ الطلبة في ميولها الجنسيّة. مع ذلك، ومع تقدمهم في سنوات الدراسة، فقد نسي الطلاب تلك التفاصيل بعد أن شغلتهم المطالعات المفاجئة للكتّاب الكوبيين الذين كانت سانتوري تقترحها عليهم، بل لقد انجرفوا وراء معرفة متراكمة مترسبة على أحاسيس متحفزة وسنين من البحث والتدريس.

- حدث معي الكثير ولم يحدث معي شيء - قال محاولاً أن يوجز ما مرّ به في العشرين سنة الأخيرة.

- إذن جئت تبحث عن مخطوطة هيريديا؟

- نعم، بالدرجة الأساس...

- يسعدني أن أسمع منكَ هذا. معنى هذا أنّك لم تستسلم. هل تعرف؟ لم أصادف طالباً مثلك. حتّى إنريكه لم يكن مثلك...

- وهؤلاء الطلبة الكثيرون...؟- حاول أن يغيّر وجهة ذلك المديح الثقيل.

- أتكلّم جادة. لا قبل ولا بعد. لذلك أردتُ أن تظلّ أستاذاً في الكليّة. أظنّ أنّك ستكون خير من يحلّ محلّي.

- ها أنتِ ترين، أنا ذهبتُ وحضرتك ما زلت هنا.

- لن أغفر لنفسي ذلك أبداً - قالت العجوز، وكأنّ ذلك القول كواها. نظرت لحظة إلى سيجارتها، سحبت منها آخر نفس ثمّ ألقت بها من الشباك. اختار فرناندو البقاء صامتاً، بعد أن فاجأته تلك الكلمات، ولم يصدق في الحال ما سمعه-. كان في استطاعتي أن أنقذك.

- ولكن، أستاذتي، حضرتك...

- كان سهلاً، فرناندو: فإمّا أن يعيدوك أو أن أستقيل أنا.

- ما كان سيحدث شيء، أستاذة.

- أنتَ تعلم أنّه كان سيحدث. على الأقل كنت سأعيش مرتاحة الضمير عزيزة النفس طوال هذه السنين. لكنّي لم أجرؤ على فعل ذلك. احتججتُ، كتبتُ لرئيس الجامعة وللوزير وللرفيق الحزبي، لكنّي لم أستقل...

- لم أعرف بذلك. وبماذا ردّوا عليك، أستاذتي؟

- ماطلوا. قالوا إنّك ارتكبتَ خطأ، إنّ الرفيق المسؤول الأمني كتب تقريراً عنك، وإنّ تصرفك بعد ذلك لم يكن الأنسب، وأن ننتظر... إلى أن

ضقتُ ذرعاً وانفجرتُ وقلت لهم إن لم يصححوا الأمر فسأقابل من أرى أن أقابله. وأخيراً أرسلوا لك تلك الرسالة، لكنّ الوقت كان قد تأخر.

- كلّ ما جرى محض حماقة. أحدٌ ما أخبر رجل الأمن أنّني كنتُ على علم بأنّ إنريكه يخطط للرحيل.

- أنا لا أصدق هذا. أنا أرى أنّ الموضوع كان فخّاً نُصب لك. حين ذهبتُ إلى رجال الأمن المسؤولين عن الجامعة، قالوا لي إنّك أنتَ من اتهمتَ نفسك بذلك...

- ولكن، كيف يمكن هذا؟

- هذا ما قلته، وعندها أسمعوني تسجيلاً لك تقول فيه إنّ شيئاً ما جرى لإنريكه وإنّه قال إنّه قد يركب لانشاً في أيّ يوم من الأيام... أنا قلتُ لهم إنّ من غير الممكن أن يدمروا مسيرتك بسبب كلام فارغ... عندئذٍ عرضوا عليّ تقريراً عنكَ من مجلة (تابا كوبا)، يتهمونك فيه بالانحراف الأيديولوجي والاكتفاء الذاتي وإساءة التصرف في العمل وفي الواجبات السياسيّة، وكلّ ما يستطيعون أن يتهموا به أيّ شخص ذكي. هم أنفسهم قالوا لي إنّ ما من شيء خطير في ذلك، إنّك قد تستطيع العودة إلى الكلية في ظرف سنتين. في تلك اللحظة لم أفعل ما كان عليّ أن أفعل، لم أقدّم استقالتي شرطاً لعودتك... وحين أخبرني توماس بسفرك إلى (مارييل) شعرتُ بالذنب وأوشكتُ على السقوط مريضة. أدركتُ أنّنا جميعاً، أقصد الذين كان في مقدورهم أن يفعلوا شيئاً، وخاصة أنا، كنّا السبب في أن نفقدك.

أحسّ فرناندو وكأنّ حنجرته تقتلع اقتلاعاً. لقد كانت إمكانية أن يتلقّى المكالمة التي حلم بها طوال أيام تهميشه، يطلبون فيها منه العودة إلى الكلية، أقرب مما كان يتخيّل، كان يمكن أن تحدث قبل صعوده في المركب نحو منفاه، في شهر أيّار ذلك من عام 1980، بوقت طويل. لو أنّ التبليغ وصله قبل ذاك لكانت حياته عادت إلى طبيعتها ولسار كلّ شيء على نحو مختلف. لكنّ اعترافاً أحمق وتطرفاً قاسياً في أفكار

بعض الأشخاص وتردداً من طرف آخرين هو ما كسب المعركة، من دون الحاجة إلى وشاية من أحد. إنّ غرابة مصيره تبدو له الآن مثيرة للضحك.

- كلا، دكتورة. ما زلتُ أظنّ أنّ هناك من اتهمني بشيء...

- حين رحلتَ، قابلتُ رئيس الجامعة وقلتُ له إنّنا عملنا على أن تفرّ من البلد، فردّ عليّ بأنّك وفّرتَ الحُجة لمن اتهمكَ...

- لم أستطع تحمل المزيد، أستاذتي.

- هذا ما قلته. ما كان أحد يدري إلى أيّ حدّ كانوا يريدون أن يصلوا معك من دون أن تعترض أو تحتج. كانت حماقة مؤسفة... لذلك أردتُ أن أعتذر منك، فرناندو، وأردتُ أن يكون الاعتذار هنا، في الكليّة...

- ليس عليك أن تعتذري، أستاذتي. بالعكس، فأنا أشكر لك اهتمامك بي.

- بلى عليك أن تسامحني، لأنّي لم أفعل الواجب. والأدهى من ذلك أنّ دافعي لم يكن خوفاً، فقد كنتُ أعلم أنّهم لن يطردوني بسبب خوفي... لو كنتُ خفتُ، لكنتُ معذورة. لكنّي لم أقدم على ذلك لأنّي ظننتُ أنّ المسألة كانت من السخافة أنّ أحداً ما سينتبه إلى الخطأ...

جالت الدكتورة العجوز سانتوري بنظرها في الآثار التعليميّة التي يضمها المتحف. ربّما لم تدخل، طوال خمسين سنة من عملها الجامعي، في حديث مثير للألم والحزن على ذلك القدر. وأدرك فرناندو مدى الإحساس بالذنب لدى تلك المرأة إلى درجة تجعلها تعترف، وهي الصلبة الدقيقة، بضعفها الرهيب.

- متى ستسافر؟

- بعد أربعة أيام.

- وإذا لم تعثر على مخطوطة هيريديا؟

- عليّ أن أسافر في كلّ الأحوال. وإن كنتُ أزداد قناعة من أنّ تلك الأوراق ما عادت موجودة.

- سيكون مؤسفاً ألّا تعثر عليها. ألا يمكن معرفة ما حدث لها؟ على الأقل هذا، أليس كذلك؟

- لستُ متأكداً، أستاذتي - قال فرناندو وحكى لها عن بحثه في أرشيف المحفل الكبير وشكوك كارمنثيتا خونكو حول واحد من فصول اغتناء خالها ريكاردو.

استمعت إليه الدكتورة سانتوري وهي تشعل سيجارة أخرى. أوشكت عينا الأفعى أن تغمضا وقد أزعجها الدخان.

- إن كان ريكاردو خونكو قد باعها، وبسعر جيد، فالسهم مصوّب إلى واحد من آل دل مونته أو من آل آلداما، أو إلى أحد من تلك العائلة. ولكن تستبعد بقية الماسونيين، بمن فيهم فيغارولا. ما حكاه هيريديا مهم جدّاً. وإلّا لكان ابنه باعه ولما لفّ الموضوع كلّ ذلك الغموض... انظر، أتوتّر حين أتخيّل أنّ تلك الأوراق يمكن أن تكون ما زالت موجودة - قالت الدكتورة وسحبت فرناندو من إحدى يديه-. اسمع، فرناندو، لا تستسلم الآن. هل تريد أن أقول لك شيئاً؟ سيكون لك في ذلك انتقام كبير. انتقام من كلّ من اتهمك وممن لم يمدّ لك يد العون. لا تتوقف، فأربعة أيام وقت طويل.

***

من شرفة قصر خونكو العلويّة، تأمّل دون ريكاردو منظر ساحة (بيخيّا) القديمة الرائعة والجسر الأخير الممتد فوق نهر (سان خوان)، قبل أن تبلغ مياهه الخضر بحرَ الخليج المائج. كانت شمسُ النهار، التي لا تشوب صفاءها سحابة واحدة، ترسم شعاعاً صقيلاً في الماء وفي الأشجار وحتّى في جدران بنايات الساحة القديمة، فكأنّها تضع اللمسات الأخيرة على لوحة تفيض جمالاً.

كان دون ريكاردو، منذ طفولته، يشعر بميل إلى تأمّل ذلك المشهد الذي استمتعتْ به أربعة أجيال من عائلة خونكو، طوال مئة عام، ومن تلك الشرفة ذاتها. حين شيّد أخو جده بيثنته القصر عام 1838، كانت

ساحة (بيخيّا) هي القلب التجاري لأكثر مدن كوبا ازدهاراً، وكانت عائلة خونكو أيضاً من الثراء والقوّة أنّ دون بيثنته، في سعيه إلى تشييد أفخم قصور المدينة، اشترى من البلديّة جزءاً من الشارع ليبني عليه جانباً من البناء، ولتكتمل هكذا الصورة المعماريّة التي حلم بها لبيته الكبير. لقد تغيّر كثير من الأشياء منذ تلك الأزمنة المجيدة التي كان آل خونكو يستطيعون فيها أن يشتروا شوارع ومزارع وأرواحاً، بل أن يشتروا السكوت. أمّا الساحة الآن فمختلفة، فقد اختفى بناء (بيخيّا) القديم، ذو السطح المرصوف بالقرميد الأحمر الذي شاهده دون ريكاردو في طفولته، كما اختفى مبنى جمارك الميناء القديمة ومصنع التبغ، الذي لم يره قط. واختفت ثروة العائلة الطائلة، التي بددتْها الحروب والأزمات، وبددها النصبُ والتبذير الذي مارسه شقيقه آنسلميتو، الذي كان منصرفاً إلى رعاية سباقات للسيارات ومسابقات شعرية مضحكة وتنظيم حفلات موسيقية على مسرح (ساوتو)، تتبعها دائماً حفلات رقص في القصر، تحضرها دائماً شخصيات غريبة وجائعة، مهووسة بعازف البيانو البولندي المقمل هذا أو بالراقصة الروسية المنتنة تلك. ولم تقدر تجارة أبيه، دون راميرو خونكو، على النهوض بمالية الأسرة المرهقة إلّا قليلاً، فجهوده المنتجة إبّان سنوات حكم ماتشادو، التي ملأت خزينة الأسرة الخاوية، بدأت تكشف عن أرقام مثيرة للقلق، مع تضاؤل الإيرادات السهلة، على أثر سقوط الجنرال. فما كان من خيار ممكن أمام دون ريكاردو خونكو إلّا بيع ذلك القصر، رمز مجد الأسرة وفخرها والشاهد على نفوذها التليد.

لكنّ ريكاردو خونكو راح يهنئ نفسه صبيحة ذلك النهار الربيعي من عام 1938، إذ كان يوشك على الدخول في مفاوضات قد تؤجل، على أقلّ تقدير، كارثته الماليّة. مليون؟ مليونان؟... وفرح إذ تذكّر أنّه لم ينجرّ قبل ست سنوات وراء ردة فعله الأولى إزاء تلك الأوراق، وإلّا لكانت تلك الأوراق، التي قد تعود عليه بالثروة، تحوّلت إلى حفنة من الرماد تذروها الرياح.

في تلك الليلة من عام 1932، كان دون ريكاردو على وشك أن يعتذر عن استقبال العجوز كريستوبال أكينو الذي حضر إلى بيته في ساعة غير مناسبة. صحيح أنّ دون ريكاردو كان قد تخلّى عن نشاطاته السياسيّة حين رأى أنّ مركب ماتشادو موشك على الغرق، لكنّ حضور أكينو إلى بيته ما كان له من معنى غير أنّ الشرطة توشك أن تداهم المحفل، لكنّه غير مستعد للتضحية بنفوذه المتناقص في سبيل حماية أولئك العنيدين، كأبيه، ممّن يؤمنون بالأخوّة أكثر مما يؤمنون بالحياة نفسها. إنّه لم يكن يرى في الماسونيّة أكثر من سبيل لتعزيز مكانته الاجتماعية، لكنّه اضطر إلى دفنها حين بدأ أولئك المجانين المتعصبون بالتدخل في السياسة وصولاً إلى مطالبة الرئيس بالتنازل عن عضويته ثم بطرده شرّ طردة من المؤسسة التي كان يشغل فيها الدرجة 33، وهي الأعلى في الحياة الماسونيّة. أمّا ماتشادو، بالطبع، فلم يرفّ له طرف إزاء ما فعله إخوانه البائسون في العقيدة.

لكنّ هاجساً منقذاً، لم يدرك غوره ولم يجد له تفسيراً، جعله يغيّر رأيه ويوافق على استقبال أكينو في غرفة المكتبة. حين رآه داخلاً، أشفق على حال الشيخ العجوز الذي طالما ذكّره بأبيه. كان أكينو يجفف العرق المتصبب من وجهه، وهو يحمل سيجارة ضغط عليها بأصابعه ويتأبط ظرفاً أصفر وسخاً. أتراه يعرق من الخوف؟ سأل نفسه، لكنّه سرعان ما أدرك خطأه. أوضح له كريستوبال، من دون أن يلقي عليه بالسلام، أنّه حضر ليسلمه شيئاً قد يعود إليه، وأنّه يأمل أن يراعي قيمته التي يستحقها. ترك الظرف الأصفر، المربوط بشريط بنفسجي، على المكتب الخشبي.

- وما هو هذا الشيء النفيس الذي يعود إليّ؟ - سأل دون ريكاردو، بينما كان يقدم كرسيّاً للعجوز ليجلس عليه-. أتريد قدحاً من الماء؟ قهوة؟

وافق على العرض. ذكّره أكينو بأنّ ذلك الظرف الأصفر هو الظرف ذاته الذي سلّمه خوسيه دي خيسوس إلى المحفل قبل أحد عشر عاماً.

بدأ ريكاردو خونكو يقرأ القصّة التي تحتويها تلك الأوراق، والتي كان قد نسيها من وقت طويل، فصارت تتضح له الطريقة الدراميّة والمقلقة التي تربطها بالعائلة، بل به هو، وبدأ يفهم جديّة الموضوع. بدا له مستغرباً موقف أبيه، دون راميرو، الذي أصرّ على التنصّل من أيّة علاقة له بمصير المخطوطة، حتّى إنّه لم يشأ أن يقرأها.

- أنا الآن الشخص الوحيد، بالإضافة إليك، الذي يعرف بمكان هذه الأوراق- أضاف أكينو-. حتى ابني لا يعرف بمكانها. وأنا أيضاً الشخص الوحيد الحيّ الذي قرأها...

وكان أن ارتكب ريكاردو خونكو في تلك النقطة خطأ قد يكون مؤسفاً.

- لا أدري كم تطلب من المال مقابل هذه الأوراق، لكنّ الحقيقة...

- ويحكَ، ريكارديتو. لا أريد شيئاً. واضح أنّك لست كأبيكَ - قال له الرجل الماسوني. ما زال ريكاردو يحسّ بوخزة شريرة وهو يتذكر نظرة الاحتقار التي رمقه بها أكينو-. هذه الأوراق لا تقدر بثمن، لا يمكن بيعها ولا شراؤها. خوسيه دي خيسوس عانى سنوات من الفقر والعوز ولم يبعها، وأبوك لم يشأ أن يلمسها ولا أن يعرف عنها شيئاً، لكنّه منذ أن علم بوجودها وبأنّ خوسيه دي خيسوس لم يبعها، صار يعطيه مالاً كلّ شهر لكي لا يموت من الجوع. ثرنودا رفض إتلافها لأنّه كان يعلم أنّها بالغة الأهميّة... هذه الأوراق وثائق تعود إلى عائلتك، لكنّ لها علاقة بالبلد وبغير البلد... وفيها أشياء مقدسة، إن كنتَ لا تعلم بذلك.

- عذراً، فقد ظننتُ...- حاول دون ريكاردو أن يصلح ما بدا غير قابل للإصلاح.

- لقد أهنتني، وأظنّ أنّي ما كان عليّ أن آتيك بهذه الأوراق. أهمية ما مكتوب هنا تتجاوز أهمية مذكرات رجل من الرجال، وأنا أظنّ أنّ من الواجب نشرها، وإن أضرّ ذلك بتاريخ آل خونكو وبأشخاص آخرين. أمّا إذا وقعت في أيدي أصدقائك الشرطة فالربّ وحده يعلم ما الذي يمكن

أن يفعلوه بها... ومع أنّي أرى أنّك لص وسياسي تافه ما كان له أن يضع قدمه في أيّ محفل ماسوني، فأنا أظنّ أنّ تلك الأوراق تعود لك. افعل بها ما يبدو لك، لكنّك إن أتلفتَها ففكرْ أولاً في أبيك وفي أنّك تمحو ذكرى عائلتك. شكراً على القهوة.

يتذكّر دون ريكاردو خونكو أنّه رأى العجوز كريستوبال أكينو وهو يخرج، مستعرضاً كبرياءه، وقد نشر أخلاقياته الماسونيّة عالياً، وما كان للرضا الذي أحسّ به إذ علم بأنّ العجوز سقط بعد ذلك بساعتين على سريره، يتلوّى من نوبة قلبية ألمّت به وقتلته، أن يهدئ من حقده إلّا قليلاً.

في تلك الليلة لم تذق عينا دون ريكاردو النوم وهو يقرأ القصّة التي يروي هيريديا تفاصيلها في المخطوطة، وحين بزغ الفجر قررّ أن مصير تلك الأوراق لا يمكن أن يكون غير الحرق. لكنّ فكرة مخلّصة جعلته يؤجل تنفيذ قراره، فقد تذكّر أنّه الوحيد المطلع على ذلك السر، لكنّه عاش شهوراً طويلة وهو في شكّ من أنّ الغضب الذي قتل العجوز أكينو، قد يكون قاده إلى الكشف، قبل موته، لولده عن مكان المخطوطة. لذلك، وتحسباً لظروف قاهرة، استعدّ ليخبر الشاب أكينو بأنّ أباه لم يسلّمه تلك الأوراق، وبأنّه لا يذكر شيئاً البتّة عن وجودها.

ظلّت مذكرات خوسيه ماريا هيريديا حبيسة خزانة دون ريكاردو طوال ست سنوات. وكان كلّما فتح الكوّة غمرته الراحة وهو ينظر إلى الظرف الأصفر. لكنّ فرحة حصوله على الوثائق بتلك السهولة كانت تتلاشى وهو يرى، في داخل الخزانة نفسها، أمواله تتناقص بسرعة مذهلة ويتصوّر الحال وقد اختفى تلّ النقود لتظلّ الخزنة خالية إلّا من تلك الأوراق المشينة.

لقد جعله الخبر الذي بلغه مؤخراً من أنّ قريبه دومنغيتو بيليث دي لا ريبا عازم على الترشح لرئاسة الجمهورية في الانتخابات القادمة يرى في عملية فتح الخزنة سبباً مضافاً لسعادته. فلئن تناقصت أمواله، فإنّ من المؤكد أنّ ذلك الظرف الأصفر سيتكفّل بإصلاح اقتصاده وعلى أفضل

وجه حين يعرض على دومنغيتو بيع أوراق كتبها خوسيه ماريا هيريديا الشهير، والتي، وإن كشفت عن أنّ نصف آل خونكو هم أبناء سِفاح، فهي تروي حكايات غير لطيفة عن جدّه الثاني دومنغو دل مونته، عميد الأسرة الذي طالما افتخر به ذلك الأبله الذي يحلم بأن يكون رئيساً. قد يكون إقرار ريكارديتو خونكو بانتمائه إلى آل هيريديا، على أيّة حال، من دواعي الفخر، وخصوصاً الآن، حين يجري التحضير زمْراً وتطبيلاً للاحتفال بالذكرى المئوية لوفاته وتنشر أعمال شاعر نياغارا ويشاد بشخصيته بوصفه وطنيّاً ورجلاً مدنيّاً. لكنّ نشر تلك المذكرات بالنسبة إلى متطلع إلى رئاسة الجمهوريّة، ابن حفيد دل مونته وسليل ألفونسو وآلداما، تجار الرقيق الذين طالما عرقلوا استقلال الجزيرة، يمكن أن تكون ضربة قاتلة، لا يمكن إصلاحها، وسيستغلها خصومه السياسيون أبشع استغلال.

عبثت نسمة البحر بشعر دون ريكاردو وأعادته إلى الواقع. من على سطح منزله تأمّل ساعة البلديّة، كانت تشير إلى التاسعة وأربعين دقيقة. أمامه عشرون دقيقة ليكون في بيت ابن عمّه دومنغيتو، الدقيق في مواعيده، وما زال يجهل الرقم الدقيق الذي سيطلبه منه مقابل الأوراق. مليون؟ هل هو مبلغ كبير أم قليل؟ كم هي كلفة رئاسة الجمهورية؟ ما يمكن سرقته في عام واحد، وفي أربعة أعوام؟ مليونان؟ راح يحسب، وهو ينزل الدرج نحو مكتبة ذلك القصر الذي سيظلّ، بفضل الربّ والجد هيريديا، قصر آل خونكو إلى أبد الآبدين.

***

وأخيراً شعرتُ بأنّ بَركة مُحيط أنثوي، مؤاتٍ وعذب، تحلّ عليّ، شبيهة ببَركة (يمانجا)، معبودة بتينيا التي لا تُنسى. ما إن بدأتُ تلك الرحلة، التي لم أحلم بمثيلتها، حتّى أدركتُ أنّ إحدى عشرة سنة من البعد عن البحر المتقلّب وموسيقاه المهيبة، كثيرة على رجل ولد قريباً منه ونما يهدهده هدير أمواجه، وهو الذي طالما قطعه محمولاً برياح

القدر: لقد تضافرت إحدى عشرة سنة مع الكثير من الانتظار ليحققا معجزة أن يتذكّر قلبي أنّني كنتُ، في وقت من الأوقات، شاعراً نظم قصيدة «إلى المحيط»، بما تبقّى من جزيئات إحساسي المنهك.

بدت لي أيامُ تلك الرحلة البحرية الستّة، بين (بيرا كروث) وهافانا، دهراً، فقد كانت الأيام الستة كثيرة على لهفتي وشوقي، كما رحلة عوليس وهو يبحث عن قومه وقَدَره. لبثتُ طوال الوقت بلا نوم تقريباً، أحاول أن أستبق بذهني الأحداث والمشاعر، مدفوعاً بتفاؤل قاهر صبغ لي تلك العودة بالأزرق والوردي. وأخيراً، وفي منتصف نهار الرابع من تشرين الثاني، لمحنا حدودَ هافانا. لم تكن أشجار النخيل هي أوّل ما رأيت، بل كتل قلاعها الحجرية، رمز سلطان مصمم على الخلود، وعندها فقط تساءلتُ، وبعينين دامعتين، إن كنتُ أحسنتُ صنعاً حين رجوتُ حاكماً أجنبيّاً أن يسمح لي بزيارة بلدي.

ألقت السفينةُ مرساها في الخليج، في المكان ذاته الذي رسا فيه المركب الذي حمل باريلا من كوبا، ومن سطح السفينة أبصرتُ (ألاميدا دي باولا) القديمة، التي طالما تجولتُ فيها مع أصدقائي، وساحة السلاح، ومعهد سان كارلوس، وجادة (البرادو) الجديدة، وعلمتُ أنّي بلغتُ مكاني حين وصلتْ إلى أنفي، كما العناق اللذيذ، تلك الرائحة الهجينة للمدينة التي لم أتعرّف عليها إلّا في تلك اللحظة، بعد أن ميّزتُ فيها خصوصيتها المؤلمة الفريدة.

عند نزولي من سلّم الباخرة، حيث كان العسكريون يفتشون الجوازات، حدثتْ أولى مفاجآت رحلة العودة تلك: رجل ذو لحية دقيقة، أنيقٌ يرتدي بدلة بيضاء من ثلاث قطع، وسلسلة ذهبية تنتهي بساعة جيب، وحذاء من جلد لمّاع، كان ينظر إليّ عن بعد من خلال عدسات مطعمة بالذهب أيضاً. تقدم نحوي وقد ارتسمت على فمه ابتسامة أعرفها وهو يفتح ذراعيه ويقول:

- وأخيراً، خوسيه ماريا.

عندها فقط اكتشفتُ أنّ ذلك السيد الأنيق هو صديقي القديم دومنغو. ألقيتُ نفسي بين ذراعيه، وأنا أظنّ أنّني سأسقط مغشيّاً عليّ.

لم أستطع أن أقول شيئاً، لكنّي أمسكتُ به من ذراعيه وأبعدتُه محاولاً أن أطابق صورتَه الحاضرة مع تلك البعيدة لرجل لم أره منذ حزيران من عام 1823، أكثر من ثلاثة عشر عاماً، في بحر من الشكوك والمخاوف التي عشتها في تلك الأيام الصعبة. لكنّ دومنغو لم يكفّ عن التبسّم وكان ينظر إليّ برضا واضح صادر من قصير نظر أحسّ بالراحة.

- ها قد عدتَ - قال.

- يا للمفاجأة. لم أتوقع أن يأتي أحد...

- كان عليّ أن أراك قبل الآخرين، وأتأكد من أنّك لستَ بالسوء الذي تصفه في رسائلك. ما أكثر ما تبالغ!

في تلك اللحظة اقترب منّا ضابط يرتدي قبعة مثلثة وسأل إن كنتُ أنا خوسيه ماريا هيريديا وطلب منّي أن أرافقه لإتمام إجراءات دخولي إلى الجزيرة.

- لديَّ الكثير مما أريدُ أن أتحدث به معك. متى نلتقي؟

- أنتظرك في الخارج. هل تفهمني؟ سنذهب لتناول الطعام في بيتي. أريدُ أن تتعرّفَ على زوجتي روسيتا، وأن تطلعَ على مكتبتي، وأن تتحدثَ مع الكُتّاب المعجبين بك...

حرّكت تلك الدعوة غير المنتظرة نياط قلبي التي ظننتها تحجرتْ وشعرتُ بأمل غريب في إمكانيّة التحليق فوق الزمن وإصلاح آثاره.

- دومنغو، أريد أن تغفر لي إن كنتُ في مرّة من المرات...

- هيّا، خوسيه ماريا، أنا لا أدري عمّا تتكلم. أنتظرك في الخارج. هل تفهمني؟

سأل، وتعانقنا عناقاً آخر، قويّاً ووديّاً ومشحوناً بسنوات من الصداقة والجدال واللهو والحسد والقصائد وعلاقات الحب المتقاطعة: عناقاً حال دون أن أتخيّل أن تكون تلك المرة الأخيرة التي أرى فيها الصديق

الذي طالما غفرتُ له، والذي تلقيتُ منه أقسى خيبة وأبشع خيانة.

أبقوا عليّ ثلاث ساعات جالساً على مصطبة، وكانوا كلّما سألتُ قالوا لي إنّ أوراقي ستكون جاهزة. مارسَ أولئك العسكر معي، وهم عارفون بهويتي، أدقّ، بل أفظع سلطة منحتهم إياها الظروف، وأجبروني على الانتظار للوقت الذي أرادوا هم أن أنتظره قبل أن يرخصوا لي بالدخول إلى ما كان وطني. حين بدأتْ قواي تخور من الجوع، أدخلوني إلى مكتب طرح عليّ فيه ضابط ذو رتبة أعلى من سابقه ألف سؤال عن أسباب زيارتي، ونبّهني إلى مسألتين: إنّ رخصة دخولي قابلة للإلغاء، لذلك ففي مقدورهم أن يخرجوني من البلد في أيّة لحظة إن أنا شاركتُ في أيّ عمل غير مناسب، كما أنّني إن بقيتُ في الجزيرة، بعد انقضاء الشهرين، فسأحال إلى المحاكم الإسبانية. وسلّمني أوراقي البائسة من دون أن يتمنى لي حظّاً سعيداً.

لم تكن في انتظاري، لدى خروجي إلى الشارع، مظاهرُ فرح ولا ناسٌ ولا إطلاقات مدفعيّة. لم أحظَ بالاستقبال الذي حظي به العملاق خينير، الذي عاد إلى ملايينه، فما هيريديا إلّا قزم عاد مريضاً مهزوماً. ما أثار استغرابي أكثر أنّني لم أجد أثراً لدومنغو، على الرغم من أنّني بحثتُ عنه، حاملاً متاعي على ظهري، في بارات الميناء، فكأنّي حسبتُ أن ذلك السيّد الذي استقبلني عند سلّم الباخرة، وعطر اللافندر الفرنسي يضوع منه، ما زال يتردد على تلك المواخير القديمة العزيزة، حيث أنفق الكثير من الليالي وهو يلعب الورق ويشرب نبيذاً رخيصاً.

ولمّا كانت نيتي هي السفر إلى (ماتانثاس) صباح اليوم التالي، فقد قررتُ أن أستأجر غرفة في بنسيون قريب. هناك اغتسلتُ وتركتُ متاعي وأكلتُ صحناً من البامية باللحم والرز، أيقظ حُليمات ذاكرتي، الساعية إلى العثور على المتعة المختبئة في تلك الطعوم الفريدة. وخرجتُ إلى الشارع باحثاً عن صديقي. وعلى الرغم من كثرة عربات الأجرة في الشارع، فقد آثرتُ السير في تلك المدينة الرائعة، التي ازدادتْ فوضى

وصخباً، واتجهتُ إلى المنزل الكائن في شارع هافانا رقم 62، حيث كان يسكن دومنغو. وكما توقعتُ فقد كان البيت قصراً حقيقيّاً، تزيّن مدخله أعمدة رخاميّة، وبوابة للعربات ونوافذ زجاجيّة كبيرة، تحميها قضبان جميلة الزخرفة. ما إن طرقتُ الباب حتى فتح لي قهرمان أسود اللون يرتدي بدلة رسمية، سألني بلغة إسبانية فصيحة عمّا أريد. وحين أبلغته، قال لي إنّ السيد غير موجود. سألته إن كان يعرف أين أستطيع أن أجده، فردّ عليّ بالنفي. وسألته إن كان يعرف متى سيعود، فردّ عليّ بالنفي أيضاً. وطلبتُ منه أن يسألَ سيدة البيت، فردّ عليّ بأنّها في بيت والديها.

حين حلّ المساء، ورغبة منّي في تمضية الوقت، هِمتُ في المدينة، التي تغيّرتْ كثيراً. في السنوات الأخيرة، ووسط صراع خفيّ بين القوى، أنجز تاكون والمحافظ بيّانوبيا أعمالاً عديدة ظهرت نتائجها في الشوارع التي باتتْ مضاءة ومرصوفة بالحجر، وفي المباني والساحات التي زودتْ بنافورات جميلة منحت المدينة أناقة وتميّزاً، فبدا ازدهارها جليّاً واضحاً. اتجهتُ، وبي قلق، إلى خارج المدينة، فوجدتُ المكان الذي كان فيه بيت مدام آن- ماري وقد صار أرضاً كئيبة خربة، فقد بدئ بالعمل قريباً منها في جادة طويلة ستحمل اسم تاكون. همتُ على وجهي، وقد شعرتُ بالانهيار بعد أن لم أرَ أيّ أثر من المكان الذي طالما ترددتُ عليه تردد المؤمن على المعبد، فوجدتُ، بَعد عدد من المربعات السكنيّة، هيكل المسرح الجديد الذي كان الجنرال تاكون أمر بتشييده ليحمل، شأن الجادة، اسمه. لقد بدأت المدينة التي عرفتها وخبرتها تهرب من ذكرياتي القديمة، تسلبني الحنين وتنبهني إلى أنّني شبه غريب على أرض وطني. لكنّ رائحتها التي لا تموت هبّت لنجدتي، لتذكرني بأشياء فيها من الأصالة والحقيقة ما لا يستطيع سلطان الدكتاتورية أن يغيّره.

فوجئت، وأنا متعب من المشي ومن تراكم المشاعر، بطلقات المدفع تعلن الساعة التاسعة ليلاً، فأسرعتُ نحو بيت دومنغو، حيث سمعتُ من القهرمان الردود الغريبة والمحبطة نفسها. ذهبتُ إلى البنسيون وأنا لا أفهم

ما الذي جرى، ولم أستطع أن أصالح النوم إلَّا بعد لأي على الرغم من التعب الذي كنتُ أشعر به. في الصباح التالي، بعد أن تناولتُ قهوة مركّزة ردّتني إلى الحياة، عدتُ أدراجي إلى الرقم 62 من شارع هافانا، لكنّي لم أسمع أكثر ممّا سمعتُ في المرتين السابقتين. لذلك لم أستطع، وأنا في طريقي إلى (ماتانثاس)، مسافراً في عربة امتلأت بالركاب وبالروائح المقززة، أن أبعد عن تفكيري تلك الحالة الغريبة. أين عسى دومنغو أن يكون؟ لماذا لم يترك تبليغاً إن كان عازماً على دعوتي إلى بيته؟ هل يمكن أن يتحاشاني بعد أن كان الوحيد الذي خفّ لاستقبالي من بين جميع معارفي؟

أبهجني منظرُ أشجار النخيل في وادي (يوموري) وجمالُ مدخل (ماتانثاس) الذي لا نظير له، وانسقتُ إلى عالم الذكريات المطموسة والحب الضائع، عالم المبادئ المهزومة، فنسيتُ لبرهة ما جرى لي مع دومنغو وغرقتُ في فرحة لقائي بعائلتي. بكت أمّي، وهي القوية كالسنديانة، حين رأتْ رجلاً في الثانية والثلاثين، هزيلاً، خفيف الشعر، نتيفه، غائر العينين، أحاطت بهما هالتان سوداوان، وسألت عمّا فعلوه بعزيزها. قبّلتُها وطلبتُ منها مباركتها ورضاها. وبدت لي شقيقاتي (إغناثيا) و(دولورس) والصغيرة (كونجيتا)، اللاتي انضممن إلى جوقة البكاء والتقبيل والعناق، أشخاصاً جداً لم أتعرّف عليهم إلَّا الآن، وفتح خالي إغناثيو، الودود كعهده، وقد بدا عليه حزن لم يفلح في المداراة عليه، زجاجة من نبيذ قادش الأبيض[141] احتفاءً بمقدمي. أمضيتُ ساعات طويلة أحكي لهم عن ظروف حياتي وصروفها في السنوات الثلاث عشرة الأخيرة، بينما كانت أمّي، وهي تجلس إلى جانبي، لا تكفّ عن مداعبة يدي التي، كما قالت، كتبت أجمل القصائد في العالم... جاهدنا لمدّ جسور فوق المسافات والنسيان، لنستعيد بالكلمات، لا بالأفعال الجوفاء الخالية، حيوات مزقتها أحقاد السياسة.

خرجنا في ساعة متأخرة من الليل أنا وخالي إغناثيو للتجول في

141- نسبة إلى محافظة قادش Cádiz الإسبانية الأندلسيّة الشهيرة بأعنابها ونبيذها.

المدينة، التي تغيّرت ونمت. كان ثمّة ما يقلقني في حالة خالي، فعرضتُ عليه، بعد أن تجولنا برهة، أن نشرب شيئاً، فأخذني إلى حانة «الأسد الذهبي»، التي يتردد عليها الخواص والبوهيميون. تناولنا بعض النبيذ، وعرفتُ أخيراً ما تشوّقتُ إلى معرفته: لولا خونكو عادت إلى السكن في المدينة، مع زوجها فيليبيّو غوميث، ومع أنّي أوحيتُ إلى إغناثيو بأنّي لن أحرّك مياه الماضي العكرة، فقد حفظتُ في رأسي عنوان بيت لولا. في تلك اللحظة تجرأتُ على سؤاله عمّا به من همّ، فنظر الرجل الطيب، الذي أدين له بالكثير، إلى عيني، ولم يستطع أن يمسك نفسه عن البكاء. طلبتُ منه، وقد أصبتُ بالدهشة، أن يبيّن لي ما به، بعد أن ظننتُ أنّني مصدر حزنه، ففتح خالي الطيب قلبه.

– أنا بقايا حطام، يا ولدي – قال، وراح يحكي لي عن علاقة حبّ لا تخطر على بال، عمرها عشرون سنة تقريباً، مع رجل يدعى كارلوس مانويل ثرنودا، وهو تاجر من تجار المدينة، أغرم خالي به منذ أن عرفه. لم أصدّق ما سمعته منه عن علاقة جنسية خفية وعاصفة فسّرت لي ما كنتُ ألاحظه دائماً على خالي من غرابة في مسألة علاقاته العاطفيّة. لقد كان ثرنودا، ذو الزوجة والأولاد، هو حبّه الكبير منذ أن كانا في الجامعة، وقد خلّفته وفاة حبيبه مؤخراً في حال شبيهة بالترمّل. وعلى عكس ما ظننتُ، لم أشعر، وأنا أسمع ذلك الاعتراف الفظيع، بتقزز ولا باحتقار، بل لقد جعلتني قصّة ذلك الحبّ الشاذ أفهم سبب حزن خالي المسكين وأتصوّر ما عاناه وما زال يعانيه بسبب ميل يستهجنه الربّ والناس. مع ذلك فإنّ هذا الكائن المعذّب المتألم هو ذاته الرجل الطيب الوفي الذي وفّر المأوى لسنوات لأمّي وشقيقاتي وهو نفسه الذي مدّني بالمال وبروح التفهم في أوقات الشدة أثناء منفاي الأمريكي.

في صباح اليوم التالي قررتُ، وأنا أشعر بالقوة، ربّما بعد حديثي مع خالي، أنّي في حاجة إلى ترتيب لقاء مع لولا خونكو، وبأيّة طريقة. بدأتُ أنتهز كلّ خروج لي إلى الشارع لأمرّ من أمام منزلها، وأنا أحمل ورقة

كتبتها بخط يدي. ما كنتُ أطمعُ في أكثر من رؤيتها وهي تخرج من البيت أو في لقاء خادمتها وصديقتنا القديمة (تيتي)، التي كنتُ واثقاً من أنّها ما زالتْ في خدمتها. لكنّ أياماً كثيرة مرّت ولم يخرج من البيت الذي تسكنه المرأة التي هام بحبها أيّ شخص يعرفه.

استغربتُ أنّ أيّاً من الأصدقاء الكثيرين الذين أعرفهم في (ماتانثاس) لم يزرني في الأيام الأولى من إقامتي في المدينة. ربّما خشوا، كما قال إغناثيو، أن يراهم أحد معي وأنا الذي ما زلتُ في عرفهم من أعداء النظام، ولا أحد يريد أن يتقرب من محرّض ومتآمر مثلي في ظروف كالتي تعيشها كوبا، التي فيها من رجال الشرطة قدر ما فيها من الناس. لذلك بدا لي موقفُ دومنغو موقفاً شجاعاً حين ذهب إلى الميناء لاستقبالي، مع ذلك فقد ازداد استغرابي لغيابه من بعدُ وجهلي الطويل بأخباره.

لكنّ أشخاصاً كالسيد خوسيه أرانغو وابنته بيبيّا قدموا للترحيب بي ودعوتي إلى العشاء في بيتهم. مثل ذلك فعلتْ عائلة ألفونسو، أعمام المرحوم سلفستري، إذ أظهروا لي صداقة مطلقة وسلّموني، كما أوصاهم صديقي، رزمة الرسائل التي أرسلتها إليه طوال تلك السنين. زارني أيضاً أورلاندو إيرنانديث، ابن الدكتور إيرنانديث، وتحادثنا مطولاً عن أيام والده الطيب الأخيرة في السجن، وعن المصير المؤسف الذي آلت إليه أفكارنا وطموحاتنا المحطمة.

وزارني ذات صباح، نهاية تشرين الثاني تقريباً، وعلى غير انتظار، فليكس تانكو، تانكو الظريف، صديق الأيام الجميلة، الذي أصبح كاتباً وصحفيّاً معروفاً، يشغل منصب مدير بريد المدينة. استقبلته في صالة بيتنا وعانقته، ولم أرَ أنّ السنين غيرته إلّا قليلاً. اعتذر تاكو في الحال عن تأخره في زيارتي، فمنذ أن اصطدم بمسؤولي رقابة الحاكم العام، قبل سنتين، وهو يشعر بأنّ عملاء الحكومة السريين يراقبونه في كلّ خطوة من خطواته. لكنّ كلامه عن الاضطهاد والملاحقة بدا لي غير متجانس، فقد كنتُ أعلم أنّه، بعد اصطدامه برجال الرقابة، عاش حياة طبيعية واحتفظ

بعمله في الحكومة. لكنّ شيئاً ما كان يجعله غير مرتاح، فطلبتُ منه ألّا يبتئس، وقلتُ له إنّ في مقدوره الانصراف إن شعر بالخوف من وجوده معي. حينئذٍ أطلق ضحكته العصبيّة المعهودة، وطلب منّي أن أنسى كلّ ما قلنا وأن نتكلم بهدوء، وإن اكتفيت بالردّ على أسئلته حول رسالتي التي كتبتُها إلى تاكون أكثر مما تحادثتُ معه. وأخيراً حكى لي هو عن الجدل الذي أثاره موضوع زيارتي بين من كان مؤيداً ومن كان معارضاً لقراري.

- وهل كنتَ مؤيداً أم معارضاً؟ - سألته، وأنا أنظر إلى عينيه.

- لقد قلتُ دائماً إنّه قرار شخصي، ولكن... لا أدري، خوسيه ماريا. لا أدري إن كان ذلك أفضل للبلد أم أسوأ. بسبب ما تعنيه أنت.

- لم يهتمّ البلد قط إن كنتُ بحال سيئة أم بحال أسوأ، أنا لا أعني شيئاً: أنا مجرد خيال. ولئن بقيتُ حيّاً أسعى فلكي أعود إلى كوبا لرؤية أمي وشقيقاتي ورؤيتكم أنتم. وبفضل المساعدة التي قدمها لي خالي...

- لأجل الربّ، خوسيه ماريا - قال لي-. لا تقل ذلك. مصير البلد على كفّ عفريت. هل تفهمني؟

في تلك اللحظة، ومع ذلك السؤال الفارغ والمألوف على سمعي، شعرتُ بأنّ جداراً سميكاً، لم أشغل نفسي بهدّه ولا بتسلقه، ينهض بيني وبين ذلك الرجل الذي كان من قبلُ متفائلاً ولطيفاً. ولما رأيتُ أنّ الحديث يتجه نحو نهايته، طلبتُ منه أن يبلغ دومنغو، إن اتصل به، بأنّي ما زلتُ أنتظر أخباره، وإن كنتُ سأمرّ عليه في منزله، كما طلب هو منّي لدى وصولي، في سفرتي القريبة إلى هافانا.

بعد أيام قليلة، حين كنتُ عائداً من مهمة استطلاع فاشلة بالقرب من بيت لولا، وجدتُ الشاب الشاعر خوسيه أنطونيو إيتشيباريا، الذي وُصفَ بأنّه يمثل أملاً جديداً للشعر الغنائي الكوبي، في انتظاري. تصافحنا، وبينما كنّا نشرب قهوتنا التي جاءتنا بها إغناثيا، اعترف لي الشاب الشاعر بمدى إعجابه بي واستخفافه بالرأي الذي يشبّه قريحته البائسة بقريحتي. إنّه يزورني، قال، لأنّه غير معنيّ بما يقال في حلقات المثقفين عن رسالتي إلى تاكون وسفرتي

إلى كوبا. راقت لي تلك الصراحة ورحت أستعرض أمامه طوال ساعتين تقريباً سلسلة الحوادث والإحباطات التي حملتني على كتابة الرسالة التي أثارت كلّ ذلك اللغط، وأظنّ أنّني لمحتُ في عينيه بريق التفهّم. وحين كنتُ أهمّ بتوديعه قال لي شيئاً وجدته على قدر خاص من الخطورة:

- هيريديا، أنتَ كنزٌ لكوبا، لكنّ حياتك هي حياتك وحدك، وقد عانيتَ ما يكفي. لا تسمح لهم بإيذائك أكثر مما آذوك.

بتلك الكلمات التي ترددتْ في مسامعي، قررتُ أن أدعَ جانباً كلّ تردد وأن أكتب إلى دومنغو، الذي سأجد عنده بلا شكّ جميع الأجوبة التي أحتاج إلى معرفتها. وصفته في رسالتي بـ«الصديق الحبيب» وسألته عمّا حدث بعد وصولي، وكررتُ عليه، لا متمنياً، بل مطالباً برؤيته والحديث مطولاً معه. طلبتُ منه أن يتكرم ويردّ على رسالتي وأشرتُ إشارة موجزة إلى زيارات تانكو وإيتشيباريا.

أمّا الضياء الذي أعمى بصري وهتك حجب الشك عن بصيرتي فقد جاءني في الليلة التالية. كنّا قد أطفأنا قناديل المنزل حين سمعنا طرقاً عصبياً على الباب. حين فتحنا دخل بلاس دي أوسيس، الذي بادر إلى معانقتي والاعتذار منّي. طلب أن أتفهم تأخره، وقال لي بكلمات متعثرة، وهو يحاول أن يشرح لي أنّ شيئاً قريباً من الأمر، وما هو بالأمر، قد صدر، شيئاً لم يُعلن، لكنّه بات معروفاً للجميع: هناك توجيه إلى الأصدقاء بعدم الاتصال بي، بتجنبي وعدم الاستماع إلى مقولاتي. أخذتُ أوسيس إلى غرفتي، وأنا مذهول من تلك المعلومة، وأغلقتُ الباب لأتحادث معه بالسريّة التي يتطلبها الخبر الذي جاء به.

- إنّهم يعدونك خائناً لأنّك كتبتَ إلى تاكون، لأنّك عدتَ... يقولون إنّك اخترتَ أسوأ وقت للعودة.

- ومن ذا الذي يقول هذا؟ - صرختُ به، وأنا لا أصدق ما أسمع، بل وأنا في شكّ من أن تكون واحدة من القطع التي تتشكّل منها تلك اللعبة الخطيرة.

- الجميع. (تانكو) و(بالما) و(ثينترا)...

- لكنّ تانكو جاء لزيارتي.

- انظر ما كتب لدومنغو - قال وأخرج ورقة من جيب سترته-: «رأيت خوسيه ماريا هيريديا وعانقته. كنتُ أعانقه وأنا أشعر بالخجل، والغضب والحزن. رأيتُ فيه هارباً، مارقاً ساقطاً، مهاناً، من دون شعر، من دون سحر، من دون فضيلة...».

جعّد أوسيس الورقة ونظر إليّ.

- عمل تانكو عدة نسخ من هذه الرسالة... هذا كثير. لذلك جئت إليك.

عكّر خليط من الغضب والحزن ذهني ولم يخرج من ضميري المضطرب إلّا سؤال واحد:

- ودومنغو؟

- تانكو بائس تعيس - قال أوسيس، وتوقف-. لقد جاء ليراك وليبلّغ دومنغو بما كان هذا يريد أن يسمعه.

غمرني في تلك اللحظة الإحساس المعروف بأنّ الأرض تنشق من تحت أقدامنا أو أنّ السماء تنطبق على الأرض لتسحقنا بلا شفقة ولا رحمة.

- أظنّ أنّني بدأتُ أفهم، لكن هناك أشياء تغرب عن فهمي وعليك أن تخبرني بها؟ فما الذي يقف وراء كلّ هذا؟ لماذا يتعمدون إلحاق الأذى بي؟

طلب أوسيس زجاجة نبيذ. تكلمنا طوال الفجر والكؤوس في أيدينا، وأحاطني علماً بالمؤامرة الرهيبة التي بتُّ أكوّن جزءاً منها، وأنا جاهل بها غافل عنها.

فهناك من رأى في عودتي إلى كوبا، في ذلك الوقت بالذات، دعماً لتاكون، الذي عزم، ضمن خططه في الحكم، لا على الإطاحة بأيّ فكر تآمريّ، هذا إذا بقي هناك فكر تآمري، فحسب، بل على إضعاف

القوة السياسية والاقتصادية لأثرياء كوبا، الذين طالما سيّروا حكّام كوبا على هواهم. في تلك الأيام، ظهرت نيّة لإزاحة تاكون، وقد وظّف آل ألفونسو وآل آلداما وآل مادام لأجلها أموالاً طائلة لشراء النفوذ في العاصمة. ويبدو أن خطّة الحاكم العام تاكون كانت من الإحكام ما جعل من الضروري التعجيل في إزاحته: فقد تحالف مع التجار الإسبان وتجار الرقيق في كاتالونيا وقادش وأغرق الجزيرة بالعبيد، على الرغم من إرادة أثرياء كوبا، الذين كانوا يعتزمون إيقاف تدفق السود الذي يعيق أيّة محاولة للاستقلال ويربطهم إلى اقتصاد تتناقص فوائده يوماً بعد يوم.

وهكذا اعتزم الأثرياء فتح جميع الجبهات، لكنّهم علّقوا آمالهم على البرلمان الجديد وعلى المطالبة بقوانين جديدة للجزيرة، بعد أن تمكنوا من حشر رجالهم في مقعدين من المقاعد الثلاثة المخصصة للنواب: واحد لساكو وآخر للأعمى اسكوبيدو، الذي اختير بدلاً من دومنغو، ورقة الأغنياء الحقيقية، الذي فضّل من جديد أن يبقى في الظل ويعمل من خلف الكواليس... ولم يكن العقل الذي يحرّك كلّ الخيوط غير دومنغو الكبير، همس أوسيس: رؤساؤه وأقاربه يضعون المال، بينما يساهم هو بالذكاء والعلاقات من أجل معركة أساسها التمويه وبُعد النظر.

- ولماذا ذهب إلى الميناء لاستقبالي؟ - سألتُ، وأنا أخمّن تقريباً الجواب القاسي الذي ردّ عليّ به بلاس دي أوسيس.

- كان يريد أن يرى صورة الهزيمة فيك. وبّخوه وعنّفوه وانتقدوه، لكنّه لم يستطع تجنب ذلك. المعركة معك شيء آخر: إنّها حربه الشخصيّة، وكان يريد أن يرى الخاسر فيها. فلئن لم يستطع أن يغلبكَ في الشعر فعلى الأقل كان يريد أن يرى كيف غلبك في الحياة...

- لا أستطيع أن أصدقك. ما تقوله جنون...

- وأقول لك ما هو أكثر. لم يكن تاكون هو من أذاع رسالتك: كان دومنغو... فهو مستعد، من أجل إذلالك، أن يفعل أيّ شيء، وما يخطط له الآن فيه من الغدر والخطورة ما لا تستطيع تصوّره. هو يريد

أن يحجّمك في ميدان الشعر، لأنّ في نيته اختراع أدب كوبي لا وجود لك فيه.

- ما الذي تقوله؟ - سألتُ، وقد غمرني الذهول والحيرة.

- ما سمعت. إن لمع نجمك وحدك فليس في مقدور أحد أن يكسف نورك. لكن إن أحاطت بك الغيوم فلن تكون مشرقاً كالشمس. لقد خطط دومنغو لكلّ شيء بطريقة مخيفة وسيحقق ما أراد بمعونة أموال والد زوجته.

- لا أفهم شيئاً...

- إنّه الآن يستخدم الدردشات التي يعقدها في بيته لإطلاق مشروعه. جعل الجميع يكتبون، ووزع عليهم الأدوار. بعضهم سينتشلون هنود كوبا من النسيان لخلق تاريخ سابق لوجود الإسبان؛ بينما سيكتب آخرون عن المزارعين ليخلقوا تراثاً؛ وسيكتب آخرون عن فظائع العبودية لخلق مشاعر معادية للرق؛ آخرون سيكتبون عن العادات والتقاليد في هافانا لخلق روح تناسب المدينة؛ آخرون سيكتبون عن التاريخ للبرهنة على أنّنا نختلف عن إسبانيا... وحين يكون كلّ ذلك موجوداً ففي الإمكان اختراع صورة بلد، بل سيكون ممكناً الاستغناء عن شعرك... لكن ليس هذا هو الأسوأ. الأسوأ هو أنّهم سينشئون ذلك البلد على قاعدة من الكذب.

حينئذٍ قصّ عليّ أوسيس ما هو أشدّ فظاعة من كلّ ما سمعتُ في حياتي المضطربة. قبل خمس سنوات، قال لي، وجدوا في مكتبة الجمعية الوطنية تاريخاً عن هافانا كتبه شخص يقال له فليكس دي أراتي[142] في القرن الثامن. وما أسرع ما انتشر الكتاب واستغلّ دومنغو وبطانته ذلك للكلام عن اكتشاف آخر كبير: قالوا إنّ قصيدة ملحمية تعود إلى القرن السابع عشر قد اكتشفت حديثاً، وكانت مرفقة بكتاب آخر ألّفه الأسقف موريل دي سانتا كروث[143] قبل ما يقرب من مئة عام، وجدوه أيضاً بالصدفة بين أوراق الجمعيّة.

142- Félix de Arrate (1701-1765). سياسي كوبي. يعدّ أول مؤرخي كوبا.

143- Morell de Santa Cruz (1694-1768). رجل دين من سلك الدومنيكان.

- عن أيّة قصيدة ملحمية تتحدث؟

- عن عملية تزييف، خوسيه ماريا. كتاب الراهب موجود، إنّه شيء من قبيل تاريخ كوبا، لكنّه لم يفعل شيئاً غير أنّه نسخ عدة أبيات ثُمانية المقاطع أنشدها أحدهم من قصيدة تنسب إلى شخص يدعى سلفستري وهو من بالبوا [79]، حيث وجدت فدية الأسقف الذي اختطفه قراصنة فرنسيون. كانت أبياتاً قليلة، لكنّ دومنغو وإيتشيباريا يكتبون القصيدة كاملة، سيزعمون أنّها وثيقة تعود إلى العام 1600.

- لكنّ هذه سخافات!

- ليس تماماً. فإن هُضمت الكذبة فبها، وإلّا، فسيظلّ كلّ شيء مزحة أدبيّة، كمزحة «قصائد الحب» التي نظمها دومنغو ووقع عليها باسم سانجيث دي المدوّر. لكن ماذا إذا فعلتْ فعلها؟ سيكون لدينا عندها تراث خاص بنا، مسيحيّ، يشتمل على ملاحم يكون فيها بطل الحرب على القراصنة رجلاً أسود يكافأ على بطولته بالعتق والحريّة.

غمرني في تلك اللحظة حزن لم أعرف له مثيلاً في حياتي، ليس بسبب ما يظنون فيّ، ولا بسبب ما يتقولون عنّي، بل بسبب المستقبل الذي ينتظر البلد الذي تعذبتُ من أجله سنوات طويلة، البلد الذي يولد على بساط قوامه كذب وتلفيق دفع ثمنه تجار رقيق قدماء وشويعرٌ وصولي، تمكّن من بلوغ مراده من الدنيا بفضل مصاهرة محظوظة.

دخلت عدة زجاجات من النبيذ غرفتي طوال الليل، وفقدتُ من جرّائها صحوتي وصفاء ذهني. لا أذكر، وقد سكرتُ، كيف ولا متى انصرف بلاس دي أوسيس، لكنّي أذكر حالة الضيق الشديد التي كنتُ أشعر بها حين استيقظتُ، وقد تجاوز الوقت منتصف النهار، وحالة من تعبٍ عزوته إلى إسرافي في الشراب. رأيتُ وأنا ضجر من كلّ شيء أنّ عودتي إلى كوبا، التي دفعتُ من أجل تحقيقها ثمناً غالياً، لم تكن إلّا خطأً كبيراً، وبدأتُ أتمنى العودة إلى المكسيك، إلى فوضى المكسيك، إلى اضطراب الأمر فيها، إلى فقري، لأبتعد عن أجواء ما انفكت تسبب لي غثياناً.

ظللتُ معتكفاً في بيتي أكثر من أسبوع وأنا أخشى أن تفاجئني نوبة من نوبات مرضي، حين وصلتني رسالة من دومنغو أظهرت لي أنّ كلّ القصّة الغريبة التي قصّها عليّ أوسيس كانت حقيقية كما هو حقيقي شروق الشمس كلّ يوم. يخاطبني دومنغو في الرسالة، المؤرخة في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني، في هافانا، بـ «عزيزي خوسيه ماريا» ويخبرني بأنّه سيكون قريباً في (ماتانثاس)، لكنّه، قال، لن يجد الوقت الكافي للقائي، فعلى الرغم من أنّ قصره لا يبعد عن بيتي غير ثلاثة مربعات سكنية، فإنّ زوجته وأمّها تنتظرانه لتمضيا وقتاً في إحدى مزارع العائلة. قال لي أيضاً إنّ الوقت ليس هو الأنسب لنشر قصائدي في إسبانيا، وهو بهذا يتخلّى عن سعيه في طبعها الذي كان وافق عليه. وأضاف، من دون أن يشرح لي شيئاً عمّا جرى يوم وصولي: «ليس تحمسي للحديث معك بأقلّ من تحمسك، فهناك الكثير ممّا يمكن الحديث عنه، ولو اقتصر الحديث عن موضوع زيارتك المنحوسة لهذه الجزيرة، تحت الرعاية المشؤومة التي التمستها»، ثمّ ودّعني بسكين غرسها في قلبي: «أيّها الملاك الساقط: من صديقك الدائم، الذي يحبك دائماً بإحسان ومودة لا نظير لهما، دومنغو»... أشهد أنّني بكيتُ كالطفل وأنا أقرأ تلك الرسالة. لم تكن الشتيمة الرحيمة في تسميتي بـ «الملاك الساقط»، ولا الشفقة التي انقلبت إليها محبته، كافيين لكي يكون شعوري بالألم أدنى من شعوري بالكراهية. ولا نبرة الانتصار أو الغرور وهو يحدثني عن الإجازة التي يمضيها الغني المُنعّم في الريف. لماذا وضعتْ تلك الرسالة خاتمة صداقة مضطربة، جاهد هو في أوقات أخرى من أجلها، وحاولتُ أنا في أوقات أخرى أن أنقذها بالعفو والصفح، لكنّها الآن، وقد لفتها دسيسة أكبر، تقدم قرباناً من طرف الثري دومنغو، دكتاتور المصائر ومصمّمها، إلى إله مصالح سياسية دنيئة ومتخفية وراء أرقام متبوعة بستة أصفار أو سبعة. هل من كتب تلك الرسالة هو دومنغو ذاته الذي كان يخفي دائماً دور البطل وراء أسماء أخرى؟ هل هو نفسه الذي كان يضع ماله وملابسه وحتى حياته على طاولة قمار أو حلبة ديكة أو

دست زهر؟ هل هو نفسه الذي كان يردد عبارات باريلا وينسبها لنفسه؟ هل هو نفسه الذي كان يؤسس لأدب على أساس خدعة عظيمة ويفسد نبوغ المحيطين به؟ هل هو نفسه الذي لاحق نسائي، مثل كلب بائس؟ هل هو نفسه الذي نشر للتوّ مقالاً حمل فيه على حكومة تاكون ولكن من دون توقيع أيضاً؟ هل هو نفسه الذي لم يعرف نفياً ولا سجناً ولا ملاحقة، لأنّه لم يتجرأ يوماً على مواجهة أيّ شيء ينطوي على خطورة؟ هل هو نفسه الذي وصف، في حفل تكريم موجّه إلى ملكة إسبانيا، فكرة الاستقلال بـ «المسخ المخيف»؟ هل هو أم ليس هو دومنغو نفسه الذي قدّمني على نفسه قبل عشرين عاماً وتنازل لي عن فراش عاهرة لأنّه لم يجرؤ على أن يكون الأول حتى في الحبّ؟ هل هو نفسه الذي فقد في يوم ما سيطرته على مشاعره واندفع ليقبلني في شفتي؟ ملاك ساقط: هكذا يدعوني ذلك الساكن المخلّد في جحيم الخوف والدسيسة والبينَ بين. جففتُ دموعي، فليس في وسعي ما هو أكثر: هل كان خطئي كبيراً إلى هذا الحدّ؟ ما عاد ذلك مهمّاً، لأنّ حججي لن تجد آذاناً صاغية، ولأنّ صوت دومنغو سيكون هو صوت سادة التاريخ، ولأنّ حكمَ إدانتي صدر. ستمرّ سنون كثيرة لكي تعود الحقائق لتصبح حقائق (هذا إذا كانت المعجزة ممكنة) ولكي تحلّ عدالة التاريخ على رؤوسنا المسكينة. أمّا الآن فحسبي تلك العدالة وحسبي عدالة الربّ وحسبي ثقتي بأنّ ذكرايَ ستجد من ينصفها ذات يوم.

***

- هل سنذهب حقّاً بعد ذلك إلى (بارادیرو)؟ - سأل آلبارو، بنبرة توسّل، وهو يسند يده على كتف فرناندو.

- اسمع، يا صاحبي، قلتُ لك إنّنا سنذهب. ما قصتك مع (بارادیرو)؟

- ما من قصّة - قال الآخر -. كلّ ما أريده هو أن أرى صدوراً ونهوداً.

- هذا ما خمنتُه - قالتْ دلفينا والتفتتْ لتنظر إلى آلبارو، الذي تناول جرعة من زجاجة الرون.

- اسكتْ قليلاً، بارو - احتجّ ميغيل أنخل واستدار طلباً لنوم لا يجده-. كلما شاخ زاد هراؤه...

اعتذر أركاديو عن المشاركة في الرِحلة، لكنّه ترك لهم سيارته، وأعطاهم كونرادو بطاقة يستطيعون بها أن يحصلوا على كلّ البنزين الذي يبتلعه محرّك اللادا[144] من دون أن يدفعوا سنتاً.

قرّر فرناندو في الليلة السابقة، وبعد أن حكى لأصدقائه تفاصيل الحديث الذي دار بينه وبين الدكتورة سانتوري، أنّ سلفادور أكينو ما زال هو الطريق الوحيد الممكن، على افتراض أنّ العجوز كذب عليهم أو أخفى جزءاً من الحقيقة. لذلك توقف فرناندو عند أحد المحلات الكبيرة قبل الخروج من هافانا واشترى دجاجتين ليهديهما إلى العجوز ويطرّي بهما قلبه عند وصولهم إلى (كولون).

شعر فرناندو تيري، وهو يقود السيّارة في الطريق المقفر، وبجانبه دلفينا واثنان من «الساخرين» في المقعد الخلفي، أنّ رغبته في الرحيل تتناقص، وتمثّلتْ له عودته إلى منفاه جرحاً جديداً مؤلماً، بعد ما رأى من إمكانية استعادة ماضيه، وما لمس من دليل واضح على أنّ أيّاً من أصدقائه القدامى لم يخنه، وبعد لقائه مع أمّه وبيته وأقدم ذكرياته، وتجدد رغبات جسده وروحه مع دلفينا. مع ذلك فقد بدت له إمكانية عودته، المشروطة بالكثير من المراسلات والإجراءات التي قد تنتهي بالرفض، من التعقيد أنّه لم يحاول حتّى التفكير فيها. ثمّ إن هو عاد، فمن أين سيعيش؟ هل سيتحمل أن يكون على رأسه مسؤول مثل مدير (تابا كوبا) القديم الذي يعرفه؟ هل سيعتاد من جديد على ضنك العيش في البلد، على الطواف في المدينة على ظهر دراجة هوائية، على التحايل للحصول على الحليب والقهوة واللحم حين تنفد منه دولاراته التي جلبها؟ هل سيحظى بثقة إحدى المؤسسات الرسمية؟ إنّ الأسوار التي قامت بين ذلك الحلم وتحقيقه كانت مرصوصة كالانقباض الذي

144- سيارة Lada سوفييتيّة الصنع.

تحدثه في نفسه فكرة العودة إلى الوحدة وإلى الصمت، اللذين باتا أكثر ألماً بعد أن استيقظ في داخله سلوك وعادات قديمة. لم يخفّ لنجدته غير أمله في رحلات دوريّة يقوم بها كلّما سمحت له موارده، وفي أن تسافر دلفينا معه حين تتخطّى تلك المرأة تعقيدات حياتها، وفي أن يتمكن من فتح كتبه المهجورة من جديد ويسمع أسطواناته من دون أن يشلّه الهمّ ويقيّده الحزن.

حملت رتابة الطريق النوم إلى عيني ميغيل أنخل وأصابت آلبارو بالضجر. وراحت دلفينا تنظر من وراء زجاج السيارة إلى أشجار البرتقال التي كانت تتتابع قاب قوسين منها. غمر فرناندو إحساسٌ بالأمان وفكّر في أنّه سيعود مراراً ليمكث في النهاية ويستقر، لأنّه في الواقع- وهو الآن متأكد- لم يرحل قط.

حين اجتازوا الإشارة التي تدل على وصولهم إلى (كولون)، كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً، فقرر فرناندو الاتجاه مباشرة إلى منزل سلفادور أكينو، من دون المرور بحفيده روبرتو.

وكما توقع، فقد كان العجوز جالساً على كرسيه عند باب الدار. راح، وقبعته على رأسه كالعادة، يحرك مروحته اليدوية أمام وجهه، بينما يزن بقدميه حركة كرسيه. كم من السنين مرّت وهو في جلسته تلك، على حاله تلك، بانتظار أن يأكل آخر صحن من الرز والدجاج؟ جذب وصولُ السيارة انتباهه وحاول بعينيه شبه المغلقتين أن ينظر إلى القادمين.

- صباح الخير، أكينو، هل تتذكرنا. - سأل آلبارو، وابتسم العجوز.

- نعم، نعم...، لكن، من هو ذاك الأسمر؟، ومن هي تلك السيدة؟ - سأل، وهو يؤشر بمروحته على ميغيل أنخل ودلفينا.

- أصدقاء - قال فرناندو، وهو يحاول التقدم على آلبارو، بعد أن لاحظ في عينيه أنّه موشك على الإلقاء بواحدة من «قنابله»-. جئنا إلى (ماتانثاس) وأردنا أن نزوركَ. انظرْ ماذا جلبتُ لك- وقدم له الكيس الذي يحتوي على الدجاجتين.

- ويحك! ما أجمل هذا. لوكريثيا! - صاح منادياً نحو داخل البيت.

حيّتهم لوكريثيا بحرارة وحملت الدجاجتين وساعدتهم في إخراج أربعة كراسي إلى الباب، بعد أن أبلغتهم أنّ ابنها موجود في اجتماع في هافانا.

- ماذا، هل وجدتم شيئاً؟ - سأل العجوز، بعد أن شرب القهوة التي جاءتهم بها كنتُه وأشعل واحداً من سجائره القويّة.

- نعم، و لا - بدأ فرناندو-. لم نجد الأوراق، لكنّنا حصلنا على معلومات مهمة - وحكى للعجوز عن الأسماء التي عثر عليها في جلسة المحفل، وعن شكوك كارمن خونكو حول مصدر ثروة عمها ريكاردو، وعن الحقيقة التي تترسخ شيئاً فشيئاً من أنّ الوثائق تروي قصّة لا ترضي بعض الأشخاص.

- هذا طبيعي، نعم - قال العجوز، وهو ينظر إلى دلفينا. وبدا أنّه كان مهتمّاً بما ظهر من صدر المرأة أكثر من اهتمامه بما قال فرناندو.

- يزداد يقيني يوماً بعد يوم في أنّ أحداً ما أخرج الأوراق من المحفل.

- صحيح، هذا هو ما يبدو - همهم أكينو، وكأنّ ما سمعه لم يكن يعنيه كثيراً.

نظر ميغيل أنخل إلى فرناندو، بينما كان آلبارو يتحرك قلقاً. وبدتْ دلفينا أيضاً غائبة عن موضوع يزداد تعقيداً، وكان خطأ فرناندو في أنّه علّق أمله على توضيح يصدر من العجوز يزداد وضوحاً.

- جدّي - قالت دلفينا، وقد انحنتْ وأضافتْ موسيقى إلى حلاوة صوتها- هل صحيح أنّ حضرتك لا تعلم بما هو أكثر؟

نظر أكينو إلى المرأة باطمئنان أكبر وابتسم ابتسامة خفيفة.

- لماذا تطرحين عليّ هذا السؤال؟

حرّكت دلفينا شعرها حتى لامس وجه العجوز.

- آه. أسألك لأنّنا نعتقد أنّك تعرف... انظر، أنا أرى أنّ تلك الأوراق ما عادت موجودة، لكنّ فرناندو لن يرحل مطمئنّاً راضياً إلّا إذا تأكد من

أنّ أحداً أخرجها من المحفل، وعرف سبب إخراجها من هناك... ففي مقدور هيريديا أن يقول أشياء لا يتصوّرها أيّ منّا، هل تفهمني؟

- بالطبع، وأفهم أيضاً أنّ حضرتكِ تريدين الإيقاع بي.

- فإذن؟ - ألحتْ دلفينا مبتسمة.

دخّن سلفادور أكينو نفساً من سيجاره وغطّتْ سحابة من الدخان وجهه. سكنت المروحة والكرسي، بينما دعك رقبته بيده.

- ليلة أخرجنا الوثائق من المحفل، عمل أبي نسخة من محضر الجلسة التي سلّم فيها خوسيه دي خيسوس الأوراق - قال، من دون تنفس تقريباً-. وتلك هي النسخة التي ظهرت في الأرشيف الوطني. هو لم يكن يعرف ما الذي يمكن أن يحدث حين تدخل الشرطة في المحفل ولا إن كانت الأوراق التي كنّا نهمّ بحملها إلى المكتبة ستكون في مأمن... هو كان يريد أن يصبح معلوماً أنّ خوسيه دي خيسوس سلّم أوراق أبيه تلك.

- لذلك استغرب مندوثا أن يوجد محضرٌ خارج السجل وألّا يكونا متطابقين - قال فرناندو.

- ولماذا أراد أبوك أن يكون التسليم معلوماً...؟ - سأل ميغيل أنخل.

- لأنّه كان يعرف أنّ تلك الأوراق مهمة ولأنّه كان يهمّ بإخراجها من المحفل.

- وهل حملها أبوك؟ - اندفع فرناندو متحمساً.

- أخرجها من المحفل، هذا هو ما قلته. لكنّي لا أعلم إلى أين. لأنّ أبي توفي ذلك الفجر.

- ألم يأخذها إلى بيته؟ - سألت دلفينا.

- لا. أمّي لم ترها قط. ثمّ إنّ بيتنا لم يكن في ذلك الاتجاه.

- في أيّ اتجاه، أكينو؟

- بينما كنتُ أخرجُ واحداً من الصناديق رأيتُ أبي يجتاز ساحة السلاح. نزل من شارع (ميلانيس)، نحو (بيخيّا)، ونحن كنّا نسكن في الاتجاه المعاكس.

- وما معنى هذا؟ - شعر فرناندو وكأنّ يديه تخدران ونبضات قلبه تتسارع وهو يحاول أن يتخيّل الطريقة التي خرجت بها أوراق هيريديا من المحفل تحت إبط كريستوبال أكينو.

- هو حملها إلى مكان ما. لكنّي لا أعلم إلى أين.

- هل أنت متأكد من أنّه لم يخبئها في المكتبة؟

- متأكد قدر ما أنا متأكد من أنّني عبأتُ وأغلقتُ وحملتُ الصناديق العشرة التي أدخلناها في المكتبة.

- ولم يعطكَ أيّة علامة؟

- قال لي إنّه ذاهب في أمرين مهمين، لا أكثر. هو أخرج الأوراق من «غرفة الخبراء السريّة» وحملها معه. كان ظرفاً أصفر، بهذا الحجم، مربوطاً بشريط بنفسجي فاتح...

- وتقول إنّه توفي في تلك الليلة؟

- نعم، المرة الأخيرة التي رأيته فيها حيّاً كانت وهو يجتاز الساحة وينزل عبر شارع (ميلانيس)...

أحسّ فرناندو برجفة سرت في بدنه كلّه.

- أكينو، ريكاردو خونكو كان يسكن في قصر خونكو، في ساحة (بيخيّا)، تمام؟

- نعم، هذا ما فكرتُ فيه مرات كثيرة.

- وكان من رجال ماتشادو الموثوقين، تمام؟

- فكرتُ في هذا أيضاً.

- وكان بعدُ ماسونيّاً؟

- كان نائماً، كما نقول... لكنّه كان ما يزال ماسونيّاً.

- هل تعتقد أنّ أباك يمكن أن يكون سلمه الأوراق؟ بسبب قصة هيريديا مع لولا خونكو...؟

- طالما فكّرتُ، ولا أدري لماذا، في أنّه سلمه إياها لأنّه كان ابن

راميرو خونكو. وكان من كثرة ما فكرتُ في هذه المسألة أنّني سألته شخصيّاً، لكنّ ريكارديتو نفى ذلك... ولم أصدقه.

- لماذا لم تصدقه؟ - نهض آلبارو وبدا عليه اليأس.

- بالحدس. لأني لا أثق به. لأنّ ريكارديتو كان ابن قحبة موقّر.

- من الغريب أن يسلّم أبوك أوراق هيريديا إلى ريكاردو خونكو، بالذات، وهو الذي يعرفه حق المعرفة...

- فكرتُ في هذا أيضاً، ولهذا لم أكن متأكداً قط من ذلك. لكن، إن كان سلّمه إياها، فلا بدّ أنّ هناك ما دفعه إلى ذلك. ربّما تنفيذاً لوعد قطعه لراميرو خونكو أو شيء من هذا القبيل... راميرو وأبي كانا صديقين حميمين.

أشعل فرناندو سيجارة وبينما غطاه الدخان أحسّ بأنّ جميع الطرق التي سلكوها لا تقود إلَّا إلى العدم. ألن يكشف النقاب، إذن، عن تفاصيل ما تحكيه تلك الأوراق الضائعة؟ ألن تُعرف حقائق هيريديا؟

- أكينو، ولماذا لم تحكِ لنا في المرة الأخيرة هذه التفاصيل؟

ابتسم العجوز وعاود تحريك مروحته اليدوية وهزّ كرسيه.

- لأنّي لم أكن أمتلك الإذن بذلك. حضراتكم وصلتم بسرعة...

- إذن مِن مَن؟

- من حفيدي روبرتو... فلئن عثر أحد على أوراق هيريديا المفقودة، فلا بدّ أن يكون هو، أليس كذلك؟

- ولماذا أعطاك الإذن الآن؟

- لأنّنا الآن مقتنعان بأنّ من حاز تلك الوثائق أضرم فيها النار أو ألقى بها إلى البحر.

***

عادَ الشعور المقيت بأنّي أجنبيّ غريب، وهو شعور طالما نغّص عليّ حياتي، يشتدّ منذ ذلك الحين. تلك الجزيرة الكاريبيّة الصغيرة البائسة

هي الوحيدة التي منحتني الإحساس بأني في منجاة من فقدان دفاعاتي، ومن ذلك الفراغ المزعج الذي لاحقني في أمكنة أخرى من العالم منذ أن كنتُ طفلاً. أمّا كوبا فلا: فكوبا تنتمي إليّ، كوبا هي مكاني الطبيعي، ليس لأني قدّر لي أن أولد في سانتياغو الدافئة، بين البحر والجبال، بل لأنّني لم أشعر بالضوء والهواء والناس والجذور والطعام والطبيعة والآمال والروائح تكلمني إلّا فيها. نعم تكلّمني بلغة هي لغتي التي أفهمها حتى في ساعات الصمت. لذلك فهي وطني، ولأنّ هذا هو ما قررته، على الرغم من أنّني لم أعش فيها، مع حساب هذين الشهرين من آخر إقامة لي في الجزيرة، غير ست سنوات، ثلاث منها في طفولتي المبكرة. فهل تكفي ست سنوات وبيان تعميد في سانتياغو دي كوبا لكي أكون كوبيّاً؟ هل من علاقة ممكنة بين الوطن وتاريخ الولادة ومكانها؟ ليس لديَّ ولم يكن لديَّ أجوبة عن تلك الأسئلة المتأججة، ولكنّي كنتُ في تلك الأيام المريرة أشعرُ بأني على حافة السقوط الأخير، من دون شيء تحت قدميّ، كما كنتُ في ذلك الصباح المجيد أمام (نياغارا)، وتأملتُ من جديد كيف يسقط الحجر الذي كان يحافظ على توازني، لكنّي الآن أنساقُ خلفه إلى الهاوية: وما كان من غصن أستعين به لأحافظ به على جسمي وعلى روحي المربوطين بتلك الفكرة عن بلد اخترعتُه، لكنّ قساة القلوب يسلبونني الآن إياه.

لم تبقَ في الجزيرة إلّا مسألة واحدة معلقة حاولت حلّها قبل أن أعود على جناح السرعة إلى المكسيك بعد أن تلهفتُ على مدى ثلاثة عشر عاماً لزيارة كوبا، فقد وصلتني أخبار مقلقة عن صحة خاكوبا المسكينة. ثمّ إنّ مشاكلي الصحيّة، التي كانت قد انحسرتْ لتمدّني بالقوة، طفتْ من جديد على السطح، ومن المعروف أنّ للسل علاقة قوية بالحالة المعنوية، وقد أيقظ هبوط تلك الحالة المعنوية مرضي القديم وطرحني في الفراش لأيام.

كانت إقامتي في كوبا ستنتهي في الخامس من كانون الثاني، أمّا إقامتي

في (ماتانثاس) فقد انتهت في اليوم الأول من عام 1836، أي يوم أتممتُ الثالثة والثلاثين من عمري. كنتُ قد وعدتُ أمي الطيبة وشقيقاتي بأن أحتفل معهنّ بعيد ميلادي، وكنّ قد خططن لدعوة الأصدقاء للعشاء. أيّ أصدقاء؟ أردتُ أن أسألهنّ، لكنّي لم أشأ أن أكون على ذلك القدر من السماجة.

بقوتي التي استرددتها بعضَ الشيء استأنفتُ تجوالي في المدينة، وراق لي ترددي على «الجادة الجديدة» الرائعة، التي افتتحتْ قريباً من البحر، في حي (فيرساي). هناك، قريباً من المدينة، وبعيداً عنها أيضاً، شعرتُ بشيء من الراحة، على الرغم من وجود تمثال لمّاع لفرناندو السابع البائس في بداية تلك الجادة التي تحرسها أشجار الكازوارينا الفتيّة.

شاء الحظ أن تصطدم عيناي، وأنا أسير ذات عصر في تلك الناحية، بعيني رجل كان يرمقني بنظرة فيها مزيج من الارتياب والخوف. عصرتُ ذاكرتي فقفزتْ ذكراه: إنّه أنطونيو بيتانكور، واحد من قدماء المتآمرين، والذي طالما عددته، هو وصهريه خوان وبابلو آرانغورين، في من وشَوا بي. لم أشأ لأوّل وهلة أن أسلّم عليه، لكنّ عينيه كانتا ترسلان إشارة توسل مؤلمة أجبرتني على التوقف. اقترب منّي وقال لي إنّه سعيد جدّاً لرؤيتي.

- أتمنى أن أقول لك الشيء نفسه، لكنّي لا أستطيع - ذلك ما استطعتُ أن أردّ به عليه.

- أعلم بماذا تفكّر، لكنّهم خدعوك. نحن لم نبلّغ عنك.

- وما الذي يحملني على تصديقك؟

- هذا يعتمد عليك. لكنّنا حين اعتقلنا، ظللتَ أنت طليقاً، ثمّ علمنا في ما بعد أنّ المقابل الذي طلبه الواشي هو أن يتركوك طليقاً.

- عمّ تتكلم؟ - سألتُه بقلق مشروع

بدا أنطونيو بيتانكور أكثر ثقة ونظرَ إلى عيني.

- أتكلّم عن أنّ أحداً يعرف كلّ شيء عنّا هو من بلّغ. أحد يعرف عن علاقتك مع الدكتور إيرنانديث ومع تيوربه، ويعلم أيضاً أنّني أنا وأصهاري انضممنا إلى المؤامرة عن طريقك. ذلك الشخص كان يعلم

كلّ شيء عنّا ووشى بنا، لكنّه في الوقت نفسه لم يشأ أن تعتقل. لا بدّ أنّه شخص يعرفك جيداً...

- لا أفهمك ولا أستطيع تصديقك.

- صعب فهم ذلك وتصديقه، لكنّي أقسم لك إنّهم كانوا يعرفون كلّ شيء حين اعتقلونا. هناك من اعترف قبل أن نصل...

- ومن كان؟

- لا أعرف. عليك أن تعرفه أنت.

- ما عدتُ أرغب في معرفة شيء - تلك كانت آخر كلماتي. وتركتُ ذلك الرجل، الذي كشف لي عن أمر عجيب، مزروعاً في مكانه بالقرب من تمثال فرناندو السابع، الذي حطم بطغيانه حياتي.

في تلك الليلة قصصتُ ذلك الحوار الغريب على بلاس دي أوسيس، الذي واصل زيارتي خفية؛ فعلى الرغم من غرابة ما أخبرني به بيتانكور، فقد بدأت سحابة من الشك تغطّي القناعة القديمة من أنّه هو والأخوين آرانغورين كانوا من بلّغ عني. لكنّ وساوسي سرعان ما اتخذت منحى آخر حين أخبرني أوسيس بأنّ لولا خونكو موجودة في المدينة بعد أن ظهر الجدري في المزرعة وألغوا الرحلة التي اعتادوا القيام بها كلّ عام بمناسبة أعياد الميلاد.

أنفقتُ ساعات طويلة أراقب الدار، أطوف به كالجاسوس مستعيناً بروح المتآمر القديمة فيّ. لكنّ لولا لم تظهر، ولم تظهر خادمتها المخلصة، فكان استغرابي في ازدياد. عاد الرجل ذو الثلاثة والثلاثين عاماً يعاني من العطش والبرد والمطر والشمس، كما كان يعاني ذلك الفتى ذو الخمسة عشر عاماً وهو يراقب محبوبته، مع فارق أنّه الآن يراقب بقدمين متورمتين، من أثر الأمزجة السيئة التي تغزو جسمه، والسعال الذي يهدّ بدنه. لم أتحقق من أنّني سأراها أخيراً إلّا ليلة الخامس والعشرين من كانون الأول: بينما كنّا في البيت نتناول عشاء الميلاد تذكرت أنّ اليوم التالي هو يوم القديس استيبان وأنّ لولا تكنّ

توقيراً خاصّاً لذلك القديس، وقد اعتادت التضرّع إليه. سألتُ وعلمتُ أنّ القداس الأول سيقام عند الساعة السابعة صباحاً، فطلبتُ أن يوقظوني الساعة السادسة.

حين أسفر الصبحُ كنتُ قد اتخذتُ مكاني للمراقبة. وعلى الرغم من البرد، كانت يداي تتعرقان وساقاي ترتجفان، شأنها أيام زمان. حين لم يبقَ على السابعة إلّا عشر دقائق رأيتها تخرج من بيتها، ترافقها عبدة لا أعرفها. ومع أنّ السيدة التي رأيتها تسير صوب الكنيسة، متشحة بالسواد حتى عنقها، من دون زينة ولا حلي ظاهرة، لم تكن إلّا في الثلاثين من عمرها، فقد بدتْ لي أكبر. لقد ارتسم خيط من مرارة على شفتيها، وتهدل من الحزن شدقاها: ماذا حلّ بتينك الشفتين العذبتين، اللتين طالما قبلتهما. ولاح من شعرها، وقد شُدّ شدّاً إلى الوراء، عِرق أبيض ينبئ عن شيب مبكّر. ما أشدّ ما شعرتُ به من ضيق في صدري وأنا أشاهد ما بقي من حوريّة (يوموري)، أجمل جوهرة في صندوق حلي (ماتاناس)، الفتاة الرقيقة المكتنزة التي أمضيتُ معها أجمل أيام شبابي.

دخلت الكنيسة فدخلتُ وراءها، وجلستْ فجلستُ خلفها، من دون أن تلاحظني. بدأ القدّاس، وفي واحدة من الوقفات المكرّسة للصلاة، وضعتُ يدي على كتفها وتركتُ ورقة صغيرة تسقط في حجرها. لم تلتفتْ، بل تناولت الورقة ووضعتها، من دون أن تقرأها، مع مسبحة الكهرمان التي في يدها. وصل عطرها المميّز، كعطر هافانا، أنثويّاً نقيّاً، إلى أعماق دماغي، ليهزّ أحاسيسي ومشاعري. لا أدري كم من الوقت دام ذلك القدّاس، ولا أيّة فقرة من الكتاب المقدس رُتّلت. بل لا أذكر شكل القس الذي أقام القداس: فقد انحصر عالمي في عطر كنتُ أشمه وقفا كنتُ أنظر إليه، أمّا ما عداهما فقد اختفى من على وجه البسيطة.

جثت لولا للصلاة عند انتهاء القداس. وانسحبتُ أنا إلى مؤخرة المصلّى. حين انتهتْ من صلواتها، تكلمتْ برهة مع عبدتها فخرجتْ هذه من الكنيسة، بينما اتجهتْ هي نحو مقرّ الراهب. لم أتردد لحظة في اللحاق

بها، وحين اجتازت العتبة وقعت عيناي على عينين غارقتين بدموع من كانت امرأتي. أخذتْ لولا بصمت يديّ وخرجنا إلى باحة الكنيسة الداخلية، حيث كان نور الشمس الخجول يتسلل من بين أشجار محملة بالبرتقال. جلسنا على مصطبة صغيرة وتركنا لعيوننا أن تسيح في بعضنا البعض.

- لم أتخيّل أنّني سأراكَ ثانية - قالت، ورأيتُ أنّ قساوة الحياة تمكنتْ من ملامح جسمها، لكنّ صوتها ظلّ عصيّاً على ما قدره لنا زمننا الخؤون.

- لقد عشتُ كلّ هذه السنين وأنا أحلم بأن أراكِ - اعترفتُ لها، وقبلتها بعد أن لم أستطع أن أمسك نفسي. كانت قبلة لطيفة، فيها من الألم أكثر مما فيها من الحرارة، مختلفة عن تلك القبل الساخنة التي ضاعت في الزمن، بين أشجار وادي (يوموري).

- كم عذبتنا الحياة!- قالت وهي تداعب وجهي.

- منذ أيام وأنا أحاول رؤيتك. كتبتُ هذه الورقة لأسلمها إلى تيتي.

- تيتي ما عادت معي. لقد أرسل بها زوجي إلى المزرعة لتقطع القصب.

- وكيف يمكن هذا؟

- كلّ شيء ممكن حين تكون الأمور بين أسياد وعبيد. هذا ما كنتَ تريد أن تحارب من أجله، أليس كذلك؟

- ما عدتُ أذكرُ ما كنتُ أحارب من أجله.

- أمّا أنا فأذكر...، أذكره كلّ يوم.

- كرمى للربّ، لولا.

- ليتك تعرف ما جرى لي، خوسيه ماريا.

ما زالتْ دموعي تسيل حين أتذكّر ذلك اللقاء، وحين تفسح معاناتي الدنيوية الطريق أمام الموت الذي يتربص بي. لقد أنجبتْ لولا طفلنا... طفلنا لم يمت كما قالوا لي. لكنّ والديها انتزعا الطفل من حضنها، بعد

أن أصرّا على انتشالها من العار الذي كانت ستفضله: عمّدوا الطفل على أنّه ابن أخيها، وترعرع وكبر على هذا الزعم. ووافق فيليب غوميث على الزواج منها، لكنّه لم يغفر لها فعلتها: فقد كان يحبّ الملايين التي وضعوها مهراً للشابة المدنسة، ويحتقر المرأة التي عشقت شاعراً فقيراً ومتآمراً. دام ذلك الجحيم ثلاثة عشر عاماً، وهو عمر ابننا، الذي أصبح شابّاً قويّاً، وما كانت لولا تراه إلّا حين تجتمع العائلة في مزرعة أخيها روبين، فكان قلبها يتفطّر ألماً وهي تراه من دون أن تجرؤ على القول له بأنها أمّه، مع ذلك، ومن أجله، فقد قبلتْ أن يستمرّ في ظنّه بأنّه ابن روبين وبأنّ اسمه استيبان خونكو.

- ولماذا كتبتِ لي تلك الرسالة؟

- لقد أجبروني على كتابتها.

- ولماذا لم تكتبي لي غيرها؟

- ألم يكن من الأفضل أن تنساني؟ أن تعيش حياتكَ من دون أن تربط نفسكَ بماضٍ لا تستطيع أن تغيّره، وبولد لا يمكنك رؤيته؟ لقد رأيتُ أنّ الصمت خير.

- ولماذا تقولين لي هذا الآن؟

- لأني أعرف كلّ شيء عنك. أعرف أنّك مريض. أنّ عليك أن تعود إلى المكسيك بعد أيام قليلة. ولأنّني ما زلتُ أحبّكَ.

كان للقبلة الثانية في ذلك الصباح، والأخيرة في حياتنا، عنف قبلات الماضي وحرارتها. شعرتُ في كلّ بدني بحرارة لسانها، ونهلتُ من عصير فمها، وعضضتُ شفتيها وداعبتُ نهديها حتى انتصبت من تحت ردائها حلمتاهما. وفجأة أحسستُ بالخطأ الفظيع الذي هي عليه حياتنا، حين نهضتْ لولا وحدّقت في عينيّ.

- عليّ أن أنصرف. لا تبحث عنّي، أرجوك. ها قد عرفتَ ما كنتَ تريد معرفته: لديك ولد اسمه استيبان وقد أحببتكُ دائماً. لكنّ من المستحيل

أن نعود إلى الوراء. لا تحمل كراهية لأحد. هذه هي الحياة التي قدر لنا أن نحياها وليست سواها، وليس من المنطقي أن نبحث عن مذنبين، ولا أن نغيّر العالم لكي يعاني الآخرون ما عانيناه. فأنا وأنت نعلم أنّ ذلك مستحيل. وداعاً، خوسيه ماريا - وخرجت صوب الكنيسة من دون أن تلتفتَ نحوه ثانية.

بقيت على تلك المصطبة، أستحمّ بشمس يوم القديس استيبان ساعات عدة، من دون حركة، أفكّر في حياة لم تكن حياتي، حياة لطالما تمنيت أن أحياها: من دون مجد ولا مغامرة، ربّما حتى من دون شعر، بعيداً عن السياسة وعن عواصفها، ربّما حياة محامٍ بسيط ومجهول يسكن في محافظة، يجمع سعادة الكون في قبلة من امرأته ومداعبة من ولده. وهل يطلب الواحد منّا أكثر من هذا؟

***

- إنّه آلبارو - قالت دلفينا وسلّمته سماعة التلفون، وواصلتْ طريقها نحو الحمّام.

- نعم بارو. هل سقطتَ من السرير؟[145]

- أخبار سيئة، صديقي: الدكتور مندوثا فارق الحياة.

علم فرناندو في الحال أنّ آلبارو لم يكن يمزح، لكنّ شيئاً ما كان يمنعه من تصديق الخبر. مع أنّه صحا من نومه منذ أكثر من نصف ساعة، فإنّ فنجاني القهوة اللذين عبّهما لم يعيدا إليه وعيه.

- فرناندو؟ - سأل الآخر وقد أقلقه طولُ صمت فرناندو.

- نعم...، ما الذي حدث؟

- فقدان وعي، جلطة، أعتقد... ابنه اتصل بي للتوّ. سيدفن اليوم الساعة الرابعة. جثمانه مسجّى في المحفل الكبير. سأتصل بالآخرين. ماذا ستفعل؟

145- Caerse de la cama تعبير في الإسبانية لمن بدأ نشاطه مبكراً عند الصباح.

- انتظرني هناك، سأكون عندك خلال ساعة- ووضع السماعة.

من الحمّام كان يصله صوت الماء وصوت دلفينا وهي تدندن بأغنية لم يفلح في تمييزها. كانت قد تركتْ باب الحمّام مفتوحاً، فتنشّق فرناندو عطرَ رغوة الصابون النقيّة وهي تسيح على جسمها، وتأمّل قميص نومها وملابسها الداخلية، موضوعة على غطاء المرحاض المغلق، في ما بدا له دعوة واضحة لمعاشرة لا تبالي بوفاة ولا تعبأ بموت، مع ذلك، فالسياسة والحياة والرجال كفيلون بأن يجعلوا منها دعوة لا يمكن تلبيتها.

- هل أنتَ هنا؟ - سألته من وراء الستارة.

- نعم.

- ماذا يريد بارو في هذه الساعة؟

- مات مندوثا.

أزاحت الستارة، وقد بدا الذهول على وجهها المبتل. تأملها فرناندو للحظة: حلمتاها الغامقتان المكتنزتان، بطنها التي ارتفعت قليلاً، شعر عانتها الذي طرّاه الماء فبدا وكأنّه شابَ مما علق به من الصابون، وساقاها الطويلتان المصقولتان بشمس البحر. ما كان أبعد ظمأه من أن يطفأ ورغبته التي تثيرها دلفينا فيه من أن تشبع.

- أنا مفتون بك، دلفينا - قال واقتربَ من البانيو ليقبّل شفتين غارقتين لامرأة لم يحسّها امرأته إلّا في تلك اللحظة.

حين وصل إلى بيت آلبارو، شعر وكأنّه أمضى أكثر من سبعة وعشرين يوماً منذ وصوله. فالأحداث المتتابعة والذكريات التي عاشها طوال أربعة أسابيع تغطّي سنين من حياته اللاافقاريّة المتقطعة في مدريد. وبدا له غريباً أن يكون الدكتور مندوثا، الذي توفي للتوّ، هو من يدفعه إلى معاودة البحث عن الحقيقة المفقودة في حياة هيريديا والعثور على البراهين الضائعة من حياته هو.

- سننتظر توماس - قال آلبارو-، سيأتي إلى هنا.

- أظنّ أن توماس مستاء منّي.

- انسَ هذا الموضوع. أو بالأحرى، انسَ كلّ شيء... ودلفينا، ألا تأتي؟
- ذهبتْ إلى عملها وبعده ستذهب لتعدّ الطعام لأبيها وستلحقنا في السهر على الجثمان قبل الخروج به إلى المقبرة.
- هل تريد أن تشرب؟
- ها قد بدأتَ؟
- بل لم أنتهِ. ما إن رقدتُ حتى اتصل بي ابن مندوثا.
- أنتَ تقتل نفسك، بارو.
- لقد قلتُ لك إنّني ميتٌ منذ زمن. ما أمامك الآن ذاتٌ معطّلة فحسب، أو إنسان مستنسخٌ، كما يسمونه الآن...
- ولماذا تفعل هذا؟
- لأنّ ذلك يروق لي، فرناندو. يعجبني، وأريد أن أكون هكذا. لأنّه الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله. هل ارتحتَ؟
دخل آلبارو إلى البيت وعاد يحمل كأساً متوسطة من الكحول تطفو فيها قطعة من الثلج.
- المهم - قال-، الجميع يموتون. المسألة مسألة وقت وسبب.
- أنتَ الآن لا تكتب، أليس كذلك؟
- ولماذا؟ لأجل ماذا؟ وهل تنفع الكتابة في شيء؟
- ما أشدّ تبرّمك!
- المتبرّم هو أنتَ. لم يبقَ أمامك إلّا يومان. ماذا ستفعل؟
- سأسافر. وماذا عساي أن أفعل؟ ثمّ سأرى كيف تتشكّل هذه القصّة. فلديَّ دلفينا هنا- وضربَ على معقد حاجبيه.
- وأين هيريديا؟
- لا أدري، ولكنّي أظن أنّ التعب فيه لم يذهب هباءً.
حرّك آلبارو الكأس ليبرّد الشراب.
- والخائن؟ - سأل.

- لماذا تصرّ على الكلام عن هذا الموضوع؟
نظر فرناندو إلى عينيه وتجاسر على أن ينطق بالفكرة التي شغلت رأسه.
- إن لم تكن أنتَ، فما من خائن.
ابتسم آلبارو.
- هل غفرتَ لجميع الموتى؟
- أظنّ أنّي غفرتُ لهم. بمن فيهم توماس. لطالما تمنيتُ أن يكون هو.
- يا للخسارة!... ولماذا تظنّ أنّ من الممكن أن أكون أنا؟
- لأنّك تعرف ما كان الآخرون يعرفونه نفسه...، سأتألّم كثيراً إن كنتَ أنتَ.
- لكنّك الآن تظنّ أنّني ربّما كنتُ أنا...
- بارو، طلبتُ منك منذ أن وصلتُ أن ننسى ذلك.
- بعد كلّ مضايقاتك بالموضوع نفسه، لا تريد الآن أن تتكلم عنه... بعد أن بقيت عشرين سنة تشكّ في أنّ صديقاً من أصدقائك أبلغ عنك، ها أنت تسامح الجميع وفي لحظة واحدة. ويحك، فرناندو، ما أقساكَ. وأنتَ تظنّ أنّ الآخرين سيغفرون لك أنّك ظننتَ أنّ أيّ واحد منّا كان واشياً ألقى بك أنتَ وإنريكه إلى التهلكة؟
- كفّ عن الكلام، بارو.
- سأتكلم، إذ لم يبقَ لي في حياتي غير أصدقائي... أنا لا أعرفُ أولادي تقريباً، لا أدري منذ متى وأنا لا أكتب قصيدة جديرة باسمها، أيّة امرأة لا تطيقني أكثر من أسبوع، وسينهار عليّ هذا البيت في أيّ يوم من الأيام...
- اترك الشرب، يا رجل.
- لا، ويحك! هذا هو الشيء الوحيد الذي أفعله وأنا ممتلك لإرادتي - قال ورفع الكأس-. ولئن متّ غداً، فليكن في حفلة شراب كبرى. وربّما من دون أن أشعر...

- المشكلة هي أنّك لن تموت غداً.

- صحيح، فقد متّ أمس أو أمس الأول، أو قبل عشرين سنة. ما عدتُ أذكرُ متى متّ.

رآه فرناندو وهو يفرغ كأسه في جوفه فأحسّ بهزّة في مصارينه.

- أعلمُ أنّك لم تكن أنتَ - قال.

- انظر، فرناندو، أنا أيضاً قلتُ لك ذلك حين وصلتَ: لم يكن أحداً. ليس لأننا طيبون ولا لأننا متوحشون، لا شيء من هذا: فلو ضغطوا علينا لقال أيّ واحد منّا أيّ شيء ويتهمك بأيّ شيء. المسألة هي أنّ أحداً لم يسألنا... أنا فعلتُ ما استطعت لتعود إلى أصدقائك، لكنّك حشرتَ إصبعك في الجرح وحشرته حتى النهاية. لا أدري ما هو شعور الآخرين، أمّا أنا، آلبارو آلماثان، فلن أغفر لك فعلتك السيئة، هل تسمعني؟

- ابن القحبة الآن هو أنا... دعك من هذا، أنتَ سكران.

- نعم، لكنّ السكارى لا ينطقون بالخراء دائماً. راجع نفسكَ وسترى أنّي مصيب. هل تريد جرعة الآن؟

رآه فرناندو ينهض ويبتعد صوب البيت.

- نعم، أعطني قليلاً من الرون.

***

بينما كانت هافانا تعيش الاحتفال بالعام الجديد 1837 لم أشغل أنا نفسي بالمناسبة، بل مررتُ بها مرور الكرام. فكأنّ ذلك الفتى الذي أراد من عشرين عاماً مضت أن يبتلع المدينة ويتنشق كلّ واحدة من أنفاسها صار شخصاً غريباً على الرجل الذي يتابع عن بُعد السعادة الفارغة والمشروطة لشعب وجد في السيرك متعته بعد أن استنفد خبزه. عند وصولي استأجرتُ غرفة في البنسيون ذاته الذي نزلتُ فيه يوم عودتي إلى كوبا، وبعد أن كتبتُ إلى أمي لأخبرها بأني على ما يرام، شربتُ زجاجة كاملة من النبيذ ثمّ سقطتُ على السرير.

في اليوم التالي تقدمتُ إلى السلطات لأبلغهم بأنّي جاهز لمغادرة

الجزيرة قبل الخامس من كانون الثاني، وهو تاريخ انتهاء صلاحية جواز سفري. أخبروني أنّ خروج المركب (كارمن) تأجل عشرة أيام، ومددوا لي إقامتي. خصصتُ حينئذٍ جزءاً من وقتي لأطوف في المدينة طوافَ الحاج الذي يودّع مشاعره المقدسة. ما كانت المباني الجديدة العجيبة والجادات الواسعة الحديثة والشوارع التي صارت أنظف تشدّ انتباهي، لذلك آثرتُ مراراً أن أركب عربة تجرها الخيل لأصل بها إلى حيّ (مانغلار) البعيد، حيث السودُ والغجر، لآكل في حاناته، وأسمع قصصاً وأشعر بأني في تلك المدينة نفسها التي خرجتُ منها قبل ملايين السنين.

لم أشعر بالراحة النفسيّة إلّا قليلاً: فما كان أقسى ما رأيتُ وما سمعتُ من قصص الماضي في تلك الرحلة، وما كان أصعب على جراحي أن تلتئم بعد ما رأيتُ وسمعت! أمّا أسوأ ما في ذلك فهو شعوري بأنّي ما عاد لديَّ ما أفعله في ذلك البلد الذي لم يُعد لي ما فقدتُه من صحة ومودّة وسعادة، بل لقد كال لي المزيد من اللوم والنسيان والاحتقار. صار لكلّ شيء عندي طعم النهاية. وكتبتُ، وقد اقترب موعد سفري، إلى دومنغو. كانت رسالة خالية من أيّ حقد أو كراهية، اكتفيت فيها بالإعراب عن أسفي على أنّي لم أتمكن من لقائه. لم أشر إلى رسالته، ولا إلى خطئي، ولا بالطبع إلى ما صرتُ أعرفه عن طريق بلاس دي أوسيس. وختمتُ الرسالة مودعاً ومتمنياً له حظّاً سعيداً.

لدى عودتي ذات ليلة إلى محلّ سكني وجدت على سريري ورقة مرسلة من دائرة الحاكم العام. توقعتُ أن تكون عقوبة على تجاوز موعد إقامتي في الجزيرة، فتحتُ الظرف ففوجئت برسالة تتضمّن دعوة موجهة إليّ من ميغيل تاكون شخصياً يعرب فيها عن رغبته في مقابلتي. كان اليوم الذي حدده هو الثاني عشر من كانون الثاني، عند الرابعة عصراً، في قصر الحاكم العام. قال في رسالته إنّه سيتشرف بالحديث مع كاتب شهير مثلي، وظهرتْ تحت توقيعه - كما يقتضي العُرف- قائمة المناصب السياسية

والفخرية التي يتولاها، على عادة الطغاة حين يشفعون أسماءهم بصفات مثيرة للضحك تشي بقوتهم وسلطانهم: من «فيكونت بايامو» و«ماركيز الاتحاد الكوبي» و«حامل نيشان تويسون الذهبي الرفيع»، حتى «قائد الجيوش الوطنية العام» و«حاكم جزيرة كوبا وقائدها العام».

صعدتُ عصرَ اليوم المحدد الدرج الطويل المؤدي إلى مكتب الطاغية، يلفّني القلق الذي أحسستُ به منذ أن تلقيتُ تلك الرسالة. كان فضولي المريض في التعرف على ذلك الرجل المرهوب، الذي يمسك برقاب أصحاب البلد بينما يملأ المدينة بالساحات والنصب التي يجتمع عندها مناصروه للهتاف بحياته، يمتزج بإحساسي بالنفور من الرجل الذي يقمع كلّ فكرة ليبرالية، ويمارس سلطة تصادر حقي في علاقة طبيعية ببلدي، والعسكري القاسي الذي يجاهر بكراهيته لكل ما هو أمريكي. تروى عنه، كما جرت العادة، قصص وحكايات تناسب من هو على شاكلته ولا تستحق أن تروى: فهو لا ينام بل يعمل لليال بطولها، وهو ذو ذاكرة فريدة وشديدة تذكره بكل ما يأمر وما يتمنّى. يحكى أيضاً عن قوته الجنسيّة، عن غضبه المنفلت، عن شغفه بالأوامر والسلطة، وحبّه للبزة الرسمية والرتب العسكرية، التي ما كان يخلعها قط.

حين أذن لي المرافق بالدخول إلى المكتب، كان الحاكم العام في انتظاري، واقفاً في وسط القاعة. في نهاية القاعة، بالقرب من لوحة كبيرة للملكة ماريا كريستينا، سارية رفع عليها علم إسبانيا وأخرى تحمل شعار العائلة المالكة، بالإضافة إلى درع قديم لمملكة (قشتالة وليون) وشعارات العديد من صنوف الجيش ووحداته. تقدم تاكون خطوة منّي ولم أشعر هذه المرة برعشة في ساقيّ. مدّ لي يده بحركة عسكريّة ثمّ دعاني إلى الجلوس. لم يكن يبتسم وكانت عيناه، اللتان تشبهان عيني الغراب، تحاول أن تكوّن صورة أفضل عن شخصي، الذي ما كان يطابق شخص العدو السياسي. بدا الجنرال، بأعوامه الستين، قويّاً، أسود الشعر، واكتشفتُ أنّه عمل على إطالة قامته بأن انتعل جزمتين ضخمتين سميكتي النعال. مع ذلك فقد كان،

وعلى الرغم من سلطته المطلقة وقدرته على حصد أرواح وسحق بلاد، رجلاً عاديّاً، فيه من الهشاشة ما في أيّ ابن أنثى منها. وبعد أن قدم لي قهوة كثيرة السكر، طلب من مرافقه ألّا يسمح لأحد بالدخول علينا، ثمّ جلس على كرسي آخر من الكراسي العالية المعمولة من الخشب والجلد، بينما سمّر نظرته في نقطة غير محددة تقع على يميني.

- كنتُ أرغب صادقاً في معرفتكم - قال-. كلّ من في العالم الإسباني يتكلّم عن شاعر نياغارا وكأنه يتكلم عن أسطورة حيّة، وأنتَ في كوبا بطل.

- لستُ متأكداً من ذلك تماماً - قلتُ له واتجهتْ عيناه ناحيتي.

- ألأنّكَ عدتَ بعد أن كتبتَ لي؟

- لهذا السبب أيضاً.

- لا شكّ أنّ الأمر كان مؤلماً بالنسبة إلى حضرتك.

- كان كذلك. أكثر مما تستطيع حضرتك أن تتصوره.

- هل أساؤوا معاملتك في كوبا؟ لقد أصدرتُ أوامر مشددة...

- لا، لا، فقط ذكّروني بأني موجود هنا بمشيئتك، وأنّ مشيئتك قد تتغيّر.

- ما أبعد ذلك عن رغبتي. كان يهمّني كثيراً أن تأتي إلى كوبا.

- أعلمُ ذلك... فأنا غنيمة حرب، أليس كذلك؟

- لطالما كنتَ مثالاً سيئاً، وقصائدك... هيريديا، استسلامك نصرٌ لحكومتي وللتاج الإسباني.

- استسلامي، كما تدعوه حضرتك، له صلة كبيرة بظروف وأسباب شخصيّة.

- نعم، بالطبع. هل اطمأننتَ على صحة السيدة والدتك؟

- نعم.

- يسرني سماع ذلك...- ونظر إلى عيني مباشرة-. لكنّ حضرتك

تذكر لي في رسالتك أموراً أخرى. قلت فيها إنّك ما عدتَ ترى أنّ الاستقلال هو خير ما تحتاجه هذه الجزيرة.

- لقد رأيتُ ما جرى في المكسيك. وأعلم بالذي يجري في كولومبيا، وليس في ما جرى ما يشجع.

- ذلك ما كان واضحاً منذ سنوات. أنا وصلتُ إلى أمريكا عام 1809، حاكماً على (بوبايان)[146]، وكنتُ أعلم أنّ الأمور ستنتهي على هذا النحو. والدك كان يعلم ذلك أيضاً...

لا أدري أيّ عصب مسّ الجنرال فيّ حين ذكر أبي. لكنّ مقارنته نفسه بذلك الرجل المسكين، الذي مات فقيراً، أحدث ثورة غريبة في روحي. لم تكن ردة فعلي هي ردة فعل رجل شجاع، إذ لم أكن في الواقع شجاعاً، بل كانت دليلاً على أنّني، وبغضّ النظر عن كلّ شيء، كنتُ أعلى مقاماً من ذلك الرجل؛ ما عاد القوي قادراً على سحقي، فقد تكفلت الحياة بذلك. كنتُ أعلم أنّ أيامي في هذه الحياة باتت معدودة، وأنّني لن أعود إلى كوبا مستقبلاً، وقد جعلني ذلك أشعر بما لم أشعر به من قبل: شعرتُ بأنّي حرّ وفي حرز من تجاوزاته وظلمه. فرددتُ عليه من دون أن ترتجف ساقاي ولا يتلجلج صوتي:

- من المؤسف ألّا يعدل بعض الرجال بعد أن ناضلوا من أجل العدالة... لأنّ ما يحدث في كوبا ليس فيه ما يدعو إلى الفرح. صحيح أنّ هناك ازدهاراً، ولكن لا شيء يعوّض غياب الحريّة. أم إنّها العبودية، مثلاً...

- صحيح، إنّه لأمر شائن.

- وحضرتك تشجّع عليه.

- أسبابي سياسيّة. وحضرتك تعرف أنّ السياسة تفرض نفسها.

- وبأيّ ثمن!

146- Popayán من مدن كولومبيا.

نظر إليّ تاكون، وكأنّه لم يفهم شيئاً، وعاد إلى الانتقال بنظرته إلى مكان غير محدد، وراء رأسي، وقال وكأنّه يهمس.

- ما ظنّك بي؟ كنْ صريحاً، من فضلك...

- لا أظنّ أنّ من واجبي أن أصارحك. فأنا ضيفكَ...

- أرجوك، قل لي رأيك فيّ.

- لا أظنّ أنّك ترغب في سماع الحقيقة. أظنّ أنّك تفضّل الحقيقة التي يقولها لك أولئك المتظاهرون الذين يخرجون إلى الشارع ليهتفوا بحياتك.

- تلك هي حقيقة الأغلبيّة.

- لقد هتف هؤلاء يوماً ما للكثيرين ثمّ أخرجوهم في يوم آخر من قبورهم ولعنوهم حين ما عادوا في السلطة. لذلك فما من سبيل للاطمئنان إلى من يمدحونك ويطيعونك، خصوصاً إذا صدر ذلك عن خوف.

- خوف؟ أظنّ أنّ حضرتك لم تفهم ما يجري في كوبا.

- أظنّ أنّني أفهم. هل تريد حقّاً أن تسمع رأيي في حضرتك؟ أنا أرى أنّ حضرتك تؤدي مهمتك، لكنّك فرضتَ الخوف والرقابة والوشاية نمطاً للحياة في هذه البلاد. حضرتك تكره من ولد على أرض هذه الجزيرة. حضرتك عدوّ للذكاء وتفرض الديماغوجيّة وتطلب مقابل ذلك، وهو ما يفعله كلّ دكتاتور، أن يحبوك.

في تلك اللحظة لمحتُ ابتسامة خفيفة ترتسم على شفتي تاكون. انحنى قليلاً على مقعده ونتف لحيته ثمّ نظر إليَّ لحظة قبل أن يعود إلى توجيه بصره نحو الفراغ، وكأنّ حواره يجري مع محاور غير مرئي، أهمّ من شاعر مهزوم وعليل.

- ألا تبدو لك محاربة الرذيلة والقمار والدعارة والفساد إنجازاً بارزاً لحكومتي؟ هل تظنّ حضرتك أنّ تحسين الشوارع وبناء طرق ومسارح ومبانٍ عامة وسجن جديد يعيش فيه السجناء كالبشر لا كالحيوانات هو عمل غير جدير بالتقدير؟ أم إنّ إشاعة التقدم في هذه الجزيرة لتكون فيها

خطوط للسكك الحديدية حتى قبل إسبانيا هو من أعمال الطغيان؟ هل حضرتك متأكد من أن فرض الرقابة على اثنين من المثقفين أو على ثلاثة هو أسوأ من إطلاق العنان للفحش والانحلال والتجاوزات الدائمة التي تشيع في الصحافة؟ ألا ترى حضرتك، يا سيد هيريديا، أن الحيلولة دون الفوضى التي قد تجرّ هذه الجزيرة إلى ثورة يقودها السود ويقضون فيها على مؤسساتنا وعلى ديننا، هو خير من القبول بتآمر دعوتَ حضرتك بنفسك إليه قبل بضع سنين؟

- لا شيء يبرر قمع إرادة الشعب.

- أرجوك سيد هيريديا، لا تكن حالماً. عن أيّ شعب تتحدث؟ لا تقل لي إنّك تتحدث عن السود المجرمين في (مانغلار) التي زرتَها حضرتكَ هذه الأيام. أم إنّك تتكلم عن العبيد الذين لا يعرفون حتّى كيف يتلفظون الإسبانيّة؟ - توقف قليلاً ونظر إليّ-. لا. لا، من المؤكد أنّ حضرتك تتكلم عن أولئك السادة الأدعياء، الذين اغتنوا بتجارة العبيد وصاروا خيّرين مؤخراً، لأنّهم يحتاجون الآن قوة عمل أخرى ليبقوا على جيوبهم مليئة... كم منهم دعم استقلال كوبا عام 1823؟... بل أقول لك أكثر: أعرف أنّ صديقك دومنغو زاغ منك واختبأ، بل لم يدعُكَ إلى واحدة من تلك الدردشات التي يعقدها في بيته حيث يتصرّف كالباشا. هذا السيد نفسه، الذي لم يتجرأ على أن يضع اسمه على منشور افترى فيه على حكومتي، تلقّى أمراً بمحاولة خداعي وربّما شرائي، وأظنّ أنّه نفذ الأمر عن طيب خاطر. ذهبتُ مرتين إلى بيته: مرة إلى عشاء ومرّة إلى واحدة من دردشاته... لو أنّك رأيتَ مكتبته، برفوفها المليئة بكتب من كلّ أنحاء الدنيا، مجلات صدرت أمس في أوروبا، كراسي من الجلد ومصابيح بمئة ضوء. والعبيد، يا إلهي، يلبسون وكأننا في باريس. أبهؤلاء السادة يمكن التفكير في استقلال كوبا؟ هل هؤلاء هم من يعارض تجارة العبيد والعبودية؟ لا تُثر ضحكي...

- لا يمكن لهذا الأمر المحزن أن يكون مضحكاً. لكنّ هؤلاء السادة

الذين يريدون أن يحملوا اسم كوبا ليسوا كوبا. وليس لطريقة عيشهم أن تبرر الرعب ولا انعدام الحرية ولا قمع من يفكرون بطريقة مختلفة.

- هذه قصّة أخرى. أعلم أنّك تتهمني بقمع النشاط السياسي في الجزيرة، لكن صدقني إنّني حين أفعل ذلك فلتجنّب شرور أكبر. الولايات المتحدة الأمريكية وإنكلترا تضعان عينهما على هذا البلد. وإن انفتح شقّ فستكون هذه هي النهاية. وإذا تطلب الأمر، للإبقاء على هذه الجزيرة إسبانية، أن نسكت المطالب السياسة لنفر قليل، فسنسكتهم. وهذا بين الشرين هو الأهون. هذه هي السياسة وهذه هي الواقعيّة.

- وهل من الواقعيّة أيضاً أن الشرطة تعرف عنّي أكثر مما أعرف أنا عن نفسي؟ وهل من الواقعيّة أنّ عدد المنفيين يزداد يوماً بعد يوم؟

- هذه عقوبة قاسية، ولذلك نطبقها. لكننا نطبقها بعدالة. إن كانت هناك قوانين، أخذنا بها وطبقناها. وبما أنّنا وصلنا إلى هذا الموضوع، دعني أخبرك بشيء: من بين جميع إجراءات حكومتي لا أندم إلّا على أنّي أمرتُ بنفي ساكو، لأنّي فعلتُ ما فعلت مدفوعاً بمصالح السيد الكونت دي بيانوبيا، وهو كوبي كحضرتك، لكنّه يكره الكوبيين ويحتقرهم. لكنّي لم أطرد ساكو بالقوة كما يقول أعدائي. لقد تكلمتُ معه في هذه الصالة نفسها وشرحتُ له ما حدث. لذلك مضتْ أشهر بين الأمر بنفيه والطلب إليه أن يختار البلد والسفينة والتاريخ الذي يراه مناسباً للخروج من الجزيرة، وبراتب في جيبه خصصه له رؤساؤه من آل آلداما وآل ألفونسو. ألم تسمع بهذا؟... انسَ الآن موضوع ساكو وانظر حولك. هل المهم رجل من الرجال أم ازدهار البلد؟

في تلك اللحظة، ربّما بسبب التوتر الذي خضعتُ له، شعرتُ بغشاوة في نظري، لكنّ قوة غريبة، ربّما تولّدتْ عن قناعتي بمدى التغيّر الذي طرأ على حياتي بسبب رجال من شاكلة هذا الرجل، أسندتني ودفعتني إلى المقاومة.

- وهل تعدّ نفسكَ المحسن إلى البلد؟

- وماذا تظنّ حضرتك، بعد كلّ ما فعلتُ من أجل هذه الجزيرة؟ هل كانت كوبا في يوم من الأيام كما هي الآن؟...

- حسبتُ أنّ تقدمها هو من أسعار السكر الجيدة. لكنّ هذه المنافع لا تبلغ حدود العبيد الذين تجلبهم إلى كوبا والذين تقبض دائماً عن جلبهم نسبة من المال...

- حضرتك لا تريد أن تفهم... يبدو وكأننا نتكلم عن بلدين مختلفين

- ولمستُ للمرة الأولى شيئاً من الغضب في نبرة صوته.

- على العكس، إنّه البلد نفسه، سوى أنّ فهمي بدأ يزداد يوماً بعد يوم. الشيء الوحيد الذي لا جدال فيه هو أنّ جوهر سلطتك هو القمع وهدفك هو الحفاظ عليه.

- أوَتظنّ أنّ السلطة تهمني؟ انظر، سيصنعون معي معروفاً إن هم أرسلوا من يحكم الجزيرة بدلي...

- السلطة كالمخدرات وقد يكون انتشاء التاريخ أسوأ آثارها.

- التاريخ قحبة، سيد هيريديا. قحبة لا محمودة ولا مشكورة...- قال، وكأنّ كلمة ضاعت منه، ونهض.

- لكنّ من يكتبه هم من يمتلكون السلطة. وإن كان التاريخ الآخر، تاريخ الحقيقية، هو الذي يبقى في النهاية. المؤلم في الأمر أنّ أحداً لا يتعلم من التاريخ، لا أحد يتعلم منه أبداً. الشعوب لا تتعظ أبداً...

توقف تاكون عن المسير ونظر إليّ مباشرة.

- في رسالة حضرتك...

- ماذا كنتُ أريد؟ من الغباء ألّا أقول لك غير ما تودّ حضرتك أن تسمعه.

- لكنّ هذا نفاق.

- معك الحق. وماذا في مقدور محتضر مثلي يحلم بأن يرى أمّه وعائلته، ربّما للمرة الأخيرة في حياته، ويحتاج أن يتنفس من جديد هواء هذه الجزيرة من دون أن يكذب ويداهن؟

- لكنّ حضرتك، فوق هذا، جبان، سيد هيريديا.

- وهذه حقيقة أخرى وأنا الآن خائف. فحضرتك، الذي منعتَ أبناء وطني من أن يقرؤوا أشعاري وتتمتع بسلطة تقرير حياة من يعيشون في هذه الجزيرة، تمتلك الآن قرار حياتي في يديك. لقد قدمتُ لك انسحابي من السياسة، وها أنا أقدم لك رأسي.

ابتسم تاكون حينئذٍ.

- يكفيني انسحابك من السياسة. حضرتكَ اليوم في كوبا لا تمثل أحداً. حضرتك اليوم في كوبا حشرة وما عاد يريدك حتى أصدقاؤك. فلماذا أقتلكَ؟ فأنتَ حيّ ومهزوم أكثر نفعاً... آه، بالمناسبة، لا تصدق ما قلته لك: الشعر خطير، ولكن ليس كثيراً.

- صحيح. القصيدة لا تقوى على إسقاط طاغية. لكنّها تترك فيه علامة لا يمكن إزالتها أحياناً. تذكر أنّ التاريخ الآخر، تاريخ الحقيقة، موجود. وسيمحو ذلك التاريخ اسمكَ من على المباني التي شيدتها وسيبصق على قبركَ لأنه اليوم لا يستطيع أن يبصق على صورتك. مع هذا التاريخ سيكون شعري، إن كان له من قيمة وينفع في شيء. وذلك ما لا تستطيع كلّ سلطتك أن تحيد عنه أو تمحوه.

- قلتُ لك إنّك تحلم. أشعر بالشفقة عليك. لذلك أريد أن أحكي لك ما ستشكرني، ربّما، عليه - قال، وبدأ مسيراً آخر في الغرفة، من دون أن ينظر إليّ-. صديقكَ دومنغو زاغ منك، أليس كذلك؟ لا تحزن على ما فعل. هذا الرجل لم يكن صديقك قط. لقد كان هو من وشى بك وبلّغ عنك عام 1823، بعد أن حكيتَ له إنّك كنتَ تتآمر...

لقد شطرت طعنة تاكون قلبي شطرين. ألهذا فقط دعاني؟

- إن شئت أستطيع أن أريكَ بعض المحاضر التي لدينا...

- لا، لا أريدُ أن أرى شيئاً- همهمتُ، وقد أحسستُ بألم شديد وتمنيتُ لو ابتعدتُ عن ذلك المكان، بل لو لم أكن هناك أصلاً لأسمع ذلك الكلام الرهيب الذي ملأني بحزن أزعجني وأجهز على كلّ قواي.

- حسناً. فقط أردتُ أن تعرف من كان ذلك السيد.

- هل أستطيع الانصراف؟

- تستطيع، تستطيع. لكن تذكرْ: لن يمكنك الدخول إلى كوبا ما دمتُ أنا حاكماً عليها.

- هذه هي السلطة. طبقها. مساء الخير.

لم أستطع تقريباً أن أقف على قدمي، وكان عليّ أن أعتمد على ذراعيّ. ونزلتُ على الدرج كالسكران، وحين وصلتُ إلى الدرجة الأخيرة رفعتُ بصري. من مكانه العالي، وببدلته العسكرية اللماعة المحملة بالرتب، وبكلّ الألقاب والمناصب التي يحملها، كان ذلك الرجل، الذي لن يغفر له التاريخ، ينظر إليّ. كان يعلم أنّ التاريخ لن يغفر له. ولكن، هل سيغفر التاريخ للواشي دومنغو؟ وهل سيغفر لي؟

***

لم يتوقف الزمن، بل راح يتراجع متسللاً بين القماش الأسود المطرز بمراكب بيض، ومتجاوزاً عطر الزهور والشمع والبخور ومخترقاً رموز الإخوانية، التي اتّشحت الآن بالسواد. بدت تلك الصيرورة المعكوسة وكأنّها تبحث عن جوهر ثابت وروائح لا تتغيّر، لا تأبه لمسار الساعات، فكأنّها مصممة على تكذيب تواصل التاريخ العنيد.

كان التابوت المسجّى وسط القاعة يحظى باهتمام كبير، فقد حفّ به رجال راحوا يؤدون من حوله طقوس الوداع وهم غارقون في مشاعر التسليم بالقدر. استمع الحضور، من ماسونيين وأقارب، وهم واقفون، في أجواء الحزن تلك، إلى العظة الأولى للخبير الموقر، الذي عبّر عن مجمل فلسفة الحياة والموت للرجال المستجدين، والذين أدّوا القسم على أسرار الإخوانية العريقة.

- يا مهندس الكون العظيم - بدأ الرجل المُزين بجواهر مقامه-. سلطان أبديّ. كينونة رحيمة، يمكن تصوّرها ولكن لا يمكن أن يحاط

بها. صانع لا يتبدّل لتحولات لا تتوقف. أنت، يا من لا تستغرب موتنا، كما لم تستغرب ولادتنا، أتضرّع إليك أنتَ. دعاؤنا أن يجاورك أخونا غونثالو مندوثا سانتيستيبان كما جاورنا وأن تتقبله بعطف ورحمة، وأن تنعم عليه بجائزة العادلين، فقد كان عادلاً.

وبينما كان «الخبير الموقر» يشعل البخور، أحسّ فرناندو في ذراعه بضغط يد دلفينا الدافئة، وهمهم ميغيل أنخل، الواقف إلى جانبه:

- ما أقسى هذا. لم أكن أتصوّر الأمر هكذا...

- اجلسوا - أمرَ حينها «الموقر».

إلى جانب ميغيل أنخل جلس أركاديو وآلبارو وكونرادو وتوماس، وقد أذهلتهم المراسم الفريدة، التي تثبتُ هشاشة أقوى مطامح الإنسان وأكبر تطلعاته.

- على هذا النسق الطبيعي يتكيّف الوجود الدنيوي للكائنات، وما من مهرب لإنسان من سطوته. أمّا المناقب والثروات والأمجاد، التي تشكّل مطمحنا الدائم في هذه الحياة، فتبقى هنا، كالجسد الهامد، حين تحرر قُبلةُ الموت الشحيحة الروحَ من سجنها.

من مرتفع المشرق كان ولدا الدكتور مندوثا وزوجته يستمعون إلى الحقائق التي يرددها «الموقّر». ربّما كان البروفسور، في سنوات حياته الماسونية، قد تعلّم تلك الدروس وفهم عزاءها الخاص والقاسي.

بينما بدأ خبير الطقوس بتلاوة ما دعاه «الموقر» بمناقب الفقيد، فهم فرناندو تيري، الذي كان يدخل للمرة الأولى معبداً ماسونيّاً، لماذا يمكن للزمن، في نظر أولئك الرجال المتمسكين بأخوّة عريقة، أن يمضي في قنوات تختلف عن تلك التي رآها حتى تلك اللحظة طبيعيّة: ثمّة أخلاقيات ثابتة، بعيدة عن شطط الزمان وتعسّف العصر، تربط الماسونيين بفكرة الكمال التي تقوم على أسس قوية من الولاء والتضامن والأخوّة، قبلوا بها وتقبلوها طائعين مدركين. حينئذٍ حاول أن يتصوّر ما جرى ليلة الحادي عشر من شباط من عام 1921 حين، سلّم

خوسيه دي خيسوس، في حفل مهيب أيضاً، وإن كان أقلّ حزناً، تحت الأضواء ذاتها، وبين السيوف ذاتها، إلى إخوانه الماسونيين وصاية ذكرى أبيه واستمع من ستة وثمانين رجلاً جديدين على تلك الطقوس قسم الحفاظ على سرّه.

وبأمر من «الموقر»، شاهد الحضور، وهم وقوف من جديد، «المراقب الثاني» وهو يضع الورود على النعش ويطوف حولة المرة تلو المرة. كرر العملية بعده عدد من الأعضاء إلى أن نزل «الخبير الموقر» من مكانه المرتفع في «المشرق» وطلب من إخوانه أن يصطفوا في سلسلة بشريّة حول التابوت المغطى بالزهور. لكنّ شيئاً غريباً حدث في تلك السلسلة البشرية: فقد ظلت السلسلة، بعد أن تشابكت أيدي الرجال، بين خبير الطقوس و«الموقر» مقطوعة. حينئذٍ همس الخبير في أذن الرجل الواقف على يمينه، وفعل هذا الشيء نفسه مع الواقف إلى يمينه، وانتقلت الرسالة من واحد إلى واحد حتى وصلت إلى خبير الطقوس، الذي رفع أخيراً صوته:

- أيّها «الخبير الموقر»، السلسلة مقطوعة.

فردّ عليه مسؤول المحفل الأعلى:

- إخوتي الأحبّة، إنّ موت الأخ غونثالو مندوثا حطم سلسلة الاتحاد التي تربطنا. إنّ سقوط هذه الحلقة الثمينة قطع، وإن مؤقتاً، سلسلة التضامن التي يجب أن توحّد جميع الماسونيين... ومع أنّ هذا القطع هو نتيجة قانون طبيعي، وهو الشيء الوحيد القادر على فكّ الروابط الأخوية التي تربطنا في الحياة، فالواجب علينا هو أن نعيد بناءها، فليس لتلك الروابط أن تتراخى أو تضعف أبداً... أدعوكم، إخواني، إلى تقوية حلقات السلسلة الرمزية: اربطوا الحلقة - أمر، وبسط خبير الطقوس يده، إلى أن اشتبكت بيد «الموقر»-. إخواني، السلسلة مترابطة. لتكن هذه الدائرة التي شكلناها حول النعش الذي يذكرنا بالأخ المتوفى البلسم الذي يخفف من حزننا ويرسخ اتحادنا...

لم يكن لفرناندو تيري أن يتجنّب الأمر، فرفع يده اليسرى مع يد

دلفينا، فكأنّه يمتثل لأمر مؤجل ما عاد له أن ينتظر، بينما أمسكت يمناه بيد الأسود ميغيل أنخل. وسلّم ميغيل أنخل، وهو ينظر إلى الماسونيين الذين أعادوا تشكيل سلسلتهم، يده اليسرى إلى أركاديو، الذي تناول يد آلبارو، الذي تردد لحظة ثمّ أمسك بيد كونرادو الذي شدّ بدوره على يد توماس، في اللحظة التي كان «الخبير الموقر» يستأنف كلمته.

- إخواني، أمام هذه المنصة الجنائزيّة، الشاهد الصامت على تكريمنا الصادق، علينا أن نبعد عن أنفسنا كلّ كراهية أو أنانيّة. أنا أدعو جميع الحضور إلى أن يرددوا معي قسماً غليظاً على نسيان الإساءات والإهانات التي تعرضتم إليها. لا للعداوات: وليحل علينا السلام والألفة.

نظر توماس، من دون أن يطلق يد كونرادو، إلى فرناندو وهو يتقدم صوب دلفينا، ليمسك بيدها الطليقة ويغلق السلسلة. نظر ستة رجال وامرأة، ترافقهم ذكرى أخوين ميتين، إلى عيون بعضهما البعض، وكأنّ الزمن قادر حقّاً على التوقف، بل على الرجوع، وكأنّ الذاكرة تتعافى من أحقادها الدفينة.

- لا بدّ من أن يموت أحد لكي يعلم الآخرون أنّهم أحياء - قال ميغيل أنخل.

- كفاك خطابات، ويحك- قال آلبارو.

ابتسم فرناندو وتوماس.

- خسارة أن يموت العجوز، لكن علينا الاحتفال بذلك - اقترح ميغيل أنخل.

- طيب، ولكن، أطلق يدي أولاً - احتج آلبارو مبتسماً، وتبخرت الرسميات التي كانت توشك أن تشلّ حركتهم.

عاد فرناندو ودلفينا إلى مقعديهما. كان اليقين بما يمكن أن تعنيه تلك السلسة واقترابُ موعد رحيل فرناندو يملآن نفسيهما بالكرب.

- من كم سنة وهما متزوجان؟ - سألت هي، وهي تنظر إلى مرتفع المشرق حيث كانت الأرملة.

- الله أعلم. الابن الأكبر هو من سنّنا.

- وذاك الذي يلبس قميص مربعات هو الأصغر، أليس كذلك؟

جال فرناندو بنظره يبحث عن أصغر آل مندوثا ووجده واقفاً عند إكليل من الزهور يتكلم مع رجل يكبره سنّاً. كان ذلك الرجل، وهو خلاسي قوي، وإن كان شعره أبيض تماماً، يرتدي ثوباً يُبدي سلسلتين ذهبيتين تتقاطعان في رقبته.

- بلى. ذاك هو الذي يبيع الخنازير في السوق - أكّد فرناندو. لكنّ صعقة عنيفة سرت في بدنه: ومع أنّ الرجل الذي كان يحادث ابن مندوثا لم يستدر إلَّا نصف استدارة، فقد تعرّف عليه في الحال، على الرغم من الشيب والسنين والميداليات والصلبان الذهبية التي تتلألأ الآن على صدره. لطالما اجترّت ذاكرته ذلك الوجه وتينك العينين الحادتين، حتى إنّها لتتعرف عليهما ولو كانا في جهنّم. كان الرجل، وهو يضع سيجارة بين أصابعه المليئة بالخواتم، يبحث لاهياً عن بوابة المعبد حين شعر فرناندو، وقد تبللت راحتاه بالعرق، أنّ قوة مجهولة تدفعه.

- سأعود حالاً - قال لدلفينا ومرّ من أمام أصدقائه، باحثاً عن الباب.

حين وصل إلى ممر المدخل رآه يقف بالقرب من واحدة من النوافذ، وقد أشعل السيجارة. نظر إليه بتمعّن حتّى إنّ الرجل أحسّ بأنّه مراقب فوجّه نظره إليه، وإن التفت في الحال، لنفض رماد سيجارته من النافذة. حينئذٍ تقدم فرناندو تيري منه وتوقف إلى جانبه. أراد أن يخرج سيجارة لكنّ يديه كانتا ترتجفان.

- ألا تذكرني؟

انتبه الرجل، وقد أقلقه حضور الغريب، لكنّه حاول الابتسام، وهو ينظر إليه.

- وجهك، أيّها الفتى، لا يبدو غريباً عليّ، لكن... هل أنتَ من السوق؟

- أنتَ رامون - قال حينئذٍ فرناندو فاختفت الابتسامة من وجه الآخر.

- فأنتَ تعرفني إذن؟

- أنا فرناندو تيري - قال وانتظر ردة فعل رجل الأمن.

- آه، ويحك، نعم - وعاد إلى الابتسام-. أنتَ فرناندو الجامعة. ما أطول ما مرّ من السنين. وكيف حالك، رفيقي؟

بدا رامون من جديد واثقاً من نفسه، هادئاً، بل بدا سعيداً تقريباً بالعثور على شخص عرفه من قديم.

- حياتي خراء. لقد اضطررتُ إلى ترك كوبا...

- صحيح؟

- وهل يثير هذا استغرابك؟

- ليس كثيراً - اعترف رامون-. فلقد رحل الكثيرون...

- وأنتَ؟ أرى أنّ أموركَ جيدة - قال فرناندو وهو يشير إلى سلسلتي الذهب المعلقتين في رقبته.

- الآن نعم، لكنّي عانيتُ ما عانيت. طردوني من الخدمة عام 89. قضيّة دبّرت لي بإحكام... لم يثبتوا عليّ تهمة، لكنّهم وشوا بي، وبقيت أعيش مما أجد إلى أن بدأت العمل في السوق مع خورخيتو مندوثا.

- فما عدتَ إذن شرطيّاً؟

- لا. خرجتُ من عشر سنوات. ياه...، رامون إذن... ما عدتُ تقريباً أذكرُ هذا الاسم. بعد ذلك سميت نفسي (والدو) ثمّ (عمر) وأخيراً (آليكس). وأنت، لماذا رحلتَ؟

- أنت تعرف لماذا طردوني من الجامعة ووضعوا اسمي في القائمة السوداء.

- كانت تلك الفترة رهيبة، نعم. لأيّ سبب...

- لقد قضيتُ حياتي وأنا أحلم بك.

- ويحك، رفيقي...

- لا تقل لي رفيقي.

- حاضر. حاضر.

- وأنت الآن ماسوني؟

- نعم، عنّ لي أن أكون ماسونيّاً.

شعر فرناندو بجرعة السخرية التي احتواها ذلك الردّ. لأنّ رامون، بمسمياته العديدة، يمكن أن يكون أيّ شيء: شرطيّاً، ماسونيّاً، مسيحيّاً، بيّاع خنازير، أيّ شيء تجبره العيشة على أن يكونه.

- أردتُ أن أسألك عن شيء، ولأنّك ما عدت الآن شرطيّاً فستستطيع أن تجيبني عنه.

ابتسم رامون ورمى بعقب السيجارة إلى الشارع.

- من هو الذي وشى بي وقال إنّي كنتُ أعلم بأنّ صديقي سيرحل؟

بدا رامون ظريفاً وهو ينظر إلى فرناندو وكأنّه ينظر إلى مخلوق غريب.

- ومن قال لك إنّ هناك من وشى بك؟

- أنتَ قلتَ لي ذلك.

- وربّما أردتَ أنت أن تفهمه على ذلك النحو. انظر، أتذكر أنّني رميت لك بالسنارة. نحن كنّا نعلم بأنكم تجتمعون وتتسامرون وتتبارون في نظم الأشعار وإنشادها. حاولنا أن نجند واحداً منكم، لا أذكر ماذا كان اسمه، كان أسود...

- ميغيل أنخل؟

- لا أذكر اسمه. كان حزبيّاً نشيطاً، لكنّه لم يشأ أن يتعاون معنا. حينئذٍ وقع حادث ذاك الأستاذ الذي أراد الرحيل في لانش ورأيتُ أن باب السماء فتحت لي. رميتُ لك بالسنارة لأرى إن كنتَ تريد أن تتعاون معنا، لكنك لم ترد وعقدتَ الأمور على نفسك. رفعتُ أنا تقريراً لكي يشدوا أذنك ويخضعوك للمراقبة، ويبدو أنّ أحد ما في الجامعة شعر بالخوف فقرروا طردك من الكلية.

- هذا كذب.

- كذب؟ ولماذا أكذب عليك الآن؟ لقد كذبتُ عليك في ذلك اليوم وأنت صدقتَ ما قلتُ. لم يقل أحد شيئاً عنك. لا المخنّث الذي كان معتقلاً ولا أيّ من أصدقائك. لقد طينتَ نفسك بنفسك وطبق عليك مسؤولو الجامعة العقوبة لأنّهم خافوا أيضاً.

- ما زلتُ لا أصدقك. لا أستطيع أن أصدقك.

- هذه مشكلتك. لقد قلتُ لك إنّي ما عدتُ شرطيّاً منذ ألف سنة. انظر، أنا بفضلك خرجتُ من الجامعة، وكانتْ مصدرَ إزعاج كبير لي، ونقلوني إلى وزارة الثقافة. لكنّي لم أقصد إلحاق الأذى بك.

- لكنّك آذيتني.

- هنا يؤذون أيّ واحد. انظر إليّ!

- لا أصدق أنّك اخترعتَ ذلك كلّه.

- بلى. اسمع، أقسم لك بوالدتي، ألّا تخرج من هناك حيّة إن كنتُ أكذب عليك- وأشار إلى داخل المعبد.

شعر فرناندو أنّ في إمكانه أن يخرج سيجارة، لكنّه لم يشعلها. كان فتور ذلك الرجل واستهتاره يخنقه. فليس في أصل تلك القصّة الغريبة، التي تركت بصمتها على حياته وحياة أصدقائه، خوف ولا ضغط ولا ابتزاز: لم يكن الأصل إلّا في قرار خبيث من رجل شرطة كان يبحث عن ترقيات وعن مخبرين، وهو ذاته الذي طردوه بعد سنوات، الله أعلم بأيّ جرم، لكنّه بكل تأكيد جرم حقيقي ويستوجب العقاب.

- فبسببكَ إذن اتخذوا منّي معبراً.

- أو إنّك سمحتَ بذلك.

- نعم... - قال فرناندو ووجد أنّه ما عادت لديه حجج ولا كلام، بل ما عادت لديه رغبة في أن يظل مع ذلك الرجل الذي كان في وقت من الأوقات يمتلك سلطة لملاحقة ماسونيين وكاثوليك، والذي يمتلك الآن الجرأة على الانخراط في الماسونية وحمل صليب وميدالية تحمل صورة عذراء المحبّة -. فعلتَ ذلك لأنك ابن قحبة.

- اسمع، رفيقي، الزم حدّك هنا.

- فعلتَ ذلك لأنّك ابن قحبة، مع ذلك فأنا أشكر لك ما قلته لي - واصل فرناندو الكلام، وهو يشعر بالرضا لمصالحة نفسه ومصالحة ماضيه. شعر فجأة بأنّه نظيف، بأنّه تحرر من الأثقال التي كان ذلك الرجل نفسه، وقتَ كان متحكماً بالمصائر، قد تكفّل بربطها إلى ضميره-. آمل أن أكون حاضراً في السهر على جنازتك.

دخل فرناندو المعبد بينما كان ستة من الأعضاء، بمناديلهم وسيوفهم، يحرسون النعش. نظر إلى دلفينا ورأى أصدقاءه، وكانوا يتناقلون من تحت أرجلهم زجاجة الرون. لم يتوقف، بل اتجه نحو التابوت واقترب إليه، من بين اثنين من الحرس، لينظر إلى وجه الدكتور مندوثا. كان يريد أن يشكر لأستاذه دروسه في اللاتين، وعثوره على محضر من محاضر المحفل وفّر له فرصة التحرّر من أشدّ جوانب ماضيه قتامة وألماً.

***

صار (دومنغيتو بيليث دي لا ريبا إي دل مونته)، منذ أن بلغ سنّ الإدراك، يكره أبويه لأنهما أسمياه بهذا الاسم.

ولد الصغير دومنغو وقت احتفال باريس بربيع عام 1898، بينما كانت تُراق في كوبا آخر الدماء ويحرقُ آخرُ الحقول وتغرقُ آخرُ سفينة إسبانية وتضع حربُ الاستقلال أوزارها بتدخل مشاة البحرية الأمريكيّة.

بعد أربع سنوات، وعشيّة عودة الأسرة إلى الجزيرة لفتح بيتهم في هافانا والمشاركة في الاحتفالات بمناسبة ولادة الجمهورية الفتيّة، حملت الجدة الطيبة الصغير دومنغيتو إلى مكانين في باريس، تحوّلا، في ذاكرته الطفولية إلى نوافذ ورديّة لا تنمحي من ذاكرته، بعد أن رسّختهما الصور الفوتوغرافية الحميمة التي التقطوها في ذلك اليوم: برج إيفل، الذي كان آنذاك حديث التشييد تقريباً، والذي يظهر متلألئاً لانهائيّاً في ذاكرة طفل لن يشعر بدهشة أوضح من تلك ولا بتعجّب أدق من ذلك. أمّا الثاني فكان قبر جده ليوناردو دل مونته، في مقبرة (مونبارناس)،

المظللة بالصفصاف ذاته الذي يظلل الضريح المتواضع الذي يرقد فيه الشاعر بودلير.

حكت له جدته الطيبة فلورا أمام ذلك القبر، الذي نقشت على رخامته نخلة ملكيّة وعلم كوبي، لماذا سمّاه والداه على اسم اليوم الأخير من الأسبوع: دومنغو كان اسم جد جدّه (دومنغو آلداما)، وكان مهاجراً من (بثكايا)، أصبح بعمله وذكائه واحداً من أغنياء كوبا، وكان كذلك اسم أبي جده (دومنغو دل مونته)، الرجل الذي لم تعرف الجزيرة نظيراً له في ثقافته. كان بسبب اسمي ذينك الرجلين، واصلت جدته الحديث، أن قرر والداه، اللذان تزوجا في كنيسة «الروح القدس» في هافانا، قبل أن نسافر جميعاً إلى باريس، أن يطلقا اسم «دومنغو» على ثمرة حبهما، الذي كان أجمل طفل في العالم، وهو، بفضل الرب، الطفل الذي يقف الآن أمامي. لذلك سُميتَ «دومنغو»: لتتذكّر دائماً جديك اللذين كانا أصل هذه العائلة الكوبية الأصيلة، كما هي النخلة وطيور الهزار...، ولأنّكَ، ولأننا جميعاً كوبيون، فستركب غداً مع أبيك وأمّك في سفينة كبيرة وستسافرون إلى كوبا، بلدنا، وإن أجبرت الحروبُ والفقرُ والديك على أن يتعارفا هنا ويتحابا هنا في باريس، فكان في ذلك ما جعلك تولدُ في هذا المكان، البعيد عن جزيرتنا الرائعة. لا تنسَ جزيرتك، طلبتْ منه جدته: انظر إلى هذا القبر الذي يرقد فيه جدك ليوناردو دل مونته، الرجل الذي كان زوجي: أنتَ لا تستطيع إلّا أن تكون كوبيّاً. أنتَ لا تستطيع أن تكون شيئاً آخر، فلأجل أن تكون كوبيّاً قاسى أجداد دومنغو آلداما ودومنغو دل مونته وجدك ليوناردو كثيراً وماتوا جميعاً بعيداً عن تلك الجزيرة التي حلموا بها حرة ومزدهرة – همستْ له جدته العذبة وقد امتلأت بالدموع عيناها الدافئتان اللتان لم يعاود رؤيتهما، فقد ماتت العجوز بعد ثلاث سنوات، في مدينة نيويورك الموحشة، بعيداً عن كوبا.

لكنّ اسم «دومنغو»، بغضّ النظر عن تكريم الأجداد وعن المشاعر الوطنية، كان على الدوام مبعث إزعاج له. في المدرسة في (بوستون)،

حيث درس حتى وصوله إلى هارفرد، كان أساتذته، العاجزون عن لفظ اسمه بطريقة صحيحة، ينادونه «دومنغا». أمّا زملاؤه من الطلاب الأمريكيين، فكانوا ينادونه «صنْدَيْ»، بعد أن اكتشفوا معنى ذلك الاسم الغريب والعصيّ على اللفظ. أمّا في قصر (البيدادو)، حيث نشأ وأمضى إجازاته بين عامي 1910 و 1919، فقد كان والداه والخدم ينادونه «دومنغيتو»، بينما فضّلت القلة من الأصدقاء الذين صاحبهم في الحيّ أن يسموه «مِنغو»، وهي صيغة فيها من السلبية ما فيها، إذ إنّ وصف أحد بأنّه «مِنغو» تعادل وصفه بأنّه أحمق، كما أنّ الـ «مِنغو» في لعبة البليارد يطلق على الكرة البيضاء التي لا تحمل رقماً ولا قيمة، إذ لا نفع منها غير أنّها تتلقى ضربات بقية الكرات.

على وصمة ذلك الاسم نشأ وكبر، وتخرج محامياً وأقام مكتبه في (ماتانثاس)، حيث حظي بواحدة من الزيجات المربحة المجزية، التي ألفتها أسرته وطالما انتفعت منها- والتي لم تحدثه جدته فلورا عنها قط-، حين تزوّج من (آنا دي لاس مرثيديس مادام)، وهي من الأقارب البعيدين، وكانت أقرب إلى الدمامة والحمق منها إلى الجمال والظرف، لكنّ عائلتها، وخلافاً لعائلة آلداما وعائلة ألفونسو، اللتين ارتبطت بهما عائلة مادام تجاريّاً من مئة سنة تقريباً، كانت قد قفزت من المستعمرة إلى الجمهورية وكسبت أموالاً وجدت طريقها الآمن في بنوك باريس ولندن ونيويورك.

خطرت صورة الجدة العذبة فلورا، التي أضاءها شعاع الشمس الخجول المتسرّب من الصفصافة المتشابكة الباكية، في مقبرة (مونبارناس) القديمة، على بال دومنغو بيليث دي لا ريبا حين وصل، وهو في مكتبه الخاص، إلى الورقة الثالثة من تلك المخطوطة التي طبعها قريبه ريكارديتو خونكو على الآلة الكاتبة، حيث وجد اسمه مذكوراً لأوّل مرّة ومتبوعاً بتعليق صغير يصفه بأنّه «صاحب صوت ملائكي وعيني شيطان قصير النظر». لكنّ ما كان يرى فيه، حتى ذلك الوقت، تلفيقاً غريباً من طرف ريكارديتو، بدأ يكتسب معنى، فواصل قراءة المخطوطة

- حيث كان يظهر اسم «دومنغو» من حين لآخر -، لكنّه ما عاد قادراً على أن يُخرج من رأسه أنّ ما بقي على تاريخ السابع من أيار من عام 1939، وهو التاريخ الذي عزم قريبه على أن يسلّم فيه تلك الأوراق المزعجة إلى المطبعة، لا يتعدّى الثمانية أشهر.

حين قلب دومنغو بيليث دي لا ريبا الورقة الأخيرة، أحسّ بكراهية لامتناهية نحو أصله ونحو عائلته ونحو البلد الذي وقعت فيه تلك الأحداث، لكنّه أحسّ بكراهية خاصة نحو اسمه. ما عاد ذلك الاسم الذي يعني يوماً من أيام الأسبوع، فيدعونه «صَنْدَيْ» أو «دومنغو» أو يسخرون منه فيدعونه «مِنغو»: بل لقد اكتسى اسمه ذو المقاطع الثلاثة معنى جديداً يذكّر بالخيانة والانتهازية والحسد والكذب، بل لقد بات خطيراً مدمراً، حتّى إذا شبّ الحريق فلن يعود في إمكان شيء أن يحول دون أن يحرق اللهيب شخصه ويهدّ طموحه السياسي.

فكّر طوال أيام، وهو يعاود النظر في بعض المقاطع التي وضع تحتها خطّاً في قراءته الأولى. إنّه لا يرى مناصاً من الخضوع لابتزاز ريكاردو خونكو. فما أقلّ ما يعنيه لسافل منحطّ مثل ريكاردو أن يُكشفُ النقابُ عن أن قسماً من العائلة ذو أصل غير شرعي. أمّا مردود ذلك عليه، وهو الذي يتطلع إلى رئاسة البلاد، فسيكون قاضياً، بغضّ النظر عن صحة تلك الادعاءات أو بطلانها، إذ يكفي أن يكون مصدرها شخصاً من قدر شاعر كوبا الوطني.

فكّر دومنغو في الأمر أياماً عدة ثمّ اختار أن يعرض الأوراق على زوجته، فليس له أن يردّ على مطالب ريكارديتو خونكو إلّا بموافقتها: نصف مليون دولار، مودعة في بنك (تشيس مانهاتن). بدأتْ آنا دي لاس مرثيديس بالقراءة على عجل، يدفعها الفضول، وبعد بضع ساعات دخلت على زوجها في مكتبه وهي تصيح بأنّ ما قرأته افتراء. حينئذٍ بدأ دومنغو بيليث دي لا ريبا إجراءات لشراء مذكرات رجل يُلقي بانتقامه المدمّر صوب المستقبل وهو راقد في قبره الضائع.

قبل أن يبرم دومنغو بيليث دي لا ريبا الصفقة، قرأ الأصل، فلربّما أدخل ابن عمّه الشقي تغييرات عليه، وتأكد من أنّ النسخة التي قرأها نسخة مطابقة للأصل. وسلّم ريكاردو خونكو شيكاً بمبلغ خمس مئة ألف دولار عليه توقيعه وتوقيع آنا دي لاس مرثيديس، مرفقاً بوعيد من أنّه سيدفع كلّ ثروته إلى قاتل مأجور سيصفّي آل خونكو جميعهم إن أقدم الآخر على نشر نسخة أخرى من المخطوطة.

وبحساب بسيط وجد دومنغو بيليث دي لا ريبا أنّ تلك الأوراق المئة وثماني عشرة، التي تكاد لا تساوي شيئاً في السوق، كلّفته أربعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وثلاثين دولاراً وثمانية وعشرين سنتاً للورقة الواحدة، ومن دون أيّة ضمانة مؤكدة على مردود ذلك الاستثمار: فأيّ انقلاب، وأيّة ثورة، وأيّ تدخل أمريكي قد يغيّر مسار البلد السياسي ويطيح في لحظة بكلّ طموحاته السياسية ومعها بإمكانية التعويض بما يناسب ما دفعه عن تلك الأوراق المشؤومة. في السابع من أيار من عام 1939، ألقى دومنغو بيليث دي لا ريبا إي دل مونته، إلى النار، وفي تسلسل رقمي دقيق، بالأوراق فتحولت إلى دخان كثيف وغامق. كان شعوره بالارتياح يزداد مع كلّ ورقة، فكأنّها لم تكلفه أربعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وثلاثين دولاراً: كلّ ذلك لكي يرقد التاريخ في سلام، بعد أن أعاد ترتيبه، بالإرادة وبالمال، دومنغو آخر، لم يفلح في أن يصبح رئيساً لبلد لم يستطع لا أن يفهمه ولا أن يحبّه، كما طلبت منه ذات مرّة جدته العذبة فلورا.

***

بعد أن تخيّل مطوّلاً عودته، وتصوّر لقاءهُ بأشخاص وأماكن، واسترجع أحاسيسَ وأذواقاً، وذكريات وروائح، وبعد أن أمعنَ في بناء حركات وكلمات ومواقف سيتخذها وينطقُ بها، وجدَ فرناندو تيري نفسَه وهو لا يدري كيف سيغادر كوبا. فقد داوى، على مدى الأيام الثمانية والعشرين التي أمضاها في بلده، جراحات قديمة، لكنّه فتح جراحات أخرى، يعي أنّها يمكن أن تكون نازفة. فإذا استطاع خلال عشرين سنة

خلت أن يهرب كالمجرم، حاملاً في سمعه صراخ الحشد الغاضب وهو يصفه بالحثالة، وإيماناً راسخاً بأنّه لن يعود أبداً، فإن مستنقعاً موحلاً من الشكّ يضيّق عليه شيئاً فشيئاً.

ولم يجد طريقة أفضل لنهاية إقامته في كوبا ممّا اقترحته عليه كارميلا من أن يدعو أصدقاءه إلى العشاء في بيته. لذلك عرض على أمّه أن يتناولا الغداء وحدهما، لأنّه سيمضي العصر مع دلفينا والمساء مع أصدقائه، وسينتظر معهم فجر يوم سفره، قبل أن يعود إلى البيت ليأخذ حاجياته ويذهب إلى المطار: فهو لن يطيق لحظات العناق والوداع، بل يفضّل ألّا يُشرك معه أحداً في تلك اللحظة الغريبة من مصيره.

هاتفَ آلبارو وطلب منه أن يستدعي «الساخرين» إلى جلسة سمر في تلك الليلة. سينشدون، قال له، شيئاً لم يسمع به أيّ منهم، حتى هو نفسه لم يسمعه، وترك آلبارو وبه فضول شديد. كان غداؤه مع أمّه هادئاً وحزيناً، تحايلا لكي يكون أقرب ما يمكن من الحالة الطبيعية. طبخت له كارميلا البامية التي كان يحبّها، ومعها القلقاس المقلي والرز الأبيض واللحم المقطّع المتبّل بالكثير من الثوم والليمون البلدي. وتوقع أن تكون دلفينا ما زالت في بيت أهلها، فرقد على سرير أمّه ودخل في نوم عميق بعد عشر دقائق، ومن دون حاجة إلى قراءة كتاب.

حين داعبتْ أمّه جبينه، استيقظ وهو لا يحسّ اللحظة التي يعيشها. كان إحساساً لطيفاً ومبهماً جعله يفكّر ليعرف مكان ذلك الاستيقاظ اللذيذ وزمانه، وخصوصاً زمانه.

- يطلبونك على التلفون... هيّا - قالت له كارميلا.

وأخيراً جلس واستردّ كامل وعيه. سار ببطء نحو التلفون وهو متيقن من أنّها دلفينا.

- نعم...

- فرناندو؟ - سأل صوتُ امرأة.

- نعم...- قال، وهو يحاول أن يتعرّف على الشخص الذي يكلمه.

- أنا كارمنثيتا خونكو.

- آه، حضرتك... نعم، تفضّلي.

- متى ستسافر؟

- غداً. أسافر غداً.

- أريد رؤيتك.

انتزع قلق شديد آخر ما تبقّى من نعاسه وشعر بصعوبة في تنفسه.

- ما رأيك أن نلتقي بعد نصف ساعة؟

- حسناً. أنتظركَ في بيتي.

لم يلزم فرناندو تيري أكثر من خمس وعشرين دقيقة لكي يكون تحت اللوحة التي كتب عليها «مطعم بالمار دي خونكو». ضغط على زر الجرس واستقبلته ابتسامة حفيدة كارمنثيتا خونكو.

فتحتْ له السيدة العجوز وصافحته. سار فرناندو خلفها نحو الصالون، الذي أضيفتْ إلى مفاجآته مفاجآت لم يلتفت إليها. أشارتْ عليه المرأة بالجلوس وجلست هي على أريكتها المفضلة.

- كيف سارت الأمور معكَ؟ - بدأت هي، بينما كانت تضع سيجارة في فمها الدقيق.

- لا أشكو، لكنّي لم أعثر على أوراق هيريديا. بعد كلّ ما رأيتُ وسمعتُ فأنا متأكدٌ من أنّ عمّ حضرتك، ريكاردو، هو آخر من امتلك الأوراق بعد أن أُخرجتْ من المحفل. وقد باعها أو أتلفها بنفسه.

- فأنتَ تظنّ إذن أنّها غير موجودة... وكنتَ تريد تلك الأوراق لتنشرها، أليس صحيحاً؟

- لستُ أنا الذي أردتُ نشرها. كان ابن هيريديا من طلب ذلك.

- صحيح، أنت على حق - أقرّت العجوز.

- كان من المفيد، على الأقل، أن نعرف ما كانت تقول...

ابتسمت كارمنثيتا خونكو.

- ما زال هناك حلّ لهذا.

شعر فرناندو بأعصابه تتوتر وتشتد.

- هل تقصدين حضرتك أنّ...؟

- لا. أنا لم أرَ تلك الأوراق قط...، لكنّ عندي رسالة من هيريديا.

- أيّة رسالة؟

- رسالة سأعرضها عليك لتقرأها، لا لتنشرها. إنّها رسالة شخصيّة. وإن صرحتَ بأنّك قرأتها فسأكذّب تصريحك. لو ظهرت مذكرات هيريديا لكان الأمر مختلفاً.

- عن أيّة رسالة تتحدثين؟

- يبدو أنّها آخر رسالة كتبها هيريديا. إنها رسالة كتبها إلى لولا خونكو وطلب من زوجته خاكوبا يانيث أن تسلمها إليها باليد، أو أن تسلمها إلى ابنهما استيبان إن كان وقع شيء لوالدته لولا.

- فصحيح إذن أنّ هيريديا ولولا... ولماذا تريدين أن تريني إياها الآن؟

- لأنّي أيضاً أظنّ أنّ أوراق هيريديا ما عادت موجودة وعلى حضرتك أن تعرف على الأقل ما كانت تقول...

نهضت العجوز. أخرجت من إضبارة كانت موضوعة على البيانو ورقتين لفّت كلّ واحدة منهما بغلاف من النايلون الشفاف.

- لا تُخرج الأوراق من الغلاف. فقد تتلف.

أخذ فرناندو الورقتين المحفوظتين وتقدم نحو المنضدة الموضوعة بالقرب من النافذة الزجاجية. كان هناك ما يستغرب في تلك الرسالة، فالخط الدقيق المسطر بالأسود على الورق الشبيه بالرقاق لم يكن خط هيريديا. وضع فرناندو الرسالة بيدين معرقتين في وضعيّة مناسبة وبدأ بالقراءة، وأحسّ بألم في داخله يضغط على حنجرته، وصل به إلى قريب من الاختناق.

السيدة دولورِس خونكو
ماتانثاس
جزيرة كوبا

المكسيك في الثالث من أيار 1839

«غاليتي لولا:

لا تستغربي أن تكون زوجتي خاكوبا العزيزة الطيبة هي من تحمل لك هذه الرسالة. فقد طلبتُ منها، بعد أن أصبحتُ عاجزاً عن الكتابة، أن أمليها عليها، ثمّ طلبتُ منها أن تتكفّل بتسليمها لك أو، إن كان ذلك ضروريّاً، لابننا استيبان. وقد وافقتْ، وهي المطلعة على كلّ سرّ من أسرار حياتي، على تنفيذ رغبتي، وأنا المشرف على موت بات أجله يقترب شيئاً فشيئاً».

«من سنتين، أثناء زيارتي الأليمة إلى كوبا، حظيتُ ببعض الراحة، إذ عدتُ ورأيتُ أمّي وخالي وشقيقتي، وتعرفتُ على أبنائهن. لكنّي أذكر على نحو خاص اللقاء القصير الذي جمعني وإيّاكِ، حين أعلمتِني بما عانيتِ في حياتكِ. كان من حسن حظي أنّني شعرتُ في ذلك اليوم بالراحة حين سمعتُ منك وبصوتك أنّنا لسنا نحن من رسم مسار حياتنا، بل كانت قراراتٍ تفوق إرادتنا، أملتها قوى قدرية محتمة حتى بدت محفورة على جباهنا، ونعمتُ بسعادة مطلقة حين علمتُ بأنّ ثمرة حبّنا لم يلحقه المصير المحزن الذي ظننتُ لسنوات طويلة أنّه كان من نصيبه».

«باستثناء لحظات العزاء القصيرة تلك، والتي كانت مهمة جدّاً بالنسبة إلى روحي، فقد قست عليّ أيامي في كوبا إذ أرتني مدى ما تبلغه الكراهية والغرور والحسد والحرص على السلطة والقدرة على الانتقام المستقرّ في قلوب البشر. في تلك الأسابيع القليلة عانيتُ أفظع صور الإهانة والازدراء، وأغرب خيبات الأمل، وتعرّفتُ على بعضٍ من أوقح صور الزيف التي يمكن للعقل البشري أن يتصورها. وعلمتُ، وكان ذلك الغاية في خيبات الأمل، أنّ أصلَ مصائبي الكبرى يكمنُ في

الخيانة، في غدر إنسان منحتُه مودتي وثقتي وأحطته بمشاعر صداقتي، بل لقد عذرتُ له، أكثر من مرّة، أخطاءه في حقي».

«بكلّ ذلك الألم فوق كاهلي عدتُ إلى المكسيك، وأنا عالم بأنّي جريحٌ جراحَ موت. كانت أشهري الأخيرة هناك احتضاراً طويلاً وأليماً لم يكن الأطباء يملكون له علاجاً، فمرضي، وإن كان مرض جسدٍ، فهو مرض روح أيضاً. كان من المؤلم خصوصاً أنّني، وقد بِتُّ عاجزاً عن كتابة الشعر، ما كنتُ أجد صديقاً أراسله أو قريباً أبثّ له همّي. مع ذلك بدأتُ بالكتابة، وهي ما لا أحسن غيره ولم أتعلّم سواه في أيام حياتي الدنيوية القاسية. بدأتُ بالكتابة، ربّما متوجهاً إلى الربّ، ورحتُ أسطّر على الورق أحداث هذه الرواية الغريبة والملحّة التي هي حياتي. وبعد أن تجرّدتُ من كلّ غرور وتكبّر، رحتُ، وبكلّ الصدق الذي قدرتُ على إخراجه من ذهني المتعب، بل وبكل الفجاجة والصرامة، أنسج فصول حياتي التي تذكرتها، وفي ذلك الاستذكار تظهرين أنتِ بالطبع، وتظهر كلّ السعادة والمرارة التي عادتْ علينا بهما علاقتنا القصيرة. لكنّي أقصّ أيضاً، استجابة لداعي العدالة والحقيقة، حوادث لم يطّلع عليها أحدٌ غيري، أو تلك التي قدّرتُ أنّ الآخرين الذين اطلعوا عليها سيسكتون عنها لخوف أو لتأدّب، والتي أرى أن يطلع عليها ولدي استيبان وكلّ واحد من أبناء تلك القطعة الشقيّة من الأرض التي عددتْها، وبإصرار، وطني، إن كان ذلك ممكناً».

«لذلك، ومع أنّ رغبتي هي أن يعرف الجميع قصّتي وأن تجد الحقيقة طريقها، فقد قررتُ أن تضعي تلك الأوراق التي ستوصلها خاكوبا لكِ في يد ابننا، فعلى الرغم من قرارك بالإبقاء على أصله سرّاً عليه، فأنا أعتقد أن ليس من حقنا أن نخفي عليه الحقيقة الكبرى في حياته، المهم هو أن يعرف مَن هما والداه وما هي الأسباب التي حالت دون أن نمنحه الحبّ الذي يستحقه، وليقرر بنفسه، بعد ذلك، مصير هذه الأوراق: عليه هو أن يقرر إن كان من المناسب نشرها أم إخفاؤها وستر الحقيقة – التي ليست هي حقيقته وحده وحقيقة أبيه– والتكتّم عليها».

«أمّا السبب الذي دفعني لاتخاذ القرار بترك مصير مذكراتي لإرادة استيبان فهو، بالذات، أنتِ وهو. فليس أبعد عن قصدي من الإضرار بسمعتكِ أو من خلق مشاكل تتصل بنسبته. لكنّ إيماناً عميقاً يجعلني أثق بأمانة هذا الابن الذي لم أستطع أن أراه، وإنّي على ثقة من أنّه سيذيع ذات يوم حقيقة حياتي حين أكون أنا قد رحلتُ عن هذه الدنيا».

«أعلم أنّ كلاماً كثيراً دار في هذه السنوات عنّي وعن أفعالي، وأعلم أنّ هناك من اتهمني بأنّ مبادئي فترت وقناعاتي ضعفت، وبأنّني خضعتُ للرقيب، وعقدتُ صفقة مع الطاغية المستبد كان ثمنها العودة إلى كوبا لمدة شهرين. وهذه حقيقة. لكنّ خلف هذه الحقائق حقائق أخرى يجهلها بنو وطني، كالسبب الذي دفعني إلى كتابة رسالة الاعتذار البائسة تلك إلى قاضي التحقيق في قضيّة 1823، إذ لم يدركوا أنّ حبّي لك وحلمي في أن أعيش إلى جانبك، مع ابننا، هو ما جعلني أفكر في قسَم البراءة ذاك الذي ما زلتُ غير نادم عليه، فقد كان الهدف الوحيد منه هو أن أترك خطّاً للعودة إلى حضنك».

«لكنّ بعض الذين حرصوا على التنكيل بي، مثل صديقنا القديم دومنغو، وهو اليوم ذو نفوذ، له سهراته الأدبية وأتباعه اللطفاء وكتبه الرائعة، ويمتلك ثروة جُمعت من السياط ومن تجارة الرقيق التي يديرها حموه الثري، هؤلاء سيأخذون مكانهم الحقيقي يوم سيستطيع الناس قراءة هذه القصّة. فمن يريد أن يعرف، إن كان ما زال هناك من يريد أن يعرف، سيعرف كيف أنّ بعض الرجال الذين قدموا أنفسهم على أنّهم ضمير البلد لم يكونوا أكثر من تجار سلطة، مستعدين لبيع أرواحهم في المزاد مقابل عطر المجد والغنى. في ذلك اليوم فحسب ستعرف روحي السلام: معك، مع الحقيقة، مع نفسي ومع ذلك الابن الذي لم أحظَ بحمله بين يدي ولا بتقبيله. عندئذٍ ستستريح روحي، في المكان الذي يهيئه لها الربّ. لذلك، ولأني كنتُ رجلاً صالحاً، فأنا أنتظر وأنا واثق من الرحمة الأبدية المطلقة لمهندس الكون العظيم».

«عزيزتي لولا: حين تتكلمين مع خاكوبا، أرجو ألّا تسأليها كيف جرت أيامي الأخيرة. أفضّل أن تحملي عني ذكرى الشاب الذي تعرفتِ عليه في مرفأ (ياموري) حيث أقسم لك على حبّه، والذي كتب لك قصائد ملؤها المشاعر الحقيقيّة، والذي عاهدكِ صادقاً على أن يكون لك زوجاً يسعدك».

«آمل أن تتفهمي وصيّتي الأخيرة في هذه الحياة، وأن تصلّي، ذات يوم، أمام صورة القديس فرانثيسكو، من أجل راحة روحي وسلامها.

خوسيه ماريا، الذي يحبّك ويقبلك»

«ملاحظة: امنحي خاكوبا الطيبة، إن استطعتِ، صداقتك. فقد كانت، وعلى مدى هذه السنين، ملاكي الحارس والزوجة الرقيقة المتفهمة».

نظر فرناندو إلى التوقيع الذي لم يحتفظ إلّا بالقليل من جرّة القلم الأنيقة والسريعة التي كان الشاعر ينهي بها رسائله. عاود النظر إلى التاريخ وفكّر أنّ ذلك التوقيع المهزوز ربّما كان آخر ما خطّتْ يد رجل تمكّن من خلق كلّ ذلك الجمال. وأدرك أنّ كلّ همومه وأحزانه طفيفة هينة وهو ينظر إليها في مرآة المصائب التي حاول أن يرى نفسه فيها.

***

حين صعدتُ إلى السفينة التي أعادتْني إلى منفاي وتأملتُ المدينة تحت شمس منتصف نهار السادس عشر من كانون الثاني 1837 الصافية، كنتُ أدركُ أنّني أودّع كوبا نهائيّاً، وشعرتُ بمزيج من الراحة والألم. لم تكن تلوح في أفقي، كما كانت تلوح في أفق الراهب باريلا حين جئنا لوداعه، احتمالات معركة، بل لم يكن يلوح أساسُ فكرة سامية ولا عمادُ مثل أعلى: فما عاد الشعر ولا الحب ولا الثورة موجودة في جراب مستقبلي الممزق، لم يبقَ غير قليل من الوقت لأجتر فيه خيبات أملي وأجهّز خروجي من الدنيا، بعيداً عن المكان الذي ولدت فيه والذي كان عليّ أن أعيش فيه.

وبينما كانت السفينة تغادر الميناء ألقيتُ من الجانب الذي وقفتُ عنده نظرة أخيرة على الجزيرة ورأيتُ على الرصيف رجلاً، من عمري تقريباً، يتابع بنظره مرور السفينة. تبادلنا النظرات للحظات طويلة وبلغني من تينك العينين الحزن المنزوي الذي كان فيهما، حزن شبيه بحزني، قادر على العبور من فوق الأمواج والزمن ليقيم تناغماً أقضّ مضجعي منذ ذلك الوقت، فأنا أعرف أنّنا كنّا أكثر من رجلين يتبادلان النظرات من فوق الأمواج.

لعلّ الأيام الثلاثة التي أمضيتها في الجزيرة قبل سفري، عقب لقائي تاكون، هي أفضل ما عشته من إقامتي المرّة في كوبا. فقد كان القيح والسم اللذين نفثتُهما من داخلي في مكتب الحاكم العام بمثابة حجامة لروحي، بل ولبدني، الذي أحسّ بأنّه استردّ قواه التي هدّها المرض المتفاقم.

همتُ على وجهي في الشوارع، مدفوعاً بهدوء نفسي لم أكن أنتظره، محاولاً أن أتشبّع برائحتها وبنفَسها، فما كنتُ قادراً على حديث أو لقاء مع أصدقائي القدامى، بعد أن غيّب الموت بعضهم وغيّبت الخيانة التي تأكدتْ لي آخرين. دخلتُ، في ذكرى الصداقة التي جمعتني ودومنغو، في حلبة عراك للديكة ووضعتُ للمرة الأولى في حياتي نقودي بين أرجل الحيوان، وربحتُ في المرات الثلاث التي راهنتُ فيها. بعد ذلك شربتُ النبيذ في حانات الميناء، وأنا أتذكر سلفستري وسانفيليو الكريمين، وبناء على طلب من صديقي القديم الممثل أنطونيو إيرموسيّا، وهو نفسه الذي قدّم، أيام مجدي الأولي، مسرحية (آرتيو)، في عنبر للغلال في (ماتانثاس)، حضرتُ عرضاً لصالح المؤلف التراجيدي رافائيل غارثيّا. وقد أجلسوني، بصفتي ضيف راعي العرض، في واحدة من المقصورات المميزة في مسرح (ديوراما) القديم واستمتعتُ بأداء إيرموسيّا للأدوار التي كانت السبب في تألق غارثيا وشهرته. لكنّ شيئاً غير منتظر وقع حين انتهاء العرض. فقد وقف أنطونيو، وهو يرتدي ملابس عُطيل، ووجهه ما يزال مسوّداً، في مقدمة خشبة المسرح ليُعلم

الجمهور أنّ بين الحضور الشاعر الكبير خوسيه ماريا هيريديا. شعرتُ بدفقة قوية تضرب أحشائي في تلك اللحظة، ولم أجد الوقت لاستيعاب المفاجأة، إذ بادرني إيرموسيّا بمفاجأة أكبر حين بدأ ينثر عليّ أجمل ما سمعتُ من عبارات الإطراء والمديح: ربّما أحسستُ بها على ذلك النحو لأنّها كانت صادرة من فم صديق، ولأنّي سمعتها في كوبا ولأنّ همسَ الجمهور تحوّل، عند انتهاء أنطونيو إيرموسيّا، إلى تصفيق، بعد أن وقف الحاضرون من أبناء وطني وانطلقت أكفّهم في تكريم لم أحظَ بنظيره من قبل. حييتُ والتأثر يغمرني أولئك الأشخاص الذين تحدوا خططاً معروفة وخفيّة وأهدوني جائزة إعجابهم. وبلغتُ قمّة النشوة والعواطف حين طلب إيرموسيّا الصمت وراح ينشد أمام الجمهور الذي ظلّ واقفاً على قدميه:

أعطوني قيثارتي، أعطوني إيّاها
فالإلهام يستعر في روحي المضطربة.
كم من الوقت مضى في ظلمة
من دون أن ينير بضوئه جبهتي...!
نياغارا المتلاطم المتموّج
ليس غير وجهك المهيب يُعيد لي
نعمةَ السماء التي تلذذت اليد الظالمة
بسرقتها من ألمي.

كان لتلك الأبيات الشعريّة، التي كتبها الشاعر الذي كنتُه، والتي اكتسبت بُعدها الحقيقي حين خرجتْ من فمِ كوبي لتبلغ مسامع عشرات من أبناء كوبا وعلى أرض كوبا، معنى خاص. هل كان سماع تلك الأبيات المجلجلة وذلك التصفيق المدوّي كافياً كي تكون عودتي إلى وطني مجزية واستحقتْ عناءها؟ سالت الدموعُ على خدّي وأنا أعيش

ذلك التكريم الرائع، الذي كشف لي في لحظة واحدة عن معنى حياتي البائسة: ذاك ما كنتُهُ أنا؛ إنّه انتصارُ الشاعر العظيم.

ذهبتُ أنا وأنطونيو ورافائيل إلى إحدى حانات الميناء للاحتفال بالمناسبة، وقرّر إيرموسيّا الذهاب بنا إلى مكان لن ننساه، كما كرّر هو علينا، وقد أثقل الشرابُ لسانه. وبعد أن تغلّب على تمنع رافائيل، بسبب سنّه، وتمنعي، بسبب الإرهاق الذي أصابني طوال النهار، صعدنا، وقد انتصف الليل تقريباً، إلى عربة حملتنا إلى أبعد من «جادة الملكة»، وتركتنا أمام بناء لا يمكن إلّا أن يكون ماخوراً. كان بابُ المكان، الذي ذكّرني بمنزل مدام آن- ماري، مفتوحاً على الرغم من الساعة المتأخرة من الليل. رأينا عند دخولنا امرأة بدينة، لبشرتها لون القرفة، تناهز الخمسين، رفعتْ لحمها الكثير من على أريكة الخيزران واقتربتْ منا للترحيب بنا. يا لهول المفاجأة! لم ترتعش ساقاي، بل لقد أغمي عليّ حين اكتشفتُ أنّ تلك المرأة البدينة لم تكن غير بتينيا، التي اغرورقت عيناها، حين ميّزتني، بالدموع قبل أن تجري نحوي وتتشبّث برقبتي.

لا أشعر بالخجل إن قلتُ إنّني أمضيتُ آخر يومين لي في كوبا معتكفاً مع بتينيا في إحدى غرف الماخور الذي أصبحتْ هي مديرته. ولا أشعر بالخجل إن أقررتُ بأننا لم نمارس الحب كما فعلنا مراراً في أوقات أخرى. وما كان ذاك لغياب الرغبة وانقطاع الشهيّة: بل لأنّنا أدركنا أنّنا صرنا بعيدَيْن عمّا كنّاه، وأنّ لدينا من الذكريات ما لا يجدر تعكيرُ صفوها، ولا يمكن بعثُ الروح فيها. وهكذا، وقريباً من المذبح المزروع بالشموع، حيث وضعتْ هي صورة أمها (يمانجا)، أمضيتُ أنا وبتينيا ساعات طويلة في الحديث: حكتْ لي عمّا مرّ بها من ظروف وصروف، في نيو أورلينز ثم في سان فرانثيسكو المزدهرة ثم عودتها إلى كوبا، قبل سنتين، حين شاركتْ فرنسيّاً غنيّاً يمتلك مزرعة للقهوة وصار لديها رأس المال الكافي لفتح تلك التجارة، الوحيدة التي تجيدها. أمّا الجزء المحزن من قصتها فدار حول مدام آن- ماري، التي توفيت، قبل ذلك الوقت بثلاث سنين،

وقد تجاوزت السبعين، والتي ماتت وهي تحتفظ بصفاء نظرتها الجميلة القاهرة التي تذكر بنظرة الجواسيس. ودهشتُ حين أكّدتْ لي بتينيا أنّ ماخور سيدتها الجميل اللطيف لم يكن إلّا واجهة لشبكة تجسس نشيطة تعمل لصالح الحكومة الفرنسيّة وبتمويل منها.

ولكي تؤكد لي بأنّ ذكراي رافقتها دائماً، فقد فتحت بتينيا لي الصندوق الذي اعتادتْ أن تحتفظ فيه بصورة المرأة - سمكة كلّ المياه، التي لا تفارقها، وأرتني الطبعة القديمة من ديواني، الذي كنتُ قد أرسلته إليها عام 1825. وكانت كراساتُ ذلك الكتاب، وقد تجعدت أوراقها من كثرة ما قلبتها، على حدّ قولها، أثمن الكنوز التي رافقتها في حياتها وأجملها.

كانت لحظة الوداع أليمة، فقد كنّا ندرك هذه المرّة أنّ ما من لقاء آخر ننتظره هدية من آلهتها أو من آلهتي، بل إنّ ما ينتظرنا سيكون فراقاً أبديّاً. طلبتْ مني بتينيا، وهي تضمّ صدري المريض إلى صدرها، أن أعتنيَ بنفسي، ثمّ علّقتْ على رقبتي شريطاً رقيقاً تتدلى منه صدفة صغيرة أصدرتْ رنيناً حين اصطدمتْ بالصليب الذي كنتُ أحمله.

- هذا لكي تحلم دائماً بالبحر - قالت لي. ومن دون أن تتمالك نفسها أجهشتْ بالبكاء، فقد كانت تعلم أنّها تودع ميتاً.

تأمّلتُ السفينة (كارمن) وهي ترفع مرساتها، وقلبي مثقل بألم صديقتي وألم هافانا. وودعتُ كوبا بنظرة الغريب المفارق، لكنّي ودعتها أيضاً بألم على الأصدقاء الذين قضوا، وبغضب على المصير الذي حكموا به على الجميلة لولا خونكو، وبحزن على آلاف الرجال الذين يعيشون هناك مستعبدين، وبشعور بالشفقة على الذين اضطروا إلى بيع أرواحهم ونبوغهم في سوق الحياة ليصيروا عبيداً أيضاً. لذلك ما إن وضعتُ قدمي على أرض المكسيك حتى أدركتُ كم كنتُ محتاجاً لتلك السفرة إلى وطني، السفرة التي لم أكن أحتاجها لأحيا بقدر ما كنتُ أحتاجها لأموت في سلام، بعد أن لم يعد يلوح في أفقي الضيق غير الموت...

في الثاني من شباط من عام1837 وصلتُ إلى (تولوكا) لأجد أمامي

مشهداً مفزعاً: فقد اشتدّ المرض على زوجتي خاكوبا، ولم يدفعوا لي رواتبي، بينما تواصلت الفوضى مخيمة على ذلك البلد المنكوب. لم ينقذني من أعمق حالات الكآبة تلك إلّا فرحتي بلقاء أولادي، لوريتو الجميلة الثرثارة وخوسيه دي خيسوس المكوّر المدوّر- كانت أخته تصرّ على تسميته «بيشي»-، اللذين عانقاني حين رأياني ثمّ جلسا عند الموقد ليسمعا منّي التحيات التي أحملها من أرض كوبا البعيدة، مرسلة من جدتهم وعماتهم وأبناء عماتهم، الذين يأملون أن يلتقوهم ذات مرة، ولأطبع على خدودهم قبلهم التي كنتُ أنقلها لهم.

وكان لي في أولادي وزوجتي خاكوبا الطيبة ما دفعني إلى الخروج إلى الشارع لأكافح من أجلهم. ومع أنّي احتفظتُ بوظيفتي قاضياً في محكمة (تولوكا)، فإنّ حال الموظفين الحكوميين كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، وبحثتُ عن أماكن أعمل فيها معلماً، بينما رحتُ أجهّز نفسي لمسابقة القضاة القادمة، لذلك رفعتُ إلى وزير العدل تقريراً عنوانه: «سيرة المحامي خوسيه ماريا هيريديا الأدبية وجدارته وخدماته»، وأنا أتأمّل أن ينفع ألق أمجادي الماضية على الأقل في ضمان عمل لي. وظهرت التشكيلة الجديدة لهيئة قضاة الدولة في منتصف تموز، بعد أسابيع من الانتظار، ولم يظهر فيها اسمي. وشعرتُ بأنّ إهانة لحقتني من سلطة بعيدة لكنّها قاسية ذكرتني بأفعالي الماضية دفاعاً عن الشرعية والدستور، فتقدّمتُ إلى المحكمة طالباً أن يدفعوا لي رواتبي التي يدينون لي بها فلم يدفعوا لي من الألفين ومئتي بيزو إلّا ستة وخمسين، وأطلعوني، ليقطعوا عليّ الطريق، على القانون الجديد الذي سينشر والذي يشترط في من يشغل وظيفة في القضاء أن يكون مكسيكيّاً بالولادة.

تمكنتُ بفضلِ زملاء المحكمة السابقين من أن أعود لأعمل محامياً، لكنّي لم أكسب إلّا القليل من عملي ذاك، واضطررتُ إلى القبول بوظيفة محرر في «الجريدة الرسمية» حيث شعرتُ بالضعف لعدة شهور. كان علينا حينئذٍ أن نتخذ قراراً حاسما إزاء حالة العوز التي تواجهنا، فعرضتُ

للبيع قسماً كبيراً من مكتبتي التي كونتها في سنواتي في المكسيك، على الرغم من معارضة خاكوبا وتمنّعها، إذ رأتْ في ذلك ضرباً من الانتحار، فقد كان الكثير من تلك الكتب يحمل تواقيع مؤلفيها مع عبارات الإهداء الحميمة، وكان البعض الآخر هدايا من الناشرين الذين كانوا ينتظرون تعليقاً منّي عليها أو تقريظاً لها، بينما كانت البقية الباقية ثمرة ولعي بالكتب، ذلك الولع الذي كان يحملني على شراء الكتاب وأنا لا أدري إن كان لدينا ما نتعشى به. كان المهم في تلك اللحظة إطعام أولادي، ولا خير في كتب لا تسدّ رمقنا، ولو لمرة واحدة. وما أكثر ما ضحيتُ بالأشياء العزيزة على نفسي! وهكذا، وبينما كان دومنغو يخطط لبناء قصر منيف ويشرب نبيذاً فرنسيّاً مع جمع من بطانته متبختراً بين آلاف الكتب التي تضمها مكتبته العامرة، كان الشاعر خوسيه ماريا هيريديا يعرض كتبه للبيع ليحصل، في وحدة المنفى، على الحليب لأطفاله وقطع من أقراص البطاطس والبيض ليعتاشوا عليها.

باستثناء الرسائل التي تبادلتُها مع أمي، لم أكتبْ، في هذه الفترة، إلّا القليل من الرسائل ولم أتلقّ منها إلّا الأقل، فما عاد لديَّ أصدقاء أراسلهم ولا أعداء أردّ عليهم، وبدا النسيان الذي سقطتُ فيه وكأنه محا اسمي من قوائم من عرفني ومن كتب لي، وحتى من تودّد إليّ وداهنني. يبدو أنّ تاكون كان محقّاً إذ قال لي بأني نكرة، وغير موجود في نظر أحد وما من أحد يهمّه أمري. كان بلاس دي أوسيس هو الوحيد الذي كتب لي، وعن طريقه علمتُ بأنّ تاكون عُزل من منصبه بعد مناورة قام بها أولياء نعمة دومنغو، الذين اشتروا بسعر الذهب نائباً في البرلمان الإسباني اسمه أوليفان، تكفّل بشراء أصوات أخرى في البرلمان، ثمّ تكاتف الجميع ليصوّروا الجنرال شخصاً خطيراً يهدد استقرار كوبا، ثمّ تمكنوا في النهاية من إقالته، وكان في ذلك مناسبة لاحتفال كبير أقامه قدامى ذئاب تجار العبيد، بعد أن صاروا يرتدون مسوح الحملان. علمتُ أيضاً عن طريقه أنّ دومنغو وضع أخيراً توقيعه على واحد من

المنشورات الكثيرة التي كتبها على امتداد حياته. عنوان المنشور هو: «مشروع مذكرة مرفوعة إلى صاحبة الجلالة الملكة، باسم بلدية هافانا، للمطالبة بقوانين خاصة بجزيرة كوبا»، يصف فيه تطلعاتنا التحررية السابقة بـ «ذلك المسخ المخيف الذي يسمونه الاستقلال»، والذي استؤصل لحسن الحظ في الجزيرة. وردّت الملكة على دومنغو ورؤسائه بسرعة غير معهودة بأن ألغت مشاركة النواب الكوبيين في البرلمان وأكدت له أن من المستحيل تطبيق قوانين خاصة بكوبا... وأخيراً علمتُ عن طريق رسائل أوسيس، ولم يفاجئني ما علمتُ، بنشر قصيدة كتبها، بداية القرن السابع عشر، شخص يقال له سلفستري دي بالبوا، عمل كاتباً ملكيّاً وسكن في مدينة (بورت برنس). تروي القصيدة الملحمية، وكانت مفقودة، قصّة الأسقف خوان دي لاس كابيثاس ألتاميرانو الذي اختطفه القرصان الهوغونوتي[147] الفرنسي جلبرت خيرون ثم أنقذه أهالي (بايامو) الشجعان. قصيدة «مرآة الصبر» تلك، بحسب ما قال خوسيه أنطونيو إيتشيباريا، الذي كشف عن وجودها، هي نسخة مطابقة للمخطوطة الأصليّة التي لم يطلع عليها أحد، والتي نسخها أسقف كوبا موريل دي سانتا كروث [143]، عن النسخة الأصليّة، ثمّ قرّر، مأخوذاً بالنصّ القديم، ضمها إلى كتابه «تاريخ جزيرة كوبا وكاتدرائيتها، الذي كان إيتشيباريا نفسه قد عثر عليه في مكتبة الجمعية الوطنية في هافانا، بعد مئة سنة من فقدانه... كان ذلك، بالطبع، من حسن حظ الثقافة الكوبية، فقد صار لدينا، كما الشعوب الكبيرة، قصة ملحمية مسيحية وقديمة، لها أبطالها وأخيلتها الأسطورية التي تمنحها نبرة ومذاقاً. كان محزناً ومؤلماً أن نبني شيئاً له قداسة الأدب على الكذب. أردتُ، وأنا أشعر بالنفور، أن أبتعد عن كلّ ذلك، وسعدتُ للمرة الأولى لبعدي عن كوبا، وابتعادي عن أيّ تواطؤ في تزييف مفضوح على ذلك القدر...

147- Huguenot منسوب إلى الهوغونوتيين، وهم أعضاء الكنيسة الفرنسية البروتستانتية في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

لكنّ عادة كتابة الرسائل، التي اكتسبتها في سنوات النفي الطويلة، كانت تضع بين أصابعي كلمات ملتهبة تغلي في شفتي وتنادي بتعويذة الكتابة. لذلك شعرتُ ذات صباح، حين عدتُ مع خاكوبا والأطفال من القدّاس، برغبة عارمة في أن أسرّ لأحدٍ حقائق عن حياتي صارت تعذبني، وجلستُ على المنضدة بعد أن شهرتُ قلمي. لم أحكِ لأحد شيئاً عمّا شعرتُ به لدى وصولي إلى هافانا في كانون الأول من عام 1817، ولا عن لقائي الأول مع دومنغو، ولا عن أولى حوادث صداقتنا. وكان ذلك بالذات هو ما خطر على بالي. ولكن، لمن سأرسل بتلك الذكريات؟ سألتُ نفسي، قلقاً، ثمّ وجدتُ أنّ خير من أرسل إليه ذلك الاعتراف هو ولدي، الذي لم يعرفني، والذي لن يجد الفرصة غير هذه للتعرف على الحياة الحقيقية للرجل الذي كان أبوه...

بنيّ: في هذه اللحظة بدأتُ أكتب لك، فأحسستُ براحة شافية تتوج مجهودي وأنا أعرّي نفسي أمامكَ، وأقدم نفسي كما كنتُ وكما أنا الآن. لكنّي سرعان ما أدركتُ، وأنا أسطّر حياتي على تلك الأوراق، أنّ من الواجب أن يطّلع رجال آخرون على ما كتبتُ، حين يكون الوقت مناسباً لذلك، لأنّ في هذه الأوراق ما هو أكثر من حياة رجل بائس جرفته رياح التاريخ والمصائب، وحاصره مدّ السلطة وجزرها...

لم يحدث في بقيّة أيامي ما يستحق الإشارة وما يجب أن تعرفه غير ولادة سابع أبنائي، وهي طفلة رائعة أسميناها «لويسا» تنمو، بفضل الرب، صحيحة وسعيدة، جنباً إلى جنب مع أختك الأخرى لوريتو وأخيك بيتشي.

هذه الأشهر الأخيرة، التي لم أستطع فيها الكتابة، وأحياناً حتى الإملاء، إلّا قليلاً، كانت قلقاً دائماً، ولئن لم نمتْ فيها جوعاً فبفضل كرم بعض الأصدقاء الطيبين المكسيكيين. في آذار الماضي اضطررنا إلى العودة إلى هذه المدينة المكسيكية، حيث قوبلتُ بالكثير من التصفيق وحيث جاهدتُ بالسيف دفاعاً عن تلك النصوص الهامدة التي تدعى «دستوراً». وبفضل نفوذ صديقي ورفيقي الأصيل أندريس كنتانا روو فقد نجحتُ في أن

يقبلوني مسؤولاً عن القسم الأدبي لجريدة «حكومة جمهورية المكسيك»، لكنّ حالتي الصحية منعتني بعد أسابيع قليلة من مواصلة تلك المهمة، فاعتكفتُ في هذا البيت المظلم الصغير، حيث راحت لوريتو ولويسا وبيتشي يرقبون تدهور حالتي ويساعدون أمهم في وضع اللزقات على صدري ويستنشقون معي أبخرة الكافور التي تحاول تسهيل التنفس عليّ.

من حين لآخر أملي على حبيبتي المخلصة خاكوبا هذه الصفحات الأخيرة من رواية حياتي. اليوم هو الثالث من أيار، وقد أصبحتُ محموماً وتقيأت دماً مرتين. أعلم أنّها النهاية وأنتظر أن يحضر القسّ هذه الليلة ليسوّي حساباتي مع الرب. مع ذلك، كتبتُ من أيام إلى أمّي وحدثتها عن خططي في العودة إلى كوبا كي أستردّ صحتي. حاولتُ أن أمنحها آخر فرصة للشعور بالسعادة وأردتُ أن أرفع من معنوياتها بأن قلتُ لها بأن من المؤكد أنّ الحاكم العام الجديد سيصرح لي بالسفر، لأنّه لن يستقبل ثوريّاً، بل رجلاً منهكاً، رجلاً لا يتجاوز الخامسة والثلاثين، لكنّه عاجز عن الإقدام على أيّة مغامرة. «أنبههم لكي لا يفزعوا»، قلتُ لها، فكأنّ عودتي ممكنة حقّاً، «فلن يروا منّي غير خيالي أو غير طيفي. وقد أستطيع أن أستردّ بعض عافيتي من أكل الآخياكو [47] واليام[148] والباميا، ومن صحبة حضرتك بالطبع وصحبة شقيقاتي». طلبتُ حينها من خاكوبا أن تساعدني بالجلوس على السرير واستندتُ عليها لأوقع الرسالة وأكتب ملاحظة قصيرة أخيرة. هل يجب عليّ أن أقول لك إنّني تذكرتُ حينها ساعات العصر الساخنة في هافانا، من عشرين سنة، حين كنتُ أكتبُ قصائد الحبّ المتغطرسة والحارة تلك مستنداً على ظهر الخلاسيّة بتينيا؟ لقد غفرتْ لي خاكوبا ذلك الهراء أيضاً وهي التي غفرتْ لي كلّ طيشي، وغفر لي الرب، كما قال لي القس، كذبي ومجوني وغروري كما يغفر لأيّ نادم كذبه ومجونه وغروره.

حين استيقظتُ هذا العصر طلبتُ من خاكوبا أن تزيد في إنارة الغرفة فلبتْ طلبي، لكنّي لم أشعر بضياء أكبر، لأنّ الستارة المظلمة التي تلفني تخرج من

148- Ñame نبات درني شبيه بالبطاطا الحلوة يزرع في المناطق الاستوائية.

داخلي، تماماً كما خرجت رغبتي في تنفيذ آخر فعل من تحرر روحي من ذلك المكان المنزوي الذي خرجتْ منه كما قطرة الماء في الصحراء. عندها أمليتُ على خاكوبا رسالة كان يتحتّم عليّ أن أكتبها وأرسلها: أمّا المرسل إليه فهي أمّك، وقد شرحتُ لها فيها عزمي على أن أرسل لكَ هذه المذكرات وأن أطلب منك أن تفعل ما هو لازم لنشرها في الوقت المناسب، هذا إذا وجدتَ أنّ هناك نفعاً من نشر خصوصيات حياتي وحقيقتها.

في تلك اللحظة استيقظتْ في داخلي الرغبة لكتابة الشعر، ولا أدري إن كان السبب هو اقتراب نهايتي أم إنّه فعل التحرر الذي نتج عن كتابة تلك الرسالة الضرورية. عادَ الشعرُ لوداعي، بعد أن نسيني. الشعر الذي منحني سبباً للحياة وأوجد لي مكاناً في العالم. طلبتُ من خاكوبا أن تتناول الريشة ثانية، ورحتُ أهمهم، بين أبيات الشعر، كما اعتدتُ، بكلمات في وداع العالم وطلب الرحمة من الخالق... «صوتُ الربّ يبلغ مسامعي/ والرب لا يخدعُ عباده».

هل عليّ أن أضيف شيئاً على ما قلته، بنيّ؟ لم أستطع أن أحضنك ولا أن أقبّلك، لكنّك ستسامحني. حين تقرأ كلّ واحدة من هذه الأوراق، فستعرف أكثر من سواك الرجل الذي كنتُه أنا والذي أردتُ أن أكونه، فقد حكيتُ لك بصراحة ومن دون كذب ولا تكتّم، مسائل حياتي، من أكثرها فحشاً وصراحة إلى أكثرها خصوصيّة أو مدعاة للخجل، فأنا أفهم أنّ هذا الحوار ليس ممكناً إلّا حين يكون من دون أقنعة وبلا لف أو دوران، سواء أكان معك أم مع من سيقرؤون ما كتبتُ مستقبلاً، والذي سأكون بالنسبة إليهم حينئذٍ جزءاً من التاريخ...

استيبان: لا تحببني إن لم تستطع ذلك. لكن افهمني، وكن منصفاً معي ومع إرادتي.

أبوك، الذي يحبك حبّ الأب لابنه.

خوسيه ماريا هيريديا

***

«بعد ثلاثة أيام من الهذيان والاحتضار، مات خوسيه ماريا هيريديا إي هيريديا، الساعة العاشرة من صباح الخميس السابع من أيار من عام 1839، في بيته الكائن في الرقم 15 من شارع (أوسبيثيو دي سان نيكولاس). كان عمره يوم وفاته خمساً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام. دفن عصر اليوم ذاته في حالة من الفقر الذي ما بعده فقر، بحضور عدد قليل من الأصدقاء ومن دون أيّة مشاركة رسميّة، على الرغم من وظيفته السابقة نائباً في البرلمان. ويرقد جثمانه الآن في مدفن (معبد ماريا المقدسة دي لوس أنخلس)، في مقبرة (سانتا باولا). لم تنشر الصحافة المكسيكية نعياً واحداً. في اليوم التالي نشرت جريدة حكومة الجمهورية المكسيكية دعوة لشغل الوظيفة التي تركها شاغرة».

«طلب في وصيته أن تسلّم هذه الوثائق إلى السيدة دولورس خونكو، في (ماتانثاس)، بجزيرة كوبا، لكي تسلّمها هي، حين ترى ذلك مناسباً، إلى السيد استيبان خونكو».

«أشهدُ، أمام الربّ وأمام المستقبل، أنّ هذه هي القصة الحقيقية، على حدّ علمي، لحياة خوسيه ماريا هيريديا، الرجل الذي عاش ممجداً ومات منسيّاً. كان منشد نياغارا وأشجار النخيل ونجمة كوبا، الوطن الذي أحبّه في كلّ يوم من أيام حياته والذي عانى النفي من أجل استقلاله. لترقد روحه بسلام.

خاكوبا يانيث، أرملة هيريديا

مدينة المكسيك، في الثاني عشر من أيار من عام 1839»

***

وجد فرناندو تيري نفسَه، وهو يعلّق نظره في نجمة الصباح، شأن ملاح تائه، شاهداً على معجزة اختفائها اليومي. وراحت السماء، في انتقالها من الأسود إلى الرمادي، تفقد ظلمتها وتزدادُ وضوحاً، إلى أن التهمَ نورٌ جارف تلك النقطة المضيئة من الأرض: ومع وصول الضوء بدأت ترتفع الستارة التي تعلن عن ولادة نهار الرحيل.

- أنا جاهزة - قالت له دلفينا، وتلقى فرناندو حرارة المداعبة في قفاه.

- لا أدري كيف سأسافر - اعترف لها واستدار لينظر إليها.

كانت ليلة طويلة، ليلة شراب وكلام، وإن كان إنريكه هو أكثر من تكلّم: وراح الأحياءُ من «الساخرين» يتناوبون في قراءة مخطوطة «الكوميديا السوداء الكوبية»، وكأنهم في سباق تتابع، وبدؤوا من دون تركيز كبير بالاستماع إلى «موسيقى تعزف على الغيتار والعود والخشخيشات والطبلة معزوفة حسيّة خلاسيّة لها رائحة الجبل وطعم الرون، تقودكَ مخدوعاً إلى التفكير في ملذات دافئة»، بينما راحت تكبر عند أقدامهم جغرافيا «جزيرة ضائعة». بدأت مشاهدُ الرواية التمثيليّة ترسمُ أمام أعينهم قصة خرافية منذرة، مليئة بالسخرية والحزن، قادرة على سلب سنوات من واقع الحياة التي يحلمون بها وتفريغها في واقع رواية تعود بهم إلى سن العشرين، يستردّ إنريكه فيها، بحركاته المسرحية اللطيفة، مكانه ويتحول إلى مركز للعرض، كشأنه في مرات كثيرة: يوم اعترف لهم، مثلاً، بأنّه مِثليّ، أو يوم مزقته الشاحنة من دون أن يستطيع أيّ من الآخرين أن يعرف إن كان ما حدث انتحاراً عن سابق تصميم أم نزوة حظ مدبّرة، جمعت بين الشاحنة والضحيّة في مكان واحد ولحظة واحدة.

مع بزوغ الفجر تلاشى فعلُ التعويذة وأحسّ فرناندو بالسنوات تعود لتحتل موقعها النهائي في مصائر الشخصيات المأساويّة التي كان عليها أن تعيشها: من دون إرادة مستقلة ولا آمال ولا مستقبل منظور، يثقلها حمل ماضٍ ظالم قاهر مذلّ، موسوم بخيبات الأمل والشكوك والمسافات والكراهية.

بدأ البحر - البحر من جديد- الهادئ ظاهراً يكتسي، مع ضوء الشمس، بلون الذهب، ومن خلال الشرخ الذي خلّفته المباني الشامخة، تأمّل فرناندو صفحة مائه الصقيلة. كم سيمرّ من السنوات وهو بعيد عن البحر؟ سأل نفسه ونظر نحو الشرفة. راح آلبارو والأسود ميغيل أنخل وتوماس والوسيم أركاديو، بين زجاجات وكؤوس وعلب فارغة، يشربون القهوة

التي تكفل كونرادو بإعدادها، بينما اقتربتْ دلفينا منه وهي تحمل فنجانين. حينئذٍ تذكر فرناندو، فكأنّ ساعة موته قد تقررتْ في تلك اللحظة، جميع أيام حياته التي حُكم فيها عليه بشرب قهوته الصباحية وحيداً، من دون أن ينطق أحد بالتحذير البسيط الذي تسمعه الآن من امرأته:

- حذارِ، إنّها ساخنة.

لقد اكتشف أنّهم جميعاً كانوا شخصياتٍ بُنيت وحُرّكت ضمن سيناريو رسمته إراداتُ آخرين، إراداتٌ تقبع على هامش زمان محدد ومكان منزوع المشاعر والأحاسيس، قريب الشبه بصفحة من ورق، وكان له في ذلك ما أوضح له المأساة المستعصية التي تشلّ حركتهم: لم يكونوا غير دمى تقودها إرادات عليا، بمصير رسمته نزوة سادة الأوليمبوس، الذين لم يمنحوهم، وهم في ألقهم وكبريائهم، إلّا القليل من الفرح والقصائد المتبادلة والذكريات التي ما زال في الإمكان انتشالها وإنقاذها.

نظر فرناندو إلى أصدقائه ورأى أنّ آلبارو ربما لا يستحقّ أن يكون ذلك المدمن الذي لا يرتجى له صلاح، والمجرد من كلّ قدرة على كتابة الشعر، وأنّ النغرو كان يمكن أن يكون مؤمناً أبديّاً غير مشكوك في إيمانه، وربّما واحداً من تلك الشخصيات التي تمرّ في الحياة مرور الكرام من دون أن تتلفت ومن دون أن تعرف حتى لون بشرتها. أمّا نفاق توماس المفرط فيبدو له إدانة له، بينما صنعوا من الفلاح كونرادو لصّاً مكشوفاً مجرداً - عن قصد وتعمد- من البراءة التقليدية في الرجال من فصيلته وطبعه. حتى الإيمان في شعر أركاديو يبدو له غير متناسب، على الرغم من أنّه يعيش قصّة شعراء، فما عاد أحد يمارس ذلك الزهد الذي عفا عليه الزمن. بين كلّ هذه الحالات المفرطة غير المعتدلة، تبرز دلفينا غريبة في وسط حيوات الرواية الحزينة تلك، إذ يرى فيها الشخصيّة الوحيدة الحقيقية والنابضة والرائعة.

هل كان الأمر هكذا دائماً؟ سألَ نفسه إذ تذكّر التخبطات في حياة خوسيه ماريا هيريديا، إذ جرفه مدّ التاريخ وجزره، والسلطة والطموح، والذي وقع

فريسة دوامة حملته على الشعور، وهو في العشرين، بالقَدَر الروائي الذي رسم حياته. هل التمردُ ممكن؟ سأل نفسه سؤالاً إنكاريّاً، فقط لينكأ الجرحَ أكثر، فهو يعلم أن فعل التمرد هو أوّل ما مُنع عنهم، وهو الذي اجتثّ اجتثاثاً من جميع قدراته ورغباته. لم يبقَ له غير أن يواجه قدره، كما واجه عوليس قدره، حتى على الرغم منه؛ أو كما واجه هيريديا قدره، حتى النهاية.

- نعم...، لكنّي لا أعرف الآن كيف أسافر- قال فرناندو بعد تردّد، ووجد نفسه، كما في مرات أخرى كثيرة، مجبراً على تناول الرشفة الأولى من قهوته.

خبر تاريخي

بعد ثماني سنوات من وفاته، حين أغلقت مقبرة (سانتا باولا) من دون أن يتقدم أحدٌ باعتراض أو بشكوى، دفن رفات خوسيه ماريا هيريديا في قبر جماعي في مقبرة (تبللاك). ما من قبر يحمل اسمه، ولا أحدَ يعرف مصير الشاهد الأصلي، حيث نقشت مرثيّة تقول: «جثمانه يغطيه حجابُ القبر/ لكنّ العلمَ والشعرَ/ والفضيلة النقيّة التي تشتعل في روحه/ تجعله خالداً في الأرض وفي السماء».

الراهب باريلا مات أيضاً في المنفى. وقيل عنه وعن هيريديا إنّهما «أرضيا تماماً أفكار شعب مستعمَر رفض وإلى الأبد أن يكون محطة تجارية لنظام ملكي بعيد ومتهالك، وصار أمّة لا تستند إلّا إلى عدد قليل من القصائد وإلى جريدة من حجم صغير تصدر في المنفى. هكذا شكّل هيريديا وباريلا الروح الكوبيّة». صار باريلا، وقد طوبته الكنيسة الكاثوليكيّة على طريق نيل القداسة، أهمّ عالم لاهوت كاثوليكي في الولايات المتحدة في وقته، وإن رفض الفاتيكان، خضوعاً للإرادة الإسبانية، أن يعينه أسقفاً لنيويورك، بينما فقد في كوبا كلّ نفوذه تقريباً حين رفض معظم طلابه فكرة الاستقلال، واختاروا الإصلاح واغتنوا تحت الحكم الكولونيالي. مُنع

كتابه «دروس في الفلسفة»، الذي كان مقرراً في مناهج معهد ومدرسة (سان كارلوس) و(سان أمبروسيو)، في الجزيرة. مات في بلدة (سان أغوسطين)، في فلوريدا، في الخامس والعشرين من شباط من عام 1853، الساعة الثامنة والنصف مساء، وترك، حين موته، نسخاً عديدة من الكتاب المقدس ومجلدات من كتبه الفلسفيّة وكماناً قديماً ينقصه وتر. منذ عام 1911 يرقد رفاته في قاعة المؤتمرات في جامعة هافانا.

انكبّ خوسيه أنطونيو ساكو طوال سنين على تأليف كتابه الرائع «تاريخ العبودية»، بعد أن نشر مقالات وكراسات مناهضة للتوجهات التي كانت تدعو إلى ضمّ كوبا إلى إسبانيا والتي شاعت في كوبا خلال عقدي 1840 و 1850. بعد أن نفي في عام 1835، لم يعد إلى الجزيرة إلّا عام 1860، لكي يعاود الارتباط بالمحاولة الإصلاحية الأخيرة، التي فشلت هي الأخرى. كتب في المنفى: «منذ خمسة عشر عاماً وأنا أطلق الحسرة تلو الحسرة عليه [على الوطن]: أدركُ أنّني لن أعود إليه، وسيتقلّص احتمال عودتي، في ما يبدو، إن رفرف فوق قلاعها وأبراجها العلم الأمريكي. لن تنخفض جبهتي أمام نجومه البرّاقة، لأنّي إن تحملتُ العيش أجنبيّاً في بلاد أجنبية غريبة، فإنّي لن أتحمّل العيش أجنبيّاً على أرضي، فذلك سيكون في نظري أقسى تضحية». أمضى ساكو أيامه الأخيرة في بيت صغير يقع في جادة (غراثيا)، في برشلونة، وكان من جديد نائباً في البرلمان، يسعى إلى إدخال إصلاحات سياسية لصالح حكومة جزيرة كوبا. توفي عام 1879 وعمره اثنان وثمانون عاماً، في وقت شهد انتهاء عشر سنوات من الحرب بين كوبا وإسبانيا بعد توقيع معاهدة ثانخون[149]، التي لم تكن تحظى برضاه.

لم يتهيأ لفليكس تانكو، الذي توفي في الولايات المتحدة عام 1871، أن يرى روايته المناهضة للرق «بتنورا وروساليّا» مطبوعة، تلك الرواية

149- Zanjón وهي المعاهدة التي استسلم بموجبها جيش التحرير الكوبي للقوات الإسبانية ووضع بذلك حدٌّ لحرب السنوات العشر التي دارت رحاها بين 1868 و 1878

التي كتبها ربّما بتشجيع ودعم من دومنغو دل مونته. وتوفي خوسيه أنطونيو إيتشيباريا، الذي كان مرتبطاً بنشاطات انفصاليّة، في الولايات المتحدة أيضاً عام 1885. لقد قام إيتشيباريا، فضلاً عن نشر «مرآة الصبر» - الذي أيّد معظم المتخصصين صحة نسبتها، حتى وإن لم يجدوا تفسيراً مقبولاً للظهور الغريب لمخطوطة النص وللتنوع الذي يلاحظ على الأسلوب في العديد من فقراتها- والتعليق عليها، بتأليف روايته التاريخيّة «أنطونللي»، المستوحاة من أجواء هافانا في القرن السادس عشر، والتي ألّفها أيضاً بوحي من دومنغو دل مونته. لقد عُدّ كلّ من تانكو وإيتشيباريا مؤلفين قليلي الشأن، وما كان يقرأ لهما غير الدارسين.

في السابع عشر من حزيران من عام 1844، وبعد أربعة أيام من وصولها إلى كوبا، توفيتْ في (ماتانثاس)، بعمر الثلاثة والثلاثين عاماً، خاكوبا يانيث، أرملة هيريديا، فبقي أولادها الثلاثة، بنتان، لوريتو ولويسا، وولد، خوسيه دي خيسوس- تحت رعاية جدتهم لأبيهم، ماريا دي لا مرثيد هيريديا إي كامبوثانو، وبقيت وثائق الشاعر ومخطوطاته أيضاً تحت رعاية الجدة، التي عاشت سبعة عشر عاماً بعد وفاة ابنها. أمّا دولورِس خونكو إي موريخون، الشابة التي كان هام بها أيضاً سلفستري ألفونسو، فقد توفيت قريباً من (ماتانثاس)، عام 1863، بعد أن تزوجت للمرة الثانية من الإسباني أنخل ثاباتين.

أمّا دومنغو دل مونته فقد خرج من كوبا عام 1843، خشية الانتقام بسبب ما شاع من علاقته بخطط الإنكليز في دعم ثورة للعبيد في الجزيرة، بهدف نيل الاستقلال أو الانضمام إلى إنكلترا. لقد اتهمه الشاعر بلاثيدو-غابرييل دي لا كونثبثيون بالديس [25]، الذي أعدم رمياً بالرصاص عام 1844، بالمشاركة في المؤامرة، بينما انبرى للدفاع عنه الشاعر فرانثيسكو مانثانو، وكان هذا من قبلُ عبداً يدين بحريته إلى مساعي دل مونته وحملات جمع المال التي نظمها. لقد نفى مانثانو أيّة صلة للمحسن إليه بالمتآمرين المزعومين، وبُرئ دل مونته، الذي لم

يتهم رسمياً، من كلّ تهمة، لكنّه لم يعُدْ إلى كوبا، بل أمضى بقيّة حياته بين باريس ومدريد، مقيماً في بيوت فخمة، حيث عقد اجتماعات ودردشات تذكّر بتلك التي كان يحييها في (ماتانثاس) وهافانا، وقد ذكر نيكولاس آثكاراته[150] في إحدى تلك الدردشات «إنّ دل مونته كان يرى في هيريديا حالماً، وأعتقدُ أنّه لم يلتفتْ إلى دعوات المتآمر، بل حاول أن يثنيه عن بعض خططه»... لم يُعرف على وجه اليقين دوره في ما دعي بـ «مؤامرة الدرج»[151]، وقد توفي دومنغو دل مونته في مدريد عام 1853.

في شلالات نياغارا، وتكريماً لمنشدها العظيم، خوسيه ماريا هيريديا، علّقت لوحة برونزية كتبت عليها أبيات القصيدة الشهيرة، وبني له في (تولوكا) تمثال له، وعدّه الكثيرون شاعر الوطن. في عام 1902، حين أعلن استقلال الجزيرة، أطلق اسم خوسيه ماريا هيريديا على شارع (سانتياغو دي كوبا)، الذي ولد فيه. بعد قرنين من ولادته ما زال شعره يوصف بأنّه أول إعلان كبير عن النزعة الكوبية في الأدب والرومانسيّة في أمريكا الإسبانية، أمّا قصائده، من مثل قصيدة «نياغارا» وقصيدة «في هرم قرابين تشولولا» و «نشيد المنفي» و «نجمة كوبا» فتدرّس باعتبارها أرفعَ نماذج الشعر الغنائي الوليد في كوبا، وهي موضع استشهادِ المتخصصين والقراء. أمّا أشعاره الوطنية فقد جعلتْ منه شاعر كوبا المدني الكبير الأول والرومانسي الكبير في أمريكا، كما وصفه خوسيه مارتي واعترف به، حين استحضر ذكرى الشاعر الذي مات فقيراً منسيّاً.

مانتيّا، في الأول من كانون الثاني من عام -1999 الثالث والعشرين من حزيران من عام 2001.

150- Nicolás Azcárate (1828-1898). محام وكاتب وخطيب وصحفي كوبي.

151- Conspiración de la Escalera. حركة تمرد بين العبيد في كوبا عام 1844 لنيل حقوقهم من سلطات الاستعمار الإسباني. سميت بمؤامرة الدرج نسبة إلى الدرج الذي كان يربط إليه المتآمرون لانتزاع الاعترافات منهم.

إنّ الرواية تسرد وقائع سيرتين متوازيتين يفصل بينهما قرن ونصف من الزمان: واحدة خيالية مبنيّة على شخصية حقيقية، والثانية خيالية بحتة.

- سيرة خوسيه ماريا هيريديا (1803 - 1839)، وهو شخصيّة كوبيّة حقيقية، تاريخية وأدبية، تصرّف المؤلف، كما اعترف هو نفسه في مقدمته، في سرد وقائع حياتها وتكييفها بما يخدم الخطاب الروائي: «مع أنّ هذا النصّ مبنيٌّ على أحداثٍ تاريخيّة يمكن التحقق منها، ومع أنّه مدعومٌ بنصوص مأخوذة من رسائل ووثائق شخصيّة، فإنّ علينا أن ننظر إلى قصّة حياة خوسيه ماريّا هيريديا، مرويّة على لسان بطلها، على أنّها قصّة من نسج الخيال.»

- أمّا شخصيّة فرناندو تيري، فهي، كما قلنا، محض خيال، والرواية تضعها زمنيّاً في سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته وتسعينياته.

- ومع أنّ السيرتين مختلفتان كينونة وزماناً ووظيفة (الجامعي فرناندو يدرس الشاعر هيريديا ويبحث عن رواية حياته المفقودة) فقد عقد المؤلفُ بينهما شبهاً في العديد من ظروفهما: الملاحقة السياسيّة والنفي والصداقات المزروعة بالخيانة والعداوات والحنين إلى الوطن الذي نفيا منه.

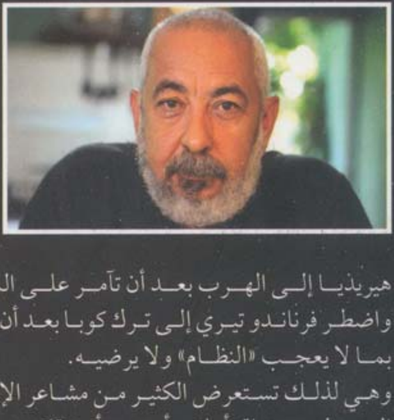

الرواية نصّ في الحنين إلى الوطن والشوق إلى العطن، بعدما اضطرتْ كلتا الشخصيتين إلى ترك البلد والتنقل بين المنافي: فقد اضطرّ خوسيه ماريّا هيريديا إلى الهرب بعد أن تآمر على المحتلّ الإسباني ونادى باستقلال بلده، واضطر فرناندو تيري إلى ترك كوبا بعد أن فُصل من عمله في الجامعة لأنّه «تكلّم» بما لا يعجب «النظام» ولا يرضيه.

وهي لذلك تستعرض الكثير من مشاعر الإنسان المنفي المعذّب الذي يحلم بالعودة إلى وطنه وعناق أهله وأحبته وأصدقائه، وهم أحياناً على مرمى حجر وبصر منه.

وأخيراً فإنّ هذه الرواية توصف بأنّها أكثرُ روايات پادورا طموحاً وتعقيداً وأتقنها بناءً. قال الناقد الكوبي أبيليو استيبيث عنها إنّها: «رواية حياتنا كلّنا. فهي مبنيّة على ألم، علينا أن نتجاوزه، وتقدم لنا عرضاً لما كنّا عليه وما نحن عليه». وتنبأ لها أن تكون «علامة مضيئة في طريق الرواية الكوبية المعاصرة».

ISBN 978-2843091797

9 782843 091797